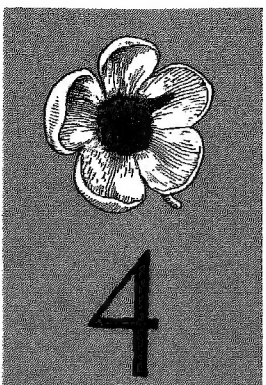


عيون الأدب الأجنبي

ترجمة : إلياس بديوي



4

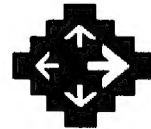
# مارسيل P البحث عن الزمن المفقود پروست



سأوم و عامورة



« البحث عن الزمن المفقود »  
مغامرة كائن رائع الذكاء ،  
مريض الإحساس ، ينطلق  
من طفولته في البحث عن  
السعادة المطلقة ، فلا يلقاها  
في الأسرة ولا في الحب ولا في  
العالم . ويرى نفسه منساقاً  
إلى البحث عن مطلق خارج  
الزمان ، شأن المتصوفين من  
الرهبان ، فيلقاه في الفن ، مما  
يؤدي إلى اختلاط الرواية  
بحياة الروائي ، وإلى انتهاء  
الكتاب لحظة يستطيع  
الراوي ، بعدما استعاد  
الزمان ، أن يبدأ كتابه ؛  
فتنقلب بذلك الحية الطويلة  
على نفسها لتخلق الحلقة  
العملاقة .  
رواية تقارب المليون كلمة ،  
بأشخاص تبلغ المائتين ،  
أشبه ما تكون بالتمثال  
الروحي الذي يصمدُ  
كالصخر في وجه العاديات .  
إنها ميراث الدمار الذي  
يصنعه الزمن بالأشياء  
والناس إن غفلت .



دار شرقيات للنشر والتوزيع



# البحث عن الزمن المفقود



## البحث عن الزمن المفقود

مارسيل بروس

ترجمه: الياس بديوي

A la recherche du temps temps perdu

Marcel Proust

Gallimard, Paris

© جميع حقوق النشر لهذه الترجمة الكاملة

محفوظة لدار شرقيات ١٩٩٤

الجزء الرابع:

صادوم وعمورة

Sodome et Gomorrhe

© الطبعة العربية الأولى لترجمة الجزء الرابع

دار شرقيات ١٩٩٨

## دار شرقيات للنشر والتوزيع

٥ شارع محمد صدقي، من هدى شعراوي

رقم بريدي ١١١١١ باب اللوق - القاهرة.

ت: ٢٩١٣. ٣٩٠ س. ت: ٢٩٩١٩٨

الغلاف الأخير: الصفحة الأخيرة من مخطوطة هذا

العمل بقلم مارسيل بروس

تصميم الغلاف: محي الدين اللباد

صدر هذا الكتاب

بالتعاون مع

البعثة الفرنسية للأبحاث والتعاون

قسم الترجمة

القاهرة



رقم الإيداع ١٩٩٧/١٤٦٨٩

الترقيم الدولي 3 - 066 - 283 - 977 ISBN

# مارسيل بروست البحث عن الزمن المفقود

ترجمة : إلياس بديوي

4

سادوم وعامورة

دار شرقيات للنشر والتوزيع



## الجزء الأول

أول ظهور للرجال - النساء. هم من نسل الذين وفرتهم نار السماء من  
سكان صادوم.

«فللمرأة عامورة وللرجل صادوم»  
(ألفريد دوفيني)

معلوم أنني قبلما مضيت في ذلك اليوم (اليوم الذي أقيمت فيه أمسية الأميرة «دوغيرمانت») لأقوم بزيارة الدوق والدوقة التي جمعت علي روايتها كنت ترصدت عودتهما وأتفق لي، في أثناء فترة ترصدي، اكتشاف يتصل على وجه الخصوص بالسيد «دوشارلوس»، ولكنه هام في حد ذاته إلى حد أنني أرجأت روايته إلى الآن وحتى الفترة التي يسعني فيها أن أخصه بالمكان والمساحة المتوخيين. وكنت، كما قلت، قد تخلّيت عن الإطلالة الرائعة المعدة إعداداً مريحاً إلى حد بعيد في أعلى المنزل، ومنها تحيط العين بالسفوح المتموجة التي تصعد عبرها حتى فندق «بريكنيني» والتي يزينا زينة تبهج العين على النحو الإيطالي البرج الوردي الذي يعلو المستودع العائد للمركيز «دو فريكور». وكنت رأيت أقرب إلى الواقع، حينما ظننت الدوق والدوقة على وشك العودة، أن أأخذ موقعا على الدرج. وقد داخلني بعض الأسف على مقامي في الأعلى. ولكنما كان لدي في تلك الساعة، وهي ساعة ما بعد الغداء، القليل مما أسف له، فلعلني ما كنت رأيت، شأني في الصباح، أشخاص اللوحات الصغيرين جداً الذين ينقلب إليهم عن بعد خدام فندق «بريكنيني» و«تريم»، يتسلقون الهويانا السفح الوعر ويبددهم منفضة، بين أوراق البلق العريضة الشفافة التي تبرز بروزاً حلواً على أكتاف الجبال الحمراء. ولئن فائتي تأمل الجيولوجي فقد حزت على الأقل تأمل عالم النبات وكنت أنظر عبر منافذ الدرج شجيرة الدوقة والنبته الثمينتين المعروضتين في الباحة بمثل الإلحاح الذي نبهني في إرسال الشبان الذين حان زواجهم في نزهات، وكنت أتساءل إن كانت الحشرة غير المحتملة سوف تجيء بفعل مضادفة من صنع العناية الإلهية لزيارة المدقة التي تقدم ذاتها وتهمل في آن. وإذ بحث في الفضول جرأة تتنامى شيئاً فشيئاً انحدرت حتى نافذة الطابق الأرضي المفتوحة بدورها وكانت مضاربها نصف مغلقة. كنت أسمع بوضوح «جوييان» وهو يستعد للرحيل، وما كان يستطيع اكتشافني خلف ستارتي حيث مكثت لا حراك بي إلى حين ارتيمت جانباً على نحو مفاجئ مخافة أن يراني السيد «دوشارلوس» الذي كان يجتاز الباحة وهو يمضي الهويانا في طريقه إلى منزل السيدة «دو فيلبا ريزيس» بطيئاً متشيباً يزيد وضوح النهار شيخوخة. لقد انبغى أن تلم وعكة بالسيدة «دو فيلبا ريزيس» (نتيجة لمرض المركيز «فيير بوا» الذي كان شخصياً على خلاف قاتل وإياه) كيما يقوم السيد «دو شارلوس»، ربما لأول مرة في حياته، بزيارة في تلك الساعة. ذلك لأن البارون بهذا التفرد الذي يطبع آل «غيرمانت» إذ يعدلون في الحياة المجتمعية، بدلاً من التقيد بها، وفق عاداتهم الشخصية (وهي غير مجتمعية فيما يعتقدون. وإنها أهل بالتالي لأن يُلَّ أمامها هذا الشيء الذي لا قيمة له، يعني حياة المجتمعات - من ذلك أن السيدة «دومارصانت» ما كان لها يوم محدد، ولكنها تستقبل صديقاتها كل صباح من العاشرة إلى الظهر)، كان يحتفظ بهذا الوقت للقراءة والبحث عن التحف العتيقة، الخ، ولا يقوم البتة بزيارة إلا ما بين

الرابعة والسادسة مساءً. وفي السادسة كان يمضي إلى مركز الفروسية أو للتنزه في «الغابة». وقمت بعد لحظة بحركة ارتدادية كي لا يصبرني «جوبيان»، نعمًا قليل ساعة انطلاقه إلى المكتب الذي لا يعود منه إلا للعشاء، وهو حتى لا يفعل دائماً منذ أسبوع انقضى على ذهاب ابنة أخيه بصحبة المتدربات عندها إلى الريف بغية إنجاز فسطان في منزل واحدة من زبائننا. ثم عزمت، وقد تبين أن ليس من يستطيع مشاهدتي، أن لا أكلف نفسي عناءً من بعد مخافة أن أفوت عليّ، إمّا وقعت المعجزة، الوصول الذي يكاد أن يكون الأمل فيه مستحيلًا (عبر الكثير من العقبات والبعد والمخاطر المعاكسة والأخطار)، وصول الحشرة المرسلة من البعيد البعيد إلى العذراء التي تطاول انتظارها منذ فترة طالت. كنت أعلم أن ذاك الانتظار لم يكن أكثر سلبية منه عند الزهرة الفحل التي استدارت أسديتها تلقائياً كي تستطيع الحشرة استقبالها بيسر أكبر. كذلك هو شأن الزهرة الأنثى التي كانت هنا، فلعلها كانت تقوّس «حاملات سماتها»، إن جاءت الحشرة، وتقطع بحركة تخفي على الملاحظة، بنية أن تدع لها أن تغلّ فيها بصورة أفضل، مثلها مثل شابة مأكرة ولكنها متقدمة العاطفة، نصف الطريق إليها. إن قوانين عالم النبات إنما تحكمها بدورها قوانين أكثر فأكثر سموًا. ولئن كانت زيارة الحشرة، ونعني جلب بذرة زهرة أخرى، ضرورية بعمامة لتلقيح الزهرة فلأن التلقيح الذاتي، تلقيح الزهرة نفسها بنفسها، قد يحمل معه، كما هي الزيجات التي تتكرر في الأسرة ذاتها، انحطاط النوع والعقم في حين يهبّ التهجين الذي تقوم به الحشرات، يهبّ الأجيال اللاحقة من النوع نفسه زحماً تجهله الأجيال السابقة. ولكن هذه الانطلاقة ربما تجاوزت الحد فتنامى بها النوع تنامياً مفرطاً. وإذ ذاك مثلما مضاد السمين يدفع المرض، ومثلما الغدة الدرقية تنظم كرشنا وتشكل الهزيمة عقاباً للكبرياء والتعب للمتعب، ومثلما يريح النوم بدوره من التعب هكذا يجيء فعل تلقيح ذاتي استثنائي في الوقت المناسب ليشد البراغي والمكايح فيعيد إلى القاعدة السوية الزهرة التي سبق أن حادت عنها بما يجاوز الحد. كانت أفكارني قد اتبعت منحى سوف أصفه فيما بعد وكنت استخلصت مذ ذاك من تحايل الأزهار الظاهر نتيجة تنسحب على قسم لا واع من الأعمال الأدبية حينما أبصرت السيد «دو شارلوس» خارجاً من منزل المركيزة. ولم يكن انقضى منذ دخوله إلا بضعة دقائق. فربما علم من قريته العجوز نفسها أو من أحد الخدام فحسب التحسن الكبير أو بالأحرى الشفاء التام مما لم يكن لدى السيدة «دوفيلباريزيس» سوى مجرد وعكة. كان السيد «دو شارلوس» في هذه اللحظة التي لا يحسب أحداً يراه فيها وقد أسدل جفنيه صوب الشمس، كان قد راخى على وجهه هذا التوتر وأطفأ هذه الحيوية المصطنعة اللذين تستقيهما عنده حرارة الحديث وقوة الإرادة. كان شاحباً كقطعة مرمر، كبير حجم الأنف وقسماته الرقيقة لا تزودها من بعد نظرة حازمة بدلالة مختلفة يمكن أن تشوّه جمال خطوطها. كان يبدو، ولا شيء فيه من بعد إلا لآل «غير مانت»، وقد نقش مذ ذاك، هو «بالاميد» الخامس عشر، في كنيسة «كومبريه». ولكنما كانت تلك القسمات العامة لكامل الأسرة تنخذ في وجه السيد «دو شارلوس» رهافة أكثر روحانية وأكثر عذوبة على وجه الخصوص. وكنت آسف له أن يزيف عادة بهذا القدر من صنوف العنف والغرابات المزعجة وأشكال القيل والقال والقسوة وسرعة التأثر والصلف، أن يخفي خلف فظاظة مستعارة الوداعة والطيبة اللتين أراهما تنداحان على وجهه بهذا القدر من البساطة ساعة يغادر منزل السيدة «دوفيلباريزيس». كان يبدو، إذ ترفّ عيناه صوب الشمس، وكأنه يكاد يتسمم وألفيت في وجهه، وقد برز لي مرتاحاً وكأنما على طبيعته، شيئاً من المودة

والسكينة بلغ حدّاً لم أستطع معه الحؤول دون أن أفكر كم لعل السيد «دوشارلوس» كان سيغضب لو أمكن أن يعلم أنه مراقب. ذلك لأن ما كان يذكرني به هذا الرجل الذي كان مولهاً إلى حد بعيد، الذي كان يباهي إلى أبعد حدّ بالفحولة والذي يبدو له الجميع مختئاً على نحو بغيض، ما كان يدفعني إلى التفكير به فجأة لشدة ما يحمل منه بصورة عابرة القسّمات والتعبير والابتسامة إنما كان امرأة.

كنت أهم بتكليف نفسي عناء جديداً كي لا يستطيع مشاهدتي، فلم يتسع لي الوقت ولا ظلت بي حاجة. فما الذي رأيته وجهاً لوجه، في هذه الباحة التي لم يلتقيا بالتأكيد يوماً فيها (إذ لا يجيء السيد «دوشارلوس» إلى فندق آل «غيرمانت»، إلا بعد الظهر ساعة يكون «جويان» في مكتبه، كان البارون بعد ما فتح عينيه وسعهما، وكانتا نصف مغلفتين، ينظر بانتباه شديد إلى صانع الصداري القديم على عتبة دكانه فيما تسمرّ هذا الأخير فجأة في مكانه أمام السيد «دوشارلوس» وهو يتغرس مثلماً التبتة ويتأمل باندعاش كرش البارون المتشيخ. ولكن الأمر الأكثر غرابة أن وقفة «جويان»، بعد ما تغيّرت وقفة السيد «دوشارلوس»، شرعت في الحال تنسجم معها وكأنما وفق قوانين فن خفي فالبارون الذي يحاول الآن إخفاء الانطباع الذي أحس به ولكنه يبدو، على الرغم من لامبالاته المتكلفة، وكأنه يتبعده أسفاً، كان يذهب ويجيء وينظر في الفراغ بالطريقة التي يظن أنها تبرز أفضل ما تبرز جمال حدقتي عينيه، ويتخذ هيئة مزهوة مهملّة مضحكة. فكان أن فقد «جويان» في الحال الهيئة المتواضعة الطيبة التي عهدتها دائماً فيه ووقف منتصب الهامة - ينظر بذلك البارون تماماً - وهو يولي قامته هيئة مستكبرة ويضع قبضته على خصره بوقاحة بشعة ويبرز قفاه ويتخذ أوضاعاً بالنسج الذي لعل زهرة الأوركيدا كانت تبديه إزاء الدبور الذي طلع فجأة غير متوقع. وما كنت أعلم إمكان أن يبدو منفراً إلى هذا الحد. ولكنني كنت أجهل كذلك أنه قادر أن يقوم على نحو مفاجئ بدوره في هذا النوع من مشهد الأبكمين الذي يبدو (مع أنه يقف للمرة الأولى في حضرة السيد «دوشارلوس») أنه جرى تكراره فترة طويلة. - وليس يبلغ المرء لثقائياً هذا الكمال إلا حينما يلتقي في بلاد الغربة مواطناً له يجري التفاهم إذ ذاك معه من لقاء ذاته إذ الوساطة متماثلة، ودون أن يكون أحدهما رأى الآخر في يوم.

لم يكن هذا المشهد على أي حال مضحكاً على نحو إيجابي فلقد كانت تطبعه غرابة، أو إن شئت فطرة، كان جمالها آخذاً في التنامي. فعبثاً كان السيد «دوشارلوس» يتخذ هيئة المتجرد، ويخفض جفنيه ساهياً، لقد كان يرتفع بهما بين الحين والحين ويلقي إذ ذاك على «جويان» نظرة فاحصة. لكنّما (ولأنه كان يظنّ دونما شك أنه لا يمكن لمشهد كهذا أن يتناول إلى مالا حدود في هذا المكان، إما لأسباب سوف ندرکها فيما بعد، وإما من منطلق هذا الإحساس بقصر الأشياء جميعها والذي يجعلنا نبغي سداد كل ضربة نضربها ويجعل مشهد أي حب مؤثراً إلى هذا الحد) كان السيد «دوشارلوس» يتدبر أمره في كل مرة ينظر فيها إلى «جويان» كي تتوافق تلك النظرة وكلمة ما، وهو ما كان يجعلها مختلفة إلى ما لا حدود عن النظرات التي نلقينا عادة على شخص نعرفه أو لا نعرفه. كان ينظر إلى «جويان» محدّباً تحديق من يزمع أن يقول لك: «أستميحك عنراً لتطفلي، ولكنني أرى خيطاً أبيض طويلاً عالقاً على ظهرك» أو «لا بد أنني غير مخطئ، فإنك حتماً من «زوريخ» أنت أيضاً ويبدو أنني بالتأكيد التقيتك كثيراً لدى بائع الآثار». على هذا النحو

كان يبدو السؤال نفسه، كل دقيقتين، موجهاً بتركيز شديد إلى «جوبيان» في غمرة عين السيد «دو شارلوس»، كممثل جمل «بيتهوفن» الاستفهامية تلك التي تتردد تردداً غير محدود على فترات متساوية والتي تُعدُّ - بفيض مفرط من التحضيرات - لبروز فكرة جديدة، وتبدل في النغمة، و«عودة لحن». إلا أن جمال نظرات السيد «دو شارلوس» و«جوبيان» كان ناجماً بالعكس من أن هذه النظرات ما كان يبدو، على الأقل مؤقتاً، أنها تهدف إلى الإيصال إلى شيء. وإنما كنت أرى البارون و«جوبيان» للمرة الأولى يكشفان عن ذلك الجمال. ففي عيني كل منهما طلعت منذ قليل لا سماء زوربخ، بل سماء مدينة شرقية لم أحزر بعد اسمها. وأياً تكن النقطة التي كان يمكن أن تستوقف السيد «دو شارلوس» وصانع الصداري فقد كان يبدو أن الاتفاق بينهما قد أبرم وأن ليست تلك النظرات اللامجدية سوى توطئات طقسية شبيهة بالحفلات التي تقام قبل زواج مقرر. لكنهما، إن اقترنا أكثر من الطبيعة - وإن كثرة وجوه التشبيه إنما يزيد من كونها طبيعية أن ذات الرجل إن تفحصته على مدى بضعة دقائق بدا لك على التوالي رجلاً أو رجلاً طائراً، أو رجلاً حشرة، إلخ - لكنهما طائران، ذكر وأنثى يحاول الذكر التقدم فيما لا تستجيب الأنثى - «جوبيان» - من بعد بأية إشارة لهذه المناورة ولكنها تنظر إلى صديقها الجديد دونما استغراب، نظرة ثابتة ساهية تخكم دونما شك أنها أكثر إثارة ومجدية وحدها، بما أن الذكر قام بالخطوات الأولى، فتكتفي بصقل ريشها. وبدا أخيراً أن لا اكتراث «جوبيان» لم يعد كافياً له، ولم يظل بين يقينه أنه استمال أحدهم وحمله على ملاحظته واشتهائه سوى خطوة يخطوها وخرج «جوبيان»، وقد قرر الذهاب إلى عمله، من البوابة الرئيسية. على أنه لم ينطلق إلا بعدما أدار رأسه مرتين أو ثلاثاً إلى الشارع حيث اندفع البارون بقوة، وهو يرتعد مخافة أن يفقد أثره (ويصفر بعنترية دون أن يغفل أن يقول للبواب صائحاً «إلى اللقاء»، ولكن هذا الأخير لم يسمع حتى ماقال، وهو نصف ثمل يقدم طعاماً المدعوين في الركن القصي من مطبخه). وفي اللحظة نفسها التي اجتاز فيها السيد «دو شارلوس» البوابة الرئيسية وهو يصفر مثل دبور كبير دخل آخر، وكان حقيقياً، إلى الباحة. ومن ذا يعلم إن لم يكن ذلك الذي انتظرته زهرة الأوركيدا منذ زمن طويل وهو يقبل الآن حاملاً إليها الطلع النادر جداً الذي ربما مكثت عزراء بدونه؟ ولكنني سهوت عن متابعة لهو الحشرة، ذلك لأن «جوبيان» استرعى انتباهي أكثر فقد عاد (ربما ليأخذ رزمة حملها فيما بعد وكان نسيها من جراء الانفعال الذي سببه له ظهور السيد «دو شارلوس»، وربما لمحض سبب أقرب أن يكون طبيعياً) يتبعه البارون. وقد سأل هذا الأخير، بعد ما صمم على تسريع الأمور، سأل صانع الصداري نارا ولكنه لاحظ في الحال: «إنني أسألك نارا ولكنني أرى أنني نسييت علبة «السيكار». وتغلبت قوانين الضيافة على قواعد الدلال، وقال صانع الصداري الذي حل الفرح على محياه محل الازدراء: «ادخل وسوف تعطى كل ما تشاء». وانغلق باب الدكان عليهما ولم يسعني سماع شيء من بعد. وكنت قد ضيعت الدبور وما كنت أعلم إن كان الحشرة المناسبة لزهرة الأوركيدا ولكنني ما عدت أشك، فيما يخص حشرة شديدة الندرة وزهرة سجيئة، بإمكان اقترانهما بأعجوبة، في حين أن السيد «دو شارلوس»، (والأمر محض تشبيه للمصادفات التي من فعل العناية الإلهية، أية كانت، ودون أقل ادعاء علمي بتقريب بعض قوانين علم النبات مما يسمونه أحياناً وبسمت التسمية اللوطة)، وما كان يرتاد منذ سنوات هذا المنزل إلا في ساعات لا يكون فيها «جوبيان» هناك. كان قد التقى، بمصادفة وعكة أملت بالسيدة «دوفيلباريزيس»، صانع الصداري ومعه الحظ السعيد الذي يدخره لأناس

من صنف البارون أحد هؤلاء الأفراد الذين يمكن أن يكونوا أوفر شباباً إلى ما لا حدود من «جوبيان» وأكثر جمالاً، الرجل المقدر سلفاً كيما يحصل هؤلاء على حصتهم من الملذات على هذه الأرض، الرجل الذي لا يحب سوى المسنين.

ما جئت على ذكره هنا على أية حال هو ما كنت لن أدركه إلا بعد بضع دقائق لشدة ما تلتصق بالواقع هذه الخصائص في أن يكون لا مرئياً إلى أن تجرده منها مناسبة ما. لقد كنت في تلك اللحظة على أية حال في أشد الإزعاج لعدم سماعي من بعد حديث صانع الصداري السابق والبارون. ولخت حينذاك الدكان المعروضة للإيجار والتي يفصلها عن دكان «جوبيان» محض قاطع رقيق جداً. وما كان عليّ لبلوغ المكان سوى معاودة الصعود إلى شقتنا والذهاب إلى المطبخ والانحدار على درج الخدمة إلى الأقبية والمروور فيها من الداخل على كامل عرض الباحة ثم بعد ما أصل في القبر إلى المكان الذي كان تجار الموبيليا يحشر فيه أخشابه منذ بضعة شهور مضت وحيث كان يعتزم «جوبيان» خزن فحمه، صعدو الدرجات القليلة التي تفضي إلى داخل الدكان. وهكذا أُنمّ قطع كامل طريقي غير مكشوف ولا يراني أحد. كانت تلك الوسيلة الأوفر حذراً ولم تكن تلك التي تبنيتها بل سرت بمحاذاة الجدران ودرت في الهواء الطلق حول الباحة أجهد ألا يراني أحد. وإن لم يقع ذلك فظنني أنني أدين بالأمر للمصادفة أكثر منه لتعقلي. وإنني أرى ثلاثة أسباب ممكنة، على افتراض أن ثمة سبباً، لاتخاذي قراراً متهوراً إلي هذا الحد حين كان السير في القبر بمثل ذلك الأمان. نفاذ صبري أولاً، وربما بعد ذلك تذكر غائم للمشاهد في «موجوفان». وأنا أحتج أمام نافذة الأنسة «فانتوي». والواقع أن الأمور التي شهدت من هذا القبيل حملت دائماً في إخراجها الطابع الأكثر تهوراً والأقل حقيقة، كما لو انبغى أن لا تكافئ مثل هذه الإفشاءات سوى فعلة مليقة بالخاطر مع أنها تجري في جزء منها في الخفاء. وأخيراً أكاد لا أجرو على الإقرار بالسبب الثالث الذي كان في اعتقادي التام حاسماً على نحو لا شعوري، وذلك من جراء طابعه الصبباني. فمنذ أن تابعت بكثير من التفصيل حرب «البوير»، كيما أقتفي آثار مبادئ «سان لو» العسكرية - وأشهد كذبها - رأيتني مرغماً على إعادة قراءة قصص قديمة عن الاكتشافات والرحلات. وقد شغفت بتلك القصص فكنت أطبقها في الحياة العادية كي أبعث في نفسي مقدراً أكبر من الشجاعة. فحينما أرغمتني بعض التوبات على المكوث عدة أيام وعدة ليال وقد حرمت لا النوم فحسب بل الاستلقاء والشراب والطعام وحين يبلغ الإنهاك والعذاب مبلغاً أنصوّر معه أنني لن أتخطأهما في يوم، حينذاك كنت أفكر بذلك المسافر الملقى على رمل الشاطئ وقد سمته الأعشاب الضارة، وأرجفته الحمى في ثيابه التي بللها ماء البحر، والذي كان يحسّ مع ذلك أنه تحسن بعد انقضاء يومين فيعاود المسير على غير هدى باحثاً عن سكان أيّ سكان وربما كانوا من آكلي لحوم البشر. كان مثالهم يشدّ من عزائمي ويردّ لي الأمل فأخجل أن ألت بي ساعة تخاذل. وإذا أفكر بالبوير الذين ما كانوا يخشون، والجيوش الإنكليزية في مواجهتهم، أن يعرضوا أنفسهم حينما ينبغي لهم أن يجتازوا أجزاء من الأرض المكشوفة قبل بلوغ دغل من الشجر، كنت أفكر قائلاً: «ما أحلى أن أكون رعيدياً أكثر منهم حينما مسرح العمليات مجرد باحثنا وحينما السيف الوحيد الذي يفترض أن أخشاه، أنا الذي اتفق لي منذ فترة قريبة عدة مبارزات دون أن يتأبني خوف بسبب قضية «دريغوس»، هو عيون الجيران ولديهم اهتمامات غير النظر في الباحة».



ولكن حين أصبحتُ في الدكان، وأنا أنفادى إحداه آية فرقة في الأرضية الخشبية إذ تبينت أن أضعف ضجة في دكان «جويان» كانت تسمع في دكاني، فكُرت كم كان «جويان» والسيد «دوشارلوس» قليلي الحذر وكم كان الحظ إلى جانبهما.

وما كنت أجرؤ على الحركة. لقد سبق بالتأكيد أن نقل سائس آل «غيرمات»، مستغلاً دونما شك غيابهم، إلى الدكان التي أقف فيها سلفاً ركن حتى ذلك في المرآب. ولو ارتقيته لأمكنني أن أفتح الكوة وأسمع كما لو كنت عند «جويان» بعينه. ولكنني كنت أخشى أن تصدر عني ضجة. وكان ذلك غير مجد بأي حال، فلم يقع عليّ حتى أن أسف لوصولي بعد بضع دقائق إلى دكاني. فإني أفترض، حسبما سمعت بادئ الوقت في دكان «جويان» وكان مجرد أصوات مغمغمة، أن القليل من الكلمات جرى النطق بها. صحيح أن هذه الأصوات بلغت من العنف مبلغاً ربما أمكنني الظن معه، لو لم تكن استعبدت عليّ الدوام في خانة الجواب بأنة موازية، أن شخصاً كان يذبح آخر في جانبي وأن القاتل والضحية التي بعثت حياة كانا يستحمان بعد ذلك ليمحوا آثار الجريمة. وخلصت فيما بعد إلى أن ثمة أمراً يمثل صخب العذاب هو اللذة ولا سيما إن انضافت إليها - في غياب الخوف من مجيء الأطفال، والأمر غير وارد هنا على الرغم من مثال «الأسطورة الذهبية» - اهتمامات مباشرة بالنظافة. وأخيراً، وبعد انقضاء نصف ساعة تقريباً (كنت في أثناءها قد ارتقيت سلمى أختلس الخطى كي أنظر عبر الكوة التي لم أفتحها)، بوشر بالحديث. كان «جويان» يرفض بقوة المال الذي يبتغي السيد «دوشارلوس» أن يعطيه إياه.

ثم خطا السيد «دوشارلوس» خطوة خارج الدكان. «لِمَ ذُفقت مخلوق على هذه الشاكلة، يقول للبارون بلهجة مغناجة، فما أجملها اللحية الجميلة!» فأجاب البارون: «تفأ له! باللقرف». وكان لا يزال يتباطأ على عتبة الباب ويسأل «جويان» معلومات حول الحي. «ترك لا تعلم شيئاً عن بائع الكستناء في الحي، لا إلى اليسار، فما أشنعه، بل في الجانب الزوجي، عتريس ضخمة أسود تماماً؟ والصيدلاني في الجهة المقابلة لديه درّاج لطيف جداً يحمل أدويته». وليس من شك أن «جويان» استاء من تلك الأسئلة، فقد أجاب وهو ينتصب بامتعاض امرأة مغناج مخدوعة: «يخيّل إليّ أنك تحمل فؤاداً متقلباً». ولا بد أن هذا العتاب الذي ألقي بلهجة وجعي باردة متكلفة أثر في السيد «دوشارلوس» الذي وجّه إلى «جويان» كيما يغطي على الانطباع السيء الذي خلفه فضوله، ولكننا فعل بصوت أخفض من أن أميز تماماً الكلمات، رجاءً ربما استلزم دون شك أن يطيل إقامتهما في الدكان وأثر إلى حد في صانع الصداري كيما يزيل ألمه، إذ تأمل وجه البارون السمين المحتقن تحت شعره المتشيب تأمل غارق في السعادة أقدم منذ قليل على دغدغة اعتزازه بنفسه، وقال «جويان»، وقد عزم على منح السيد «دوشارلوس» ما سبق أن سأله إياه منذ قليل، قال للبارون، بعد ملاحظات خلو من الكياسة من مثل: «ما أضخمها أداة تحملها!» بهيئة بائسة بادية التأثير متفوّقة ممتنة: «أجل، هيّا، أيها الصبي الكبير!».

وعاد السيد «دوشارلوس» يقول بإصرار: «إن كنت أعود إلى مسألة سائق الحافلة الكهربائية فلأن ذلك، بصرف النظر عن كلّ شيء، يمكن أن يأتي ببعض الفائدة بشأن العودة. فإنه يتفق لي، شأن الخليفة الذي كان يطوف في بغداد ويظنونه مجرد تاجر، أن أتنازل للحاق بشخصية غريبة فتية أشاع قدها السرور في نفسي».

وقمت هنا بالملاحظة عينها التي سبق أن وجهتها حول «بيرغوت». فلو وقع عليه في يوم أن يقدم لإجابة أمام المحكمة لما استخدم جملًا من شأنها إقناع القضاة، بل ينتقي من تلك الجمل «البيرغوتية» التي يوحى بها إليه مزاجه الأدبي الخاص بصورة طبيعية وتجعله يصادف متعة في استخدامها. كان السيد «دوشارلوس» على نحو مماثل يستخدم مع صانع الصداري اللغة عينها التي لعل له لجأ إليها مع أرباب مجتمع من عصبته، بل يبالغ في المستغرب من عاداتها إما لأن الرجل الذي يجهد في مكافحته كان يدفعه إلى عجرة مفرطة، وإما لأنه يرغبه، إذ يحول دون أن يتمالك نفسه (لأنك أكثر اضطراباً في حضرة من ليس من وسطك)، على الكشف عن طبيعته وتعريتها، وكانت بالحقيقة مستكبرة وعلى شيء من الجنون، حسبما تقول السيدة «دوغيرمانت». وأردف يقول: «وكي لا أفقد أثرها أقفز على غرار أستاذ صغير، على غرار طبيب فتي وسيم، في ذات الحافلة التي تستقلها الشخصية اللطيفة التي لا تتحدث عنها بصيغة التأنيث إلا إبتاعاً للقاعدة (مثلما نقول في حديثنا إلى أحد الملوك<sup>(١)</sup>): هل تشعر جلالتك أنها بصحة جيدة؟». فإن بدلت الحافلة أخذت، ربما مع جرائم الطاعون، هذا الشيء الذي لا يصدق والمدعو «تديلا»، أي رقماً ليس على الدوام الرقم ١ مع أنه يسلم لي أنا! وهكذا أبدل «العربة» ثلاث أو حتى أربع مرات. وأراني أحياناً أرسو في الحادية عشرة مساءً في محطة «أورليان»، ولا بد من العودة! ولو اقتصر الأمر على محطة «أورليان» فحسب! ولكنني مضيت مرة، على سبيل المثال، إذ لم أفلح في مباشرة الحديث قبل ذلك، حتى «أورليان» نفسها في واحدة من تلك العربات الشنيعة حيث المنظر المتوافر، بين مثلثات من القطع المشغولة تسمى «الشبك»، قوامه صور الروائع المعمارية الرئيسية العائدة لشبكة الخطوط. ولم يكن ثمة سوى مكان واحد خال، وكان قبالي بمثابة أثر تاريخي «منظر» لكاتدرائية «أورليان»، وهي الأقبح في فرنسه وتورني في النظر إليها على هذا النحو رغماً عني ما يماثل لإرهاقي لو أرغمت على تثبيت أبراجها داخل الكرة الزجاجية التي لمسكات الريش البصرية تلك التي تورثك رمدًا. ونزلت في محلة «أوبريه» في الوقت الذي نزلت صغيرتي اللطيفة التي كانت أسرتها، من أسف، تنتظرها على الرصيف (في حين كنت أفترض فيها جميع العيوب باستثناء أن يكون لها أسرة! وكان عزائي الوحيد، بانتظار القطار الذي سيعيدني إلي باريس، منزل «ديانا» في «بواتييه». وعشاً فتن فيما مضى لب أحد أسلافي الملكيين فإنني كنت فضلت جمالاً أوفر حياة. ولذلك وبغية تضادي ضمير تلك الرجعات وحيداً تراني راغباً في معرفة نادل في عربات النوم، وسائق حافلة. وختم البارون حديثة قائلاً: «لا يصدك كلامي على أي حال، فكل ذلك مسألة طريقة. فإنني فيما يخص شبان العالم الراقي مثلاً لا أرغب في أي امتلاك جسدي ولكنني لا أطمئن نفساً إلا بعد ما أكون لمستهم، ولست أعني مادياً بل أعني لمس الوتر الحساس لديهم. فحالماً لا يكف شاب عن الكتابة إليّ، عوضاً عن ترك رسائل دون جواب، ويصبح بتصرفني أدبياً حتى تهدأ نفسي أو ربما هدأت على الأقل لو لم يداخلني بعد قليل هم آخر غيره. في الأمر شيء من الغرابة، أليس كذلك؟ وإذ نحن بصدد شبان المجتمع الراقي، ألتست تعرف أحداً من بين الذين يجيئون إلي هنا؟» - «لا يا صغيري. آه بلى، أسمر فارغ الطول، بنظارة أحادية، دائم الضحك والتلفت» - «لست أرى من تعني». وأكمل «جويان» الصورة وما كان السيد «دوشارلوس» يستطيع أن يفلق في العثور على من كان يقصد إذ كان يجهل أن صانع الصداري السابق من نفر هم أكثر مما نطقن، لا يتذكرون لون شعر الناس الذين يعرفونهم معرفة هيئة. أما أنا الذي كان يعرف عاهة

(١) استبدلنا بالأمراء (الواردة في النص) الملوك ليمكنا إحلال «الجلالة» محل «السوء» (مذكّر).

«جوبيان» تلك واستبدل بالأسمر الأشقر فقد بدا لي الرسم ينطبق تماماً على الدوق «دوشاتيلرو». وعاد البارون يقول: «كما أعود إلى الشباب الذين ليسوا من الشعب، فإنني في هذه الفترة يدوخي صبي غريب، بورجوازي صغير ذكي يدي إزائي قلة تهذيب باهظة. وليس يملك أي تصور عن الشخصية الهائلة التي أمثلها والجرثومة المجهريّة التي يمثلها. وما همّ على أية حال، فبوسع هذا الحمار الصغير أن ينهق ما وسعه النهيق أمام سموّ ثوب المطران الذي يلفّني». وصاح «جوبيان»: «مطران!» وما كان فهم شيئاً في الجمل الأخيرة التي نطق بها السيّد «دوشارلوس» ولكنّ كلمة «مطران» أذهلته فقال: «ولكنّ ذلك لا يتماشى والدين». وأجاب السيّد «دوشارلوس»: «في أسرتي ثلاثة باباوات ولي الحق أن ألف نفسي بالأحمر بسبب لقب كردينالي»<sup>(١)</sup>، إذ أنّ ابنة أخ الكردينال جدّي لعمّي قد حملت لجدّي لقب الدوقيّة الذي استبدل. وأرى أنّ الصور المجازيّة تخلّيك أصم وتاريخ فرنسه لا مبالياً. وأضاف قوله ربّما بمثابة تحذير أكثر منه بمثابة ختام: «هذا الجاذب الذي يمارس عليّ الشبان الذين يتهبون منّي بداعي الخشية بالطبع، فلا احترام وحده هو الذي يطبق أفواههم عن أن يصيحوا بي أنّهم يحبّونني، إنّما يقتضيه مرتبة اجتماعية عالية. ثم إن لا مبالاهم المتكلّفة يمكن أن ينجم عنها على الرغم من ذلك النتيجة العكسية تماماً. فإن تطاولت على غياب أثارت اشمئزازي. وكيفما أضرب مثلاً على ذلك في طبقة تكون أقرب إلى المألوف لديك: حينما جرى إصلاح فندي مضيت، تفادياً لإيجاد غياري بين سائر الدوقات اللواتي كنّ يتنازعن شرف أن يسعهنّ القول إنهن استصفنني، لقضاء عدّة أيام في «الفندق» على حدّ ما يقولون. وكان أحد مستخدمي الطابق معروفاً عندي فدلّته على صبيّ فندق غريب كان يغلق أبواب العربات وظلّ يقاوم عروضي. وفي النهاية عيل صبري فقدمت له، كيما أبرهن أنّي طاهر المقاصد، مبلغاً كبيراً إلى حدّ يثير السخرية لمجرد أن يصعد ويكلّمني خمس دقائق في غرفتي. وانتظرت دون جدوى. حينئذ بلغ بي الاشمئزاز منه مبلغاً صرت أخرج معه من باب الخدم كي لا ألمح وجه هذا الصغير اللعين الغريب الأطوار. وعلمت منذ ذلك أنّه لم يستلم في يوم أيّاً من رسائلي التي احتجّرت أولها على يد المستخدم في الطابق وكان حسوداً، والثانية على يد البواب النهاري وكان فاضلاً، والثالثة على يد البواب الليلي الذي كان يحبّ الخادم الفتى وبضاجعه ساعة يطلع القمر. ولكنّ ذلك لم يقلل من دوام اشمئزازي، وحتى لو جاؤوني بالخادم كمجرد طريدة صيد لدفعته عنّي بأقواء. ولكنّنا المصيبة أنّنا تكلمنا عن أمور جدية والآن انتهت ما بيننا بخصوص ما كنت أوّمل. على أنّك تستطيع أن تؤدّي لي خدمات جليّ وتوسّط لي. ولكن لا، تلك الفكرة وحدها تردّ لي بعض المرح وأحسّ أنّ لم ينته شيء».

لقد وقع منذ بداية هذا المشهد انقلاب داخل السيّد «دوشارلوس» بالنسبة إلى عينيّ اللتين سقطت الغشاوة عنهما، انقلاب تامّ ومباشر كما لو ضربته عصا سحرية. ولم أكن أبصرت حتى ذاك لأنني لم أدرك من قبل، إن الرذيلة (هكذا يقولون لتفسير الكلام)، رذيلة كلّ منا إنّما ترافقه على غرار ذلك الجنّي الذي كان خفياً على الناس ماداموا يجهلون وجوده. إن الطيبة والمكر والاسم والعلاقات المجتمعية لا تكشف عن ذاتها والمرء يحملها مخبأة. و«أولييسوس» نفسه ما كان يتعرّف «أثينا» بادئ الأمر. ولكنّ الآلهة تدرّكهم مباشرة، والشبه بمثل السرعة شبهه وكذلك كان حال السيّد «دوشارلوس» و«جوبيان». لقد وجدتنني حتّى الآن قبالة

(١) كردينال: من المراتب الكنسية العليا.

السيد «دوشارلوس» على غرار رجل شارد الفكر يصير أمام امرأة حامل لم يلاحظ قدماً المتناقل، فيما تردّد أمامه مبتسمة: «أجل إنني متعبة بعض الشيء في هذه الفترة»، يصير على سؤالها بصورة مفضوحة: «وما الذي أصابك؟» وليقل له أحدهم: «إنها حبلى»، وفي الحال يلمح البطن ولن يصير من بعد سواء. وإتاما العقل الذي يفتح العينين، ويمنحنا الخطأ الذي زال، حاسة إضافية.

ليس على الأشخاص الذين لا يحبّون الرجوع، بمثابة أمثلة على هذا القانون، إلى معارفهم من أمثال السادة «دوشارلوس» الذين ظلّوا فترة طويلة لا يرتابون بأمرهم إلى اليوم الذي جاءت تبرز فيه على الصفحة المستوية للفرد الشبيه بالآخرين، وقد خطت بجبر سرّي حتى ذلك، الحروف التي تؤلف المفردة العزيزة على قلوب قداماء اليونانيين، ليس عليهم، كي يوقنوا أن العالم المحيط بهم إنّما يتجلى لهم بادئ الأمر عارياً وخلواً من ألف زينة يبرزها لأكثرهم اطلاعاً، إلا أن يتذكروا كم مرة اتفق لهم في بحر الحياة أن يكونوا على شفا ارتكاب هفوة. فليس شيء على الوجه الخلو من الميزات لهذا الرجل أو ذاك يمكن أن يحملهم على افتراض أنه بالضبط أخ أو خطيب أو عشيق امرأة يزعمون أن يقولوا عنها: «أية بقرة هذه!» ولكنّ نعمة لحسن الحظ كلمة يهمس بها جار لهم توقف اللفظة القاتلة على شفاههم. وفي الحال تبرز، وكأنّها «منا، نقل، قرس»<sup>(١)</sup>، هذه الكلمات: إنّهُ خطيب أو شقيق أو عشيق المرأة التي لا يليق أن تدعى أمامه: «بقرة». هذا المفهوم الجديد وحده سوف يؤدي إلى إعادة تجميع كامل، إلى سحب أو تقديم قسم الأفكار التي كنّا نحملها عن باقي الأسرة، وقد اكتملت مذاك. وعبثاً كان يقترب كائن آخر بالسيد «دوشارلوس» يميّزه عن الرجال الآخرين، مثلما الحصان في القنطور<sup>(٢)</sup>، وعبثاً يتحد هذا الكائن بالبارون فإني لم أخفه في يوم. أما الآن فقد اتخذ الجرد شكلاً مادياً، وفقد الكائن في الحال بعد ما أدركت قدرته على البقاء خفياً، وأضحى استحالة السيد «دوشارلوس» شخصاً جديداً تامّة إلى حد أصبحت معه لا وجوه للتعارض في وجهه وصوته، بل تقلّبات علاقته بي إذ استرجعها في صعودها وهبوطها، وكلّ ما بدا حتى ذاك مفككاً في خاطري، أصبحت قريبة الإدراك وبدت بديهيّة مثل جملة لا تحمل أي معنى مادامت مفككة وانتظمت حروفها كيفما اتفق، ولكنها تعبر إن عادت حروفها فوضعت ضمن الترتيب اللازم عن فكرة لن تستطيع نسيانها من بعد.

ثم إنني أخذت أدرك الآن لماذا أمكنتني أن أبجد أن السيد «دوشارلوس» كان يبدو امرأة حينما شاهدته خارجاً من منزل السيّدة «دوفيلباريزيس»: فلقد كان كذلك! لقد كان من صنف هذه الكائنات الأقلّ تناقضاً مما تبدو عليه والتي اتخذت مثلاً أعلى رجولياً لأن طبعها بالضبط انثوي وهي في الحياة شبيهة بالرجال الآخرين في الظاهر فقط؛ فحيثما يحمل كل واحد طيفاً محفوراً على صفحة الأحداق وقد خطّ في تلك العينين اللتين يبصر من خلالهما كلّ شيء في الكون، فالطيف فيما يخصهم ليس لحرورية بل لفتى جميل. ذلك الصنف الذي تثقله اللعنة وينبغي له أن يعيش في الكذب والأيامين الكاذبة إذ هو يعلم أنّ ما يشتهي وما يؤكف في نظر أي مخلوق أفضل مطارح عذوبة العيش إنّما يقع تحت طائلة القانون وهو مخز لا يمكن الجهر به؛ والذي

(١) كلمات ثلاث وردت في العهد القديم، سفر دانيال (٢٥/٥) : «منا = قارس، نقل = وزن و«قرس» وتعني في الوقت نفسه «قسم» كما تذكر باسم القرس وتفسير الكلام : منا = أحصى الله أيام ملكك وأنها راها، ونقل = رزنت في الميزان فوجدت ناقصاً، وقرس = قسمت مملكتك وأسلمت إلى يديها القرس.

(٢) كائن خرافي نصفه العلوي رجل والسفلي حصان.

ينبغي له أن ينكر إلهه لأنه يقع عليهم، وإن كانوا مسيحيين، حينما يمثلون أمام المحكمة بصفة متهمين أن ينكروا أمام المسيح وباسمه بمشاية افتراء عليهم ما يؤلف حياتهم ذاتها؛ هم الأبناء ولا والده لهم، الذين يضطرون أن يكذبوا عليها حتى ساعة يطبقون عنيها؛ الأصدقاء ولا صداقات على الرغم من جميع تلك التي توحى بها فتنهم، وكثيراً ما يقرُّ بها، والتي قد يحسُّ بها فؤادهم وهو في الغالب على طيبة. ولكن أيمكن أن ندعو بالصداقات تلك العلاقات التي لا تنمو إلا بفضل كذبة والتي ربما عملت أول اندفاعاً ثقة وصدق قد يخطر لهم أن يبدوها إلى استبعادهم باشمزاز ما لم تكن صلتهم بأحد العقول النزيهة، بل المتعاطفة، ولكنها حينذاك تستخلص، وقد ضللتها بشأنهم سيكولوجيا اصطِّلحَ عليها، من الرذيلة المُقرِّ بها الوداد الأكثر بعداً عنها مثلما يفترض بعض القضاة ويعذرون بسهولة أكبر القتل لدى الشاذين والخيانة لدى اليهود لأسباب مستخلصة من الخطيئة الأصلية والقدرية العرقية؟ وأخيراً - على الأقل طبقاً للنظرية الأولى التي اختططنها عنه حينذاك، وسراها تبدلَ فيما بعد، ولعلَّ هذا الأمر كان أغضبهم فيها فوق كلِّ شيء لو لم يحجب ذلك التناقض عن عيونهم من جرَّاء الوهم نفسه الذي كان يجعلهم يصرون ويعيشون - العشاق الذين سدَّ في وجههم تقريباً احتمال هذا الحبِّ الذي يوليهام الأمل فيه قوةً لتحمل هذا القدر من المخاطر وأسباب العزلة بما أنَّهم بالضبط مغرمون برجل ليس فيه من المرأة شيء، رجلٍ غير شاذ ولا يستطيع بالتالي أن يحبَّهم، ممَّا يجعل رغبتهم غير ممكنة الأشباع في يوم لو لم يسلم إليهم المال رجالاً حقيقيين ولو لم يجعلهم الخيال في نهاية المطاف يضعون موضع رجال حقيقيين الشاذين الذين وهبهم ذواتهم. دونما شرف إلا العابر منه، ودون حرية إلا المؤقت منها إلى حين اكتشاف الجريمة، ودون مركز إلا ما كان منه غير ثابت، مثلما هو أمر الشاعر، وكان البارحة موضع حفاوة في جميع منتديات لندن وتهليل في جميع مسارحها وفي الغد يطرد من جميع النزل المفروشة دون أن يسعه إيجاد وسادة يسند إليها رأسه، ويدير حجر الرحي مثل شمشون، ومثله يقول:

«سوف يموت الجنسَان كلٌّ على حدة.»

بل يُستبعدون، فيما عدا أيام التعاسة الكبرى التي يتألب فيها العدد الأكبر حول الضحية، مثلما اليهود حول «دريفوس»، من عطف - وأحياناً من مجتمع - أشباههم الذين يعيشون فيهم القرف لرؤيتهم ما هم عليه وقد رسمَ في مرآة تبرز، إذ هي لا تحسِّن صورتهم عن بعد، جميع العاهات التي لم يشاؤوا من قبل ملاحظتها في ذواتهم، وتجعلهم يدركون أن ما كانوا يدعونه حبِّهم (والذي ألحقوا به، بالتلاعب بالكلمة، يدفعهم إلى ذلك الحس الاجتماعي، كلٌّ ما أمكن أن يضيفه إلى الحبِّ الشعر والرسم والموسيقى والفروسيَّة والنسك) إنَّما ينتج لا عن مثل أعلى للجمال اتخذوه بل عن مرض لا شفاء له؛ مثلهم مثل اليهود أيضاً (باستثناء بعض منهم لا يودون الاختلاط إلا ببنين جنسهم ولا ينفكون يرددون الكلمات الشعائرية والمزاحات الشائعة) يتهرب بعضهم من بعض ويسعون إلى من كانوا الأكثر مناهضة لهم ولا يريدونهم، يصفحون عن صدورهم وينتشون بمجاملاتهم؛ بل هم يجمعهم إلى أمثالهم النَّبذ الذي يطالهم والخزي الذي تردوا فيه، وقد بلغ بهم في النهاية، من جرَّاء اضطهاد شبيه بالذي أصاب إسرائيل، أن يتخذوا المزايا الجسميَّة والأخلاقية التي تطبع أحد الأجناس، فأحياناً على جمال والأغلب على بشاعة، ويلقون (على الرغم من جميع صنوف السخرية التي يصنها ذاك الذي يبدو في الظاهر نسبياً، وهو أكثر اختلاطاً بالجنس المعادي وأوفر اندماجاً به، الأقل شذوذاً على

الذي لبث أكثر شذوذاً) مفترجاً في مخالطة أشباههم، بل سنداً في حياتهم إلى حد أنهم، فيما ينكرون أنهم يؤلفون جنساً (يشكل اسمه أعظم شتيمة)، يفضحون بطيبة خاطر أولئك الذين يفلحون في إخفاء انتمائهم إليه كي يجدوا عنراً لأنفسهم أكثر منهم لإيذائهم، وهم لا يكرهون ذلك، ويمضون يبحثون، مثلما الطبيب عن الزائدة الدودية، عن الشذوذ حتى في بطون التاريخ وينبطهم أن يذكروا بأن سقراط كان واحداً منهم كما يقول الاسرائيليون<sup>(١)</sup>، إن يسوع كان يهودياً دون أن يفكروا أن لم يكن شاذون حين كان الشذوذ هو القاعدة ولا معادون للمسيحيين قبل المسيح وأن العار وحده صانع الجريمة لأنه لم يبق إلا على الذين تمرّدوا على أي كرازة وأي مثال وأي قصاص بموجب استعداد فطري خاص إلى حد أنه يشير أشمئزاز الرجال الآخرين (مع أنه قد يترافق وصفات أخلاقية سامية) أكثر مما تفعل بعض المعايير الأخرى التي تناقضه كالسرقة والقسوة وسوء النية التي إذ تدرّكها عامة الناس بصورة أفضل فإنما تعذرها بالتالي أكثر؛ ويشكلون جمعية ماسونية أكثر اتساعاً وأوفر نجاحاً وأقل مدعاة للشبهة من ماسونية المحافل لأنها قائمة على تماه في الأذواق والحاجات والعادات والأخطار والتدرب والمعرفة والاتجار والمصطلحات، وتبين فيها أن الأعضاء أنفسهم الذين يتمنون أن لا يعرف أحدهم الآخر يتعرّف بعضهم بعض في الحال بفضل علامات طبيعية أو اصطلاحية، لا إرادية أو مقصودة، تكشف للمتسلّل أحد أشباهه في السيّد الكبير الذي يغلق له باب عرته، وللوالد في خطيب ابنته، ولمن كان ابتغى الشفاء والاعتراف وكان عليه أن يدافع عن نفسه في الطبيب والكاهن والمحامي الذي مضى للقائه؛ وكلهم مضطرون أن يصونوا سرهم ولكنهم يحوزون نصيبهم من سر لدى الآخرين لا يرتاب بوجوده باقي البشر وبه تبدو روايات المغامرات الأكثر بعداً عن الواقع حقيقية في نظرهم؛ ذلك لأن السفير، في هذه الحياة الخيالية المناقضة لزمانها، صديق الشقي الكادح؛ والأمير، ببعض الحرية في المسلك التي توليه التربية الأرستقراطية والتي لعلها لا تتوافر لبورجوازي صغير راعش، يمضي عند مغادرته منزل الدوقة للتداول مع قاطع الطريق؛ هذا الجزء الذي تشجبه الجماعة الإنسانية، ولكنه جزء هام يرتاب بأمره حيث لا تجده وينتشر وقعاً بمنجى عن العقاب حيث لا يستشف؛ لديهم متسبون أتى كان، في صفوف الشعب والجيّش، في المعبد والسجن وفوق العرش، ويعيشون في النهاية، العدد الكبير منهم على الأقل، في إطار الألفة المهددة بالخطر بين رجال العرق الآخر يستفزه ويلهو معهم في التحدّث عن عيبه كما لو لم يكن منه، واللعبة يسهّلها غباوة الآخرين أو زيفهم لعبة يمكن أن تطول سنوات إلى يوم الفضيحة الذي يفتّس فيه هؤلاء المروضون، وقد أرغموا حتى ذاك على إخفاء حياتهم وعلى الإشاحة بأبصارهم عما يؤدّون التحديق إليه وعلى التحديق إلى ما يودون صرف الأنظار عنه، وعلى تغيير جنس الكثير من الصفات في جملة مفرداتهم، وذلك التزام اجتماعي طفيف إذا ما قوبل بالالتزام الداخلي الذي يفرضه عليهم عيبهم، أو ما يسمّى كذلك مجازاً، لا تجاه الآخرين من بعد بل تجاه أنفسهم وعلى نحو لا يبدو لهم معه عيباً. ولكن بعضهم، وهم عمليون أكثر وأكثر استعجالاً ولا يملكون الوقت للتسوّق والتخلّي عن تبسيط الحياة وكسب الوقت الذي يمكن أن ينجم عن التعاون، جعلوا لأنفسهم مجتمعين يتألف الثاني حصراً من أشباههم.

ذلك مدهش لدى من كانوا فقراء، جاؤوا من الأرياف ولا معارف لديهم ولا شيء سوى الطموح في أن يكون أحدهم طبيباً أو محامياً مشهوراً، يملكون فكرة لا يزال خلواً من الآراء وجسماً عديم العادات ينون

(١) بالمعنى الدنيوي القديم.

تزويقه بسرعة كما ربّما يشترون أثاثاً لغرفتهم الصغيرة في الحى اللاتيني حسبما يلاحظون ويقلّدون ما كان لدى الذين «وصلوا» في المهنة المفيدة والجدية التي يتمنون الالتحاق بها وبلوغ الشهرة فيها. وربّما بدا لدى هؤلاء أن ميلهم الخاص الذي ورثوه دون علم منهم كمثّل الاستعداد الفطري للرسم والموسيقى والعمى، هو التفرّد الوحيد الراسخ المستبدّ - والذي يضطرّهم في بعض العشيّات إلى تفويت اجتماع أو آخر مفيد لحياتهم المهنيّة بأناس يتبنون في كل ما تبقى طريقتهم في التحدّث والتفكير وفي ما يلبسون ويعتَمرون. وسرعان ما تراهم يكتشفون في حيّهم، حيث لا يخالطون، لولا ذلك، سوى زملاء أو معلّمين أو مواطناً لهم «أدرك النجاح» وشملهم بعطفه، شاباً آخرين يقربهم منهم الميل نفسه مثلما هي الحال في مدينة صغيرة يرتبط فيها بعرى الصداقة أستاذ الأول الثانوي والكاتب العدل وكلاهما يحبّان موسيقى الحجرة وأشياء العاج من العصر الوسيط؛ وهم إذ يطبّقون على موضوع تسليتهم الغريزة النفعية نفسها والروح المهنيّة نفسها التي تقود خطاهم في حياتهم المهنيّة يعودون فيلقونهم في جلسات لا يقل فيها أي غريب غير مطلع أكثر منه في الجلسات التي تجمع هواة مساعط قديمة ولوحات يابانية مطبوعة وأزهار نادرة وحيث يسود، من جرّاء متعة التعلّم وجدوى المبادلات وخشية المنافسات، كما هي الحال في بورصة للطوايح البريدية، التفاهم الوثيق بين الاختصاصيين والمنافسات الشرسة بين أصحاب المجموعات في الآن نفسه. وليس يدري أحد على أيّ حال في المقهى الذي يجلسون فيه ما عسى يكون هذا الاجتماع، وإن كان اجتماع جمعيّة صيد أسماك أو أمّناء تحرير أو أبناء مقاطعة «الأندر» لشدة ما كان ملبسهم لائقاً وهيئتهم متحفّظة جافية ولشدة ما لا يجرؤون النظر إلا اختلاصاً إلى الشبان الذين يماشون عصرهم، الفتيان «الأسود» الذين يثيرون على بعد بضعة أمتار أعظم الصخب حول عشيقاتهم، وسوف يعلم الذين يتأملونهم باعجاب دون أن يجرؤوا على رفع عيونهم، ولكن عشرين عاماً بعد ذلك، وحينما يكون بعضهم على وشك دخول أحد المجامع العلميّة والآخرون رجال منتديات مسنّين، سوف يعلمون أن الأكثر فتنة من بينهم، وهو الآن «شارلوس» بدين متشيب، كان بالحقيقة شبيهاً بهم ولكن في غير مكان، في عالم آخر، تحيط بهم رموز خارجية أخرى وتحكمهم علامات غريبة ضلّهم الفارق فيها. ولكنّ التجمّعات أكثر أو أقلّ تقدماً، ومثلما يختلف «اتحاد أحزاب اليسار» عن «الاتحاد الاشتراكي» وجمعيّة موسيقى «مندلسون» عن «مدرسة المغنّين»، ثمة في بعض العشيّات متطرفون على طاولة أخرى يدعون لإسواره أن تبرز تحت سوار القميص وأحياناً لعقد في فتحة ياقتهم ويرغمون بنظراتهم الملحاحة وقهقهاتهم وضحكاتهم ومداعباتهم فيما بينهم زمرة من طلبة الثانويات على الهرب أسرع ما يكون الهرب، ويقوم على خدمتهم بتأدّب يغتلي الغيظ تحت نادل ربما كان يغبطه، شأنه في العشيّات التي يقوم فيها على خدمة مناصري «دريغوس»، أن يمضي لاستدعاء الشرطة لو لم تكن له مصلحة في قبض الإكراميات.

وإنما يقيم الفكر التعارض بين هذه التنظيمات الاحترافية وميل الانعزاليّين ودون أن يختال للأمر كثيراً بما أنه لا يعدو في ذلك تقليد الانعزاليين أنفسهم الذي يظنون أن ليس ما يختلف عن الرذيلة المنظمة أكثر من هذا الذي يبدو لهم حباً لا يفهمه الآخرون، ولكن بشيء من الحيلة مع ذلك لأن هذه الاصناف المختلفة إنما تقابل على السواء نماذج فيزيولوجية متنوّعة وفترات متعاقبة من تطور مرضي أو اجتماعي فحسب. ذلك لأنه يندر جداً أن لا يقبل الانعزاليون في يوم أو في آخر إلى الانصهار حصراً في مثل هذه التنظيمات لمجرّد السأم

أحياناً ولبلوغ الراحة (مثلما ينتهي الأمر بتركيب الهاتف في منزلهم أو باستقبال آل «إينا» أو بالشراء من مخزن «يوتان» بمن كانوا الأكثر عداء لهذه الأمور). ولا يحسن استقبالهم فيها بعامة لأن نقص التجربة في حياتهم الطاهرة نسبياً والأشباع عن طريق الأحلام التي يقتصرون عليها قد أبرزاً إبرازاً أشد في ذواتهم سمات التخثت الخاصة تلك التي حاول المحترفون طمسها. ولا بدّ من الإقرار بأن المرأة لدى بعض هؤلاء الوافدين الجدد ليست تتحد بالرجل داخلياً فحسب ولكنها ظاهرة بصورة بشعة إذ هم تهزّم بتشنّج هيسيري ضحكة حادة تُقبضُ ركبهم وأيديهم وليسوا أكثر شبها بعامة الناس من هؤلاء القردة بعيونهم الحزينة المتعبة وأيديهم اللاقطة الذين يرتدون السموكن وربطة عنق سوداء، حتى إن هؤلاء المنتسبين الجدد إنما يحكم من هم أقل طهارة منهم أن معاشرتهم مجلبة للخطر وقبولهم صعب. ويجري مع ذلك قبولهم ويفيدون إذ ذاك من تلك التسهيلات التي بدلت بها التجارة والمنشآت الكبرى حياة الأفراد وجعلت في متناول أيديهم سلعاً كانت حتى ذاك باهظة على مقتنيها بل عسيرة الإيجاد فيما تفرقهم الآن بالفيض الذي لم يفلحوا وحدهم في اكتشافه عبر الجماهير العريضة. ولكن القيود الاجتماعية، على الرغم من هذه المخرجات التي لا تحصى، تبقى ثقيلة على بعض منهم من الذين نجددهم على وجه الخصوص في صفوف الذين لم تطلهم بعد القيود العقلية والذين لا يزالون يعتبرون نوع حبّهم أكثر ندرة مما هي حاله. فلندع الآن جانباً أولئك الذين يحتقرون النساء ممن يجعلهم الطابع الاستثنائي في ميلهم يعتقدون بأنهم يسمون عليهن والذين يجعلون من الشذوذ الجنسي ميزة النوايا العظام والعصور المجيدة وحينما يحاولون حمل الناس على مشاركتهم ميلهم فإنهم يفعلون أقل بالنسبة إلى من يبدو أنهم يحملون استعدادات مسبقة لذلك مثلما يفعل مدمن المورفين بالنسبة إلى المورفين منهم تجاه من يبدو أهلاً له، عن اندفاع للتبشير، مثلما يكرز آخرون بالصهيونية ورفض الخدمة العسكرية والسان سيمونية والنباتية والفوضى. وييدي بعضهم، إما فاجأهم في الصباح وهم بعد نيام، سحنة أثوية رائعة بمقدار ما تبدو العبارة عامة وترمز إلى الجنس بكاملة؛ فإن الشعر بعينه يؤكد ذلك، وإنشائه أثوية إلى حد كبير، فإن نشر تدلى ضفائر على الخد على نحو طبيعي حتى لندھشك أن عرفت المرأة الشابة، الفتاة «غالاتيا»<sup>(١)</sup> التي تستفيق لماماً في لا وعي هذا الجسم الرجولي الذي سجنّ فيه، بهذا القدر من البراعة ومن تلقاء ذاتها دون أن تكون علمته من أحد، كيف تفيد من أقل منافذ سجنها وتجد ما كان ضرورياً لحياتها. وليس من شك أن الشاب الذي يملك هذا الرأس الرائع لا يقول: «إني امرأة» بل هو إن عاش مع امرأة - لأسباب ممكنة كثيرة - استطاع أن ينكر أمامها أن يكون امرأة وأن يقسم لها أنه لم يقم قط علاقات مع الرجال. فيما نظرت إليه على نحو ما عرضناه منذ قليل وهو يستلقي في سرير البيجاما حاسر الذراعين عاري الجيد تحت شعور سوداء، انقلبت البيجاما قميص امرأة والرأس رأس أسبانية حلوة. وتراعى العشيق من هذه المسارات الموجهة لناظرها، وهي أكثر حقيقة مما يمكن أن تكون عليه الأقوال وحتى الأفعال ذاتها، والتي لن يفوت الأفعال على كل حال، إن لم تكن فعلت، أن تؤكد لها، لأن كل كائن يسلك درب لذته، وإن لم يكن هذا الكائن يتجاوز الحد في فسقه فإنه يبحث عنها في الجنس الذي يضاد جنسه. وإنما تبدأ الذيلة فيما يخص الشاذ لا حينما يقيم علاقات (لأن الكثير الكثير من الأسباب يمكن أن يفرضها)، بل حينما يجد متعة مع النساء. لقد كان الشاب الذي حاولنا

(١) هي حورية البحر التي أحياها «بوليفيموس» ذو العين الواحدة.



وصفه منذ قليل امرأة على نحو بادي الجلاء إلى حد أن النساء اللواتي كن ينظرن إليه ويشتهينه كن محكومات (ما لم يكن ثمة ميل خاص) بذات خيبة اللواتي تخيب ظنهن في مسرحيات شكسبير الهازلة فتاة متنكرة تتظاهر بأنها فتى. والتضليل متساو والشاذ نفسه يعلمه ويحرز الخيبة التي ستصيب المرأة بعد ما ينزع اللباس التنكري ويحس إلى أي حد يمثل الخطأ حول الجنس ينبوعاً من الشعر الطريف. وعبثاً على أي حال لا يعترف لعشيقته المتطلبة (إن لم تكن «عامورية») قائلاً: «إني امرأة»، فبأية حيل وأية خفة وبأي عناد نبته متسلقة تبحث المرأة اللاواعية الظاهرة للعيان في داخله، عن العضو الذكوري! ما عليك إلا أن تنظر إلى هذا الشعر الجعد على الوسادة البيضاء كيما تدرك أن هذا الشاب إن أفلت في المساء من يدي أبويه على الرغم منهما، على الرغم منه، فلن يكون الأمر ليحضي للقاء النساء. بإمكان عشيقته أن تعاقبه وتسجنه إلا أن الرجل المرأة يكون قد وجد في الغد وسيلة للتعلق برجل مثلما تلقى الدودية الأرجوانية بمبارمها حيث توجد فأس ويوجد مشط. فلماذا نعجب بلطائف تؤثر فينا في وجه هذا الرجل وبظرف وغياب تكلف في اللطف لا يتفق للرجال مثلها ويغمن أن نعلم أن هذا الشاب يبحث عن الملاكمين؟ إنها وجوه مختلفة لحقيقة واحدة. بل إن الجانب الذي يثير اشمئزازنا هو الأكثر تأثيراً فينا لأنه يمثل جهداً رائعاً لا واعياً تبذله الطبيعة: فإن تعرف الجنس لذاته على الرغم من خدع الجنس يبدو على أنه المحاولة غير المعترف بها للهروب إلى ما وضعته غلطة بدئية للمجتمع بعيداً عنه. إنهم، بالنسبة إلى بعض منهم، أولئك الذين اتسمت طفولتهم دون شك بأكبر قدر من الاستحياء، يكادون لا يهتمون بالنوع المادي للمتعة التي ينالونها بشرط أن يمكنهم رد ذلك إلى وجه ذكوري، فيما يحدد آخرون، ممن يملكون حواس أكثر عنفاً دون شك، مواضع حتمية قاهرة لمتعتهم المادية. ربما صدم أولئك باعترافاتهم وسطى الناس، فهم يعيشون ربما على نحو أقل حصراً تحت تأثير تابع الكوكب زحل لأن النساء، فيما يخصهم، لسن مستبعدات كلياً كما هي الحال بالنسبة إلى الأولين الذين لا وجود لهم إزاءهم بدون المحادثة والغنج وأهواء العقل. ولكن الآخرين يبحثون عن اللواتي يحبن النساء فيمقدورهن أن يهتشن لهم فتى ويزدن المتعة التي يصيبونها من وجودهم معه. هذا، وإنهم يستطيعون بالطريقة نفسها أن يصيبوا معهم ما يصيبون من متعة مع رجل. من ذلك ينجم أن الغيرة لا تستثيرها بالنسبة إلى الذين يحبون الأولين إلا المتعة التي يمكن أن يصيبوها مع رجل والتي تبدو لهم وحدها خيانة، بما أنهم لا يشاركون في حب النساء ولم يمارسوه إلا بحكم العادة وكيما يضمّنوا لأنفسهم إمكان الزواج ويتصورون أقل القليل ما يمكن أن يولي من متعة إلى حد لا يطيقون معه أن يتذوقه من يحبونه، فيما يغلب أن يثير الآخرون الغيرة من جراء صنوف غرامهم مع النساء. فانهم يؤدّون، في علاقاتهم بهن، بالنسبة إلى المرأة التي تحب النساء دور امرأة أخرى، فيما تقدم لهم المرأة في الوقت نفسه ما يجدونه لدى الرجل على وجه التقريب إلى حد أن الصديق الغيور يعاني من الإحساس بأن من يحبه يلتصق بالتصاقاً وثيقاً بالتي تقارب أن تكون في نظره رجلاً فيما يحس أنه يكاد يفلت منه، لأنه في نظر أولئك النساء شيء لا يعرفه ونوع من المرأة. ولا تتحدثن كذلك عن هؤلاء الشباب المجانين الذين يبدون، بنوع من النزعة الصببانية، وكيما يزعموا أصدقاءهم ويصدموا أهليهم، ضرباً من الإصرار على اختيار ملابس تشبه الفساتين وعلى تحمير شفاههم وتسويد عيونهم؛ فلندعهم جانباً، فهم من سنعود فلنلقاهم، بعدما يكونون حملوا بفيض من المرارة جزاء تصنعهم، يقضون كامل حياتهم يحاولون عبثاً أن يصلحوا بلباس متزمت بروتستانتية الضرر الذي ألحقوه بأنفسهم حينما كان يدفعهم إلى ذلك ذات الشيطان الذي يدفع نساء شابات

من حيّ «سان جيرمان» إلى العيش عيشاً فاضحاً والتحرر من جميع الأعراف والهزم من أسرتهن إلى اليوم الذي يشرعن فيه بدأب ودونما فلاح بارتقاء السفح الذي سبق أن وجدن تسليّة كبرى في حدوده أو هنّ بالأحرى لم يستطعن الامتناع عن ذلك. ولندع أخيراً إلى ما بعد الذين عقدوا حلفاً مع «عامورة» وسوف نحكي عنهم حينما يعرضهم السيد «دوشارلوس». ولندع جميع الذين سيظهرون بدورهم، من هذا النوع أو ذاك، ولا نقولن كلمة، لختام هذا العرض الأول، إلا عن أولئك الذين باشرنا الحديث عنهم منذ قليل، عنيّنا المتوحدين. فقد مضوا، إذ هم يعتبرون نقيصتهم استثنائية أكثر مما هي عليه، يعيشون وحيدين من اليوم الذي اكتشفوها فيه بعد ما حملوها طويلاً دون أن يعرفوها، فترة أطول من غيرهم فحسب. ذلك أنه ما من أحد يعرف لأول وهلة أنه شاذ أو شاعر أو سنوبي أو شرير. فهذا الطالب الذي كان يحفظ أبياتاً في الحب أو يتطلع إلى صور خليعة كان يخيّل إليه، إن هو التصق حينذاك برفيق له، أنه يشاركه فحسب ذات الرغبة في المرأة. فكيف يظن أنه لا يشبه الجميع حينما يتعرف جوهر ما يعانیه وهو يقرأ «مدام دو لا فاييت» و«راسين» و«بودلير» و«الترسكوت» في حين لا يزال قليل القدرة إلى حد بعيد على ملاحظة نفسه كي يتبين ما يضيفه من عنده وأنه إن كان الشعور واحد فموضوعه يختلف وأن ما يشتبهى هو «روب روي» وليس «ديانا فيرنون»<sup>(١)</sup>؟ فلدى الكثيرين، ومن جراء احتراس دفاعي للغريزة يسبق رؤية العقل الأكثر وضوحاً، تختفي المرأة والجدران في غرفتهم تحت صور بالألوان لمثالات؛ وهم يؤلفون أبياتاً كهذه:

لست أحب في العالم سوى «كلوييه»

إنها رائعة، إنها شقراء

وقلبي يرق في الحب.

أفينبغي لذلك أن نضع في بداية هذه الحيوانات ميلاً لن يتفق لنا أن نعود فنلقاه لديهم فيما بعد، كخصلات الأطفال الشقراء التي ستصبح بعدها من أكثرها سواداً؟ فمنذا يعلم إن لم تكن صور النساء بداية نفاق، وبداية كراهية كذلك للشاذين الآخرين؟ ولكن المتوحدين هم بالضبط أولئك الذين يؤلمهم النفاق. ربما لم يكن مثال اليهود، مثال الجالية المختلفة، بالقوة الكافية ليوضح كم التربية قليلة التأثير عليهم وبأي فن يفلحون في العودة، لا إلى أمر في مثل فظاعة الانتحار ربما (والله يعود المجانين أية كانت الاحتياطات المتخذة، فإن أنقذوا من النهر الذي ارتموا فيه، تناولوا السم، تزودوا بمسدس، الخ) بل إلى حياة لا يدرك رجال الجنس الآخر متعها الضرورية ولا يتصورونها ويمقتونها، وليس ذلك فحسب، بل تلك الحياة التي يربعهم خطورها المتكرر وخزيها الدائم. وربما انبغى، في سبيل وصفهم، أن نفكر في الحيوانات التي لا تدجن، في الأشبال المدجنة المزعومة ولكنها لبثت أسوداً، وإلا فعلى الأقل بالسود الذين تورثهم حياة البيض المريحة بأساً فيفضلون عليها مخاطر حياة التوحش ومسرراتها التي تمتنع على الإدراك. فحينما حل اليوم الذي ألفوا أنفسهم فيه عاجزين عن الكذب على الآخرين والكذب على الذات في آن، مضوا إلى العيش في الريف يتجنبون أشباههم (ويظنونهم قليلي العدد) من هول البشاعة أو مخافة الاغراء، وباقى البشرية من خجل. وإذ هم لم يبلغوا في يوم

(١) «روب روي» و«ديانا فيرنون» شخصيتان من رواية لـ «الترسكوت» عنوانها «روب روي».

النضج الحقيقي وأضحوا نهب الكآبة فإنهم يمضون بين حين وآخر ذات يوم أحد غير مقرر، في نزهة على طريق يفضي إلى مفرق حيث جاء ينتظرهم، دون أن يكون أحدهم قال كلمة للآخر، أحد أصدقاء الطفولة الذي يقطن قصراً مجاوراً. ويعودان إلى ألعاب الأمس فوق العشب في الظلام، دونما كلمة يتبادلانها. ويلتقي أحدهما الآخر في بحر الأسبوع فيتحدثان عن أي شيء دون تلميح إلى ما جرى كما لو بالضبط لم يفعلوا شيئاً ولن يعودا إلى فعل شيء، فيما عدا قليل من الفتور والسخرية والنزق والضعف والكراهة أحياناً في علاقاتهما. ثم يذهب الجار في رحلة قاسية على ظهر حصان ويرتقي القمم على ظهر بغل وينام في الثلج؛ ويدرك صديقه الذي يماثل بين عيبه الخاص ووهن في الطبع والحياة البيتوتية الوجلة أن العيب لن يستطيع الاستمرار من بعد داخل صديقه الذي تحرر وعلى ارتفاع هذا القدر من آلاف الأمتار فوق سطح البحر. ويتزوج الآخر بالفعل، بيد أن المهجور لا يشفى (على الرغم من الحالات التي سنتبين فيها أن الشذوذ قابل للشفاء). فهو يطالب بأن يتسلم بنفسه في الصباح وفي مطبخه القشدة الطازجة من يدي أجبر الحلاب وفي الأمسيات التي تضطرب رغباته في صدره فتجاوز الحد، يبلغ به الضياع أن يعيد سكيراً إلى دربه وأن يرتب صدرية الأعمى. وليس من شك أن حياة بعض الشاذين تبدو وكأنما تتبدل وعييهم (كما يقال) لا يظهر من بعد في عاداتهم. ولكن لا شيء يضيع والجوهرة المخبأة تعود فللقاها؛ وحينما تتناقص كمية بول المريض فلأنه بالتأكيد يتعرق أكثر، ولكن لا بد أن يتم الاطراح على الدوام. فذات يوم يفقد هذا الشاذ ابن عم شاب فتدرك لحزنه الذي لا يقبل العزاء أن الرغبات إنما انتقلت بالمناقلة إلى هذا الحب، الذي ربما كان عفيفاً وأكثر حرصاً على الاحتفاظ بالتقدير منه على بلوغ الامتلاك، مثلما يجري نقل بعض المصروفات داخل الموازنة إلى باب آخر دون تغيير في المجموع. ومثلما هي حال بعض المرضى الذين تذهب نوبة الحكمة لديهم إلى حين باعتلالاتهم الطفيفة المعتادة يبدو أن الحب الظاهر الموجه لقريب شاب قد حل مؤقتاً لدى الشاذ، بطريق الانتقال، محل عادات سوف تستعيد ذات يوم مكان الداء الذي قام مقام غيره وشفى.

وفي هذه الأثناء يكون جار المتوحد الذي تزوج قد عاد. وإزاء جمال الزوجة الشابة والحنان الذي يديه زوجها لها يوم يضطر الصديق أن يدعوها إلى العشاء يخجل من الماضي. ولكنها ينبغي، وهي مذ ذاك في وضع يدعو للاهتمام، أن تعود في ساعة مبكرة تاركة زوجها؛ ويطلب هذا الأخير حين تحل ساعة العودة أن يرافقه لمسافة قصيرة صديقه الذي لا تداخله بادئ الأمر أية رية ولكنه يلقي نفسه في تقاطع الطرق وقد ألقى به على العشب متسلق الجبال الذي يزعم أن يصبح أباً، دون أن ينبس بكلمة. وتعود اللقاءات ثانية إلى اليوم الذي يجيء فيه ليقيم في مكان غير بعيد من هناك أحد أبناء عم المرأة الشابة والذي يذهب الزوج الآن دوماً للتنزه معه. فإن جاء المهجور لزيارته وحاول الاقتراب منه أبعد الزوج وقد تملكه أشد الغضب وبه الحق الذي يوليه أن لا يكون الآخر على لباقة يستشف معها الاشتزاز الذي يوحى به منذ الآن. وذات مرة يجيء مجهول بعته الجار غير الوفي، ولكن المهجور لا يستطيع لكثرة مشاغله أن يستقبله ولا يدرك إلا فيما بعد الهدف الذي جاء الغريب من أجله.

حينئذ يضني الانعزالي وحده، وليس يملك غير متعة الذهاب إلى محطة الحمامات البحرية المجاورة يستعلم واحداً من مستخدمي السكك الحديدية. ولكن هذا الأخير حصل على ترقية وعين في الطرف الآخر

من فرنسه، ولن يستطيع الانعزالي من بعد أن يمضي ليسأله مواعيد القطارات وضمن مقاعد الدرجة الأولى، وقبل أن يعود ليحلم في برجه، كما تفعل «غريزيليدس»<sup>(١)</sup>، يترتب على الشاطئ، مثل «أندرو ميده»<sup>(٢)</sup>، غريبة لن يُقْبَلَ أي مغامر لتخليصها، وكـ «ميدوسة» عقيمة سوف تهلك على الرمال، أو هو يظل متكاسلاً على الرصيف قبل انطلاق القطار، يلقي على المسافرين نظرة تبدو لامبالية أو مزدرية أو ساهية بالنسبة إلى من كانوا من جنس آخر ولكنها، شأن الألق الوضاء الذي تزدان به بعض الحشرات لاجتذاب من كانوا من النوع نفسه، أو الرحيق الذي تقدمه بعض الزهور لاجتذاب الحشرات التي ستلقحها، لن تتخدع الهاري، ويكاد يتعثر وجوده، هاوي متعة تقدم له، مفرطة الخصوصية بالغة الصعوبة في إيجاد موضع لها، والزميل الذي يستطيع اختصاصيين أن يتكلم وإياه اللغة غير المألوفة؛ أكثر ما هنالك أن يتظاهر لابس ثياب رثة على الرصيف بالاهتمام بها، ولكنما لقاء مكسب مادي فحسب، شأن أولئك الذين يمضون، في «الكوليج دو فرانس» وفي القاعة التي يحاضر فيها أستاذ «الصانصكريتية» دون مستمعين، لمتابعة الدرس، ولكنما ليستدفعوا فحسب. المدوسة! وزهرة الأوركيدا! حينما كنت لا أنساق إلا وراء غريزتي كانت المدوسة تثير اشمئزازي في «البليك»؛ فإن عرفت كيف أنظر إليها، مثل «ميشليه»، من وجهة نظر التاريخ الطبيعي وعلم الجمال، كنت أبصر فيها حزمة رائعة من ضياء لازوردي. أفليست تبدو بمتمخمل تويجياتها الشفاف وكأنها أزهار أوركيدا البحر الخبازية، وكتمثل الكثير من مخلوقات عالم الحيوان وعالم النبات، كمثل النبتة التي تنتج الفانيلا، فيما يقولون، والتي تبقى عقيمة لأن العضو الذكري عندها يفصله عن العضو الأنثوي حاجز، إن لم تنقل الطيور الطنانة أو بعض المنحلات الصغيرة غبار الطلع من هذه إلى تلك، أو إن لم يلحقها الإنسان صناعاً، كان السيد «دوشارلوس» (وينبغي أن تؤخذ كلمة التلقيح هنا بالمدلول المعنوي بما أن اقتران الذكر بالذكر بالمعنى المادي عقيم، بيد أنه ليس غير ذي بال أن يستطيع شخص إدراك المتعة الوحيدة التي يستطيع تذوقها وأن تستطيع «كل نفس في هذه الدنيا» أن تعطي أحدهم «موسيقاها أو نارها أو عطرها»)، كان من هؤلاء الرجال الذين يمكن دعوتهم بالاستثنائيين لأنهم مهما كبر عددهم فإن تلبية حاجاتهم الجنسية، وما أسهلها لدى آخرين غيرهم، رهن بتوافق الكثير من الشروط التي يصعب جداً توافرها.

وبالنسبة إلى رجال من طينة السيد «دوشارلوس» (ومع مراعاة التسويات التي ستبرز شيئاً فشيئاً والتي أمكن منذ الآن توقعها وقد اقتضتها حاجة إلى المتعة تسلم بإنصاف موافقات)، فإن الحب المتبادل يضيف، إلى جانب المصاعب الكبيرة جداً التي يصادفها عند عامة الناس، ويستحيل تجاوزها أحياناً، مصاعب خاصة إلى حد أن ما كان على الدوام شديد الندرة بالنسبة إلى كل الناس قارب أن يكون مستحيلاً فيما يخصهم، وأن سعادتهم، إن وقع لهم لقاء يطبعه حسن الطالع بالحقيقة أو تظهره لهم الطبيعة على تلك الحال، تتسم، بما يجاوز كثيراً سعادة العاشق العادي، طابعاً غريباً مختاراً عميق الضرورة. إن بغض آل «كابوليه» وآل «مونتيغو» ما كان يساوي شيئاً مقارنة بالعواطف المختلفة التي جرى تذليلها والإلغاءات الخاصة التي اضطرت الطبيعة أن توقعها بالمصادفات غير الشائعة كثيراً التي تحمل معها الحب قبل أن يترنح صانع صدار سابق، كان يتأهب للذهاب

(١) Griséidis بطله أسطورية هي رمز الاخلاص الزوجي.

(٢) Andromède ابنة ملك أثيوبيا و«كاسيويه»، عاقب إله البحر «پرسيدون» الملكة والدتها لكبريالها فأرسل وحشاً بحرياً رزح البلاد ولاجأه منه إلا بموت الابنة ولكن يبرسه Persée وصل وقتل الوحش بالسيف الذي سبق أن ضرب به «المدوسة» لقاء وعد بالزواج منها.

إلى مكتبه «بخوف الله، مفتونا أمام خمسينى مكرش - ويستطيع «روميو» هذا و«جوليت» هذه أن يعتقدوا بحق أن حبهما ليس نزوة لحظة عابرة بل قدر حقيقي أعدته تناميات مزاجهما، لا مزاجهما الخاص فحسب بل مزاج من سلف منهما والوراثة الأكثر إغراقاً في الماضي إلى حد أن الشخص الذى يقترن بهما يخصهما قبل الولادة وقد اجتذبهما بقوة شبيهة بتلك التى توجه العوالم التى قضينا فيها حياتنا السابقة. لقد ألهماني السيد «دوشارلوس» عن أن أنظر إن كان الدبور يحمل إلى زهرة الأوركيدا غبار الطلع الذى كانت تنتظره منذ زمن طويل والذي لاحظ لها في وصوله إليها إلا بفضل مصادفة قليلة الاحتمال إلى حد أنه يمكن تسميتها نوعاً من الأعجوبة، بيد أن ما شهدته منذ قليل إنما كان كذلك أعجوبة من النوع ذاته تقريباً ولا يقل عنها روعة. وما إن نظرت إلى ذلك اللقاء من الزاوية تلك حتى بدا لي كل شيء موسوماً بالجمال. فالحيل الأكثر اتساعاً بالغربة التى استنبطتها الطبيعة لتجبر الحشرات على توفير تلقيح الأزهار التى من دونها ما كانت لتستطيع ذلك لأن الزهرة المذكورة بعيدة جداً عن الزهرة الأنثى، أو الحيلة التى، إن كانت الريح هي التى ستؤمن نقل غبار الطلع، تجعله أوفر سهولة في انتزاعه من الزهرة المذكورة وذلك بإزالة إفراز الرحيق الذى لم يعد مجدياً إذ ليس من حشرات اجتذب، وحتى ألقي التويجات التى تجتذبها، والحيلة التى تحمل الزهرة، كيما تُكرس للطلع اللازم الذى لا يمكن أن يثمر إلا داخلها، على إفراز سائل يحصنها ضد أنواع الطلع الأخرى ما كانت كلها لتبدو لي أكثر روعة من وجود نوع فرعي من الشاذين معد لتوفير متع الحب للشاذ المتشيع: نوع الرجال الذين يجتذبهم لاسائر الرجال، ولكن - من جراء ظاهرة توافق وتنغم شبيهة بتلك التى تنظم تلقيح الزهور المختلفة الحوامل والثلاثية الشكل كزهرة *Lythrum Salicana* - الرجال الذين يتجاوزونهم سناً إلى حد كبير فحسب. لقد قدم لي «جويان» منذ قليل مثلاً على هذا النوع الفرعي مع أنه أقل إثارة من أمثلة أخرى يستطيع كل جامع أعشاب بشري وكل عالم نبات أخلاقي ملاحظتها على الرغم من ندرتها ويقدم لهم شاباً ناضج الجسم كان ينتظر مفاتحات خمسينى مكرش صلب العود ويلبث لا مبالياً بمفاتحات الفتيان الآخرين بمثل ما تبقى عليه من عقم أزهار الـ *Primula Veris* ذات الحامل القصير مادامت لا تلقحها سوى أزهار الـ *Primula Veris* ذات الحامل القصير أيضاً، فيما ترحب فرحة بطلع الـ *Primula Veris* ذات الحامل الطويل. فأما ما كان من أمر السيد «دوشارلوس»، فقد تبين بعد ذلك على أي حال أن ثمة عدة أنواع اتصالات فيما يخصه كان بعضها يذكر، بتعدد وأنيته التى تكاد لا تراها العين وبانعدام الاتصال على وجه الخصوص بين الفاعلين، يذكر أكثر من أي شيء آخر بتلك الأزهار التى يجري تلقيحها داخل حديقة بطلع زهرة مجاورة لن تلمسها في يوم. فقد كان ثمة بعض أشخاص يكفيه أن يحملهم على الحجيء إلى منزله وأن يخضعهم على مدى بضع ساعات لسلطان كلامه كيما تهدأ رغبته التى ألهمها لقاء، أي لقاء. كان الالتقاء يتم بمحض أقوال تقال بمثل البساطة التى يتم بها في عالم النقايات. وأحياناً يجري الإشباع، مثلاً وقع له ذلك دون شك معي في العشية التى دعاني فيها بعد عشاء آل «غيرمانت»، بواسطة تأنيب عنيف كان البارون يقذف به في وجه الزائر مثلاً بعض الأزهار ترش عن بعد بفضل نابض الحشرة التى تشارك لا شعورياً بالجرم وترتلك. كان السيد «دوشارلوس» وقد انقلب من مسيطرٍ عليه إلى مسيطر، يحس أنه تطهر من قلقه وهماً، ويطرد الزائر الذى توقف في الحال عن الظهور مظهر المشتبه عنده. وإن الشذوذ نفسه أخيراً، إذ ينجم عن أن الشاذ قريب من المرأة إلى حد أكبر من أن يستطيع معه إقامة صلات مفيدة معها، إنما يرتبط من هنا بقانون أشمل يبقى من جرّاءه مقدار

كبير من الأزهار الخنثى عقيماً، أي بعقم التلقيح الذاتي. صحيح أن الشاذين غالباً ما يكتفون في بحثهم عن ذكر يشاذ يمثل تخنثهم، ولكنما يكفي أن لا ينتموا إلى جنس النساء الذي يحملون في داخلهم شيئاً منه لا يستطيعون استخدامه، وهذا ما يتفق للكثير من الزهور الخنثى وحتى لبعض الحيوانات الخنثى كالحلزونات التي لا تستطيع أن تلحق نفسها بنفسها ولكنما يمكن تلقيحها من جانب خنثا غيرها، وبذلك ربما رجح الشاذون الذين يجذون الانتماء إلى الشرق القديم أو إلى عصر اليونان الذهبي إلى ما كان أبعد، إلى عصور التجربة تلك التي لم يكن فيها لا الأزهار الثنائية المساكن ولا الحيوانات الوحيدة الجنس، إلى ذلك التنخث البدئي الذي يبدو أن بعض أوليات الأعضاء الذكرية في تشريح المرأة والأعضاء الانثوية في تشريح الرجل تحفظ أثرها. كنت أجد إيمائية «جوبيان» والسيد «دوشارلوس»، وهي بادئ الأمر غير مفهومة لدي، بمثل غرابة تلك الحركات الاغرائية التي توجهها للحشرات، فيما يرى «داروين»، الأزهار المسماة بالمركبة إذ ترفع أنصاف أزهار رؤسائها كيما تشاهد من مسافة أبعد، كممثل واحدة من مختلفة حوامل السمات تقلب أسديتها وتعطفها لتفتح طريق للحشرات أو تقدم لها غسولاً هو بكل بساطة مماثل لعطور الرحيق والتماح التويجات التي كانت في هذه اللحظة تجتذب الحشرات في الباحة. منذ ذلك اليوم كان لابد أن يغير السيد «دوشارلوس» ساعة زيارته للسيدة «دوفيلباريزيس» لا لأنه ما كان يمكنه التقاء «جوبيان» في مكان آخر وبصورة مريحة أكثر، بل لأن شمس مابعد الظهر وأزهار الشجيرات كانت ترتبط ولا شك بذكرها، مثلما كانت بالنسبة إليّ تماماً. ولم يكتف على أية حال بأن يعهد بأسرة «جوبيان» إلى السيدة «دوفيلباريزيس» والدوقة «دوغيرمانت» وإلى جماعة كاملة من الزبائن اللامعين الذين تزايدت مواظبتهم لدى الطرازة الشابة بقدر ما كانت بعض السيدات اللواتي قاومن أو تأخرن فحسب موضع عمليات انتقامية مريعة من جانب البارون إما ليكن عظة لمن يتعطف وإما لأنهن ايقظن حنقه ووقفن في وجه محاولات تسلطه. وجعل موقع «جوبيان» متزايد المرباح إلى أن اتخذته سكرتيراً له بصورة نهائية وأقامه ضمن الشروط التي سنشهدا فيما بعد. «آه ما أسعده رجلاً «جوبيان» هذا، تقول «فرانسواز»، وبها ميل إلى إنقاص أو تضخيم صنوف الطيبة حسبما تكون موجهة إليها أو إلى سواها. وما كان بها حاجة هنا إلى الغلو على أي حال ولا يداخلها شعور بالغيرة من جانب آخر إذ هي تحب «جوبيان» حباً صادقاً. وتضيف قولها: «آه البارون ما أطيبه رجلاً، وما أحسنه وأتقاه وما أكثر ما هو لائق! لو كان عندي ابنة أزوجهما وكنت من عالم الأغنياء لأعطيتهما للبارون مغمضة العينين»، فتقول أمي بهدوء: «ولكن يا «فرانسواز» سيكون لها الكثير من الأزواج تلك الابنة. تذكر أنك وعدت بها «جوبيان». وتجيّب «فرانسواز» قائلة: «أجل، فهو بدوره أحد من يسعدون امرأة أشد السعادة. وبعيداً نرى ثمة أغنياء وفقراء معدمين فإن ذلك لا يؤثر في الطبيعة؛ البارون و«جوبيان» إنهما من طينة الأشخاص ذاتها». وقد بلغت حينذاك كثيراً، على كل حال، لزاء هذا الكشف الأول، في الطابع الاصطفائي لظرف منتقى إلى هذا الحد. صحيح أن كلا من الرجال أشباه السيد «دوشارلوس» مخلوق خارق، فإنه إن كان لا يقوم بتنازلات لإمكانات الحياة، إنما يسعى أساساً إلى حب رجل من الجنس الآخر، يعني رجلاً يحب النساء (ولا يستطيع بالتالي أن يحبها)، فخلافاً لما كنت أظنه في الباحة حيث رأيت «جوبيان» منذ قليل يحوم حول السيد «دوشارلوس» مثلما زهرة الأوركيدا توجه دعوات للذبور، فان هؤلاء الأشخاص الاستثنائيين الذين نرثي لحالهم يشكلون جمهوراً، كما سنرى ذلك على صفحات هذا الكتاب، لسبب لن يكشف عنه إلا في النهاية، وهم يشكلون من أنهم بالأحرى مفرطو العدد لا قليلو العدد.

ذلك لأن الملاكين اللذين أقيما على أبواب صادوم ليعلما، فيما يقول سفر التكوين، إن كان سكانها قد فعلوا بالكامل كل هذه الأشياء التي تعالت صرختها حتى الأبدى السرمدي قد جرى اختبارهما، ولا يسعنا إلا أن نبتهج لذلك، أسوأ اختيار على يد الرب الذي لعله ما كان ينبغي أن يكل هذه المهمة إلا للوطني. فما كانت أعمار من قبيل «والد لستة أطفال، لديّ عشيقتان، الخ». لتحمل هذا الأخير على أن ينزل طوعاً السيف الملتهب ويخفف العقوبات. ولعله كان أجاب: «أجل، وإن زوجتك تكابد عذاب الغيرة». ولكنك حتى حينما لم تقدم على اختيار هاتيك النساء بنفسك في عامورة تقضي لياليك مع حارس قطعان من حبرون<sup>(١)</sup>. ولكن رده في الحال على أعقابيه إلى المدينة التي ستدمرها أمطار النار والكبريت. ولكنهم فسحوا على العكس في مجال الهرب لجميع اللواطيين الذليلين، وإن أداروا الرأس إذ يلمحون صبياً شاباً كامراً لوط، دون أن ينقلبوا لذلك تمثيل ملح مثلها. وعلى هذا النحو كانت لهم ذرية كثيرة لبثت تلك الحركة عادية عندها تشبه تلك التي تبدر عن النسوة الخليعات اللواتي يدرن الرأس باتجاه طالب فيما يتظاهرن بالنظر إلى معرض أحذية موضوع خلف واجهة. وذرية اللواطيين هذه، وهي كثيرة حتى يمكن أن نطبق عليها الآية الأخرى من سفر التكوين: «إن استطاع أحد أن يحصي تراب الأرض استطاع أيضاً أن يحصي هذه الذرية»، استقرت في الأرض كلها وامتهنت سائر المهن ودخلت إلى النوادي الأكثر انغلاقاً وأفلحت إلى حد تكون فيه الكرات السوداء، حينما لا يقبل لوطني فيها، كرات تعود غالبيتها للواطيين ولكنهم يحرصون على الطعن باللواطية إذ ورنوا الكذب الذي مكن جدودهم من مغادرة المدينة الملعونة. ومن الممكن أن يعودوا إليها ذات يوم. إنهم يؤلفون بالتأكد في جميع البلدان جالية شرقية مثقفة موسيقية ناماة تتسم بمزايا رائعة وعيوب لا تطاق. وسوف نشاهدهم على نحو أكثر عمقاً في الصفحات التالية. ولكننا ابتغى مؤقتاً اتقاء الخطأ المشؤم الذي قوامه، على النحو الذي جرى فيه تشجيع حركة صهيونية، إنشاء حركة لواطية وإعادة بناء صادوم. ولكن اللواطيين يهجرون المدينة ما إن يصلوا ويتخذون زوجات لهم وينفقون على عشيقات في مدن أخرى يجدون فيها من جانب آخر جميع التسلية الملائمة. ولا يمشون إلى صادوم إلا في أيام الضرورة الفائقة حينما تفرغ مدينتهم وفي تلك الأوقات التي يدفع فيها الجوع الذئب خارج الغابة، أي أن كل شيء يجري بإجمال القول، شأنه في لندن أو برلين أو روم أو بيطروغراد أو باريس. لم تمض بي أفكارى بأية حال في ذلك اليوم، وقبل زيارتي للدوقة، بعيداً إلى هذا الحد وكنت شديد الأسف أن يكون ربما فانتني، لانشغالي بالتقاء «جويان وشارلوس»، أن أشهد تلقيح الزهرة من جانب الدبور.

(١) هي مدينة الخليل.

## الجزء الثاني

### الفصل الأول

[السيد «دوشارلوس» في المجتمع - طبيب - وجه السيدة «دوفوغوير» المميز -  
السيدة «دارياجون»، نافورة «هوبيروير» ومرح الدوق الأكبر «فلاديمير» -  
السيدة «دامونكور»، السيدة «دوسيتري»، السيدة «دوسانت أوفيرت»، الخ -  
محادثة غريبة بين «سوان» والأمير «دوغيرمانت» - «ألبيرتين» على الهاتف -  
زيارات بانتظار ثاني وآخر إقامة لي في «البليك» - الوصول إلى «البليك» -  
مشاعر الغيرة تجاه «ألبيرتين» - تقلبات القلب \*]

لما كنت غير معجل في الوصول إلى أمسية آل «غيرمانت» تلك التي لم أكن أكيداً من أنني مدعو إليها فقد بقيت عاطلاً في الخارج، ولكن النهار الصيفي لم يكن أكثر مني استعجالاً في التحرك \* ومع أن الساعة جاوزت التاسعة فهو الذي كان لا يزال في ساحة «الكونكورد» يضيء على مسلة الأقصر هيئة «نوغا» وردية \* ثم هو غير لونها وقلبه مادة معدنية فإذا المسلة بذلك تضحي لا أكثر نفاسة فحسب بل تبدو مرققة وتكاد تكون لينة، كان يخيل إليك أنه بمقدورك، لو شئت، لِي هذه الجوهرة وأنه ربما جرى تزييفها تزييفاً طفيفاً \* كان القمر الآن على صفحة السماء كشط برتقالة قشر بلطف مع أنه بوشر بقضمه قليلاً \* ولكنه لا بد سيُصنع فيما بعد من الذهب الأكثر صلابة \* وحدها كانت تختفي وراءه نجمة صغيرة تعيسة سوف تكون بمثابة الرفيقة الوحيدة للقمر المتوحد فيما سينتضي هذا الأخير، وهو يحمي صديقته ولكنه أوفر جرأة ويمضي قدماً، ينتضي بمثابة سلاح لا يقاوم، بمثابة رمز شرقي، هلاله الذهبي الواسع الرائع \*

التقيت الدوق «دوشاتيلرو» أمام فندق الأميرة «دوغيرمانت»، وما عدت أتذكر أن الخشية كانت لا تزال تعذبني قبل نصف ساعة - وسوف تعود لتمسك بي بعد قليل على أية حال - خشية المجيء دون أن أكون دعيت \* والمرء يجزع، وإنما يتذكر جزعه فترة طويلة أحياناً بعد انقضاء ساعة الخطر، وقد نسيه بفضل التلهي \* وحييت الدوق الشاب ودخلت إلى الفندق \* ولكن لا بد لي هنا من الإشارة بادئ الأمر إلى ظرف زهيد سوف يمكن من إدراك واقعة تتبع بعد قليل \*

كان ثمة في ذلك المساء كما في سابقاته، واحد يفكر تفكيراً جماً بالدوق «دوشاتيلرو» دون أن يرتاب على أية حال بمن يكون: إنه حاجب السيدة «دوغيرمانت» (وكان يدعى في ذلك الحين «النَّاح») \* كان السيد «دوشاتيلرو»، وما أبعد أن يكون أحد آلاف الأميرة - مثلما كان أحد أبناء عمويتها - يرحب به للمرة الأولى في متنهاها \* كان والده قد اختصما معها منذ عشر سنوات وتصالحا وإياها منذ خمسة عشر يوماً وإذا اضطرا إلى التغيب في ذلك المساء عن باريس فقد عهدا لابنهما بتمثيلهما \* وقبل ذلك ببضعة أيام كان حاجب الأميرة قد التقى في «الشانزيليزيه» شاباً ألفاه فأتناً ولكنه لم يفلح في إثبات هويته \* لا لأن الشاب لم يبد لطفاً بمثل نبه \* فجميع صنوف المعروف التي تصور الحاجب من واجبه أن يقدمها لسيد حديث السن إلى



هذا الحد كان على العكس قد نالها هو • بيد أن السيد «دوشاتيلرو» كان خوافاً بقدر ما كان قليل التبصر • وكان تصميمه على أن لا يكشف عن تنكره يزداد بمقدار ما يجهل مع من يتعامل • ولعله كان أحسّ بخشية أكبر - مع أنها في غير محلها - لو عرف ذلك • كان الدوق قد اكتفى بأن يوهم أنه انكليزي واقتصر إزاء جميع الأسئلة المتحمسة التي يوجهها الحاجب الراغب في الوصول إلى شخص يدين له بهذا القدر من السرور والعطايا، اقتصر على أن يجيب على امتداد شارع «غابرييل»: I do not speak French (لست أتكلم الفرنسية)<sup>(١)</sup>.

ومع أن الدوق «دوغيرمانت» - بسبب نسب ابن عمه لأمه - كان يتظاهر على الرغم من كل شيء بأنه واجد شيئاً من آل «كورفوازييه» في صالة الأميرة «دوغيرمانت - بافيير»، فقد كانوا يحكمون بعامة على روح المبادرة والتفوق الفكري لدى هذه السيدة انطلاقاً من تجديد ما كنت تصادفه في أي مكان آخر في هذا الوسط. فقد كانت المقاعد بعد العشاء، وأية كانت أهمية الحفلة التي ستعقبه، مرتبة في منزل الأميرة «دوغيرمانت» على نحو يشكلون معه جماعات صغيرة تتظاهر إن قضت الحاجة • كانت الأميرة تبرز حينذاك حسها الاجتماعي إذ تضي للجلوس مع إحداهما وكأنما تفضلها • وما كانت تخشى بأية حال أن تختار وتجتذب أحد أعضاء جماعة أخرى • فإن حملت الأميرة السيد «دوتاي» مثلاً، وهو وافق بالطبع، على أن يلاحظ أي عنق جميل كانت تملكه السيدة «دوفيلمور»، وكان مكانها في جماعة أخرى يكشفها من جهة ظهرها، فما كانت تردد في رفع صوتها قائلة: «ياسيدة «دوفيلمور»، السيد «دوتاي» بوصفه رساماً عظيماً ينظر بإعجاب إلى عنقك». وتخص السيدة «دوفيلمور» في ذلك دعوة مباشرة إلى الحديث، وبالمهارة التي يوليها تعود الحصان تدير كرسياها على مهل وفق قوس يساوي ثلاثة أرباع الدائرة وتجلس، دون أن تزجج جيرانها في شيء، في مواجهة الأميرة تقريباً • وتسال ربة البيت التي لم تكفها الاستدارة الماهرة المحتشمة التي قامت بها مدعوها: «ألا تعرفين السيد «دوتاي»؟ - «لست أعرفه ولكنني أعرف أعماله»، تجيب السيدة «دوفيلمور» بهيئة كلها احترام وجاذبية وبحضور بديهة كان كثيرون يحسدونها عليه، فيما توجه للرسام المشهور الذي لم تكن المناداة عليه كافية لتقديره لها بصورة رسمية تحية تكاد لا تلاحظ، وتقول الأميرة: «تعال يا سيد «دوتاي» فسأقدمك للسيدة «دوفيلمور» • فكانت هذه تبدي براعة في إيجاد مكان لوضع لوحة «الحلم» بمقدار ما فعلت منذ قليل لتستدير صوبه • أما الأميرة فكانت تدفع لنفسها بكرسي، فهي ما نادت على السيدة «دوفيلمور» إلا لتجد حجة لتترك الجماعة الأولى، حيث أمضت الدقائق العشر النظامية، ونخص الثانية بمدة مساوية. وعلى مدى ثلاثة أرباع الساعة كانت الجماعات كافة قد حظيت بزيارتها التي تبدو كأنما يوجهها في كل مرة إلا الارتجال وضيوف الايثار • ولكنما مرادها على وجه الخصوص أن تبرز بأية تلقائية «تعرف سيدة كبيرة كيف تستقبل» • بيد أن المدعويين إلى الأمسية أخذوا بالتوافد الآن وجلست ربة البيت في مكان غير بعيد من المدخل - منتصبه مهيبة في جلالها الذي يقرب أن يكون ملوكياً، فيما تلتصع عيناها من جراء توجهها الذاتي - بين صاحبتي سمو يعوزهما الجمال وزوجة سفير اسبانية •

كنت أنتظر دوري خلف بعض المدعويين الذين سبقوني، وكان قبالي الأميرة التي لم يكن جمالها

(١) وردت بالانكليزية في متن النص.

وحده دون شك، من بين الكثير سواء، ما يذكرني بذلك الاحتفال. ولكن وجه ربة البيت كان شديد الكمال، كان محفوراً كميدالية جميلة إلى حد أنه احتفظ بالنسبة إليّ بخاصية تذكيرية. وكان من عادة الأميرة أن تقول المدعوها حينما تلتقيهم بضعة أيام قبل إحدى أمسياتها: «سوف تأتون، أليس كذلك؟» كما لو داخلتها رغبة كبيرة في التحدث إليهم. ولما لم يكن عليها على عكس ذلك أن تحدثهم في شيء فقد كانت تكتفي حالما يصلون أمامها، ودون أن تنهض، يقطع حديثها المقيم مع صاحبي السمو وزوجة السفير وباسداء الشكر وهي تقول: «لطيف أنكم جئتم»، لا لأنها ترى أن المدعو أبدى لطفاً بمجيئته بل لتزيد أيضاً من لطفها، ثم تضيف قولها وهي تدفع به في الحال إلى النهر «ستجد السيد «دوغيرمانت» على مدخل الحدائق»، وعلى هذا النحو كانوا يمضون في الزيارة ويدعونها وشأنها. وما كانت حتى تقول شيئاً لنفر منهم وتكتفي بأن تربهم عينها الرائعتين اللتين من عقيق اليمان كما لو أنهم أقبلوا إلى معرض للحجارة الكريمة فحسب.

كان أول شخص يمر قبلي الدوق «دوشاتيلرو».

ولما كان عليه أن يرد على سائر الابتسامات والتحيات باليد التي ترده من الصالة فإنه لم يلحظ الحاجب. ولكن الحاجب تعرفه منذ اللحظة الأولى. وهذه الهوية التي طالما رغب في الاطلاع عليها سوف يعرفها بعد فترة وجيزة. وما كان الحاجب متأثراً فحسب وهو يسأل «انكليزي» قبل البارحة عن الاسم الذي ينبغي أن يعلن عنه بل كان يحكم أنه متطفل وغير لبق. كان يبدو له أنه يزعم أن يكشف لكل الناس (مع أنهم لن يرتابوا بشيء) سراً كان من الإثم اكتشافه بهذه الطريقة وإعلانه على الملأ. وإذا سمع جواب المدعو: «الدوق «دوشاتيلرو» أحس باضطراب ناجم عن اعتزاز ظل معه حيناً أبكم صامتاً. ونظر إليه الدوق فعرفه وظن أنه هالك فيما كان الخادم، وقد استعاد رباطة جأشه وإذا يحيط بقدر كاف من تصنيف الشعارات كيما يكمل بنفسه تسمية مفرطة في تواضعها، كان يصرخ بالعزم الاحترافي الذي يطربه حنان خفي: «سمو الدوق «دوشاتيلرو»! ولكن جاء دوري الآن ليعلموا عن اسمي.

وإذا كنت غارقاً في تأمل ربة البيت التي لم تكن رأيي بعد فإني لم أفكر في الوظيفة الرهيبة بالنسبة إليّ - وإن كان على غير ما كانت عليه بالنسبة إلى السيد «دوشاتيلرو» - التي يشغلها هذا الحاجب الملتحف بالسواد كممثل جلاد يحيط به فريق من الخدم يرتدون الحلل الأكثر إشراقاً من أشخاص أقوىاء شديدي البنية على استعداد للقبض على أي دخيل والإلقاء به خارجاً. وسألني الحاجب عن اسمي فقلته له بمثل الآلية التي يسمح بها محكوم بالإعدام بأن يوثق إلى الخشبة. ورفع رأسه في الحال بجلال، وقبلما يمكنني أن أرجوه تقديمي بصوت خافت لمراعاة اعتزازي بنفسي إن لم أكن مدعواً واعتزاز الأميرة «دوغيرمانت» إن كنت مدعواً، زعق بالمقاطع الخفيفة بقوة يمكن أن تزعزع قبة الفندق.

يروي «هكسلي» الذائع الصيت (الذي يشغل ابن أخيه حالياً مركزاً متقدماً في دنيا الأدب الأنكليزي) أن إحدى مريضاته لم تعد تجرؤ على ارتياد المجتمع الراقي إذ غالباً ما كانت ترى في المقعد نفسه الذي يدلونها عليه بحركة متأدبة سيداً عجوزاً يجلس فيه. وكانت على يقين تام من أن الإشارة التي يدعونها بها أو وجود السيد العجوز كانا من باب الهلوسة، فما كانوا ليدلوها هكذا على مقعد مشغول، وحينما أرغمها

«هكسلي» بغية شفائها على العودة في حفلة الأمسية مرت بلحظة من التردد المؤلم وهي تسائل النفس إن كانت الإشارة اللطيفة الموجهة إليها هي الشيء الحقيقي أم أنها امتثال لرؤية لا وجود لها، تزمع الجلوس علناً على ركبتني سيد بلحمه وعظمه \* وكانت حيرتها الوجيزة قاسية عليها \* وربما كانت أقل من حيرتي \* فقد اضطرت منذ اللحظة التي وافاني فيها اسمي كقصص الرعد وكالهزيم الذي يسبق كارثة محتملة، اضطرت، كي أدافع عن حسن نيتي وكأنما لا يقلقني أي شك أن أتقدم من الأميرة وائق النفس \*

وأبصرتني وأنا على بضع خطوات منها وعوضاً عن أن تلبث جالسة شأنها مع المدعوين الآخرين نهضت وأقبلت إليّ، الأمر الذي لم يدع لي أن أشك بأنني كنت ضحية مكيدة \* واستطعت بعد ثانية أن أطلق تنهيدة ارتياح مريضة «هكسلي» حينما عزمت على الجلوس على المقعد فوجدته خالياً وأدركت أن السيد العجوز إنما كان ثمرة الهلوسة. كانت الأميرة قد مدت لي يدها وهي تبسم، وليثت واقفة على مدى لحظات بنوع اللطافة الخاص بمقطع شعري بـ «ماليرب» هذا ختامه:

«ويقف الملائكة لتكريمهم»<sup>(١)</sup>.

واعترضت عن أن الدوقة لم تكن بعد وصلت كما لو انبغى أن يصيبنني الملل بدونها \* وقد قامت من حولي لتبليغي تلك التحية، وهي تمسك بيدي، بتحويلة تفيض ظرفاً كنت أحسني مأخوذاً في دوامتها \* وكدت أتوقع أن تسلمني حينئذ، مثل مشرفة على حفلة مسافر، عصا بعقفة عاج أو ساعة يد. ولكنها لم تعطني بصريح العبارة شيئاً من ذلك، وكما لو أنها استمعت بالأخرى، بدلاً من أن ترقص «البوستون»، إلى رباعية قدسية لـ «بيتهوفن» خشيت أن تعكر ماسماً من أصواتها، أوقفت الحديث عند هذا الحد أو هي بالأحرى لم تبشر بل أطلعتني فحسب، ولا يزال وجهها يشرق من أنها أبصرتني داخلًا، على مكان وجود الأمير.

وابتعدت عنها وخانتني الجرأة بعدها على الاقتراب منها، إذ أحسست أن ليس عندها على الإطلاق ما تقوله لي وأن هذه المرأة الرائعة قامةً وجمالاً والنبيلة نبل الكثيرات من السيدات الكبيرات اللواتي اعتلن منصة الإعدام بهذا القدر من الاعتزاز، ما كانت تستطيع، بارادتها الطيبة التي لا تحدد، وإذ تنقصها الجرأة على أن تقدم لي ماء الترنجان، إلا أن تكرر ما سبق أن قالته لي مرتين: «تلقى الأمير في الحديقة» \* ولكن الذهاب إلى الأمير إنما كان يعني الإحساس بشكوكي تعود فتولد بشكل آخر.

كان ينبغي في جميع الأحوال العثور على من يقدمني \* وكنت تسمع جعجعة السيد «دوشارلوس» التي لا تنضب تطفئ على سائر الأحاديث الأخرى، وكان يتحدث إلى معالي الدوق «دوسيدونيا» الذي تعرف إليه منذ قليل. والناس يستشف بعضهم بعضاً بين مهنة وأخرى، وكذلك بين عيب وآخر. وقد استشم في الحال كل من السيد «دوشارلوس» والسيد «دوسيدونيا» عيب الآخر، وعيب كليهما في دنيا المجتمع أن يكونا من محترفي

(١) Malherbe شاعر من القرن السابع عشر هياً للكتابة الكلاسيكية بسعه إلى الوضوح والصياغة المحكمة. والقسيمة عن الأطفال الأبرياء الذين أمر هيرودس ملك اليهودية بقتلهم عله يقضي بذلك على المسيح.

«المفاجأة الذاتية» إلى حد لا يطيقان معه أية مقاطعة. ولما حكما في الحال أن الداء لا دواء له، كما تقول قصيدة مشهورة، فقد صمما لا على التزام الصمت بل أن يتحدث كل منهما دون أن يهتم لما قد يقوله الآخر. وقد تحققت بذلك تلك الضجة المبهمة الناجمة في مسرحيات «موليير» الهزلية عما يقوله عدة أشخاص في الآن نفسه من أشياء مختلفة. كان البارون متيقناً على أية حال أن تكون له الغلبة بصوته الداوي وأن يغطي صوت السيد «دوسيدونيا» الضعيف دون أن تفتت مع ذلك همة هذا الأخير، ذلك لأن الفترة الفاصلة، حينما يستعيد السيد «دوشارلوس» أنفاسه، كانت تملؤها وشوشة كبير القوم في اسبانية الذي كان يوالي حديثه رابط الجأش. ولعلني كنت سألت السيد «دوشارلوس» أن يقدمني للأمير «دوغيرمانت» ولكنني كنت أخشى (وكنتم أكثر من محق) أن يكون غاضباً مني. فلقد نهجت معه النهج الأكثر عقوقاً إذ أهملت للمرة الثانية عروضه ودون أن يصدر عني ما يشير إلى أنني حي أرزق منذ العشية التي صحبني فيها إلى البيت بذلك القدر من الود. وماكنت أملك مع ذلك بمثابة حجة مسبقة المشهد الذي رأيته منذ قليل، وفي هذه العشية ذاتها، يجري بين «جويان» وبينه. فما كنت أرتاب بشيء من هذا القبيل. صحيح أنني قبل ذلك بقليل، وفيما كان والداي ينعيان عليّ كسلي وأني لم أتكلف بعد عناء كتابة كلمة إلى السيد «دوشارلوس»، لمتهما لوماً عتيفاً لما يريدان حملي على قبول عروض غير شريفة. ولكن الغضب وحده والرغبة في العثور على الجملة التي يمكن أن تكون من أكثرها إزعاجاً لهما أملكاً على ذلك الجواب الكاذب. فما كنت بالحقيقة تخيلت أي أمر شهواني ولا حتى عاطفي في عروض البارون، وقد قلت ذلك لوالدي من باب الحمافة المحضة. ولكن المستقبل يسكن أحياناً في صدورنا دون أن ندري وكلماتنا التي نخالها كاذبة وإنما ترسم واقعاً آتياً.

لعل السيد «دوشارلوس» كان غفر لي قلة امتناني، إلا أن ما كان يثير حنقه أن حضوري في هذا المساء إلى منزل الأميرة «دوغيرمانت» وإلى منزل ابنة عمها كذلك منذ بعض الوقت كان يبدو وكأنه يسخر من التصريح العلني التالي: «ليس يدخل أحد إلى هذه الصالات إلا بأمر مني»، كان خطأ جسيماً وجرمًا يكاد لا يغتفر أنني لم أسلك السبيل التراتبي. والسيد «دوشارلوس» يعلم تمام العلم أن الصواعق التي يلوح بها ضد الذين لا يمثلون لأوامره أو الذين أخذ يكرههم شرعت تبدو، حسب رأي الكثيرين وأياً كان الحق الذي يشحنها به، صواعق من ورق ولم يعد بمقدورها أن تقضي عن أي مكان كائنات من كان. لكنه ربما ظن أن سلطته المنتقصة، ولاتزال كبيرة، لبثت كاملة غير منقوصة في نظر المبتدئين أمثالي. ولذلك لم أحكم أنني أحسن الاختيار إن سألته خدمة لي في حفلة كان يبدو محض وجودي فيها تكذيباً يسخر من ادعائه.

في تلك اللحظة استوقفتني رجل سوقي إلى حد ما هو الأستاذ أ... لقد أدهشه أن رأي في منزل آل «غيرمانت» ولم تكن دهشتي بأقل أن أجده هناك إذ لم يبصر أحد فيما مضى ولن يبصر فيما تلا شخصاً من طرازه في منزل الأميرة. فقد كان شفا الأمير منذ فترة من مرض ذات الرئة الانتاني، بعدما مسح المسحة الأخيرة<sup>(١)</sup>. وكان من شأن الامتنان الخاص الذي حملته له السيدة «دوغيرمانت» إزاء ذلك الأمر أن جرى تجاوز العرف والعادة وتمت دعوته. ولما كان لا يعرف أحداً البتة في تلك الصالات ولا يستطيع التجوال وحيداً إلى مالا نهاية شأن رسول الموت فقد أحس بعد ما عرفني، وللمرة الأولى في حياته، بطائفة من الأشياء يود أن

(١) في نفوس المسيحيين وتمنع عادة قبيل الوفاة، فهي تشير إذا إلى دنو الأجل.

يقولها لي، الأمر الذي كان يوليه تماسكاً، وكان ذلك أحد الأسباب التي من أجلها أقبل إليّ. كان ثمة سبب آخر. لقد كان يولي اهتماماً كبيراً أن لا يقع يوماً في خطأ تشخيصي. ولكن بريده كان كثيراً إلى حد ما كان يتذكر معه تماماً وعلى الدوام، إن لم ير المريض سوى مرة واحدة، إن كان المرض قد سار تماماً سيره الذي حدده له. فلعلنا لم ننس أنني بادرت ساعة النوبة التي أملت بجذتي إلى مرافقتها إلى منزله في المساء الذي كان يطلب أن يخطبوا له ذلك المقدار من الأوسمة. وماعاد يذكر منذ الزمن الذي انقضى بطاقة النعية التي أرسلت إليه في ذلك الحين. «إن السيدة جدتك قد ماتت، أليس كذلك؟» يقول لي بصوت يلطّف فيه شبه اليقين تخوفاً طفيفاً. «آه؛ أجل، فمنذ أول دقيقة شاهدتها فيها جاء تقديري قائماً جداً، أذكر ذلك تماماً».

هكذا عرف الأستاذ... أو عاد فعرف بموت جدتي دون أن يبدي، ولابد من أن أقول هذا مدحاً له، وهو مديح يطال الهيئة الطبية بأسرها، أو ربما دون أن يداخله شعور بالرضى. إن أخطاء الأطباء لا تخصي. فهم عادة يفرطون في تفاؤلهم فيما يخص الحمية وفي تشاؤمهم فيما يخص الخاتمة. «بعض النبيذ؟ بكميات معتدلة لا يمكن أن يصيبك أذى من ذلك، فهو باجمال القول منشط... المتعة الجسدية؟ إنها في النهاية وظيفة. أسمح بذلك دون إفراط، تفهمني تماماً؛ فالشطط في كل أمر معابة. وأي إغراء من ذلك يدفع المريض للتخلي عن هذين المرمين للصحة؛ الماء والعفة؛ وفي المقابل ان كان ثمة شيء في القلب أو كان زلال، الخ.. فلن يطول بك المشوار. وما أسرع ما تعزى اضطرابات خطيرة ولكنها وظيفة لسرطان متخيل. ولا فائدة من موالاة زيارات لا يمكن أن توقف داء لا مفر منه. فان فرض المريض إذ ذاك على نفسه، وقد ترك شأنه، حمية قاسية وشفي بعدها أو لبث على الأقل على قيد الحياة، فإن الطبيب، حينما يسلم عليه في شارع الأوبرا فيما كان بظنه منذ فترة طويلة في المقبرة، سوف يصبر في القبة هذه لفترة وقحة مستهزئة. وإن نزهة بريئة تجري تحت سمع وبصر رئيس محكمة الجنايات ما كانت لتثير في صدره غضباً أعظم، رئيس محكمة الجنايات الذي أصدر قبل سنتين حكماً بالاعدام على المتسكع الذي يبدو عديم الخوف. والأطباء (والأمر لا يتعلق بجمعهم بالطبع وللسنا نفعل، في ذهننا، استثناءات رائعة) أكثر استياء بعامة وأكثر اغتياظاً لبطلان حكمهم منهم ابتهاجاً بتنفيذه. ذلك ما يفسر أن عرف الأستاذ... كيف لا يكلمني إلا بلهجة حزينة عن المصيبة التي أملت بنا، أياً كان السرور الفكري الذي أحس به دونما شك إذ رأى أنه لم يخطئ. لم يكن حريصاً على تقصير المحادثة التي كانت تزوده بالتماسك وبسبب للبقاء. وحدثني عن الحر الشديد الذي يسود في هذه الأيام ولكنه قال لي، مع أنه مثقف وكان يمكن أن يتكلم بفرنسية صحيحة: «ألا تعاني من زيادة الحرارة؟» ذلك لأن الطب حقق بعض وجوه التقدم الطفيفة في معلوماته منذ «موليير» ولكنه لم يحظ بشيء منه في مفرداته. وأضاف محدثي يقول: «ما ينبغي هو تجنب «التعريق» الذي يسببه طقس كهذا ولا سيما في الصالات التي بولغ في تدفئتها. ويمكنك تلافي ذلك، حينما تعود وتوافيك الرغبة في الشرب، بالحرارة (التي تعني بالبداهة الأشربة الساخنة).

كان الموضوع يثير اهتمامي نظراً للطريقة التي توفيت بها جدتي، وكنت قرأت مؤخراً في كتاب لعالم كبير أن التعرق يلحق الضرر بالكليتين إذ يدفع عن طريق الجلد ما كان مخرجاً من مكان آخر. كنت آسف لفترات الحر هذه التي ماتت جدتي في اثائها وكنت على شفا اتهامها. لم أحدث الدكتور... بالأمر ولكنه

قال لي من تلقاء نفسه: «من مزاي فترات الحر الشديد هذه التي تشهد غزارة في التعرق أن الكلية تصيب من ذلك انفراجاً بالمقدار نفسه». وليس الطب علماً دقيقاً.

كان هم الأستاذ... الوحيد، وقد تشبث بي، أن لا يتركني. غير أنني كنت لحت منذ قليل المريكز «دوفوغوبير» وهو يوجه للأميرة «دوغيرمانت» تحيات وانحناءات واسعة ذات اليمين وذات الشمال بعدما تراجع خطوة إلى الوراء. وكان السيد «دونورپوا» قد يسر لي مؤخراً التعرف به وكنت أمل أنني واجد فيه من يستطيع تقديمي لسيد البيت. إن حجم هذا المؤلف لا يسمح لي بأن أوضح هنا على أثر أية أحداث في صباه أصبح السيد «دوفوغوبير» أحد الأشخاص الوحيدين في دنيا المجتمع (وربما الوحيد) ممن اتفق لهم أن يلجوا ما كانوا يدعونه في صادم «عالم أسرار» السيد «دوشارلوس». وإن كان لوزيرنا لدى الملك «تيودوز» بعض معاييب البارون نفسها فما كان ذلك إلا على صورة ظلال لها باهتة جداً. فما كان يدي إلا بصيغة ملطفة إلى مالا حدود عاطفية بلهاء هذه التناوبات في الود والبغضاء التي تدفع البارون إليها رغبته في الإبهار ثم خشيته - وهي أيضاً من نسج الخيال - من أن يحقر أو يكتشف على الأقل. ومع أن تلك التناوبات أضحت مدعاة للسخرية من جراء تعفف و«أفلاطونية» لديه (ضحى في سبيلهما، فعل الطامح الكبير، بكل متعة وذلك منذ أن بلغ سن المسابقة)، ومن جراء عجزه الفكري خصوصاً، فقد كان السيد «دوفوغوبير» يعاني منها مع ذلك، تلك التناوبات. وفيما كانت صنوف المديح المفرطة لدى السيد «دوشارلوس» تكال بأعلى الصوت بألقٍ بلاغي حقيقي وتبجل بأكثر صنوف السخرية رهافة وأشدّها إيلاًماً من تلك التي تطبع المرء مدى الحياة، فإن الود لدى السيد «دوفوغوبير» كان يلقي تعبيرة على العكس في ابتذال انسان من أرذل طراز ورجل من المجتمع الراقى وموظف، والمآخذ (وهي بعامية مختلفة تماماً كحالها عند البارون) تعبر عنها نزعة للإساءة لا تكل ولكنها خلو من النباهة ويزيد من طابعها المنكر أنها كانت تناقض عادة الأقوال التي سبق أن أدلى بها الوزير قبل ستة أشهر وربما يدلي بها ثانية بعد انقضاء بعض الوقت؛ وهي انتظام في التغيير كان يولي مختلف مراحل حياة السيد «دوفوغوبير» شاعرية تكاد تكون فلكية وإن لم يكن أحد لولا ذلك يذكر أقل منه بالأفلاك.

لم يكن في تحية المساء التي رد بها على شيء مما ربما كانت عليه تحية السيد «دوشارلوس». فقد كان السيد «دوفوغوبير» يضيف على تلك التحية المسائية، بالإضافة إلى الأنماط الألف التي يظنها أنماط المجتمع الراقى والديبلوماسية، مظهراً بعيداً عن اللياقة رقيقاً بشوشاً ليبدو مفتوناً بالحياة من جهة - فيما يجتر في داخله خبيات حياة وظيفية لا ترقية فيها يلاحقها تهديد الإحالة على التقاعد - وفتياً قوي الشكيمة فانتاً، في حين كان يرى، ولا يجزؤ من بعد حتى أن يمضي ويشاهد في المرأة، التجاعيد تنحفر في حوافي وجهه ود أن يحتفظ به مليئاً بصنوف الفتنة. وليس يعني ذلك أنه كان تمنى «غزوات» فعلية كان يخشى محض فكرتها بسبب القيل والقال والفضائح والابتزاز. كان يبدو، وقد انتقل من تهتك يكاد يكون طفولياً إلى تعفف مطلق بدأ من اليوم الذي فكر فيه بـ «الكية دورسيه»<sup>(١)</sup>. وعزم على بناء مستقبل زاه، كان يبدو مثل وحش في قفص يُنقل في

(١) مركز وزارة الخارجية الفرنسية.

كل اتجاه نظرات يعمرها الخوف والشهوة والغباء. كان غباؤه عظيماً إلى حد لا يفكر معه أن «زعران» فترة مراهقته ليسوا بعد صبية ويرتعش، حينما يصبح بائع صحف في وجهه قائلاً: «الصحافة!»، يرتعش لهللاً أكثر منه شهوة إذ يظن أنه عرف واكتشف.

بيد أن السيد «دوفوغوير»، في غياب المتع المضحي بها على مذبح عقوق «الكي دورسيه»، كان يحس اندفاعات مفاجئة في فؤاده - ولذلك كان يود أن يلبث موضع إعجاب. والله يعلم عدد الرسائل التي كان يهوق بها الوزارة وأية حيل شخصية يلجأ إليها وعدد الاقتطاعات التي يجريها استناداً إلى سمعة السيدة «دوفوغوير» (التي يظنونها، بسبب ضخامتها وطيب محلقتها ومظهرها الرجولي وبسبب ضعف زوجها على وجه الخصوص، صاحبة قدرات بارزة وتقوم بمهام وزارية حقة) كي يدخل في ملاك البعثة الوظيفي دون أي سبب مقبول شاباً يفتقر إلى أي مؤهل. صحيح أنه بعد انقضاء عدة أشهر أوعده سنوات، ولأقل ما يبدو أن الملحق الباهت أبدى، دون أن يكون ثمة ذرة من سوء النية، ما ينم عن فتور إزاء رئيسة فإن هذا الأخير كان يبدى في معاقبته، إذ يظن أنه موضع ازدراء أو خيانة، ما كان يبدى بالأمس من اندفاع هستيري في غمره بالخيرات. كان يحرك السماوات والأرض كي يجري استدعاؤه ويتسلم مدير الشؤون السياسية في كل يوم رسالة: «ما عساكم تنتظرون لتخليصني من هذا الماكر؟ روضوه قليلاً لمصلحته. وإنما حاجته أن يرغم قليلاً على شظف العيش». كانت وظيفة الملحق لدى الملك «ثيوودوز» غير مستحبة بعض الشيء بسبب ذلك. بيد أن السيد «دوفوغوير» كان في كل ما تبقى، وبفضل حس رجل المجتمع السليم لديه، أفضل ممثلي الحكومة الفرنسية في الخارج. فحينما حل مكانه فيما بعد رجل مزعوم التفوق وديمقراطي متزمت كان عالماً في كل الأمور لم تلبث الحرب أن اندلعت بين فرنسا والبلاد التي كان يحكمها الملك.

والسيد «دوفوغوير» ما كان يحب، على غرار السيد «دوشارلوس» أن يكون البادئ بالتحية. فكلاهما كانا يفضلان «رد التحية» إذ يخشيان على الدوام الأقاويل التي ربما سمعها عنهما منذ أن لم يراه ذاك الذي كانا مدا له اليد لتحيته لولا ذاك. أما بالنسبة إليّ فلم يقع على السيد «دوفوغوير» أن يطرح السؤال على نفسه فقد كنت الأول في الذهاب لتحيته، إن لم يكن لأمر فلغاري السن علي الأقل. ورد عليّ ذاهلاً مفتوناً، فيما توالي عيناه اضطرابهما كما لو كان في كل جانب برسيم حطر رعية. وظننت من اللياقة أن التمس منه تعريفي بالسيدة «دوفوغوير» قبل تعريفي بالأمير الذي اعتزمت أن لا أكلمه إلا فيما بعد. وبدا أن فكرة القيام باتصالات مع زوجته تملؤه بهجة بالنسبة إليه وإليها على السواء ومضى بي بخطى ثابتة إلى المركيزة. بيد أنه لبث، بعدما وقف أمامها وأشار إليّ باليد والعينين وبكل مظاهر التقدير الممكنة، لبث معقود اللسان وانسحب بعد بضع ثوان يهزه الفرح ليدعني وحيداً مع زوجته التي بادرت في الحال تمد لي يدها ولكن دون أن تعلم إلى من توجه أمارات التلطف تلك، فقد أدركت أن السيد «دوفوغوير» نسي كيف يدعوني، بل لعله لم يتعرفني ولم يشأ بداعي التأدب أن يقر لي بذلك فجعل التقديم مجرد عملية إيمائية. ورأيتني لذلك لم أكسب الكثير. فكيف أحمل امرأة لا تعرف اسمي على تقديمي لسيد البيت؟ كما رأيتني ملزماً بالتحدث لحظات إلى السيدة

«دوفوغوير». وكان الأمر يزعجني من وجهتي نظر اثنتين. فما كنت أحرص على المكوث دهرًا في هذه الحفلة إذ سبق لي أن اتفقت و«ألبيرتين» (وكنيت قدمت لها مقصورة مسرحية «فيدر»<sup>(١)</sup>) لتأتي الملاقاة قبل منتصف الليل بقليل. ما كنت بالتأكيد مغرمًا بها، وإنما انسقت في طلب مجيئها في هذا المساء لرغبة شهوانية بحثة على الرغم من أننا في تلك الفترة اللاهبة من العام حيث تفضل النزعة الشهوانية المحررة التوجه إلى مطارح ذوق والبحث على وجه الخصوص عن الابتعاد. فهي أكثر عطشًا إلى شراب يرتقال، إلى استحمام، بل إلى تأمل هذا القمر المقشور الريان الذي يطفئ ظمأ السماء منها إلى قبلة فتاة. لكنني كنت أنوي مع ذلك التخلص إلى جانب «ألبيرتين» - وهي تذكرني على أية حال بندوة الموج - من صنوف الأسف التي لا بد أن يخلفها في نفسي الكثير من الوجوه الفاتنة (إذ كانت الأمسية التي تقيمها الأميرة أمسية للفتيات والسيدات في الآن نفسه). ثم إن وجه السيدة «دوفوغوير» من ناحية أخرى، وهو «بوربون»<sup>(٢)</sup> كئيب، ما كان به أي جاذب.

كانوا يقولون في الوزارة، دون أن يضمّنوا الأمر ذرة خبث، إن الزوج من كان في الأسرة يلبس التنانير والمرأة البناتيل. وكان ثمة قسط من الحقيقة أكبر مما يظنون. فالسيدة «دوفوغوير» كانت رجلاً. فهل كانت تلك حالها على الدوام أم أنها أصبحت ما كنت أراها فيه، لا أهمية للأمر فإننا واجدون في كلا الحالين إحدى أكثر معجزات الطبيعة تأثيراً في النفس من التي تقرب، ولا سيما الثانية منها، مملكة الإنسان من مملكة الأزهار. فالطبيعة في الافتراض الأول - إن سبق أن كانت السيدة «دوفوغوير» العتيقة على الدوام بالمظهر الرجولي المتناقل هذا - تولي الفتاة، بحيلة شيطانية مفيدة، هيئة رجل مضللة. ويسعد المراهق الذي لا يحب النساء وابتغي الشفاء، في العثور على مخرج قوامه اكتشاف خطيبة تمثل له عتريساً من سوق الهال. وفي الحالة المقابلة إن لم تملك المرأة منذ البداية المزايا الرجولية فإنها تتخذها شيئاً فشيئاً لتروق زوجها حتى بصورة لا واعية بهذا النوع من التقليد الذي تتخذ به بعض الأزهار مظهر الحشرات التي تبغي اجتذابها. فأسفها أن لا تكون محبوبة وأن لا تكون رجلاً يجعلها «تسترجل». فمن ذا لم يلاحظ، حتى خارج نطاق الحالة التي تشغلنا، إلى أي حد يخلص الأزواج العاديون كأكثر ما يكون إلى التشابه فيما بينهم، بل إلى تبادل صفاتهم أحياناً؟ كان أحد مستشاري ألمانيه السابقين، وهو الأمير «دوبولوف»، قد تزوج إيطالية. وقد لوحظ على مر الأيام فوق «البيتشيو» كم اكتسب الزوج الجيرماني من رهافة إيطالية والأميرة الإيطالية من خشونة ألمانية. وكل منا يعرف، كما نخرج إلى نقطة خارج مركز القوانين التي نرسمها، دبلوماسياً فرنسياً بارزاً لا يوحى بأصله إلا اسمه وهو من أكثرها شهرة في الشرق. وإذا نضج وشاخ تكشف داخله الشرقي الذي لم يرتب قط بوجوده، وإنك لتأسف إذ تراه لغياب الطربوش الذي يستكمله.

وكما نعود إلى ألوان من السلوك مجهولة تماماً لدى السفير الذي جئنا منذ قليل على التذكير بخطوط صورتها المتكاثفة منذ الجدود، فإن السيدة «دوفوغوير» كانت تحقق النموذج المكتسب أو المقدر الذي تمثل

(١) Phedre من المسرح الكلاسيكي في القرن السابع عشر وهي لكبير المسرحيين آنذاك «راسين».

(٢) من طراز آل «بوربون» ومنهم ملوك فرنسا.



صورته الخالدة أميرة منطقة «البالاتينا» وهي دوماً بلباس الفرسان والتي بعدما أخذت من زوجها ما كان أكثر من الرجولة، وتمثلت عيوب الرجال الذين لا يحبون النساء نددت في رسائلها، رسائل المرأة الثائرة، بالعلاقات التي يعقدها فيما بينهم كبار الأسياد في بلاط لويس الرابع عشر. وإن أحد الأسباب التي تزيد من المظهر الرجولي لنساء من طينة السيدة «دوفوغويير» هو الإهمال الذي يدعهن الزوج فيه والخزي الذي يتتبعهن من جرائه فيصمنّ بالعار كل ما كان من المرأة لديهن. ويخلصن في نهاية المطاف إلى اتخاذ المزاي والعيوب التي لا يملكها الزوج. فكلما ازداد طيشاً وتختناً وسلوكاً فاضحاً أصبحن وكأنهن الصورة التي فقدت سحرها للفضائل التي ينبغي للزوج أن يمارسها.

كان ثمة آثار من الخزي والملل والحنق تكدر وجه السيدة «دوفوغويير» المنتظم الخطوط. وكنت أحس للأسف أنها تتألمني باهتمام وفضول كواحد من هؤلاء الشبان الذين كانوا يروقون السيد «دوفوغويير» والتي كم لعلها كانت تريد أن تشبههم الآن وقد أصبح زوجها المتشيخ يفضل الشباب. كانت تنتظر إليّ باهتمام جماعة من الريف ينسخون من دليل مخزن للأزياء الحديثة الحلة النسائية التي ما أكثر ما تلبق بالمرأة الحلو المرسومة فيه (وهي واحدة في الحقيقة على سائر الصفحات ولكنها تعددت بالوهم نساء مختلفات بفضل اختلاف الوقفات وتنوع الترسيمات). لقد بلغ الجاذب النبائي الذي يدفع بالسيدة «دوفوغويير» صوبي حدا جعلها تمسك بعنف بذراعي كي أمضي بها لاستقاء كوب من شراب البرتقال. ولكنني تملصت بحجة أنني لم أكن بعد تعرفت سيد البيت وأنا أزمع الرحيل بعد قليل.

لم تكن المسافة التي تفصلني عن مدخل الحقائق حيث كان يتحدث إليّ بعض الناس كبيرة جداً ولكنها تبعث في قسطاً من الخوف أكبر مما لو اضطررت لاجتيازها أن أتعرض لإطلاق نار مستمر.

كان في الحديقة كثير من النساء اللواتي بدا لي من الممكن حملهن على تقديمي، وكان هناك لا يعلمن ما يفعلن فيما يتظاهرن بالإعجاب الشديد. والحفلات التي من هذا القبيل تجري بعامة قبل أوأنها، إذ تكاد لا تُصحي واقعاً إلا في الغد حيث تشغل اهتمام الجماعة التي لم تُدعَ، إن الكاتب الحقيقي المجرد من اعتزاز غبي بالنفس بيديه الكثير من رجال الأدب، إن قرأ مقالة ناقد أظهر له على الدوام أعظم الإعجاب فرأى فيها أسماء مؤلفين ضحلين مذكورة فيها من دون اسمه، لا متسع لديه من الوقت للتوقف إزاء ما قد يكون في نظره موضع استغراب، فإن كتبه تستدعيه. ولكنما لشيء لدى امرأة المجتمعات تفعله وإذ ترى في صحيفة «الفيغارو»: «بالأمس أقام أمير وأميرة «غيرمانت» أمسية كبيرة، الخ..» فإنها تصبح متعجبة: «كيف ذلك؛ منذ ثلاثة أيام تحدث على مدى ساعة إلى «ماري جيلبير» دون أن تقول لي شيء عن ذلك» وينفلق رأسها لتعلم ما الذي أمكن أن تفعله لآل «غيرمانت». ولا بد أن نقول بخصوص حفلات الأمير إن الاستغراب كان أحياناً لدى المدعوين بمثل حجمه لدى من لم يدعوا. فقد كانت تنطلق حينما تتوقعها أقل ما تتوقع ويستدعون فيها أناماً نسيتهن السيدة «دوغيرمانت» على مدى سنوات. إن سائر ناس المجتمعات تقريباً تافهون إلى حد أن كلا من أمثالهم لا يتخذ مقياساً للحكم عليهم سوى لطفهم فيعزهم مدعوا ويمقتهم مستبعداً. ولئن كانت الأميرة فيما يخص هؤلاء لا تدعوهم، وإن كانوا في عداد أصدقائها، فإنما مرد ذلك في الغالب خشيتها إغضاب

«بالاميد» الذي ألقى عليهم الحرم. كان يسعني لذلك التأكد من أنها لم تكلم السيد «دوشارلوس» عني وإلا لما وجدتني هناك. لقد اسند مرفقه الآن، بمواجهة الحديقة وإلى جانب سفير ألمانية، إلى درابزون الدرج الكبير الذي يعيدك إلى الفندق حتى إن المدعوين، على الرغم من ثلاث أو أربع معجبات تجتمعن حول البارون وكن يحببته تقريباً، كانوا مرغمين على المجيء لتحيته تحية المساء. كان يرد التحية وهو يدعو الناس باسمائهم. وكنت تسمع على التوالي: «مساء الخير سيد هازيه»، مساء الخير سيده «دولاتور دويانغير كلوز»، مساء الخير سيده «دولاتور دويان غوفيرنيه»، مساء الخير «فيليبير»، مساء الخير أيتها السفيرة العزيزة، الخ.. كان ذلك يحدث زعقات مستمرة تقطعها توصيات مجانية وأسئلة (ما كان ينتظر الجواب عنها) وكان السيد «دوشارلوس» يوجهها بلهجة ملطفة متكلفة، كي يظهر اللامبالاة، ورقية: «إحرص أن لا تصاب الصغيرة بالبرد فالحقائق دوماً على رطوبة قليلة. مساء الخير مدام «دورانت»، مساء الخير مدام «دوميكلمبور». هل جاءت الفتاة؟ وهل ارتدت فستانها الزهري الرائع؟ مساء الخير «سان جيران». كان في ذلك التصرف شيء من الكبرياء بالتأكيد. فقد كان السيد «دوشارلوس» يعلم أنه «غير مانتني» يشغل مركزاً راجحاً في هذا الاحتفال. ولكن لم يكن ثمة كبرياء فحسب، وكانت كلمة احتفال ذاتها تذكر، بالنسبة للرجل ذي المواهب الجمالية، بالمعنى الفخم الغريب الذي يمكن أن تحمله لو أقيم هذا الاحتفال لا في منزل جماعة من دنيا المجتمعات بل في لوحة لـ «كارياتشيو» أو «فيرونيز». بل الأرجح أن الأمير الألماني الذي يمثله السيد «دوشارلوس» كان لا يد يتصور بالأحرى الاحتفال الذي يجري في «تانهويزر»، وهو نفسه على أنه «المارغراف» يقدم على مدخل «فاربورغ» كلمة طيبة دانية الجانب إلى كل من المدعوين فيما تحيي تدفقهم في القصر أو الحديقة الجملة الطويلة التي تستعد مئة مرة والواردة في «المارش» المشهورة.

كان لا بد لي مع ذلك أن أحزم أمري. كنت فعلاً أتعرف نساء تحت الشجر كنت على علاقة صداقة تزيد أو تقل معهن ولكنما يبدو أنهن تحولن لأنهن في منزل الأميرة لا في منزل ابنة عمها وأني أشاهدن جالسات لا أمام طبق من خبز «ساكسوني» بل في ظل أغصان شجرة كستناء. وما كانت أناقة الوسط لتغير في ذلك شيئاً ولعل الاضطراب نفسه كان سكن صدري حتى لو أن الأناقة جاءت أقل إلى مالا حدود مما هي في منزل «أوريان». فأما إن انطفأت الكهرباء ووقع علينا أن نستبدل بها مصابيح زيتية فإن كل شيء يبدو لنا وقد تغير. وانتزعتني السيدة «دوسوفريه» من دائرة شكوكي، وقالت لي وهي تقبل إلي: «مساء الخير. هل مضى زمن طويل دون أن تشاهد الدوقة «دوغيرمانت»؟ كانت تجيد في إكساب هذا النوع من الجمل نبرة تبرهن أنها ما كانت تقولها بمحض غيباء شأن أناس لا يعلمون ما يتحدثون به فيوافونك ألف مرة بذكر خبر شائع يغلب أن يتسم بالابهام الشديد، ولكنها قدمت على العكس بالعين خيلاً موهجاً دقيقاً يعني: «لا تظنن أنني لم أتعرفك، فإنك الشاب الذي رأيته في منزل الدوقة «دوغيرمانت». أتذكر تماماً. ومن أسف أن هذه الحماية التي تبسطها فوق هذه الجملة الغبية في ظاهرها اللطيفة في مقصدها كانت هشة أشد الهشاشة وتلاشت حالما أردت استعمالها. فقد كانت السيدة «دوسوفريه» تملك، إن ابغى لها دعم التماس لدى واحد من ذوي النفوذ، الفن الذي تبدو به في نظر طالب الالتماس وكأنها توصي به وفي نظر الشخصية الرفيعة المستوى وكأنها لاتوصي بالطالب بطريقة تولي بها هذه اللفتة المزدوجة المعنى قسطاً من العرفان بالجميل إزاء هذا الأخير

دون أن تحمله أي دين إزاء الآخر. وقد أفادت هذه السيدة، بعدما شجعتني لطافتها على أن أسألها تقديمي للسيد «دوغيرمانت»، من لحظة لم تكن فيها أنظار سيد البيت موجهة صوبنا فأخذت بي من كفتي مأخذ الأم ودفعت بي، وهي تبتسم للأمير الذي أشاح بوجهه فلا يستطيع أن يراها، دفعت بي بحركة حانية مزعومة ومقصودة في لاجدواها ألفتيني معها معطلاً وفي ما يقارب نقطة البداية. ذلكم خور أهل المجتمع الراقي.

أما عن جبن سيدة أقبلت لتحيني وهي تدعوني باسمي فقد كان بعد أعظم. كنت أحاول العثور على اسمها فيما اتحدث إليها، وأتذكر بالتمام أنني تناولت عشائي وإياها كما أتذكر الكلمات التي قالتها. ولكن انتباهي المنصب على المنطقة الداخلية التي تقبع فيها ذكرياتي عنها ما كانت تستطيع اكتشاف هذا الاسم، مع أنه كان هناك. وياشر فكري كأنما نوعاً من اللعب معه لإدراك تقاطعه والحرف الذي يبدأ به ولوضعه بكليته في الضوء في نهاية المطاف. ولا يجديني ذلك فتيلاً؛ كنت أحس تقريباً كتلته ووزنه، أما بشأن أشكاله فكنت أقول في نفسي، وأنا أقرنها بالسجين الخامض القابع في الظلمة الداخلية: «ما هو هذا». ربما كان فكري بالتأكيد قادراً على إبداع الأسماء الأكثر صعوبة. والمصيبة أنه لم يكن عليه أن يدع بل أن يقلد. فكل حركة للفكر على يسر إن لم تخضع للواقع.

وهنا كان لابد لي من الخضوع له. وأخيراً جاءني الاسم كله دفعة واحدة: «السيدة داريجون». لكن من الخطأ القول إنه جاء، فإنه لم يظهر لي، فيما أعتقد، باندفاع ذاتية. ولست أظن كذلك أن الذكريات البسيطة الجملة التي تتعلق بتلك السيدة والتي لم أفتأ أسألها العون لي (بصنوف من التحريض من هذا القبيل: «ويحك، إنها تلك السيدة صديقة السيدة «دوسوفريه» والتي تكن ليفيكتور هوغو اعجاباً شديد السذاجة بخالطة الكثير من الذعر والفظاعة»). لست أعتقد أن هذه الذكريات جميعاً، وهي تنتقل مرفرفة بيني وبين اسمها، قد جاءت بأية فائدة في إعادته إلى السطح. ليس في هذه «التخاية» الكبرى التي تجري في الذاكرة حينما نبتغي العثور ثانية على أحد الأسماء، ليس ثمة سلسلة من المقاربات المتدرجة. فإنك لا تبصر شيئاً ثم يظهر فجأة الاسم الصحيح والمختلف كثيراً عما يخيّل إلينا أننا حزننا. فما هو الذي جاء إلينا. لا، وإني أظن بالأحرى أننا كلما امتد بنا العيش أمضينا الوقت في الابتعاد عن المنطقة التي يكون فيها الاسم مميزاً واضحاً وأني بتدريب لإرادتي وانتباهي كان يزيد من حدة نظرتي الداخلية اخترقت فجأة منطقة نصف العتمة وأبصرت بوضوح. وإن يكن في جميع الأحوال أطوار انتقالية بين النسيان والتذكر فإن هذه الأطوار إذ ذاك لا شعورية. ذلك لأن الأسماء المرحلية التي نعبّر منها قبل أن نجد الاسم الحقيقي خاطئة ولا تقرّبنا في شيء منه، وهي ليست حتى أسماء بالمعنى الحقيقي ويغلب أن تكون مجرد صوامت لا نعود فنلقاها في الاسم الذي عثرنا عليه. ومهما يكن من أمر فإن عمل الفكر هذا الذي ينتقل من العدم إلى الحقيقة خفي إلى حد يمكن معه أن تكون تلك الصوامت الخاطئة خشبات انقاذ أعدت سلفاً ومدت بغير ما مهارة لمساعدتنا في إدراك الاسم الصحيح. سوف يقول القارئ: «كل ذلك لا ينبئنا بشيء عن قلة كياسة تلك السيدة، ولكن بما أنك توقفت طويلاً إلى هذا الحد، دعني، سيادة المؤلف، أضيع عليك دقيقة إضافية لأقول لك إنه من المؤسف، وأنت بمثل شبابك آنذاك (أو هو بطلك إن لم يكن أنت)، أن تكون قليل الذاكرة إلى حد لا تستطيع معه تذكر اسم سيدة كنت تعرفها أحسن المعرفة». الأمر

مؤسف حقاً ، سيادة القارئ. وأكثر مدعاة للحنن مما تظن حينما تحس فيه ما ينبئ بالزمن الذي ستختفي فيه الأسماء والكلمات من منطقة الفكر الواضحة والذي ينبغي فيه التخلي إلى الأبد عن أن نذكر لذاتنا أسماء من عرفناهم أفضل المعرفة. إنه لمن المؤسف حقاً أن نضطر إلى هذا العناء منذ شبابنا لنلقى أسماء نعرفها تماماً. ولو لم تقع هذه العاهة إلا بخصوص أسماء لانكاد نعرفها وبطوبها النسيان بصورة طبيعية جداً وكنا لا نريد أن نكلف النفس عناء تذكرها لما كانت العاهة تلك لتخلو من المزايا. «أية مزايا، رجوتك؟» هيه! يا سيد، ذلك أن الداء وحده هو الذي يحملك على الملاحظة والتعلم ويسمح بتفكيك الآليات التي ما كنا لنعرفها بدونها. إن رجلاً يهوي كل مساء كما الكتلة في سريره ولا حياة فيه من بعد حتى لحظة الاستيقاظ والنهوض من النوم، هل يفكر مثل هذا الرجل في يوم بأن يقدم على الأقل ملاحظات صغيرة حول النوم إن لم يفلح في تقديم اكتشافات كبيرة؟ إنه يكاد لا يعرف إن كان قائماً. قليل من الأرق ليس عديم الجدوى لتقدير النوم وإسقاط بعض من نور على ذلك الليل. والذاكرة التي لا تخونك ليست محرضاً قوياً لدراسة ظاهرات الذاكرة. «وهل قدمتك السيدة «دارياجون» في النهاية للأمير؟» لا، ولكن اصمت ودعني أعاود روايتي.

كانت السيدة «دارياجون» أكثر جنبنا بعد من السيدة «دوسوفريه» ولكننا لجبنها أعذار أكثر. فقد كانت تعلم أنها لاتزال تملك شيئاً من النفوذ في المجتمع، وقد ضعف ذلك النفوذ من جراء العلاقة التي سبقت لها مع الدوق «دوغيرمانت»؛ وكانت الضربة القاضية في تخلي هذا الأخير عنها. وقد نجم عن تعكير المزاج الذي أثاره طلبي إليها أن تقدمني للأمير صمت بلغت السذاجة لديها أن تظنه نظاهراً بأنها لم تسمع ما قلت، بل هي حتى لم تلاحظ أن الفيظ يقطب حاجبيها. وربما لاحظت ذلك على العكس ولم تأبه للتناقض واستخدمته في درس للتكتم يمكنها أن تلقيني إياه دون إفراط في الفظاظة، وأقصد درساً صامتاً لم يكن لذلك أقل بلاغة. كانت السيدة «دارياجون» بأية حال على ضيق كبير إذ إن الكثير من العيون ارتفعت صوب شرفة من طراز «النهضة» كانت تطل في زاويتها، بدلاً من التماثيل الضخمة التي غالباً ما أقيمت فيها تلك الحقبه، الدوقة «دوسورجيس لودوك» الرائعة، ولا تقل عنها جمال شكل، وهي التي خلفت منذ قليل السيدة «دارياجون» في فؤاد «بازان دوغيرمانت». كنت تبصر تحت قماش الثول الأبيض الخفيف الذي يحميها من برودة الليل جسمها ينطلق مرناً أنطلاقة تمثال «النصر». ولم يعد لي ملجأ إلا لدى السيد «دوشارلوس» الذي عاد إلى قاعة في الأسفل تفضي إلى الحديقة. واتسع لي كامل الوقت (فيما كان يتظاهر بالاستغراق في لعبة «ويست» يتصنعها وتسمح له أن لا يبدو وكأنه يرى الناس) لأتأمل باعجاب البساطة المتعمدة والفنية في سترته الرسمية التي تبدو، من جراء أشياء لاتذكر لا يتيسر تمييزها إلا لخياط، وكأنها «تألف» من أسود وأبيض من أعمال «ويستلر»؛ بل من أسود وأبيض وأحمر لأن السيد «دوشارلوس» كان يتقلد صليب وسام مالطا الديني من رتبة فارس وهو من المينا البيضاء والسوداء والحمراء علق بشريط عريض في فتحة الرداء. وفي هذه اللحظة قطعت السيدة «دوغالاردون» لعبة البارون وهي تقود ابن أخيها الفيكونت «دوكورفوازيه»، وهو شاب جميل الحيا وقع المظهر. وقالت السيدة «دوغالاردون»: «اسمح لي يا ابن العم أن أقدم لك ابن أخي «أدالبير». «أدالبير»، أنت تعلم، أنه العم المشهور «بالاميد» الذي تسمع دوماً من يتحدث عنه. وأجاب السيد «دوشارلوس» قائلاً: «مساء الخير، سيده «دوغالاردون»، وأضاف يقول حتى دون أن ينظر إلى الشاب: «مساء الخير ياسيد»، بهيئة فظة

وصوت شديد القحة إلى حد أذهل الجميع. وربما حرص السيد «دوشارلوس»، إذ يعلم أن السيدة «دوغلاردون» تساورها الشكوك حول أخلاقه ولم تستطع أن تقاوم مرة متعة التلميح إليها، أن يقطع دابر كل ما كان يمكن أن تضيف من منمقات حول استقبال لطيف يخص به ابن أخيها، وأن يجاهر في الوقت نفسه مجلجلاً بلامبالاته حيال الشبان؛ وربما لم يتضح له إنه كان «أدالبير» المذكور قد استجاب لأقوال عمته بمظهر يتسم بقسط وافر من الاجلال. وربما كان راغباً في أن يمضي أبعد من ذلك في معرفة ابن عم لطيف المعشر إلى هذا الحد فشاء أن يوفر لنفسه مكاسب عدوان مسبق على غرار الملوك الذين يدعمون التحرك الديبلوماسي قبل مباشرته بتحريك عسكري.

لم تكن استجابة السيد «دوشارلوس» لطلبي أن يقدمني بمثل الصعوبة التي ظننت. فإن هذا الـ«دون كيشوت» قد قاتل، على مدى السنوات العشرين الأخيرة، الكثير من طواحين الهواء (وهي في الغالب أقارب يزعم أنهم أساءوا التصرف تجاهه)، ومنع، وما أكثر ما كرر المنع، «على أنه شخص يستحيل استقباله»، دعوة إلى منزل هؤلاء أوهايتك من آل «غيرمانت» إلى حد أن هؤلاء أخذوا يخشون الاختصاص مع كل الناس الذين يحبونهم وأن يحترموا حتى الممات تردد بعض الوافدين الجدد عليهم وهم في شوق إلى معرفتهم، من أجل تبني الأحقاد الصاخبة، ولكننا لا تفسر لها، لصهر أو ابن عم ربما أراد أن تهجر في سبيله الزوجة والشقيق والابناء. لقد أخذ السيد «دوشارلوس» يتبين، وهو أوفر ذكاء من باقي «الغيرمانتيين» أنهم لا يتقيدون من بعد بما يأمر من استبعاد إلا مرة من اثنتين وشرع، استباقاً للمستقبل وخشية أن يأتي يوم يكون هو من يستغنى عنه، شرع يسلم ببعض التراجع ويخفض أسعاره كما يقال. أضف أنه إن كان باستطاعته أن يوفر لشهور وسنين حياة مماثلة لشخص بغيض - وما كان ليسمح بتوجيه دعوة مثله ولكن قاتل بالأحرى قتال عتالٍ مع ملكة، إذ أن صفة ما يقف حائلاً دونه لا حساب لها عنده من بعد - فقد كانت تنتابه في المقابل نوبات غضب أكثر تواتراً من ألا تصبح مجزأة مبعثرة إلى حد ما. «يا للأبله والنذل الشرير! سوف نعيد ذلك إلى مكانه ونكنسه في الجحارير حيث لن تسلم المدينة لسوء الحظ من أذاه»، هكذا كان يصرخ، وإن يكن وحيداً في بيته، لدى قراءة كتاب يحكم أنه خال من الاحترام أو حينما يتذكر قولاً ردد على مسامعه. ولكن غضباً جديداً يصبه على معنوه ثان كان يلاشي الآخر فإن بدا الأول على شيء من الاحترام تم نسيان الأزمة التي سببها فهي لم تدم بما يكفي لتشكل أساساً من الحقد يشاء عليه، ولعلي لذلك - على الرغم من سخطه عليّ - لعلي كنت تجحت لديه حينما سألته أن يقدمني للأمير لو لم تخطر لي الفكرة المشؤومة في أن أضيف توخياً للدقة وكى لا يمكنه أن يفترض لدي فظاظة في أن أكون دخلت وقد احتطت لأمرى بأنني سأعتمد عليه ليستبيني: «تعلم أنني أعرفهم تمام المعرفة، وكانت الأميرة شديدة اللطف معي». «حسن؛ وإن كنت تعرفهم فما حاجتك بي لأقدمك؟» يجيبني قائلاً بلهجة قاطعة فيما يدير لي ظهره ويعود إلى ما يتظاهر به من لعب مع القاصد الرسولي وسفير ألمانيا وشخص ما كنت أعرفه.

حينئذ تنامي إليّ، من أقاصي تلك الحداث التي كان الدوق «ديغون» يهتم فيها بتربية الحيوانات النادرة، وعبر الأبواب المشرعة، صوت اشتمام كان يستنشق هذه الأنفقات الكثيرة ولا يريد أن يضيع شيئاً منها، واقترب الصوت فتوجهت تحسباً لكل طارئ في اتجاهه إلى حد جاءت فيه كلمة «مساء الخير» همساً في أذني على

لسان السيد «دوبريوتيه»، لا كالصوت المقلد لسكين يجلخ بغية شحذه، ولا حتى كصوت الخنوص مخرب الأراضي المزروعة، بل كصوت منقذ محتمل. كان أقل اقتداراً من السيدة «دوسوفريه» ولكنه أقل منها إصابة في الصميم بالإعراض عن خدمة الآخرين وأكثر ارتياحاً مع الأمير من السيدة «دارباجون» وربما ساورتها أوهام حول وضعي في وسط آل «غيرمانت» أو ربما عرفها أفضل مني، ولكنني صادفت في الثواني الأولى بعض المشقة في الاستحواذ على انتباهه لأنه، إذ ترف فتحات أنفه ويتوسع منخراه، كان يجابه في كل جانب وهو يحملق بصورة غريبة عبر نظارته الوحيدة كما لو ألقى نفسه أمام خمس مئة رائحة فنية. ولكنه بعدما سمع سؤالي قبله بارتياح وصحبني إلى الأمير وقدمني له بهيئة نعمة متكلفة عامية كما لو أنه أمر إليه طبق حلويات محمصة وهو ينصحه بها. ويقدر ما كان استقبال الدوق «دوغيرمانت»، حينما يشاء ذلك، لطيفاً يتسم بالرفاقية ودوداً أليفاً بقدر ما ألفت استقبال الأمير متكلفاً رسمياً متعالياً. كاد لا يبتسم لي ودعاني بلهجة رزنية: «يا سيد». وغالباً ما سمعت الدوق يهزأ من غطرسه ابن عمه. بيد أنني أدركت في الحال في أول كلمات قالها لي، وكانت تتناقض بفتورها وجديتها أشد التناقض مع حديث «بازان»، أدركت أن الرجل المستخف في أعماقه كان الدوق الذي كان يحدثك منذ الزيارة الأولى حديث «الند للند»، وأن من كان يملك البساطة الحققة من ابني العم الاثنین إنما كان الأمير. فقد لقيت في تحفظه إحساساً أعظم، لا أقول بالمساواة، فلعل الأمر ما كان ممكن التصور بالنسبة إليه، بل على الأقل بالتقدير الذي يمكن أن نخص به مرؤوساً، كما هي الحال في سائر الأوساط الوثيقة التراتب، في القصر العدلي على سبيل المثال وفي كلية جامعية حيث ربما أخفى مدع عام أو «عميد» وعيا وظيفتهما السامية قسطاً أوفر من البساطة الحقيقية وحينما تتعرفهما أكثر من ذي قبل فمقداراً أعظم من الطيبة والبساطة الحققة والوداد في تعاليهما التقليدي مما ييدي من كانتوا أكثر عصرية منهم في تصنع الرفاقية المزاحة وقال لي بلهجة متحفظة إلا أنها تنم عن الاهتمام: «هل تنوي السير على خطو السيد والدك؟» فأجبت عن سؤاله اجابة موجزة وقد أدركت أنه لم يطرحه إلا بداعي التلطف وابتعدت لأدع له أن يستقبل الوافدين الجدد.

وأبصرت «سوان» وأردت التحدث إليه ولكنني رأيت أن الأمير «دوغيرمانت» قام في الحال، بدلاً من تقبل تخية زوج «أوديت» المسائية في مكان جلوسه، بسحبه معه إلى أقصى الحديقة، ولكن بعض الناس قالوا لي «كيما يطرده من المنزل».

وإذ كنت شديد الشroud في دنيا المجتمع إلى حد أنني لم أعلم إلا ما يعد الغد من الصحف أن أوركسترا تشيكية قد عزفت طوال الأمسية وأن الأسهم النارية الملونة توالى بين دقيقة وأخرى، استعدت بعض القدرة على الانتباه إذ وافقتي فكرة المضني لمشاهدة نافورة الماء الشهيرة من أعمال «هوبر روبر».

في فرجة من الغابة تحتجزها أشجار جميلة، كان بضعة منها بمثل قدمها، كنت تراها من البعيد، وقد غرست جانباً، ممشوقة لاجراك بها متصلة لاتدع للأنسام أن تهز سوى الجزء المتساقط الأكثر خفة من عمامتها الشاحبة الراعشة. كان القرن الثامن عشر قد صفى أناقة خطوطها ولكنه بدا، وقد ثبت طراز النافورة، كأنه أوقف نبض الحياة فيها، فقد كنت من تلك المسافة تحس الفن فيها أكثر من إحساسك الماء. كانت

السحابة الندية نفسها التي تتراكم دون انقطاع في أعلى قممتها تحتفظ بطابع العصر كذلك التي تتجمع في السماء حول قصور «فيرساي» ولكنك كنت تتبين عن قرب أنها، فيما تراعي، شأن الحجارة في قصر قديم، الرسم الذي سبق اختطاطه، كان ثمة على الدوام مياه جديدة تندفع فكانت إذ تبغي الانصياع لأوامر المهندسين القديمة لا تنفذها بالدقة إلا حين تبدو وكأنها تنتهكها إذ تستطيع الآلاف من قفزاتها المبعثرة وحدها أن توليك من البعيد انطباعاً باندفاع واحدة، وكانت هذه في الواقع متقطعة بمثل تواتر تبثر سقتها في حين كانت بدت لي في البعيد لا تقبل اللي كثيفة لا فجوة في تواليها. وكنت ترى من مسافة قريبة أن هذا اللا انقطاع، وهو في الظاهر خطي تماماً، إنما كانت توفره على جميع نقاط تصاعد نافورة موازية تفرغ إليها بانطلاق جانبية وتصعد إلى نقطة أعلى من الأولى بعدما تمضي بدورها إلى ارتفاع أعلى ولكنه مرهق لها كانت ثلاثة تملأ محلها. وعن قرب كانت بعض نقاط فقدت القوة تنثني ساقطة عن عمود الماء فتلتقي على دربها شقيقاتها الصاعدات فتزفر أحياناً ممزقة وقد علقت في دوامة هواء حركة هذا التفجر الذي لا يعرف الكلل، ترفرف قبل أن تهوي في الحوض. وقد كانت تعاكس، بصنوف ترددها ومسارها في الاتجاه العكسي وتجنب بضايها اللين استقامة وتوتر هذا الجذع الذي يحمل من فوقه سحابة متطاولة تؤلفها آلاف من القطرات ولكنها في الظاهر خطت بلون رمادي مذهب لا يتحول وكانت ترتفع لا تقوّض فيها ثابتة مديدة سريعة لتنضم إلى سحب السماء. ولكن هبة ربح كانت كافية لسوء الحظ لتهوي بها في خط مائل إلى الأرض؛ بل إن محض نافورة متمردة كانت تغير أحياناً اتجاهها ولعلها كانت بللت حتى العظام الجمهور المتأمل لو لم يقف على مسافة كافية منها.

وقد وقع أحد تلك الحوادث التي ما كانت تقع إلا لحظة يهب النسيم فكانت مزعجة إلى حد ما لقد أوهمت السيدة «دارياجون» بأن الدوق «دوغيرمانت» - ولم يكن وصل في الحقيقة - كان بصحبة السيدة «دوسورجيس» في الأروقة التي من رخام وردي والتي يبلغون إليها بطريق صف الأعمدة المزدوج المحفور في الداخل والذي ينطلق صعوداً من حافة الحوض. بيد أن هبة قوية من أنسام حارة لوت، في اللحظة التي كانت السيدة «دارياجون» ترمع فيها سلوك طريق أحد صفي الأعمدة، نافورة الماء وغمرت السيدة الجميلة غمرًا تاماً إلى حد أنهل تبللت، والماء يتقطر من تدوير الصدر داخل فستانها، كما لو أنها غطست في حوض استحمام. حينئذ دوى على مسافة غير بعيدة منها غمغمة موزونة قوية حتى ليستطيع سماعها جيش بأكملها وكانت تمتد بين الفينة والفينة كما لو أنها وجهت لا إلى مجمل القوات بل إلى كل قسم منها على التوالي؛ وكان الدوق الأكبر «فلاديمير» الذي كان يضحك بملء الفؤاد وهو يشهد تغطيس السيدة «دارياجون»، الأمر الذي كان أطرف ما شهدته في حياته كلها، كما كان يحلو له أن يقول فيما بعد. وإذا كان بعض الأشخاص من محبي الخير يلفتون الرجل المسكوبي إلى أن كلمة عزاء منه ربما كانت مستحقة وبعثت السرور في فؤاد هذه المرأة التي كانت، على الرغم من تمام سنيها الأربعين وفيما هي تنشف بمنديلها دون أن تطلب معونة أحد تحاول التخلص على الرغم من الماء الذي يبلل بخبث حافة الحوض، ظن الدوق الأكبر، وكان على طيبة قلب، ظن من واجبه الامتنال، فتنهى إلى الأسماع ما إن كادت تهدأ آخر جلجلات ضحكته العسكرية هزيم آخر أشد عنفاً من الأول. كان يصرخ قائلاً وهو يصفق كأنما داخل المسرح: «مرحى أيتها العجوز!» ولم يرق للسيدة

«دارياجون» أن تمتدح مهارتها على حساب شبابها. ولما قال لها أحدهم وقد أصممه ضجيج الماء، مع أنه كان يغلب عليه صوت سيادته الراءد: «أعتقد أن سموه الامبراطوري قال لك شيئاً»، أجابت قائلة: «لا؛ كان ذلك موجهاً للسيدة «دوسوفريه».

اجتزت الحدائق وصعدت الدرج حيث كان غياب الأمير الذي اختفى جانباً بصحبة «سوان» يزيد حول السيد «دوشارلوس» من جمهور المدعوين مثلما كان يتجمع عدد أكبر من الناس، لدى غياب لويس الرابع عشر عن «فيرساي»، في منزل «السيد» شقيقه. واستوقفني البارون وأنا أمر به فيما كان خلفي سيدتان وشاب يقتربون لتحيته.

وقال وهو يمد إلي يده: «لطيف منك أن أراك هنا». «مساء الخير سيدة «دولاتريمواي»، مساء الخير يا عزيزتي «هيرميني». ولاشك أن تذكر ماسبق أن قاله لي حول دوره كرئيس في فندق آل «غيرمانت» كان يبعث فيه الرغبة في أن يبدو وكأنه يحس، تجاه ما كان يغضبه ولكنه لم يستطع أن يحول دونه، ارتياحاً أكسبه ما به من وقاحة السيد الكبير وتشت هستيري، أكسبه في الحال شكلاً من السخرية المفرطة فأردف يقول: «لطيف منك ولكنما طريف جداً على وجه الخصوص». وأخذ يطلق قهقهات بدت وكأنها تبرز في الآن نفسه سروره وعجز الكلام البشري عن التعبير عنه، فيما أخذ بعض الأشخاص، وهم يعلمون كم كان عسير الملتقى ومهياً «للفجوات» الوقحة، يقتربون وبهم فضول ثم يطلقون سيقانهم للريح باستعجال يكاد يخلو من اللياقة. وقال لي وهو يلمس كتفي بلطف: «لا يسوؤك ذلك، فأنك تعلم أنني أودك. مساء الخير يا «أنتيوش»، مساء الخير «لوي روني»، ثم سألني بنبرة توكيدية أكثر منها مساءلة: «هل ذهبت لرؤية النافورة؟ شيء جميل جداً، أليس كذلك؟ شيء رائع. بل ربما أمكن بالطبع أن يكون بعد أفضل بحذف بعض الأشياء، وليس إذ ذاك شيء يماثلها في فرنسه. ولكنها في وضعها الراهن في عداد أفضل الأشياء. سيقول لك «بريوتيه» إنهم أخطؤوا في وضع فوانيس ملونة في محاولة ينسب بها أنه هو صاحب الفكرة. ولكنه في النهاية لم يفلح إلا أقل القليل في «تقبيحها»، فانه لإصعب بكثير أن تشوه رائعة من أن تبدعها. وكنا ارتبنا منذاك قليلاً بأن «بريوتيه» أقل اقتداراً من «هوبير روبر».

وعدت إلى صف الزائرين الذين كانوا يدخلون إلى الفندق. وسألتني الأميرة التي هجرت منذ قليل مقعدها في المدخل وكنت أصحبها في عودتها إلى الصالات: «هل مضى زمن طويل على لقاءك ابنة عمي الشهية «أوريان»؟ وأضافت ربة البيت تقول: «لابد أن تجني هذا المساء، فقد رأيتهما بعد الظهر ووعدتني بذلك. أعتقد على أي حال أنك تتعشى مع كلينا لدى ملكة ايطاليه، يوم الخميس في السفارة. سوف يكون هناك كل ما أمكن من أصحاب السمو، وسيشيع ذلك الكثير من الرهبة». وما كان يمكن أن يرهبوا الأميرة «دوغيرمانت» التي كانت صالاتها تغص بهم والتي كانت تقول: «أعزائي من آل «كوبور» كما لعلها تقول «كلابي العزيزة». ولذلك قالت السيدة «دوغيرمانت»: «سيشيع ذلك الكثير من الرهبة» عن محض غباء وهو بين ناس المجتمعات راجح حتى على الغرور. فقد كانت فيما يخص أنسابها أقل علماً بها من حامل شهادة «الأستاذية» في التاريخ. أما فيما يتعلق بمعارفها فقد كانت تحرص أن تبدي أنها تعرف الألقاب التي أطلقت



عليهم. ولما سألتني الأميرة إن كنت سأتناول العشاء في الأسبوع التالي في منزل المركيزة «دولابومبير» التي كثيراً ما كانوا يدعونها «لايوم» صممت على مدى لحظات بعد أن حصلت مني على جواب بالنفي. ثم أضافت قولها، دونما سبب آخر غير عرض مقصود لغزارة علمية غير مقصودة وتفاهة ومجاراة للروح السائدة: «إنها لامرأة على شيء من الإمتاع «لايوم»!».

وفيما كانت الأميرة تتحدث إليّ كان الدوق والدوقة «دوغيرمانت» يهمان بالضبط بالدخول. لكنني لم أستطع بادئ الأمر أن أبادر للقاءهما فقد تلقفتني زوجة سفير تركيا لدى مروري بها وصاحت وهي تدلني على ربة البيت التي تركتها منذ قليل، صاحت وقد أمسكت بذراعي: «ما أطيب الأميرة امرأة؛ وأي كائن يفوق الجميع؛ يبدو لي أني لو كنت رجلاً، تضيف قولها بشيء من السفالة والشهوانية الشرقيتين، «لوقفت حياتي لهذا المخلوق السماوي». وأجبت أنها تبدو لي فائنة ولكنني كنت أكثر معرفة بالدوقة ابنة عمها. وقالت لي زوجة السفير: «ولكن ليس ثمة مقارنة البتة. إن «أوريان» امرأة مجتمع فائنة تستمد نباهتها من «ميميه» و«بابال»، فيما «ماري جيلبير» شخصية مهمة».

لست شغوفاً البتة بأن يقال لي هكذا دون اعتراض الرأي الذي ينبغي أن أتخذه في أناس أعرفهم. ولم يكن ثمة سبب أي سبب كي يتيسر لزوجتي سفير تركيا حكم على قيمة الدوقة «دوغيرمانت» أكثر صواباً من رأيي. ثم إن ما يفسر كذلك انزعاجي من زوجة السفير أن عيوب مجرد واحد من المعارف، بل حتى الصديق، إنما تؤلف بالنسبة إلينا سموماً حقيقية نحن لحسن الحظ محصنون ضدها بالنعوذ. ولنقل مع ذلك، دون أن نأتي بأدنى وسيلة لمقارنة علمية ودون التحدث عن العوار، إن ثمة في صميم علاقات الصداقة أو العلاقات المجتمعية البحتة عداء شفي مؤقتاً ولكنه يعاود على شكل نوبات. والمرء يعاني عادة القليل من هذه السموم مادام الناس «طبيعيين». لكن زوجة سفير تركيا، أن تقول «بابال» و«ميميه» لتشير إلى أناس لا تعرفهم، كانت توقف مفاعيل «تعوذ السموم» التي تجعلها عادة محتملة. فكانت ترعجني، والأمر يتزايد طابع الظلم فيه بقدر ما كانت تتحدث على هذا النحو لتفلق في حملك على الاعتقاد بأنها وثيقة الصلة بـ«ميميه» ولكن من جراء معرفة بالأمر عجيولة تدفعها إلى تسمية هؤلاء السادة النبلاء وفق ما تعتقد أنه العرف في البلاد. فقد أُنجزت دراستها في بضعة شهور ولم تتبع التسلسل الدراسي. ولكنني كنت أجد لانزعاجي في المكوث إلى جانب زوجة السفير، وأنا أعمل الفكر فيه، سبباً آخر. فلم يكن مضى زمن طويل منذ قالت لي هذه الشخصية الدبلوماسية في منزل «أوريان» بمظهر محفز جاد إن الأميرة «دوغيرمانت» كانت صراحة ثقيلة الظل. ورأيت حسناً أن لا أتوقف عند هذا الانقلاب، فإنما جاءت به الدعوة إلى حفلة هذا المساء. لقد كانت زوجة السفير صادقة تمام الصدق ساعة تقول لي إن الأميرة «دوغيرمانت» مخلوق رائع، وقد اعتقدت ذلك على الدوام. ولما لم تدع البتة إلى الآن إلى منزل الأميرة فقد ظنت من واجبها أن تعطي هذا النوع من غياب الدعوة شكل امتناع طوعي قائم على مبادئ. أما الآن وقد دعيت وستظل منذ الآن مدعوة على الأرجح فقد أضحي بمقدورها التعبير بحرية عن ودادها. فليس ثمة حاجة، كما نفسير ثلاثة أرباع الآراء التي نبديها في الناس، أن نذهب إلى حد خيبات الحب، إلى حد الاستبعاد من السلطة السياسية. فالحكم يظل معلقاً وإنما تحدده دعوة رفضت أو قبلت. وزوجة سفير تركيا على أية حال «كانت تقع موقعاً حسناً» كما كانت تقول الدوقة

«دوغيرمانت» التي تولت معي تفتيش الصالات. لقد كانت على وجه الخصوص مفيدة جداً. إن نجمات المجتمع الحقيقيات يملن الظهور فيه. ومن كان راعياً في رؤيتهن عليه في الغالب الهجرة إلى نصف كرة آخر حيث يكن وحيدات تقريباً. ولكن مثيلات زوجة السفير العثماني، وهن كلهن حديثات العهد في دنيا المجتمعات، فلا يكففن عن التألق فيها وفي كل مكان في الآن نفسه إن جاز القول. وهن مفيدات في أنواع التمثيليات تلك المدعوة أمسية أو حفلة راقصة وحيث يفضلن أن يجرجرن محتضرات على أن تفوتهن الحفلة. إنهن الممثلات الصامتات اللواتي يمكن دوماً الاعتماد عليهن، المندفعات كي لا يفوتهن احتفال. لذلك يبصر الشبان الأغبياء فيهن، إذ يجهلون أنهن نجمات مزيفات، ملكات للأناقة في حين لا يد من درس كي يوضح لهم بموجب أية أسباب تبدو السيدة «ستانديس» التي يجهلونها والتي ترسم مساند بعيداً عن العالم، تبدو على الأقل سيدة بمثل مرتبة الدوقة «دودوفيل».

كانت عينا الدوقة «دوغيرمانت» في نطاق الحياة العادية ساهيتين وبهما شيء من الحزن. كانت تجعل فيهما فحسب التماح ألقى روجي في كل مرة يقع عليها أن تحيي صديقاً كما لو كان بالضبط إحدى لطائف الكلام أو نكتة متممة أو أطايب لجماعة مرفهة خلف تذوقها على وجه الذوقة مسحة من رقة وابتهاج، ولكنها كانت ترى، بخصوص الأمسيات الكبيرة وإذ يقع عليها إلقاء فرط من التحيات أنه ربما أرهقها أن تطفئ في كل مرة النور بعد كل واحدة منها. ومثلما ذوقة الأدب، حين يمضي إلى المسرح ليشهد جديد أحد أربابه، مثلما يبدي من أنه لن يقضي أمسية تعيسة إذ يكون قد هياً شفته، وهو يسلم حاجاته للعاملة، لا بتسامة بادية الذكاء وأذكي نظرت من أجل موافقة ساخرة، هكذا كانت الدوقة توقد، حال وصولها، على امتداد كامل الأمسية. وفيما كانت تسلم معطفها المسائي، وهو أحمر رائع من حمرة «تبيولو» وقد أفسح المجال لرؤية غل حقيقي من الياقوت الأحمر يحتبس عنقها، وبعدما ألفت على فسطانها تلك النظرة الأخيرة السريعة، نظرة الخياطة الدقيقة المكتملة وهي نفسها نظرة امرأة المجتمعات، تأكدت «أوريان» من بريق عينيها بما لا يقل عن مجوهراتها الأخرى. وعبثاً سارعت بعض «الأسنة الخيرة» من أمثال السيد «دوجوفيل» إلى الارتقاء على الدوق لمنعه من الدخول: «أفتجهل إذن أن «ماما» المسكين يشرف على الموت؟ لقد منح الأسرار المقدسة منذ قليل». وأجاب السيد «دوغيرمانت» وهو يعد الرجل المزعج عن دربه ليدخل: «أعرف، أعرف. إن القرين الأخير قد جاء بأعظم الأثر»، يضيف قوله وهو يتسم ابتهاجاً بفكرة الحفلة التي قرر أن لا تفوته في أعقاب أمسية الأمير. وقالت لي الدوقة: «ما كنا نريد أن يعلم الناس أننا عدنا. وما كانت ترتاب بأن الأميرة سبق أن أبطلت صيحة هذا القول حينما روت لي أنها شاهدت لفترة وجيزة ابنة عمها التي وعدتها بالنجي». وقال الدوق بعد نظرة طويلة حط بها، على مدى خمس دقائق، ثقيلة على امرأته: «لقد حكيت لـ «أوريان» عما ساورك من شكوك». وصرحت أنها غير معقولة وقد تبينت الآن أنها لا أساس لها وأنه لا يقع عليها أي مسعى تقوم به لمحاولة تبديدها فمأزحتني طويلاً: «أية فكرة هذه أن تظن أنك غير مدعو؛ الدعوة قائمة على الدوام. ثم إنني أنا هناك. أفتظن أنني ماكنت قادرة على أن تدعى إلى منزل ابنة عمي؟» ولابد أن أقول إنها كثيراً ما فعلت فيما بعد من أجلي أموراً تتجاوزها كثيراً في الصعوبة. بيد أنني احترست من أخذ كلامها بما يعني أنني كنت قد بالغت في التحفظ. فقد شرعت أعرف القيمة الصحيحة للغة المنطوقة أو الصامته الصادرة عن اللطافة

الارستقراطية، هذه اللطافة التي يسعدها سكب البلسم على الشعور بالدونية الذي يحسه أولئك الذين توجه إليهم دون أن يبلغ بهم أن يبدوه إذ لعلها تكون فقدت إذ ذاك سبب وجودها. فقد كان يبدو أن آل «غيرمانت» يقولون عبر أفعالهم جميعاً: «ولكنك ند لنا إن لم تكن أكثر»، ويقولونه بأكثر ما يمكن تصويره من لطف من أجل أن يحبهم الناس ويعجبوا بهم، لامن أجل أن يصدقوهم. فأن يكشف الناس الطابع الوهمي لذلك اللطف، ذلك ما كانوا يدعونه حسن التهذيب؛ وأما الاعتقاد بحقيقة اللطف فذلك هو سوء التهذيب. وقد تلقيت على أي حال بعد قليل من ذلك درساً أطلعني في النهاية بأتم الدقة على امتداد وحدود بعض أشكال اللطف الارستقراطي. وكان ذلك في أثناء حفلة بعد الظهر أقامتها الدوقة «دومومورانسي» على شرف ملكة انكلترة؛ وتشكل ضرب من الموكب الصغير للتوجه إلى المائدة المفتوحة وكانت الملكة تسير في المقدمة وقد أخذ بذراعها الدوق «دوغيرمانت». ووصلت في تلك اللحظة. ولوح الدوق بيده الطليقة من مسافة أربعين متراً على الأقل، لوح لي بألف إشارة دعوة ووداد كان يبدو أنها تقول بالامكانية المتاحة لي للتقدم دونما تهيب وانني لن ألتهم نيئاً بدلاً من السندويشات. ولكنني، وقد بدأت أبلغ الكمال في لغة البلاط، قمت بدلاً من الاقتراب حتى خطوة واحدة بانحذاء كبيرة من مسافة الأربعين متراً التي أقف فيها، ولكن دون أن أبتسم، كما لعلني فعلت في حضرة من أكاد لا أعرفه، ثم تابعت المسير في الاتجاه المعاكس. ولو أنني كتبت رائعة أدبية لكرمني آل «غيرمانت» لذلك أقل مما يفعلون لهذه التحية. فلم تمر دون أن يلحظها الدوق مع أنه انبغى له أن يجيب أكثر من خمس مئة شخص، وليس ذلك فحسب بل دون أن تلحظها الدوقة التي التقت والدتي فروت لها عن ذلك وتحاشت تماماً أن تقول لها إني كنت على خطأ وإنه كان عليّ أن اقترب فقالت لها إن زوجها قد فتنه تخيتي وإنه يستحيل تضمينها أموراً أكثر. ولم يكفوا عن إيجاد كل المزايا لهذه التحية دون أن يذكروا مع ذلك الميزة التي بدت من أكثرها ثمناً، عنيها أنها كانت متكئة، ولم يكفوا كذلك عن توجيه المديح لي وقد فهمت منه أنه كان مكافأة على الماضي أقل منه توجيهاً للمستقبل على نحو ذاك الذي يزود به مدير معهد تربوي طلابه بصورة رقيقة: «لاتنسوا، أيها الأبناء الأعزاء، أن هذه الجوائز لأهليكم أكثر مما هي لكم وذلك من أجل أن يعيدوكم في العام القادم». ومن ذلك أن السيدة «دومارصانت» كانت، حينما يدخل وسطها فرد من عالم مختلف، تمتدح في حضرته الناس المتكتمين «الذين تلقاهم حينما تذهب بحثاً عنهم ويعملون على أن تساهم باقي الوقت»، مثلما يُبلغ على نحو غير مباشر خادم كرهه الرائحة أن عادة الاستحمام ممتازة للصحة.

وفيما كنت أتحدث إلى السيدة «دوغيرمانت» حتى قبل أن تكون غادرت الردهة سمعت صوتاً من نوع كان لابد أن أميزه في المستقبل دون إمكان الوقوع في الخطأ. وكان في هذه الحالة الخاصة صوت السيد «دوغويير» يتحدث إلى السيد «دوشارلوس». فليس يحتاج الطبيب السرير حتى أن يعرف المريض الموضوع تحت الملاحظة قميصه أو أن يستمع للتنفس، فالصوت يكفي. وكمر مرة أدهشتني في إحدى الصالات نبرة هذا الرجل أو ضحكته مع أنه ينقل نقلاً دقيقاً لغة مهنته أو تصرفات الوسط الذي ينتمي إليه فيتصنع تأنقاً صارماً أو بذاءة أليقة، ولكن صوته الزائف كان كافياً لينقل: «إنه من أمثال شارلوس» إلى أذني المتمرسة كما هو منغام ضابط الأنعام! وفي تلك اللحظة مرّ موظفو إحدى السفارات جميعهم وحيوا السيد «دوشارلوس». ومع أن

اكتشافي لنوع المرض المعني إنما يعود فقط لليوم نفسه (الذي أبصرت فيه السيد «دوشارلوس» و«جوبيان»)  
 فلعلي ماكنت بحاجة، كيما أقدم تشخيصاً، إلى طرح الأسئلة والاستماع بالأذن. ولكن السيد «دوفوغوير» في  
 حديثه إلى السيد «دوشارلوس» بدا محيراً، مع أنه كان ينبغي أن يعلم حقيقة الأمر بعد تربيته المراهقة. يظن  
 الشاذ أنه من نوع وحيد في العالم، وفيما بعد فقط يتخيل -وهو غلو آخر- أن الاستثناء الوحيد هو الرجل  
 الطبيعي. ولكن السيد «دوفوغوير» الطموح الخواف لم يكن قد انصرف منذ فترة طويلة إلى ما لعله كان المتعة  
 في نظره. فقد كان للسلك الديبلوماسي في حياته أثر الدخول في سلك الرهينة. وإذ امتزج بالمثابرة على الدوام  
 في مدرسة العلوم السياسية فقد وقف منذ سنه العشرين على عفة المسيحيين. ومثلما تفقد كل حاسة من قوتها  
 وحيويتها وتضمحل حين لا تستخدم من بعد، كان السيد «دوفوغوير»، مثله مثل الرجل المتحضر الذي لا يقوى  
 من بعد على تمارين القوى ولا على السمع المرفف الذي يميز رجل الكهوف، قد فقد نفاذ البصيرة الخاص  
 الذي قل أن يخطئ لدى السيد «دوشارلوس». ولم يعد الوزير المطلق الصلاحيات قادراً، على المواعيد الرسمية، إن  
 كان في باريس أو البلاد الأجنبية، حتى على تعرف من كانوا تحت قناع البزة الرسمية، أشباهه أصلاً. وقد  
 أثارت بعض أسماء نطق بها السيد «دوشارلوس»، وبه حنق إن ذكر فيما يخص ميوله ولكنه دائم الغبطة في  
 فضح ميول الآخرين، أثارت في نفس السيد «دوفوغوير» استغراباً لذيذاً لا لأنه فكر بعد هذه السنين الكثيرة في  
 الاستفادة من أية فرصة سانحة. ولكن هذه الكشوفات السريعة، الشبيهة بتلك التي تنبئ «آتالي» و«أبنير» في  
 مسرحيات «راسين» أن «جواس» من نسل داوود وأن لـ«ايستير» الجلوسة فوق الأرجوان أبوين يهوديين، وإذ تغير  
 مظهر مفوضية س..... أو هذه الدائرة في وزارة الخارجية، كانت تجعل تلك القصور باسترجاع الماضي بمثل  
 غموض معبد القدس أو قاعة العرش في «سوزا». ولزاء هذه السفارة التي أقبل موظفوها الشباب برمتهم ليشدوا  
 على يد السيد «دوشارلوس» اتخذ السيد «دوفوغوير» الهيئة المفتونة التي اتخذها «إيليز» وهي تصرخ قائلة في  
 مسرحية «ايستير» :

«يا الله! أي سرب كبير من الحسنات البريات

يرز حاشداً لناظري ويتوارد من كل جانب!

وأي خفر محجب يرتسم على محياهن!

وإذ كان راغباً في «اطلاع» أوفر ألقى على السيد «دوشارلوس» وهو يتسم نظرة بلهاء في تساؤلها  
 شهوانية، فقال السيد «دوشارلوس» بهيئة العالم المتبحر الذي يحدث جاهلاً: «ويحك! بالطبع». وفي الحال لم  
 يعد السيد «دوفوغوير» يحول ناظريه بعيداً عن هؤلاء الأمناء الشباب (وهو مأزعج السيد «دوشارلوس» كثيراً)،  
 ولم يكن سفير س. في فرنسه اختارهم كيفما اتفق. كان السيد «دوفوغوير» صامتاً ولا أرى سوى نظراته. ولما  
 تعودت منذ الطفولة أن ألبس حتى ما كان صامتاً لغة الكلاسيكيين فقد كنت أحمل عيني السيد «دوفوغوير»  
 ماتقوله الأبيات التي توضح بها «ايستير» لـ«إيليز» أن «مردخاي» حرص، غيرة منه على دينه، أن لا يضع لدى  
 الملكة سوى فتيات ينتمين إليه :

ولكن حبه لأمتنا

عمر هذا القصر بينات صهيون

هذه الزهرات الفتية الغضة التي يحركها القدر

والتي نُقلت وزرعت مثلي تحت سماء غريبة.

وفي مكان بعيد عن أعين الشهود

يصرف (أي السفير الممتاز) في تربيتهم بحثه واهتماماته.

وأخيراً تكلم السيد «دوفوغويير» بغير نظرائه، وقال بلهجة حزينة: «من ذا يعلم إن لم يكن الشيء ذاته موجوداً في البلد الذي أقيم فيه؟» وأجاب السيد «دوشارلوس» قائلاً: «ذلك محتمل، بدءاً بالملك «تيودوز»، مع أنني لا أعرف أي شيء إيجابي حوله». - «أوه؛ لاشيء من هذا على الإطلاق»؛ - «ليس مسموحاً إذاً أن يبدو ذلك عليه إلى هذا الحد. وهو يتصنع بعض الحركات. إنه من نوع «ياعزيتي»، النوع الذي أمقته أكثر مالمقت. ولعلني لا أجزؤ على الظهور معه في الشارع. ولا بد على أية حال أنك تعرف تمام المعرفة ماهو أمره، فإنه معروف كما هي حال الذئب الأبيض». - «إنك مخطئ تماماً حوله، وهو بأي حال ظريف. ففي اليوم الذي وقع فيه الاتفاق مع فرنسه بادر الملك إلى تقبيلي، في يوم يمثل تأثري». - «كانت اللحظة مناسبة لتقول له ما كنت راغباً فيه». - «آه؛ ياإلهي، يالهلول الأمر لو ساوره محض شك! ولكننا لا يداخلني خوف بهذا الشأن». وقد سمعت هذه الكلمات لأنني كنت غير بعيد وقد حملتني على أن أقرأ على نفسي داخل فكري:

«إن الملك يجهل حتى هذا اليوم من أكون،

وإن هذا السر يكبل على الدوام لساني».

لم يدم هذا الحوار، ونصفه صامت والنصف جهري، إلا لحظات قليلة ولم أكن بعد قمت إلا بوضع خطوات في الصالات بصحبة الدوقة «دوغيرمانت» حينما استوقفتها سيدة سمراء قصيرة باللغة الجمال: «أود كثيراً أن أراك. لقد أبصرك «دانونيو» من إحدى المقصورات و سطر للأميرة «دوت..» كتاباً يقول فيه إنه لم ير في يوم ما كان يمثل هذا الجمال. وإنه ليبذل حياته كلها في مقابل عشر دقائق من حديث يجريه معك. والكتاب في جميع الأحوال في حوزتي، حتى إن لم تستطعي أو تشائي ذلك. لابد أن تحدي لي موعداً، فثمة بعض أمور سرية لا أستطيع قولها هنا». وأضافت توجه الحديث إلي: «أرى أنك لاتتعرفني؛ لقد عرفتك في منزل الأميرة «دويارما» (ولم أكن ذهبت إلى منزلها في يوم). يود امبراطور روسيا أن يجري إرسال والدك إلى «بيترزبورغ». لو أمكنك الحجيء يوم الثلاثاء، فد«إيثولفسكي» سيكون بالضبط هناك، وسوف يتحدث وإياك في الأمر». وأضافت تقول وقد استدارت صوب الدوقة: «عندي هدية سأقدمها لك أيتها العزيزة وماكنت أقدمها لسواك. إنها مخطوطات لثلاث مسرحيات لـ«إيسمن» حملها مرضه المعجوز إلي. سأحتفظ بواحدة وأعطيك

الاثنين الآخرين».

ولم يهمل الدوق «دوغيرمانت» لهذه العروض، فقد أخذ يرى، وهو غير متأكد إن كان «إيسن» أو «دانونزو» قد قضيا أم هما حيان يرزقان، كتاباً ومسرحيين يقبلون علي زيارة امرأته وإدخالها في مؤلفاتهم. ورجال المجتمعات يحلو لهم تصور الكتب بمثابة ضرب من المكعب نزع أحد وجوهه إلى حد أن المؤلف يسارع إلى «إدخال» الأشخاص الذين يلتقيهم إلى داخله. ذلك بالطبع مناف للترهات وما كان هؤلاء إلا من قليلي الذمة. صحيح أنه قد لا يكون من المزعج أن تراهم «في معرض الحديث» لأننا نعرف بفضلهم، إن قرأنا كتاباً أو مقالة، «الجانب الآخر من ورق اللعب» ويمكننا «نزع الأقنعة». ولكننا الأوفر حكمة، على الرغم من كل شيء، أن نكتفي بالمؤلفين الأموات. كان السيد «دوغيرمانت» يرى أن السيد الذي يضع قسم الموتى في صحيفة «الغالي» (le Gaulois) كان وحده «لائقاً تماماً». فقد كان هذا يكتفي على الأقل بذكر اسم السيد «دوغيرمانت» في رأس قائمة الأشخاص الذين برزوا «بصورة خاصة» في الجنازات التي تسجل فيها الدوق. وحينما كان يفضل أن لا يظهر اسمه كان يبعث بكتاب تعزية إلى أسرة المتوفى يؤكد لهم فيه مشاعره الحزينة جداً. فإن طلبت تلك الأسرة أن يوضع في الصحيفة: «نذكر من بين الرسائل الواردة رسالة الدوق «دوغيرمانت»، الخ..» فما كان ذلك خطأ أخبر الصحفي، بل خطأ ابن المتوفاة أو شقيقها أو والدها الذين يصفهم الدوق بالوصوليين ويقرر مذ ذاك أن لا تكون له علاقات بهم (وما كان يدعوهم، وهو لا يعلم بالدقة معنى التراكيب، «قشة يقاسمهم إياها»)<sup>(١)</sup>. ومهما يكن من أمر فإن اسمي «إيسن» و«دانونزو» والشك في كونهما على قيد الحياة جعلت الدوق يقطب حاجبيه، ولم يكن بعد على بعد كاف منا كي لا يكون سمع صنوف اللطف المختلفة التي جادت بها السيدة «تيموليون دارمنكور». لقد كانت امرأة فائتة ذات ظرف، على غرار جمالها، رائع حتى لكان أحد الاثنين أفلح وحده في الإمتاع. ولكنها، إذ ولدت خارج الوسط الذي كانت تعيش فيه الآن، ولما لم تطمح بادئ الأمر إلا إلى منتدى أدبي وكانت على التوالي وعلى نحو حصري صديقة -لا عشيقة، فقد كانت طاهرة الأذبال - كل كاتب كبير كان يعطيها مخطوطاته كافة ويؤلف لها كتباً، وإذ أدخلتها المصادفة حي «سان جيرمان» فقد ساعدتها تلك الامتيازات الأدبية هناك. لقد كانت الآن في وضع لا يقع عليها فيه أن توزع من النعم سوى تلك التي يدققها حضورها من حولها. ولكنها إذ تعودت فيما مضى لباقة التعامل والمتاورات والخدمات الواجب إسداؤها فقد واطبت على تلك الأمور مع أنها لم تعد لازمة. كان لديها على الدوام سر من أسرار الدولة تكشفه لك وعاهل تعرفك به ومائية لأحد أرباب الفن تقدمها لك. كان ثمة بالتأكيد في سائر تلك المغريات اللامجدية شيء من الكذب ولكنها كانت تجعل من حياتها مسرحية هازلة متألثة التعقيد وصحيح أنها كانت تسهم في تعيين المحافظين والألوية.

كانت الدوقة «دوغيرمانت»، فيما تمشي إلى جانبي، تدع لضيء عينيها اللازوردي أن يسبح أمامها، إنما في الفراغ، كي تتجنب أناساً تخرص أن لا تقيم علاقات معهم وكانت تكشف من بعيد أحياناً ما يتهددها من خطر. كنا نتقدم عبر سياج مزدوج من المدعوين كانوا يودون على الأقل، وهم يعلمون أنهم لن يعرفوا «أوريان» في يوم، أن يدلوا امرأتهم عليها وكأنما على أمر غريب: «ها يا «أورسول»، هيا أسرع لي تترى

(١) avoir maille's Partir دخل في نزاع، تنازع من أجل أمر طفيف، والتلاعب بالألفاظ واضح في الفرنسية ويصعب رده في العربية.

السيدة «دوغيرمانت» تتحدث إلى هذا الشاب». وكنت تحس أنه لايفصلهم الكثير عن اعتلاء الكراسي ليشاهدوا بشكل أفضل، على نحو ما يجري في استعراض ١٤ تموز (يوليو) أو في سباق الجائزة الكبرى. وليس يعني ذلك أن الدوقة «دوغيرمانت» تملك صالة أكثر استقرارية من ابنة عمها. فقد كان يتردد إلى منزل الأولى أناس ماكانت الثانية لترضى بدعوتهم في يوم، بسبب زوجها على وجه الخصوص. فما كانت لتستقبل في يوم السيدة «ألفونس دوروتشليد»، وهي صديقة حميمة للسيدة «دولاتريمواي» والسيدة «دوساغان»، كما هي حال «أوريان» نفسها، وتتردد كثيراً على منزل هذه الأخيرة. والأمر واحد أيضاً فيما يخص البارون «هيرش» الذي صاحبه الأمير «دوغال» إلى منزلها وليس إلى منزل الأميرة التي كان ساء في عينها؛ وهو كذلك أمر بعض كبار المشاهير «البوناپرتيين» أو حتى الجمهوريين الذين كانوا يثيرون اهتمام الدوقة ولكن الأمير، وهو ملكي ثابت القناعة، ماكان ليرضى باستقبالهم. ولما كان عداؤه للسامية مبدئياً فلم يكن يلين إزاء أية أناقة مهما لاقت قبولا، ولئن كان يستقبل «سوان» الذي كان صديقاً له على الدوام، وهو بأية حال «الغيرمانتي» الوحيد الذي يدعو «سوان» وليس «شارل» فلأنه كان يعلم أن جدة «سوان»، وهي بروتستانتية زوجت يهودياً، كانت عشيقة الدوق «دوييري» فيحاول بين الحين والحين أن يؤمن بالأسطورة التي تجعل من والد «سوان» الابن غير الشرعى للأمير. وماكان «سوان»، ضمن هذه الفرضية، وهو ابن كاثوليكي هو نفسه ابن أحد آل «بوربون» وأم كاثوليكية، ماكان به شيء إلا مسيحياً.

قالت لي الدوقة وهي تتحدثني عن الفندق الذي كنا فيه: «كيف ذلك؟ ألسنت تعرف هذه الروائع؟ ولكنها بعدما امتدحت «قصر» ابنة عمها سارعت تضيف أنها تفضل ألف مرة «جحرها المتواضع». «ههنا شيء رائع «للزيارة»، ولكنني كنت أموت غماً لو انبغى أن أبقى لقضاء الليلة في حجرات كانت مسرحة لكثير من الأحداث التاريخية. فربما خيل إلي أنني بقيت بعد ساعة الإغلاق ونسيت في قصر «بلوا» أو «فونتينيلو» أو حتى «اللوفر» ولاحيلة لي من بعد ضد الحزن إلا أن أقول في نفسي إثنى في الحجرة التي اغتيل فيها «مونالدسكي»، وذلك غير كاف لهضم مثل هذه المصيبة، عجباً، هي ذي السيدة «دوسانتوفيرت». لقد تناولنا توابط طعام العشاء في منزلها. وظننت، بما أنها تقيم في غداً آلتها السنوية الكبرى، أنها ربما بادرت إلى النوم. ولكنها لاستطيع تفويت حفلة. ولو أن هذه أقيمت في خارج المدينة لفضلت أن تكون استقلت عربة نقل أثاث على أن لا تكون حضرته.

والواقع أن السيدة «دوسانتوفيرت» جاءت هذا المساء كيما تضمن نجاح حفلتها وتجد آخر المنتسبين وتستعرض في آخر لحظة نوعاً ما القوات التي ستأخذ في الغد بالتحرك بصورة رائعة في حفلتها الراقصة في الحديقة أكثر منها من أجل متعة أن لا تفوتها حفلة لدى الآخرين. ذلك أنه منذ عدد لا يستهان به من السنين لم يعد المدعوون إلى حفلات «سانتوفيرت» ذات من كانوا فيما مضى يفدون إليها. فالوجهات من وسط آل «غيرمانت»، وما أندرهن آنذاك، أخذن يجتن شيئاً فشيئاً بصديقاتهن - بعد أن غمرت ربة البيت بالجماملات -. أما السيدة «دوسانتوفيرت» فقد عملت، بحركة موازية في تدرجها ولكن في الاتجاه المعاكس، على أن تقلص سنة فسنة عدد الأشخاص المجهولين في مجتمع الأناقة. فقد كفوا عن رؤية هذا، ثم ذاك. فقد عمل نظام

«الخبزات» وقتاً ما، وكان يسمح، بفضل حفلات تكتم أخبارها، بدعوة المنبذين إلى المجيء للهو فيما بينهم، ويعفك ذلك من دعوتهم مع القوم المحترمين. وم يمكن أن يشتكوا؟ أفليس لديهم panem et cir- censés<sup>(١)</sup> حلوى محمصة وبرنامج موسيقي حافل؟ لذلك ما عدت ترى، وعلى نحو متناظر نوعاً ما مع الدوقتين المنفيتين اللتين شوهدتا فيما مضى، حينما بوشر بصاله «سانتوفيرت»، تخملاًن شأن تمثالي «كرياتيد»<sup>(٢)</sup> قمتها المتداعية، ماعدت ترى في هذه السنوات الأخيرة سوى شخصين يخالفان الجنس الغالب هما السيدة «دوكامبرير» العجوز وامرأة مهندس ذات صوت جميل يضطرون في الغالب إلى مطالبتها بالغناء. ولكنهما تبدوان، إذ لا تعرفان أحداً من بعد في منزل السيدة «دوسانتوفيرت» وتبكيان من فقدتا من رفيقاتهما وتحسان أنهما سبب ضيق للآخرين، وكأنما أوشكتا على الموت برداً شأن سنونوتين لم تهاجرا في الوقت المناسب. لذلك لم تدعيا في السنة التالية. وحاولت السيدة «دوفرانكتو» القيام بمسعى في صالح ابنة عمها التي تحب الموسيقى حباً جماً. ولما لم تستطع أن تحصل لها على جواب أكثر وضوحاً من هذه الكلمات: «بوسع المرء على الدوام أن يدخل لسماع الموسيقى إن يحل له فليس في الأمر جريمة!»، فلم تر السيدة «دوكامبرير» أن في الدعوة ما يكفي من إلحاح وامتنعت.

كان بوسعك أن تعجب، ومثل هذا التحول الذي أجرته السيدة «دوسانتوفيرت» على صالة برصي قلبتها صالة سيدات راقيات (هي الصيغة الأخيرة الشديدة الأناقة في ظاهرها التي اتخذتها)، من أن الشخص الذي كان يقيم في الغد الحفل الأكثر تألقاً في الموسم كان بحاجة إلى المجيء في العشية ليوجه نداء أخيراً لقواته. ذلك لأن أفضلية صالة «سانتوفيرت» لم تكن قائمة إلا بالنسبة إلى من قوام حياتهم الاجتماعية مجرد قراءة خلاصة حفلات العصر والمساء في صحيفتي «لو غولوا» أو «لو فيغارو» دون أن يكونوا ذهبوا في يوم إلى أي منها. فقد كان يكفي هؤلاء المجتمعين الذين لا يشاهدون المجتمع إلا عبر الصحيفة تعداد زوجات سفراء انكلتره والنمسا، الخ.. ودوقات «أوزيس» و«لاتريموي» الخ.. الخ.. كي يتخللوا تلقائياً صالة «سانتوفيرت» بمشابة الأولى في باريس بينما هي في عداد الأخيرات. وليس يعني ذلك أن البيانات كانت كاذبة، فمعظم الأشخاص المذكورين كانوا حاضرين فعلاً، ولكن كلا منهم جاء على إثر توسلات ومجاملات وخدمات وبه شعور من يولي السيدة «دوسانتوفيرت» أعظم الشرف. إن مثل هذه المنتديات، والناس أقل سعياً إليها مما يتهبون منها وإليها يمضون، إن جاز القول، كأنما في مأمرية، لا توهم إلا قارئات «أخبار المجتمع». فهن يمررن مرور الكرام على حفلة هي بالحقيقة أنيقة وفيها لا نطلب ربة البيت، وإنها لتستطيع إحضار الدوقات جميعاً وهن يتحرقن إلى أن يكن «في عداد المختارين»، إلا حضور اثنتين أو ثلاث ولا تشير بوضع أسماء مدعوها في الصحيفة. ولذلك فإن هؤلاء النساء اللواتي يتجاهلن أو يزدرين السلطان الذي يتمتع به الإعلان في يومنا أتنيات في نظر ملكة اسبانيا ومجهولات من جانب الجمهور لأن الأولى تعلم والثاني يجهل من هن.

لم تكن السيدة «دوسانتوفيرت» في عداد هاتيك النساء، بل كانت تُقبل، جانية مجدة، تجتمع للغد كل ما كان مدعواً. ولم يكن السيد «دوشارلوس» مدعواً فقد رفض على الدوام الذهاب إلى منزلها. ولكنه كان

(١) وردت باللاتينية في متن النص وتعني: الخبز والعروض المسلية.

(٢) هي أعمدة على هيئة نساء منحوتة في معبد صغير على هضبة الأكروليس في أثينا.



على خلاف مع عدد كبير من الناس إلى حد أن السيدة «دوسانتوفيرت» كانت تستطيع رد ذلك إلى طباعه.

ولو لم يكن ثمة سوى «أوريان» لوسع السيدة «دوسانتوفيرت» بالتأكيد أن لا تزجج نفسها بما أن الدعوة وُجِّهَتْ مشافهة وقبلتْ بأية حال بطيبة خاطر الرائعة المضللة التي يبرز فيها أعضاء المجامع أولئك الذين يغادرهم المرشح متأثراً غير مرتاب بأنه يسعه الاعتماد على صوتهم. لكنها لم تكن الوحيدة هناك. فهل يجيء الأمير «داغريجان»؟ وهل تفعل السيدة «دو دورفور»؟ لذلك ظنت السيدة «دوسانتوفيرت»، بداعي الاحتراس، أن الأيسر لها أن تنتقل بذاتها. كانت لماحة مع بعضهم وآمرة مع الآخرين وتعلن للجميع بكلمات مبطنة عن تسليات لا تخطر ببال ولن تتوفر رؤيتها مرة ثانية، وتعد كلاً منهم أنه واحد عندها الشخص الذي يرغب في لقاءه أو الشخصية التي يحتاج لقاءها. كانت تلك الوظيفة التي تولاهها مرة في العام - على نحو بعض وظائف القضاء في العالم القديم - وظيفة الشخص الذي سيقوم في الغد أضخم احتفال موسمي في الهواء الطلق توليها سلطة وقتية. كانت لوائحها قد وضعت وأُقفلت، الأمر الذي يكسبها، فيما تطوف في صالات الأميرة على مهل كي تسكب في كل أذن: «لا تنسني في الغد»، مجدداً عابراً قوامه أن تشيح بعينيها وهي توالي ابتسامتها إن هي لحت امرأة قبيحة لا بد من تجنبها أو نبيلاً ريفياً حكمت رفقة الدراسة بقبوله في منزل «جيلبير» ولن يضيف حضوره احتفالها شيئاً إليه. كانت تفضل أن لا تتحدث إليه كي يمكنها أن تقول فيما بعد: «لقد وجهت دعواتي شهاها ولم ألتق بك لسوء الحظ». وهكذا كانت تقوم، وهي «سانتوفيرت» لا أكثر، بعينيها المتفحصتين بعملية انتقائية في تركيبة أمسية الأميرة، وتظن بفعلتها هذه أنها دوقة حقيقية من آل «غيرمانت».

ولا بد أن نقول إن هذه لم تكن تملك بدورها، ويقدر مانظن، حرية توجيه تحياتها وابتساماتها. وليس من شك أنها كانت، حينما ترفض توجيهها، إنما تفعل في قسم منها بملء إرادتها، فنقول: «ولكنها تزعجني، فهل يقع عليّ أن أكملها عن أمسيته على مدى ساعة؟».

وأبصرنا دوقة شديدة السواد تمر وكان قبحها وبلاقتها وبعض انحرافات سلوكية قد أقصتها لاعتن اجتماع، بل عن بعض الدوائر الحميمة الأنيقة. وهمست السيدة «دوغيرمانت» بنظرة الخبير الصائبة غير المتوهمة إذ تعرض عليه حلية مزيفة: «عجباً؛ يستقبلون صنفاً كهذا هنا!» كانت السيدة «دوغيرمانت» تقيس القيمة الضحلة لهذه الأمسية منطلقة من مجرد رؤية السيدة نصف العاية والتي يزدحم وجهها بفيض من تحيات شعور سوداء. لقد سبق أن نالت قسطها من التهذيب ولكنها قطعت كل علاقاتها بهذه السيدة ولم ترد لها تحيتها إلا بإشارة من رأسها من أكثرها جفاء. وقالت لي كأنما لتعتذر: «لست أفهم أن تدعونا «ماري جيلبير» مع كل هذه الحثالة. بوسعنا أن نقول إنه تجمع ههنا من سائر الرعايا. لقد كان الأمر أفضل ترتيباً لدى «ميلاني بورتاليس». كان بمقدورها أن تستقبل في بيتها المجمع المقدس<sup>(١)</sup> وجماعة معبد المصلى<sup>(٢)</sup> إن حلا لها ذلك ولكنهم كانوا على الأقل لا يستقدمونا في تلك الأيام». لكنما كان ذلك، في نظر الكثيرين، بداعي الوجل ومخافة شجار مع زوجها الذي ما كان يريد أن تستقبل فنانين، الخ.. (كانت «ماري - جيلبير»

(١) أو السينودس : مجمع كنسي كان يقود الكنيسة الروسية.

(٢) دير لجمعية كهنة من غير الرهبان.

تحمي الكثير منهم ولا بد لها أن تحترس من أن تقترب منها مغنية ألمانية مشهورة، ومن جراء بعض الخشية إزاء النزعة القومية، وكانت، إذ هي تجسد على غرار السيد «دوشارلوس» روح آل «غيرمانت»، تحتقرها من وجهة النظر المجتمعية (فهم كانوا يقدمون الآن جنراً من عامة الشعب على بعض الدوقة وذلك من أجل تعظيم ضباط الأركان) ولكنها، إذ تعلم أنها موضوعة في مصاف سيئي الاتجاه الفكري، تقدم لها تنازلات واسعة إلى حد تهيب معه أن تمد يدها لمصافحة «سوان» في هذا الوسط المعادي للسامية. وسرعان ما اطمأنت بالاً بهذا الشأن بعدما علمت أن الأمير لم يدع لـ «سوان» أن يدخل وأن «نوعاً من المشادة» جرى بينهما. فلم يكن ثمة احتمال للتحديث علانية مع «المسكين شارل» الذي تفضل أن تعزه في السر.

وصاحت السيدة «دوغيرمانت» وهي تبصر سيدة صغيرة غريبة المظهر بفستان أسود بسيط حتى لتخالها بائسة توجه إليها، وكذلك فعل زوجها، تحية واسعة: «ومن عساها تكون هذه أيضاً؟». ولم تتعرفها واعتدلت كما لو أهينت ونظرت دون أن تجيب، وبها مثل هذه الوقاحات، وسألت مستعجبة: «ومن تكون هذه المرأة يا «بازان؟»، فيما كان السيد «دوغيرمانت» يحيي السيدة ويشد على يد الزوج سعياً لتدارك سوء تهذيب «أوريان». ولكنها السيدة «دوشوسبيير»، لقد كنت سيئة التهذيب إلى أبعد حد. - «لست أعلم شيئاً من أمر «دوشوسبيير» - «ابن أخ «العمة» العجوز «شانليفو» - «لست أعرف شيئاً من كل هذا. من هي المرأة، ولماذا تخيئيني؟» - «ولكنك لا تعرفين غيرها، إنها ابنة السيدة «دوشارلوال»، «هنريت موغورانسي» - «آه، ولكنني عرفت والدتها تمام المعرفة، وكانت رائعة شديدة الظرف. فلماذا تزوجت كل هؤلاء القوم الذين لا أعرفهم؟ تقول إنها تدعى السيدة «دوشوسبيير»؟ تضيف قولها وهي تهجى هذه الكلمة الأخيرة بمظهر المتسائل وكما لو خشيت أن تقع في الخطأ. وحدها الدوق بنظرة قاسية - «ليس مثار سخرية بقدر ما يبدو لك أن يدعى المرء «دوشوسبيير»؛ فإن «دوشوسبيير» العجوز كان شقيق «شارلوال» التي سبق ذكرها والسيدة «دوسينكور» والفيكونتيسة «دوميرلورو»، وإنهم لنعم القوم». وصاحت الدوقة التي ماكانت تريد البتة، كما هي حال المروضة، أن يبدو أنها تهيب نظرات الوحش المفترسة: «كفى؛ إنك توليني فرحاً وابتهاجاً يا «بازان». لست أعلم من أين تنبش هذه الأسماء ولكنني أهتلك كل التهئة. ولئن كنت أجهل «دوشوسبيير» فقد قرأت «بلزاك» ولست وحدك من فعل، وكذلك قرأت «لايش». إني أقدر «شانليفو» ولا أكره «شارلوال»، ولكنني أقر أن «دوميرلورو» هو رائعة الروائع. هيا نعترف على أية حال أن «دوشوسبيير» ليس سيئاً بدوره. لقد قمت بتجميع كل هذا، ذلك ليس ممكناً. ثم قالت لي: «أنت يا من يود وضع كتاب يجدر أن تحفظ «شارلوال» و«دوميرلورو» فلن تلقى أفضل من ذلك - سوف يجني فقط دعوى تقام عليه ويمضي إلى السجن. أنت تسدين له أسوأ النصيح يا «أوريان» - «آمل له أن من حوله أشخاصاً أوفر شباباً إن رغب في سؤال نصائح السوء، ولا سيما إن حلا له اتباعها. فأما إن لم يشأ أن يفعل ماكان أسوء من كتابه! وعلى بعد كاف منا كانت تبرز بلطف بفستان أبيض كله ماسات و«تول» امرأة شابة رائعة مهيبة. ونظرت إليها السيدة «دوغيرمانت» وهي تتكلم أمام مجموعة كاملة يشدها مغناطيس حسنها وقالت وهي تمد كرسياً للأمير «دوشيميه» الذي كان ماراً من هناك: «شقيقتك هي الأجمل في كل مكان؛ إنها فائدة هذا المساء». وجاء اللواء «دوفرويرفيل» (وكان عمه الجنرال الذي يحمل الاسم نفسه) وجلس بجانبنا، وفعل السيد «دوبريوتي» مثله فيما كان السيد «دوفوغوير» يعود وهو يتمايل (من جراء غلو في

التأدب يحافظ عليه حتى حينما يلعب كرة المضرب حيث كان يلحق الهزيمة حكماً بفريقه لكثرة ما يطلب أذن الشخصيات البارزة قبل أن يلتقط الطابة) قرب السيد «دوشارلوس» (وهو تغطيه تقريباً حتى ذاك تنورة الكونتيسة «موليه» الواسعة وكان يجاهر باعجابه بها من بين النساء جميعاً)، وبطريق المصادفة في اللحظة التي كان يقبل فيها عدة أعضاء من بعثة دبلوماسية جديدة في باريس إلى تحية البارون. ولدى رؤية سكرتير شاب بادي الذكاء بصورة خاصة ثبت السيد «دوفوغوير» على السيد «دوشارلوس» ابتسامة يتفتح فيها بوضوح سؤال واحد. ولعل السيد «دوشارلوس» كان ورط أحدهم راضياً ولكنما أثار حنقه أنه هو مورط بهذه الابتسامة التي تجيء من غيره ولا يمكن أن يكون لها إلا مدلول واحد. «لست أعرف شيئاً على الإطلاق وأرجوك أن تحتفظ لنفسك بطرائفك، فهي لا تخلف في إلا فتوراً. وإنك ترتكب على أية حال خطأ من الطراز الأول في هذه الحالة الخاصة، فإنني أرى هذا الشاب على عكس ذلك تماماً». وما كان السيد «دوشارلوس»، وقد أغضبه أن يكون أحمر قد كشف سره، يقول الحقيقة هنا، فلعل السكرتير كان استثناء في تلك السفارة لوصدق البارون في ما قال. فقد كان يؤلفها شخصيات شديدة الاختلاف فيما بينهم، وبعضهم شديد الضحالة، حتى إنك إن بحثت عما أمكن أن يكون سبب الخيار الذي وقع عليهم فلا يمكن أن تكتشف سوى الشذوذ. كان يبدو، وهم يجعلون على رأس «صادوم» الدبلوماسية الصغيرة هذه سفيراً يعشق على عكسهم النساء بالمبالغة المضحكة التي يبيديها مسؤول عرض يحرك أصولاً كتيبة المتكرين من مثليه. فعلى الرغم مما كان يراه لم يكن يعتقد بالشذوذ، وقد أقام في الحال البرهان على ذلك فزوج شقيقته قائماً بالأعمال كان يظنه زوراً زير نساء. وقد أضحى منذ ذلك مزعجاً إلى حد ما فأحلوا محله «سعادة» جديدة ضمنت تجانس المجموعة. وحاولت سفارات أخرى منافستها ولكنها لم تفلح في مغالبتها على الجائزة (كما هي الحال في المسابقة العامة حيث تخوِّرها على الدوام ثانوية معينة) وكان لابد أن ينقضي أكثر من عشرة أعوام قبل أن تفلح سفارة أخرى، بعدما تسللت عناصر غير متجانسة داخل هذا الكل المتناهي كمالاً، في انتزاع قصب السبق المشؤوم والسير في المقدمة.

وبعدما اطمأنت السيدة «دوغيرمانت» حول خشيتها من أن يقع عليها التحدث إلى «سوان» لم تعد تحس إلا بالفضول بخصوص الحديث الذي أجراه مع سيد البيت. وسأل الدوق السيد «دوبريوتيه» قائلاً: «أتعلم بأي شأن كان؟» فأجاب: «سمعت من يقول إنه كان بشأن فصل تمثيلي صغير كان الكاتب «بيرغوت» قد نظم تمثيله في منزلهم. وكان ذلك رائعاً على أي حال. ولكنما يبدو أن الممثل كان قد قلد هيئة «جيلبير»، ولعل السيد «بيرغوت» كان يود على أية حال رسم صورته». وقالت الدوقة وهي تبتسم ابتسامة حاملة: «لقد كان أعجبنى ذلك، ويحك، أن أشاهد من يقلد «جيلبير». وأردف السيد «دوبريوتيه» يقول وهو يمد فك القوارض الذي يحمله: «إنما طلب «جيلبير» تفسيرات من «سوان» حول هذه التمثيلية الصغيرة وقد اكتفى هذا بالجواب التالي الذي عده الجميع في غاية النباهة: «لا، على الإطلاق، ذلك لا يشبهك في شيء، فإنك أشد سخفاً من ذلك!» وعاد السيد «دوبريوتيه» يقول: «فضلاً من ذلك يبدو أن هذه المسرحية القصيرة كانت تخب الألياب. كانت السيدة «دوموليه» حاضرة وكان مرحها عظيماً فقالت الدوقة مستعجبة: «كيف ذلك؟ أو تغشى السيدة «دوموليه» المكان؟ لابد أن «ميميه» دبر الأمر. هذا ما تنتهي إليه الأمور على الدوام في تلك الأماكن. فالكل يشرع ذات يوم في الذهاب هناك، وأنا التي استبعدت نفسها بمحض إرادتها أجندني وحيدة أتضجر في زاويتي».

وكانت الدوقة «دوغيرمانت» قد تبنت، منذ القصة التي أقدم السيد «دوبريوتيه» على روايتها، تبنت (إن لم يكن حول صالة «سوان» فعلى الأقل حول افتراض لقاءها «سوان» بعد لحظة) وجهة نظر جديدة. وقال اللواء «دوفرويرفيل» للسيد «دوبريوتيه»: «إن الشرح الذي تقدمه لنا مختلق في كل أجزائه ولدي أدلة أعرف بها ذلك. لقد وقعت مشادة فحسب بين الأمير و«سوان» وقد «علمه»، كما كان يقول أبائنا، أنه لم يعد له ما يخوله الظهور في منزله بسبب ما يبدي من آراء. وعمي «جيلبير» على حق وألف حق، لا أن يطلع بهذه المشادة فحسب، بل ربما انبغى أن يتخلص منذ نيف وستة أشهر من مناصر مكشوف له «دريغوس».

أما السيد «دوفوغوير» المسكين فقد ألقى نفسه، وقد انقلب هذه المرة من لاعب مضرب خامل إلى طابة مضرب جامدة تقذف دون مداراة، يلقي به صوب الدوقة «دوغيرمانت» التي أعرب لها عن مشاعر احترامه. وقد جرى استقباله استقبالاً سيئاً إلى حد ما، إذ يعيش في صدر «أوريان» اليقين من أن سائر الديبلوماسيين -أو رجال السياسة- في عالمها مغفلون.

لا بد أن السيد «دوفرويرفيل» أفاد من الوضع المتميز الذي خص به العسكريون في المجتمع منذ فترة وجيزة، ومن أسف أن المرأة التي سبق أن تزوجها، إن كانت على قربي حقيقة من آل «غيرمانت»، فقد كانت كذلك شديدة الفقر وقد فقدت ثروتها شأنه هو، ويكاد لا يتيسر لهما معارف فكانا في عداد من يتركون جانباً فيما عدا المناسبات الكبرى حينما يسعفهم الحظ بفقد أو زواج قريب. حينذاك كانا يصبحان جزءاً حقيقياً من علية القوم، كممثل أولئك الكاثوليك بالاسم الذين لا يقرّبون المائدة المقدسة إلا مرة في العام. ولعل وضعهما المادي كان تيسراً لو لم تقم السيدة «دوسانتوفيرت»، في إخلاصها للمودة التي خصت بها المرحوم الجنرال «دوفرويرفيل»، بمساعدة الزوجين بكل الطرق مقدمة الملابس وأدوات التسلية للابنتين الصغيرتين. ولكن اللواء الذي كان يعتبر فني طيباً لم يكن عامر النفس بالامتنان. فقد كان حاسداً لمظاهر الأبهة التي تحيط بفاعلة خير كانت تبرزها بدورها دون توقف ولا هواة. والحفلة السنوية في الهواء الطلق تبدو له ولزوجته وأولاده متعة رائعة لعلهم ماكانوا اعتزموا تفويتها في مقابل كل ذهب الدنيا، ولكنها متعة تسممها فكرة مسرات الاستكبار التي تصيبها منها السيدة «دوسانتوفيرت». والإعلان عن هذه الحفلة في الهواء الطلق على صفحات الصحف التي تضيف على الأثر، عقب رواية مفصلة، تضيف بلهجة مكيافيلية: «سوف نعود إلى هذه الحفلة الجميلة»، والتفصيلات الإضافية حول ملابس النساء التي قدمت على مدى عدة أيام متعاقبة، كل ذلك كان يجلب لأسرة «فرويرفيل» عذاباً يبلغ بهم، هم المحرومون من المسرات والذين يعرفون أنهم يستطيعون الاعتماد على مايصيرون منها في حفلة بعد الظهر هذه، أن يتمنوا في كل عام أن تعرقل رداءة الطقس نجاحها وأن يستطلعوا مقياس الضغط الجوي وأن يتلذذوا باستباق نذر عاصفة يمكن أن تفشل الاحتفال.

وقال السيد «دوغيرمانت»: «لن أجادلك في أمور السياسة يا «فرويرفيل»، ولكنني أستطيع أن أقول بصراحة، فيما يخص «سوان»، إن تصرفه إزاءنا كان شائناً. لقد قيل لي عنه، هو الذي رعيناه في دنيا المجتمع ورعاه دوق «شارتر»، إنه يتناصر «دريغوس» علنا. وماكنت لأتوقع ذلك منه في يوم، هو الذواقه المرفه والعقل

العملي، هاوي المجموعات والكتب القديمة عضو نادي الفرسان والرجل الذي يحوطه التقدير العام، الخبير بأفضل العناوين الذي كان يعث إلينا بأفضل خمور «البورتو» للشراب، هذا المولع بالفنون ورب أسرة مثله آه؛ لقد ضللت أيما تضليل. ولست أحكي عن نفسي فمن المسلم به أنني مغفل عجوز لا يعتد برأيه ومن صنف المتشردين، ولكنما كان ينبغي أن لا يفعل ذلك كرمي لـ «أوريان» لا لأمر آخر، وكان يجدر به أن يشجب علنا اليهود ومحازبي المحكوم عليه.

وأردف الدوق قائلاً: «أجل، بعدما أبدت له زوجي على الدوام من مودة»، وكان يحسب بدهاة أن الحكم على «دريفوس» بالخيانة العظمى، أيما كان الرأي الذي تحمله في قرارة نفسك عن مدى ذنبه، إنما يؤلف نوعاً من الامتنان للطريقة التي جرى بها استقبالك في حي «سان جيرمان»، «كان يجدر به أن يعدل عن تضامنه. فاسألوا «أوريان»، كانت تكن له صداقة حقة». وإذ ظنت الدوقة أن اللهجة الساذجة الهادئة ربما أولت كلامها قيمة أكثر مأساوية وصداقة فقد قالت بصوت تلميذة مدرسة وكأنما تدع للحقيقة أن تنطلق ببساطة من فمها وفيما تحمل عينيها فحسب دلائل شيء من الحزن: «ذلك صحيح، فليس من سبب لأخفي أنني كنت أكن صادق المودة لـ «شارل»! - «هيه، ترون بأنفسكم، ولست أقولها ما تقول. وبعد ذلك يبلغ بنكران الجميل أن يكون من أنصار «دريفوس»!.

وقلت: «يبدو، إذ نحن بصدد مناصري «دريفوس»، أن الأمير «فون» منهم». وصاح السيد «دوغيرمانت» قائلاً: «حسنًا فعلت أن حدثتني عنه، فكنت أوشك أن أنسى أنه سألتني المجيء إلى الغداء يوم الاثنين. فأما أن يكون من مناصري «دريفوس» أو لا يكون فالأمر عندي سواء إذ هو أجنبي ولست أهتم مطلقاً لذلك. أما بالنسبة إلى فرنسي فالأمر مختلف. صحيح أن «سوان» يهودي، ولكنني حتى هذا اليوم -عذرني يا «فروبيرفيل»- تلطفت واعتقدت بأن اليهودي يمكن أن يكون فرنسياً، أقصد اليهودي المحترم المنتمي إلى دنيا المجتمعات، و«سوان» كان ذلك بكامل معنى الكلمة. وأنت ترى! إنه يرغمني على الإقرار بأنني كنت على خطأ إذ هو ينحاز إلى جانب «دريفوس» هذا (الذي لا ينتمي إلى وسطه، إن كان مذبذباً أولاً، ولعله ما كان ليلتقيه في يوم) ضد مجتمع سبق أن تبناه وعامله كأحد خاصته. وغني عن القول إننا ضمنا جميعنا «سوان» ولعلني كنت ضمنت وطنيته كما أفعل فيما يخصني. إنه يكافئنا شر مكافأة؛ وإنني أعترف أنني ماكنت أتوقع منه مثل هذا في يوم. كنت أعدّه أفضل من ذلك. كان صاحب نكتة (على طريقتة بالطبع). أعرف تماماً أنه سبق أن ارتكب حماقة في زواجه المخجل. خذوا مثلاً، هل تعرفون واحداً أصابه غم كبير من زواج «سوان»؟ تلکم زوجتي. فعالباً ما يصيب «أوريان» ما أدعوه بتصنع غياب الإحساس، ولكنها في الحقيقة تحس بقوة غير عادية. كانت السيدة «دوغيرمانت» تصغي بادية التواضع مأخوذة بهذا التحليل لطابعها ولكنها لا تنبس ببنت شفة مخافة أن توافق على المديح وعلى الأخص خشية أن تقاطعه. ولعل السيد «دوغيرمانت» كان استطاع التحدث على مدى ساعة حول هذا الموضوع وما تحركت هي أكثر مما تفعل لو أقدموا على عزف بعض الموسيقى أمامها. «حسن! أذكر أنها حينما علمت بزواج «سوان» أحست بالإساءة ورأت أن الأمر غير لائق من جانب من سبق أن أبدى له هذا القدر من الود؛ كان حبها لـ «سوان» كبيراً وقد حل بها غم عظيم. أليس

كذلك يا «أوريان»؟ وظنت السيدة «دوغيرمانت» من واجبها الإجابة إزاء مثل هذا النداء المباشر حول واقعة تسمح لها، دون أن تبدي من ذلك شيئاً، أن تؤكد ألوأناً من المديح تحس أنها انتهت. فقالت بلهجة خجولة ساذجة وهيئة يزداد تصنعها بمقدار ماتبغني أن تظهر مظهر «ماكان وليد الإحساس»، قالت بعذوبة متحفظة: «صحيح، إن «بازان» لا يخطئ» - «ومع ذلك لم يكن الأمر بعد نفسه. ماعساك تريد، الحب هو الحب، مع أنه ينبغي أن يلبث ضمن حدود معينة. فربما بلغ بي أن أعذر فتى شاباً ومغروراً صغيراً ينساق لأوهامه. ولكن «سوان»، هذا الرجل الذكي ذو الرهافة المجرية وخبير اللوحات المرهف وأليف دوق «شارتر» و«جيلبير» نفسه! كانت اللهجة التي يقول بها السيد «دوغيرمانت» ذلك، كانت ودية تماماً لا تشوبها شائبة مما كان يبدي في الغالب من سوقية. كان يتكلم بحزن يلونه شيء من الغيظ، ولكن كل شيء فيه يوحي بهذا الوفاق الحلو الذي هو أساس السحر العذب الرحب المنبعث من بعض أشخاص «رامبرانت» كالعمدة «سيكس» على سبيل المثال. كنت تحس أن مسألة اللا أخلاقية في سلوك «سوان» إزاء «القضية» لم تكن حتى واردة بالنسبة إلى الدوق لقلّة مافي الأمر من شك. كان يحس منها بأسى والد يرى أحد أبنائه الذي قدم أعظم التضحيات في سبيل تربيته يقوض عامداً المركز العظيم الذي أعده له ويلحق العار باسم محترم من جراء صنوف طيش لا يمكن لمبادئ الأسرة أو آرائها المسبقة أن تقبل بها. والصحيح أن السيد «دوغيرمانت» لم يبد فيما مضى استغراباً بمثل هذا العمق وهذا الألم حينما بلغه أن «سان لو» كان من مناصري «دريغوس». إلا أنه بادئ الأمر كان يعد ابن أخته شاباً سلك طريق الشر ولا يمكن أن يستغرب أمراً منه إلى أن يكون اصطلاح، فيما كان «سوان» ما كان يدعو السيد «دوغيرمانت» «بالرجل الرزين، رجل يشغل موقعاً من الطراز الأول». ثم إن زمناً طويلاً على وجه الخصوص انقضى إن بدا في أثنائه أن الأحداث، من وجهة النظر التاريخية، تبرر في جزء منها طرح تيار «دريغوس» فإن المعارضة المناهضة لـ «دريغوس» ضاعفت من عنفها وانقلبت من سياسية محضة بادئ الأمر اجتماعية. لقد أضحت الأمر الآن مسألة نزعة عسكرية، نزعة وطنية، وإن أمواج الغضب التي تعصف بالجمتمع قد اتسع لها الوقت لتكتسب هذه القوة التي لا تملكها البتة في بداية العاصفة. وعاد السيد «دوغيرمانت» يقول: «تري، لقد ارتكب «سوان» حتى على صعيد يهوده الأعزاء، بما أنه يحرص على مساندتهم حرصاً مطلقاً، غلطة لا يمكن تقدير أثرها. فإنه يقيم البرهان على أنهم كلهم متحدون في السر وأنهم ملزمون نوعاً ما بمسئلة أحد بني جنسهم وإن لم يعرفوه. إنهم خطر عام، وقد بالغنا على نحو جلي بالتساهل والغلطة التي يرتكبها «سوان» سوف يكون لها صدى يتعاضم بمقدار ما كان مقدراً وحتى مرحباً به وأنه كان تقريباً اليهودي الوحيد الذي كان معروفاً. وقد يقول قائل: ab uno disce omne (من واحد تعرف الجميع) - ونور الارتياح الناجم عن أنه عثر في ذاكرته في اللحظة المحددة على استشهاد مناسب إلى هذا الحد، نور وحده بابتسامة مستكبرة حزن هذا السيد الكبير الخيب الآمال -.

كان بي رغبة شديدة في أن أعلم ماجرى بالضبط بين الأمير و«سوان» وأن ألتقي هذا الأخير إن لم يكن غادر بعد الأمسية. وأجابتنى الدوقة التي كنت أحدثها عن رغبتى تلك: «سأقول لك إنني لا أحرص حرصاً كبيراً على لقائه فإنه يبدو، حسبما قيل لي في الحال في منزل السيدة «دوساتوفيرت»، أنه يود قبل موته أن أتعرف بزوجه وابنته. يا إلهي، يغمني أعظم الغم أن يكون مريضاً، ولكنني أمل أولاً أن لا يكون الأمر خطيراً

إلى هذا الحد، ثم إن ذلك ليس في النهاية سبباً لأن الأمر سيكون بالغ السهولة، وما على كاتب تعوزه الموهبة إلا أن يقول: «أعطني صوتك في المجمع العلمي لأن زوجتي تشرف على الموت وأريد أن أوفر لها هذه الفرحة الأخيرة». لن يبقى ثمة منتديات إن اضطرونا إلى التعرف بالمحتضرين جميعاً. وبمقدور حوذي أن يصرح لي: «ابنتي في أسوأ حال لها فاعلمي على أن تستقبلي الأميرة «دويارما». إنني أحب «شارل» حباً جماً وقد يغمني كثيراً أن أرفض ولذلك أفضل تجنب أن يسألني ذلك. أمل من كل قلبي أنه غير مشرف على الموت مثلما يقول، ولكن إن كان لابد أن يقع ذلك فليس هنا فيما يخصني آوان التعرف بهاتين المخلوقتين اللتين حرمتاني أحب صديق إليّ على مدى خمسة عشر عاماً والذي سوف يهملني ساعة لا أستطيع حتى الإفادة من ذلك في رؤيته هو بما أنه سيكون في عداد الأموات».

على أن السيد «دوبريوتيه» لم يكف عن اجترار الكذب الذي وجهه إليه اللواء «دوفروبيرفيل» وقال: «لست أشك في صحة روايتك أيها الصديق العزيز، ولكنني أنقل روايتي عن مصدر ثقة، فإن الأمير «دولاتور دوفيرني» هو الذي قصها عليّ. وقاطعه الدوق «دوغيرمانت» قائلاً: «أعجب أن يوالي عالم مثلك القول بالأمير «دولاتور دوفيرني»، فأنت تعلم أنه ليس على أدنى شيء من ذلك، ولم يعد ثمة سوى عضو واحد من هذه الأسرة. إنه عم «أوريان»، الدوق «دوبويون». وسألت: «أهو شقيق السيدة «دوفيلباريزيس»؟»، وقد تذكرت أن السيدة كانت آنسة من عائلة «دوبويون» - بالضبط. «أوريان»، السيدة «دولامبرساك» تفرثك السلام.

كنت ترى بالفعل بين الحين والحين ابتسامة واهنة توجهها الدوقة «دولامبرساك» إلى شخص تعرفته، ابتسامة تتشكل وتثمر مرّ الشهاب. ولكن هذه الابتسامة بدلاً من أن تتوضع في تأكيد فاعل، في لغة صامنة ولكنها واضحة، كانت تفرق في الحال تقريباً في نوع من الانخفاف المثالي الذي لا يميز شيئاً فيما ينحني الرأس بحركة مباركة مطمئنة تذكر بالحركة التي ينحني بها صوب جمهور المتناولات أسقف به بعض ارتخاء. ولم تكن السيدة «دولامبرساك» تشكو من ذلك على الإطلاق. ولكنني كنت قد عرفت هذا النوع الخاص من اللياقة البالية. فقد تعودت سائر صديقات جدتي في «كومبريه» وباريس أن يحيين في اجتماع لعلية القوم بهيئة ملائكية تشبه حالهن لو يبصرن أحد معارفهن في الكنيسة لحظة رفع القربان أو في أثناء جنازة فيلقين إليه بنحية متهاكة تنتهي صلاة. وإن جملة للسيد «دوغيرمانت» كانت ستكمل المقاربة التي كنت أعقدها. فقد قال لي السيد «دوغيرمانت»: «ولكنك رأيت الدوق «دوبويون»، فقد كان خارجاً للتو من مكتبي وأنت تدخل إليها: رجل قصير القامة كله بياض». وكان من سبق أن حسبته بورجوازي صغيراً من «كومبريه» والذي كنت أستخلص الآن بالتفكير شبهه بالسيدة «دوفيلباريزيس». وأخذ تماثل التحيات المتلاشية الصادرة عن الدوقة «دولامبرساك» ونحيات صديقات جدتي يثير اهتمامي إذ أبرز لي أن العادات القديمة في الأوساط الضيقة المغلقة، إن كانت من البورجوازية الصغيرة أو طبقة الأشراف العليا، إنما تستمر وتسمح لنا وكأننا لعالم آثار أن نعود فنلقى ما كانت عليه التربية والجزء الذي تعكسه من النفس في زمن الفليكوت «دارلنكور» و«لويززا يوجيه». بل أفضل من ذلك أن التطابق التام في المظهر بين الدوق «دوبويون» وبورجوازي صغير من «كومبريه» بمثل سنه كان يذكرني الآن (وهو ماسبق أن أدهشني أيما إدهاش حينما أبصرت جد «سان لو» لأمه، الدوق «دولاروشفوكو»، على صورة يشبه فيها شقيق جدي تماماً ثياباً وهيئة وحركات) بأن الفوارق الاجتماعية،

وحتى الفردية، إنما تنصهر على بعد المسافة في تماثل يفرضه العصر. والحقيقة أن تشابه الملابس وكذلك عكس الوجه لروح العصر إنما يشغلان حيزاً لدى الشخص أوفر أهمية بما لا يقاس من طبقته التي لا تشغل مكانة عظيمة إلا داخل اعتزاز المعنى بذاته وفي مخيلة الآخرين، وأن لا ضرورة للطواف في أروقة «اللوهر» كما تتبين أن سيداً عظيماً من عصر «لوي فيليب» أقل اختلافاً عن بورجوازي من عصر «لوي فيليب» منه عن سيد عظيم من عصر لويس الخامس عشر.

في ذلك الحين حيا «أوريان» موسيقي «بافاري» طويل الشعر من ترعاهم الأميرة «دوغيرمانت». وردت هذه بالحناءة من الرأس، ولكن الدوق استدار، وقد ثارت ثائرتة إذ رأى امرأته تلقي تحية المساء على شخص لا يعرفه غريب الشكل وهو، على قدر ما يعلم السيد «دوغيرمانت»، سيء السمعة إلى حد بعيد، استدار صوب امرأته بهيئة متسائلة مخيفة كما لو يقول: «أي شيء هو هذا العديم التهذيب؟» كان موقف السيدة «دوغيرمانت» المسكينة مذ ذاك على شيء من التعقيد، ولو أبدى الموسيقي قليلاً من الإشفاق على هذه الزوجة الشهيدة لابتعد كأسرع ما يكون، لكن الموسيقي، إما رغبة منه في أن لا يلبث على الإذلال الذي سيمه منذ قليل على رؤوس الأَشْهاد وسط أقدم أصدقاء ندوة الدوق، وربما كان وجودهم إلى حد ما سبباً لانحناءته الصامتة وليظهر أنه حيي السيدة «دوغيرمانت» بحق لا عن غير معرفة، وإما انصياعاً للإلهام المبهم الذي لا يقاوم للهفوة التي دفعته - في لحظة كان ينبغي له فيها أن يعول بالأحرى على الروح - إلى تطبيق حرفية البروتوكول بذاتها، تقدم أكثر من السيدة «دوغيرمانت» وقال لها: «سيدتي الدوقة، أود التماس شرف تعريفي بالدوق». كانت السيدة «دوغيرمانت» تعيسة بالتأكيد. ولكن عبثاً تراها زوجة مخدوعة فقد كانت مع ذلك دوقة «غيرمانت» ولا يمكن أن تبدو وكأنها مجردة من حقها في أن تقدم لزوجها الأشخاص الذين كانت تعرفهم فقالت: «اسمح لي يا «بازان» أن أقدم لك السيد «ديرفيك». وقال اللواء «دوفروبيرفيل» للسيدة «دوغيرمانت» كي يمدد الانطباع الثقيل الذي خلفه طلب السيد «ديرفيك» الذي في غير محله: «لست أسألك إن كنت ستذهبين في الغد إلى منزل السيدة «دوسانتوفيرت»، فباريس كلها ستكون هناك». وفي أثناء ذلك استدار الدوق «دوغيرمانت»، دفعة واحدة وكأنني به قطعة واحدة، استدار صوب الموسيقي المتطفل يواجهه ضحكاً صامتاً في غيظه كأنه «جويتير» الراعد وبقي كذلك لا حراك به بضع ثوان تلتصع عيناه غضباً ودهشة فيما يبدو شعره الأجعد وكأنه يندفع من فوهة بركان. ثم بدا كأنما تحمله اندفاعه كانت وحدها تمكنه من إنجاز التأدب الذي طلب منه وبعدم ظهر بوقفة التحدي التي يقفها وكأنما يشهد الحضور كلهم أنه لا يعرف الموسيقي البافاري وصالب خلف ظهره يديه بقفازيهما الأبيضين وانقلب إلى الأمام ووجه إلى الموسيقي تحية شديدة العمق يطبعها فيض من الدهشة والسخط فجائية عنيفة إلى حد أن الموسيقي ارتد إلى الوراء مرتجفاً وهو ينحني كي لا تطاله نطحة هائلة في بطنه، ولكنني بالضبط لن أكون في باريس، تجيب الدوقة اللواء «دوفروبيرفيل»؛ سأقول لك (وهو مالا يجدر بي أن أقرب به) إنني بلغت سني هذا دون أن أعرف زجاجيات «مونفورلاموري». الأمر مخز ولكنها تلك حالي. وقد اعتزمت، بغية التكفير عن هذا الجهل الفاضح، أن أذهب في الغد لزيارتها. وابتسم السيد «دوبريوتي» ابتسامة رهيبة؛ فقد أدرك أن الدوقة إن استطاعت أن تلبث حتى سنّها هذا دون أن تعرف زجاجيات «مونفورلاموري» فإن هذه الزيارة الفنية ما كانت تتخذ فجأة طابع التدخل



«على الحامي» الملح وربما أمكن دون خطر تأخيرها أربعاً وعشرين ساعة بعدما أرجعت على مدى أكثر من خمسة وعشرين عاماً. والمشروع الذي قرره الدوقة كان ببساطة القرار الصادر على طريقة آل «غيرمانت» والقاضي بأن صالة «سانتوفيرت» ليست بالتأكيد بيتاً صالحاً تماماً، بل بيت يدعونك إليه ليتزينوا بك في الخلاصة التي تنشر على صفحات «لوغولوا»، بيت ربما أضفى طابعاً من الأناقة الرفيعة على اللواتي، أو ان لم تكن سوى واحدة، على التي لن يشاهدوها فيه. إن اللهو الناعم الذي يصيبه السيد «دوبريوتيه» والذي تبطنه تلك المتعة الشاعرية لدى أرباب المجتمع الراقي إذ يشهدون السيدة «دوغيرمانت» تقدم على أمور لا يسمح لهم موقعهم الأدنى بتقليدها ولكن مجرد رؤيتها يبعث على شفاهم ابتسامة الفلاح المرتبط بأرضه إذ يبصر أشخاصاً أكثر تحرراً وأوفر مالا يمرون من فوق رأسه، تلك المتعة الرقيقة ماكانت تمت بصلة إلى الافتتان المكتوم والعنيف مع ذلك الذي داخل في الحال السيد «دوفروبيرفيل».

كانت الجهود التي يقوم بها السيد «دوفروبيرفيل» كي لا تتناهى ضحكته إلى الأسماك قد جعلته أحمر كعرق الديك، ومع ذلك فقد صاح بصوت شقوق وهو يقطع كلماته بتعتمعات الفرح: «أوه؛ مسكينة الخالة «سانتوفيرت»، أي مرض سينتابها من جراء ذلك؛ لا، لن تحصل المرأة التيمسة على دوقتها، يالها ضربة تلك؛ إن في ذلك ما يكفي للقضاء عليها» يضيف قوله وهو يتلوى من الضحك. ولا يستطيع في نشوته أن يحول دون أن يقوم بإشارات بقدمه وأن يفرك يديه. وخلصت السيدة «دوغيرمانت»، وهي تبسم بعين وبزاوية واحدة من فمها للسيد «دوفروبيرفيل» الذي كانت تقدر مقصده اللطيف دون أن يتناقص شعورها بالملل القاتل، إلى العزم على فراقه.

وقالت له، وهي تنهض، بهيئة التسليم الحزين وكما لو كان الأمر مصيبة تملأ بها: «اسمع، سوف أضطر لأن أتمنى لك ليلة سعيدة». وكان صوتها الموسيقي الناعم بتأثير سحر عينيها الزرقاوين يذكر بشكوى جنينة شعرية. «يريدني «بازان» أن أذهب في زيارة قصيرة لـ «ماري». وكانت في الواقع قد ضاقت ذرعاً بالاستماع لـ «فروبيرفيل» الذي لم يعد يكف عن إبداء حسده لها لذهابها إلى «مونفورلاموري» حين تعلم تمام العلم أنه يسمع الحديث عن تلك الزجاجيات للمرة الأولى وأنه من ناحية أخرى ما كان ليتخلى مقابل أي شيء في الدنيا عن حفلة «سانتوفيرت» في العصر. «إلى اللقاء؛ كدت لا أكلمك، الأمر على هذه الشاكلة في المجتمع الراقي، الناس لا يلتقون ولا يقولون الأشياء التي يودون أن يقولها أحدهم للآخر، والأمر واحد على أية حال في الحياة في كل مكان. نأمل أن الأمور ستكون أفضل ترتيباً بعد الممات. على الأقل لن نكون دوماً بحاجة إلى الكشف عن الكتفين، ثم من ذا يعلم؟ فربما عرض المرء عظامه وديدانه في الحفلات الكبرى، ولم لا؟ خذ مثلاً، انظر إلى الخالة «رامبسيون»، فهل ترى فارقاً كبيراً بين هذا وبين هيكل عظمي بفسطاط مفتوح؟ وصحيح أنها تملك كافة الحقوق لأنها بلغت المئة على الأقل. فقد كانت واحداً من أولئك الممثلين العظام الذين كنت أرفض الانحناء أمامهم حينما باشرت بداياتي في المجتمع الراقي. كنت أظنها ماتت منذ زمن طويل، ولعل هذا الأمر يؤلف التفسير الوحيد للمشهد الذي تقدمه لنا، إنه مؤثر وطقسي، ومن فن المقابر!» وكانت الدوقة قد فارقت «فروبيرفيل» فاقترب منها: «أود أن أقول لك كلمة أخيرة». فقالت باستعلاء

وبها شيء من الضيق: «ما وراءك أيضاً؟» أما هو فقال وبه خشية أن تعدل عن رأيها في اللحظة الأخيرة بالنسبة إلى «مونفور لا موري»: «لقد خائنتني الجراءة في أن أحدثك عن الأمر بسبب السيدة «دوسانتوفيرت» وكى لا أبعث الغم في نفسها، ولكن بما أنك لا تعترمين الذهاب فبوسعي أن أقول إني سعيد من أجلك، فداء الحصبة في بيتها» وقالت «أوريان» التي كانت تخشى الأمراض: «آه؛ يا إلهي! ولكن الأمر لا أهمية له فيما يخصني، فقد سبق أن أصبت بها ولا يمكن الإصابة بها مرتين» - «إنما الأطباء من يقولون ذلك، فإني أعرف أنا سماً أصيبوا بها حتى أربع مرات. لقد حذرتك على أية حال». أما فيما يخصه، فلعله كان انبغى أن يصاب حقاً بتلك الحصبة الوهمية وأن تسمره على فراشه كي يسلم بتفويت حفلة «سانتوفيرت» التي ينتظرها منذ أشهر عدة. فسوف يصيب مسرة بمشاهدة الكثير من أبواب الأناقة؛ بل يتعاضد سروره بملاحظة بعض الأمور الفاشلة، وسيسرره على وجه الخصوص أن يستطيع الفخار زمناً طويلاً بأنه كسب صداقة الأولين، وأن يأسف للآخرى بعدما يبالغ فيها أو يختلقها.

وانتهزت فرصة كانت الدوقة تغير فيها مكانها كي أنهض بدوري للذهاب باتجاه قاعة المدخنين للاستعلام عن «سوان»، فقالت لي: «لاتصدق كلمة بما رواه «بابال»، فما كانت الصغيرة «موليه» لتذهب في يوم وتحشر نفسها هناك يقولون لنا ذلك لاجتذابنا. إنهم لا يستقبلون أحداً ولا يدعون إلى أي مكان؛ وهو نفسه يقر بالأمر: «نظل نحن الاثنين وحدنا قرب نار الموقد». وإذا يقول على الدوام «نحن»، لا بلغة الملك بل من أجل امرأته، تراني لا ألح. ولكنني مطلعة أتم الاطلاع، تضيف الدوقة قولها. والتقينا، هي وأنا، شابين يستمدان جمالهما العظيم والمختلف من المرأة نفسها، وكانا ولدي السيدة «دوسورجيس» عشيقه الدوق «دو غير مانت» الجديدة. كانا يتألفان بمواطن الكمال في والديهما، ولكنما كل بأخر غير الذي لذلك. فقد انتقل إلى الأول هيبة السيدة «دوسورجيس» الملكية متموجة في جسم رجولي، فيما يتدفق الشحوب اللاهب الأصهب المقدس نفسه في مرمر وجنتي والدة هذا الابن. أما شقيقه فقد اكتسب الجبين اليوناني وكمال الأنف وجيد التماثيل وعينين تتسعان إلى مالا نهاية. كان ازدواج جمالهما الذي تشكل على هذا النحو من تقدم متنوعة قامت لإلهة بتقسيمها يوليك متعة الظن المجردة بأن علة ذلك الجمال قائمة في خارجهما؛ لكننا تجسدت خصائص أمهما الرئيسية في جسدين مختلفين وكان لأحد الشابين قوام أمه ولونها والآخر نظرتها كمثمل الكائنين الإلهيين وإنهما إلا قوة وجمال «جوبيتير» أو «مينيرفا» كانا يفيضان احتراماً للسيد «دو غير مانت» الذي يقولان عنه: «إنه صديق كبير لوالدينا»، بيد أن البكر ظن من الفطنة أن لا يقبل لتحية الدوقة التي يعرف كراهيتها لوالدته، ربما دون أن يدرك السبب، فأشاح قليلاً برأسه لدى رؤيتها. أما الابن الأصغر، الذي كان يقلد أخاه على الدوام إذ هو غيبي وقصير النظر إلى ذلك فلا يجرؤ على اتخاذ رأي شخصي، فقد مال برأسه وفق الزاوية نفسها وانسلّ الاثنان صوب قاعة اللعب يتبع أحدهما الآخر وهما أشبه بشخصيتين رمزيتين.

لحظة وصولي إلى تلك القاعة استوقفتني المركيزة «دوسيتري»، ولاتزال جميلة ولكنما يكاد الزيد يتطاير من أسنانها. كانت على شيء من نبل المحتد فبحثت وعقدت زواجاً لامعاً باتخاذ السيد «دوسيتري» زوجاً لها وكانت جدة جدته من أسرة «أومال لورين». وما أن أصابت من ذلك مسرة حتى جعلها طبعها النكار تكره

جماعة المجتمع الراقي كرهاً لا يستبعد بصورة مطلقة الحياة المخملية. فلم تكن تكتفي في أمسية مبالهزه بالجميع ولكنما كان في ذلك الاستهزاء شيء من العنف شديد إلى حد أن الضحك نفسه لم يكن فيه ما يكفي من قسوة فينقلب صغيراً ينطلق من الحلق. وقالت لي وهي تريني الدوقة «دو غير مانت» التي فارقنتني منذ قليل وأضحت على مسافة مني: «آه! ما يذهلني أنها تستطيع أن تحيا مثل هذه الحياة». أفكانت هذه الكلمة لقديسة يتأكلها الغيظ وتعجب أن لا يقبل الوثنيون من تلقاء أنفسهم إلى الحقيقة، أم لفوضوية تحركها شهوة المذابح؟ وفي جميع الأحوال لم يكن لتلك الالتفاتة مما يبررها إلا أقل القليل. وأول الأمر أن «الحياة التي كانت تحياها» السيّدة «دو غير مانت» قليلة الاختلاف (باستثناء ماتبدي من حقن عن حياة السيّدة «دوسيتري»). كانت السيّدة «دوسيتري» مذهولة أن تلفي الدوقة قادرة على هذه التضحية القائلة، عينا حضور أمسية لـ «ماري جيلبير». وينبغي أن نقول في هذه الحالة الخاصة أن السيّدة «دوسيتري» كانت تحب الأميرة حباً جمّاً وكانت هذه بالفعل طيبة جداً، وإنها تعلم أنها توليها بحضورها أمسياتها سروراً عظيماً ولذلك ألغت، بغية المجيء إلى هذه الحفلة، دعوة راقصة كان تظن لها نبوغاً وسوف تدخلها في أسرار تصاميم الرقص الروسي. وثمة سبب آخر كان ينزع بعض القيمة عن الحقن المركز الذي ينتاب السيّدة «دوسيتري» حين ترى «أوريان» تلقي التحية على هذا المدعو أو تلك المدعوة وقوامه أن السيّدة «دو غير مانت» تعاني من أعراض الداء الذي يفتك بالسيّدة «دوسيتري» وإن يكن في حالة أقل تطوراً. وقد لوحظ بأية حال أنها كانت تحمل بذوره منذ مولدها. ولعله كان للسيّدة «دو غير مانت» أخيراً، وهي أكثر ذكاء من السيّدة «دوسيتري»، حقوق أكثر منها بتلك العدمية (التي لم تكن خاصة بالمجتمع الراقي فحسب)، ولكنما الصحيح أن بعض المزايا تساعد على تحمّل عيوب الآخرين أكثر مما تسهم في التألم منها، وإن شخصاً عظيم الموهبة إنما يولي بالعادة اهتماماً أقل بغباء الغير مما يفعل رجل أحقق. لقد وصفنا بتطويل كاف نوعية فكر الدوقة كيما يجري الإقناع بأنّها، إن كانت لا تشبه في شيء الذكاء الرفيع، إنما هي فكر على الأقل، فكر ماهر في استخدام أشكال مختلفة من النحو (على غرار المترجم). وما كان يبدو أن شيئاً من ذلك يؤهل السيّدة «دوسيتري» لازدراء مزايا ما أشبهها بمزاياها. كانت ترى جميع الناس بلهاء ولكنما يغلب أن تظهر في حديثها وفي رسائلها أدنى من الناس الذين تعاملهم بهذا القدر من الازدراء. كان بها على أية حال حاجة إلى الهدم عظيمة حتى أن المتع التي بحث عنها حينذاك، حينما تخلّت عن الدنيا تقريباً، عانت الواحدة بعد الأخرى من قدرتها الرهيبة على الإفساد. لقد شرعت تقول بعدما هجرت الحفلات المسائية إلى جلسات موسيقية: «أفتحب سماع مثل هذا، هذه الموسيقى؟ آه! يا إلهي، الأمر رهن بالأوقات. ولكن كم يمكن أن يكون ذلك مملاً! «بيتهوفن»، «بالسأم!»، «أنا بالنسبة إلى «فاغنر» ثم إلى «فرانك» و«دوبوسي» فما كانت حتى تكلف نفسها عناء أن تقول «بالسأم» بل تكتفي بتمرير يدها على وجهها كما يفعل الخلاق. وغدا كل شيء باعثاً على السأم» «الأشياء الحلوة، ما أكثر ما تبعث على السأم! واللوحات شيء يورث الجنون. كم أنت على حق، فأني ملل في كتابة الرسائل!» وكانت الحياة نفسها في نهاية المطاف ما أعلنت تقول عنها إنها أمر ملّ دون أن ندري تماماً أين كانت تأخذ وجه المقارنة.

لست أعلم إن كان ذلك بسبب ما قالت السيّدة «دو غير مانت»، في أول مساء تناولت فيه طعام العشاء في منزلها، حول هذه الحجرة، ولكن قاعة اللعب أو التدخين بتساوير بلاطها ومناصبها الثلاثية وصور الآلهة

والحيوانات فيها وهي تنظر إليك وأشكال أبي الهول الممددة على أذرع المقاعد ولاسيما الطاولة الهائلة المصنوعة من الرخام أو الفسيفساء المرصعة المغطاة بعلامات رمزية تقلد في كثير أو قليل الفن «الايروسكي» والمصري، قاعة اللعب تلك بدت لي غرفة مسحورة حقيقية. فعلى مقعد جرى تقريبه من الطاولة المتألقة العرافية كان السيد «دوشار لوس»، هو الذي لايلمس ورقة لعب واحدة، وغير الآبه بما يجري من حوله والعاجز عن ملاحظة أنني دخلت منذ قليل، كان يبدو بالضبط ساحراً يوجّه كامل قوّة إرادته وعقله لاستخلاص طالع ما. كانت عيناه تخرجان من رأسه كمثمل متنبّية على كرسيها الثلاثي الأرجل، وليس ذلك فحسب، بل هو وضع إلى جانبه، بغية أن لا يصرفه أمر عن الأعمال التي تقتضي إيقاف أبسط الحركات، (وكمثمل حاسب لا يريد القيام بأي أمر آخر مادام لم يجد حلاً لمسألته)، السيكار الذي كان في فمه قبل وقت قليل والذي لم يعد يملك حرية الفكر اللازمة لتدخينه. وربما تبادر إلى الذهن، إذ تبصر الإلهين المقعنين على ساعدي الكنية الموضوعية قبائلته، أن البارون يحاول كشف لغز أبي الهول لو لم يكن الأمر بالأحرى لغز «أوديب» شاب وحيّ يرزق يجلس بالضبط على هذه الكنية حيث اتخذ مكانه ليلعب. وإنما كان الوجه الذي يصبّ عليه السيد «دوشار لوس» كامل قدراته الروحية وبهذا المقدار من التركيز والذي لم يكن والحقّ يقال من تلك التي تدرس عادة «بطريقة هندسية»، كان ذاك الذي تقدّمه له خطوط وجه المركيز الشاب «دوسور جيس». كان يبدو، لشدة ماكان السيد «دوشار لوس» مستغرقاً أشد الاستغراق أمامه، وكأنه كلمة ما في معين، أحجية ما، مسألة جبر حاول أن يكشف لغزها أو يستخلص صيغتها. كانت العلامات المبهمة المعاني والصور المنقوشة على لوح الشريعة هذا تبدو وكأنها كتاب الطلاس الذي سيمكّن الساحر العجوز من معرفة المنحى الذي تنحوه مصائر الشاب. وتبين فجأة أنني أنظر إليه ورفع رأسه كأنما يطلع من حلم وابتسم لي وقد اكتسى وجهه حمرة. وفي تلك اللحظة جاء ابن السيدة «دوسورجيس» الآخر بالقرب من ذاك الذي كان يلعب، جاء يستطلع أوراقه. وحينما علم السيد «دوشار لوس» مني أنّهما شقيقان لم يفلح وجهه في إخفاء الإعجاب الذي تبعثه فيه أسرة تبدع روائع بهذا الألق وهذا الاختلاف. ولعلّ ماكان زاد من حماسة البارون أن يعلم أن ولدي السيدة «دوسورجيس» لو دوك، لم يولدا لأُم واحدة، بل لأب واحد أيضاً. إن أبناء «جوييتير» مختلفون، ولكن مرّد ذلك أنّه تزوّج باديء الأمر «ميتيس» التي قدّر عليها أن تهب الحياة لأبناء عقلاء، ثمّ «تيميس» وبعدها «أوريمن» و«ميموزين» و«ليتو» وفي آخر المطاف فقط «جونون». إلا أن السيدة «دوسورجيس» ولدت من أب واحد ولدين ورثا الجمال عنها، ولكنّا جمال مختلف لكلّ منهما.

وسرّني أخيراً أن دخل «سوان» إلى هذه الغرفة التي كانت كبيرة جداً إلى حدّ أنّه لم يصرنني باديء الأمر؛ والسرور يداخله الحزن، حزن ربما لم يمان منه المدعوون الآخرون ولكنّا قوامه لديهم هذا النوع من الانجذاب الذي تخلفه الأشكال اللامتوقعة والفريدة لموت قريب، موت تخمله على وجهك، كما تقول العامة. وبذهول يقرب أن يكون مجافياً ويدخله فضول مفضوح وقساوة وعطفة على الذات هائلة مهتمة في أن معاً (هي خليط من «كم يلدّ للمرء، فوق البحر الفسيح» و«تذكّر، بما أنّك تراب» كما لعل «روير» كان قال)<sup>(١)</sup> تعلّقت جميع الألفاظ بذلك الوجه الذي تآكل المرض وجنتيه، على غرار قمر متناقص، إلى حدّ أن دائرتهما كانت،

(١) مزيج من الشعر اللاتيني لهوراس : «كم يلدّ للمرء، حينما تثير الرياح الأمواج فوق البحر الفسيح، أن يشاهد من اليابسة المخاطر الرهيبة التي تخيق بالغير». ومن صلاة الميت لدى الطوائف المسيحية : «تذكّر أيها الإنسان، لأنك تراب وإلى التراب تعود».

فيما عدا زاوية محدّدة، هي دونما شكّ تلك التي ينظر منها «سوان» إلى نفسه، تتوقّف فجأة كزينة مسرحيّة لا قوام لها يضيف إليها الخداع البصري وحده مظهر العمق. كان أنف «سوان» الكراكوزي، وقد ظلّ فترة طويلة مقلّصاً في إطار وجه لطيف، كان يبدو الآن ضخماً متورّماً قرمزيّاً، أقرب أن يكون لعبريّ عتيق منه لـ «فالوازي»<sup>(١)</sup> مستهجن، إمّا بسبب غياب هاتين الوجنتين، وليستا هنا من بعد لتقليصه، وإمّا لأنّ تصلّب الشرايين، وهو تسمّم بدوره، يحمرّه كما لعلّ إدمان الكحول يفعل أو يشوّهه كما لعلّ «المورفين» تفعل. ورّبما عاد العرق من جانب آخر في هذه الأيام الأخيرة لديه، ربّما عاد يبرز بصورة أوضح النموذج الجسدي الذي يميّزه والإحساس في الوقت نفسه بتضامن ماديّ مع اليهود الآخرين، تضامن بدأ أن «سوان» أغفله طوال حياته فأيقظه المرض القاتل ومسألة «دريفوس» والدعاوى المتناهضة للسامية وقد انضاف بعضها إلى بعض. فثمّة بعض اليهود ممّن يمكن لديهم، مع أنهم مرهفون إلى حدّ كبير وأرباب مجتمع رقيقون، يكمن احتياطاً وبعيداً عن الأنظار كيما يدخلوا في ساعة معيّنة من حياتهم، كما هو الأمر في مسرحيّة، إنسان فظّ ونبيّ. صحيح أنّه تبدّل تبدّلاً كبيراً بوجهه الذي اختفى منه بسبب المرض أقسام بكاملها، كما هي الحال في كتلة ثلج تذوب وقد تهاوت منها جوانب كاملة. ولكنّي ماكنت أقوى على الحؤول دون أن أدهش إلى أيّ حدّ تغير أكثر من ذلك بالنسبة إليّ. فهذا الرجل الممتاز المثقّف الذي ما أبعد ماكنت عن التضرّج بلقائه ماكنت أفلح في إدراك الكيفيّة التي استطعت بها أن أزرع فيه سرّاً عظيماً إلى حدّ أن ظهوره في «الشانزليزيه» كان يخفق به قلبي إلى حدّ أن أخجل من الاقتراب من معطفه المبطن بالحريز وأني على باب الشقة التي كان يعيش فيها مثل هذا الإنسان ماكنت أستطيع قرع الجرس دون أن يملكني اضطراب وذعر لاحدّ لهما؛ وقد زال كلّ ذلك لا من مسكنه فحسب، بل من شخصه، وإن فكرة التحدّث إليه كان يمكن أن تروقني أو لا تروقني ولكنها ما كانت تخلف أيّ أثر في جمعتي العصبية.

ثمّ كم هو تغيّر منذ عصر هذا اليوم نفسه الذي التقيته فيه - أي قبل بضع ساعات - في مكتب الدوق «دو غير مانت»! فهل وقعت بالحقيقة مشادة بينه وبين الأمير ببلته؟ لم يكن الافتراض ضرورياً، فإنّ أقلّ جهود تطلب من شخص مريض جدّاً سرعان ما تضحى بالنسبة إليه إرهاقاً مفرطاً. فإنّ تعرّض أقلّ ما يتعرّض، وهو متعب، لحرّ إحدى الأمسيات تفكّكت قسما وجهه وعلتها الزرقاء، كما يحلّ في أقلّ من يوم بإجاصة تناهى نضجها أو بحليب يوشك أن يحمض. ثمّ إنّ شعر «سوان»، وقد تناقص في بعض المواضع وأصبح بحاجة، كما تقول السيّد «دو غير مانت»، لقرّاء، كان يبدو كأنّما دهن بزيت الكافور وأسيب الدهان. كنت أزمع اجتياز صالة المدخّنين والتحدّث إلى «سوان» حينما حطّ لسوء الحظّ يد على كتفي: «مرحباً يا صغيري. أنا في باريس لثمان وأربعين ساعة. لقد مررت إلى بيتك وقيل لي إنك هنا، فأنت إذا من يولي عمّتي شرف حضوري إلى حفلتها». وكان «سان لو» قفّلت له كم أجد البيت جميلاً. - «أجل، يبدو عليه شكل البناء التاريخي إلى حدّ ما. أمّا أنا فأجد ذلك قاتلاً ولكن لا نقفّن قريباً من عمّي «بالاميد» ولا اختطفنا. وبما أن السيّد «دوموليه» (وهي التي بيدها الجبل في هذه الفترة) غادرت منذ قليل تراه في أشدّ الحيرة. ويظهر أن الأمر كان مسرحيّة حقيقية، فلم يفارقها قيد أنملة ولم يتركها إلا بعدما وضعها في العربة. لست حاقداً على عمّي ولكنّا

(١) الأسرة التي حكمت فرنسا في أوائل القرن الرابع عشر إلى أواخر الخامس عشر.

أستغرب أن يكون مجلسي العائلي الذي بدا دوماً بالغ القسوة عليّ مؤلفاً بالضبط من أقارب هم أكثر من عزف وقصف ابتداءً بأكثرهم إعراساً، عمّي «شار لوس»، وهو المشرف على الوصيّ عليّ، الذي كان له من النساء مثل ماكان لـ «دون جوان» والذي لا يحطّ برحاله وهو في مثل سنّه. وقد بحشوا ذات مرّة أن يجري تعيين مجلس قضائي لي. وأظنّ أن هؤلاء المشائين العتاق حينما كانوا يجتمعون للنظر في الأمر ويرسلون في طلبي ليعطوني ويقولوا لي إني كنت أغمّ والدتي فلا بدّ أنهم ما كانوا يستطيعون أن ينظر واحدهم إلى الآخر دون أن يضحكوا. فانظر في تشكيلة المجلس فإنما يبدو أنهم اختاروا عامدين أكثر من لاحقوا النساء. وباستثناء السيّد «دوشار لوس» الذي ماكان يبدو لي أنّ لاستغراب صديقي فيما يخصّه مبررات أكثر، ولكن لأسباب أخرى كانت عليّ أيّ حال ستتبدّل فيما بعد في خاطري، فقد كان «روبير» عليّ ضلال مبين حينما يرى من غير المألوف أن تعطى دروس في التعقل لشابّ عليّ لسان أقارب سلوكوا المجانين أو هم لا يزالون يسلكون.

فإن كانت السابقة الوراثيّة والتشابهات العائليّة هي المتهمّة وحدها فلا بدّ للعمّ الذي يُؤنّج من حمل العيوب نفسها التي يحملها ابن الأخ الذي كُلف تأنيبه. وليس يدي العم في ذلك أيّ رياء إذ تخدعه ملكة في الناس تخملهم على الاعتقاد لدى كلّ ظرف جديد بأنّ الأمر «غير الأمر»، ملكة تخولهم تبنّي أخطاء فنيّة وسياسيّة، الخ... دون أن يتبينوا أنّها بعينها تلك التي عدّوها لعشر سنين خلت حقائق بشأن مدرسة رسم أخرى كانوا يدينونها، ومسألة سياسيّة أخرى يظنونها تستحقّ كراهيتهم، فعادوا عن المواقف وتبنّوها دون أن يتعرّفوها خلف قناعها الجديد. وحتىّ إن جاءت أخطاء العم مختلفة عن أخطاء ابن الأخ فيمكن أن لا يقلّ ذلك من أنّ الوراثة هي إلى حدّ ما القانون المسبّب لها، لأنّ المعلول لا يشبه العلّة دوماً مثلما النسخة الأصل، وحتىّ إن جاءت أخطاء العم أكثر سوءاً فإن بمقدوره تماماً أن يظنّها أقلّ خطورة.

حينما كان السيّد «دوشار لوس» يوجّه تأنيباً يخالطه السخط الشديد لـ «روبير» الذي لم يكن يعرف عليّ أيّة حال ميول عمّه الحقيقيّة، فعلمه كان يمكن في تلك الفترة، حتىّ لو كانت تلك التي البارون يستقبح فيها ميوله الخاصّة، أن يكون صادقاً إذ يجد من وجهة نظر رجل المجتمعات أنّ «روبير» أقيح ذنباً منه بما لا يقاس. أفلم يوشك «روبير» يوم كُلف عمّه بأنّ يشبهه عن غيّه، أن يقصّي خارج عالمه؟ أمّا كان إلا القليل كيما يستبعد من نادي الخيول؟ ألم يكن موضع استهزاء من جرّاء الإنفاقات الجنونيّة التي يقدم عليها في سبيل امرأة من أدنى فئة، ومن جرّاء علاقات المودّة التي تربطه بأناس، من كتّاب ومثليين ويهود، ليس منهم واحد من المجتمع الراقي، ومن جرّاء آرائه التي لا تختلف عن آراء الخونة، والعذاب الذي يسببه لذويه جميعاً؟ فأبي وجه ممكن للشبه بين هذه السيرة الفاضحة وسيرة السيّد «دوشار لوس» الذي أفلح حتىّ الآن لا في الحفاظ على وضعه كواحد من آل «غير مانت» فحسب بل في تنمية ذاك الوضع، إذ هو في المجتمع شخص مميّز تماماً يسعى إليه ويدلّله المجتمع الأكثر اصطفاً وقد عرف بعد زواجه من أميرة من آل «بوربون»، وهي امرأة لامعة، كيف يسعدّها وقد حصّ ذكرها بتكريم أكثر حرارة ودقّة ممّا هو مألوف في دنيا المجتمع فكان بذلك زوجاً صالحاً كما كان ابناً صالحاً؟

وسألت قائلاً: «ولكن هل أنت متأكد من أن السيّد «دوشار لوس» قد اتخذ هذا العدد من العشيقات؟»

دون أن تداخلني بالتأكيد نية شيطانية أكشف بها لـ «روبير» السر الذي سبق أن فاجأته ولكننا يضايقني أن أسمعهم يؤكد خطأ بهذا القدر من اليقين والعجب. واكتفى بالارتفاع بمنكبيه جواً عما ظنّه سذاجة من جانبي. «ولكنني بأية حال لا ألومه وأرى أنه على حق تماماً» وشرع بخط لي نظرية لعله كان استهالها في «باليك» (وما كان يكتفي فيها بالتنديد بالمغوين إذ يبدو له الموت العقاب الوحيد الذي يتناسب والجريمة). ذلك لأنه كان لا يزال حينذاك عاشقاً غيران، وقد بلغ به أن يمتدح لي بيوت الدعارة. «هناك فقط تجدد ماتبحث عنه ومانسميه المقاس في الكتبية». فلم يعد به إزاء هذا النوع من الأماكن القرف الذي داخله في «باليك» حينما لمحت إليها، وقلت له وأنا أسمع الآن أن «بلوك» عرفني على بعض منها، ولكن «روبير» أجابني أن البيت الذي كان يتردد إليه «بلوك» «لا بد يأتس تماماً وجنة الفقير». «ولكن ربما على أي حال، فأين يقع؟» وليت في المهيم الغامض إذ ذكرت بالفعل أن «راشيل» تلك التي أحبها «روبير» حباً جماً كانت تهب ذاتها هناك في مقابل ليرة ذهبية. «سوف أعرفك في جميع الأحوال على ماهو خير منه تماماً وحيث تتردد نسوة مدهشات». وإذا سمعني أبدي رغبة في أن يقودني في أقرب فرصة ممكنة إلى البيوت التي كان يعرفها ولا بد أنها تفوق كثيراً البيت الذي سبق أن دلّني عليه «بلوك»، أبدي هو أسفاً صادقاً لما لا يستطيع ذلك هذه المرة إذ إنه يعود في الغد، وقال: «سيكون ذلك في عودتي القادمة»؛ وأضاف يقول بهيمة يلقها الغموض: «سوف ترى. هنالك حتى فتيات، آنسة صغيرة من .. أظن من «أورجفيل»، وأقول لك بالضبط، إنها ابنة أناس من خيرة القوم؛ ولعل الأم مولودة لآل «لاكروا ليفيك»؛ إنهم جماعة من الصفوة وعلى بعض قربي، إن لم تكذب الذاكرة، بعمتي «أوريان». تكفي في جميع الأحوال رؤية الصغيرة حتى تشعر أنها ابنة أناس ذوي مستوى (وأحسست مقدار لحظة بظلم عبقرية آل «غير مانت» يمتد فوق صوت «روبير»، يمتد كسحابة ولكن على ارتفاع عال دون أن يتوقف). ذلك يبدو لي تماماً مسألة رائعة. فالوالدان مريضان على الدوام ولا يستطيعان الاهتمام بها. يا الله! إن الصغيرة تدفع عن نفسها الملل وإنني أعتمد عليك لتوفير تسليات لهذه الطفلة! - «آه! ومتى تعود؟» - «لست أدري؛ وإن كنت لا تتمسك تماماً بالدوقات (إذ لقب الدوقة في نظر الارستقراطيين هو الوحيد الدال على مرتبة لها ألقها الخاص، كما يقال في جمهور الأميرات)، فلديك في طراز آخر الوصيفة الأولى للسيدة «بوتوس».

وفي تلك اللحظة دخلت السيدة «دوسورجيس» إلى صالة اللعب تبحث عن ولديها. ولما رآها السيد «دوشارلوس» أقبل عليها بلطف فوجئت به المركيزة مفاجأة تزايد إبهاجها بمقدار الفطور الكبير الذي كانت تتوقعه من البارون الذي وقف دوماً وقفة المحامي عن «أوريان» وظلّ وحده في العائلة (وهي في الكثير الغالب تراعي تطلّبات الدوق بسبب ميراثه ويداعي الغيرة من الدوقة) يستبعد عشيقات أخيه. ولعلّ السيدة «دوسورجيس» كانت أدركت لذلك تمام الادراك دواعي الموقف الذي تخشاه من جانب البارون، ولكننا لم يخطر ببالها إطلاقاً دواعي الاستقبال المناقض كلياً الذي خصّها به وحذّثها بإعجاب عن الرسم الذي أنجزه لها «جاكيه» فيما مضى. واحتاج هذا الإعجاب فبلغ حدود الحماسة التي إن كانت نفعية في جزء منها كي تحول دون ابتعاد المركيزة عنه، كي «تستدرجها» على حد ما يقول «روبير» عن جيوش عدوة نريد إيجار قواتها على البقاء مشتبكة في نقطة معينة، فربما كانت صادقة أيضاً. فإنه إن حلا للجميع أن يعجبوا في الابنين بما

أورثتهما السيِّدة «دوسورجيس» من هبة لها ملكية وعينين، فقد كان بوسع البارون أن يحس بمتعة معكوسة ولكنّها بمثل حدّتها في العثور على هذه المقاتن وقد تجمّعت حزمة واحدة لدى والديهما وكأنّما في رسم لا يبعث في حدّ ذاته بأية رغبات ولكنّه يغدّي تلك التي يوقظها بالاعجاب الجماليّ الذي يثيره. وكانت هذه الرغبات تزوّد رسم «جاكيه» ذاته على نحو استذكارٍ بسحر شهواني ولعلّ البارون كان ابتاعه راضياً في تلك اللحظة كي يدرس فيه النّسب الفيزيولوجيّ للشايين «سورجيس».

وقال لي «روبير» : « ترى أنّي ما كنت مبالغاً. فانظر قليلاً إلى تهالك عمي على السيِّدة «دوسورجيس». وإنما يثير ذلك عجبني حتّى ههنا، فلو علمت «أوريان» بذلك لاستشاطت غيظاً. هنالك، صراحة، مايكفي من النساء كي لا يبلغ بك بالضبط أن ترتمي على هذه، يضيف قوله. كان يتصوّر، شأن جميع من ليسوا عاشقين أن المرء يختار الشخص الذي يحبّ إثر ألف من المشاورات وطبقاً لمزايا وتوافقات مختلفة. وفيما كان «روبير» من جانب آخر يخطي بخصوص عمّه الذي يظنّه منصرفاً إلى النساء، كان في حقه يتحدث عن السيِّدة «دوشار لوس» بطيش مفرط. فلست ابن أخ أحدهم ولا ينالك دوماً شيء من ذلك، فإنّه يغلب كثيراً أن تنتقل إحدى العادات الوراثية عاجلاً أو آجلاً عن طريقه. ورُبّما استطعنا على هذا النحو إقامة مجموعة من الرسوم الشخصية تحمل عنوان الملهاة الألمانية «العم وابن أخيه» نرى فيها العم يحرص حرصاً شديداً، وإن يكن دون مقصد، أن يشبهه ابن أخيه في نهاية المطاف. بل أضيف أن هذه المجموعة ربّما كانت غير كاملة إن لم ندرج فيها الأعمام الذين ليسوا على قرى حقيقيّة وإن هم إلا أعمام زوجة ابن الأخ. والسادة من أمثال «دوشار لوس» متيقنون أنّهم الأزواج الوحيدون الصالحون بالإضافة إلى أنّهم الوحيدون الذين لا يثيرون غيرة النساء إلى حدّ أنّهم بعامة يحملون ابنة أخيهما حبّاً بها على الزواج من أمثال «شارلوس»، الأمر الذي يعقد خريطة التشابهات. ويقترن حبّ ابنة الأخ أحياناً بشيء من الحبّ لخطيبها. أمثال تلك الزيجات ليست نادرة وهي في الغالب ما يدعونه بالزيجات السعيدة.

«عمّ كنّا نتحدّث؟ أجل، عن هذه الشقراء الطويلة وصيفة السيِّدة «بوتبوس». إنّها تعشق النساء أيضاً ولكنّي أظنّ الأمر عندك سواء؛ يمكنني أن أقول لك بصراحة إنني لم أبصر يوماً امرأة بمثل جمالها». - «أنخيلها إلى حدّ ما من شخصيات «جورجونه»! «جورجونه» إلى أبعد الحدود! أه لو توافر لي وقت أقضيه في باريس، فكم من أمر رائع يمكن إثباته! ثمّ تنتقل إلى أخرى غيرها. أمّا ما كان من أمر الحبّ، ترى، فإنّه مزحة طيبة، وقد عدلت عن رأيي فيه». ولاحظت بعد قليل أنّه لم يكن أقلّ عودة عن رأيه في الأدب في حين بدا لي في آخر لقاء لنا أنّه مخيّب الرّجاء بالأدباء فحسب («إنّهم جميعاً من بني وغد وشركاهم»، كما سبق أن قال لي)، وهو ما كان يمكن تفسيره بحقه المبرّر على بعض أصدقاء «راجيل». فقد كانوا أقنعوه أنّها لن يتوافر لها موهبة في يوم إن هي سمحت لـ «روبير»، «وهو رجل من طينة أخرى»، أن يسقط نفوذه عليها، وكانوا وليّاهم يسخرون منه في حضرته وفي أثناء حفلات العشاء التي يقيمها لهم. والواقع أن حبّ «روبير» للأدب لم يكن على شيء من العمق ولا يصدر عن طبيعته الحقّة وهو مستمدّ حصراً من حبّ لـ «راجيل» وقد أمحى مع هذا الحبّ، في الوقت نفسه الذي أمحى فيه كرهه لجماعة المتع واحترامه الخاشع لفضيلة النساء.



قال السيد «دوشار لوس» وهو يدلّ السيدة «دوسورجيس» على ولديها وكأنّه يجهل تماماً من يكونان: «كم يبدو مظهر هذين الشابين غريباً انظري إلى هذا الولع الغريب باللعب أيتها المركيزة. لابدّ أنهما شريان فلديهما بعض القسمات المميّزة، وربّما كانا تركيين»، يضيف قوله ليؤكد براءته المتكلمة ويظهر شيئاً من النفور الغامض والذي سيقم البرهان حينما يخلي مكانه للوداد على أن هذا الأخير إنّما يوجّه فحسب لمن يتمتّع ببنة السيدة «دوسورجيس» إذ لم يبدأ إلا بعدما علم البارون من يكونان. وربّما كان يفيد السيد «دوشار لوس»، والواقحة لديه هبة من الطبيعة تلذّه ممارستها، ربّما كان يفيد من الدققة التي يفترض في أنثائها أنّه يجهل من يكون ذاك الشابان كيما يتلهى على حساب السيدة «دوسورجيس» وينصرف إلى صنوف تهكمه المعتادة مثلما يستغلّ «سكابان»<sup>(١)</sup> تنكّر سيده لينهال عليه بعصاه.

وقالت السيدة «دوسورجيس»: «إنّهما ولداي»، وقد كست وجهها حمرة ماكانت لتغشاه لو أنّها كانت أكثر رهافة دون أن تكون أوفر فضيلة، فلعلّها كانت أدركت إذ ذاك أن مظهر اللامبالاة المطلقة أو الاستهزاء الذي يديه السيد «دوشار لوس» إزاء أحد الشباب لم يكن يرتدي صدقاً أكثر ممّا يجبر الإعجاب السطحيّ تماماً الذي يديه لإحدى النساء عن مكنون طبيعته. فلعلّ التي كان يمكن أن يسمعها دون انقطاع الأقوال الأكثر امتداحاً، لعلّها استطاعت أن تكون غيرى من النظرة التي يرمي بها، فيما يحدثها، رجلاً يتظاهر فيما بعد بأنّه لم يلاحظه. ذلك لأن تلك النظرة كانت غير تلك التي يخصّ بها السيد «دوشار لوس» النساء، كانت نظرة خاصّة تصاعدت من الأعماق ولا تستطيع حتّى في أثناء أمسية أن تمتنع عن التوجّه ببساطة إلى الفتیان مثلما نظرات الخياط تفضح مهنته جرّاء الطريقة التي تعلق بها فوراً بالثياب.

وأجاب السيد «دوشار لوس» بلهجة لاتخلو من الوقاحة: «آه! ما أغرب ذلك»، وهو يبدو وكأنّه يحمل فكره على قطع مشوار طويل ليردّه إلى حقيقة تختلف اختلافاً تاماً عن تلك التي كان يتظاهر بافتراضها. وأضاف قوله: «ولكنّي لا أعرفهما»، وهو يخشى أن يكون مضى بعيداً بعض الشيء في التعبير عن النفور وشلّ لدى المركيزة نيتّها في تعريفهما به. وسألت السيدة «دوسورجيس» بلهجة خجولة: «أتراك تسمح لي بأن أقدمهما لك؟» ورثّل السيد «دوشار لوس» باللهجة المترددة الفاترة التي لشخص تتزعزع منه مجاملة: «ولكن، يا إلهي! أنا، حسبما أراك تعتقدين، موافق تماماً، وربما لم أكن شخصاً مسلياً جداً بالنسبة إلى فتيتين بمثل شبابهما». وقالت السيدة «دوسورجيس»: «آرنولف» فيكتورنيان، هيّا بسرعة. ونهض «فيكتورنيان» بتصميم، وتبعه «آرنولف» طامعاً دون أن ينظر إلى أبعد من شقيقه.

وقال لي «روبير»: «جاء دور الأبناء الآن. شيء يقطع الأنفاس من الضحك. إنّه يجهد حتّى في إرضاء كلب المنزل. والأمر يزداد غرابة بقدر مايكره عمّي «المزوينين». ثمّ انظر كيف يصغي إليهما بجديّة. ولو شئت أنا أن أقدمهما له كم لعلّه أبدى من خشونة في طردي .. أسمع، ينبغي أن أمضي لتحيّة «أوريان». فإن مالدي من وقت أقضيه في باريس قليل حتّى لتراني مصمماً على محاولة أن ألقي هنا سائر الناس الذين كنت مضيت لولا ذاك فوضعت لهم بطاقات في منازلهم. كان السيد «دوشار لوس» في أثناء ذلك يقول «كم يبدو أن على حسن تهذيب، وما أجملي تصرفانها» فتجيب السيدة «دوسورجيس» مبتهجة: «أهذا ماترى؟».

(١) هو الخادم في مسرحيات «مولير» الهولندية.

وإذ شاهدني «سوان» أقترب من «سان لو» ومنّي. كان المرح اليهودي لدى «سوان» أقلّ رهاقة من مزحات رجل المجتمع الراقي. وقال لنا: «مساء الخير. يا إلهي! ثلاثتنا جميعاً، سوف يظنون أن نمة اجتماعاً للنقابة. وإن هو إلا القليل حتّى يبعثوا أين يوجد الصندوق!» ولم يكن قد لاحظ أن السيّد «دوسيرفوي» كان خلقه وكان يسمعه. وقطب الجنرال حاجبيه دونما قصد. كنّا نسمع صوت السيّد «دوشارلوس» قريباً جداً منا: «عجباً! تدعى باسم «فيكتورنيان» كما هو الأمر في (مكتب القدماء)»<sup>(١)</sup>، يقول البارون كي يطبل الحديث مع الشابين. وأجاب بكر عائلة «سورجيس»: «بلزاك، أجل»، وما كان قرأ قط سطرّاً واحداً لهذا الروائي ولكنّ أستاذه كان أشار قبل بضعة أيام إلى التماثل بين اسمه واسم «ديسغرينيون». كانت السيّد «دوسورجيس» مفتونة إذ ترى ابنها يتألق والسيّد «دوشارلوس» مأخوذاً إزاء هذا القدر من العلم.

قال «سوان لـ «سان لو»، ولكن بصوت أخفض هذه المرّة كي لا يسمعه الجنرال، «سوان» الذي أضحت علاقات زوجته الجمهوريّة أهمّ في نظره منذ أن أصبحت قضية «دريفس» في مركز اهتماماته: «يبدو أن «لوبيه» إلى جانبنا كلياً، والأمر من مصدر موثوق تماماً. وإنّما أقول لك ذلك لأنّي أعلم أنك ماضي معنا إلى أبعد حدّ».

وأجاب «روبير» قائلاً: «ولكن ليس إلى هذا الحدّ، إنك مخطئ كلياً. تلك مسألة بدأت بداية سيّئة وأسف أنّي حشرت نفسي فيها ولم تكن لي أية مصلحة فيها. ولو وقع عليّ أن أعيد الكرة لوقفت منها على الحياء. إنني جندي وولائي للجيش أولاً. إن بقيت فترة مع السيّد «سوان» فسأعود إليك في الحال، إنني ذاهب بالقرب من عمّتي». ولكنّي رأيت أنّه إنّما مضى للتحدّث مع الآنسة «دامبرساك» ودخلني الغمّ إذ خطر لي أنّه كذب عليّ حول خطوبتهما المحتملة. وهذا روعي حينما علمت أنّ السيّد «دومارصانت» أقدمت قبل نصف ساعة على تقديمها لها، وكانت راغبة في هذا الزواج إذ إن أسرة «امبرساك» غنيّة جداً.

وقال السيّد «دوشارلوس» للسيّد «دوسورجيس»: «وأخيراً أجد شاباً مثقفاً قارئاً يعرف أيّ شيء هو «بلزاك»، وأضاف يقول وهو يلحّ على هذه الكلمات: «وإنّما يزيد من سروري أن ألقاه حيث أصبح الأمر من أشدها ندرة، في منزل أحد أندادي، في منزل واحد مثلاً. وعيشاً يتظاهر آل «غير مانت» باعتبار كلّ الناس سواسية، فما كانوا في المناسبات الكبرى التي يلتقون فيها بأناس «كريمي المحتد»، بل على وجه الخصوص «أقلّ كرم محتد»، يشتهونهم ويمكن أن يدغدغوا عطفهم، ما كانوا يتردّدون في استحضار الذكريات العائلية العتيقة. وأردف البارون يقول: «كانت كلمة أرستقراطيين تعني فيما مضى الأفضلين عقلاً وقلباً. وها إنني أرى أوّل واحد مثلاً يعرف من هو «فيكتورنيان ديسغرينيون». ولكنّي مخطئ إذ أقول الأوّل، نمة واحد أيضاً من آل «بولينياك» وواحد من آل «مونتسكيو»، يضيف السيّد «دوشارلوس» وهو يعلم أن هذه المماثلة المزدوجة لا يمكن إلا أن تنتشي بها المركيزة. «لدى ولدك على أيّ حال من يأخذان عنه، فجدهما لأمهما كان يملك مجموعة مشهورة من القرن الثامن عشر». وقال لـ «فيكتورنيان» الشاب: «سوف أريك مجموعتي إن تفضّلت وأوليّتي مسرة في الجيء للغداء ذات يوم. وسأريك طبعة غريبة من «مكتب القدماء» تحمل تصحيحات بيد «بلزاك»، وسوف يروقني أن أقارن بين شخصيتي «فيكتورنيان».

(١) رواية لـ «بلزاك» من مجموعته «مشاهد من الحياة في الريف».

ما كنت أستطيع حمل النفس على فراق «سوان». فقد كان بلغ هذا الحد من التعب الذي ليس جسم المريض فيه سوى معوجة يجري فيها متابعة تفاعلات كيميائية. وكان يبرز على وجهه نقاط صغيرة من زرقاة داكنة تبدو وكأنها لاصلة لها بعالم الأحياء وتصدر هذا النوع من الرائحة الذي يجعل المكوث في صف «علمي» في المدرسة الثانوية غير مستحب إلى حد بعيد في أعقاب «التجارب». وسألته إن لم يكن تحدثت طويلاً إلى الأمير «دو غير مانت» وإن كان لا يود أن يقول لي أي حديث كان. فقال: «أجل، ولكن امض أولاً بعض الوقت مع السيد «دوشار لوس» والسيدة «دوسورجيس» وسأنتظرك هنا».

لم يكن السيد «دوشار لوس» بالفعل، بعدما اقترح على السيدة «دوسورجيس» مغادرة هذه الغرفة لفرط الحر فيها والذهاب ليجلس فترة وإياها في غرفة أخرى، لم يكن قد سأل الولدين الجيء مع أمهما بل سألتني أنا. كان يتخذ بهذه الطريقة مظهر من لا يتمسك بالشائين بعدما رمى بالطعم إليهما. ثم إنه كان يخصني بمجاملة سهلة، إذ السيدة «دوسورجيس» لو دوك» سيئة السمعة إلى حد ما.

وما كدتا لسوء الحظ تجلس في شرفة لا فسحة لها حتى مرت بنا السيدة «دوسانتوفيرت»، وكانت هدفاً لصنوف هزة البارون. أمّا هي، وربما شاءت أن تخفي أو أن تردري صراحة ماتولد من مشاعر قبيحة في صدر السيد «دوشار لوس» وأن تبدي على وجه الخصوص أنها على صلة حميمة بسيدة تتحدث بهذه الألفة إليه فقد ألقت بتحية ودية لونه الأزدرء إلى ذات الجمال المشهورة التي ردت وهي تختلس النظر إلى السيد «دوشار لوس» بائسامة ساخرة. ولكن الشرفة كانت ضيقة إلى حد أن السيدة «دوسانتوفيرت». حينما شاءت من خلفنا الاستمرار في البحث عن مدعويها في الغد، ألقت نفسها في الفخ ولم تفلح في التخلص بسهولة، وكانت لحظة ثمينة حرص السيد «دوشار لوس» أتم الحرص، وهو راغب في إظهار ألق قريحته الوقحة أمام والده الشابين، على الإفادة منها. ووفر له سؤال أبله طرحته عليه دون خبث فرصة إنشاد مقطع ظافر لم يسمع «سانتوفيرت» المسكينة، وقد جمدت خلفنا تقريباً، أن تضيق منها كلمة واحدة فقال وهو يدل السيدة «دوسورجيس» علي: «هل تصدقين أن هذا الشاب الوقح قد سألني منذ قليل، دون أدنى اهتمام بوجوب إخفاء مثل هذه الحاجات، إن كنت أذهب إلى منزل السيدة «دوسانتوفيرت»، يعني، في ظني، إن كنت أعاني من المفص. ولعلني أحاول في جميع الأحوال أن أفرج عن نفسي في مكان تتجمع فيه أسباب الراحة أكثر مما هي الحال في منزل امرأة كانت تحتفل بعيد ميلادها المثوي، إن لم تخني الذاكرة، يوم بدأت أرتاد عالم المجتمعات، أي في غير منزلها. ومع ذلك من ذا يكون أكثر إمتاعاً منها إمّا سمعتها؟ فكم من ذكريات تاريخية شاهدتها وعاشتها في زمن الامبراطورية الأولى وفترة إعادة الملكية، وكم من قصص حميمة كذلك ما كانت بالتأكيد تتسم بشيء من «القداسة» وكان لابد أن تكون شديدة المحون إن صدقنا الساق التي ظلت خفيفة لدى «النطاطة» المحترمة! وما قد يمتعني عن مساءلتها حول هذه الأوقات المشوقة إمّا حساسية جهاز الشم عندي. يكفي القرب من السيدة، وأقول في نفسي فجأة: «ياإلهي! لقد أخذوا ثغرة في الجورة الفنية عندي» فإذا هي المركيزة فقط فتحت فاهها منذ قليل بهدف دعوة ما. وتذكرين أنني لو فجمعت بالذهاب إلى منزلها لتكاثررت جورتي الفنية فانقلبت برميلاً هائلاً من الأقدار. مع أنها تحمل اسماً روحانياً يذكرني دوماً، وفي النفس ابتهاج، مع أنها تجاوزت منذ زمن طويل زمن ابتهاجها بيويلها، يذكرني بيت الشعر الغبي هذا الذي يدعونه «مائعاً»:

«آه! للنفس الخضراء ! كم كانت نفسي خضراء في ذلك اليوم..» ولكنما يلزمني خضرة أكثر نظافة. يقولون لي إن المشاة التي لا تكلّ تقيم حفلات راقصة في الهواء الطلق، أما أنا فأدعو ذلك «دعوات للنزهة في الخارير». «هل ستمضين للتمرغ هناك؟» يقول للسيدة «دوسورجيس» التي أحست هذه المرة بالضيق. ذلك أنها إذ تبغي التظاهر بالامتناع عن الذهاب إزاء البارون، وتعلم أنها تفضل أن تدفع أياماً من عمرها على أن تفوت حفلة العشيّة لدى «سانتوفيرت»، فقد تخلّصت بحلّ وسط، أي بالاتّأكيد. وقد اتخذ اللاتّأكيد لديها شكل بلاهة الهراوي ودناءة الخيّاطة إلى درجة لم يعد السيّد «دوشار لوس» يخشى معها إهانة السيدة «دوسورجيس» مع أنه راغب في أن يروقها فشرع يضحك ليبيدي لها أن «الضربة لم تكن صابئة».

وقالت : «إني معجبة على الدوام بالذين يصمّمون على أمر؛ فغالباً ما أعدل عن مقصدي في اللحظة الأخيرة، ثمّة مسألة فسطان صيفيّ يمكن أن تغيّر الأمور، وسوف أتصرّف بوحى اللحظة».

لقد ثارت ثائرتي، فيما يخصني، للخطاب الصغير المنكر الذي ألقاه منذ قليل السيّد «دوشار لوس». فعلمني وددت أن أغمر بالخيرات منظمّة الحفلات الراقصة في الهواء الطلق. ولكنّ الضحايا في دنيا المجتمعات، ودنيا السياسة على حدّ سواء، جناء لسوء الحظّ إلى حدّ لا يسعك معه أن تحقد فترة طويلة على الجلاّدين. ذلك أن السيّد «دوسانتوفيرت» بعدما أفلحت في التخلص من الشرقة التي كنّا نسدّ مدخلها لمست البارون لدى مرورها لمساً خفيفاً ودونما قصد فصاحت، كأنما تركع أمام سيدها، برّدة فعل سنويّة قضت على أيّ غضب في النفس، بل ربّما بأمل تمهيد من نوع لا بدّ أنها لم تكن أوّل محاولة فيه: «عفوك! سيّد «دوشار لوس»، أمل أنني لم ألحق بك أذى». ولم يتواضع فيجيب بغير ضحكة عريضة ساخرة وتفضّل فحسب بكلمة «مساء الخير» التي، إذ بدا وكأنّه لم يتنبّه لوجود المركبة إلا لحظة كانت البادئة بالسلام عليه، كانت إهانة إضافية. ثم إن السيّد «دوسانتوفيرت» اقتربت منّي وإذا تنحت بي جانباً قالت لي بإسفاف بالغ تأملت منه لأجلها: «ولكن، ما تراني فعلت للسيّد «دوشار لوس»؟ وأردفت وهي تضحك بملء فيها: «يزعمون أنه لا يراني على أناقة كافية». ولبثت جديّاً؛ فقد كنت أرى من الغباء أن يبدو أنها تعتقد أو تدفع إلى الاعتقاد بأنّ ليس أحد بالتّأكيد بمثل أنافتها؛ هذا من جهة، ومن جهة أخرى فإنّ الناس الذين يضحكون بمثل هذه الشدّة ممّا يقولون إنّما يعفوننا، إذ يأخذون جوّ المرح لحسابهم، من المشاركة فيه.

«ويؤكد آخرون أنه مستاء من أنني لا أدعوه. ولكنه لا يشجّعني كثيراً. لكنّاه يجافيني (وبدت لي العبارة ضعيفة). حاول أن تعرف وتعال في الغد لتقول لي ذلك. فإنّ بكته ضميره وشاء مرافقتك فأنت به، فلكلّ ذنب مغفرة. بل ربّما أهبجني ذلك إلى حدّ بسبب السيّد «دوسورجيس» التي سيسوؤها الأمر. أدعُ لك حرّية التصرف فإنّ حسنك بهذه الأمور كلّها هو الأكثر رهافة وليس مرادي أن أبذو كمن يستجدي مدعوين. ومهما يكن من أمر، فإني أعتمد عليك أنت كلّ الاعتماد».

وفكرت أن «سوان» لا بدّ كان يتعب في انتظاري، وماكنت بأيّ حال أبني العودة متأخراً جداً لسبب «ألبرتتين» فاستأذنت السيّد «دوسورجيس» والسيّد «دوشار لوس» بالانصراف ومضيت للقاء مريضني في قاعة

اللعب. وسألته إن كان ماقاله للأمير في حديثهما في الحديقة هو بالضبط مانقله لنا السيد «دو بريوتيه» (الذي لم أذكر له اسمه) وله علاقة بفصل قصير من مسرحية لـ «بيرغوت»، فانفجر ضاحكاً: «ليس ثمة كلمة صحيحة، ليس ثمة كلمة واحدة، ذلك مختلق تماماً ولعله كان غيباً غباء مطلقاً. ذلك بالحقيقة أمر لا يصدق هذا التوالد التلقائي للخطأ. لا أسألك من قال لك ذلك، ولكن ربما كان بالحقيقة طريفاً في إطار محدّد كهذا أن نرتقي من الأقرب فالأقرب لنعرف كيف تشكل ذلك وكيف يمكن على أية حال أن يثير ما قاله لي الأمير اهتمام الناس؟ الناس فضوليّون جداً، أمّا أنا فما كنت فضولياً في يوم إلا عندما صرت عاشقاً وعندما صرت غيوراً. وفي مقابل ماعرفته من ذلك! هل أنت غيور؟» وقلت لـ «سوان» إنني لم أعان من الغيرة في يوم وانني لا أعرف حتّى ماعساها تكون. «حسن! إنني أهتلك على ذلك. وإن يكن المرء على قليل منها فما ذلك بمزعج تماماً من ناحيتين. فمن جهة لأنّ ذلك يمكن الناس غير الفضوليين من الاهتمام بحياة الآخرين أو بحياة آخر على الأقلّ. ثم لأنّ ذلك يجعلك تشعر إلى حدّ ما بحلاوة الامتلاك والصعود إلى عربة بصحبة امرأة وأن لا تدعها تمضي وحيدة. وإنما يكون ذلك في فترات الداء الأولى أو حينما يكون الشفاء ناجزاً تقريباً. وفي الفترة الفاصلة تكون من أفظع أنواع العذاب. ولا بدّ أن أقول لك على أية حال إنني كنت على اطلاع قليل حتّى على صنفيّ الحلاوة اللذين أحدثك عنهما: الأول من جرّاء طبيعتي التي تعجز عن التأملات المتطاولة، والثاني من جرّاء الظروف، بسبب المرأة، بل النساء اللواتي أثرن غيرتي. ولكن، لا عليك، فحتّى حينما لاثهت من بعد بالأشياء فليس غير ذي بال أن تكون اهتممت، إذ كان ذلك دوماً لأسباب تخفى على الآخرين. إن ذكرى تلك المشاعر إنّما نحسّ أنّها حصرأ في داخلنا ولا بدّ أن نعود إلى داخلنا لنشاهدها. لا تسخر كثيراً من هذه اللغة المثاليّة، ولكنّ ما أبغي قوله أنّني أحببت الحياة حباً جمّاً وأحببت الفنون حباً جمّاً. أمّا الآن وقد أصبحت تعباً بما يجاوز قليلاً قدرتي على العيش مع الآخرين فإنّ ما أحسست به من عواطف خاصّة بي إنّما تبدو لي، كما هو هوس سائر هواة المجموعات، ثمينة جداً. إنني أفتح قلبي لذاتي وكأنيما تلك إحدى الواجّهات، وأنظر إلى مواضع العشق الكثيرة واحداً فواحداً، تلك التي لم يعرفها الآخرون. وأقول لنفسي عن تلك المجموعة التي أتمسك بها الآن أكثر من الأخريات، أقول إلى حدّ ما مثل «مازارين» عن كتيبه، ولكن دون أيّ ضيق، إن فراق كل ذلك سوف يكون مزعجاً جداً. ولكنّ هبّا ننقل الآن إلى حديثي مع الأمير، فلن أروي عنه إلا لشخص واحد، وستكون أنت ذلك الشخص». كان يربكني في سماعه الحديث الذي كان السيد «دوشار لوس» يطيل فيه إلى مالا حدود على قرب شديد منّا، بعد ما عاد إلى قاعة اللعب. وسأل الكونت «آرنولف» الذي ما كان يعرف حتّى اسم «بلزاك»: «وأنت أيضاً تقرأ؟ وما الذي تفعله؟» كان قصر نظر «آرنولف»، إذ يرى كلّ شيء صغيراً جداً، يظهره بمظهر من يبصر من البعيد البعيد إلى حدّ أن نجوياً غامضة كانت ترسم في حدقة عينيه، وهي لمسة شاعريّة نادرة في إله يوناني بجمال التماثيل المنحوتة.

وقلت لـ «سوان»: «هلاً قمنا ببضع خطوات في الحديقة ياسيدي»، فيما كان الكونت «آرنولف»، بصوت مزأريّ كأنما يشير إلى أن نموّه العقليّ على الأقلّ لم يكن كاملاً، يجيب السيد «دوشار لوس» بدقّة فيها لطف وسذاجة: «أمّا أنا فاتجاهي بالأحرى «العولف» وكرة المضرب والقدم والجري وعلى وجه الخصوص «البولو» كذلك «مينيرفا» كانت، بعدما تجرّأت، قد كفّت في مدينة معيّنة عن كونها إلهة الحكمة وجسّدت

جزءاً من ذاتها في إلهة رياضية محضة، رياضة الخيل، في «أثينا الفروسية». وهو يقصد «سان مورتر» كذلك للتلزج لأن «بالاس ابنة تريتون»<sup>(١)</sup> ترتاد القمم العالية وتلحق بالفرسان. وأجاب السيد «دوشار لوس»: «آه!» بائسامة المثقف المتعالية، المثقف الذي لا يجهد حتى في كتم سخريته ويطنّ على أي حال أنه يفوق الآخرين كثيراً وهو يحتقر ذكاء من كانوا الأقلّ غباءً إلى حدّ يكاد لا يميزهم فيه عمّن كانوا الأكثر غباءً ماداموا يستطيعون أن يحسنوا في عينيه بطريقة أخرى. كان السيد «دوشار لوس» يرى أنه يمنح «آرنولف» بمجرد التحدّث إليه سموّاً ينبغي أن يحسده الجميع عليه ويقرّوا به. وأجابني «سوان» قائلاً: «لا، إنني متعب جداً ولا أستطيع المسير، فلنجلس بالأحرى في زاوية فما عدت أستطيع الوقوف». كان ذلك صحيحاً مع أن الشروع في التحدّث ردّ إليه بعض الحيوية. ذلك لأنّ نعمة في التعب الأكثر حقيقة، ولا سيما لدى العصبيين، جزءاً يرتبط بالانتباه ولا يحتفظ به إلا في الذاكرة. فإنك تنهك فجأة ما إن تخشى ذلك ويكفي أن تنسى تعبك لاسترداد قواك. والأكيد أن «سوان» لم يكن تماماً من هؤلاء المنهكين ممّن لا يعرفون الكلل والذين يصلون مفكّكي القسمات ذاوين لا يقوون من بعد على الوقوف فيستعيدون قواهم في الحديث مثلما الزهرة في الماء وبوسهم أن يستمدّوا على مدى ساعات قوة من أقوالهم ذاتها، والقوة لا ينقلونها لسوء الحظّ إلى من يصغون إليهم ويدون أكثر فأكثر خائري القوى كلما أحسّ المتحدثّ ازدياد يقظته. ولكن «سوان» كان ينتمي إلى هذا العرق اليهودي القويّ الشكّية الذي يبدو أن أفراداً أنفسهم يشاركون في طاقته الحيوية ومقاومة الموت. فإنهم يتلجلجون إلى ما لا نهاية، وكلّ منهم يعاني من أمراض خاصة، مثلما يعاني هو من الاضطهاد، في احتضارات رهبة يمكن أن تتناول فتجاوز كلّ حدّ معقول حينما لا ترى من بعد سوى لحية نبيّ يعلوها أنف هائل يتوسّع ليستنشق النسمات الأخيرة قبل ساعة الصلوات الطقسية وقبل أن يبدء موكب الأقارب الأبعد الدقيق في موعده يتقدّم بحركات آلية كأنما فوق إفريز آشوري.

ومضينا للجلوس ولكن «سوان» لم يملك، قبل أن يتعد عن المجموعة التي كان يؤلفها السيد «دوشار لوس» مع الشابين «سورجيس» و«الدتهما»، إلا أن يستمر على صدرية السيدة نظرات خبيرة طويلة واسعة شهوانية، ووضع نظارته كي يصير بصورة أفضل وكان يلقي بين الحين والحين، فيما يحدثني، نظرة بانجاء تلك السيدة. ثم قال لي بعدما جلسنا: «إليك حديثي مع الأمير كلمة فكلمة، وإن تذكّرت ماقلته لك منذ قليل فسترى لماذا اختارك مساراً لي. ثمّ لسبب آخر سوف تعرفه ذات يوم. «قال لي الأمير» «دو غير مانت»: اعذرني ياعزيزي «سوان» إن بدا أنني أبتجّبك منذ بعض الوقت. (ولم أكن لاحظت ذلك البتّة إذ أنا مريض وأتجنّب الجميع بنفسي). لقد سمعت بادئ الأمر من يقول، وكنت أتوقع تماماً، إنك تحمل في هذه القضية التي تقسم البلد آراءً تناقض آرائي تناقضاً تاماً. ولعله كان شقّ عليّ كثيراً أن تجهر بها في حضرتي. لقد كان توتري العصبيّ كبيراً إلى حدّ أن الأميرة حينما سمعت لستين خلثا سلفها كبير دوق «هيسه» يقول إن «دريفوس» كان بريئاً لم تكتف بأن تلحظ مقالته بعصبية ولكنها لم تردّها أمامي كي لا تغنيظني. وفي الفترة نفسها تقريباً جاء صاحب السمو الملكي أمير السويد إلى باريس، وإذ يحتمل أنه سمع من يقول إن الامبراطورة «أوجينيا» كانت

(١) أحد ألقاب الإلهة «أثينا»، ولكن نعمة أسطورة تقول إنها رفيعة ملاعب أثينا وهي ابنة «تريتون» مرافق إله البحر «بوزيدون»، ويمثلونه بعبارة رجلاً ينتهي بذيل وينفخ في بوق صدف.

من أنصار «دريفوس» فقد خلط بينها وبين الأميرة (والخلط مستغرب، كما ستقرّ بذلك، بين امرأة من مرتبة زوجتي واسبانية أقلّ كرم محتدّ ممّا يقولون وقد زوّجت بونايرتياً بسيطاً) وقال لها: «أيتها الأميرة، سعادتي بلقائك مزدوجة لأنني أعلم أنك تحمّلين ذات أفكارٍ حول قضية «دريفوس»، الأمر الذي لا أستغربه بما أن سموك بافارية». وقد جرّ ذلك على الأمير الجواب التالي: «لست من بعد، ياسيدي، سوى أميرة فرنسية وإنني أعتقد مايعتقد مواطني». والحقيقة ياعزيزي «سوان» أن حديثاً جرى بيني وبين الجنرال «دو بوسيرفوي» منذ عام ونصف على وجه التقريب جعلني أشكّ بأنّ مخالفات قانونية خطيرة ارتكبت في سير الدعوى وليس خطأ واحداً فحسب».

وقطع علينا حديثنا (إذ كان «سوان» حريصاً على أن لا تسمع قصّته) صوت السيّد «دوشار لوس» الذي كان يمرّ (دون أن يأبه لنا على أيّ حال) برفقة السيّدة «دوسورجيس» لوداعها فتوقّف محاولاً الاحتفاظ بها إمّا بسبب ولديها أو بسبب الرغبة التي تداخل آل «غير مانت» في أن لا تنتهي الدقيقة الراهنة، تلك الرغبة التي كانت تزجّهم في نوع من العطالة المقلقة. وبعد ذلك بقليل أطلعتني «سوان» بهذا الصدد على أمر نزع في نظري عن اسم «دوسورجيس» لودوك» كلّ الشاعرية التي كنت ألفتيتها فيه. فقد كانت المركيزة «دوسورجيس» لودوك» تشغل مكانة اجتماعية وتملك مصاهرات رفيعة أكثر من ابن عمّها الكونت «دوسورجيس» الذي كان فقيراً فيعيش في أرضه. ولكنّ كلمة «لودوك» التي ينتهي بها اللقب ماكان لها البتّة الأصول التي زعمتها لها وجعلتني أقرب في تصوّري بينها وبين «بورسلابيه» و«بوا- لوروا»، الخ. كان أحد «كونتات» (١). «دوسورجيس»، بكل بساطة، قد تزوّج في فترة عودة الملكية ابنة صناعي طائل الثراء اسمه السيّد «لودوك»، وهو نفسه ابن مصنّع موادّ كيماوية وكان الأوفر ثراء في عصره ومن أعيان فرنسه أيضاً. وقد أنشأ الملك «شارل» العاشر من أجل الصبيّ المولود من هذا القران «مركيزية» «سورجيس لودوك»، إذ إنّ «مركيزية» «سورجيس» كانت موجودة في الأسرة. ولم تخل إضافة الاسم البورجوازيّ دون تصاهر هذا الفرع من جرّاء ثروته الطائلة وأسر المقدّمة في المملكة. ولعلّه كان بإمكان مركيزة «دوسورجيس» لودوك» الحالية، وهي من سلالة عظيمة، أن تحوز مركزاً من الطراز الأول. ولكن شيطان الشرّ دفعها، في ازديادها لهذا المركز الجاهز، إلى هجر بيت الزوجية والعيش عيشة فاضحة كأكثر ماتكون. ثم إن المجتمع الذي ازدرته في العشرين وهو على قدميها تخلى عنها بقسوة في الثلاثين «حين لم يعد يسلم أحد عليها منذ عشر سنوات باستثناء ندرة من الصديقات المخلصات، فاعتزمت أن تعود فتسرح قطعة قطعة ماكانت تملك بمولدها (وليس هذه الجيئة والرواح بنادرة الوقوع).

أما بالنسبة للسادة الكبار من أهلها، وقد أنكرتهم بالأمس فأنكروها بدورهم، فقد كانت تعتذر عن المسرة التي ستصيبها من إعادتهم إليها بذكريات طفولية يمكن أن تستذكرها وإياهم. وإذ تقول ماتقول لإخفاء سنوبيتها فربّما كانت تكذب أقلّ ممّا تظنّ. «إن «بازان» يمثلّ كامل صباي»، تقول يوم عاد إليها. وبالفعل كان في ماتقول شيء من الصحة، ولكنها أخطأت في حسابها حينما اختارت عشيقاً لها، لأنّ سائر صديقات الدوقة «دو غير مانت» سوف يقفن إلى جانبها وهكذا سوف تنزل السيّدة «دوسورجيس» للمرّة الثانية على ذاك السفح الذي صادفت مشقّة عظيمة في تسلّقه. كان السيّد «دوشار لوس» يقول لها في تلك الأثناء وهو

(١) جمع «كونت» من ألقاب النبلاء في فرنسا.

حريص على إطالة الحديث: «حسن! اجعلي احتراماتي على أقدام الرسم الجميل، فكيف حاله؟ وماذا حلّ به؟» فأجابت السيّدة «دوسورجيس»: «ولكنك تعلم أنّه لم يعد لديّ، فإن زوجي لم يسّر به» - «لم يسّر به! يا حدى روائع عصرنا» وهي مساوية للدوقة «دو شاتورو دو ناتيه»، وما كانت تبغي بأي حال تثبيت إلهة أقلّ جلالاً وأقلّ فتكاً! آه ياللياقة الصغيرة الزرقاء! أردت أن أقول إن «فيرمير» لم يرسم في يوم قماشاً وهو أكثر ملكة لفنّه، ولا نقولنّ ذلك بصوت مرتفع كي لا يهاجمنا «سوان» بقصد الثأر لرسمه المفضل سيّد «دلفت» واستدارت المركيزة وهي توجّه ابتسامة وتمدّ يدها لـ «سوان» الذي كان نهض قليلاً لتحيتها. وما أن شاهد «سوان» صدر المركيزة عن قرب ومن عليّ وهو يشدّ على يدها حتى أرسل، درنما كتمان ربّما نزع التقدّم في السنّ من صدره الرغبة الأدبية في إبدائه من جرّاء اللامبالاة بالرأي العام، أو القدرة الجسميّة عليه من جرّاء جنون الرغبة وضعف الدوافع التي تعين على إخفائه حتى أرسل نظرة فاحصة جاذبة مستغرقة يقرب أن تكون قلقة في خبايا صدريّتها وخفقت فتحات أنفه، وقد انتشت بعطر المرأة، شأن فراشة ترمع أن تحطّ على الزهرة التي لمحتها. وانتفض فجأة من الدوار الذي أصابه، وكتمت السيّدة «دوسورجيس»، وإن على ضيق، نفساً عميقاً لشدة ما تكون الرغبة معدية أحياناً. وقالت للسيّد «دوشار لوس»: «لقد استاء الرسّام واستعاده. وقيل إنّّه الآن في منزل «ديانا دوسا نتوفيرت». فردّ البارون قائلاً: «لن أصدّق قطّ أن يكون لرائعة ذوق رديء إلى هذا الحدّ». وقال لي «سوان» وهو يتكلّف لهجة متباطئة سوقية ويلاحق بنظرانه الثنائيّ وهما يتعدان: «إنّه يحدثها عن رسمها، وربّما حدّثتها عن هذا الرسم بمثل جودة حديث «دوشار لوس»، ثم أضاف قوله: «ولعلّي أصيب بالتأكيد متعة أكثر من «شار لوس». وسألته إن كان مايقال عن السيّد «دوشار لوس» صحيحاً وكنت أكذب في ذلك كذبة مزدوجة، فإني إن كنت لا أعلم أنّهم قالوا أيّ شيء في يوم فقد كنت أعلم في المقابل تمام العلم منذ قليل أن ما أبغى قوله كان صحيحاً. وارتفع «سوان» بمنكبيه كما لو تفوّهت بأمر مستحيل. «أعني أنّه صديق رائع، ولكن هل بي حاجة إلى أن أقول إن الأمر أفلاطوني تماماً. كلّ ما في الأمر أنّه عاطفي أكثر من غيره. ولما كان من جانب آخر لا يذهب قطّ بعيداً جداً مع النساء فقد أكسب ذلك الشائعات اللامعقولة التي تنوي التحدّث عنها نوعاً من المصداقية. ربّما أحبّ «شارلوس» أصدقاءه حبّاً جمّاً، ولكن ليكن مؤكّداً لديك أن الأمر ماجرى في يوم في غير ما رأسه وقلبه. وأخيراً ربّما نعمنا بثنائيتين من الهدوء. لقد تابع الأمير «دو غير مانت» إذا يقول: «سأقرّ لك بأن فكرة وجود لا قانونية ممكنة في سير الدعوى كانت شاقّة جداً عليّ بسبب التقديس الذي تعلم أنني أحمله للجيش. لقد عدت فكلّمت الجنرال عن ذلك، ولم يعد لديّ، من أسف، أيّ شكّ بهذا الشأن. سأقول لك بصراحة إنّّه لم تخامرني في كلّ ذلك فكرة إمكان فرض العقوبة الشائنة كأكثر مانتكون بحقّ بريء. ولكنّما عذّبني فكرة اللاقانونيّة تلك فشرعت أدرس ماسبق أن رفضت قراءته فإذا بالشكوك جاءت هذه المرّة تقصّ مضجعي لأحول اللاقانونيّة فحسب، بل حول البراءة. ولم يخطر لي أنّه ينبغي لي أن أفاخ الأميرة بذلك، والله يعلم أنّها أضحت فرنسيّة بقدر ماكنت، وعلى الرغم من ذلك فقد أبدت لها منذ اليوم الذي تزوّجتها فيه صنوفاً من التأنق كثيرة في إراءتها فرنسه في كامل جمالها، وأروع ماتملك في نظري، عنيت جيشها، حتّى يبدو لي من القسوة بمكان أن أطلعها على شكوكي التي لم تكن تطلّ بالحقيقة سوى بعض الضباط. ولكنّي من أسرة عسكريّة وما كان في نيّتي أن أصدّق أن يستطيع ضباط الوقوع في



الخطأ. فعدت وكلمت «بوسيرفوي» مرة أخرى في الأمر فأقر بأن ثمة دسائس إجرامية دُبرت وأن الجدول ربما لم يكن من عمل «دريفوس» ولكن البرهان الساطع على الجرم كان موجوداً. وكان البرهان وثيقة «هنري». وقد علم بعد بضعة أيام أنها مزورة. ومنذ ذلك الحين، شرعت أقرأ كل يوم في الخفية عن الأميرة صحيفتي «القرن» و«الفجر». وسرعان ما لم يعد لدي أي شك ولم أستطع النوم من بعد. وفاتحت صديقنا الأب «هواريه» بالأمي النفسية فلقيت عنده، وعجبت للأمر، القناعة نفسها وسألته إقامة قداديس على نية «دريفوس» وزوجته البائسة وأطفاله. وفي هذه الأثناء، رأيت، ذات صباح كنت أمضي فيه للقاء الأميرة، وصيفتها تخفي شيئاً كان في يدها. وسألته ضاحكاً ما عسى أن يكون، فكست الحمرة وجهها ولم تشأ أن تقول لي عن ذلك. كنت أثق أعظم الثقة بزواجتي ولكن هذه الحادثة بعثت في اضطراباً شديداً (وكذلك فعلت بالأميرة التي لا بد أن وصيفتها روت لها عنها) فقد كادت عزيزتي «ماري» لاتكلمني في أثناء الغداء الذي أعقب ذلك. وسألت الكاهن «هواريه» في ذلك اليوم إن كان يوسع إقامة قُداسي في الغد على نية «دريفوس». وصرخ «سوان» بصوت خافت وهو يقطع حديثه: «هيا بنا، حسن!» ورفعت رأسي فأبصرت الدوق «دو غير مانت» يقبل إلينا. «عذراً عن الإزعاج يا أولادي». وقال موجّهاً الحديث إليّ «ياصنيري، لقد انتدبنتي إليك «أوريان». فإن «ماري» و«جيلبير» سألاها البقاء إلى مائدتهم للعشاء بمصاحبة خمسة أو ستة أشخاص فقط: الأميرة «دو هيس» والسيدة «دولينبي» والسيدة «دو تارانت» والسيدة «دو شفرور» والدوقة «دارنبرغ». ولسنا نستطيع البقاء لسوء الحظ لأننا ذاهبان إلى نوع من الحفلة الراقصة.» كنت أصغي، ولكننا في كل مرة يقع علينا أن نفعل أمراً في وقت محدّد نكلف في داخلنا شخصاً ما تعود هذا النوع من العمل مراقبة الساعة وإخطارنا في الوقت المناسب. وذكّرتي هذا الخادم الجوّاني، مثلما سبق أن رجّوته منذ ساعات، أن «أليبرتين»، وهي في هذا اللحظة بعيدة جدّاً عن خاطري، سوف تنجيء إلى منزلي حال انتهاء المسرح. ولذلك رفضت العشاء. وليس يعني ذلك أنني لم أكن أجد متعة في منزل الأميرة «دو غير مانت» وهكذا يمكن أن يصيب الرجال عدّة أنواع من المتع، والمتعة الحقيقية هي تلك التي يهجرون الأخرى في سبيلها. ولكن هذه المتعة إن كانت ظاهرة، أو كانت حتى وحدها ظاهرة، يمكن أن تخذعك حول تلك وتطمئن الحساد أو تضللهم وتغرّر ببصائر الناس. على أنه قد يكون قليل من السعادة أو العذاب كافياً كي نضحّي بهذه في سبيل تلك. وثمة أحياناً طراز ثالث من المتع أكثر رزانة وأكثر جوهريّة ليس بعد موجوداً بالنسبة إلينا نحن الذين لا يمثّل احتمال وقوعها بالنسبة إلينا إلا بإثارة صنوف الندم وتشبيط العزائم. ومع ذلك ترانا ننصرف فيما بعد إلى هذه المتع بالذات. فإن عسكرياً في زمن السلم، كيما نقدم مثلاً ثانوياً تماماً، سوف يضحّي بحياة المجتمعات الراقية في سبيل الحب، فإن اندلعت الحرب فبالحب في سبيل هوى القتال، وهو أقوى من الحب، (حتى دونما حاجة لإدخال فكرة الواجب الوطني). وعبثاً كان «سوان» يقول إنه سعيد برواية قصته لي فقد كنت أحس أن حديثه إليّ، بسبب الساعة المتأخّرة ولأنّ آلامه مبرحة، كان من نمط صنوف العناء تلك التي تخلف لدى الذين يعلمون أنهم يقتلون أنفسهم بالسهر وصنوف الإفراط، تخلف عند عودتهم ندماً ساخطاً شبيهاً بذلك الذي يثيره في صدور المبتدئين ما أقدموا عليه من إنفاق جنوني والذي لن يحول دون أن يلقوا في الغد ما لهم من النوافذ. فكل متعة يصيبها المرء على حساب نومه وخارج نطاق عاداته، وكل إفراط إنّما ينقلب إزعاجاً ابتداءً من درجة معيّنة من الوهن،

أكان من جرّاء السنّ أو المرض. وإن المتحدّث ليوالي حديثه بداعي التأدّب والاحتياج، ولكنّه يعلم أن الساعة التي كان بعد قادراً فيها على الإغفاء قد انقضت، كما يعلم ماسيوّجّه لنفسه من لوم في غضون الأرق والتعب التالينين. من جانب آخر، حتّى المتعة المؤقّته انتهت مذ ذاك والجسم والفكر أفرغاً من قواهما حتّى لا يستطيعان أن يصيبا متعة في ما يبدو تسليّة لمحدّثك. لكأنّهما شقّة في يوم سفر أو إخلاء بدو فيه الزيارات التي نستقبل زائرنا فيها جلوساً على الحقائق والعيون مسمرة على الساعة الجداريّة محض أعمال سخرة. وقال لي: «وحدنا أخيراً، ولست أعلم أين أنا من حديثي. أليس أتّي قلت لك إنّ الأمير كان سأل الكاهن «هواريه» إن كان يمكنه إقامة قدّاسه على نيّة «دريفوس»؟ ردّد عليّ الكاهن قائلاً: «لا»، (وأقول «عليّ»، يضيف «سوان»، لأن الأمير هو الذي يكلمني، تدرك ذلك؟) «فإنّ لديّ قدّاساً آخر كلّفت إقامته في هذا الصباح على نيّته». فقلت له: «كيف ذلك؟ أهنالك كاثوليكيّ آخر غيري مقتنع ببراءته؟» - «لابدّ أن الأمر كذلك.» - «ولكنّ قناعة هذا النصير الآخر لابدّ هي أقلّ قدماً من قناعتي.» - «بيد أن هذا النصير كان يسألني إقامة قداديس يوم كنت لانزال نظنّ «دريفوس» مذنباً.» - «آه! أرى تماماً أنّه ليس واحداً من وسطنا» - «بل العكس» - «وهل بيننا حقّاً مناصرون لـ «دريفوس»؟ إنّك تثير فضولي. وددت لو أتكاشف وإيّاها، لو عرفته، هذا الطائر النادر» - «وإنّك تعرفه» - «فما اسمه؟» - «الأميرة «دو غير مانت». وفيما كنت أخشى أن أجرح آراء زوجتي العزيزة القوميّة ومعتقداتها الفرنسيّ خشيت هي زعزعة آرائي الدينيّة ومشاعري الوطنيّة. ولكنّها من جانبها كانت تفكّر تفكيرٍ ذاتها، مع أنّها فعلت قبلي بكثير. وما كانت خادمتها تخفيه وهي تدخل إلى غرفتها وما كانت تمضي لشرائه كلّ يوم إنّما كان صحيفة «الفجر». منذ تلك اللحظة ياعزيزي «سوان» فكّرت بما أوليك من سرور حينما أنقل إليك إلى أيّ حدّ كانت أفكارني حول هذه النقطة قريبة من أفكارك، واغفر لي إن لم أفعل ذلك من قبل. وإن عدت إلى الصمت الذي التزمته في مواجهة الأميرة فلن يدهشك أن التفكير بطريقة مطابقة لفكرك ربّما أبعدني عنك أكثر من التفكير بطريقة مغايرة. فقد كانت تشقّ عليّ مباشرة ذاك الموضوع أيّما مشقّة. وكلّما اعتقدت أن خطأ، بل جرائم ارتكبت كلّما نزفت دماً في حبّي للجيش. ولعليّ كنت ظننت أنّه ماكان لآراء شبيهة بآرائني أن تبعث في نفسك الألم ذاته، حينما نقلّ إليّ ذاك اليوم أنّك تتدّد تنديداً شديداً بالشتم الموجهة للجيش وبأنّ يقبل مناصرو «دريفوس» بالتحالف مع شتّاميه. لقد دفعني ذلك إلى اتخاذ قرارٍ، وأعترف بأنّه شقّ عليّ أن أقرّ لك بما أراه حول بعض الضبّاط وهم قلة لحسن الحظّ، وإنّه لمفترج بالنسبة إليّ أن لا يقع عليّ من بعد المكوث بعيداً عنك وأنّ تحسّ على وجه الخصوص أنّه إن أمكن أن أحمل مشاعر أخرى فلاأني ماشككت قطّ بصحّة الحكم الصادر وما إن داخلني شكّ حتّى ماعدت أبغني سوى أمر واحد: إصلاح الخطأ». وإنّي أقرّ بأنّ أقوال الأمير «دو غير مانت» أثّرت فيّ تأثيراً عميقاً. ولو كنت تعرفه مثلي أنا وعلمت من أين وقع عليه أن يعود ليصل إلى حيث وُضِل لامتلاّت إعجاباً به وإنّه لأهل بذلك. ثم إنّ رأيه لا يدهشني فهو على استقامة عظيمة! وقد نسي «سوان» أنّه سبق أن قال لي بعد الظهر أن الآراء حول قضية «دريفوس» هذه تحكّمها الوراثة، وهو استثنى على الأكثر الذكاء لأنّه أفلح لدى «سانلو» في التغلب على الوراثة وجعل منه مناصراً لـ «دريفوس». ولكنه تبين منذ قليل أن ذاك الانتصار كان قصير المدّة وأن «سان لو» قد عبر إلى الفريق الآخر. كان الآن إذناً يخصّ استقامة القلب بالدور الذي كان يخصّ به الذكاء منذ قليل.

وإننا في الواقع نكتشف دوماً بعد الأوان أن كان لخصومنا داع لأن ينخرطوا في الحزب الذي هم فيه وأنه لا علاقة له. بما يمكن أن يكون صحيحاً في هذا الحزب، وأن الذين يفكرون طبقاً لما نفعل فإنما الذكاء، إن كانت طبيعتهم الخلقية، أكثر سغولاً من أن يتلذع بها، أو الاستقامة إن كان نفاذ بصيرتهم ضعيفاً، ما دفعهم إلى ذلك دفعا.

كان «سوان» يرى الآن الذين يوافقونه الرأي على ذكاء دونما تمييز بينهم من صديقه القديم الأمير «دو» غير مانت إلى رفيقي «بلوك» الذي كان استبعده حتى ذلك وقد دعاه إلى الغداء. وقد أثار «سوان» اهتمام «بلوك» إذ قال له إن الأمير «دو» غير مانت من أنصار «دريغوس». «ينبغي أن نطلب إليه التوقيع على لوائحنا من أجل «بيكار»، فإن اسماً مثل اسمه ربما كان عظيم الأثر». أما «سوان» الذي كان يجمع إلى يقين اليهودي المتقد الاعتدال الديبلوماسي الذي يميز رجل المجتمعات، وكان قد اكتسب من عاداته مايحول دون إمكان التراجع عنها في هذا الوقت المتأخر، فقد رفض السماح لـ «بلوك» بأن يبعث إلى الأمير بمنشور لغرض توقيعه، حتى إن بدا الأمر تلقائياً. وكان «سوان» يردّد قوله: «لا يمكنه أن يفعل ذلك وينبغي أن لا نطلب المستحيل. ذلكم رجل رائع قطع آلاف الفراسخ للمجيء إلينا، ويمكن أن يكون عظيم الفائدة لنا. فإن وقع لائحك جازف بسمعته فحسب لدى جماعته وقد يعاقب بسببنا وربما ندم على ما أسر به إلينا ولم يفعل ذلك من بعد». أضف أن «سوان» رفض اسمه ذاته، فقد كان يراه مفرطاً في عبرانيته حتى لا يخلف أثراً سيئاً. ولكن كان يقرّ كل مايمت بصلة إلى إعادة الدعوى، فإنه كان لا يريد البتة أن يزجّ به في الحملة المناهضة للنزعة العسكرية. وكان يعلّق الوسام الذي كسبه في عام السبعين كغيره من المجندين الشباب، ولم يكن حتى ذلك فعل من قبل، وقد أضاف إلى وصيته ملحقاً يطلب فيه، خلافاً لتربيته السابقة، أن يصار إلى تقديم المراسم العسكرية لرتبة الفارس التي يحملها في جوقه الشرف. وقد جمع ذلك حول كنيسة «كومبريه» كوكبة كاملة من هؤلاء الفرسان الذين كانت «فرانسواز» فيما مضى تبكي مستقبلهم حينما كان يلوح لها احتمال الحرب. وقصارى القول إن «سوان» رفض توقيع منشور «بلوك» إلى حدّ أنه إن بدا للكثيرين نصيراً مهووساً لـ «دريغوس» فقد ألفاه صاحبي فائراً مصاباً بعدوى القومية ووطنياً متزمتاً.

فارقني «سوان» دون أن يشدّ على يدي كي لا يضطرّ أن يقوم بعمليات الوداع في هذه القاعة التي تعجّ بأصدقاء له ولكنه قال لي: «يجدر بك أن تأتي لزيارة صديقتك «جيلبيرت». لقد كبرت حقاً وتغيّرت وقد لا تتعرّفها. لعلها تسعد أعظم السعادة بذلك!» ماعدت أحبّ «جيلبيرت». لقد كانت في نظري أشبه بمتوقّاة بكيها طويلاً، ثم حلّ النسيان، ولو بعثت حياة لما استطاعت من بعد الانخراط في حياة لم تعد معدّة لأجلها. لم تعد بي رغبة في لقائهما ولا حتى تلك الرغبة في أن أظهر لها أنني لا أحرص على لقائهما، وهو ماكنت أمني النفس، حينما كنت أحبّها، باظهاره لها يوم لن أحبّها من بعد.

وإذ لم أعد أبحث إلا عن أن أبدي إزاء «جيلبيرت» أنني رغبت من كلّ فؤادي في لقائهما ثانية ومنعني عن ذلك ظروف يقولون «هي خارجة عن إرادتي» وهي لا تقع بالفعل، على الأقلّ بنوع من الترابط، إلا حينما لاتعارضها الإرادة، فإني، عوضاً عن أن أواجه دعوة «سوان» بتحفظ، لم أفارقه حتى وعدني بأن يوضح لابنته بالتفصيل الظروف الطارئة التي حرمتني وسوف توالي حرمانني من الذهاب للقائهما. وأضفت قولي: «على أية

حال سوف أكتب إليها على الفور لدى عودتي. ولكن قل لها إنه كتاب تهديد لأنني سوف أكون حراً طليقاً بعد شهرين ولترتجف آنذاك لأنني سوف أكون في منزلكم حتى بمقدار ما كنت أفعل بالأمس.

وقبل فراق «سوان» قلت له كلمة حول صحته، فأجابني قائلاً: «لا، الأمور ليست سيئة إلى هذا الحد، وكما كنت أقول لك على أي حال فإنني متعب بعض الشيء وأقبل سلفاً بكامل التسليم مايمكن أن يحدث. على أنني أقر فقط أن موتى قبل نهاية قضية «دريغوس» سوف يزعجني كثيراً، فلدى هؤلاء الرعايا جميعاً أكثر من سهم في جعبتهم لست أشك أنهم مغلوبون في النهاية، ولكنهم أقوياء جداً ويملكون أعواناً في كل مكان. وحينما تكون الأمور على أفضل حال يتداعى كل شيء. وددت لو أعيش كفاتيتي لأرى «دريغوس» وقد رُدَّ إليه اعتباره و«بيكار» برتبة لواء.

عدت، بعد مذهب «سوان»، إلى الصالة الكبرى حيث الأميرة «دو غير مانت» التي ماكنت أعلم آنذاك أنني سأكون ذات يوم وثيق الصلة بها. أما الغرام الذي أحسَّت به تجاه السيد «دوشار لوس» فلم يتكشف بادئ الأمر لناظري. لقد لاحظت فحسب أن البارون أخذ، بدءاً من فترة معينة ودون أن يأخذه ضد الأميرة «دو غير مانت» أي من مظاهر العداء التي ماكانت تستغرب لديه وفيما استمرَّ يدي لها المقدار نفسه من الود، بل ربما أكثر أيضاً، أخذ يدي استياءً وانزعاجاً في كل مرة يحدثونه عنها. وما عاد البتة يذكر اسمها ضمن لائحة الأشخاص الذين يرغب في تناول العشاء معهم.

صحيح أنه سبق لي قبل ذلك أن سمعت رجلاً سيئاً جداً من دنيا المجتمعات يقول إن الأميرة تغيرت تماماً وإنها مغرمة بالسيد «دوشار لوس» ولكننا بدت تلك النسيمة ضرباً من المحال وأثارت ثائرتي. وقد كنت لاحظت باستغراب، حينما كنت أروي عن شيء يخصني، أن انتباه الأميرة، إن ورد في مجرى الحديث اسم السيد «دوشار لوس» كان يبلغ في الحال هذه الدرجة القوية التي لمريض يسمعوننا نتحدث عن أنفسنا ويفعل بالتالي بطريقة ساهية كسولة ثم يتعرف فجأة اسماً هو اسم المرض الذي يعاني منه فيشير الأمر ويهجه. كذلك كانت الأميرة، إن قلت لها: «كان السيد «دوشار لوس» يروي لي بالضبط..»، تستعيد زمام انتباهها المرخي. وفي مرة قلت أمامها إن السيد «دوشار لوس» كانت تحركه في هذه الفترة عاطفة قوية إزاء إحدى النساء أدهشني أن رأيت في عيني الأميرة انغراس هذا الخط المختلف والمؤقت الذي يرسم في الحدقتين كأنهما أخدود شق والذي ينجم عن فكرة حركتها أقوالنا دون علم منها في الكائن الذي نتحدث إليه، فكرة خفية لن تتجسد في كلمات بل تصعد من الأعماق التي حركناها على صفحة النظرة التي تغيرت مقدار لحظة. ولئن أثرت كلماتي في نفس الأميرة فإنني لم أرتب بالطريقة التي تمَّ بها ذلك.

ولقد شرعت على أي حال تخطئي بعد انقضاء وقت قليل عن السيد «دوشار لوس» ودون مواربة تقريباً. ولئن كانت تلمح إلى الشائعات التي يطلقها قلة من الناس من حول البارون فكأنما تشير فحسب إلى اختلاقات قدرة غير معقولة. ولكنها كانت تقول من جانب آخر: «في اعتقادي أنه يجدر بامرأة تقع في غرام رجل يملك الشأن العظيم الذي له «بالاميد» أن تتمتع بما يكفي من سمو النظرة ومايكفي من التفاني كي تقبل به وتفهمه جملة واحدة وكما هو، كيما تحترم حريته ونزواته، كيما تسعى فحسب لتذليل مصاعبه

ومواساته في أحزانه». وإنما كانت الأميرة «دو غير مانت» تكشف بهذه الأقوال، مع أنها شديدة الغموض، عما كانت تحاول أن ترفع من شأنه على نحو ما كان يفعل أحياناً السيد «دوشار لوس» نفسه. أتراني لم أسمع مراراً وتكراراً يقول لأناس كانوا حتى ذلك غير متيقنين إن كان يُفترى عليه أم لا: «أنا الذي خبر الكثير من الحلو والكثير من المرّ في حياته ومن عرف كلّ صنف من البشر، اللصوص والملوك على حدّ سواء، بل يجدر بي أن أقول بتفضيل طفيف اللصوص، ومن لاحق الجمال بكل أشكاله، الخ».. وكان بتلك الأقوال التي يظنها بارعة، وإذ يكذب شائعات ما كان أحد يرتاب بسرّياتها (أو ليفرد للحقيقة، عن ميل واحتياطاً ومن منطق العقلية، حصّة يحكم وحده أنها ضئيلة)، كان ينزع آخر شكوك بعض الناس حوله ويوحى بأولها لمن لم يكن لديهم شكوك بعد. فإن أخطر جرائم الإخفاء جميعها جريمة إخفاء الذنب نفسه في فكر المذنب. وإن المعرفة الدائمة التي يملكها عنه إنما تحول دون أن يفترض إلى أي حدّ هو مجهول بعامة وكم لعلّ الكذبة الكاملة يسهل تصديقها، وأن يتبين في المقابل بدءاً من أي درجة حقيقة تطبع الأقوال التي يظنها بريئة يبدأ الإقرار في نظر الآخرين. ولعله كان في جميع الأحوال أخطأ خطأ جسيماً في محاولة كتمانته لأنه ليس من عيوب إلا وتلقى في عالم الأغنياء أسناداً وتغاضياً ولقد شهد الناس قلباً شاملاً لتنظيم أحد القصور بغية أن تنام شقيقة بالقرب من شقيقتها حالما علموا أنها لا تحبّها محض حبّ الشقيقة» على أنّ ما كشف لي فجأة حبّ الأميرة كان واقعة خاصة لن ألجّ عليها هنا لأنها تؤلف جزءاً من القصة المختلفة تماماً التي فضّل فيها السيد «دوشار لوس» أن يسمح بموت ملكة على أن يخطئ حلاقه الذي كان سيجمّد شعره باللكوة الصغيرة من أجل مراقب سيارات نقل عام ألقى نفسه فزعاً أشدّ الفرع أمامه. ولكن هيّا نقلُ كيما تنتهي من حبّ الأميرة، أي شيء زهيد فتح عينيّ. كنت في ذلك اليوم وحيداً معها في عربتها. وقد أمرت بالتوقّف لحظة كنا نمرّ أمام مركز بريد؛ ولم تكن اصطحبت خادماً خاصّاً؛ فأخرجت رسالة إلى النصف من فراء يديها وباشرت حركة النزول لتودعها في علبة البريد. وأردت إيقافها فتلجلجت قليلاً وأخذنا تتبين كلانا مذكاً أن حركتنا الأولى كانت فيما يخصّها مثيرة للشبهة إذ تبدو وكأنّها تصون سرّاً، وفيما يخصّني متفلة إذ كنت أقاوم تلك المحافظة. وكانت هي من عادت فتماسكت وكانت الأسرع بيننا. وكست وجهها فجأة حمرة شديدة فأعطتني الرسالة ولم أجرؤ من بعد على رفض أخذها، إلا أنّي رأيت، دونما قصد وأنا أضعها في علبة البريد، أنها موجهة إلى السيد «دوشار لوس».

والآن عودة إلى الوراء وإلى تلك الأمسية الأولى في منزل الأميرة «دو غير مانت»، فقد مضيت لأودعها لأن ابن عمّها وابنة عمّها كانا يعودان بي وهما على عجلة كبيرة من أمرهما. ولكنّ السيد «دو غير مانت» كان يودّ أن يستودع أخاه. ولما اتسع الوقت للسيدة «دو سورجيس»، وهي على عتبة أحد الأبواب، لتقول للدوق إن السيد «دوشار لوس» كان لطيفاً معها ومع ولديها فإن هذا اللطف العظيم من جانب شقيقه، وهو الأوّل الذي أبداه بهذا الشأن، كان عميق الأثر في نفس «بازان» وأيقظ لديه عواطف عائلية ماكانت البتّة طويلة الغفوة. وقد حرص فيما كنّا نودّع الأميرة، دون أن يفضي جهاراً بشكره للسيد «دوشار لوس»، أن يفصح له عن رقيق مشاعره، إمّا لأنّه صادف عنثاً في كتبها وإمّا ليتذكّر البارون أن نوع الفعلة التي بادر إليها هذا المساء «لا تمرّ مرور الكرام» في نظر شقيق له، مثلما تعطي قطعة سكر لأحد الكلاب لغرض أن تبعث

للمستقبل بتداعيات ذكريات ملائمة. وقال الدوق وهو يستوقف السيد «دوشار لوس» ويأخذ برفق بذراعه: «عجبا، أيها الشقيق العزيز! هكذا يمرّ الناس بالشقيق الأكبر دون تحية بسيطة. ماعدت أراك يا «ميميه» ولا تعلم كم أفقد ذلك. لقد لقيت في بحثي عن رسائل قديمة، لقيت بالضبط رسائل من الوالدة المسكينة وكلها رقيقة جداً فيما يخصك». وأجاب السيد «دوشار لوس» بصوت متهدج، فما كان يستطيع البتة التحدّث عن والدتهما دون تأثر «شكراً لك يا «بازان». وأردف الدوق قائلاً: «يجدر بك أن تحزم أمرك وتسمح بإقامة جناح لك في «غير مانت». وقالت الأميرة لـ «أوريان»: «لطيف أن تشهد الشقيقين بمثل ما يبديان من رقة، أحدهما للآخر» - «آه! أجل، لست أظن أن ثمة إمكاناً في وجود كثير من الأشقاء هذه حالهم». ووعدتني بقولها: «سوف أدعوك معه؛ أأنت وإياه على مايرام؟» وأضافت تقول بلهجة يداخلها القلق إذ هي لاتسمع بالتمام أقوالهما: «ولكن ما الذي يمكن أن يقوله أحدهما للآخر؟» فقد داخلها على الدوام غيرة من المتعة التي يصيبتها السيد «دو غير مانت» من التحدّث إلى أخيه عن ماض يمسك بزوجه بعيداً عنه. كانت تحس أن وصولها لايسرهما حينما كانا سعيدين أن يكون الواحد قرب الآخر وتقبل هي للانضمام إليهما إذ لم تعد قادرة على لجم فضولها المتحفّز. بيد أن غيرة أخرى جاءت تنضاف في هذا المساء إلى غيرها المعتادة. فكن كانت السيدة «دوسورجيس» قد روت للسيد «دو غير مانت» عن أفضال شقيقه عليها كيما يشكره على ذلك فإن صديقات مخلصات للزوجين «غير مانت» ظنن من واجبهن إخطار الدوقة بأن عشيقه زوجها شوهدت وحيدة مع شقيقه. ودخل السيدة «دو غير مانت» من جراء ذلك اضطراب شديد. وعاد الدوق يقول موجهها حديثه للسيد «دوشار لوس»: «تذكر كم كنّا سعيدين بالأمس في «غير مانت». فلو عدت أحياناً إليها في الصيف لاستعدنا حياتنا الطيبة. هل تتذكر العمّ العجوز «كورفو»: لماذا يلبّل «باسكال» الفكر؟ لأنّه مبلّ.. مبلّ.. - بل، يقول السيد «دوشار لوس» وكأنّه بعد يجب أستاذة. «ولماذا هو مبلّل؟ لأنّه مبلّ.. مبلّ.. - «بل» جيد جداً، إنك من الناجحين وستنال بالتأكيد درجة وتعطيك السيدة الدوقة معجماً صينيّاً». - «فإنك تذكر يا «بازان» في ذلك الوقت يا «بازان» افتتنت باللغة الصينية». «إن كنت أذكر، بلى ياعزيزي «ميميه»! والإناء الصيني العتيق الذي جاءك به «هيرفيه» من «سان دوني»؛ لا زلت أراه. وكنت تهذّب بالذهاب نهائياً لقضاء حياتك في الصين لشدة ماكنت مغرماً بذلك البلد؛ كنت تحبّ مذكّك القيام بنزهات طويلة. آه! لقد كنت فريداً من نوعك إذ يمكن القول إنّه لم يتفق لك قطّ أن ماشيت ميول سائر الناس في شيء...» وماكاد الدوق يقول هذه الكلمات حتى كست الحمرة وجهه إذ كان عالماً بسمعة شقيقه على الأقلّ إن لم يك عالماً بأخلاقه. ولما كان لا يحدّثه بالأمر على الإطلاق فقد زاد ذلك من ضيقه لأنّه قال شيئاً ربّما بدا أنّه يتعلّق به وزاد في الطين بلة أن بدا ضيقه ذاك، فقال، بعد أن صمت ثانية، كيما يمسح أثر كلماته الأخيرة: «من ذا يعلم، ربّما كنت عاشقاً لصينيّة قبل أن تحبّ الكثير من البيضاوات وتروقهنّ إن حكمت على ذلك من خلال سيّدة أشعت في صدرها الكثير من السرور هذا المساء في حديثك إليها. لقد سعدت بك». كان الدوق قد اعتمزم أن لا يأتي على ذكر السيّدة «دوسورجيس» ولكنّه في خضمّ الضياع الذي بعثته داخل أفكاره الزلة التي ارتكبتها ارتعى على الفكرة الأقرب، وهي بالضبط الفكرة التي ماكان يجدر أن تظهر في الحديث مع أنّها الباعث عليه. إلا أن السيد «دوشار لوس» كان لاحظ احمرار وجه أخيه، فأجاب قائلاً، على نحو مايفعل جناة لا يريدون أن يبدو الارتباك عليهم من أن يجري الحديث أمامهم عن الجريمة التي يفترض أنّهم لم

يرتكبونها فيظنون من واجبههم تطويل حديث ينطوي على مخاطر: «سرني ذلك أعظم السرور، ولكني حريص على العودة إلى جملتك السابقة التي تبدو صحيحة إلى أبعد الحدود. كنت تقول إنه لم يتفق لي قط أفكار سائر الناس، ماكنت تقول الأفكار بل تقول الميول. كم يبدو ذلك صحيحاً فلم يتفق البتة لي أن ماشيت ميول سائر الناس في شيء، كم يبدو ذلك صحيحاً ! كنت تقول إن لي ميولاً خاصة. واحتج السيد «دو غير مانت»، وماكان بالفعل قال تلك الكلمات ولا كان ربما يعتقد بنقطة ماتعنيه لدى شقيقه: «لا، لا، لا». وعلى أي حال، هل كان يظن لنفسه الحق في مضايقته لتصرفات غريبة ظلت في جميع الأحوال موضع شك وطي الكتمان بما يكفي كي لا تلحق أي ضرر بمركز البارون الضخم؟ ثم إن الدوق، إذ يحس بوضع شقيقه وهو يجعل نفسه يتصرف عشيقته، كان يقول في نفسه إن الأمر يساوي بعض التغاضيات في المقابل. ولو أن السيد «دو غير مانت» كشف في هذا الحين علاقة ما «خاصة» لشقيقه لمر بها، أملاً بالدعم الذي سيوفره له هذا الأخير، والأمل مقرون بذكري الزمن الغابر الطيبة، مرور الكرام ولأغضى عنها ومد يد العون إن دعت الحاجة. وقالت الدوقة: «هيا يا «بازان» مساء الخير يا «بالاميد»، قالت بتأكلها الحق والفصول ولا تطيق من بعد اصطباراً: «إن قررت قضاء الليلة هنا فالأفضل أن تبقى للعشاء فإنك تمسك بنا، أنا وماري، وقوفاً منذ نصف ساعة». وشارك الدوق شقيقه بعد عناق ملفت ونزلنا ثلاثتنا درج فندق الأميرة الفسيح.

وعلى الجانبين فوق أعلى الدرجات كان ينتشر أزواج ينتظرون أن تقدم عربتهم. كانت الدوقة تقف منتصبة القامة على حدة، وإلى جانبيها زوجها وأنا، على يسار الدرج وقد التفت بمعطفها وياقتها حبسية سحب الياقوت الأحمر تلتهمها عيون النساء والرجال في بحثها لاقتناص سر أناقته وجمالها. وكانت السيدة «دو غالاردون»، بانتظار عربتها على نفس درجة السلم التي تقف عليها السيدة «دو غير مانت» ولكن في الطرف المقابل، كانت، وقد فقدت منذ فترة طويلة أي أمل في أن تحظى يوماً بزيارة ابنة عمها، تدير ظهرها كي لا يبدو أنها تراها وكي لا تفر على وجه الخصوص البرهان على أن هذه الأخيرة لا تسلم عليها. كانت السيدة «دو غالاردون» معكزة المزاج إلى حد بعيد لأن سادة كانوا معها ظنوا من واجبههم أن يحذروها عن «أوريان» وقد أجابتهم تقول: «لست أحرص إطلاقاً على لقاءها، وقد لمحتها على أي حال منذ قليل وهي بدأت تشيخ ويبدو أنها لا تستطيع تعود ذلك». «بازان» نفسه يقول ذلك. وإني أدرك الأمر بالطبع فإنها تحسن تماماً، بما أنها ليست على ذكاء وأنها خبيثة خبث القرع وسيف الشك، أنه لن يبقى لديها شيء على الإطلاق حين لن تعود جميلة».

وكنت ارتديت معطفي فلانمي على ذلك السيد «دو غير مانت» الذي كان يخشى البرد، لامني وهو ينزل معي بسبب الحر السائد. وإن جيل النبلاء الذي كان على علاقة كثيرة أو قليلة بسيادة المطران «دو بانلو» يتكلم فرنسية سيئة (باستثناء آل «كاستيلان») إلى حد أن الدوق أعرب عن فكرته على النحو التالي: «الأفضل أن لا تكون ثقیل الملبس قبل الخروج خارجاً، على الأقل «كطرح عام». وإني أعود فأرى هذه الهجمة إلى الخارج يكاملها، أعود فأرى، إن لم أضعه خطأ على هذا الدرج، وكأنا رسم ينفصل عن إطاره، الأمير «دو ساغان» الذي لا بد أن الأمسية كانت آخر أمسية مجتمعية له وهو يرفع قبعته كي يقدم مظاهر احترامه للدوقة

بحركة دائرية من قبعتها العالية يرسمها واسعة جداً بيسراه ذات القفاز الأبيض التي تتجاوب وزهرة الغردينيا في عروة سترته حتى لتعجب أن ليست من نوع اللبذ المُرّيش من نظام ما قبل الثورة الذي تتكرر عدة وجوه سائلة منه في وجه هذا السيد الكبير. لم يلبث سوى وقت قليل بالقرب منها، لكن وقفاته حتى للحظة واحدة كانت كافية لتأليف لوحة كاملة حية وما يشبه مشهداً تاريخياً. ولما قضى نجه مذكاً وكنت محته فحسب في حياته فقد أصبح بالنسبة إليّ شخصيّة من التاريخ، من تاريخ المجتمعات الراقية على الأقلّ حتى ليتفق لي أن أدهش حين أفكر أن امرأة ورجلاً أعرفهما هما شقيقته وابن شقيقه.

وفيما كنا نزل الدرج كانت تصعده بمظهر من الإعياء يلائمها امرأة تبدو في حوالي الأربعين من عمرها مع أنها أكبر سناً، هي الأميرة «دورفيه» التي كانت، فيما يقال: الابنة غير الشرعية لدوق «بارما» والتي يقطع انسياب صوتها العذب نبذة نمساوية مبهمة. كانت تتقدم مديدة القامة حانيتها في فسطان من حرير أبيض مزدان بالزهور فيما تدع لصدرها الشهي المختلج المنهك أن يخفق عبر قلائد من الماس واللازورد. وكانت فيما تهز رأسها على نحو ماتفعل فرس ملكيّة تضيق بالآلى مقودها التي لا تقدر بثمن ولا يربحك وزنها، كانت تحط ههنا وهناك بنظراتها العذبة الساحرة والتي من زرقاة أخذت تضحي أكثر لطافة بعد كلما وافها الضنى وتستودع بحركة ودية من رأسها معظم المدعوين المغادرين. وقالت الدوقة: «تصلين في ساعة متأخرة يا «بوليت». - «آه! ما أشد أسفي. ولكن لم يكن ثمة إمكان مادي»، تجيب الأميرة «دورفيه»، وكانت أخذت عن الدوقة «دو غير مانت» هذا النوع من الجمل ولكننا تضيف إليه عذوبتها الطبعية وهيئة الصدق المنبعثة من زخم نبذة جيرمانية بعيدة تغلف صوتاً بالغ النعومة.. كانت تبدو كأنما تلمح إلى تعقيدات في الحياة أطول من أن تروى ولا تقصد أن تشير بابتدال إلى أمسيات مع أنها عائدة في هذا الحين من عدد منها، ولكننا لم تكن هي التي تضطرّها إلى المجيء في وقت متأخر إلى هذا الحد. فإذا كان الأمير «دو غير مانت» قد منع امرأته على مدى سنوات طويلة من استقبال السيدة «دورفيه»، فقد اكتفت هذه الأخيرة بعدما رفع الحظر بأن ترد على الدعوات كي لا يبدو أنها متعطشة إليها بمجرد بطاقات تودعها المنزل. وبعد انقضاء سنتين أو ثلاث على هذه الطريقة أخذت تجيء بنفسها، ولكن في ساعة متأخرة جداً كما هي الحال بعد المسرح. كانت تتظاهر بتلك الطريقة بأنها لا تخرص بتاتاً على الأمسية ولا على أن تشهد فيها بل همها مجرد المجيء لزيارة الأمير والأميرة ومن أجلهما فقط وحباً بهما حينما يكون ثلاثة أرباع المدعوين قد غادروا «فتنعم بهما أكثر». وهممت السيدة «دو غالاردون» تقول: «حقاً لقد سقطت «أوريان» إلى أسفل درك، ولست أفهم «بازان» إذ يدعها تحدث إلى السيدة «دورفيه». وليس السيد «دو غالاردون» من لعله كان سمح لي بذلك». أمّا فيما يخصني فقد تعرّفت في السيدة «دورفيه» المرأة التي كانت ترميني، قرب فندق آل «غير مانت»، بنظرات طويلة مستهامة وتستدير وتتوقّف أمام مرايا الدكاكين. وقد متني السيدة «دو غير مانت»، وكانت السيدة «دورفيه» رائعة: لا مبالغة في اللطف ولا مثارة؛ ونظرت إليّ نظرتها إلى كل الناس بعينها الحلوتين. بيد أنني لن يتفق لي من بعد في يوم أن أحصل منها إن التقيتها على واحدة من تلك الدعوات التي بدا أنها تعرض نفسها فيها. ثمة نظرات خاصّة يبدو كأنها تتعرفك ولا يحظى بها شاب البتة من بعض النساء - وبعض الرجال - إلا في اليوم



الذي يعرفونك فيه ويعلمون أنك صديق جماعة تربطهم بهم علاقة صداقة أيضاً.

ونودي بأن العربية أحضرت. فأمسكت السيّدة «دو غير مانت» بتنوّرتها الحمراء كأنهما لتنزّل وتستقلّ العربية ولكنّها ربّما أخذ منها الندم أو الرغبة في إشاعة السرور وعلى وجه الخصوص في الإفادة من ميزة القصر التي تفرضها الاستحالة الماديّة في تطويل فعلة ممّلة إلى هذا الحدّ فنظرت إلى السيّدة «دو غالاردون»، ثمّ إنها عادت، كما لو أنّها تشاهدها للتوّ فحسب، وقد داخلها إلهام، فاجتازت كامل طول الدرجة واذ وصلت إلى ابنة عمّها المفتونة مدت لها يدها. وقالت لها الدوقة: «ما أطول المدة!»، قالت كي لا يقع عليها البحث مطوّلاً في كلّ مايفترض أن تتضمّن تلك العبارة من صنوف الأسف والأعذار المشروعة واستدارت صوب الدوق بهيئة فزعة وكان، بعدما نزل برفقتي باتجاه العربية، يصبح بأعلى صوته وهو يرى أن امرأته انطلقت باتجاه السيّدة «دو غالاردون» قاطعة بذلك سير العربات الأخرى. وقالت السيّدة «دو غالاردون»: «لاتزال «أوريان» مع ذلك كثيرة الجمال! يضحكني الناس حينما يقولون بفتور بيننا، فبمقدورنا لأسباب لا حاجة بنا لوضع الآخرين في سرّها أن نلبث سنوات دون أن ترى إحدانا الأخرى، فإننا نملك من الذكريات المشتركة أكثر من أن نستطيع الانفصال الواحدة عن الأخرى في يوم، وهي في الأساس تعلم حقّ العلم أنّها تودّني فوق كثير من الناس من الذين تلقاهم كلّ يوم وليسوا من دمها». كانت السيّدة «دو غالاردون» بالفعل على غرار هؤلاء العاشقين المزدريين الذين يريدون أن يحملوك بكلّ جهد مستطاع على الاعتقاد أنّهم محبوبون أكثر من أولئك الذين تعزّهم معشوقتهم. وقد أقامت (بصنوف المديح التي كالتها وهي تحدّث عن الدوقة «دو غير مانت» دونما اهتمام بالتناقض ومسبق أن قالت قبل قليل) البرهان على نحو غير مباشر على أن هذه الأخيرة تحيط تماماً بالقواعد المأثورة التي ينبغي أن توجّه في مسيرة الحياة سيّدة كبيرة أنيقة يجدر بها أن تعرف، في الآن الذي تثير فيه أروع أنوارها الغيرة إلى جانب الإعجاب، كيف تجتاز كامل الدرج لنزع فتيلها. «حاذري على الأقلّ أن لايتلّ حذاؤك» (وكان هطل مطر رعدي خفيف)، يقول الدوق، ولايزال شديد الحنق أن تنتظر.

وفي طريق العودة ومن جرّاء ضيق العربية الشديد اتّفق اضطراراً أن يكون الحذاء الأحمر قليل البعد عن حداثي ولما خشيت السيّدة «دو غير مانت» أن يكون لامسه فقد قالت للدوق: «سوف يضطرّ هذا الشاب أن يقول لي كما هو الأمر في كاريكاتور لست أعلم من بعد ماهو: «سيدتي قولي لي في الحال إنك تحبّيني ولكن لاندوسي هكذا على قدمي». كان فكري على أيّ حال يسرح بعيداً عن السيّدة «دو غير مانت». فممنذ أن كلّمني «سان لو» عن فتاة كريمة المحتد كانت ترّاد أحد بيوت الدعارة وعن وصيفة البارون «دويوتوبوس» اختصّرت في هاتين الشخصيتين بعدما تجمّعت كتلة واحدة الرغبات التي كانت توحى بها إليّ الكثير من الحسنات ثمّ ينتمين إلى طبقتين، فالعاميات البهيات المهيبات من وصفات الأسر الكبيرة المنتفخات كبراً ويقلن «نحن» حين يتحدثن عن الدوقات من جهة، ومن جهة أخرى هاتيك الفتيات اللواتي كان يكفيني أحياناً، حتّى دون أن أكون رأيتهنّ يمررن بي في عربة أو سيراً على الأقدام، أنّ قرأت اسمهنّ في ملخصّ حفلة راقصة حتّى أقع في غرامهنّ، ثمّ بعد ما أكون بحثت بحثاً دقيقاً في «دليل القصور» أين يقضين الصيف (وإدع لنفسني في الغالب أن يضييعني اسم مماثل) أن أحلم في المبادرة إلى السكنى بالتناوب في سهول

الغرب وكثبان الشمال وغابات الصنوبر في الجنوب. ولكنني عبثاً كنت أصهر كامل المادة الجسدية الأكثر روعة كي أولف منها طبقاً للصورة المثلى التي رسمها «سان لو» الفتاة الطائشة ووصيفة السيّد «دوبوتوس» فقد كانت تفتقر الحسنات اللتان أمني النفس بهما إلى ما كنت أجهل مادمت لم أشاهدهما، عنيت الطابع الفردي. كنت سأنهك نفسي عبثاً في محاولتي أن أتصور، في أثناء الشهور التي تنصبّ فيها رغبتني بالأحرى على الفتيات، كيف ومن كانت تلك التي حدثني عنها «سان لو» وفي أثناء الشهور التي لعنني فضّلت فيها الوصيفات، ووصيفة السيّد «دوبوتوس». ولكن أية طمأنينة أصبت، بعدما كنت على الدوام مضطرب النفس من جرّاء مايداخلني من رغبات قلقة حيال كثرة من مخلوقات متهربة ماكنت أعرف في الغالب حتى اسمها، وكانت في جميع الأحوال صعبة اللّقاء وأصعب تعرفاً وربما استحالة الفوز بها، من أنني اقتطعت من كامل هذا الجمال المبدّد المتهرّب المجهول نموذجين مختارين مزودين ببطاقة أوصافهما وكنت على الأقلّ متيقناً من الظفر بهما ساعة أشياء! وكنت أؤجل ساعة الشروع بهذه المتعة المزدوجة ومثلها ساعة العمل، ولكنّ اليقين الذي بي من إصابتها حينما أشياء كان يغنيني أو يكاد عن أخذها كمثل تلك المضغوطات المنومة التي يكفيك أن تكون في متناول يدك كي لا تحتاج إليها وتنام. ولم أعد أبغي في الكون إلا امرأتين ماكنت بالحقيقة أفلح في تصوّر وجهيهما، ولكنّما سبق أن أطلعتني «سان لو» على اسميهما وضمن تساهلهما. ولئن كان خصّ مخيلتي بعمل شاق من جرّاء أحوال نفوّه بها للتوفّق وفّر بالمقابل لإرادتي استرخاء ثميناً وراحة مستديمة.

وقالت لي الدوقة: «هيا نرا! ألا يمكنني فيما عدا حفلاتك الراقصة أن أفيديك في شيء؟ وهل عثرت على صالة تودّ أن أقدمك فيها؟» فأجبتها أنني أخشى أن تكون الوحيدة التي أتوق إليها هيئة الأناقة إلى حدّ بعيد في نظرها. وسألني بصوت متوعد أجشّ ويكاد لا ينفرج فمها: «ومن عساها تكون؟» - «البارونة «دوبوتوس». وأبدت هذه المرّة غضباً حقيقياً. «لا! يا للعجب! أظنّك تسخر مني. ولست حتى أعلم بأية مصادقة أعرف اسم هذه الدابة. إنها حثالة المجتمع، فكما لو أنك تسألني أن أقدمك لباتعة الخردوات عندي. وحتى هذه لا، فإن باعتي هذه رائحة. بك بعض مس ياصغيري المسكين. وفي جميع الأحوال أسألك أن تتلفّف فتكون مهذباً مع الأشخاص الذين قدّمك إليهم وأن تدع لهم بطاقات وأن تمضي لزيارتهم وأن لا تحدّثهم عن البارونة «دوبوتوس» المجهولة لديهم». وسألت إن لم تكن السيّد «دورفييه» على شيء من الخفّة. «لا على الإطلاق، إنك تخلط، وربما كانت بالأحرى متمزّمة. أليس أنها يا «بازان»؟ وقال الدوق: «أجل، وفي جميع الأحوال لا أعتقد أن تكون أخذت في يوم بأمر».

وسألني قائلاً: «ألا تود مرافقتنا إلى الحفلة الراقصة؟ سوف أزودك بمعطف من البندقية وأعرف شخصاً ربما سرّه ذلك أيما سرور، «أوريان» أولاً، ذلك غنيّ عن القول، فأميرة «بارما» خصوصاً. إنّها تنشد طوال الوقت مدائحك ولا تقسم إلا باسمك. أنت، محظوظ - إذ هي ناضجة نوعاً ما- أن تكون على احتشام مطلق، ولولا ذلك لا تخدّث منك بالتأكيد خادماً ملازماً كما كانوا يقولون في شبابي، ونوعاً من العاشق المتيمّ».

ماكنت حريصاً على الحفلة الراقصة، بل على موعدي مع «ألبيرتين» ولذلك رفضت. كانت العربية قد توقّفت، وطلب الخادم الخاصّ فتح البوّابة الرئيسيّة وضربت الخيل الأرض بسنابكها إلى أن فتحت على

مصراعها ودخلت العربة إلى فناء المنزل. وقال الدوق: «إلى لقاء جديد». وقالت الدوقة: «لقد أسفت أحياناً لسكناي قرية إلى هذا الحد من ماري، فإن كنت أودها كثيراً فأني أود أقل بقليل رؤيتها. ولكنني لم أسف في يوم لهذا القرب بقدر ما أفعل اليوم لأن ذلك يقصر إلى هذا الحد من بقائي معك». - «هيا يا «أوريان» كفي عن الخطاب». ودت الدوقة لو أدخل لحظة إلى منزلهم. وضحكت كثيراً وكذلك فعل الدوق حينما قلت إنني لأستطيع لأن فتاة ستأتي الآن بالضبط لزيارتي، وقالت لي: «تلك ساعة غريبة لك لاستقبال زائرالك». وقال الدوق مخاطباً زوجته: هيا يا صغيري، فالساعة الثانية عشرة ليلاً إلا رباعاً وما هو إلا أن نرتدي ثيابنا.. واصطدم على بابهِ بالسيدتين حاملتي العكاز، وكانتا تحرسانه بحزم ومخشيتا الانحدار ليلاً من «علايهما» كيما تحولا دون وقوع فضيحة. «لقد حرصنا على تنبيهك مخافة أن تشاهد في هذه الحفلة الراقصة. فقد مات «أمانيان» المسكين للتو، منذ ساعة مضت». ودخل الدوق لحظة هلع، فقد أخذ يشهد حفلة الراقصة تنهار أمامه بما أن هاتين الجليتين اللعنتين أخطرتاه بموت السيد «دوسمون». ولكنه تمالك نفسه بسرعة كبيرة ورمى في وجه ابنتي عمومته هذه الكلمة التي أدرج فيها إلى جانب تصميمه على أن لا يتخلى عن إحدى المتع عجزه عن تمثّل قوالب اللغة الفرنسية تمثلاً دقيقاً «إنه مات! لا، إنهم يغالون، إنهم يغالون!» ودون أن يهتم من بعد بقرينتيه اللتين تزعمان، وقد تسلّحتا بعصويهما الجليتين، القيام بالتسلّق في عتمة الليل، ألقى بنفسه يتسقط الأخبار مسائلأ خادمه الخاص: «هل وصلت خوذتي بالتأكيد؟ «أجل، سيدي الدوق». - «وهناك حملاً ثقب صغير للتنفّس؟ فلست أرغب في الموت اختناقاً، باللعنة!» - «أجل سيدي الدوق». - «آه! يا قدرة الله، هذا مساء المصائب. نسيت يا «أوريان» أن أسأل «بابال» إن كان الحذاء المثلثي الرأس لك!» - «ولكن، يا عزيزي، مادام صانع البسة الأوبرا الهوليّة هنا فسوف ينبئنا عن ذلك. أمّا أنا فلا أظنّه يتماشى ومهمازيك». وقال الدوق: «هيا نلق صانع الملابس. إلى اللقاء يا صغيري. كنت قلت لك أن تدخل واثباتاً فيما نجرب بغية تسليتك. ولكننا قد نمضي في حديث والليل. أوشك أن يتتصف وينبغي أن لا نصل متأخرين كيما يكتمل الاحتفال».

كنت بدوري على عجلة من أمري لفرق السيد والسيدة «دو غير مانت» أسرع ما يكون الفراق. كانت مسرحيّة «فيدر» تنتهي حوالي الحادية عشرة والنصف. وما هو إلا أن أجيء حتى تكون «ألبيرتين» قد وصلت. ومضيت رأساً إلى «فرانسواز»: «هل وصلت الآنسة «ألبيرتين»؟ - «لم يجيء أحد». يا إلهي، أفكان يعني ذلك أن لن يجيء أحد؟ لقد أخذني القلق إذ تبدو لي زيارة «ألبيرتين» الآن أكثر اشتهاً بقدر ما يتناقص ثبوتها. و«فرانسواز» انزعجت هي الأخرى وإنما لسبب مغاير تماماً. فإنها أجلس ابنتها منذ قليل إلى الطاولة لوجبة شهية. ولما سمعتني «فرانسواز» مقبلاً وتبينت أنها إنما يعوزها الوقت لرفع الأطباق وتجهيز الأبر والخيوط وكأنما الأمر أمر عمل لا أمر عشاء فقد قالت لي: «لقد أخذت ملعقة من الحساء وأجبرتها على مص بعض العظام»، لتقلص بذلك إلى لا شيء عشاء ابنتها وكما لو أن وفرته ضرب من الإجمام. وكانت «فرانسواز» تتظاهر حتى على الغداء أو العشاء إن اقترفت ذنب الدخول إلى المطبخ أنهم انتهوا، بل هي تعتذر بقولها: «كنت أردت تناول «كسرة» أو «لقمة» ولكن سرعان ما يطمئن المرء إذ يرى تعدد الأطباق التي تغطي الطاولة والتي لم يتسع الوقت لـ «فرانسواز»، وقد باغتها دخولي المفاجئ كما هي حال شقي لم تكنه، كي تزيلها، ثم أضافت قولها: «هيا، بادري إلى النوم فإنك هكذا قد عملت كفاتيك اليوم (إذ هي تبغي أن تبدو ابنتها وكأنها لا

تكلّفنا شيئاً، وليس ذلك فحسب، بل هي تعيش من صنوف الحرمان وهي حتّى تقتل نفسها في العمل من أجلنا). أنت تعرفين الحركة في المطبخ فحسب وتضايقين على وجه الخصوص السيّد الذي ينتظر زيارة. وعادت تقول: «هيا اصعدي»، وكأنّما تضطرّ أن تستخدم كامل سلطتها لترسل ابنتها إلى النوم، ابنتها التي لم تعد ههنا إلّا من قبيل الخدعة مادام العشاء قد فشل، ولو مكثت خمس دقائق إضافية لولّت الأدبار من تلقاء نفسها. ثمّ التفتت إليّ وقالت بهذه الفرنسية الحلوة الشعبيّة، مع أنّها فرديّة نوعاً ما، التي تميّزها: «ليس يرى سيّدي أن حاجتها إلى النوم تشوّه وجهها». وظللت في قمّة السعادة أن لم يقع عليّ أن أحدث إلى ابنة «فرانسواز».

قلت إنّها كانت من بلد صغير يجاور تماماً بلد أمّها مع أنّه يختلف عنه بطبيعة الأرض والمزروعات واللهجة المحليّة وعلى وجه الخصوص ببعض خصائص السكّان. من ذلك أن «اللحامة» وابنة شقيق «فرانسواز» ماكانتا تتفاهمان بصورة مقبولة ولكنّهما تشتركان، حينما تمضيان للتسوّق، في هذه النقطة التي قوامها المكوث ساعات «عند الشقيقة» أو «عند ابنة العم» إذ هما عاجزان تلقائياً عن إنهاء محادثة، محادثة كان يغيب عنهما في أثناءها السبب الذي دعاهما إلى الخروج حتّى إذا قيل لهما لدى عودتهما: «هيا نر، هل يمكن رؤية المركيز «دونوريو» في السادسة إلا ربعا؟ ماكانتا حتّى تلطمنا الجبين قائلتين: «آه! لقد نسيت»، بل: «آه! لم أفهم أن سيّدي طلب ذلك، ظننت فقط أنه ينبغي إلقاء التحيّة عليه». ولئن كانتا «تضيّعان رأسيهما» على هذا النحو بالنسبة إلى أمر قيل قبل ساعة فقد كان يستحيل بالمقابل أن تنزع من رأسيهما ماسبق أن سمعته مرّة على لسان الشقيقة أو ابنة العم. من ذلك أن «اللحامة» إن سمعت من يقول إن الإنكليز شنّوا علينا حرباً في عام السبعين إلى جانب البروسيين (وعيناً حاولت أن أوضح أن الأمر كان خاطئاً) فقد كانت اللحامة تردّد في كل ثلاثة أسابيع في غضون حديث بيننا: «ذلك يسبب تلك الحرب التي شنّها علينا الإنكليز في عام السبعين إلى جانب البروسيين» - «ولكنّي قلت لك مرّة إنّك على ضلال». فكانت تجيب، والأمر يتضمّن أنّ قناعتها لم تنزعزع: «في جميع الأحوال ليس ذلك سبباً يدعو إلى كراهيتهم، فقد تغيرت أمور كثيرة منذ حرب السبعين، الخ...». وفي مرّة أخرى كانت تجبّد فيها حرباً على انكثرت كنت أشجبتها قالت: «بالتأكيد، الأفضل على الدوام أن لا تكون حرب، ولكن بما أنّه لا بدّ من ذلك فالأفضل أن نبادر إليها في الحال. إن المعاهدات التجاريّة، كما أوضحت الشقيقة منذ قليل، تفقرنا منذ تلك الحرب التي شنّها علينا الإنكليز في عام السبعين. ويعد ما نكون هزمناهم لن نسمح بدخول إنكليزي من بعد إلى فرنسه دون أن يدفع ثلاث مئة فرنك رسم دخول، مثلما فعل نحن للدخول إلى انكثرت».

تلّكم كانت طباع السكّان في هذا البلد الصغير الذي لا يبلغ عددهم فيه الخمس مئة والذي تحيط به أشجار الكستناء والصفصاف وحقول البطاطا والشوندر، دون احتساب الكثير من الاستقامة وعناد مبهم، حين يتحدثون، كي لا يسمحو بمقاطعتهم ويعيدوا الكرة عشرين مرّة من حيث وصلوا إليه حينما قوطعوا، وهو ماكان يوفر لأقوالهم في النهاية الصلابة التي لاتنزعزع لمتابعة لـ «باخ».

أما ابنة «فرانسواز» فقد كانت تتكلّم بالعكس، إذ تظنّ نفسها امرأة عصرها وقد هجرت الدروب المغرقة في القدم، اللهجة المحليّة الباريزيّة ولانفوت واحدة من النكات المتصلة بها. فإذ قالت لها «فرانسواز» إنني آت من

منزل إحدى الأميرات قالت: «آه! أميرة بجوز الهند»<sup>(١)</sup> دون شك وتظاهرت، وقد لاحظت أنني في انتظار زيارة لي، أنني أدعى «شارل»، فأجبت بسلاجة أن لا، وقد مكثها ذلك من أن تضيف: «آه! خلّت ذلك. وكنت أقول في نفسي «شرّ منتظر» (شارل ينتظر) ولم تكن من ذوق جد رفيع. إلا أنني أبدت لامبالاة أقل حينما قالت لي بمثابة عزاء لتأخر «ألبيرتين»: «أعتقد أنك تستطيع انتظارها «مؤيداً»، فلن تجيء من بعد. آه بالوقحات هذا الزمان!».

وهكذا كانت لغتها مختلفة عن لغة أمها؛ ولكن الأغرب أن لغة أمها كانت مختلفة عن لغة جدتها المولودة في «بايولويان» وهي قرية جداً من بلدة «فرانسواز» ومع ذلك كانت اللهجتان المحليتان على اختلاف طفيف شأن المظهرين الطبيعيين. فقد كانت بلدة أم «فرانسواز» على سفح مائل ينحدر صوب واد صغير ويغطيه شجر الصفصاف. فيما كان ثمة على بعد كبير من هذا المكان، كان على العكس منطقة صغيرة يتكلمون فيها اللغة المحلية نفسها المتداولة في «ميزيكليز» تقريباً. وقد اكتشفت الأمر وعانيت من الإزعاج الذي يورثه في الآن نفسه. فقد لقيت «فرانسواز» ذات مرة في حديث طويل مع وصيفة في المنزل كانت من تلك البلدة وتكلم تلك اللغة المحلية. كانت إحداهما تفهم الأخرى على وجه التقريب ولا أفهمهما على الإطلاق وهما على علم بالأمر ولا تكفان لذلك، وتظنان عذراً لهما في أنهما من ذات المنطقة مع أن واحدتهما ولدت بعيداً جداً عن الأخرى، عن موالاة الحديث أمامي بهذه اللغة الأجنبية، كما هي الحال حين لا تريد أن يفهمك الآخرون. وتوالت هذه الدراسات الطريفة في الجغرافية الألسنية والرفاقية الخدمية كل أسبوع في المطبخ دون أن أصيب منها أية متعة.

ولما كان البواب يضغط على زر كهربائي يضيء الدرج في كل مرة تنفتح فيها البوابة الكبيرة وإذ لم يلبث مستأجرون لم يعودوا إلى منازلهم فقد تركت في الحال المطبخ وعدت فجلست في غرفة الانتظار أقرب المكان الذي تسمح فيه الستارة المفرطة الضيق إلى حد ما فلا تغطي تماماً باب شقنا المزجج بدخول الخط العمودي القاتم الناجم عن نصف عتمة الدرج. فإن أضحي هذا الخط فجأة أشقر مذهباً فإتما يعني أن «ألبيرتين» ربما دخلت منذ قليل في الأسفل وسوف تكون بعد دقيقتين بالقرب مني، وليس من شخص آخر يمكن أن يجيء في هذه الساعة. ولبث لا أستطيع صرف عيني عن الخط الذي يصر على البقاء عاتماً. كنت أميل بكامل جسمي لأؤكد من أنني أرى تمام الرؤية. ولكن عبثاً كنت أنظر فما يوليني الخط الأسود العمودي، على الرغم من رغبتني الحارة، البهجة المسكرة التي كانت حلت بي لو رأيته ينقلب، من جراً لمسة سحرية مفاجئة ذات دلالة، قضيباً ذهبياً مضيئاً. ذلك كان اضطراباً مفرطاً بشأن «ألبيرتين» هذه التي لم أفكر فيها ثلاث دقائق في أثناء أمسية آل «غير مانت»! ولكن الحرمان المحتمل من مجرد متعة جسدية يوقظ مشاعر الانتظار التي عانيت منها بالأمس بشأن فتيات أخريات، ولا سيما «جيلبيرت» حين تتأخر في المجيء، فيسبب لي عذاباً نفسياً قاسياً.

كان لابد لي من العودة إلى غرفتي. وتبعني «فرانسواز» إلى داخلها. وكانت ترى، وقد عدت من أمسيتي، أن لافائدة من احتفاظي بالوردة التي في عروة سترتي وأقبلت لتنزعهها مني. وقد سببت لي الحركة

(١) لا سبيل إلى ردّ هذا التلاعب اللفظي، والعبارة تعني: لا قيمة لها والترجمة نفقدها التكرار مع أنها قد توحى بالقيمة الهيئية. وربما حالفني الحظ في الدعاية الأخرى Char la tan, Charles attend («شارل ينتظر» و«مهرج»)

التي قامت بها، إذ تذكرني بأن «ألبيرتين» يمكن أن لاجئيء من بعد واذ تضطرتني كذلك إلى الإقرار بأنني كنت راعباً في الظهور بمظهر أتيق من أجلها، غضباً تضاعف من جراء أنني، فيما أحاول التخلص بحركة عفيفة، غضنت الزهرة وأن «فرانسواز» قالت لي: «كان من الأفضل أن تدعني أنزعها عوضاً عن أن تفسدها على هذا النحو». كانت أقل كلماتها على أي حال تشير حقيقي، فإن المرء يعاني في الانتظار من غياب مايشتهي إلى حد أنه لا يطيق احتمال حضور آخر.

وكررت بعدما خرجت «فرانسواز» من الغرفة، أنه من المؤسف حقاً، إن كان ذلك لحض أن أبلغ الآن حد إبداء بعض التائق إزاء «ألبيرتين»، أن أكون طلعت إليها مرّات كثيرة بأسوأ حلاقة وبلحية تعود لعدة أيام في الأمسيات التي كنت أذن لها بالاجيء فيها لتعيد الكرة في مداعباتنا. كنت أحس أنها لا تهتم بي فتتركني وحيداً. وعدت فوضعت، بغية تجميل غرفتي قليلاً، إن قدر أن يجيء «ألبيرتين» بعد وللمرة الأولى منذ سنوات على الطاولة التي قرب سريري، تلك المحفظة المزينة بأحجار الفيروز التي حملتني «جيلبيرت» على صنعها لتغليف كتّيب «بيرغوت» والتي أردت لفترة طويلة الاحتفاظ بها في أثناء نومي إلى جانب كلة العقيق، إذ كانت أحد أجمل ما أملك من حاجات. ثم إن وجود «ألبيرتين» في هذه اللحظة في «مكان آخر» ألفتته بالتأكيد أكثر إمتاعاً وماكنت أعرفه كان يسبب لي، ربما بمقدار ما تفعل «ألبيرتين» نفسها، وهي بعد لم تجيء، شعوراً مؤلماً كان يمكن أن ينقلب، على الرغم مما سبق أن قلته لـ «سوان» منذ مايقرب الساعة حول عجزني عن أن أكون غيوراً، لو التقيت صديقتي في فواصل زمنية أقل بعداً، حاجة يشوبها القلق وقوامها أن أعلم أين كانت تقضي وقتها وبصحبة من. ماكنت أجزؤ أن أرسل أحداً إلى بيت «ألبيرتين»، ولكنني، أملاً مني بأنها ربما تتناول طعام العشاء بصحبة صديقات في مقهى وسوف توافيها فكرة الاتصال بي هاتفياً، أدت مفتاح النور وأعدت الخط إلى غرفتي وقطعته بين مكتب البريد ومسكن البواب الذي كان موصولاً به عادة في تلك الساعة. ولعل وجود جهاز استقبال في الممر الصغير الذي تطلّ عليه غرفة «فرانسواز» كان أكثر بساطة وأقلّ إزعاجاً ولكنه غير ذي فائدة. إن وجهه تقدّم الحضارة تسمح لكل فرد أن يكشف عن صفات لا تخطر ببال أو عن معايير جديدة تجعلهم أعزّ على قلوب أصدقائهم أو أكثر ثقلاً عليهم. من ذلك أن اكتشاف «أديسون» مكن «فرانسواز» من اكتساب عيب إضافي قوامه رفض استخدام الهاتف مهما تكن فائدة الأمر وضرورته. كانت تلقي وسيلة للهروب حينما ييغون تعليمها ذلك كما يفعل آخرون ساعة يحين تلقّيهم. ولذلك وضع الهاتف في غرفتي وجعلوا رنة الجرس مجرد طقطقة خشبية كي لا يسبب إزعاجاً لوالدي. ومكثت دون حراك مخافة أن لا أسمعه. وقد بلغ لا حراكي مبلغاً لاحظت معه للمرة الأولى منذ شهور تكتكة ساعة الحائط. وجاءت «فرانسواز» ترتب بعض الحاجات. كانت تكلمني ولكنني كنت أمقت ذلك الحديث الذي كانت مشاعري تتغير من دقيقة إلى أخرى في استمراريته المتساوية في سخفها، فتنتقل من الخشية إلى ضيق النفس، ومن الضيق إلى الخيبة التامة. كنت أحس وجهي، في اختلافه عن الأقوال الغائمة الراضية التي أظنني ملزماً بتوجيهها إليها، تيسماً إلى حد أنني زعمت أنني أعاني من الرثية لأفسر الاختلاف الكائن بين ما أنظر به من لامبالاة وهذه الملامح المعدبة. ثم أخذت أخشى أن تحمل الأقوال التي تجود بها «فرانسواز»، بصوت خافت على أي حال، (لا بسبب «ألبيرتين»، إذ كانت ترى أن ساعة مجيئها المحتمل قد انقضت منذ وقت طويل)

خطر الحؤول دون سماعي النداء المنفذ الذي لن يصلني من بعد. وأخيراً مضت «فرانسواز» لتنام، فصرفتني برفق حازم كي لاتغطّي الضجة التي قد تصدر عنها ساعة ذهابها صوت الهاتف. وعدت إلى الإصغاء والمعاناة، فيآته يبدو، حين ننتظر، أن الرحلة المزدوجة، من الأذن التي تجمع الأصوات إلى الفكر الذي يفرزها ويحللها ومن الفكر إلى الفؤاد الذي ينقل إليه الفكر نتائجها، يبدو أنها سريعة إلى حد أننا لانستطيع حتى تبين مدتها وأنه يخيل إلينا أننا نصغي مباشرة بفؤادنا.

كانت تعذبني عودة لاتتوقف لرغبة، يزداد على الدوام اضطرابها ولاتشبع قط، في صوت نداء. وبعدما بلغت أعلى نقطة في صعود معذب داخل لوالب غمي المتوحد وافاني فجأة، بجوار مكتبي ومن أعماق باريس المكتظة الليلية وقد قربت بغتة مني، وافاني ميكانيكياً راعماً، كما هو في «تريستان» أمر المندبل الخافق في الهواء أو شبابة الراعي، صوت خذروف الهاتف. وانطلقت فكانت «ألبيرتين» - «ألسأت أزعجك بندائي في مثل هذه الساعة؟» فقلت وأنا أكنتم فرحي لأن ماكانت تقول بشأن الساعة غير المناسبة إنما كان دونما شك للاعتذار عن مجيئها بعد حين، في وقت متأخر جداً، ولايعني أنها لاتزعم المجيء: «لا، لا..» ثم سألتها بلهجة لامبالية: «وهل أنت آتية؟» - «بالطبع..لا، إن لم تكن بك حاجة أكيدة إلي».

ثمة جزء مني يؤد الآخر اللحاق به كان داخل «ألبيرتين». فكان لابد أن تجيء ولكنني لم أفض إليها بالأمر في البداية، ولما كنّا على اتصال قلت في نفسي إنني أستطيع دوماً اضطرابها في الثانية الأخيرة إما أن تأتي إلي وإما أن تسمح لي بالإسراع إليها. «أجل إني قريبة من منزلي، تقول، وبعيدة قليلاً عن منزلك. لم أكن أحسنت قراءة كلمتك، وقد وجدت من قليل وخفت أن تكون في انتظارتي». كان يداخني شعور بأنها تكذب وكنت أود الآن في سورة غضبي إرغامها على المجيء تدفعني حاجة بي إلى إزعاجها أكثر مني إلى رؤيتها. ولكنني كنت حريصاً بادئ الأمر على رفض مأسأسي إلى الحصول عليه بعد لحظات. ولكن أين عساها كانت؟ فإن أصواتاً أخرى تختلط بكلماتها: زمر دراج وصوت امرأة تغني وجوقة أبواق في البعيد كانت تدوي بمثل وضوح الصوت الغالي كأنما لثريني أن من كان بالقرب مني في هذه اللحظة إنما «ألبيرتين» في وسطها الراهن، مثل مدرة انتزعت معها كلّ النجيليات التي تحيط بها. كانت ذات الأصوات التي أسمعها تدوي في أذنيها وتشكل عائناً لانتباهها: إنها أجزاء من الحقيقة غريبة عن الموضوع وغير مفيدة في حد ذاتها وإنها لتتزايد بالمقدار نفسه ضرورتها لتكشف لنا وضوح المعجزة: إنها خطوط بسيطة ورائعة تصور شارعاً باريسياً، خطوط حادة وقاسية لأمسية مجهولة منعت «ألبيرتين» بعد مسرحية «فيدر» من المجيء إلى منزلي. وقلت لها: «أنبهك في البداية أن ليست غاييتي أن تجيئي لأتلك في مثل هذه الساعة ستضايقيني كثيراً، فقد هدني النعاس، ثم إن هناك ألفاً من التعقيدات. ويهمني أن تعرفي أن لم يكن ثمة أي إمكان لسوء تفاهم في رسالتي. لقد أجبتي بأن الأمر حاز الموافقة. فإن كنت لم تفهمي فما الذي تقصدينه بذلك؟» - «قلت إن الأمر متفق عليه ولكنني ماعدت أذكر كثيراً موضوع الاتفاق. ولكنني أراك مغتاضاً وذلك يزعجني. إني أسفة أن ذهبت إلي مسرحية «فيدر»، لو علمت أن ذلك سيحزّ الكثير من المتاعب.. تضيف قولها مثل جميع الناس الذين أذنبوا في أمر فيتظاهرون بالاعتقاد بأن ما يلامون عليه أمر آخر. «لادخل لـ«فيدر» في استيائي بما أنني سألتك بنفسي الذهاب إلى هناك» - «إذا فأنت حاقدة عليّ والمزعج أن الوقت تأخر كثيراً هذا المساء والـ

لمضيت إلى بيتك، ولكنني سأجيء غداً أو بعد غد لأعذر» - «لا، لا! رجوتك يا «ألبيرتين»، فبعد ماضيت لي أمستي دعييني على الأقلّ وشأني في الأيام التالية، ولن أكون حراً قبل خمسة عشر يوماً أو ثلاثة أسابيع. اسمعي، إن كان يزعجك أن نبيت على شعور بالغضب، وربما كنت في الأساس على حق، فإني أفضل إذ ذاك، والتعب واحد، وبما أنني انتظرتك حتى هذه الساعة ولأتالين خارجاً، أن تأتي في الحال، وسأناول شيئاً من القهوة لأظللّ صاحياً» - «أليس يمكن تأجيل الأمر للغد؟ لأن الصعوبة...». وفيما كنت أسمع كلمات الاعتذار هذه ينطق بها وكأنها لاتزعم المحبي شعرت أن عنصراً مختلفاً تمام الاختلاف عن رغبتني في أن أرى ثانية الوجه المخملي الذي سبق أن كان يوجّه في «بالبيك» كامل أيامي صوب اللحظة التي سأكون فيها، أمام بحر أبلول البنفسجي، بجوار هذه الزهرة الوردية، شعرت أنه يقوم بمحاولة مؤلمة كي يتحد بتلك الرغبة. هذه الحاجة الخفيفة إلى شخص في «كومبريه» قيص لي أن أعرفها بشأن أمي وإلى حدّ اعتزام الموت إن أرسلت تقول لي مع «فرانسواز» إنها لن تستطيع الصعود. وهذا الجهد الذي يبذله الشعور السابق ليتحد ويؤلف عنصراً وحيداً مع الشعور الآخر الأحداث الذي لم يتخذ مادة لشهوته سوى المساحة الملونة، سوى البشرة الوردية لزهرة الشاطئ، إن هذا الجهد إنما لايفضي في الغالب إلا إلى استيلاء (بالمعنى الكيميائي) جسم جديد قد لايدوم سوى بضعة لحظات. ولكنّ العنصرين لبثا منفصلين في ذلك المساء ولفترة طويلة. بيد أنني أخذت أدرك، لدى سماع آخر كلماتها على الهاتف، أن حياة «ألبيرتين» واقعة (لا بالمعنى المادي بالتأكيد) على مسافة كبيرة مني حتى ليقتضيني على الدوام القيام باستكشافات مرهقة كي أقبض عليها، وهي إلى ذلك منظمّة على هيئة استحكامات ميدانية هي، إمعاناً في الأمان، من نوع تلك التي جرت العادة فيما بعد على تسميتها، بـ «المؤهّة». كانت «ألبيرتين» على أي حال، وفي مرتبة أعلى من المجتمع، في عداد أناس من النوع الذي تعدّ البوابة حامل رسالتك بتسليمها إليها حينما تعود- إلى اليوم الذي تتبين فيه أنها هي بالضبط، تلك المرأة التي التقيتها خارجاً وأجزت لنفسك أن تكتب إليها، البوابة، وإذ هي تسكن بالتأكيد- إنما في شقة البواب- المسكن الذي دلتك عليه (وهو إلى ذلك بيت صغير للدعارة السريعة قوادته البوابة)، أو من النوع الذي يعين عنوانه في بناء يعرفه فيه شركاء لن يفضحوا أمامك سره ومن هنا يبلغونه رسائلك ولكنه لايقطنه وقد ترك فيه على الأكثر بعض الحاجات. إنها صنوف من العيش رُتبت على خمسة أو ستة خطوط انسحاب حتى إنك يوم أردت لقاء تلك المرأة أو الاطلاع على أمر جئت تقرر أكثر إلى اليمين أو أكثر إلى اليسار أو أكثر إلى الأمام أو أكثر إلى الخلف ويمكن أن تجهل كل شيء على مدى شهور وسنوات. كنت أحسن، فيما يخص «ألبيرتين»، أنني لن أطلع على شيء في يوم وأنني لن أفعل البتّة في تدبر أميري عبر تعدد وتشابك التفاصيل الحقيقية والوقائع الكاذبة، وأن الأمور ستبقى دوماً على هذه الشاكلة مالم تودع السجن حتى النهاية (مع أنهم يهربون منه). ولم تبعث تلك القناعة ذلك المساء في شيء من القلق ولكنني كنت أحسن فيه رعشة مايشبه استيقاظاً لعذابات طويلة.

وأجبت قائلاً: «لا، لا! سبق أن قلت إنني لن أكون حراً قبل ثلاثة أسابيع، ولن أكون في الغد أكثر من أي يوم آخر» - «حسن، إذًا.. سوف أجيء عدواً.. الأمر مزعج لأنني في منزل صديقي لي هي...» كنت أحسن أن لم يدخل في روعها أنني سوف أقبل اقتراحها بالمجيء، فلم يكن صادقاً إذاً وأردت إخراجها. «وماذا



يهمني من صديقتك؟ تعالي أو لاجئتي، ذلك أمر يخصك، فما أنا من يسألك المجيء، أنت من اقترحت الأمر عليّ. «لاتغضب، سأقفز داخل عربة وأكون عندك في عشر دقائق». وهكذا، ومن باريس هذه التي انطلقت من أعماق ليلها حتى غرقتي الرسالة الخفية تقيس مدى تأثير كائن بعيد، فإن ما كان يزعم أن يطلع فجأة ويظهر بعد هذه البشارة الأولى إنما «ألبيرتين» تلك التي سبق أن عرفتها تحت سماء «البليك» حينما كان نور الشمس الغاربة يبهر ندى الفندق الكبير وهم يعدّون المائدة، وأنفاس المساء الخفيفة تمرّ، وقد سحب زجاج النوافذ كلياً، تمرّ دونما عائق من الشاطئ حيث يتباطأ آخر المتنزهين، إلى قاعة الطعام الفسيحة حيث لم يجلس بعد أوائل المتعشّين إلى موائدهم، فيما يمرّ عبر المرأة التي جعلت خلف طاولة المشرب وهج جسم السفينة الأحمر ويطلّ المقام ظلّ رماديّ للدخان المنبعث من آخر مركب متجه إلى «ريغبييل». لم أعد أسأل نفسي ما الذي أمكن أن يؤخر «ألبيرتين»، وحينما دخلت «فرانسواز» إلى غرفتي تقول لي: «وصلت الآنسة» «ألبيرتين»، فإن كنت أجبت حتى دون أن أحرّك رأسي فقد كان ذلك لمحض التستّر: «وكيف تحيي الآنسة» «ألبيرتين» متأخرة إلى هذا الحد؟» ولكنّي حين رفعت ناظريّ إلى «فرانسواز» وكأنما بي فضول لأحظى بإجابتها التي ينبغي أن تعزّز الصدق الظاهر في سؤالي تبينّت إعجاب وحق أن «فرانسواز»، وكانت قادرة على منافسة «لابيرما» نفسها في فنّ إنطاق الأنواب الجامدة وقسمات الوجه، قد أفلحت في تلقين صدرتها درساً وكذلك فعلت بشعورها التي أعيد أكثرها بياضاً إلى السطح وعُرضت وكأنها خلاصة شهادة ميلاد، وبعنفها الذي لواه التعب والطاعة. كانت كلها ترتني لحالها أن أوقظت من نومها وأخرجت من دفء السرير في أنصاف الليالي وفي سنّها وقد اضطرت أن ترتدي ملابسها بأقصى سرعة مجازفة باصابتها باحتقان رؤوي. ولذلك قلت، وقد خشيت أن يكون بدا آتي اعتذر عن وصول «ألبيرتين» متأخرة: «وإني في جميع الأحوال مسرور جداً من أنّها جاءت، وكل شيء على مايرام»، وأطلقت العنان لعميق ابتهاجي. ولم يلبث فترة طويلة لانتشويه شائبة بعدما سمعت جواب «فرانسواز». فإنّها أخذت، دون أن تطلق أية شكوى، بل هي تبدو وكأنّها تكتم جاهدة سعالاً لايقام، وتكتفي بمصالية شالها عليها وكأنما حلّ بها البرد، أخذت تضحكي لي كلّ ماقلته لـ «ألبيرتين»، إذ لم يفتها أن تسألها عن أخبار عمتها. «كنت بالضبط أقول لها لاشك أن سيدي خشي أن لاجئي الآنسة من بعد لأن الساعة ليست مناسبة للمجيء فقد أوشك يطلع الصباح. ولكن لا بدّ أنّها كانت في أماكن تلهو فيها أحسن اللهو فهي حتى لم تقل لي إنّها انزعجت من اضطرابها سيدي للانتظار وأجابت بلهجة من يسخر من الناس: «تأخير ولاقطيعة!» وأردفت «فرانسواز» تقول هذه الكلمات التي اخترقت فؤادي: «لقد كشفت سرّها إذ تقول ماتقول لعلّه كان يودّها أن تسترّ، ولكن...».

لم يكن ثمة ماأسغره كثيراً، فقد قلت منذ قليل إن «فرانسواز» نادراً ماكانت تنقل إليك في الخدمات التي تكلف بها، إن لم يكن ماقالته هي وماكانت تسترسل فيه بطيبة خاطر، فالجواب المنتظر على الأقلّ. فأما إن ردّت استثناء على مسامعنا الأقوال التي صدرت عن أصدقائنا فقد كانت تتدبر أمرها بعامة كي تضفي عليها طابعاً مهيناً بوساطة ماؤكّد أنّه رافقها من دلائل ولهجة لدى الضرورة. كانت ترتضي، عند اللزوم، أن تكون لحقت بها إهانة، ويرجح أن تكون خيالية على أية حال، على يد مورد أرسلناها إليه شرط أن تطلنا تلك الإهانة، إذ هي موجهة إليها هي التي كانت تمثّلنا وتكلّمت باسمنا، على نحو ارتداد. ولعلّه ماكان بقي لنا

سوى أن نجيبها بأنّها أساءت الفهم وأنها مصابة بهذيان الاضطهاد وأنّ لم يتحالف التجار جميعهم ضدها. وكنت على أيّ حال قليل الاهتمام بمشاعرهم. وما كان الأمر واحداً بالنسبة إلى مشاعر «ألبيرتين». لقد ذكرّنتي «فرانسواز» في الحال، وهي تعيد عليّ هذه الكلمات الساخرة: «تأخير ولاقطيعة!» بالأصدقاء الذين ختمت «ألبيرتين» أمسيّتها بصحبتهن التي راقتها إذاً أكثر مما تروّقها صحتي. وأضافت «فرانسواز»، ونادراً ما تشاطرنني انطباعاتي ولكنها تحسّ بحاجة إظهار انطباعاتها، أضافت تقول كأنما تسخر من «ألبيرتين»: «إنّها مضحكة وتتمتع بقبة صغيرة مسطحة تضفي عليها، إلى جانب عينيها الكبيرتين، هيئة عجيبة ولاسيّما بمعطفها الذي لعلها أحسنت صنعاً لو بعثت به إلى «الرقاءة» فهو متآكل كلّ. إنّها تضحكيني». ماكنت حتّى أودّ الظهور بمظهر من يدرك أن تلك الضحكة كانت تعني الازدراء والسخرية ولكنني بغية رد الضربة بضربة أجبت «فرانسواز» مع أنّي لا أعرف القبعة الصغيرة التي تتحدّث عنها: «ماستميّنه «بالقبعة الصغيرة المسطحة» شيء محض رائع». .. فقالت «فرانسواز» معبرة تعبيراً صريحاً هذه المرّة عن ازدراء حقيقي: «يعني أنّها لاتساوي فلساً يتيماً». حينئذ توجهت إلى «فرانسواز» بهذه الكلمات القاسية (ويلهجة لطيفة متباطئة كي يبدو أنّ إجابتي الكاذبة إنّما تعبّر لآعن غضبي، بل عن الحقيقة، ودونما إضاعة للوقت مع ذلك كي لا أضطرّ «ألبيرتين» إلى الانتظار) قلت بلهجة معسولة: «أنت رائعة، ولطيفة، وتملكين ألفاً من الصفات، ولكنك لاتزالين حيث كنت يوم جئت إلى باريس إن كان ذلك فيما يخصّ خبرتك بأمور الملبس أو في حسن لفظ الكلمات أو تحاشي النطق الخاطئ». وكان اللوم يتّصف بغباء فريد لأن تلك الكلمات الفرنسية التي نبدي اعتزازاً كبيراً بصحة نطقها لاتعدو أن تكون محض «نطق خاطئ» جادت به أفواه غالية كانت تلفظ اللاتينية أو الساكسونية لفظاً أعوج، إذ ليست لغتنا سوى النطق السيئ لنفر غيرهم. إن عبقرية اللغة بوضعها الحيّ ومستقبل الفرنسية وماضيها، ذلك ماكان يجدر الاهتمام به في أخطاء «فرانسواز». أفليست «الرقاءة» بدلاً من «الرقاءة» غريبة غرابة تلك الحيوانات الباقية من عصور سحيقة، كالحوت أو الزرافة، والتي ترينا الحالات التي مرت بها حياة الحيوان؟ وأضفت قولي: «وما أنّك لم تغلحي في التعلّم منذ هذه السنوات الكثيرة فلن تتعلّمي في يوم. ويمكن أن تتعزّي عن ذلك فليس يحول دون أن تكوني امرأة طيبة جداً وتبدعين في تحضير لحم البقر بالخثيرة وألف من الأشياء الأخرى. إن القبعة التي تظنينها بسيطة منقولة عن قبعة لأميرة «غير مانت» كلفت خمس مئة فرنك. وإنّي عازم على أية حال على إهداء الأنسة «ألبيرتين» واحدة تفوقها جمالاً عمّا قريب». كنت أعلم أن مايمكن أن يزعج «فرانسواز» أكثر الإزعاج إنّما إنفاق المال على أناس لاتحبّهم. فأجابتنني بوضع كلمات جعلها فقد مفاجئ لأنفاسها غير مفهومة كثيراً. وحينما أعلمت فيما بعد أنّها تشكو من مرض في القلب يا ما أصابني من ندم أن لا أكون حجت عن نفسي المتعة الضارية العقيمة المتمثلة في الرد على أقوالها على هذا النحو! كانت «فرانسواز» على أيّ حال تكره «ألبيرتين» لأنّ «ألبيرتين» لا يمكنها، وهي فقيرة، أن تزيد ممّا تعتبر «فرانسواز» أنّه مواضع تفوّقي. فكانت تبتسم برقة في كلّ مرّة تدعوني فيها السيّد «دو فيليب ريزيس»، ولكنّها بالمقابل ثور ثائرتها من أن لاتقوم «ألبيرتين» بالمعاملة بالمثل. وقد بلغ بي أن أضطرّ إلى اختراع هدايا مزعومة تقدّمها هذه الأخيرة ولم تصدّق «فرانسواز» في يوم أقلّ ما يكون التصديق وجود مثلها. كان غياب المعاملة بالمثل يصدمها بوجه الخصوص في حقّ الطعام. فأن تقبل بأعشية تقدّمها والدتي، إن لم تكن مدعوّين

في منزل السيدة «بوتنان» (مع أن هذه الأخيرة كانت تغيب عن باريس نصف الوقت إذ كان زوجها يقبل ببعض المناصب) شأنه فيما مضى حينما كان يضيق ذرعاً بالوزارة، فإنما يبدو لها ذلك من جانب صديقتي قلة ذوق كانت تستنكرها على نحو غير مباشر بتلاوة هذا القول المأثور الشائع في «كومبريه» :

«هيا نأكل رغيفي.

— بكلّ طيبة خاطر.

— هات نأكل رغيفك.

— لم أعد جائعاً.

تظاهرت بأنني أكتب، فقالت لي «أليبرت» وهي داخلة: «لن كنت تكتب؟»

— لصديقة لي جميلة، لـ «جيلبيرت سوان»، ألا تعرفينها؟ — «لا!» وأقلعت عن طرح أسئلة على «أليبرت» حول أمسيته إذ كنت أحس أنني سوف أوجه إليها اللوم وأنه لن يتسع لنا الوقت من بعد، بسبب تقدم الساعة، لمصالحة كافية بيننا كي نتقل إلى القبل والمداعبات. ولذلك أردت أن أبدأ بها منذ الدقيقة الأولى. ولئن كنت في جميع الأحوال هدأت بعض الشيء فما كنت أحسني سعيداً. فإن فقدان أية بوصلة وأي اتجاه، وهو ما يميز الانتظار، إنما يستمر بعد وصول الشخص المنتظر وإذ يحلّ فينا محلّ الهدوء الذي كنا بفضلله نصوّر مجيئه بمثابة متعة معينة فإنه يحول دون تذوّقنا أية متعة. لقد حضرت «أليبرت» أمّا أعصابي المفككة فلا تزال، إذ توالي اضطرابها، تنتظرها. «هل أقدر أن أنال قبلة طيبة يا «أليبرت»؟ فقالت لي بكامل طيبته، وماكنت رأيته في يوم بمثل جمالها: «أنت وماتشاء». — «أضيف أخرى؟ فأنت تعلمين أن ذلك يوليني أعظم متعة». فأجابت تقول: «ويوليني أنا ما يزيد ألف مرة. آه! بالمحافظة الجميلة التي تقتنيها!» — «خذيتها، إنني أهلك إياها للذكرى» — «لطف زائد منك..» لعلّ المرء كان يشفى من عالم الخيال إلى الأبد لو شاء، بغية التفكير بمن يحبها، محاولة أن يكون الشخص الذي سيؤول إليه حينما لن يحبها من بعد. إن المحافظة وكرة «جيلبيرت» التي من عقيق، كل ذلك إنما استمدّ بالأمس أهميته من حالة داخلية محضة، إذ هما الآن في نظري محافظة وكرة عاديتان.

سألت «أليبرت» إن كانت تريد شراباً، فقالت لي: «يبدو لي أنني أبصر هنا برتقالاً وماء. فالأمر على مايرام». وأمكنتني هكذا أن أتذوّق، إلى جانب قبلاتها، تلك البرودة التي كانت تبدو لي وكأنما تفوقها في منزل الأميرة «دو غير مانت». كان يبدو أن البرتقالة المعصورة في الماء تحمّل إليّ شيئاً فشيئاً، كلما مضيت في الشراب، حياة نضجها الخفية وتأثيرها الطيب على بعض حالات هذا الجسم الإنساني الذي ينتمي إلى مملكة مختلفة إلى حد بعيد وعجزها عن إحيائه، وفي المقابل صنوف الري التي يمكن أن تخدمه بها، ومعة سرّ كشفتها الثمرة لإحساسي وليس لعقلي.

بعدها ذهبت «أليبرت» تذكرت أنني وعدت «سوان» بأن أكتب لـ «جيلبيرت» ورأيت قدراً أكبر من الكياسة في أن أفعل في الحال. وكان أن خططت على المظروف اسم «جيلبيرت سوان»، وكنت أعطي به

فيما مضى دفاتري لأوهم نفسي بتبادل الرسائل وإياها، ففعلت دونما تأثر وكأنتما أخطأ آخر سطر في وظيفة مدرسية مملّة. ذلك لأنني إن كنت أنا من يكتب بالأمس ذاك الاسم فإن المهمة الآن قد عهدت بها العادة إلى واحد من أمناء السرّ الكثيرين الذين تتخذهم. كان بمقدور هذا الأخير أن يخطئ اسم «جيلبيرت» بهدوء يزيد منه أنه، لما وضعته العادة عندي منذ وقت قريب وأدخل مؤخراً في خدمتي، لم يكن عرف «جيلبيرت» وهو يعلم فحسب أنها فتاة كنت عاشقاً لها، دون أن يظنّ هذه الكلمات بأيّ واقع، لأنه سمعني أحتدّ عنها.

ما كان بوسعي أن أتهمه بالجفاف، فالشخص الذي كنته الآن إزاءها كان أفضل «شاهد» اختير ليفهم ماسبق أن كانته هي. فقد أضحت الحفظة وكرة العقيق في نظري إزاء «ألبيرتين» ما سبق أن كانتا في نظر «جيلبيرت» وما لعلهما كانتا بالنسبة إلى أيّ شخص لم يرسل على صفحتهما وهج حبّ داخلي. إلا أن اضطرابا كان يداخطني الآن ويشوه بدوره القوّة الحقيقية للأشياء والكلمات. وإذ كانت «ألبيرتين» تقول لي، كيما تشكرني أيضاً: «كم أحبّ حجارة الفيروز!» أجبتها قائلاً: «لاتدعي هذه تموت»، وأنا أستودعها هكذا كما أفعل مع حجارة، مستقبل صداقتنا التي لم تكن أكثر قدرة على الإيحاء لـ «ألبيرتين» بشعور معين ممّا سبق أن كانت للحفاظ على العاطفة التي كانت تجمعني بـ «جيلبيرت» فيما مضى.

وقد برزت في تلك الفترة ظاهرة لاستحقّ الذكر إلا لأننا نلقاها في حقب التاريخ الهامة كافة. ففي اللحظة ذاتها التي كنت أكتب فيها لـ «جيلبيرت» كان السيّد «دوغير مانت» يفكر، وهو بعد عائد من الحفلة الراقصة ولا يزال يعتمر خوذته، أنه سيضطرّ في الغد إلى لبس الحداد رسمياً، فقرّر تقديم موعد الاستشفاء بالحمة الذي كان عازماً على القيام به ثمانية أيام. وحينما عاد منه بعد ثلاثة أسابيع (واستباقاً للأمر بما أنني أنهيت منذ قليل فقط رسالتي لـ «جيلبيرت») كان أن عقدت الدهشة ألسنة أصدقاء الدوق الذين سبق لهم أن رأوه، وهو في البداية شديد اللامبالاة، ينقلب مناهضاً شرساً لـ «دريغوس»، حينما سمعوه يبيهم (وكأنتما لم يفعل الاستشفاء فعله في المثانة فحسب): «حسن! سوف يعاد النظر في الدعوى وتعلن براءته، فليس يمكن الحكم على رجل غير مطلوب في أمر. هل رأيتم قطّ خرفاً على شاكلة «فروبيرفيل». هذا ضابط يعدّ الفرنسيين للمذبحة (ويقصد الحرب). ما أغربه عصر هذا وإن الدوق «غير مانت» كان تعرّف في منطقة المياه في تلك الأثناء إلى ثلاث سيّدات فانتات (أميرة إيطالية وشقيقتي زوجها). فإذا سمعته الدوق يقلن بضع كلمات حول الكتب التي يقرأنها ومسرحية يجري تمثيلها في الكازينو أدرك في الحال أنه يتعامل مع نساء رفيعات الثقافة وأنه لم يكن معهن، كما يقول، في موقع قوة. وقد ازداد من جرّاء ذلك سعادة أن دعتة الأميرة للعب البريدج. ولكنّه ماأن وصل إلى منزلها، وإذ كان يقول لها في حماسة مشاعره المعادية لـ «دريغوس» عداً قاطعاً: «عجياً، ما عادوا يحدثونا عن إعادة النظر في قضية «دريغوس» الذائع الصيت»، حتى تعاضمت دهشته لدى سماعه الأميرة وشقيقتي زوجها يقلن: «ما كانوا في يوم بمثل قريبهم من ذلك، فلا يمكن الاحتفاظ بمن لم يفعل شيئاً في السجن». وتمتم الدوق بادئ الأمر قائلاً: «ماذا؟ ماذا؟» كأنما لدى اكتشاف لقب غريب يستخدم في هذا المنزل للاستهزاء بشخص خالّه حتى ذاك ذكياً. ولكن الدوق بعد عدّة أيام، ومثلما بصرخون من جبن وروح تقليد قائلين دون أن يعرفوا السبب: «هيه، يا «جوجوت»! لفنان كبير يسمعون من يطلق عليه هذه التسمية في هذا المنزل، كان يقول، ولا يزال مرتبكاً جداً جرّاء العادة الجديدة: «بالفعل، إن لم يكن اقترف

ذنباً». كانت السيدات الفاتنات الثلاث يرين أنه لا يتقدم بسرعة كافية ويعتقنه بعض الشيء: «ولكن مامن شخص ذكي في الأساس استطاع أن يظن ثمة شيئاً». وفي كل مرة تجري فيها واقعة «دافعة» ضد «دريفوس» ويمضي الدوق لينقل إليهن الخبر ظناً منه أن ذلك سيرد للطريق القويم السيدات الثلاث الفاتنات كن يضحكن كثيراً ولا يجدن مشقة في أن يبرهن له برهافة كبيرة في الجدل أن الحجة غير ذات بال ومضحكة تماماً. وقد عاد الدوق إلى باريس مناصراً مهووساً بـ«دريفوس». نحن لانزعم بالتأكيد أن السيدات الفاتنات الثلاث لم يكن في هذه الحالة رسولات حقيقية. ولكننا يجب أن نلاحظ أنه يتفق في كل عشر سنوات، بعدما تركنا رجلاً تعمر صدره قناعة حقيقية، أن يدخل في صحبته زوجان ذكيان أو سيّدة فاتنة وحيدة وأن يصار به بعد انقضاء بضعة شهور إلى آراء مناقضة. وثمة الكثير من البلدان تتصرف تصرف الرجل الصادق بصدد هذه النقطة، الكثير من البلدان التي تركناها تعمر ديارها الكراهية لشعب والتي غيرت بعد ستة أشهر من مشاعرها وقلبت أحلافها.

ماعدت رأيت «ألبيرتين» بعض الوقت ولكنني واطبت، في غياب السيّدة «دو غير مانت» التي لم تعد تحرك خيالي، على زيارة فاتنات أخريات ومساكنهن وهي لا تنفصل عنهن مثلما لا ينفصل الصفيق الذي من صدف أو مينا أو برج الصدف المحرز عن الرخوة التي صنعتها وتحتمي في داخله. ولعلني ماكنت أستطيع تصنيف تلك السيدات، فصعوبة المسألة ناجمة عن أنها تافهة بقدر ما يستحيل حلّها، ناهيك عن طرحها. كان لا بدّ قبل السيّدة من الوصول إلى الفندق الساحر. وبما أن إحداهن تستقبل كل يوم بعد الغداء على مدى أشهر الصيف كان لا بدّ، حتى قبل الوصول إلى منزلها، من إنزال غطاء العربّة لشدة ماتسفع الشمس التي سوف تداخل ذكراها، دون أن أكون انتبهت للأمر، الانطباع الكلي. كنت أظن فقط أنني ذاهب إلى «كور لارين»، فيما أحسّ في الواقع قبلما أصل إلى الاجتماع الذي ربما كان سخر منه رجل عملي، أحس مثلما في رحلة عبر إيطاليا، بانبهار وملاذ لن ينفصل الفندق عنها من بعد في ذاكرتي. أضف أن السيّدة، بسبب الحرّ الناجم عن الفصل والساعة، كانت قد أحكمت إغلاق المصاريع في صالات الطابق الأرضي المستطيلة الفسيحة حيث يجري استقبالها. كنت بادئ الأمر لا أتعرف تماماً ربة المنزل وزوّارها وحتى الدوقة «دو غير مانت» التي كانت تطلب إليّ بصوتها الأجرى للجلوس بجانبها في مقعد متجدّ بقماش «بوفيه» يمثل «اختطاف أوروبا». ثم أبصرت على الجدران السجّاد الحائطيّ الواسع الذي من القرن الثامن عشر ويمثّل سفناً بصور تزهّر عليها ورود الخطمي ووجدتني تحتها وكأني لا في قصر «السين» بل في قصر «نبتون» على ضفة نهر أوقيانوس حيث تنقلب الدوقة «دو غير مانت» وكأنّها واحدة من آلهات المياه. ولو عددت جميع القصور المختلفة عن هذا لما انتهيت. والمثال كافٍ ليظهر أنني كنت أضمن أحكامي المجتمعية انطباعات شعريّة ماكنت أدخلها البتّة في الحساب حينما أقوم بالجمع حتى أنني حينما كنت أحسب فضائل إحدى الصالات لم يكن جمعي صحيحاً البتّة.

أجل لم تكن أسباب الخطأ تلك هي الوحيدة ولكننا لا يتسع الوقت من بعد، قبل سفري إلى «بالبيك» (حيث سأقضي لسوء حظي، فترة ثانية سوف تكون الأخيرة أيضاً)، كيما أبدأ برسم لوحات للناس سوف تجد مكاناً لها بعد هذا بكثير. دعنا نقول فقط إن «أوديت» كان يمكن أن تضيف إلى هذا السبب الأول الكاذب (حياتي الطائشة نسبياً والتي تقود إلى افتراض حبّ أمور الدنيا) لتسطير رسالتي لـ«جيبيرت» ومايدو أنه يشير

إلى عودة إلى عائلة «سوان»، سبباً ثانياً هو كالأول غير صحيح. وإني لم أتخيل حتى الآن الوجوه المختلفة التي يتخذها العالم بالنسبة إلى الشخص نفسه إلا بافتراض أن العالم لا يتغير: فإن يتفق للسيدة نفسها التي ما كانت تعرف أحداً ارتياد مطارح كل الناس فيما تهجر سيدة أخرى كانت تملك موقفاً أساسياً استهواناً أن لا نرى في ذلك سوى تقلبات محض شخصية من صعود وهبوط تفضي بين حين وآخر وفي ذات المجتمع على إثر مضاربات في البورصة إلى سقوط مدو أو إثراء يجاوز الآمال. بيد أن الأمر ليس هذا فحسب، إذ تبدو التظاهرات المجتمعية (وهي أدنى كثيراً من الحركات الفنية والأزمات السياسية والتطور الذي يحول الذوق العام وجهة المسرح الفكري، ثم إلى الرسم الانطباعي، ثم إلى الموسيقى الألمانية والمعقدة، ثم إلى الموسيقى الروسية والبسيطة، أو وجهة الأفكار الاجتماعية وأفكار العدالة والردة الدينية والانتفاضة الوطنية) انعكاساً لها بعيداً مهشماً غامضاً مضطرباً متغيراً. حتى الصالونات إذاً لا يمكن وصفها في جمود ساكن استطاع حتى الآن أن يناسب دراسة الطباع التي ينبغي لها هي الأخرى أن تنساق في حركة شبه تاريخية. إن حب الجديد الذي يدفع رجال المجتمع، يمتنعون بصدق كثير أو قليل الاطلاع على التطور الفكري، إلى التردد على الأوساط التي يستطيعون أن يتابعوا فيها ذاك التطور، يجعلهم يفضلون عادة ربة منزل مجهولة حتى ذلك وتمثل آمالاً لاتزال يانعة تماماً في ذهنية متفوقة، آمالاً ذهبت وبهتت لدى النساء اللواتي زاولن منذ فترة طويلة السلطة المجتمعية واللواتي يعرفون نقاط القوة والضعف لديهن فلا يثرن من بعد خيالهم. وهكذا تجد كل عصر مشخصاً في نساء جديديات، في جماعة جديدة من النساء اللواتي يبدن، بارتباطهن الوثيق بكل ما يستثير صنوف الفضول الأكثر جذّة، وكأنهن بأثوابهن يظهرن في تلك الفترة فقط بمثابة جنس مجهول نجم عن آخر طوفان، ونساء ذوات جمال لا يقاوم في كل فترة «فصلية» جديدة وكل فترة «مديريين» جديدة. لكن ربّات المنازل الجديدة ماهن في الغالب، شأن بعض رجال دولة في أول وزارة لهم، وهم كانوا منذ أربعين عاماً يقرعون جميع الأبواب دون أن تفتح لهم، سوى نساء ماكن معروفات في المجتمع ولكنهن يستقبلن مع ذلك منذ زمن طويل بعض «الخلص القليلين» لغيباب الحل الأفضل. ليست الحال بالطبع كذلك على الدوام، فحينما ظهرت، مع الازدهار الهائل الذي شهدته فرق الباليه الروسية والذي أبرز على التوالي «باكست» و«ينجسكي» و«بونوا» وعبرية «سترافنسكي»، حينما ظهرت الأميرة «يوريليتيف» ، العراة الشابة لسائر هؤلاء الرجال العظام الجدد، تبضع على رأسها ضمة ريش واسعة خفاقة لاتعرفها الباريسيات وحاولن كلهن تقليدها، أمكن الظن بأن هذه الخلقة الرائعة قد جاء بها الراقصون الروس في أمتعتهم التي لا تحصى وكأنما هي أثمن كنز لديهم. ولكننا حينما سنبصر إلى جانبها، في مقدمة المسرح وفي سائر عروض «الروس»، السيدة «فيردوران» تجلس مثل جنية حقيقية وهي مجهولة حتى هذا اليوم من جانب الأرستقراطية فسيمكنا أن نجيب الجماعات الراقية التي ستظن بيسر أن السيدة «فيردوران» قد وصلت منذ فترة قريبة مع فرقة «دياغيليف»، نجيها أن هذه السيدة سبق أن وجدت في أزمنة مختلفة ومزّت بتحوّلات مختلفة لا يمتاز عنها هذا التحول إلا بأنه الأول الذي يحمل إليها أخيراً النجاح الذي طالما انتظرته «المعلمة» وعبثاً فعلت، وقد أصبح منذ الآن مؤكداً يسير متسارع الخطى. أما فيما يخص السيدة «سوان» فالصحيح أن الجدة التي كانت تمثلها لم تكن تتسم بالطابع الجماعي نفسه. فقد تبلورت صالتها حول رجل، رجل على شفا الموت انتقل دفعة واحدة تقريباً، في اللحظات التي استنفدت فيها موهبته، من العتمة إلى قمة المجد. لقد كان التهافت على آثار «بيرغوت» عظيماً لاحت له. كان يمضي كامل

نهاره في الصدارة في منزل السيِّدة «سوان» التي كانت تهمس في أذن رجل ذي نفوذ: «سوف أكلمه وسيجهر لك مقالة». لقد كان بآية حال قادراً على فعل ذلك وحتى على مشهد صغير للسيِّدة «سوان». كانت صحته أقل سوءاً، وهو أقرب إلى الموت، منها في الفترة التي كان يجيء فيها مستطعماً أخبار جدتي. ذلك لأن آلاماً جسدية كبيرة فرضت عليه الحمية؛ والمرض أكثر من يصغى إليه من الأطباء: فالمرء إزاء الطببة والمعرفة لا يتوقف عن الوعود ولكنه يطيع الألفم.

صحيح أن عشيرة آل «فيردوران» الصغيرة كان لها الآن اهتمام حيّ يختلف عما كانت عليه الصالة ذات النزعة القومية بعض الشيء، بل الأدبية إلى ذلك والبيرغوتية قبل كل شيء. فقد كانت العشيرة الصغيرة مركزاً نشطاً لأزمة سياسية طويلة بلغت أقصى شدتها، عينا «الديفوسية». ولكن أهل المجتمعات كانوا في غالبيتهم معارضين لإعادة النظر في الدعوى إلى حدّ تبدو معه الصالة الديرافوسية شيئاً بمثل استحالة صالة تساند «الكومونه» في عصر آخر. صحيح أن الأميرة «دو كايرا رولا» التي سبق أن تعرّفت إلى السيِّدة «فيردوران» بمناسبة معرض كبير نظّمته قد قامت بزيارة طويلة لهذه الأخيرة أملاً في إغواء بعض العناصر من ظرفاء العشيرة الصغيرة وفي ضمهم لصالتها الخاصة، زيارة اتّخذت الأميرة في غضونها (مؤدية بذلك دوراً مصغراً لأمثال الدوقة «دو غير مانت») عكس الآراء الشائعة وأعلنت أن من يؤلفون عالمها أغبياء، وقد رأت السيِّدة «فيردوران» في ذلك شجاعة كبيرة. ولكنما لم تبلغ بها تلك الشجاعة فيما بعد حدّ التجرؤ على تحية السيِّدة «فيردوران» في ميدان سباق «باليك» بمواجهة سهام تنطلق من ألحاح سيّدات قوميات. أمّا فيما يخص السيِّدة «سوان» فقد كان مناهضو «ديفوس» يقرّون على العكس بفضلها أن تكون «مستقيمة الرأي» وإن لها بذلك، وهي زوجة ليهودي، فضلاً مزدوجاً. ومع ذلك فالذين لم يسبق لهم أن ذهبوا مرة إلى منزلها كانوا يتخيّلون أنها تستقبل فحسب بعض اليهود المغموين وتلاميذ لـ «بيرغوت». ويصفّون على هذا النحو نساء يتمتعن بكفاءات أرفع من السيِّدة «سوان» في آخر درجة من السلم الاجتماعي إمّا بسبب منبتهن، وإمّا لأنهن لا يملن إلى الأعشية في المدينة والأسيات التي لا يشاهدن فيها البتة، والأمر يظنونه خطأ، ناجماً عن أنهن ربّما لم يدعين، وإمّا لأنهن لا يتحدثن البتة عن صداقاتهن المجتمعية بل يقتصرن على الأدب والفنّ، وإمّا لأنّ الناس يطلبون الخفية لارتياذ منازلهن أو يبتغون الخفية لاستقبالهن كي لا يرتكبوا وقاحة إزاء الآخرين، وأخيراً لألف من الأسباب تجعل في النهاية من هذه أو تلك من يبنهن في نظر بعض منهم المرأة التي لا يستقبلونها. تلك كانت الحال بالنسبة إلى «أوديت». ولما وقع لى السيِّدة «ديينوا»، بمناسبة دفعة كانت ترغب في تأديتها لرابطة «الوطن الفرنسي»، أن تذهب لزيارتها، كما لو أنها تدخل إلى دكان عقّادتها، وهي بأي حال على يقين من أنها لن تلقى سوى وجوه هي حتى غير محتقرة ولكنها مجهولة، لبثت مسمرة في مكانها حينما انفتح الباب لأعلى الصالة التي كانت تفترضها بل على قاعة سحرية تعرّفت فيها، وكأنما بفضل تبدل يتم حين الطلب في مشهد سحري، تعرّفت عبر ممثلات صامتات فانتات، صاحبات السمو والدوقات نصف ممدّات على دواوين، جالسات على كنبات، ينادين على ربة المنزل باسمها، هنّ اللواتي كانت تصادف هي نفسها، أميرة «ديينوا»، عنتاً عظيماً في اجتذابهن إلى منزلها واللواتي كان المركيز «دي لو» والكونت «لويس دو تورين» والأمير «بورغيز» والدوق «ديستريه»، وهم يحملون شراب البرتقال ومحّمصات الحلوى، يقومون في هذه اللحظة

لديهنّ مقام حمالي الخبز والسقاة. ولما كانت الأميرة «ديبنوا» تضع، دونما انتباه للأمر، الصفة المجتمعية في داخل الأشخاص فقد اضطرت أن تنزع عن السيدة «سوان» مظهرها الجسماني وتعيد تجسيدها في امرأة أنيقة. وهكذا يلقي الجهل بالحياة الحقيقية التي تحياها نساء لا يعرضنها في الصحف حجاً من الأسرار فوق بعض الحالات (مسهماً بذلك في تنويع الصالات). فإنه فيما يخص «أوديت» أقبل بادئ الأمر بضعة رجال من أرقى طبقات المجتمع للعشاء في منزلها في جو حميم وبهم توق إلى التعرف بـ«بيرغوت». وقد أبدت من حسن الذوق الذي اكتسبته مؤخراً محال دون أن تنشر الأمر على الملأ. هنا كانوا يجدون المائدة ممدودة - والأمر ربما يذكر بالنواة الصغيرة التي حافظت «أوديت» منذ الانشقاق على تقاليدها. كانت «أوديت» تمضي بهم بصحبة «بيرغوت» إلى «العروض الأولى» المثيرة - وهو ما كان يرجّ له في النهاية الضربة القاضية. وحكوا عنها لبعض نساء من محيطهم قدرات على صرف انتباههن إلى هذا القدر من الجدة. كنّ متيقنات أن «أوديت»، وهي في سر «بيرغوت»، ساهمت في كثير أو قليل في مؤلفاته ويظنّنها أدكى ألف مرة من أبرز نساء «البحي» للسبب نفسه الذي من أجله يعلّقن كامل آمالهنّ السياسية على بعض الجمهوريين «الثابتي اللون» من أمثال السيد «دومر» والسيد «ديشانيل»، فيما يرين فرنسة في الدرك إن عهد بها إلى الجماعة الملكية التي يستقبلنها على العشاء من أمثال «شاريت» و«دودوفيل»، الخ هذا التبدل في وضع «أوديت» كان ينجز من جانبها بتكتّم يجعله مؤكداً أكثر وأكثر سرعة ولكنه لا يفسح للجمهور أن يرتاب بأمره، الجمهور الميال إلى الاتكال بشأن تقدّم صالة أو انحطاطها على أبناء صحيفة «الغالي» حتّى كانت ذات يوم، في عرض تمهيدي لمسرحية لـ«بيرغوت» جرى في قاعة من أكثرها أناقة لصالح أحد الأعمال الخيرية، مفاجأة حقيقية حينما شهدوا في المقصورة المواجعة، وكانت مقصورة المؤلف، السيدة «دو مارصانت» تقبل وتجلس بجانب السيدة «سوان» ومعها تلك التي كانت في سبيلها لتصبح اللبوة وملكة العصر، الكونتيسة «موليه»، وذلك من جرّاء التحجّي التدريجي للدوقة «دو غير مانت» (التي أشبعت تكريماً وقضت على نفسها عن طريق الجهد الأقل). «حين كنّا حتّى لا نرتاب بأنّها باشرت دربها الصاعد» يقولون فيما بينهم عن «أوديت» إذ يشاهدون الكونتيسة «موليه» في المقصورة، «لقد اجتازت آخر درجة» وكان بوسع السيدة «سوان» حتّى أن تعتقد أنّي كنت أتقرب من ابنتها بدافع السنيوية. وعلى الرغم من صديقات «أوديت» المتألفات فإنّها لم تكن أقلّ إصغاء للمسرحية وابتهاه شديد كما لو أنّها كانت هناك مجرد أن تسمعها، مثلما كانت تجتاز بالأمس «الغابة» لداع صحتي وإجراء التمارين. وإذا برجال، وكانوا بالأمس أقلّ استعجالاً من حولها، يقبلون إلى «البلكون» وهم يزعمون الجميع ليتعلّقوا بيدها بغية الاقتراب من الوسط المهيب الذي يحيط بها. أمّا هي فكانت تجيب بابتسامة لانتزال أقرب بالأحرى إلى اللطف منها إلى السخريّة، تجيب بطول أناة عن أسئلتهم وتتصنّع هدوءاً يفوق مألهم كانوا يظنّون وربما كان صادقاً إذ لا يعدو هذا العرض المتباهي كونه عرضاً متأخراً لألفة معتادة أبقيت طي الكتمان. كان وراء هاتيك السيدات الثلاث اللاتي يجتذبن الأنظار كلّها «بيرغوت» يحيط به أمير «أغريجان» والكونت «لويس دو تورين» والمركز «دو بريوتيه». ومن اليسير، بالنسبة إلى رجال كانوا موضع ترحيب في كلّ مكان ولا يمكن أن يتوقعوا ازدياداً في الرفعة إلا من البحث عن المبتكر، أن ندرّك أنّ هذا الإبراز لقيمتهم والذي يظنّون أنّهم يقومون به إذ يفسحون المجال لتجذّبهم ربة منزل اشتهرت بمستواها الفكري الرفيع ويتوقعون أن يلتقوا عندها سائر المؤلفين المسرحيين والروائيين الرائجين إنّما كان أشدّ إثارة وحيوية من تلك الأمسيات في منزل الأميرة



«دو غير مانت» والتي كانت تتوالى منذ سنوات كثيرة دون أي برنامج أو جاذب جديد، وهي شبيهة في كثير أو قليل بهذه التي أقدمنا على وصفها وصفاً مفصلاً. وفي هذا العالم الكبير، عالم آل «غير مانت» الذي كان الفضول يعرض عنه قليلاً، لم تكن الصيغ الفكرية الجديدة تتجسد تسلياً على صورتهم ومثالهم، مثلما في هذه المقطوعات الشعرية الخفيفة التي يكتبها «بيرغوت» للسيدة «سوان»، ومثلما في جلسات «الإنقاذ العام» الحقيقية التي يجتمع فيها في منزل السيدة «فيردوران» «بيكار» و«كليمنصو» و«زولا» و«ريناك» و«لابوري» (لو كان وسع العالم أن يهتم بقضية «دريفوس»).

كانت «جيلبيرت» ذات فائدة كذلك في أوضاع والدتها، فإن عمّا لـ «سوان» خلف منذ قليل للفتاة زهاء ثمانين مليون فرنك، الأمر الذي جعل حيّ «سان جيرمان» يشرع في التفكير بها. أمّا قفا الميدالية فإن «سوان»، وهو مشرف على الموت بأيّ حال، كان يجهر بأراء مناصرة لـ «دريفوس»، ولكن ذلك ما كان يمسّ زوجته بل كان يخدم مصلحتها. وما كان الأمر يمسّها إذ كانوا يقولون: «إنّه خرف غبي ولا يهتم أحد به وليس ثمة سوى زوجته يحسب حسابها وهي رائعة». حتى نزعة «سوان» الدريفوسية كانت مفيدة لـ «أوديت». فلعلّها كانت سمحت لنفسها، لو تركت وماتريد، أن تقوم بمحاولات تقرب من النساء الأنيقات تقودها إلى التهلكة. ففي العشيات التي كانت تجرّ فيها زوجها للعشاء في حيّ «سان جيرمان» كان «سوان»، وهو قابع بعنف في زاويته، لا يجد حرجاً، أن رأى «أوديت»، تطلب تعريفها بسيدة قومية النزعة، في أن يقول بصوت عالٍ: «ويحك يا «أوديت» إنك مجنونة، ورجائي أن تحافظي على هدوئك. فإنما تفاهة منك أن تطلبي تعريفك بمناهضين للسامية. إنني أمتنع من ذلك». وجماعة المجتمع الراقي التي يلثّث الكلّ خلفها لم تتعود لا هذا القدر من العزة ولا هذا القدر من سوء التهذيب، فهي تشهد للمرة الأولى شخصاً يظنّ نفسه «أكثر منهم». كانوا يتناقلون غمغمات «سوان» تلك فتنها البطاقات على منزل «أوديت». وحينما تكون هذه في زيارة إلى منزل السيدة «دارياجون» تقوم حركة نشطة محببة يثيرها الفضول. كانت السيدة «دارياجون» تقول: «لم يزعجك أنني عرفتك بها، إنها لطيفة جداً. «ماري مارصانت» هي التي عرفتني بها» - «بالطبع لا، بالعكس، ويبدو أنها من أكثرهن ذكاء وهي رائعة. كنت أرغب على العكس لقاءها؛ هيّا قولي لي أين تسكن». كانت السيدة «دارياجون» تقول للسيدة «سوان» إنها وجدت أعظم التسلية لديها قبل البارحة وقد هجرت بسرور السيدة «دوسانتوفيرت» من أجلها. وكان ذلك صحيحاً لأن تفضيل السيدة «سوان» إنما تبدي به أنك ذكيّ مثلما ذهابلك إلى حفلة موسيقية بدلاً من الذهاب إلى حفلة شاي. ولكن حينما كانت السيدة «دوسانتوفيرت» تجيء إلى منزل السيدة «دارياجون» ساعة مجيء «أوديت»، ولما كانت السيدة «دوسانتوفيرت» على قدر من السنوية كبير وكانت السيدة «دارياجون» حريصة على حفلات استقبالها مع أنها تعاملها ببعض الاستعلاء لم تكن السيدة «دارياجون» تعرف بـ «أوديت» كي لا تعلم السيدة «دوسانتوفيرت» من عساها تكون. كانت المركيزة تتصور أنها لا بد أميرة ما نادرة الزيارات كي لا تكون شاهدها في يوم، فطيل من زيارتها وتردّ رداً غير مباشر على ماثقوله «أوديت»، ولكن السيدة «دارياجون» ظلت لاتلين. وحينما تمضي السيدة «دوسانتوفيرت» وقد غلبت على أمرها كانت سيّدة المنزل تقول لـ «أوديت»: «لم أقدمك لأنهم لا يودون كثيراً الذهاب إلى منزلها وهي كثيرة الدعوات وماكنت ربما تستطيعين التخلص منها». فتقول «أوديت» بشيء من الأسف: «آه!

لا أهمية لذلك». ولكنها كانت تحتفظ بالفكرة التي مفادها أنهم لا يودون ارتداد منزل السيدة «دوسانتوفيرت»، والأمر صحيح إلى حد ما، فستخلص من ذلك أنها تتمتع بموقع يفوق كثيراً موقع السيدة «دوسانتوفيرت» مع أن هذه الأخيرة تملك موقعاً عظيماً جداً ولا تملك «أوديت» شيئاً منه.

ولم تكن تنتبه للأمر، ومع أن صديقات السيدة «دو غير مانت» كافة كن يرتبطن بصداقة مع السيدة «دار باجون» فإنه حينما كانت هذه الأخيرة تدعو السيدة «سوان» كانت «أوديت» تقول بلهجة المتحسب: «إني ذاهبة إلى منزل السيدة «دارباجون»، ولكننا ستلقونني من نمط قديم جداً، والأمر يصدمني بسبب السيدة «دو غير مانت» (التي ماكانت تعرفها على أي حال). كان الرجال اللامعون يظنون أن معرفة السيدة «سوان» لعدد قليل من عالم المجتمع الراقى مردها أنها لابد كانت امرأة متفوقة وربما كانت موسيقية عظيمة وأنه لضرب من الألقاب التي من خارج المجتمع الراقى أن يذهب المرء إلى منزلها، كما هو بالنسبة إلى دوق أن دكتوراه في العلوم. أما النساء العديمت الكفاءة تماماً فكان يجذبهن إلى «أوديت» سبب معاكس. فقد كنا يستخلصن، وقد علمن أنها تذهب إلى حفلات «كولون» الموسيقية وتعلن أنها من أنصار «فاغنر»، أنها لابد «مهرجة» فتستثيرهن إلى أبعد حد فكرة التعرف إليها. ولكنهن يخشين، وهن قليلات الوثوق بوضعهن الخاص، أن يتعرضن للشبهة علانية لما يبدو أنهن يرتبطن بـ «أوديت»، فإن شاهدن السيدة «سوان» في حفلة موسيقية خيرية أشحنن بأبصارهن إذ يرين من المستحيل إلقاء التحية تحت سمع السيدة «دوروششوار» وبصرها على امرأة بمقدورها تماماً أن تكون ذهبت إلى «بايروت» - وذلك يعني ارتكاب «السبعة ومابذمتها».

كان كل شخص في زيارة لدى آخر يضحي مختلفاً. فقد كان السيد «دوبريوتيه»، بصرف النظر عن التحولات الخارقة التي تجري على هذا النحو لدى الجنيات، وقد برز فجأة من جرائ غياب الناس الذين يحيطون به عادة، ومن جرائ الهيبة الراضية التي يتخذها إذ يلغي نفسه هنا في مثل حسن حاله لو وضع نظاريته المستديرتين ليختلي في قراءة «مجلة العالمين» بدلاً من الذهاب إلى حفلة، ومن جرائ الطقس الغامض الذي يبدو أنه يمارسه في مجيئه لزيارة «أوديت»، كان السيد «دو بريوتيه» نفسه في صالة السيدة «سوان» إنساناً جديداً. ولعلني كنت أعطي الكثير لأرى صنوف التحول التي كانت أصابت الدوقة «دومنمورانسى» - لو كسمبور» في هذا الوسط الجديد. ولكنها كانت من قوم لا إمكان البتة في تعريف «أوديت» بهم. كانت السيدة «دومنمورانسى»، وهي أكثر تسامحاً إزاء «أوريان» من هذه إزاءها، تدهشني كثيراً إذ تقول لي بشأن السيدة «دو غير مانت»: «إنها تعرف أناساً ظرفاء والجميع يحبونها وأعتقد أنها لو اتفق لها قدر أكبر من المثابرة لأفلحت في أن تكون لها صالة. والحقيقة أنها ماكانت حريصة على ذلك، وهي على حق، فهي سعيدة على هذا النحو إذ يسعى الجميع إليها». وإن لم يكن لدى السيدة «دو غير مانت» «صالة» فما عسى أن تكون «الصالة» إذا؟ ولم تكن الدهشة التي خلقتني فيها تلك الكلمات أكبر من تلك التي سببتها للسيدة «دو غير مانت» وأنا أقول لها إني كنت أود كثيراً الذهاب إلى منزل السيدة «دو مومورانسى»، فقد كانت «أوريان» ترى أنها عجوز بلهاء وتقول: «أما أنا فمرغمة على ذلك فهي عمتي، أما أنت! إنها حتى لا تعرف كيف تستقطب الناس الظرفاء». وما كانت السيدة «دو غير مانت» تنتبه إلى أن الناس الظرفاء ماكانوا يحركون في ساكنات وأني حينما كانت تقول لي «صالة أرياجون» كنت أرى فراشة صفراء، أو «صالة صوان» (وكانت

السيدة «سوان» في منزلها شتاءً من السادسة إلى السابعة) ففراشة سوداء يطنّ جناحيها الثلج. مع أنّ هذه الصالة الأخيرة، وماهي من الصالة بشيء، إنّما كانت ترى فيها، على الرغم من كونها بعيدة المائل بالنسبة إليها، عذراً لي بسبب «جماعة الظرفاء» أمّا السيدة «دو لوكسمبور»! فلعلّها كانت خلّصت، لو سبق أن «أنتجت» شيئاً لفت الأنظار، إلى أن شيئاً من السنوية يمكن أن يقترن بالمهوبة. وبلغت بخبيتها أقصى حدّ لها فأقررت أنني ماكنت أمضي إلى منزل السيدة «دو مونمورانسي» (حسبما تظنّ) من أجل «تدوين ملاحظات» و«القيام ببحث». وما كانت السيدة «دو غيرمانت» بأيّ حال على خطأ أكثر من روائي «الاجتماع الراقي» الذين يحللون من الخارج أفعال سنويّ أو مايزعمون أنّه كذلك تحليلاً قاسياً، ولكنهم لا يقيمون البتّة داخله، في الوقت الذي يزهر فيه في الخيلة ربيع اجتماعيّ كامل. حتّى أنا أصبت بشيء من الخيبة حينما أردت أن أعلم آية متعة كبيرة إلى هذا الحدّ كنت أصيب من ذهابي إلى منزل السيدة «دو مونمورانسي». فقد كانت تقطن، في حيّ «سان جيرمان»، مسكناً قديماً مليئاً بأجنحة تفصل بينها حدائق صغيرة. وكان تحت القبة تمثال صغير، يقولون من أعمال «فالكوني»، يمثّل نبعا تنقّطر منه، على أيّ حال، رطوبة دائمة. وعلى مسافة قليلة منه كانت البوابة بجرم عينيها الدائم إما من غمّ أو وهن عصبيّ أو شقيقة أو رشح، ولا تجيبك البتّة بل تقوم بإشارة غامضة تنبئ بأن الدوقة موجودة وتدع لبضع قطرات أن تتساقط من جفنيها فوق كأس مليء يزهر «لاتسنسي». كانت المتعة التي أصيبتها من مشاهدة التمثال الصغير، لما يذكّرني ببستانيّ صغير من الجبس كان قائماً في إحدى حدائق «كومبريه»، هيّة لا تذكر في مقابل مايعثّ فيه من متعة الدرج الكبير الرطب الداوي المليء بالأصداء الشبيه بدرج بعض منشآت الحمامات القديمة ذات المزهرات المليئة بزهر الرماديّ- زرقه فوق زرقه- في الردهة، وعلى وجه الخصوص رنين الجرس الصغير الذي يشبه بالضبط الرنين المنبعث من غرفة «أولالي». كان ذلك الرنين يبلغ بي أقصى درجات الحماسة ولكنما يبدو لي أكثر تواضعاً من أن أستطيع إيضاحه للسيدة «دو مونمورانسي»، إلى حدّ أن تلك السيدة كانت تراني دوماً في نشوة لم تكشف في يوم سببها.

## تقلّبات الفؤاد

كان حلولي الثاني في «بالبيك» مختلفاً عن الأوّل، فقد جاء المدير شخصياً ينتظرني في «بون لاكولوفر» وهو يردّد كم كان حريصاً على زيارته «الملقّبين»، الأمر الذي جعلني أخشى أن يضعني في طبقة الأشراف إلى أن أدركت أن «الملقّب» كان يعني في عتمة ذاكرته القواعديّة «الرسمي». لقد كان على آية حال كلّمّا تعلم لغات جديدة ازداد تحدّته بالقديمة سوءاً. وقد بلغني أنّه أنزلني أعلى قسم في الفندق وقال: «أمل أنّك لن ترى في ذلك «قلّة عدم تهذيب» وقد أزعجني أن أعطيك غرفة «أنت غير أهل لها»، ولكنّي فعلت «للصلة بالضجيج»، فهكذا لن يكون فوقك أحد ليخزق صملاخ (يقصد صماخ) أذنك. اطمئن، سأمر بإغلاق النوافذ كي لا تصططق، فإني بهذا الخصوص «لا أطاق» (لم تكن هذه الكلمات تعرب عن فكره إذ هو يقصد أنّهم سيجدون دوماً «لا يطبق غير ذلك»، ولكنها ربّما أعربت عن فكر خدّمه في الطوابق). كانت الغرف في جميع الأحوال غرف إقامتي الأولى نفسها، فلم تكن أدنى منها، ولكنّها ارتفعت أنا في نظرة المدير إليّ. ويمكنني أن أمر بالتشغيل إن راقتني الأمر (لأنّني قد رحلت منذ عيد الفصح عملاً بأمر الأطباء) ولكنّه يخشى أن يكون ثمة

«شَقَات» في السقف. «وانتظر دوماً على وجه الخصوص» من أجل إشعال «وجبة» أن تكون السابقة استهلكت (أي رُمِدَت). فالمهم أن تتجنَّب إحراق الموقد ولاسيما أنني جعلت فوقه لإشاعة البهجة «مستعارة» (آنية) صينية كبيرة وقديمة ويمكن أن تلحق بها الأذى».

وأعلمني بكثير من الأسى بموت نقيب محامي «شيربور»: «كان رجلاً روتينياً»، يقول، (ويعني على الأرجح محكماً) ويفهمني أن نهايته عجلت فيها حياة كلها خيبات، ويعني كلها مجون «سبق منذ بعض الوقت أن لاحظت أنه كان «يخبو» قليلاً في الصلاة (يريد دون شك أن يقول يغفو). لقد تأخر في الفترة الأخيرة كثيراً إلى حد أنك لو لم تعلم أنه هو لكنت إذ تراه لاتعترف به (ويقصد دون شك لاتعرفه).

وكان رئيس «كان» قد قُلت منذ فترة قريبة «وساد» جوقة الشرف من رتبة «كومندور»، والتعويض جاء موفقاً. «من الأكيد الأكيد أنه يتمتع بقدرات ولكنما يبدو أنه منح على وجه الخصوص بسبب «عجزه» الكبير». كانوا يذكرون على أية حال عن هذا الوسام في عدد الأمس من «صدى باريس»، ولم يكن المدير قرأ بعد سوى «النفرة الأولى» (ويقصد الفقرة). وقد حملوا فيه على سياسة السيد «كايو» أيما حملة، فقال: «أرى على أي حال أنهم على حق فإنه يبالغ في وضعنا في موقع تبعية إزاء ألمانيا» (ويقصد «تبعية»). ولما بدا لي هذا النوع من الموضوعات مملاً إذ يعالجه صاحب فندق فقد توقفت عن السماع. كنت أفكر بالصور التي حملتني على العودة إلى «بالبيك»، فقد كانت شديدة الاختلاف عنها فيما مضى، فالصورة التي جئت أبحث عنها كانت جلية بقدر ماكانت الأولى غائمة، وكان لابد أن تحمل لي الخيبة. إن الصور التي تصطفها الذكرى اعتباطية ضيقة لاتدرك مثلما هي تلك التي شكلها الخيال وهدمها الواقع. فليس من سبب كيما يمتلك مكان حقيقي، في خارج ذواتنا، لوحات الذاكرة أكثر منه لوحات الحلم. ثم إن واقعاً جديداً ربما أنسانا، بل كرهنا الرغبات التي سبق أن جئنا بسببها.

أما تلك التي حملتني على الذهاب إلى «بالبيك» فمردها جزئياً أن آل «فيردوران» (الذين لم أفد في يوم من دعواتهم لي والذين سيسعدهم بالتأكد استقبالي إن مضيت إلى الريف أعترض عن أنني لم أستطع قط زيارتهم في باريس) إذ علموا أن عدداً من الخُصُص سوف يقضون العطلة على هذا الشاطئ واستأجروا بسبب ذلك أحد قصور السيد «دو كامبرمير» (لاراسلبير) على مدى كامل الموسم، كانوا قد دعوا إليه السيدة «بوتبوس». وفي المساء الذي علمت فيه بالأمر (في باريس) أرسلت، كممثل مجنون حقيقي، خادمتنا الخاص يستعلم إن كانت تلك السيدة ستصطحب إلى بالبيك وصيفتها. كانت الساعة الحادية عشرة ليلاً. وتأخر البواب كثيراً في فتح الباب ولم يطرد رسولي بأعجوبة ولم يطلب استدعاء الشرطة واكتفى باستقباله أسوأ استقبال فيما كان يزوده بالخبر المطلوب. قال إن الوصيفة الأولى سوف ترافق بالفعل معلمتها إلى حمامات المياه في ألمانيا أولاً، ثم إلى «بياريتز» وأخيراً لدى السيدة «فيردوران». وداخلتني مذاك الطمأنينة وطبت نفساً أن حصلت على مايشغلني. فقد استطعت أن أعفي النفس من تلك المطاردات في الشوارع التي كنت مجرداً فيها لدى الحسان اللواتي أصادفهن من رسالة التعريف التي يمثلها لدى غانية «جورجونه» أن أكون تعشيت في المساء نفسه مع سيدتها في منزل آل «فيردوران». وربما حملت عني، من جانب آخر، فكرة أفضل ساعة

تعلم أنني لا أعرف مستأجري «لاراسيلير» البورجوازيين فحسب، بل مالكيه أيضاً ولاسيما «سان لو» الذي لم يستطع أن يوصي الوصيفة بي عن بعد (إذ هي تجهل اسم «روبير» فكتب بشأنى رسالة تفيض حرارة إلى آل «كامبرمير». كان يظن أنه، إلى جانب الفائدة التي يمكن أن يمثلوها لي، سوف تثير السيدة «دو كامبرمير» اهتمامي في حديثها معي، وهي كنتهم واسمها قبل الزواج «لوغراندان». وكان أكد لي قائلاً: «إنها امرأة ذكية؛ إلى حد ما بالطبع، فلن تفضي إليك بأشياء نهائية» (وكانت الأشياء «النهائية» قد أحلها «روبير» محلّ الأشياء «الفائقة» وكان يبدّل في كلّ خمس أو ست سنوات بعض التعابير المفضّلة لديه فيما يحتفظ بالرئيسية منها)، «إن لها طبيعة مميزة وتملك شخصية لها وحدساً في الأمور وتجد في الوقت المناسب بالكلام اللازم. وهي بين الحين والحين مثيرة للأعصاب وتلقي بالحماقات لتظهر مظهر النخبة، والأمر مثير للسخرية ويزيد منه أن ليس ماكان أقلّ أناقة من آل «كامبرمير» كما أنها ليست على الدوام «ابنة زمانها» ولكنها لاتزال في الإجمال في عداد من كانت عشرتهم الأكثر احتمالاً.

وما إن بلغتهم توصية «روبير» حتىّ شرع آل «كامبرمير»، إمّا بداعي السنيّة التي تجعلهم يرغبون في أن يبدوا لطفاً غير مباشر تجاه «سان لو» وإمّا بداعي عرفان الجميل لما سبق أن أبداه تجاه أحد أبناء أشقائهم في «دونسيير»، وعلى الأرجح خصوصاً بداعي الطيبة وتقاليده الضيافة، شرعوا يكتبون رسائل طويلة تطلب مني السكنى لديهم، وهم على استعداد، إن كنت أفضل استقلالية أكبر، لأن يبحثوا لي عن مسكن. وحينما اعترض «سان لو» بقوله إنني سأقطن في فندق «بالبيك» الكبير، أجابوا أنهم ينتظرون على الأقلّ زيارة حال وصولي، فإن تأخّرت بما يجاوز الحدّ فلن يفوتهم المجيء للملاحقة ودعوتي إلى حفلاتهم الراقصة.

ليس من شكّ أن لم يكن شيء يربط على نحو أساسي وصيفة السيدة «بوتوس» بمنطقة «بالبيك»، فلعلها لن تكون فيها بالنسبة إليّ مثل الفلاحة التي مأكّثر ماطلبتها عيشاً، وأنا وحيد على طريق «ميزيكليز»، بكلّ عنف رغبتني.

لكنني كنت كففت منذ فترة طويلة عن محاولة استخراج الجذر التربيعي للمجهول لدى امرأة والذي ماكان في الغالب يقف في وجه تعريف بها بسيط. على الأقلّ سوف يتفق لي في «بالبيك» التي لم أذهب إليها منذ فترة طويلة هذه الحسنة التي مفادها أن حسّ الواقع، في غياب الصلة الضرورية التي لم تكن موجودة بين البلد وهذه المرأة، لن تلاشيه بالنسبة إليّ العادة مثلما في باريس حيث ماكانت المتعة التي ألقاها بجانب امرأة، إمّا في بيتي الخاص وإمّا في غرفة معروفة، تستطيع أن توليني، مقدار لحظة في قلب الأمور اليومية، الوهم بأنّها تفتح لي درياً إلى حياة جديدة. (فلئن كانت العادة طبيعة ثانية فإنّها تحول دون أن نعرف الأولى التي لا تملك لا صنوف قسوتها ولا ضروب افتتانها). ولكنّ ذاك الوهم ربّما اتّفق لي، أمام شعاع شمس، في بلد جديد يولد فيه الإحساس ثانية وحيث تبلغ بي بالضبط تمام الإثارة الوصيفة التي كنت أشتتها: لكننا سنرى أن الظروف عملت لا على أن لانهي تلك المرأة إلى «بالبيك» فحسب بل على أن لا أخشى شيئاً بمقدار ماأخشى أن يسعها المجيء إليها، حتىّ إن الهدف الرئيسي لرحلتي لم يتحقّق ولا هو لوحق. صحيح أن السيدة «دوبوتوس» ماكانت ستبكر إلى هذا الحدّ في الموسم في مجيئها إلى منزل آل «فيردوران»، ولكنّ هذه المتع التي اخترناها يمكن أن تكون بعيدة إن كان مجيئها مؤكداً واستطعنا بانتظارها أن ننصرف حتىّ ذاك إلى

الكسل في البحث عن الإمتاع وإلى العجز عن الحب. وما كنت أذهب إلى «البليك» على أي حال بعقلية تساوي المرة الأولى في ضعف طابعها العملي؛ وثمة على الدوام أنانية أقل في التخيل الصرف منها في التذكر؛ وكنت أعلم أنني سألقى نفسي بالضبط في واحد من تلك الأماكن التي تعج بالحسان المجهولات، فليس يقدم لك الشاطئ أقل من الحفلة الراقصة وكنت أفكر سلفاً بالنزهات أمام الفندق وفوق السد بنوع المتعة نفسها التي كانت وفرتها لي السيدة «دو غير مانت» لو أنها، عوضاً عن أن تعمل على دعوتي إلى أعشية باهرة، أكثرت من إعطاء اسمي لريّات البيوت اللواتي تقام حفلات الرقص في منازلهنّ بغية وضعه على لوائح الفوارس لديهنّ. ولعلّ التعرف إلى النساء في «البليك» سيّسهل عليّ بمقدار ما عسر فيما مضى إذ كان يتوافر لي الآن من الصداقات وصنوف الدعم بمقدار ما افتقرت إليه في رحلتي الأولى.

وانتشلني من أحلام يقظتي صوت المدير الذي لم أصغ إلى محاضراته السياسية فقد روى لي بعدما غير موضوع الحديث عن اغتباط الرئيس الأول حينما علم بوصولي وأنه سوف يجيء لزيارتي في غرفتي في هذا المساء. وقد أصابني من جرّاء فكرة الزيارة هذه، إذ أخذت أحسني متعباً، فرع شديد إلى حدّ أن رجوته الحؤول دون ذلك (وهو ما وعدني به) وأن يأمر، زيادة في الأمان في أوّل مساء، بأن يقوم مستخدموه بحراسة طابقي. ويذا أنّه لا يؤدّهم كثيراً. «إني مضطرّ طوال الوقت أجري خلفهم إذ ينقصهم الكثير من «الخمول». ولو لم أكن حاضراً لما تحرّكوا. سوف أضع عامل المصعد «خادماً» على بابك». وسألت إن كان أصبح أخيراً «رئيساً للخدم الموزعين». فأجابني قائلاً: «لم يمض عليه بعد وقت طويل في الدار ولديه رفاق أكبر منه سناً وقد يثير ذلك لغطاً. لا بدّ في كلّ أمر من «تحرّج» (تدرّج). أنا أقرّ أنّه حسن المنظر» (يقصد المظهر) أمام مصعده، ولكنّه لا يزال صغيراً بعض الشيء على مثل هذه الحالات، وسوف يجرّ ذلك إلى تناقض إزاء آخرين هم أكثر قدماً. ينقصهم قليل من الجديّة، وهي الميزة «البدائية» (ويقصد دونما شكّ الرئسيّة، الميزة الأكثر أهميّة). ولا بدّ أن يكون أثقل جناحاً (ويقصد محدثي أن يقول أثقل دماغاً). عليه على أيّ حال أن يمنحني ثقته فأني خبير في الأمر؛ لقد خطوت خطواتي العسكرية الأولى في زمن «بايار» قبل أن أحوز رتبتي مديراً للفندق الكبير. وقد أقرّ فيّ هذا التشبيه وشكرت المدير لمجيئه شخصياً حتى «بونتا كولوفر». «آه! ليس ما يستحقّ الشكر، فلم أصبغ في ذلك سوى وقت «لايحصي» (يقصد لا يذكر).» وكنا قد وصلنا على أيّ حال.

هنا انقلاب في كامل شخصيتي. فلمّا كنت منذ الليلة الأولى أعاني من نوبة وهن قلبي وفي محاولة للسيطرة على ألمي انجيت بتؤدة وحذر لخلع حداثي. ولكنّي ماكدت الأمس أوّل زرّ في حداثي العالي حتى انتفخ صدري وقد امتلأ حضوراً مجهولاً إلهياً وهزّنتي زفرات الحزن وانهمرت الدموع من عيني. فالشخص الذي أقبل يمدّ لي يد العون وينقذني من إقفار نفسي كان ذاك الذي دخل، قبل عدّة سنوات، في لحظة من الضيق والوحدة المائتين، في لحظة لم أعد أملك فيها شيئاً من أناي فردني إلى ذاتي، إذ كان ذاتي وأكثر من ذاتي (المحتوي الذي هو أكثر من المحتوى وكان يحمله إليّ). لقد لحت منذ قليل في ذاكرتي الوجه الحنون الذي ينحني فوق تعبي، وجه جدّتي مهتماً مخيّب الآمال، على نحو ما كانت في ذلك المساء الأوّل لوصولنا؛ وجه جدّتي، لانتلك التي دهشت ولمت نفسي لقلة ما أسفت لفقدائها وما كانت تملك منها غير اسمها، بل جدّتي الحقيقية التي عدت ألقى، للمرة الأولى منذ «الشانزليزيه» حيث أصابتها أزمتها القلبية، عدت ألقى عبر

ذكرى لا إرادية وكاملة حقيقتها الحية. وهذه الحقيقة لا وجود لها بالنسبة إلينا مادام فكرنا لم يعد إبداعها (ولاً لكان كل من شاركوا في معركة جبارة لمحميين كباراً)؛ وهكذا فإنني، في اندفاعه مجنونة للارتقاء بين ذراعيها، عرفت تَوّاً فقط - بعد أكثر من عام على دفنها، من جراء هذا الالتزام الذي يحول في الكثير الغالب دون تطابق تسلسل الأحداث وتسلسل المشاعر - أنها قضت نحبها. لقد تحدثت عنها كثيراً منذ ذلك الوقت وفكرت بها كذلك، إلا أنه لم يكن ثمة، خلف أقوال وأفكار الشاب العالق الأناني القاسي الذي كنته، شيء يشبه جدتي لأنني كنت لا أحمل في داخلي، بسبب طيشي وحبّي للملذات وتعودي رؤيتها مريضة، لا أحمل إلا بالقوة ذكرى ماسبق أن كانت عليه. وإن نفسنا الكلية لا تملك، في أية لحظة تأملناها فيها، سوى قيمة تقرب أن تكون وهمية على الرغم من الرصيد الكبير الذي لثرواتها، فإن هذه طوراً وتارة تلك غير متوافرة، سواء أكان الأمر على أي حال أمر ثروات فعلية أم ثروات الخيال، وسواء أكان الأمر فيما يخصني أمر ثروات عاقلة باسم «غير مانت» القديم أم ثروات عاقلة بالذكرى الحقيقية لجدتي، والثروات هذه هي الأكثر خطراً. ذلك لأن تقلبات القلب مرتبطة باضطرابات الذاكرة. وإنما وجود جسدينا، وهو شبيه فيما يخصنا بإناء يحتوي روحيّتنا، هو الذي يحملنا على افتراض أن خيراتنا الباطنة جميعها وأفراحنا الماضية وآلامنا كلها هي بحوزتنا أبداً. وربما كان غير صحيح أيضاً أن نعتقد أنها تغلت منا أو تعود إلينا. وإن هي بقيت في داخلنا فإنها في جميع الأحوال في نطاق مجهول لا تؤدي لنا فيه أية خدمة وحيث يقصّي، حتى ماكان أكثرها شيوعاً، من جانب ذكريات من نوع مختلف تستبعد أيّ تزامن معها في الشعور. ولكنها، إن أعيد امتلاك إطار الأحاسيس الذي تحفظ فيه، إنما تمتلك بدورها تلك القدرة نفسها على إقصاء كل ما لا يتماشى وإلّاها وأن تقيم في داخلنا الأنا التي عاشتها وحيدة. وبما أن الأنا التي عدت فأضحيتها منذ قليل لم تكن موجودة منذ ذلك المساء القصي الذي خلعت فيه جدتي ملابس لي لدى وصولي إلى «البليك»، فإنني انخرطت في الدقيقة التي انحنيت فيها جدتي صوبى، لا في أعقاب النهار الحالي التي كانت تلك الأنا تجهله، بل حالاً بعد المساء الأول بالأمس، ودون أي انقطاع - كما لو كان داخل الزمان مجموعات مختلفة ومتوازية. لقد عادت الأنا التي كنتها حينذاك واختفت فترة طويلة جداً، قريبة مني إلى حد أن بدا لي أيضاً أنني أسمع الأقوال التي سبقت مباشرة مع أنها لم تعد سوى حلم، مثلما يظن رجل لم يستيقظ تماماً أنه يسمع قريباً جداً منه أصوات حلمه الهارب. ماكنت من بعد سوى ذاك الإنسان الذي يحاول الالتجاء بين ذراعي جدته وأن يمحو آثار غمها بقبلائه، ذاك الإنسان الذي لعلني كنت صادفت في تصوّره، حينما كنت هذا أو ذاك من أولئك الذين تعاقبوا في داخلي منذ بعض الوقت، قدراً من الصعوبة يساوي ماينبغي لي من جهود، وهي عقيمة على أي حال، كي أحسّ برغبات ومسرّات أحد أولئك الذين لم أكنهم من بعد، على الأقل على مدى فترة معينة. كنت أتذكر كيف أتّي، قبل ساعة من الوقت الذي انحنيت فيه جدتي على هذا النحو، بمبذله، صوب حداثي، ظننت، وأنا هائم على وجهي في حرّ الشارع الخانق أمام الحلواني، أنني لن أستطيع البتّة، بالحاجة التي كانت بي لتقبلها، انتظار الساعة التي لا بد أن أقضيها بعد بدونها. والآن حين تعود تلك الحاجة ثانية كنت أعلم أنني أستطيع الانتظار ساعات تعقبها ساعات وأنا لن تكون بعد اليوم بجانبني، وقد اكتشفت الأمر تَوّاً إذ علمت منذ قليل، وأنا أحسّها لأول مرة حية حقيقية ينتفخ بها قلبي حتى لينفطر، وأنا أعود أخيراً فألقاها، أنني فقدتها إلى غير رجعة. فقدتها إلى غير رجعة؛ ماكنت أستطيع أن أفهم وكنت أتدرب على معاناة الألم الناجم عن هذا

التناقض: فمن جهة وجود وحنان باقيان في داخلي مثلما سبق أن عرفتهما، يعني أنهما جُعلَا لأجلي، وحبّ يجد كل شيء فيه تمامه فيّ وهدفه واتجاهه الثابت إلى حدّ أن عبقرية رجال عظام وجميع العبقريات التي أمكن أن تكون منذ بداية العالم ماكانت لتساوي في نظر جدتي عيباً واحداً من معايي؛ ومن جهة أخرى أن أحسنّ، حالما عدت فعشت ذلك الهناء وكأنه قائم، أنه إنما يخترقه اليقين ينطلق انطلاقاً ألم جسدي متكرر، يقين عديم محا صورتي من ذلك الحنان وهدم ذلك الوجود وألغى في الماضي قدرنا المشترك وجعل من جدتي، لحظة عدت ألقاها كأنما في مرآة، محض غريبة جعلتها المصادفة تقضي بجائبي بضع سنوات كما لعلّ ذلك كان ممكناً إلى جانب شخص آخر، ولكنّي ماكنت أمثل لها، قبل وبعد، شيئاً ولن أمثل شيئاً.

لعلّ المتعة الوحيدة التي كان يمكن أن أتذوّقها في هذه اللحظة، بدلاً من المتع التي سبق أن أصبتها منذ بعض الوقت، لعلّها كانت، بالعودة إلى الماضي، أن أخفّف الآلام التي تكبدتها جدتي فيما مضى. على أنّي ماكنت أتذكرها فقط في ذلك المبدل، وهو لباس مناسب، إلى حدّ يقارب أن يضحّي فيه رمزياً، للمشقات التي تحمّلتها من أجلي، مشقات هي ضارة دون شكّ ولكنها عذبة أيضاً؛ فقد رأيتني شيئاً فشيئاً أتذكر سائر المناسبات التي انتهزتها كيما أوليها، وأنا أبرز لناظرها وأضحّم لدى الضرورة آلامي، عمّا أتصور فيما بعد أن قبلي تزيله كما لو كان حناني بمثل قدرة سعادتني على صنع سعادتها. بل الأنكي من ذلك أنّي، أنا الذي ماكان يتصوّر الآن سعادة أعظم من أن يجد شيئاً منها ينتشر داخل الذكرى على صفحات ذلك الوجه، صفحات صاغها وأحناها الحنان، حاولت فيما مضى بحق مجنون أن أنتزع منها حتى أدنى المسرات، كمثّل ذلك اليوم الذي صوّر فيه «سان لو» جدتي والذي لم أستطع أن أكتتمها فيه الصبيانية المضحكة تقريباً في ماتبيدي من غنج في وقفاتنا وقبعاتها ذات الحوافي العريضة وفي نوع من الظلال المناسبة، فبلغ بي المقام أن أهمس ببضع كلمات متعجّلة جارحة أحسست لانقباض في وجهها أنّها بلغت غايتها وأصابتها؛ أمّا الآن وقد استحال إلى الأبد عراؤها بألف من القبلات فقد كانت تمرّقني أنا.

لكنما لن أستطيع بعد في يوم طمس هذا الانقباض في وجهها وهذا العذاب في فؤادها أو بالأحرى في فؤادي؛ فإنّه لما كان الأموات لا وجود لهم من بعد إلّا في داخلنا فإنما نحن من نضرب دون هواده حينما نصرّ على تذكر الضربات التي وجهناها لهم. وتلك الآلام، مهما تكن قاسية، فقد كنت أتمسكّ بها بكلّ قواي إذ كنت أحسنّ أنّها ناجحة عن تذكر جدتي وهي البرهان على أن هذه الذكرى التي أحملها كانت حاضرة تماماً في داخلي. كنت أحسنّ أنّي لأتذكرها حقاً إلّا بالألم ووددت لو تنغرز تلك المسامير التي تربط ذكرها به انغرازاً أوثق في نفسي. ماكنت أحاول جعل العذاب أرقق بي وتجميله والتظاهر بأن جدتي غائبة فحسب وأنّها متواريّة عن الأنظار مؤقتاً، وذلك بالتوجّه بأقوال ورجاء إلى صورتها (تلك التي سبق أن صورها «سان لو» وكانت معي) وكأنّما إلى شخص انفصل عني ولكنّه إذ احتفظ بفرديته يعرفنا ولا يزال يرتبط بنا بتناغم لانفصم عراه. إنّي لم أفعل ذلك البتّة، فإنّي ما كنت أصبر على العذاب فحسب، بل على احترام أصالة عذابي على نحو ماعانيت منه فجأة دونما قصد وكنت أبغني الاستمرار في معاناته وفقاً لقوانينه هو في كلّ مرّة يعود فيها ذاك التناقض الغريب جداً للبقاء والعدم المتشابهين في داخلي. ذاك الانطباع المؤلم الملامدك، ماكنت أعلم



بالتأكيد إن كنت سأستخلص منه شيئاً من الحقيقة ذات يوم، ولكنني أعلم أنه إن أمكنني في يوم استخلاص هذا النزر اليسير من الحقيقة فلن يمكن استخلاصه إلا منه، هو الخاص جداً، التلقائي جداً ولم يرسمه عقلي ولا بدّل اتجاهه أو خفّفه فزعي ولكن الموت نفسه، الكشف المفاجئ عن الموت، حفره كالصاعقة في داخلي حسب خطّ بيانيّ خارق لا إنساني على شكل أهدود مزدوج غامض. (فأما نسيان جدتي الذي عشت فيه حتى الآن فما كنت حتى أفكر في الانصراف إليه لأستخلص منه شيئاً من الحقيقة بما أنه لم يكن في حدّ ذاته سوى نفي، سوى إضعاف للفكر العاجز عن إعادة خلق لحظة حقيقة من الحياة فيضطر أن يحل محلّها صوراً مألوفة وغير ذات بال). لعلمي مع ذلك، إذ أخذت غريزة البقاء وبراعة العقل في وقايتنا من الألم تبييناً فوق خرائب لم تنطفئ بعد نارها وتضعان الأساسات الأولى لعملهما المفيد والمشوّم، لعلمي تذوّت بما يجاوز الحدّ حلاوة أن أذكّر هذه الآراء أو تلك يديها هذا الكائن العزيز، أن أذكّرهما كما لو استطاعت أن تبديها بعد، كما لو كانت موجودة كما لو أنني لا أزال موجوداً بالنسبة إليهما. ولكن ما إن أقلحت في النوم، في تلك الساعة الأوفر صدقاً التي انغلقت فيها عيناى دون أشياء الخارج حتى عكس عالم النوم (الذي لم يعد بمقدور العقل والإرادة على عبثه، وقد شلّ وقتياً، أن ينتزعاني من قساوة انطباعاتي الحقيقية) وبعر الجميمة المؤلمة للبقاء والعدم في الأعماق العضوية التي أصبحت شافّة، أعماق الأحشاء التي يضيئها نور خفيّ. عالم النوم الذي تسرّع فيه المعرفة الباطنة، وقد جعلت في تبعية اضطرابات أعضائنا، ضربات القلب أو تواتر الأنفاس لأنّ ذات كمية الهلع أو الحزن أو الندم تعمل بقوة تتضاعف مئة مرة إن هي زرت على هذا النحو في أوردتنا؛ وما إن نكون ذهبنا، كيما نطوّف فيه في طرقات مدينة الأعماق، فوق أمواج دمنا السوداء وكأنما فوق «ليتيه»<sup>(١)</sup> داخليّ سداسيّ الثنيات، حتى تظهر لنا وجوه مهيبة عظيمة تقرب منا وتفارقتنا مخلقة إيانا في دموعنا. وعبثاً بحثت عن وجه جدتي حالماً نزلت في المداخل المظلمة، مع أنني كنت أعلم أنها ماتزال على قيد الحياة، ولكننا حياة ناقصة باهتة كما الذكرى. كانت العتمة تتعاظم، وكانت الريح؛ ولا يصل والدي وكان ينبغي أن يقودني إليها. وفجأة تقطعت أنفاسي وأحسست قلبي كأنما تقسّ، فقد تذكّرت منذ قليل أنني نسييت أن أكتب إلى جدتي منذ أسابيع طويلة. فما عساها ستفكر بي؟ كنت أقول في نفسي: «ياإلهي، كم ينبغي أن تكون تعيسة في هذه الغرفة الصغيرة التي استؤجرت من أجلها صغيرة مثلما هي لخادمة قديمة، وهي فيها وحيدة تماماً مع الممرضة التي أقيمت للعناية بها، وهي لا تستطيع حراكاً لأنها لا تزال مشلولة بعض الشيء ولم تشأ أن تنهض مرة واحدة! هي لا بدّ تعتقد أنني أنساها منذ أن قضت نحبها وكم ينبغي أن تحسّ أنها وحيدة ومهجورة! أه! لا بدّ أن أسرع للقاءها، فلا أطيق الانتظار دقيقة واحدة ولا أستطيع أن أنتظر وصول والدي، ولكن أين هي؟ وكيف أمكن أن أنسى العنوان؟ وليتها لا تزال تعرفني! كيف أمكن أن أنساها على مدى شهر؟» الليل حالك ولن أهتدي والريح تمنعني من التقدّم. ولكن هو ذا والدي يخطر أمامي، فأصبح به: «أين جدتي؟ قل لي العنوان، هل هي بصحة جيّدة؟ أكيد أنه لا ينقصها شيء؟» فقال لي والدي: «بالطبع لا، بإمكانك أن تطمئن، فإنّ ممرضتها امرأة منظّمة. ومن حين إلى آخر نبعث ب مبلغ زهيد كي يمكنهم أن يشتروا لها القليل الضروري لها. وهي تسأل أحياناً كيف أصبحت حالك. لقد قالوا لها إنك تزمع وضع كتاب وبدأت

(١) نهر النسيان في ميثولوجيا الإغريق.

مسرورة ومسحت دموعه. حينئذ خلعتني أتذكر أن جدتي قالت لي بعد موتها بقليل وهي تجهش بالبكاء وبهجة متواضعة كمثل خادمة عجوز صرفت من عملها وكامرأة غريبة: «سوف تسمح لي بالطبع بأن ألقاك أحياناً على الرغم من كل شيء، فلا تدعني سنوات طويلة دون أن تزورني، وفكر أنك كنت حفيدي وأن الجدات لا ينسين». وإذا عدت أرى أي وجه لها شديد الاستسلام، شديد التعاسة، شديد الوداعة أردت أن أجري في الحال وأقول لها ما كان ينبغي لي أن أجيبها حينذاك: «ولكن سترينني يا جدتي قدر ما تشائين فليس لي في الدنيا سواك ولن أفارقك البتة من بعد». لكن انبغى أن يكيها صمتي منذ هذه الشهور الكثيرة التي لم أمض فيها إلى حيث هي نائمة! فماذا أمكن أن تقول في نفسها؟ وقلت بدوري لوالدي وأنا أجهد بالبكاء: «العنوان، بسرعة، بسرعة، خذني إليها». أما هو: «ذلك... أنني لا أعلم إن كنت تستطيع أن تراها. ثم إنها واهنة، واهنة جداً، ترى، ولم تعد ذاتها وأظن أن ذلك سوف يشق عليك بالأحرى. ثم إنني لا أذكر الرقم الصحيح للشارع» - «ولكن هيا قل لي، أنت يامن يعلم، ليس صحيحاً أن الأموات لا يحيون من بعد. ليس الأمر صحيحاً مع ذلك، على الرغم مما يقال، بما أن جدتي لا تزال موجودة». وابتسم والدي ابتسامة حزينة: «آه! أقل القليل، ترى، أقل القليل. وأظن أن الأفضل لك أن لاتذهب هناك. لاشيء ينقصها، إنهم يجيئون لترتيب كل الأمور» - «ولكنها غالباً وحدها؟» - «أجل، ولكن ذلك خير لها. فخير لها أن لاتفكر إذ لا يمكن إلا أن يغمها الأمر، فغالباً مايجلب التفكير الغم. وعلى أي حال، تدري، إنها واهنة جداً. سوف أترك لك بياناً دقيقاً كي تتمكن من الذهاب إليها؛ لست أرى ماالذي يمكن أن تفعله هناك ولا أظن أن الممرضة ستسمح لك برؤيتها». - «تعلم تماماً مع ذلك أنني سأعيش على الدوام إلى جانبها، الأيائل، الأيائل «فرنسيس جام»، شوكة. لكنني كنت قد عدت مذاك فاجتزت النهر ذا التعرجات المظلمة وعدت فصعدت إلى الصفحة حيث يفتح عالم الأحياء. ولكن كنت لأزال أرد «فرنسيس جام، الأيائل، الأيائل» فإن تمة هذه الكلمات لم تعد توفر المعنى الواضح والمنطق اللذين كانت تعبّر عنهما تعبيراً طبيعياً جداً بالنسبة إليّ للحظة خلت ولم أعد أستطيع تذكرهما. وماعدت حتى أفهم لماذا عنت لي كلمة «أياس»<sup>(١)</sup> التي قالها لي والدي منذ قليل، عنت في الحال ودون احتمال أي شك: «حاذر أن يصيبك البرد». وكنت نسيت إغلاق المصاريع ولا بد أن شمس الضحى أيقظتني. لكنني لم أطق احتمال أن أسرح ناظري بأمواج البحر هذه التي كانت جدتي فيما مضى تستطيع تأملها على مدى ساعات، فإن الصورة الجديدة لجمالها اللامبالي كانت تستكمل في الحال بفكرة أنها لا تراها. ووددت سد أذني دون صخبها لأن تمام ضياء الشاطئ كان يحدث الآن فراغاً داخل فؤادي. كان كل شيء يبدو كأنما يقول لي مثل تلك الممرات والمروج في حديقة عامة كنت أضعتها فيها بالأمس حينما كنت طفلاً صغيراً: «لم نرها»، فأحس أنفاسي تضيق تحت استدارة السماء الشاحبة الرائعة وكأنما تحت ناقوس هائل مائل للزرقة يسد أفقاً لا وجود فيه لجدتي. واستدرت صوب الجدار كي لا أشهد شيئاً من بعد، ولكن ماكان يواجهنني للأسف إنما ذاك الحاجز الذي كان يقوم فيما مضى بمهمة رسول الصباح بيننا، ذاك الحاجز الذي كان يعرب، طيعاً طواعية كمان في رد جميع ألوان إحساس ما، وبدقة كبيرة، لجدتي عن خشيتي في الآن نفسه من إيقاظها، فإن تك مستيقظة فمن أن لا تكون سمعتني ولا تجرؤ لذلك على الحركة، وعلى إثرها

(١) «أياس» أو «أجاس» الذي يقارن «هروست» بين جنوه إذ يذبح قطعان المانية وهو يظنها يونانيين بجون «هنري فان بلارينغ» قاتل أبيه.

في الحال كأنما جواب آلة ثانية تنبئني بمجيئها وتدعوني إلى الهدوء. ما كنت أجرؤ على الاقتراب من ذاك الحاجز أكثر مما أفعل من «بيانو» سبق أن عزفت عليه جدتي ولا يزال يرث من لمستها. فقد كنت أعلم أنه يمكنني الآن أن أقرعه، حتى قرعاً متزايد الشدة، فلن يستطيع شيء من بعد أن يوقظها، ولن أسمع جواباً ولن تجيء جدتي من بعد. وما كنت أسأل الله، إن كان ثمة جنة، أكثر من أن أستطيع فيها أن أضرب على هذا الحاجز الضربات الثلاث الصغيرة التي ستتعرفها جدتي من بين ألف منها والتي سترد عليها بتلك الضربات الأخرى التي تعني: «لا تضرب أيها الفأر الصغير، أفهم أنك نقد صبرك، ولكنني آتية»، وأن يدع لي أن أمكث معها الدهر كله الذي لن يطول علينا نحن الاثنين.

وجاء المدير يسألني إن كنت لا أبغي النزول، فإنه تحسباً للطوارئ قد أشرف على «مكاني» في قاعة الطعام. ولما لم يرني فقد خشي أن لا تكون عاودتني اختناقاتي بالأمس. كان يأمل أن لا يكون ذلك سوى «وباء صغير في الحلق» وأكد لي أنه سمع من قال إنها تسكن بما يسمونه «الألكينا».

وسلمني كلمة صغيرة من «ألبيرتين». ما كان عليها انجيء إلى «البليك» في هذا العام، ولكنها بعدما بدلت في مقاصدها حلت منذ ثلاثة أيام، لا في «البليك» نفسها بل في محطة مجاورة على مسافة عشر دقائق بالحافلة. فقد خشيت أن أتعبتني الرحلة فامتنعت عن الحضور أول مساء ولكنها أرسلت تسألني متى يمكنني استقبالها. واستعلمت إن كانت جاءت بنفسها لا لأراها بل لأتدبر نفسي كي لا أراها. وأجاب المدير قائلاً: «أجل، بالطبع، ولكنها تود أن يكون ذلك في أقرب وقت ممكن، إلا أن لا يكون لديك» أسباب «ضارة» تماماً». وختم بقوله: «تري أن الجميع هنا «يشتهونك» «في المنتهى». أما أنا فما كنت أريد رؤية أحد.

على أنني كنت أحسستني البارحة لدى وصولي وقد عاودني السحر في حياة حمامات البحر. وكان عامل المصعد نفسه قد أدار المصعد بصمت بداعي الاحترام هذه المرة لا بداعي الازدراء وقد احمر اغتباطاً. وإذا ارتفعت على صفحة العمود الصاعد عدت فاجتزت ماسبق أن كان بالأمس بالنسبة إلي سر الفندق المجهول حيث يلقي عليك، حينما تصل سائحاً دونما حماية ولا مهابة، كل زبون يعود إلى غرفته وكل فتاة تنزل للعشاء وكل خادمة تجتاز الممرات التي خططت بصورة غريبة والفتاة التي جاءت من أميركا مع مرافقتها والتي تنزل للعشاء، نظرة لا تقرأ فيها شيئاً مما وددت قراءته. إلا أنني تذوقت هذه المرة، على العكس، المتعة المريحة جداً التي قوامها أن أقوم بالمصعود إلى فندق معروف كنت أشعر فيه أنني في بيتي وقد أنجزت فيه مرة أخرى هذه العملية التي ينبغي دوماً إعادتها وهي أطول وأصعب من قلب الجفن وقوامها أن نطرح على الأشياء النفس المألوفة لدينا بدلاً من نفس لها كانت تفزعنا. أفينبغي لي الآن، أقول في نفس غير مرتاب بالتغير النفسي المفاجيء الذي ينتظرني، أن أمضي دوماً إلى فنادق أخرى أتناول فيها غدائي للمرة الأولى ولا تكون العادة قتلت فيها في كل دور وأمام كل باب التئيم الذي كان يبدو كأنما يسهر على حياة مسحورة، وحيث يقع علي أن أقترب من هاتيك النساء المجهولات اللائي إتما تجمعهن كبريات الفنادق والكازينوهات ومساح الشاطئ ليقمن فيها حياة مشتركة على غرار المجموعات المرجانية؟

لقد أحسست متعة حتى في أن يكون الرئيس الأول المزعج على عجلة من أمره للقائي. كنت أبصر لليوم

الأول أمواجاً وسلاسل جبال البحر اللازوردية وجليدياته وشلالاته وتعاليه وجلاله اللامبالي - لمحض اشتماهي للمرة الأولى منذ فترة طويلة جداً وأنا أغسل يدي تلك الرائحة الخاصة بصابون الفندق الكبير المبالغ في تعطيره - والتي إذ يبدو أنها تعود للفترة الراهنة وللإقامة الماضية كانت تطفو بينهما مثلما السحر الحقيقي لحياة خاصة لا يعود المرء إليها إلا ليبدل ربطة عنقه. ولعل أعطية السرير التي جاوزت حد النعومة والخفة والامتساع واستحال طي أطرافها وتثبيتها ولا تزال منفحة حول اللحف لوالب رجراجة، لعلها كانت بالأمس بعثت الأسى في نفسي. ولكنها هدهدت فحسب فوق تكوّر حجبها غير المريحة المقيية الشمس البهية الملائى بالأمال في أول صباح. إلا أنه لم يتسن لهذا الأخير أن يطلع، ففي الليلة نفسها عاد فبعث الحضور الرهيب الرائع. فرجوت المدير أن ينصرف وأن يأمر بأن لا يدخل أحد. وقلت له إنني سألازم سريري ورفضت عرضه بأن يرسل في طلب العقار الممتاز لدى الصيدلي. فسر أعظم السرور لرفضني إذ كان يخشى إزعاج بعض الزبائن من جراء رائحة «الألكينا». وقد غنمت من ذلك المديح التالي: «أراك ضمن الحركة» (وكان يقصد: «في الخطّ الصحيح») والتوصية التالية: «احذر أن لاتسخ بالباب فإني، بشأن الأقفال، قد «داهنتها» بالزيت؛ فإن تجرأ مستخدم وقرع باب غرفتك فسوف «يتسع» ضرباً وليعتبروا أنهم بلغوا الأمر فلست أحب «الترددات» (كان ذلك يعني بالبداهة: لا أحب تكرار الأمور مرتين). ولكن ألت ترغب بغية تنشيط قواك قليلاً في نبذ عتيق أحتفظ منه في القمو «بطن» كبير (يقصد بدون شك «بدن» كبير). لن أجيئك به على طبق من الفضة مثل رأس «جونثان»<sup>(١)</sup> وألفت انتباهك إلى أنه لن يكون من نوع «شاتولافيت» ولكنه «منبوه» تقريباً (ويقصد «مشابه»). ويمكن، إذ هو خفيف، أن تقدّم لك واحدة من سمك موسى مقلية. ورفضت كل شيء ولكنما أدهشني أن أسمع اسم السمكة (Le sole) يلفظ كاسم الشجرة (Le soule - الصفصاف) على لسان رجل لا بد أوصى على الكثير منها في حياته.

وعلى الرغم من وعود المدير جاؤوني بعد قليل ببطاقة المركيزة «دو كامبرمير» مثنية الزاوية. كانت السيدة العجوز قد بعثت، إذ جاءت لزيارتي، تسأل إن كنت موجوداً وحينما علمت المركيزة بوصولي الباحة فقط وأنني أعاني أوجاعاً لم تلحّ وعادت أدراجها إلى «فيتيرن» في عربتها القديمة ذات الثمانية نوابض التي يجرها حصانان (ولا يفوتها دون شك أن تتوقف أمام الصيدلي أو بائعة الكلف فيدلف خادمها الخاص إليهما بعدما يقفز من مقعده ليدفع فاتورة أو يأخذ بعض المؤن). وغالباً ماكانوا يسمعون على أي حال صلصلة عجلاتها ويتأملون بإعجاب أبهتها في شوارع «بالبيك» وبعض قرى الشاطئ الصغيرة الأخرى الواقعة بين «بالبيك» و«فيتيرن». لا لأن هذه المواقف لدى بعض الموردين كانت غاية تلك الجولات، بل كانت الغاية على العكس «عصرونية» أو حفلة استقبال في بيت نبيل ريفي أو بورجوازي لا يلقى إطلاقاً بالمركيزة. لكن هذه، على الرغم من تفوقها الكبير جداً مولداً وثروة على طبقة صغار النبلاء في المحيط، كان يعترها في طبيعتها وبساطتها التامتين خوف عظيم من تخيب أمل من سبق أن دعاها إلى حد أنها كانت تتراد أكثر اللقاءات المجتمعية تفاهة في الجوار. صحيح أن السيدة «دو كامبرمير» كانت فضلت، بدلاً من قطع مسافة طويلة إلى هذا الحد لتقبل وتسمع في حرّ صالة صغيرة ذات جوّ خائف مغنية تفتقر إلى المهابة بعامة وينبغي لها بعد ذلك، بصفتها

(١) هو في الحقيقة رأس يوحنا المعمدان الذي وعد به «هيروودس» «سالموي» بعدما رقصت أمامه.

سيدة كبيرة في المنطقة وموسيقية مشهورة، المبالغة في تهنتتها، أن تذهب في نزهة أو تمكث في حدائق «فيتيرن» الرائعة التي يقبل الموج الناعس لخليج صغير ليلفظ أنفاسه على حضيضها بين الزهور. ولكنها كانت تعلم أن مجيئها المرجح سبق أن أعلن عنه رب البيت، سواء أكان أحد النبلاء أو بورجوازي حقيقي من «مينفيل لاتانتوريير» أو «شاتنكور لورغويو». فإن خرجت السيدة «دو كامبرمير» في ذلك اليوم دون أن تثبت حضورها في الاحتفال فربما أمكن لهذا أو ذاك من المدعوين ممن جاؤوا من أحد الشواطئ الصغيرة التي تحاذي البحر أن يكون سمع ورأى عربة المركيزة ولعل ذلك كان قضى على عذرها عن أنها لم تستطع مغادرة «فيتيرن». ثم عبثاً يكون أرباب البيوت أولئك قد رأوا كثيراً السيدة «دو كامبرمير» تتراد حفلات موسيقية تقام لدى أناس يرون أن ليس ثمة مكانها، فإن التراجع البسيط الذي يلحق في نظرهم بمكانة المركيزة المفرطة الطيبة كان يزول حالماً يكونون هم الذين يستقبلون، فيتساءلون تساؤلاً محموماً إن كانوا سيحظون بها أم لا في «عصرونيتهم» البسيطة. وأي تغريج لصنوف من القلق يحسّون بها منذ بضعة أيام إن أعلن أحد المدعوين، بعد أول مقطوعة غنتها ابنة أصحاب البيت أو هارو يصطاف هناك، أنه شاهد جوازي العربة الشهيرة متوقفين أمام الساعاتي أو العطار (وهي علامة لا تخيب بأن المركيزة تزعم المجيء إلى حفلة العصر) حيث كانت السيدة «دو كامبرمير» (التي لن يطول بها الوقت بالفعل للدخول تتبعها كبتها ومدعوون يقيمون باستمرار عندها في هذه الآونة وسبق أن استأذنت باصطحابهم فاستجيب طلبها بأيام غبطة) تستعيد كامل بريقها في نظر أصحاب البيت الذين ربما كانت مكافأة مجيئها المرتقب السبب الحاسم اللامعلن للقرار الذي اتخذوه قبل شهر مضى، أي تحمله إرباكات وتكاليف إقامة حفلة في فترة العصر. كانوا يذكرون، إذ يشاهدون المركيزة في حقل «عصرونيتهم»، لا تلتفتها بالذهاب إلى حفلات جيران غير مؤهلين لذلك، بل عراقا أسرته وفخامة قصرها وفضلاظة كتتها (وشهرتها «لوغراندان» قبل زواجها) التي كانت تعذل، بوقاحتها، من الطعم التفه الذي لطيفة حمايتها. ويظنون منذ ذلك أنهم يقرؤون في الزاوية المجتمعية في صحيفة «الغالي» الخبر الصغير الذي سيعدونه بأنفسهم داخل الأسرة، بعد إيصاد الأبواب جميعاً بالمفتاح، حول «الزاوية الصغيرة في «بريتانية» التي يلهون فيها أشد اللهو وحفلة العصر المنتقاة تماماً التي لم يفترقوا فيها إلا بعدما حملوا أصحاب البيت على الوعد بالعودة عما قريب». وينتظرون الصحيفة كل يوم وبهم قلق أن لم يشهدوا عصريتهم بعد على صفحاتها ويخشون أن لا يكونوا فازوا بالسيدة «دو كامبرمير» لمدعوهم فقط وليس لجمهرة القراء. وأخيراً يحلّ اليوم المبارك: «للموسم في «بالبيك» هذا العام ألق استثنائي، والشائع هنا الحفلات الموسيقية الصغيرة بعد الظهر، الخ». إن اسم السيدة «دو كامبرمير» جاء صحيحاً إملاًياً و«ورد ذكره مصادفة» ولكن في رأس القائمة. ولم يبق من بعد سوى أن يبدو أنهم يضيّقون بهذا التطفّل للصحف الذي يمكن أن يقود إلى خلافات مع الأشخاص الذي لم يستطيعوا دعوتهم، وأن يسألوا بلهجة منافقة في حضرة السيدة «دو كامبرمير» من ذا بلغ به الغدر أن يبعث بهذا الخبر الذين كانت المركيزة تقول عنه بادية العطف وبنفسية السيدة الكبيرة: «أفهم أن يزعمكم الأمر، أما فيما يخصني فما كنت إلا سعيدة جداً بأن يعرفوا أنني في منزلكم.

كانت السيدة «دو كامبرمير» قد خربشت على البطاقة التي سلّمت إليّ أنها تحيي حفلة عصر بعد الغد. والأکید أنني منذ يومين فقط ومهما كنت متعباً من الحياة المجتمعية فربما أحسست فيما يخصني بمتعة

حقيقة في أن أتذوقها وقد نقلت إلى هذه الحقائق حيث كانت تنبت في ترابها، بفضل معرض «فيترن»، أشجار التين والبلح وأغراس الورود وتمتد حتى البحر وهو في الغالب بهدوء وزرقة المتوسط وفوق مياهه يذهب يخت المالكين الصغير ليحيى قبل بدء الاحتفال بأهم المدعوين من مسايح شاطئ الجانب الآخر من الخليج، ويستفاد منه، بفضل شواذره الممدودة قبالة الشمس وبعدما يصل الجميع، كقاعة طعام لتناول العصرية، ثم يعود في المساء ليعيد الذين سبق أن نقلهم. والبذخ بديع ولكنه مكلف إلى حد أن السيدة «دو كامبرمير» إنما حاولت أن تزيد مداخيلها بطرق مختلفة.

وكان ذلك جزئياً من أجل تدارك المصاريف التي يتسبب فيها، وقد فعلت على وجه الخصوص بأن أجرت للمرة الأولى أحد أملاكها: «لاراسيلير»، وهو مختلف تماماً عن «فيترن». أجل، كم لعل حفلة عصر كهذه يعمرها نبلاء صغار مجهولون، كم لعلها قبل يومين كانت غيرت ضمن إطار جديد من حياتي الباريسية «الراقية»! أما الآن فلم يعد للمتعة أي معنى في نظري. وكتبت إلى السيدة «دو كامبرمير» أعتذر إليها مثلما أمرت قبل ساعة بصرف «ألبيرتين»: فإن الغم كان ألغى في إمكان الرغبة تماماً كما تقطع الحمى الشديدة الشهية. كانت والدتي تزعج المجيء في الغد. وكان بيدولي أنني أكثر استحقاقاً للعيش بجانبها وأنتي سوف أهتمها بصورة أفضل الآن وقد أفسحت حياة بأكملها غريبة عني ومهينة في المكان لتصاعد الذكريات الأليمة التي تكلل وتزعج قدر نفسي ونفسها باكليل شوكتها. ذلك ماكنت أظن، ولكن شتان في الواقع ما بين الأحزان الحقة كما هو حزن أمي - التي تنزع منك حياتك بالمعنى الحرفي للكلمة لفترة طويلة وأحياناً على الدوام، ما إن فقدت الشخص الذي تحب - وتلك الأحزان الأخرى، وهي عابرة على الرغم من كل شيء، كما لا بد كان حزني، وتمضي سريعاً مثلما جاءت متأخرة، ولست تعرفها إلا بعد انقضاء فترة طويلة على الحادث لأنك احتجت «أن تدركه» كيما تحس بها. أحزان كتلك التي يعاني منها الكثيرون والتي ماكان يختلف عنها ذلك الذي يعذبني الآن إلا من حيث طريقة التذكر اللاإرادي تلك.

أما بشأن الحزن الذي يوازي في عمقه حزن أمي فسوف أخبره ذات يوم، كما سنرى ذلك في تمة هذه القصة، ولكن ليس الآن ولا بالصورة التي كنت أتخيلها. ومثلما يعرف راو كان يجدر به أن يحفظ دوره ويكون في مكانه منذ فترة طويلة ولكنه وصل في الثانية الأخيرة فقط ولم يسبق أنه قرأ سوى مرة واحدة ماينيفي أن يقول، مثلما يعرف كيف يستر أمره بما يكفي من حذاقة، حينما تخين اللحظة التي ينبغي أن يجيب فيها، كي لا يستطيع أحد ملاحظة تأخره، كذلك مكنتي حزني الجديد كل الجدة أن أتحدث إلى والدتي حينما وصلت وكأنما كان على الدوام مثله اليوم. واعتقدت فحسب أن رؤية هذه الأمكنة التي سبق أن كنت فيها مع جدتي (وما كان الأمر كذلك على أي حال) قد أيقظته. وتبينت للمرة الأولى إذ ذاك، ولأنني أعاني ألماً ماكان يساوي شيئاً قياساً على ألمها ولكنه يفتح عيني، تبينت بهلع ما كان يمكن أن تعاني. وأدركت لأول مرة أن تلك النظرة الثابتة غير الدامعة وهي نظرتها منذ وفاة جدتي (وماينجم عنها من قلة راء «فرانسواز» لحالها) إنما حطت على هذا التناقض الممتنع الإدراك بين التذكر والعدم. وكنت من جانب آخر أكثر دهشة، على الرغم من استمرارها في ارتداء براقعها السوداء وأثواب أوفر سترأ في هذا البلد الجديد، من التحول الذي تم في شخصها. فليس يكفي أن نقول إنها فقدت مرحها أياً كان، فقد كانت تبدو، وقد ذابت وتجمدت في مايشبه

صورة ضارعة، أنها تخشى أن تسيء بحركة مفردة النزق أو بصوت مفرط في ارتفاعه إلى الحضور الأليم الذي ما كان يفارقها. ولكنني لاحظت على وجه الخصوص، ما إن رأيته تدخل بمعطفها الذي من الحرير المموج- والأمر كان فاتني في باريس- أن من تقع عليها عيني لم تعد أمي بل جدتي. ومثلما في الأسر الملكية والدوقية يتخذ الابن لدى موت الزعيم لقبه فينقلب من دوق «أورليان» أو أمير «تارانت» أو أمير «لوم» إلى ملك فرنسا أو دوق «لاتريمواي» أو دوق «غير مانت» كذلك كان يتفق في الغالب، من جراء حدوث أمر من نوع آخر ومن مصدر أكثر عمقا، أن يمسك الميت بالحي الذي يصبح خليفته الذي يشبهه ومكمل حياته التي توقفت. وربما اقتصر دور الغم الكبير الذي يلي، لدى ابنة على غرار أمي، موت والدتها على تحطيم الخادرة قبل الأوان. والتعجيل في التحول وبرز كائن جديد نحمله في داخلنا وماكان، لولا هذه الأزمة التي نحرق بها المراحل ونجتاز الفترات الزمنية دفعة واحدة، ماكان ظهر إلا ببطء أشد. وربما كان في الأسف على التي فارقت نوع من الإيحاء يجلب في النهاية على قسماتنا تماثلات كنا على أي حال نخترنها بالقوة في داخلنا، وكان ثمة على وجه الخصوص توقف لنشاطنا الأكثر فردية وخصوصية (ولدى والدتي توقف حسنها السليم ومرحها الساخر الذي أخذته عن والدها) والذي ما كنا نخشى ممارسته مادام الحبيب على قيد الحياة، حتى لو جاءت الممارسة على حسابها، وكان يوازن الطبع الذي أخذناه حصرا عنه. فما إن تكون ماتت حتى يؤثنا ضميرنا إن كنا سوى ذلك ولا نعجب من بعد إلا بما كانت عليه، ما كنا نحن منذ ذلك ولكننا ممزوجة بشيء آخر، وما سنضحى عليه وحده من الآن فصاعداً. وبهذا المعنى (لابدك الغامض جداً الزائف جداً الذي يقصدونه بعمامة) يمكن أن نقول إن الموت ليس غير ذي فائدة، وإن الميت يستمر في التأثير فينا. وإنه يؤثر فينا حتى أكثر مما يفعل الحي لأننا، لما كان الواقع الحقيقي لا يستخلص إلا بالفكر وكان موضوع عملية فكرية، إنما لانعرف حقاً إلا ما اضطرننا إلى إعادة خلقه بالفكر وماتخفيه عنا حياتنا اليومية ... ثم إننا في طقوس الأسف على موتانا إنما نخضع ما أحبه عبادة صنمية. فقد كانت والدتي لا تستطيع الافتراق عن حقيقة جدتي وقد أضحت أؤمن مما لو كانت من ياقوت وماس، وليس ذلك فحسب بل عن فروة يديها وجميع تلك الملابس التي كانت تزيد من تشابه المظهر بينهما، بل حتى عن مجلدات السيدة «دوسيفينييه» التي كانت جدتي تحملها على الدوام معها، ولعل والدتي ماكانت لتستبدل بتلك النسخ مخطوطة «الرسائل» نفسها. كانت تمازح فيما مضى جدتي التي ماكانت تكتب لها مرة دون أن تستشهد بجملة للسيدة «دوسيفينييه» أو السيدة «دوسيجران» وفي كل من الرسائل الثلاث التي وردتني من أمي قبل وصولها إلى «البليك» استشهدت لي بالسيدة «دوسيفينييه» كما لو أن تلك الرسائل لم تكن موجهة إلي من جانبها بل وجهتها جدتي إليها. وابتغت النزول إلى السد لتري هذا الشاطئ الذي كانت جدتي تحذثها عنه كل يوم في كتبها. ورأيته من النافذة تمسك بيدها شمسية والدتها وتتقدم كتلة سوداء بخطى خجولة ورة، على الرمال التي داستها قبلها قدامان غاليتان، وكانت تبدو كأنها تمضي للبحث عن ميتة لا بد أن تعيدها الأمواج. واضطرت أن أنزل معها كي لا أدعها تتناول وحدها طعام العشاء. وتقدم الرئيس الأول وأرملة رئيس نقابة المحامين طالبين تعريفها بهما. كان كل مايتعلق بجدتي شديد التأثير عليها إلى حد أنها تأثرت إلى أبعد الحدود واحتفظت على الدوام بالذكرى والامتنان لما قاله لها الرئيس الأول مثلما عانت يهزها الحق من أن زوجة رئيس النقابة لم تنطق بكلمة تذكر بها الميتة. والحقيقة أن الرئيس الأول ماكان يهتم بها أكثر من زوجة رئيس النقابة. فلم تكن كلمات الأول

العاطفية وصمت الأخرى، مع أن أمي أقامت بينهما مثل تلك المسافة، سوى طريقة مختلفة للإعراب عن تلك اللامبالاة التي يوحى لنا الأموات بها. لكنني أظن أن والدتي أحست على وجه الخصوص بشيء من الرقة في الكلمات التي أمررت فيها غصيب نفسي قليلاً من العذاب، فما كان يمكن إلا أن يسعد والدتي (على الرغم من كل الحنان الذي تكنه لي)، كمثل كل ما يضمن لجذتي بقاء في الصدور. لقد نزلت والدتي في الأيام التالية جميعاً تجلس على الشاطئ لتفضل بالضبط ما سبق أن فعلت والدتها وكانت تقرأ كتبها المفضلة عندها، «مذكرات» السيدة «دوبوسيرجان» و«رسائل» السيدة «دوميشينييه». وهي لم تستطع، ولم يستطع أي منا، احتمال أن يدعى هذه الأخيرة «المركيزة الظرفية» ولا أن يدعى «لافونتين» «الدرويش». ولكنها حين كانت تقرأ في الرسائل الكلمة التالية: «ابنتي» كانت تظن أنها تسمع والدتها تحدثها.

وكان من سوء طالعها أن التقت، في واحدة من تلك الزيارات المقدسة التي ما كانت تود أن يضايقها أحد فيها، التقت على الشاطئ سيّدة من «كومبريه» تنبها بناتها. وأظن اسمها كان السيدة «بوسان»، ولكننا لم نكن ندعوها فيما بيننا سوى «ستروذني بالأخبار»، فإنها كانت تحذر بناتها بهذه الجملة التي ترددها أبداً من الشرور التي يعدنها لأنفسهن، كأن تقول لواحدة منهن كانت تفرك عينيها: «يوم يصيبك رمد شديد فستروذيني بالأخبار». ولوحت من البعيد لوالدتي بتحيات طويلة حزينة لا بمثابة تعزية بل كنوع من حسن التربية. وحتى لو أننا لم نفقد جذتي ولو لم يتفق لنا سوى أسباب تقضي بأن نكون سعداء لفعلت ما فعلت. فإنها إذ كانت تعيش وقد اعتزلت إلى حد ما في «كومبريه» في حديقة مترامية الأطراف لم تكن تجد البتة أي شيء على قدر كاف من النعومة وتدخل على كلمات وأسماء اللغة الفرنسية نفسها مخففات. فكانت تجد خشونة في تسمية قطعة الأواني الفضية التي تصب بها شراباتها «ملعقة» وتقول بالتالي «ملعكة» ولعلها كانت خشيت مخاشنة منشد «تليما خوس» الرقيق إذ تدعوه باسم «فينلون» القاسي - مثلما كنت أفعل أنا عن معرفة وقصد إذ كان أعز صديق عندي الشخص الأوفر ذكاء، الطيب الشجاع الذي لا يمكن أن ينساه كل من عرفه، عنيت «بيرتران فينلون» - فلا تقول قط إلا «فينلون» لما ترى أن «الإمالة» تضيف بعض الليونة. أما صهر السيدة «بوسان» الأقل رقة والذي نسي اسم، وكان كاتباً عدلاً في «كومبريه» فقد استولى على الصندوق وأفقد عمي بوجه الخصوص مبلغاً كبيراً إلى حد ما، ولكن غالبية أهالي «كومبريه» كانوا على أفضل علاقة بأعضاء الأسرة الآخرين إلى حد لم ينجم معه أي فتور واكتفوا بالثناء لحال السيدة «بوسان». لم تكن تقيم حفلات استقبال، لكن الناس كانوا يتوقفون، في كل مرة يمرّون فيها أمام ساجها، يتأملون مظاهرها الرائعة دون أن يمكنهم تمييز شيء آخر. وهي كادت لاتضايقنا في «بالبيك» حيث لم ألقها إلا مرة واحدة في لحظة كانت تقول فيها لابنتها التي توالي قضم أظفارها: «حينما تصابين بداحس شنيع تزوديني بالأخبار».

كنت ألبث وحيداً في غرفتي في أثناء ما تقرأ والدتي على الشاطئ. وكنت أتذكر الفترات الأخيرة في حياة جذتي وكل ما يرتبط بها، وباب الدرج الذي أبقى مفتوحاً بعدما خرجنا في آخر نزهة لها. في مقابل ذلك كله كان ما بقي من العالم يبدو وكأنه يكاد أن لا يكون حقيقياً وكان ألمي ينسده عليّ بكامله. وأخيراً أصرت والدتي عليّ بالخروج. لكننا نمت في كل خطوة أخطوها جانب منسي من الكازينو، من الشارع الذي سبق أن مضيت فيه، وأنا أنتظرها أول مساء، حتى نسيب «دو غاي تروان» ينسني من المضي قدماً، مثل ريح لا يسلك



مقاومتها، وكنت أغض الطرف كي لا أرى. كنت أعود باتجاه الفندق بعدما أستعيد شيئاً من قواري، الفندق الذي أعلم أنه يستحيل منذ الآن، مهما طال انتظاري، أن ألقى فيه جدتي، جدتي التي سبق أن لقيتها فيما مضى في المساء الأول لوصولنا. ولما كانت تلك أول مرة أخرج فيها فقد نظر إليّ كثيرون من الخدم الذين لم أكن بعد رأيتهم نظرات مستغربة. وعلى عتبة الفندق ذاتها رفع خادم موزع شاب قبعته ليحييني وأعادها بخفة. وظننت أن «إيميه» قد نقل إليه، حسبما يقول، «تعليمات» بضرورة مراعاتي. ولكنني رأيته في اللحظة نفسها يرفعها ثانية لشخص آخر كان عائداً. والصحيح أن هذا الشاب ما كان يعرف في الحياة غير نزع قبعته وإعادتها. ويفعل ذلك على أكمل وجه. ولما أدرك أنه لا يستطيع غير ذلك وأنه يجيد عمله ذاك فقد كان ينجزه أكثر مايمكنه من مرّات في اليوم، الأمر الذي كان يكسبه من جانب الزبائن مودة غير مفضوحة ولكنها عامّة، ومودة كبيرة كذلك من جانب البواب الذي كان مكلفاً تعيين الخدم الموزعين والذي لم يستطع، حتى هذا الطائر النادر، أن يجد واحداً لم يصرف في أقلّ من ثمانية أيام، فيدهش ذلك «إيميه» أعظم الدهشة فيقول: «مع أنهم لا يظالبونهم في هذه المهنة إلا بالتهذيب وليس ينبغي أن يكون ذلك صعباً إلى هذا الحد». والمدير بدوره كان يحرص أن يتمتعوا بما كان يسميه «حضوراً» جميلاً، ويعني ضرورة أن يقولوا هناك، أو هو بالأحرى لم يحفظ بصورة صحيحة كلمة «هيبة». وكان مظهر المرح الذي يمتدّ خلف الفندق قد تبدّل من جرّاء إنشاء بضعة أحواض مزهرة ورفع شجيرة جيء بها من البلاد الأجنبية وكذلك موزع كان يزّين في السنة الأولى المدخل الخارجي بخيزان قامته ولون شعره الغريب. كان قد رافق كوتيسه بولونية جعلت منه أمين سرّها، مقلداً بذلك أخويه اللذين يكبرانه وأخته ضارية الآلة الكاتبة وقد انتزعتهم من الفندق شخصيات من بلدان عدّة وجنس مختلف وقعوا أسرى سحرهم. وحده الأخ الأصغر بقي وما كان أحد يغييه لأنه يعاني من الحول. وكان شديد السعادة حينما تحيى الكوتيسه البولونية وحاميا الاثنين الآخرين لقضاء بعض الوقت في فندق «بالبيك»، فإنّه يحب إخوته، على الرغم من أنّه كان حاسداً لهم، ويستطيع هكذا أن ينمي على مدى بضعة أسابيع عواطف عائلية. أفلم تتعود رئيسة دير «فونتشرو»، وتفارق لذلك راهباتها، الهجيء لنيل نصيبها من الضيافة التي كان يوفّرها «لويس الرابع عشر» للسليلة الثانية لآل «مورتمار»، عينا عشيقته السيّدة «دومونتسپان»<sup>(١)</sup> أمّا هو فقد كانت أول سنة له في «بالبيك»، ولم يكن بعد يعرفني، إلا أنّه سمع الأكثر قدماً من رفاقه يتبعون كلمة السيّد اسمي حينما يكلمونني فحذا من المرّة الأولى حذوهم بهيئة الراضي إمّا عن إبراز علمه فيما يخصّ شخصيّة يحكم أنّها معروفة، وإمّا عن التزامه عادة كان يجهلها قبل خمس دقائق ولكنّها يبدو له من الضرورة إمكان أن لا يخالفها. كنت أدرك تماماً السحر الذي يمكن أن يوفّره هذا الفندق الكبير لبعض الناس. فقد كان مقاماً على غرار مسرح وتعمره بالنشاط طائفة كثيرة من الممثلين الصامتين تملؤه حتى السقوف. ومع أنّ الزبون لم يكن أكثر من متفرّج فقد كان يشارك على الدوام في العرض، لا كما في تلك المسارح التي يمثل فيها الممثلون مشهداً في القاعة بل كما لو أنّ حياة المتفرّج تجري وسط مظاهر الأبهة في المسرح. كان لاعب كرة المضرب يستطيع العودة بسترّة من الفانيلا البيضاء فإنّ البواب قد ارتدى بزة زرقاء زيّت بشرائط فضيّة ليسلمه رسائله. فإن لم يشأ لاعب كرة المضرب الصعود سيراً على الأقدام فما كان ذلك يقلل من اختلاطه بالممثلين

(١) عشيقه ملك فرنسه الدائمة الصيت وكانت شقيقة رئيسة الدير المذكور آنفاً التي وفدت مراراً على البلاط وأثارت إعجاب لويس الرابع عشر.

إذ يقف إلى جانبه لتشغيل المصعد العامل المكلف وقد ارتدى ثياباً فاخرة. كانت ممرات الأدوار تختلس فرار خادومات وموزعات، جميلات على صفحة البحر كإفريز ملاعب الإلهة «أثينا»، وإلى غرفهن الصغيرة يدلف هواة جمال النادلات بعد لفات مدروسة علمياً. أما في الأسفل فكان العنصر الذكوري سائداً يجعل من هذا الفندق، من جراء حداثة سنّ الخدم الكبيرة ويطالتهن، نوعاً من المأساة اليهودية المسيحية تجسدت ويجري تمثيلها إلى مالا نهاية. ولذلك لم أكن أستطيع الحؤول دون أن ألقى على نفسي لدى رؤيتهم، لابلتأكيد أبيات «راسين» التي خطرت على بالي في منزل الأميرة «دو غير مانت» فيما كان السيد «دوفوغوير» ينظر إلى سكرتيري سفارة شبان يحيون السيد «دوشار لوس»، بل أبيات أخرى لـ «راسين» لا من مسرحية «إستير» هذه المرة بل «أثالي»: فإنه من أول البهو، أي ما كانوا يسمونه الأروقة في القرن السابع عشر، كانت تقف جمهرة من الندل الشباب تفيض عافية، ولاسيما ساعة «العصرية»، على غرار الفتيان اليهود في جوقات «راسين» ولكني لا أظن أن كان أحد يستطيع أن يقدم حتى الإجابة الضعيفة التي يلقاها «جواس» لـ «أثالي» حينما تسأل هذه الأخيرة الطفل الأمير: «ماهو عملك إذن؟» إذ لا عمل لهم البتة. ولو أنهم سألوا أيّا منهم، كما فعلت الملكة العجوز:

«ولكن ما الذي يفعله

هذا الشعب الجيبس كله داخل هذا المكان؟»

فلعل أقصى ما كان يمكن أن يقوله:

«إني أشاهد النظام الفخم في هذه الاحتفالات»

وأسهم فيه.

كان أحد الممثلين الصامتين الشباب يمضي أحياناً إلى شخصية أكثر أهمية ثم يعود الفتى الجميل إلى الجوقة، والجميع، إن لم يكن الوقت لحظة استراحة تأملية، كانوا يشابكون خطوط حركاتهم اللامجدية المجلة التزيينية اليومية. فإنهم، فيما عدا «يوم عطلتهم»، ولما «نشئوا بعيداً عن العالم» ولايجاوزون فناء الهيكل، كانوا يعيشون ذات العيشة الرهبانية التي للاويين<sup>(١)</sup> في مسرحية «أثالي»، وكان بوسعي أمام «هذه الفرقة الفتية المخلصة» التي تلهو على حضبيض الأدراج المغطاة بطنافس رائعة أن أساءل إن كنت أدخل إلى فندق «بالبيك» الكبير أو إلى هيكل سليمان.

كنت أعود فأصعد مباشرة إلى غرفتي وقد غلّت أفكاري عادة بالأيام الأخيرة من مرض جدتي، بتلك العذابات التي أعيشها من جديد فأزيد عليها هذا العنصر الذي يصعب احتمالها حتى أكثر من عذاب الآخرين نفسه والذي تضفيه إليها شفتتنا التي لاترحم، فحين نظن أننا نستعيد فحسب آلام شخص عزيز علينا فإن إشفاقنا يضخمها. ولكنه هو من ربما كان على حق أكثر من وعي هذه الآلام من جانب الذين يعانون منها والذين يخفي عليهم ذلك الحزن في حياتهم، الحزن الذي يراه الإشفاق ويتعذب من جرّاه. على أن إشفاعي

(١) الذين كرسوا أنفسهم لخدمة الهيكل لدى اليهود من عشيرة «لاوي».

كان جاوز في اندفاعه جديدة عذابات جدتي لو عرفت إذ ذاك ماجهلته زمناً طويلاً من أنها عشية وفاتها، وفي هنيهة وعي وإذ تأكد لها أنني لست هناك، أمسكت يد والدتي وقالت لوبا بعدما ألصقت بها شفيتها المحمومتين: «الوداع يا ابنتي وداعاً لا لقاء بعده». وربما تلك كانت أيضاً الذكرى التي لم تنفك والدتي تحذق إليها. ثم كانت الذكريات الجلوة تعود إليّ. فقد كانت جدتي وكنت حفيدها. وكانت تعابير وجهها تبدو كأنما سطرت في لغة خصصت بها وحدي. لقد كانت كل شيء في حياتي ولا وجود للآخرين إلا بالنسبة إليها وإلى الحكم الذي قد تزودني به عنهم. ولكن لا، لقد كانت علاقاتنا أكثر من عابرة لأنها لم تكن عرضية. إنها لا تعرفني من بعد ولن أعود فأراها في يوم. فلم تكن ولدنا فقط الواحد للآخر، لقد كانت غريبة. وتلك الغريبة كنت أنظر صورة لها أخذها «سان لو». كانت والدتي قد ألحت، بعد لقاءها «أليبرتين» كي أستقبلها بسبب الأشياء اللطيفة التي قالتها لها حول جدتي وحولي. وكنت مذكاً قد حددت لها موعداً. وأخطرت المدير كي يطلب إليها الانتظار في الصلاة. فقال لي إنه يعرفها منذ زمن طويل هي وصديقاتها وقبلما بلغن «سن الرشاد»، ولكنه حاقده عليهنّ لأمر قلنها عن الفندق. «لا بد أنهن غير «مضطربات» تماماً للتكلم على هذا النحو، ما لم يكن ذلك افتراء بحقهنّ». وأدركت بسهولة أن «الرشاد» قيلت عن «الرشد». وبانتظار ساعة الذهاب للقاء «أليبرتين» ظللت أحمق، وكأنما يرسم يبلغ بك في النهاية أن لا تراه من بعد لكثرة ما نظرت إليه، إلى الصورة التي كان أخذها «سان لو» حينما عدت أفكر فجأة: «إنها جدتي وإنني حفيدها» مثلما يعود فاقد الذاكرة فيلقى اسمه ومثلما يغير مريض شخصيته. ودخلت «فرانسواز» لتخبرني أن «أليبرتين» حضرت وإذ رأت الصورة الشمسية: «يا للسيدة المسكينة، هذه هي تماماً، وحتى الشامة على خدّها؛ لقد كانت على مرض شديد في ذلك اليوم الذي صوّرها المركز فيه، وقد أغمي عليها مرتين؛ وهي قالت لي: «خصوصاً يا «فرانسواز» يجب أن لا يدري حفيدي بذلك». وكانت تستقر على الأمر تماماً، إذ كانت دائمة المرح بين الناس. وحينما تكون وحيدة مثلاً، كنت أراها تبدو أحياناً رتيبة الفكر، ولكن سرعان ما ينقضي ذلك. ثم إنها قالت لي هكذا: «إن أصابني أمر ذات يوم فلا بد أن يكون لديه رسم لي، وأنا لم أوص مرة أن ينقذ واحد لي». حينئذ أرسلتني لأقول للسيد المركز، وهي توصيه بأن لا يروي لسيدي أنها هي من طلبت ذلك، إن كان لا يستطيع أن «يسحب» صورة لها. وحينما عدت لأقول لها أن نعم، لم تعد قابلة لأنها تجد وجهها متعباً جداً، وتقول لي: «إنه حتى أسوأ من غياب الصورة تماماً». ولكنها لما لم تكن غيبّة تدبرت أمرها في النهاية إلى حد أنها إذ وضعت قبة كبيرة مرخاة الأطراف لم يعد يبدو عليها شيء من ذلك حينما لا تكون في تمام الضوء. لقد سرّت أيتها سرور بصورتها لأنها لم تكن تعتقد آنذاك أنها تعود إلى «البيك». وعبثاً كنت أقول لها: «سيدتي، يجب أن لا تتكلمي مثلما تفعلين، فما أحب أن أسمع سيدتي في مثل حديثها هذا» فقد سكنتها تلك الفكرة. والحقيقة أنها لم تكن قادرة على تناول طعامها منذ عدة أيام. لذلك كانت تدفع سيدتي إلى الذهاب لتناول العشاء بعيداً جداً بصحبة السيد المركز. وكانت تنظّاه حينذاك، بدلاً من القيام إلى المائدة، بالقراءة وما أن تنطلق عربة المركز حتى تصعد للنوم. ثمّة أيام كانت تريد فيها أن تخطر سيدتي بالجبي لتراها أيضاً، ثم تخشى أن تفاجئها إذ لم يسبق أن قالت لها شيئاً. «ترين يا «فرانسواز»، خير لها أن تبقى مع زوجها». وسألتني «فرانسواز» فجأة، وهي تنظر إليّ إن كنت «أحسني منحرف الصحة» فقلت لها أن لا: «ثم إنك

تكلمني هكذا في الحديث معك وربما وصلت زائرتك. ينبغي أن أنزل، فليست شخصاً جديراً بهذا المكان. إذ يمكن «لمُسْتَعْجَلَةٍ» مثلها أن تكون عادت أدراجها، إذ هي لاحتجَب الانتظار، ويحك ! الآنسة «ألبيرتين» الآن أصبح لها وزناً. - «أنت على خطأ يا «فرانسواز»، إنها مقبولة، بل أكثر من ذلك بالنسبة إلى المكان. ولكن هيا أعلمها أنني لن أستطيع لقاءها اليوم».

آية خطب ومراث كنت أيقظت في صدر «فرانسواز» لو أنها أبصرتني أبكي! وتواريت بعناية، ولولا ذلك لحزت عطفها. على أنني وهبتها عطفها. فإتينا لاندخل إلى حد الكفاية في صدور هاتيك الوصيفات اللاتي لا يقوين على مشاهدتنا نبكي كما لو أن البكاء يؤلمنا، أو هو ربما يؤلمهن، إذ قالت لي «فرانسواز» حينما كنت صغيراً: «لا تبك هكذا فلا أحب أن أراك تبكي كما تفعل». لسنا نحب الجمل الفخمة وصنوف القسم، وإننا لعللى ضلال، إذ تغلق على هذا النحو قلوبنا دون العنصر المأسوي في الأرياف، دون الأسطورة التي تطلقها الخادمة المسكينة، وقد طردت، ربما ظلماً، بتهمة السرقة، تطلقها شاحبة اللون تماماً وقد أضحت فجأة أكثر اتضاعاً كما لو كان الاتهام جريمة، وهي تستشهد بنزاهة أبيها ومبادئ أمها ونصائح الجدّة. صحيح أن هؤلاء الخدم أنفسهم الذين لا يستطيعون احتمال دموعنا يتسبّبون دون رعدة ضمير بإصابتنا بالتهاب رئوي لأن الوصيفة في الدور الذي تحتهم تحبّ التيارات الهوائية وقد لا يكون من حسن التربية إزالتها. ذلك لأنه لا بدّ لمن كانوا على حق، مثل «فرانسواز»، أن يخطئوا هم أيضاً كي يجعلوا من العدالة أمراً مستحيلًا. فحتّى متع الخادما المتواضعة تستثير إماً رفض أسيادهن أو سخرتهم. والأمر على الدوام غير ذي بال ولكنه عاطفي على غباء وغير صحي. ولذلك يمكن أن يقلن: «كيف ذلك، أنا التي لا تطلب إلا هذا في بحر العام ولا يمنحوني إياه». مع أن الأسياد ربما أعطوا ما يجاوز ذلك كثيراً مما لا يتّسم بالسخف أو الخطورة عليهن - أو عليهم. أجل، لا يقدر المرء أن يقاوم اتضاع الوصيفة المسكينة المرتعشة المستعدة للإقرار بما لم تقترف يداها ونقول «سأرحل هذا المساء إن انبغى ذلك». ولكننا يجب كذلك أن نعرف كيف لانبقي فاقددي الإحساس، على الرغم من تفاهة الأشياء التي تقولها ولهجتها المتوعدة وميراثها لجهة أمها وكرامة «الحظيرة»، أمام طبّاخة عجوز تدثر حياتها وشرف الأسلاف وتمسك بالمكنسة كما تمسك بصولجان، وتصل بدورها حيز المأساة تقطّعه بالدموع وتعود لتنتصب بجلال. لقد تذكّرت في ذلك اليوم أو تخيلت مثل تلك المشاهد ونسبتها إلى خادمتنا العجوز، ومنذ ذلك الحين، وعلى الرغم من كلّ الإساءة التي أمكن أن تلحقها بـ «ألبيرتين» أحببت «فرانسواز» حباً مقطّعا بالحقبة ولكنه من النوع الأكثر قوّة، الحبّ الذي أساسه الإشفاق.

أجل، لقد تأملت طوال النهار وأنا مقيم أمام صورة جدتي. كانت تعذبني، أقلّ مع ذلك ممّا فعلت في المساء زيارة المدير. فقد سمعته فيما كنت أحدثه عن جدتي وهو يعيد عليّ تعازيه، سمعته يقول لي (إذ كان يحبّ استعمال الألفاظ التي يسيء تلفظها): «ذلك كمثل اليوم الذي أصيبت فيها جدتك بالغشيان»، وكنت أودّ إعلامك بالأمر فأنه بسبب الزبائن، ترى، كان يمكن أن يسيء ذلك للدار. كان خبيراً لها أن ترحل في المساء نفسه. ولكنها نوسلت إليّ أن لا أقول شيئاً ووعدتني أن لن تصاب «بالغشيان» من بعد أو أنها سترحل لأوّل ما يصبها. غير أنّ المشرف على الدور نقل إليّ أنها أصيبت بآخر. ولكنكم كنتم من قدامى الزبائن الذين

كنّا نسعى لإرضائهم، ولما لم يشتك أحد... هكذا إذن كانت جدتي تعاني من إصابات بالغشيان وقد أخففتها عني، ربما في الفترة التي كنت أبدي لها أقل اللطف وتضطرّ فيها، في غمرة الألم، أن تنتبه لأن تكون طبيبة المزاج كي لا تغيبني ولأن تبدو في أحسن عافية كي لا تطرد من الفندق. «الغشيان» كلمة ماكنت لأتخيلها في يوم بلفظها هذا ولعلها كانت بدت لي مضحكة إن انطبقت على آخرين غيرها، ولكنها في جدتها الصوتية الغريبة التي تشبه جدّة نشاز طريف لبثت فترة طويلة ما كان قادراً أن يوقظ في الأحاسيس الأكثر أيلاماً.

في الغد ذهبت بناء على طلب أمي للتمدّد قليلاً على الرمال، أو بالأحرى في الكثبان حيث يحتجب المرء داخل ثباتها وحيث أعلم أن «البيرتين» وصاحباتها لن يسكنهنّ العثور عليّ. كانت جفوني المرحية لا تسمح إلا بمرور نور وحيد ورديّ تماماً كان ذاك المنبعث من الجدران الداخلية لعينيّ. ثمّ انغلقت تماماً. حينئذ ظهرت لي جدتي جالسة على مقعد. كانت تبدو، بضعفها الشديد، وكأنما تحيا أقلّ من شخص آخر. ومع ذلك كنت أسمعها تتنفس. وأحياناً كانت إشارة منها تبرهن أنها فهمت ماكنّا نقوله أنا ووالدي. وعبثاً كنت أوالي تقبيلها فما أفلح في بحث نظرة حنان في عينيها وبعض لون على خديها. كانت تبدو، وقد غابت عن ذاتها، كأنها لا تحبني ولا تعرفني وربما لا تراني. وما كنت أستطيع كشف سرّ لامبالاتها وانحطاط قواها واستيائها الصامت. وانتحيت بأبي جانباً وقلت له: «ها أنت ترى مع ذلك أنه لا غبار على أنها أدركت كلّ شيء تمام الإدراك. إنه وهم الحياة التام. فلو استطعنا استقدام ابن عمك الذي يزعم أن الأموات لا يحيون! فإنه انقضى نيّف وعام على وفاتها ولا تزال بالإجمال حيّة. ولكن لم لا تريد تقبيلي» - «أنظر، هذا رأسها المسكين يهوي». - «ولكنها توّد الذهاب عمّا قريب إلى «الشانزليزيه». - «ذلك ضرب من الجنون» - «حقاً، أنظرن ذلك يجزّ عليها الأذى وأنها ربما ازدادت موتاً؟ لا يمكن أن لا تحبني من بعد. وعبثاً سأقبلها، أفن تبتم لي قط؟» «ومعاساك تريد، الأموات هم الأموات».

وبعد بضعة أيام أخذت أستعذب النظر إلى الصورة التي سبق أن صوّرها «سان لو»، فلم تعد توقظ في الذكري التي قالت عنها «فرانسواز» لأنها لم تفارقني من بعد وقد تعودتها. ولكن الصورة، في مقابل الفكرة التي كنت أحملها عن وضعها الخطير جداً والأليم جداً في ذلك اليوم، إذ أفادت من الحيل التي تفتّق عنها ذهن جدتي والتي كانت تفلح في خداعي حتى منذ أن كشفت لي، كانت تبرزها لي شديدة الأناقة، شديدة اللامبالاة تحت القبة التي كانت تحجب وجهها بعض الشيء إلى حدّ أن كنت أراها أقلّ تعاسة وأوفر عافية ممّا تصوّرتها. ولكن، لما كانت وجنتا جدتي قد اتخذتا دون علم منها ملامح خاصة بهما، شيئاً ما كامداً رمادياً مضيقاً كنظرة حيوان يحسّ أنه اختير وعين، فقد كان لها هيئة من حكمت بالإعدام، هيئة متهمّمة دونما قصد فاجعة دون وعي منها وكانت خافية عليّ ولكنها حالت دوماً دون أن تستطيع والدتي النظر إلى تلك الصورة، تلك الصورة التي كانت أقلّ ما تبدو صورة لوالدتها. منها لمرضها والإهانة التي طبعها ذلك المرض على وجه جدتي بصفعته القاسية.

ثمّ صممت ذات يوم أن أبعث من يقول لـ «البيرتين» إنني سأستقبلها قريباً، ذلك أنه ذات صباح ساده

حرّ شديد مبكر كانت آلاف صبيحات الأطفال الذين كانوا يلعبون والسباحين في مزحاتهم وبائعي الصحف قد وصفت لي بخطوط من نار وشرارات متشابكة الشاطئ الملتهب الذي تقبل الموجات الواحدة تلو الأخرى لتبلكه برطوبتها. حينئذ بدأ الحفل السمفوني تختلط به طبطة الماء وكانت الكمنجات تترّ فيه أزيز سرب نحل ضلّ طريقه فوق البحر. وفي الحال حضرتني الرغبة في سماع ضحكة «ألبيرتين» مجدداً وأن أعود فألقى صديقاتها، هاتيك الفتيات اللواتي يبرزن على صفحة الموج ولبنن في ذاكرتي السحر الذي لايفصل عن «البليك» ونباتها المميز، وكنت عقدت العزم على إرسال كلمة لـ«ألبيرتين» بوساطة «فرانسواز» أَدعوها في الأسبوع المقبل، فيما يتعالى البحر بهدوء ويغطي تماماً في كلّ تكسر موجة بدفقات من الكريستال اللحن الذي تبدو جملة ينفصل بعضها عن بعض كأولئك الملائكة من حملة المزهار الذين يرتفعون في أعلى الكاتدرائية الإيطالية بين قمم من السماقي الأزرق واليشب المزبد. ولكن الطقس في اليوم الذي جاءت فيه «ألبيرتين» ساء مجدداً وأصبح بارداً ولم تنج لي الفرصة على أية حال لسماع ضحكاتها فقد كانت معكزة المزاج إلى حدّ بعيد. وقالت لي «البليك» مزهقة في هذا العام وسأحاول أن لا أمكث طويلاً. تعلم أنني هنا منذ الفصح وقد مضى على ذلك أكثر من شهر. ليس هنا من أحد، فإن اعتقدت أن الأمر ممتع. وعلى الرغم من الهطل الأخير والسماة المتقلبة في كلّ دقيقة فقد مضيت، بعدما صحبت «ألبيرتين» حتى «ايرفيل» لأنّ «ألبيرتين» كانت تقوم برحلات «مكوكية»، حسب تعبيرها، بين هذا الشاطئ الصغير الذي تقوم عليه دارة السيّدة «بوتنان» و«انكرفيل» حيث تستضاف من جانب والدي «روزموند»، مضيت وحيداً في نزهة باتجاه ذلك الطريق الطويل الذي كانت تسلكه عربة السيّدة «دوفلباريزيس» حينما كنّا نذهب في نزهة برفقة جدتي. كان ثمة برك ماء صغيرة لم تحفّفها الشمس الساطعة فتجعل من الأرض مستنقماً حقيقياً وأخذت أفكر بجدتي التي ما كانت تستطيع فيما مضى أن تخطو خطوتين دون أن تتلخّط بالطين. ولكني ما أن وصلت إلى الطريق حتى بهرت. فحيث لم أكن شاهدت برفقة جدتي في شهر آب سوى الأوراق وما يشبه موضع أشجار التفاح، كانت على مدى النظر في تمام إزهارها وفي بدخ لا يصدق، تذهب سوقها في الوحل وهي في أثواب الرقص دون أن تحتاط كي لا تفسد أروع ساتين زهري وقعت عليه عين في يوم وكان يلتمع في ضوء الشمس. كان الأفق البعيد يوفر لأشجار التفاح كأنما خلفية لوحة يابانية مطبوعة. فإن رفعت رأسي لأنظر إلى السماء عبر الأزهار التي كانت تظهر زرقاتها المطمئنة عذبة أو تكاد، كانت تبدو كأنما تتباعد لتبرز عمق هذا الفردوس. كان ثمة نسيم خفيف ولكنّه بارد يبعث، تحت تلك الزرقاء، رعشة خفيفة في الباقات المحمّرة. وتقبّل قراقب زرقاء لتحتطّ على الأغصان وتتقافز بين الأزهار متسامحة كما لو أن الأمر أمر هاوي غرابيات وألوان اصطنع هذا الجمال النابض بالحياة، على أنه كان يؤثر فيك حتى ليستدرّ دموعك لأنك تحسّ، مهما مضى بعيداً في تأثيرات يشيعها فنه المرهف، أنه جمال طبيعي وأن أشجار التفاح تلك قائمة هناك في قلب الريف كممثل فلأحين على طريق واسعة من طرق فرنسه. ثم خلفت أشعة الشمس فجاءة حبال المطر. فجرحت كامل الأفق ودفنت صفوف شجر التفاح في شباكها الرمادية. ولكن هذه الأخيرة ظلت تنصب، بجمالها المزهري الوردية، في الريح التي أصبحت قارسة البرودة تحت وابل المطر المنهمر: كان ذلك واحداً من أيام الربيع.



## الفصل الثاني

[خبايا «ألبيرتين» - الفتيات اللواتي تشاهدن في المرأة - السيدة المجهولة -  
عامل المصعد - السيدة «دو كاميرمير» - متع السيد «نسيم بيرنار» -  
خطيطة أولى في طباع «موريل» الغربية - السيد «دوشار لوس» على  
العشاء في منزل آل «فيردوران».]

كنت أحاول، في خشيتي أن تضعف المتعة التي أصبتها في هذه النزهة المتوحدة تذكّر جدتي، أن أبعثه من جديد بالتفكير بواحد من العذابات النفسية الكبيرة التي عانت منها؛ وكان ذلك العذاب يحاول، استجابة لدعوتي، أن يتكوّن في فؤادي فيطلق فيه أعمدته الهائلة؛ لكن فؤادي كان دونما شكّ مفرط الضيق بالنسبة إليه ولم يجتمع لي من القوة ما أقوى به على حمل ألم عظيم إلى هذا الحدّ وكان انتباهي يشرد لحظة بتشكّل بكامله فتنهار أقواسه قبل التلاقي مثلما تنهار الأقواس قبل اكتمال عقدها.

على أنه كان يسعني بمحض أحلامي حين أعطّ في نومي أن أعلم أن اغتصابي بموت جدتي آخذ في التناقص، فقد كانت تظهر فيها وكأنّ الفكرة التي أتصورها عن عدمها أقلّ ضغطاً عليها. كنت أراها دائماً المرض ولكنّها على درب التعافي، فأجدها خيراً من ذي قبل. فإن بادرت إلى التلميح إلى ماسبق أن عانته كنت أغلق فاهها بقبلائي وأطمئنّها أنّها شفيت الآن نهائياً. كان بودّي حمل المشككين على ملاحظة أن الموت بالحقيقة مرض يعود المرء منه، ولكنّي ماعدت ألقى لدي جدتي تلقائية الأمس الخصبة. فلم تكن أقوالها سوى جواب واهن طيّع ويقرب أن تكون محض صدى لأقوالي؛ ولم تعد سوى انعكاس لفكري الخاص.

لما كنت بعدُ عاجزاً عن الإحساس مجدداً برغبة جسدية، فإن «ألبيرتين» أخذت من جديد مع ذلك توحى لي كأنّما برغبة في السعادة. إن بعض أحلام الحنان المتبادل التي تسبح دوماً في داخلنا تمتزج بسير من جرّاء نوع من التجانس بالذكرى التي تخلفها فينا امرأة أصبنا لذّة معها (بشرط أن تكون الذكرى أصبحت على شيء من الإبهام). كان ذلك الشعور يذكّرني بجوانب من وجه «ألبيرتين» أكثر نعومة وأقلّ مرحاً وتختلف إلى حدّ عن تلك التي لعلّ الرغبة الجسدية كانت ذكرّتي بها. ولما كان بمثل قلة إلحاح هذه الرغبة فلعلّي كنت أجلت تحقيقه طائماً إلى الشتاء القادم دون أن أجهّد في لقاء «ألبيرتين» ثانية في «بالبيك» قبل رحيلها. ولكنّ الرغبة الجسدية تطلع ثانية حتّى في قلب غمّ لا يزال حياً. فقد كنت أتمنّى من سريري الذي يأمروني بالمكوث فيه كلّ يوم فترة طويلة للراحة أن تأتي «ألبيرتين» لتعاود صنوف لهونا بالأمس. أفلسنا نرى زوجين، في الغرفة نفسها التي فقدوا فيها ولداً وقد عادا سريعاً إلى العناق ليخلفا شقيقاً للمتوفي الصغير؟ كنت أحاول أن أتلهى عن تلك الرغبة بالمضيّ حتّى النافذة لأشاهد بحر ذلك اليوم. ونادراً ما كانت البحار، شأنها في العام الأوّل، ذاتها من يوم إلى آخر. ولكنّها على أية حال كادت لا تشبه بحور السنة الأولى إمّا لأن الربيع حلّ الآن بأعاصيره، وإمّا، حتّى لو جثت في التاريخ نفسه الذي وفدت فيه في المرّة الأولى، لأنّ أزمّة مختلفة أكثر تقلّباً كان يمكن أن لا تشير بهذا الشاطئ على بعض البحور الكسولة الضبابية الهشة التي سبق أن رأيته على مدى أيام قاتلة تغفو على الشاطئ فيما يرفع صدرها الضارب إلى الزرقة على نحو يكاد لا يلاحظ خفقان هادئ، وإمّا



على وجه الخصوص لأنَّ عينيَّ اللتين درَّبهما «ايلستير» على أن تحتفظا بالضبط بالعناصر التي كنت أستبعدهما بالأمس بمحض إرادتي كانتا تتأملان طويلاً ما لم تكونا تحسنان رؤيته في العام الأول ، ولم يعد ذلك التعارض الذي كان يدهشني إلى حد بعيد بادئ الأمر بين النزاهة الحقلية التي أقوم بها بصحبة السيدة «دو فيلباريزيس» وهذا الجوار السائل العزيز المنال الأسطوري للمحيط الأزلي ، لم يعد قائماً في نظري. وفي بعض الأيام كان البحر الآن يبدو لي على العكس ريفياً بدوره . وفي أيام كان الطقس فيها جميلاً حقاً، وهي نادرة إلي حد ما . كان الحرّ قد خطَّ على المياه ، وكأنما عبر الحقول ، طريقاً مغبرةً ، بيضاء تطلُّ من خلفها مقدمة مركب صيد رشيقة كقبة جرس قروية. وكانت هناك قاطرة لا ترى سوى مدخنتها تنفث دخانها في البعيد شأن مصنع منزل، فيما يذكرك مربع أبيض محدب وحيد في الأفق وقد رسمته دون شك كف شرار ولكنما يبدو كثيفاً ويقرب أن يكون كلسياً ، يذكرك بالزاوية المشمسة لبناء منزل ، أمشفي كان أم مدرسة . وكانت السحب والرياح ، في الأيام التي يضاف شيء منها إلى الشمس ، تتم إن لم يكن الخطأ في التقدير، فعلى الأقل وهم النظرة الأولى والإحياء الذي توقظه في الخيال، ذلك لأن تماقب مساحات لونية واضحة الاختلاف كتلك الناجمة في الأرياف عن تلاصق زراعات مختلفة ، والفروق الحادة الصفراء التي تقرب أن تكون موحلة على صفحة البحر والتلال الرديئة والتلاع التي كانت تحجب عن العين قارباً يبدو فيه فريق من البحارة الرشاق وكأنه في حصاد، كل ذلك كان يجعل من المحيط في الأيام العاصفة شيئاً في مثل تنوع وتماسك وتوَج ووفرة سكان وتحضر الأرض السالكة التي كنت أمضي عليها بالأمس ولن أتأخر في القيام بنزهات فوقها، وذات مرة لم يسعني الوقوف في وجه رغبتني فارتديت ثيابي بدلاً من أن أعود إلى النوم وذهبت في طلب «ألبيرتين» في «أنكرفيل» سوف أسألها مرافقتي حتى «دوفيل» حيث أقوم في «فيتيرن» بزيارة للسيدة «دوكامبرمير» وفي قصر «لاراسيلير» بزيارة للسيدة «فيردوران»، وستتظرنني «ألبيرتين» في أثناء ذلك على الشاطئ، ونعود بعد ذلك سوية في الليل، وذهبت لأستقل الخط الحديدي الصغير ذا الفائدة المحلية الذي أطلعتني «ألبيرتين» وصاحباتها فيما مضى على سائر ألقابه في المنطقة ، فكان يدعي فيها تارة «الملفاف» بسبب انعطافاته التي لا تحصى ، و«الحنطور» لأنه لا يتقدم، و«عابر المحيطات» بسبب صفارة مريضة كانت له كي يحيد المارة عن دربه، و«ديكوفيل»<sup>(١)</sup> و«القطار السلكي» مع أنه لم يكن سلكياً في شيء بل لأنه يتسلق الجرف، ولا كان «ديكوفيل» بالمعنى الصحيح للكلمة بل لأن سكنته كانت بعرض ٦٠، وال «ب ا غ» لأنه يمضي من «بالبيك» إلى «غرانفاس» مروراً بـ «أنجرفيل» و«الترام» وال «ج ج ن» لأنه جزء من خط «حافلات جنوب النورماندي» .

وجلس في عربة كنت فيها وحيداً، كان الطقس مشرقاً رائعاً، وكان الحرّ خانقاً فانزلت الستارة الزرقاء التي لم تفسح في مجال المرور إلا لخط من الشمس . ولكنني رأيت في الحال جدتي مثلما كانت جالسة في القطار لدى رحيلنا من باريس إلى «بالبيك» حينما فضلت، في العذاب الذي تعانیه لدى رؤيتي أحتسي «البيرة»، أن لا تنظر إليّ وأن تغمض عينيها وتظاھر بالنوم. وأنا الذي ما كان يطبق فيما مضى احتمال العذاب الذي ينتابها حينما يحتسي جدي الكونياك فقد أدققتها لاعذاب أن تراني فحسب أحتسي بدعوة من آخر غيري

(١) اسم الصناعي الذي اقترح خطاً حديدياً ضيقاً لأغراض النقل الصناعي.

شراباً تظنّه مشؤوماً عليّ، بل أرغمْتُها أن تطلق حرّيتي في الاحتساء منه ما طاب لي . بل الأنكى أنّي اضطررتها بصنوف غضبي ونوبات الاختناق التي تصيبني أن تساعدني في ذلك وتنصّحني به بنوع من التسليم الأخير الذي كنت أحتفظ منه أمام الذاكرة بصورة خرساء يائسة مخمضة العينين كي لا تبصر. وقد أعادت لي مثل تلك الذكرى، وكأنّما ضربة عصا سحرية، أعادت لي من جديد الروح التي كنت أخذاً في فقدانها منذ فترة. فما عساي كنت أفعل به «روزموند» وشفّناي بكل أجزائهما لا تجول فيهما سوى الرغبة في تقبيل ميتة؟ وما عسى كنت أستطيع أن أقول لآل «فيردوران» وآل «كامبرير» حينما يخفق فؤادي خفقاً شديداً إذ يعود فيتشكّل فيه في كل لحظة العذاب الذي عانت منه جدّتي؟ ولم أستطع المكوث في تلك العربة. وما أن توقّف القطار في «مينفيل» لانتويرير» حتّى نزلت وقد تخلّيت عن مشرّعائي، وكانت «مينفيل» قد اكتسبت منذ حين أهمية عظيمة وسمعة خاصة لأن مديراً لكازينوهات كثيرة، وهو من باقي الرفاه، كان قد ابتنى في مكان غير بعيد من هناك، ويذخ قادر أن ينافس في سوء ذوقه ما نراه مثلاً في فندق كبير، منشأة سوف تعود إليها وكانت بصريح العبارة أول بيت بغاء للطبقات الراقية خطرت فكرة بنائه على شواطئ فرنسه. وكان الوحيد. صحيح أن لكلّ مرفأ بيته ولكنّه لا يصلح إلا للبحارة ولهواة الطرافة الذين يلهون بأن يشاهدوا قريباً جداً من الكنيسة المغرقة في القدم، «رَبّة الدار» وهي قديمة جلييلة مطحلبة مثلها، تقف أمام بابها السيء السمعة بانتظار عودة مراكب الصيد .

وابتعدت عن بيت «المتعة» البديعة الذي يشمخ هنا بوقاحة على الرغم من احتجاجات الأسر التي وُجّهت دون جدوى للعمدة، وعدت إلى الجرف أسلك طرقة المتراجعة إلى «بالبيك»، وسمعت دون استجابة منّي نداء أزهار الزعرور. كانت تجاور، على ثراء أقلّ، أزهار التفاح فتراها على ثقل كبير فيما تقرّ باللون الندي الذي لبنات صانعي عصير التفاح الكبار ذوات البتلات الموردة. وكانت تعلم أنها، وإن تكن أقلّ مهوراً، مرغوبة أكثر ويكفيها لتروق الناس شيء من بياض جعد .

حينما عدت سلّمني بواب الفندق ورقة نعوة يعني فيه المركيز والمركيزة «دوغونفيل» والفيكونت والفيكونتية «دامفرقيل» والكونت والكونتيسة «دو بيرنفيل» والمركيز والمركيزة «دو غرانكور» والكونت «دامنونكور» والكونتيسة «دومينفيل» والكونت والكونتيسة «دوفرانكنو» والكونتيسة «دوشا فيربي» المولودة «ديغلقيلا»، أدركت منها أخيراً سبب إرسالها إليّ حينما تعرّفت أسماء المركيزة «دوكامبرير» المولودة «دومينيل لا غيشار» والمركيز والمركيزة «دوكامبرير» وتبيّنت أن المتوفاة، وهي من بنات عمومة آل «كامبرير» وتدعي «إيلينور - أوفرازي - هومبرتين دوكامبرير»، كونتيسة «كريكنو». لم يكن ثمة على كامل امتداد هذه الأسرة الريفية التي يغطي تعدادها سطوراً ناعمة مترابطة، وبارجوازي واحد، كما لم يكن ثمة أيّ لقب معروف على أيّ حال، بل كامل مجموع النبلاء وردقاتهم في المنطقة الذين تصدح أسماءهم - وأسماء سائر الأماكن الهامة في المنطقة - ذات النهايات المرحّة: «فيل»، و«كور» وأحياناً «تو» الأقلّ رنينا. كانت تلك الأسماء تبدو، وقد ألبست قرميد قصرها أو ملاط كنيسة، والرأس متداع يكاد لا يجاوز عقد القبة أو جسم المسكن، وإن فعل فلمحض أن يعتمر المنور النورماندي أو مفرغات السطح المخروطي، كانت تبدو وكأنّها تبوّق لحشد سائر القرى الجميلة المصفوفة أو المبعثرة في دائرة قطرها خمسون فرسخاً وأنها ربّتها ضمن تشكيلة مترابطة دونما فراغ

فيها ودون أيّ دخيل في اللوحة الكثيفة المستطيلة للرسالة الأرستقراطية المؤطرة بالسواد.

كانت أمّي قد صعدت مجدداً إلى غرفتها وهي تمنع الفكر في جملة السيّد «دو سيقينييه» هذه: «لست أرى أحداً من أولئك الذين يودّون تسليتي، الأمر الذي يعني بكلمات مستورة أنهم ييغون صرفي عن التفكير بك، وذلك ليس لي إلى»، لأنّ الرئيس الأوّل كان قال لها إنّه يجدر بها أن تتسلّي. أمّا أنا فقد همست في أذني قائلاً: «إنّها الأميرة دو پارما». وزالت خشيتي إذ تبين أنّ المرأة التي كان يدلّني عليها القاضي لا صلة لها بالبتّة بسموها الملكي، ولكنها إذ سبق أن حجزت غرفة لقضاء الليلة لدى عودتها من منزل السيّد «دو لوكسمبور»، فقد كان من تأثير الخبر على الكثيرين أن جعلهم يعدّون كلّ سيّد جديدة وفدت الأميرة «دوپارما» - وعليّ أن جعلني أصعد للاحتباس داخل عليّتي. وماكنت أبغني البقاء فيها وحيداً كانت الساعة تناهز الرابعة، فسألت «فرانسواز» أن تذهب في طلب «ألبيرتين» لتأتي لقضاء أواخر العصر معي.

أظنني أكذب لو قلت أن بدأ منذ ذاك الارتياب المؤلم والدائم الذي سوف توحى لي به «ألبيرتين»، ومن باب أولى ما كان سيرتيه ذلك الارتياب من طابع خاصّ وسحائيّ على وجه الخصوص. أجل أصبح انتظاري منذ ذلك اليوم - على أنّه لم يكن الأوّل - يشوبه شيء من القلق. لقد مكثت «فرانسواز» بعدما ذهبت، فترة طويلة إلى حدّ أن أخذت أفقد الأمل. لم أكن أضأت مصباحاً، وضوء النهار كاد يولي. كانت الريح تحرك راية الكازينو فتصطفق. وكان ثمة أرغن يدوي صغير توقّف أمام الفندق يعزف رقصات فالس من فيينا وبدأ أشدّ وهناً في سكّون رمال الشاطئ التي يزحف فوقها البحر، وكأنّه صوت ترجم وضاعف الإبهام المزجج لتلك الساعة القلقة الزائفة. وأخيراً وصلت «فرانسواز» إلّما وحدها. «لقد رحت بما أمكنني من السرعة، ولكنها ما كانت تود المجيء من جرّاء أنّها لا تجد تسريحتها مرضية تماماً. ولئن لم تمكث ساعة دوّارة تضع المساحيق والكريمات فهي لم تمكث خمس دقائق على أيّ حال، وسوف يصير هنا مركز عطارة حقيقي، إنّها آتية؛ لقد بقيت في الخلف لتصلح حالها أمام المرأة، ظننت أنّي سأجدها هنا». وطال بنا الوقت أيضاً قبل أن تصل «ألبيرتين» ولكنّ ما أبدت هذه المرّة من مرح ولطف بدد غمي. وأخبرتني (بعكس ما كانت قالت ذلك اليوم) أنّها باقية طوال الفصل وسألّني إن لم يكن بإمكاننا الالتقاء كلّ يوم شأننا في السنة الأولى. فقلت لها إنّني في حزن شديد في هذه الفترة وإنّي بالأحرى سوف أرسل في طلبها بين الحين والحين في آخر لحظة كما كانت الحال في باريس. فقالت لي: «إن أحسست بالغمّ في يوم أو رغبت في ذلك فلا تتردّد وأرسل في طلبي أقبل إليك بسرعة وإن لم تخش أن يثير الأمر فضيحة في الفندق بقيت قدر ما تشاء». كانت «فرانسواز» قد بدت سعيدة، وهي تعود بها، شأنها في كل مرّة تحمّلت مشقة في سبيلي وأفلحت في إيلائي بهجة وسرور. لكنّ «ألبيرتين» ذاتها لم تكن في شيء من تلك المسرة وكانت «فرانسواز» ستقول لي منذ الغد هذه الكلمات العميقة المغزى: «يجدر بسيديّ أن لا يلتقي هذه الأنسة، فإنّي أرى تماماً نوعيّة الطباع التي هي عليها وسوف تسبب لك صنوفاً من الغم». وقد رأيت عبر قاعة الطعام المضاءة، وأنا أرافق «ألبيرتين» مودّعاً، الأميرة «دوپارما». ونظرت إليها فحسب فيما تدبّرت أمرى كي لا تراني ولكنّي أقرّ أنّي وجدت شيئاً من العظمة في التأدّب الملكي الذي سبق أن بعث ابتسامة على شفّتي في منزل آل «غيرمانت». فإنّه لمبدأ أن يكون الملوك في بيتهم أينما حلّوا وإن المراسم تجسّد ذلك في عادات مبدئية لا قيمة لها كالعادة التي تقضي بأن يمسك ربّ

البيت قبعت بيده في منزله ذاته كي يبرز أنه لم يعد في بيته بل لدى الأمير. على أن الأميرة «دويارما» ماكانت ربّما تعرب لذاتها عن هذه الفكرة، ولكنّها كانت تشربتها إلى حدّ أن سائر أفعالها التي تختلقها تلقائياً في المناسبات كانت تجسّدها. وحينما غادرت المائدة أعطت «إيميه» إكرامية كبيرة كما لو كان هناك من أجلها فقط وكانت تكافئ وهي تغادر أحد القصور رئيس خدم أفرد لخدمتها. ولم تكتف بالإكرامية على أيّ حال بل وجهت إليه بابتسامة عذبة بعض كلمات تجمع اللطف إلى الإطراء وكانت والدتها زودتها بها. ولو زادت قليلا لقال له إنه بقدر ماكان الفندق حسن الإدارة بقدر ما كانت مقاطعة النورماندي مزدهرة وإنّها تفضّل فرنسه على جميع بلاد الدنيا. وانسلت قطعة نقود أخرى من يدي الأميرة إلى الساقبي الذي أرسلت في طلبه وحرصت أن تعرب له عن رضاها مثل جنرال أقدم على استعراض. وكان عامل المصعد قد جاء يحمل لها جواباً فكانت له كلمته وابتسامة وإكرامية والكلّ يمتزج بكلمات تشجيع متواضعة من شأنها إقامة البرهان على أنّها لم تكن أفضل من واحد منهم. ولما ظن «إيميه» والساقبي وعامل المصعد والآخر من غير التهذيب أن لا يتسموا حتّى أذانهم لمن كان يتسم لهم، فإنّها سرعان ما أحاط بها فريق من الخدم تحذّرت إليهم بعطف. ولما كانت هذه التصرفات غير شائعة في الفنادق الكبيرة فقد ظن من كانوا يمرّون على الشاطي، وهم يجهلون اسمها أنهم يشاهدون واحدة من يرتادون «بالبيك»، وأنّها بسبب ضالّة مولدها أو لمصلحة مهنية (ربّما كانت زوجة مروج لبيعات الشامبانيا) كانت أقلّ اختلافاً عن الخدم من الزبائن الراقين حقاً. أمّا أنا ففكرت في قصر «بارما» والنصائح التي نصفها ديني والنصف سياسي والتي أسديت لهذه الأميرة التي كانت تنصرف مع الشعب وكأنّما كان لازماً عليها أن تستميلة لارتقاء العرش ذات يوم، بل أكثر من ذلك كأنّما كانت جالسة على العرش.

وصعدت إلى غرفتي ولكنّي لم أكن وحيداً فيها. كنت أسمع أحدهم يعزف بعدوبة مقطوعات لـ «شومان». صحيح أنّه يتفق للناس، وحتّى لأفضل من نحبّ منهم، أن يلغوا مرحلة الإشباع جرّاء الحزن أو الإزعاج الصادر عنّا. ولكنّما ثمة شيء يملك قدرة على نفاذ صبرك لن يبلغ إليها مرّ في يوم : إنه البيانو.

كانت «ألبيرتين» قد أملت على التواريخ التي ستغيب فيها وتذهب لدى صديقات لقضاء بضعة أيام وطلبت إليّ تسجيل عنوانهنّ إمّا كنت بحاجة إليها في واحدة من تلك الأمسيات إذ لم تكن آبة منهنّ تسكن بعيداً جدّاً. وقد نجم عن ذلك أنّه، في سبيل العثور عليها بالانتقال من فتاة إلى أخرى، انعقد من حولها على نحو طبيعيّ تماماً روابط من زهور. وإنّي لأجرؤ فأقرّ بأنّ كثيرات من صديقاتها - وما كنت بعد أحبّها - وفرّن لي على هذا الشاطي أو ذاك لحظات إمتاع. وما كانت تبدو تلك الرفيقات الشابات العطوفات كثيراً جدّاً، لكنّي عدت ففكرت فيهنّ مؤخراً وعاودتني أسماؤهن، وقد عدت أن اثنتي عشرة وهنّني آيات جبهنّ العابرة في ذلك الفصل وحده. وحضرتني اسم فيما بعد فكان المجموع ثلاث عشرة. واتّابني حينذاك ما يشبه الخوف الصبباني من أن أمكث على هذا العدد. ورحت أفكر، وأسفي، أنني نسيت الأولى، «ألبيرتين» التي طواها الموت وكانت الرابعة عشرة.

كنت سجلت، كيما أعود إلى قصّتي، أسماء وعناوين الفتيات اللواتي ربّما وجدتها عندهنّ في يوم لا تكون فيه في «انكرفيل»، ولكنّي فكرت أنّي ربّما أفتدت من تلك الأيّام بالأحرى للذهاب إلى منزل السيّد

«فيردوران» على أن رغبتنا الموجهة لنساء مختلفات ليست تملك على الدوام القوة نفسها. فإننا لا نستطيع ذات مساء أن نكون في غنى عن واحدة تكاد لا تثيرنا بعد ذلك على مدى شهر أو اثنين. ثم إنه بالإضافة إلى أسباب التناوب التي ليس مجال النظر فيها هنا وفي أعقاب الإرهاقات الجسدية الكبيرة فإن المرأة التي تلازم صورتها شيخوختنا المؤقتة امرأة كدنا ربما لا نقوم بأكثر من تقبيلها على جبينها. أما «ألبيرتين» فكنت أراها نادراً وفي أمسيات متباعدة جداً فحسب كنت لا أستطيع فيها الاستغناء عنها بغيرها. فإن تنازعتني مثل تلك الرغبة وهي بعيدة عن «بالبيك» بعداً يحول دون أن تستطيع «فرانسواز» بلوغ مكانها كنت أرسل الخادم الخاص إلى «أبيرفيل» و«لاسوني» و«سان فريشو» بعدما أطلب منه إنهاء عمله أبكر قليلاً. وكان يدخل غرفتي ولكنه يدع الباب مفتوحاً فإنه على الرغم من انجازه الوجداني لعمله، وكان شاقاً جداً ويقوم منذ الخامسة صباحاً على عمليات تنظيف كثيرة، لم يكن يستطيع القيام بجهد إغلاق الباب، وإن أشرت إليه أنه مفتوح كان يعود أدراجه ويدفعه دفعاً خفيفاً بالغاً بذلك أقصى حد في جهده. وبالكبرياء الديمقراطية التي كانت تطبعه والتي لا يبلغ إليها في الأعمال الحرة أعضاء مهن كثيرة إلى حد ما من محامين وأطباء وأدباء لا يدعون إلا محامياً آخر أو طبيباً أو أدبياً «أخاً» لهم، كان هو يستخدم بحق مصطلحاً مخصصاً للهيئات المحدودة كالمجامع العلمية على سبيل المثال فيقول لي وهو يكلمني عن موزع يضحي خادماً خاصاً مرة كل يومين: «سأنظر في أمر إحلال زميلي» محلي. وما كانت كبرياؤه تلك تمنعه، بغية تحسين ما كان يدعو «مرتبة»، عن قبول مكافآت لقاء مشاويره جعلت «فرانسواز» كارهة له. «أجل، ربما أعطيت له لأول مرة تراه جسد الرب دونما اعتراف»<sup>(١)</sup>، ولكنه في بعض الأيام مهذب كما هو باب السجن. كل هؤلاء من نوع الحرامية. وهي فئة غالباً ما وضعت فيها «أولا لي»، وكانت من أسف، إزاء كل المصائب التي سيجرّها الأمر فيما بعد، تنحسر فيها مذكاة «ألبيرتين» لأنها كثيراً ما كانت تراني أطلب من أمي لصديقتي الرقيقة الحال حاجات صغيرة وحلي رخيصة، وهو ما كانت «فرانسواز» لا تغتفره مطلقاً إذ لم يكن لدى السيدة «يونتان» سوى خادمة لمشاغل البيت جميعها. وسرعان مابرز عامل المصعد، بعدما خلع برّته وما كان يدعو ثوبه، برز بقبعة قش وعصا وهو يهتم بخطرته منتصب القامة إذ أوصته والدته بأن لا يتخذ مظهر «العامل» أو «الموزع». ومثلما يغدو العلم، بفضل الكتب، في تناول العامل الذي لا يعود عاملاً بعد ماينهي عمله، كذلك كانت الأناقة بفضل القبعة وزوج الكفوف تغدو في تناول عامل المصعد الذي كان يظن، وقد كف في السهرة عن نقل الزبائن إلى فوق، شأن جرّاح شاب خلع صدره أو الرقيب «سان لو» إذ يخلع برّته، أنه أصبح بالتمام والكمال من رجال الطبقة الراقية، ولم يكن بأي حال عديم الطموح أو المهوبة كذلك كيما يتحكّم بمصعده ولا يوقفك بين دورين بيد أن لغته كانت ملأى بالعيوب. كنت أصدّق طموحه إذ كان يقول في حديثه عن البواب الذي كان هو تابعاً له: «بوابي» بذات اللهجة التي لعل رجلاً يملك في باريس، ما ربما سمّاه الموزع «فندقاً خاصاً». كان تحدث بها عن بوابه. أما بخصوص لغة عامل المصعد، فالغريب أن يسمع أحدهم الزبون يقول خمسين مرة في اليوم «مصعد» ولا يقول هو البتة إلا «مصعد»، وكانت بعض الأمور تزعجك إلى أبعد حد لدى عامل المصعد: فقد كان مهماً قلت له يقاطعني بعبارة «ها أنت ترى!» أو «تأمل!» التي تبدو وكأنها تعني إنما أن ملاحظتي من البدهاة إلى حد أن كان وجدها كل الناس، أو أنه يردّ الفضل إلى نفسه كما لو أنه هو من يلفت انتباهي

(١) إشارة إلى أحد الأسرار المقدسة لدى المسيحيين وهو التقرب إلى المائدة المقدسة في حال الطهارة التامة.

للأمر. كانت عبارة «ها أنت ترى!» أو «تأمل!» التي تنطلق بأعظم زخم، تعود كل دقيقتين على لسانه في معرض أمور ما كان لينتبه لها في يوم، وهو أمر كان يثير حنقي إلى حد أنني كنت أشرع في الحال في قول العكس لأظهر له أنه ما كان يفقه في الأمر شيئاً. ولكنه إزاء توكيدي الثاني، ومع أنه لا يتفق مطلقاً مع الأول، كان يجيب مع ذلك: «ها أنت ترى!» أو «تأمل!» وكأنما لا يمكن تفادي هذه الكلمات، وكنت أغفر له بصعوبة استخدامه بعض مصطلحات مهنته، والتي ربما كانت بسبب ذلك مناسبة تماماً بمعناها الحقيقي، بالمعنى المجازي فقط، الأمر الذي كان يضفي عليها مقصداً تظرفياً على شيء من الغباء، كالفعل «دوس» مثلاً، فإنه لم يستخدمه قط بعد قيامه برحلة على الدراجة ولكنه. إن أسرع في سيره على قدميه كي يصل في الساعة المحددة، كان يقول: «ها أنت ترى كم دوسنا!» وعامل المصعد كان أقرب أن يكون قصيراً سيء البنية وعلي قبح كافٍ. ولا يحول ذلك في كل مرة تحذره فيها عن فني طويل القامة مديد مشقوق دون أن يقول: «آه ! أجل، أعرف، هو واحد بطولي تماماً». وفي يوم كنت أنتظر جواباً منه، وإذ سمعت من يصعد الدرج قمت، وقد عيل صبري لسماع وقع خطاه، ففتحت باب غرفتي وأبصرت موزعاً جميلاً جمال «أنديميون»<sup>(١)</sup> كامل القسمات إلى حد لا يصدق وقد جاء من أجل سيّدة ما كنت أعرفها. وبعدما عاد عامل المصعد رويت له، وأنا أخبره بأي نفاذ صبر كنت أنتظر جوابه، أنني ظننته هو يصعد ولكننا كان موزعاً من فندق «التورماندي» فقال لي: «آه ! أجل، أعرف من هو، ليس ثمة آخر سواه، إنه صبي بقامتي. وهو بالوجه كذلك يشبهني إلى حد يمكن أن نؤخذ به الواحد مكان الآخر؛ لكنه شقيقي بالتمام والكمال». وأخيراً كان يريد أن يبدو عليه أنه فهم كل شيء منذ اللحظة الأولى، فكان لذلك يقول ما إن يوصونه على أمر: «نعم، نعم، نعم، نعم، نعم أنا فاهم تماماً» بوضوح ولهجة ذكية أوهماني زماناً ما؛ ولكن الأفراد كلما ازدادنا معرفة بهم أشبه بمعدن غمس في مزيج مفسد، فتراهم يفقدون شيئاً فشيئاً صفاتهم (كما يفقدون أحياناً عيوبهم). وقيل أن أسمعهم توصياتي رأيت أنه ترك الباب مفتوحاً، فحملته على ملاحظة الأمر إذ خشيت أن يسمعونا. ونزل عند رغبتني وعاد وقد قلل الفتحة. «ذلك كرمي لك، فليس أحد بعد في الدور سوانا». وسمعت في الحال أحدهم يمر، ثم اثنين فثلاثة، كان الأمر يزعجني بسبب إفشاء ممكن للأمور، بل على وجه الخصوص لأنني أرى أن ذلك لا يدهشه البتة وأن الجيئة والروح أمر طبيعي. «أجل إنها الوصيفة التي بجانبنا تمضي لجلب حاجاتها، آه ! لا أهمية لذلك، إنه الساقى يصعد بمفاتحه. لا، لا، لا شيء هناك يوسعك أن تحدث، إنه زميلي يبدأ نوبته». لما كانت دواعي الناس للمرور لا تقلل من انزعاجي أن يمكنهم سماعي فقد مضى نزولاً عند طلبي الصريح لا ليغلق الباب، فالأمر يجاوز قوى هذا الدراج الذي كان رغباً في «دراجة نارية»، بل ليدفعه أكثر قليلاً. وهكذا ترانا مطمئنين تماماً.

وكنّا كذلك إلى حد أن أميريكية دخلت وانسحبت تعتذر عن أنها أخطأت غرفتها، فقلت له بعد أن صفت بنفسي الباب بكل ما أملك من قوة (فدعا ذلك موزعاً آخر ليتأكد أن لم يكن ثمة نافذة مفتوحة). «تذكر تماماً: إنها الأنسة «ألبيرتين سيمونية» ذلك على المغلف بأية حال. ما عليك إلا أن تقول لها إن الأمر من جانبي وستأتي بكل طيبة خاطر» أضيف قولي لأشجعه على أن لا يبالغ في إذلالي. - «ترى ذلك!» -

(١) راع شاب على جمال عظيم في الأساطير اليونانية وقت «سليبي» (القمر) في حبه فسألت كبير الآلهة «زيوس» راحة البال والخلود له فقبل على أن يأخذه النوم إلى الأبد.

«لا، على العكس، فليس طبعياً أن تأتي عن طيب خاطر، لأنّ المجيء من «بيرنقيل» إلى هنا ينطوي على إزعاج كبير». - «فهمت !» - «قل لها أن تأتي مع». - «نعم، نعم، نعم، نعم، أفهم تماماً»، يجيب قوله بتلك اللهجة الواضحة الدقيقة التي كفت منذ فترة طويلة عن إيلائي «انطباعاً طيباً» لأنني كنت أعلم أنها تقرب أن تكون آلية وأنها تخفي خلف وضوحها الظاهر الكثير من الإبهام والغباء.

«وفي أية ساعة تكون عدت ؟» فيجيب عامل المصعد وهو يذهب بالقاعدة التي سنّها «بيليز»<sup>(١)</sup> لتجنّب تكرار أداتي نفي إلى حدّها الأقصى فيكتفي علي الدوام بأداة واحدة، ويقول: «لن يطول غيابي. ويمكنني تماماً أن أذهب. والحقيقة أنّ الطلبات ألغيت بعد الظهر هذا إذ كان ثمة صالة بعشرين مقعداً أعدت للغداء، وكان دوري في الطلعة بعد الظهر. فإن خرجت قليلاً في هذا المساء فالوقت يكاد لا يكفي. آخذ درّاجتي معي وهكذا أكون أكثر عجلة». وكان يعود بعد ساعة قائلاً: «لقد انتظر سيدي طويلاً، ولكن الأنسة تأتي معي. إنها تحت». - «آه ! شكراً، والبواب ألن يغضب مني؟» - «السيد بول؟» إته حتّى لا يعلم أين ذهبت. حتّى مشرف الباب لا علاقة له. ولكن حينما قلت له ذات مرّة: «لا بد أن تعود بها»، قال لي وهو يتسم: «تعلم أنّي لم ألّقها، فليست هناك ولم أستطع البقاء أكثر، فقد خفت أن أصبح مثل زميلي الذي «سقروه» من الفندق»، (ذلك لأن عامل المصعد الذي كان يقول «عاد» بشأن وظيفة يدخلها المرء للمرّة الأولى: «بودي أن «أعود» إلى البريد»، كان بداعي التعويض أو لتخفيف الأمر إن تعلق به، أو للتلميح به بلهجة متكلفة اللطف أو غادرة إن تعلق بآخر غيره، يقول «سقروه»: «أعرف أنّهم سقروه». وما كان يتسم عن خبث بل من جرّاء استحيائه. كذلك إن كان قال لي: «تعلم أنّي لم ألّقها»، فما ذلك لأنه يعتقد أنّي عالم بالأمر. فهو على العكس ما كان يشكّ بأنّي أجهله وكان على وجه الخصوص في هلع منه ولذلك تراه يقول: «تعلم» ليجنّب نفسه الأحوال التي سيقطعها وهو ينطق بالجميل المعدّة لإطلاعي عليه. فيجدر بنا أن لا نثور ناثرتنا على أولئك الذين إذ نأخذهم بذنبهم إلينا يشرعون بالحقيقة، فإنما يفعلون ما يفعلون لا لأنهم يسخرون ولكنّا يرتجفون من إمكان أن نساء فلنظهر إشفافاً كبيراً ولنبرز لطفاً كبيراً إزاء من يضحكون. لقد حمل اضطراب عامل المصعد لنفسه، على نحو أزمة قلبية تماماً، لا احمرار السكتة فحسب بل تشوّه في اللغة التي أضحت فجأة دارجة. وقد أوضح لي في نهاية المطاف أن «ألبيرتين» لم تكن في «ايرفيل» وأنها لن تعود إلا في التاسعة، فإن اتّفق لها أحياناً، ويقصد إن صادف أن تعود أبكر من ذلك فسوف يبلّغونها الرسالة وتكون في جميع الأحوال عندك قبل الواحدة صباحاً.

على أنّ شكوكي المؤلمة لم تبدأ بعد بالتماسك في ذلك المساء. لا، وكما أقول ذلك في الحال، ومع أن المسألة لم تخطّ إلا بعد عدّة أسابيع، فقد نجم الأمر عن ملاحظة أدلى بها «كوتار». لقد أرادت «ألبيرتين» وصاحباتها أن يدفعنني إلى كازينو «انكر فيل» في ذلك اليوم، وما كنت للنصيب لحقت بهنّ إلى هناك (حيث أبغني الذهاب لزيارة السيّدة «فيردوران» التي سبق أن دعّنتني عدّة مرّات) لو لم يوقّفني في «انكر فيل» نفسها عطل في الحافلة يقتضي إصلاحه بعض الوقت. وإذ كنت أذرع المكان طولاً وعرضاً بانتظار إنجازها رأيّتي فجأة وجهها لوجه مع الدكتور «كوتار» الذي جاء إلى «انكر فيل» في استشارة. كدت أتردّد في

(١) أحد شخص مسرحيّة لـ «موليير» بعنوان «النساء العالمات» وتضمّ قاعدته على نيل استخدام نقيين في آن واحد ne...pas. nos. علماً بأنّ ne...pas أداة واحدة وهنا يكمن خطأ عامل المصعد، والقاعدة لا تنطبق إلا على الفرنسية ولذلك نراها غالبة في الترجمة.

تَحِيَّتُهُ لِأَنَّهُ لَمْ يَكُنْ أَجَابِي عَلَى آيَةٍ مِنْ رَسَائِلِي. وَلَكِنَّ اللَّطْفَ لَا يَتَجَلَّى لَدَى الْجَمِيعِ بِالطَّرِيقَةِ نَفْسِهَا. فَلَمَّا لَمْ تَلْزِمِ التَّرْبِيَةَ «كُوتَار» بِقَوَاعِدِ آدَابِ السُّلُوكِ الثَّابِتَةِ ذَاتِهَا الَّتِي تَلْزِمُ جَمَاعَةَ الطَّبَقَةِ الرَّاقِيَةِ، فَقَدْ كَانَ يَفِيضُ مِنْ طَيِّبِ نَوَايَا يَجْهَلُهَا النَّاسُ وَيَنْكُرُونَهَا إِلَى الْيَوْمِ الَّذِي تَحْنُ فِيهِ الْفُرْصَةُ لِإِظْهَارِهَا، وَاعْتَذِرْ، وَكَانَ قَدْ تَسَلَّمَ رَسَائِلِي وَبَلَغَ آلَ «فِيرِدُورَان» عَنْ وَجُودِي وَهُمْ بِشَوْقٍ كَبِيرٍ لِلِقَائِي وَهُوَ يَنْصَحُنِي بِالذَّهَابِ إِلَى مَنْزِلِهِمْ. كَانَ حَتَّى يَرِيدُ اصْطِلَاحِي إِلَيْهِمْ فِي الْمَسَاءِ نَفْسَهُ لِأَنَّهُ يَعْتَزِمُ أَنْ يَسْتَقْلَلَ الْقَطَارَ الصَّغِيرَ الْمُحَلِّيَ كَمَا يَمْضِي لِلْعِشَاءِ عِنْدَهُمْ. وَإِذْ كُنْتُ مَرْتَدِّدًا وَلَا يَزَالُ لَدَيْهِ قَلِيلٌ مِنَ الْوَقْتِ لِيَسْتَقْلَلَ الْقَطَارَ بِمَا أَنَّ الْعَطْلَ سَيَمْتَدُّ فِتْرَةً لَا بَأْسَ بِهَا، أَدْخَلْتُهُ إِلَى الْكَازِينُو الصَّغِيرِ، وَهُوَ مِنْ تِلْكَ الَّتِي كَانَتْ بَدَتْ لِي بِاللُّغَةِ الْحَزْنَ فِي أَوَّلِ مَسَاءٍ لِمَوْصُولِي، فِيمَا يَعْبُجُ الْآنَ بِضَوْءِ الْفَتَيَاتِ اللَّوَاتِي كُنَّ يَتَرَاقَصْنَ فِي غِيَابِ الرَّاqَصِينَ. وَأَقْبَلْتُ «أَنْدَرِيه» إِلَيَّ بِزَحْلَقَاتٍ تَقُومُ بِهَا، وَكُنْتُ أَعْتَزِمُ الذَّهَابَ بَعْدَ فِتْرَةٍ قَصِيرَةٍ بِصَحْبَةِ «كُوتَار» إِلَى مَنْزِلِ آلِ «فِيرِدُورَان» حِينَ رَفُضْتُ عَرْضَهُ رَفْضًا نَهَائِيًا وَقَدْ تَمَلَّكْتَنِي رَغْبَةٌ مَفْرَطَةٌ الشَّدَّةِ فِي الْمَكُوثِ مَعَ «أَلْبِيرْتِينَ». ذَلِكَ لِأَنَّنِي سَمِعْتُهَا مِنْذُ قَلِيلٍ تَضْحَكُ، فَتَذَكَّرْنِي الضَّحْكَةَ فِي الْحَالِ بِأَلْوَانِ الْبَشْرَةِ الْمُرُودَةِ وَالْجَوَانِبِ الْمُعْطَرَةِ الَّتِي كَانَ يَدُوُّ أَنَّهَا احْتَكَّتْ بِهَا مِنْذُ قَلِيلٍ وَالَّتِي تَبْدُو، فِي حَدِّثِهَا وَشَهَوَاتِهَا وَسَمْتِهَا الْكَاشِفَةِ كَمَثَلِ رَائِحَةِ الْجَبَرَانِيَوْمِ، وَكَأَنَّهَا تَنْقُلُ مَعَهَا بَضْعَ ذُرَاتٍ يَقْرُبُ أَنْ تَكُونَ وَرَزُونَةً وَمُثِيرَةً وَخَفِيفَةً.

جَلَسْتُ إِحْدَى الْفَتَيَاتِ، وَمَا كُنْتُ أَعْرِفُهَا، إِلَى الْبَيَانُو، وَطَلَبْتُ «أَنْدَرِيه» مِنْ «أَلْبِيرْتِينَ» أَنْ تَرْقِصَ الْفَالْسَ وَلِيَّانَهَا، وَإِذْ كُنْتُ فِي ذَلِكَ الْكَازِينُو الصَّغِيرِ سَعِيدًا بِالتَّفَكُّيرِ فِي أَتْنِي سَأَمَكْتُ مَعَ تِلْكَ الْفَتَيَاتِ لَفْتُ «كُوتَار» إِلَى أَيِّ دَرَجَةٍ كُنَّ يُجِدْنَ الرَّقْصَ. وَلَكِنَّهُ أَجَابَنِي مِنْ وَجْهَةٍ نَظَرَ الطَّبِيبُ الْخَاصَّةَ وَبَسُوءَ تَهْذِيبٍ لَمْ يَكُنْ يَأْخُذُ فِي الْحَسْبَانِ أَتْنِي أَعْرِفُ هَاتِيكَ الْفَتَيَاتِ اللَّوَاتِي لَا بَدَّ رَأْيِي أَحْيِيَهُنَّ، أَجَابَنِي قَائِلًا: «أَجَلْ، وَلَكِنَّ الْأَهْلَ قَلِيلُو التَّبَصُّرِ إِلَى حَدِّ بَعِيدٍ إِذْ يَفْسَحُونَ لِبَنَاتِهِمْ بِاِكْتِسَابِ مِثْلِ هَذِهِ الْعَادَاتِ. مَا كُنْتُ بِالتَّأَكِيدِ أَسْمَحُ لِبَنَاتِي بِالْجَمْعِ إِلَى هُنَا. لَعَلَّهِنَّ جَمِيلَاتٌ عَلَى الْأَقْل؟ فَإِنِّي لَا أُمِيزُ مَلَامِحَهُنَّ». وَأَضَافَ يَقُولُ، وَهُوَ يَرِينِي «أَلْبِيرْتِينَ» وَ«أَنْدَرِيه» تَرْقِصَانِ بِيْطَاءَ وَقَدْ التَّصَقَّتْ إِحْدَاهُمَا بِالْأُخْرَى التَّصَاقًا شَدِيدًا: «هَيَّا، انْظُرْ. لَقَدْ نَسِيتُ نَظَارَتِي فَلَا أَرَى بَوْضُوحًا، وَلَكِنَّهُمَا بِالتَّأَكِيدِ فِي أَقْصَى الْمَتْعَةِ. فَلَيْسَ يَعْلَمُ النَّاسُ تَمَامًا أَنَّ النِّسَاءَ يَلْغَنُهَا خُصُوصًا عَنْ طَرِيقِ النَّهْدَيْنِ. أَلَا انْظُرْ، إِنَّ نَهْودَهُمَا فِي تَمَاسٍ كَامِلٍ». وَالتَّمَاسُ بِالتَّأَكِيدِ لَمْ يَنْقَطِعْ بَيْنَ نَهْودِ كُلِّ مَنْ «أَنْدَرِيه» وَ«أَلْبِيرْتِينَ»، وَلَسْتُ أَعْلَمُ إِنْ هُمَا سَمِعَتَا أَوْ حَزَرَتَا مَلَاخِظَةَ «كُوتَار» وَلَكِنَّهُمَا انْفَصَلَتَا قَلِيلًا الْوَاحِدَةَ عَنِ الْآخَرَى فِيمَا تَوَالِيَانِ الرَّقْصَ. وَقَالَتْ «أَنْدَرِيه» أُنْذَاكَ كَلِمَةً لـ «أَلْبِيرْتِينَ» فَضَحَكَتْ هَذِهِ ذَاتُ الضَّحْكَةِ النَّافِذَةِ الْعَمِيقَةِ الَّتِي سَبَقَ أَنْ سَمِعْتُهَا مِنْذُ قَلِيلٍ، وَلَكِنَّ الْاضْطِرَابَ الَّذِي حَمَلْتُهُ إِلَيَّ هَذِهِ الْمَرَّةَ مَا كَانَ إِلَّا قَاسِيًا عَلَيَّ. فَقَدْ بَدَأَ أَنَّ «أَلْبِيرْتِينَ» تَظْهَرُ بِهَا لـ «أَنْدَرِيه» وَتَحْمَلُهَا عَلَى مَلَاخِظَةِ رَعْشَةٍ مَهِيْجَةٍ خَفِيفَةٍ. لَقَدْ كَانَتْ تَرَى مِثْلَمَا التَّسَاوَقَاتِ اللَّحْنِيَّةِ الْأَوَّلَى أَوْ الْآخِرَةِ فِي احْتِفَالٍ مَجْهُولٍ. وَمَضَيْتُ مَعَ «كُوتَار» وَأَنَا سَاهٍ فِي حَدِيثِي مَعَهُ وَلَا أَفَكِّرُ إِلَّا لَمَامًا بِالْمَشْهَدِ الَّذِي رَأَيْتُهُ مِنْذُ قَلِيلٍ. وَلَيْسَ يَعْنِي ذَلِكَ أَنَّ حَدِيثَ «كُوتَار» كَانَ مَمْتَعًا، بَلْ هُوَ اِكْتَسَى فِي هَذِهِ اللَّحْظَةِ طَائِعَ الْحَدَّةِ إِذْ لَحْنَا مِنْذُ قَلِيلٍ الدَّكْتُورُ «دُوبُولْيُون» الَّذِي لَمْ يَشَاهِدْنَا، لَقَدْ جَاءَ يَقْضِي وَقْتًا فِي الْجَانِبِ الْآخَرِ مِنْ خَلِيجِ «بَالْبِيك» حَيْثُ كَانَ يَسْتَشَارُ كَثِيرًا، وَمَعَ أَنَّ «كُوتَار» تَعَوَّدَ التَّصْرِيحَ بِأَنَّهُ لَا يَمَارِسُ الطَّبَّ أَثْنَاءَ عَطَلْتِهِ فَقَدْ كَانَ رَاوِدَهُ أَمَلُ أَنْ يَوْفَرَ لِنَفْسِهِ زِيَّاتَيْنِ مَخْتَارَيْنِ، بَيِّدَ أَنَّ «دُولُون» كَانَ يَقِفُ عَقْبَهُ دُونَ



ذلك. أجل، لم يكن بمقدور طبيب «البليك» أن يضايق «كوتار». ولكنما كان طبيباً كبير الوجدان يعرف كل شيء وما كنت تستطيع أن تكلمه عن أدنى حكمة دون أن يدلك في الحال على المرهم أو السائل أو المروخ المناسب. كان يعرف، كما تقول «ماري جينيست» بلغتها الجميلة، كيف «يسحر» الجروح والقروح ولكنه لم يكن على شهرة. صحيح أنه تسبب بإزعاج طفيف لـ «كوتار»، فقد جعل هذا من صنوف التسمم اختصاصاً له منذ أن شاء أن يستبدل بكرسيه كرسى علم المداواة. والتسمم، وهو تجديد في الطب ينطوي على مخاطر، يفيد في تجديد ملصقات الصيدلة فيصريح عن كل منتج لهم بأنه غير سام، بعكس الأدوية المشابهة، بل يشفي من التسمم. إنها الدعاية الراقية، وكاد لا يبقى في الأسفل التوكيد بأن المنتج جرى تعقيمه بعناية تامة، وقد خط بحروف غير مقروءة وكأنه أثر طفيف لصيغة راجت سابقاً، والتسمم يفيد كذلك في طمأنة المريض الذي يغبطه أن يعلم أن الشلل الذي أصابه إن هو إلا عارض سمي. فإن دوقاً أكبر جاء يقضي بضعة أيام في «البليك» وكانت عينه بها انتفاخ عظيم فاستقدم «كوتار» الذي عزا، في مقابل بضع ورقات من فئة المئة فرنك (وما كان الأستاذ يكلف نفسه لأقل من ذلك)، سبب الالتهاب إلى حالة سميّة وأمر بحمية مضادة للتسمم. ولما لم يذهب انتفاخ العين تحوّل الدوق الأكبر إلى طبيب «البليك» العادي الذي استخرج في خمس دقائق ذرة تراب. وفي الغد لم يكن يبدو شيء من ذلك. وكان ثمة خصم أشدّ خطراً هو أحد مشاهير الأمراض العصبية. كان رجلاً أحمر مراحاً لأن مخالطة ذوي الانحطاط العصبي ما كانت تحول دون أن يكون بأحسن عافية وكما يطمئن مرضاه في الآن نفسه بالضحكة العريضة التي تخالط تحته واستلذاته بالرجل، وإن كان سيساعد بذراعيه القويتين في إلباسهم سترة المجانين عنوة فيما بعد. إلا أنك ما إن كنت تتحدث إليه في جماعة راقية، إن كان في سياسة أو أدب، حتى تراه يصغي إليك بعطف وانتباه كأنى به يقول: «ما الأمر؟» دون أن ينطق بها في الحال كما لو أن الأمر أمر استشارة. لكن هذا في النهاية كان اختصاصياً أية كانت مواهبه. لذلك كان كامل حنق «كوتار» ينصب على «دولوبون». وقد فارقت بعد قليل على أية حال، بغية العودة، الأستاذ صديق آل «فيردوران» وأنا أعدّه بالذهاب لزيارتهم.

كان الضرر الذي ألحقته بي أقواله بخصوص «ألبيرتين» و«أندريه» بالغاً، لكن أسوأ الآلام لم أحسّها في الحال مثلما هو أمر هذه الصنوف من التسمم التي لا تفعل فعلها إلا بعد انقضاء وقت معين.

لم تجيء «ألبيرتين» في ذلك المساء الذي مضى فيه عامل المصعد في طلبها على الرغم من توكيداته، صحيح أن مواطن الفتنة لدى امرئ سبب للحب أقلّ تواتراً مما هي جملة من هذا القبيل: «لا، لن أكون دون ارتباط هذا المساء». ونكاد لا نغير هذه الجملة انتباهنا، إن كنا بصحبة أصدقاء، فإننا نمرح طوال الأمسية ولا نهتمّ بصورة معينة، وإنها في هذه الأثناء يغمرها المزيج الضروري، حتى إذا عدنا لقينا الصورة السالبة وقد ظهرت وأوضحت واضحة تمام الوضوح. وتبين أن الحياة لم تعد الحياة التي لعلنا كنا هجرناها في العثية لقاء أقلّ الأمور لأننا وإن لبنا غير هيأين للموت لا نجرؤ من بعد على التفكير بالهجران.

على أني منذ الساعة الثالثة صباحاً، لا الواحدة (وهي الساعة التي كان حدّدها عامل المصعد) لم يعد يداخلني كما بالأمس ألم الإحساس بتناقض حظي في أن تمثل أمامي. وحمل إليّ يقيني بأنّها لن تجيء من بعد هدوءاً تاماً وحيوية. فهذه الليلة محض ليلة شبيهة بليال كثيرة أخرى ما كنت أراها فيها؛ من تلك الفكرة

كنت أنطلق، ومذذاك كانت فكرة أنني قد أراها في الغد أو في أيام أخرى تضحي، إذ تبرز على صفحة هذا العدم المسلم به، رفيقة بي. إن ضيق النفس ناجم أحياناً، في أمسيات الانتظار تلك، عن دواء تناولناه فإن الذي يعاني من العذاب يظن، بعد تفسير خاطئ له أنه مضطرب من جرّاء تلك التي لا تحجيء. وإنما يولد الحبّ إذ ذاك، كما هي حال بعض الأمراض العصبية، من تفسير غير صحيح لضيق مؤلم. وليس يفيد تصحيح ذاك التفسير علي الأقلّ في نطاق الحبّ، وهو شعور مضللّ على الدوام (أيا كان سببه).

وفي الغد، عندما كتبت إليّ «ألبيرتين» أنها عائدة نوّاً من «أيرفيل» وأن رسالتي لم تصلها إذن في الوقت المناسب وأنها ستجيء للقائي في المساء إن أذنت بذلك، خلعتني أحسّ خلف كلمات رسالتها مثلما خلف الكلمات التي سبق أن قالتها لي ذات مرّة بالهاتف، بوجود منع وأشخاص فضلتهم عليّ مرّة أخرى هرّ كامل كياني فضول أليم في أن أعلم ماعساها كانت تفعل، وكذلك فعلَ الحبّ الكامن الذي نحمله دوماً بين جوانحنّا، وأمكنتني الاعتقاد هنيهة أنه سيربطني حالا بـ «ألبيرتين» ولكنه اكتفى بالارتعاش في مكانه واندثرت آخر أصوات ضوئائه دون أن يكون تحرك.

لقد أسأت في إقامتي الأولى في «بالبيك» فهم طباع «ألبيرتين» -وربما فعلت «أندريه» مثلي-، لقد ظننت من قبيل طيش ساذج تبديه أن لا تفلح توسلاتنا كلّها في استبقائها وتفويت حفلة راقصة عليها أو نزهة على ظهور الحمير أو وجبة طعام في الهواء الطلق. وراودني في إقامتي الثانية في «بالبيك» شك بأنّ ذاك الطيش إن هو إلا مظاهر، والحفلة الراقصة ستار، إن لم تكن ابتداء فقد كان يجري بأشكال مختلفة الأمر التالي (واقصد الأمر الذي أراه أنا من الزجاج الذي من جانبي، ولم يكن شفافاً على الإطلاق، دون أن يمكنني معرفة ما كان صحيحاً من الجانب الآخر). كانت «ألبيرتين» تسمعي أكثر توكيدات الحنان عاطفة متقدّة. كانت تنظر إلى الساعة لأنها عازمة على الذهاب لزيارة سيّدة تستقبل، فيما يبدو، الساعة الخامسة من كل يوم في «انفرفيل». ولما كان الشكّ يعصف بي وأحسست على أيّ حال أنني منحرف الصلّة سألت «ألبيرتين» وتوسّلت إليها أن تمكث معي كان ذلك مستحيلاً (بل هي لم يبق لها أكثر من خمس دقائق تمكث فيها) لأن الأمر ربّما أغضب السيّدة وهي غير مضيافة وسريعة التأثير وتمتلك ضجرًا، تقول «ألبيرتين». «ولكن من الممكن تماماً تفويت زيارة واحدة». -«لا، فقد علّمتني عمّتي أنه لا بدّ لي أن أكون مهذّبة قبل كلّ شيء». -ولكنّي كثيراً ما رأيتك على سوء تهذيب». -«ولكنّ الأمر ليس واحداً، فسوف تحقّد عليّ هذه السيّدة وتسبب لي المتاعب مع عمّتي ولست بعد على مايرام وإياها، وهي تخرص على أن أكون ذهبت مرّة لزيارتها». -«ولكن إن كانت تستقبل في كلّ يوم». وهنا غيّرت «ألبيرتين» السبب الداعي وقد أحسّت أنّها «غالطت نفسها».

-«هي بالطبع تستقبل في كلّ يوم ولكنّي اليوم ضربت موعداً عندها لصديقات لي، وهكذا نكون أقلّ مللاً». -«أتراك يا «ألبيرتين» تفضّلين السيّدة وصديقاتك عليّ بما أنّك تفضّلين أن تدعيني وحيداً مريضاً حزيناً؟» -«قد يستوي الأمر عندي أن تكون الزيارة مملة. ولكنّي أفعل بداعي الإخلاص لهنّ، فسوف أنقلهنّ في العودة في عربتي. وإلا فلن يتوافر لهنّ آية وسيلة نقل». وأشارت على «ألبيرتين» أن ثمة قطارات من «انفرفيل» حتّى العاشرة مساءً -«صحيح ولكن تدري، من الممكن أن يسألونا البقاء على العشاء، فهي مضيافة

جداً - «حسن ! ترفضين إذا؟» - «سأغضب عمّتي أيضاً» - «على أيّ حال، يمكنكم تناول العشاء ثم تستقلون قطار العاشرة». - «قد لا يتسع الوقت» - «فلست أستطيع في يوم إذا أن أتعشى في المدينة وأعود بالقطار. ولكن دونك يا «ألبيرتين» سنقوم بأمر بسيط جداً: إنّي أحسّ أن الهواء سيكون نافعاً لي، وبما أنّك لا تستطيعين هجر السيّدة فسأرافقك حتّى «انفرقيل». لا تخشي شيئاً، فلن أمضي حتّى «برج أليزابيث» (وهي دارة السيّدة)، ولن ألتقي لا السيّدة ولا صديقاتك». وبدا أنّ «ألبيرتين» تلقت ضربة مخيفة. فقد كان كلامها متقطعاً، وقالت إن حمامات البحر ما كانت تجدي معها.

«إن كان يزعجك أن أرافقك؟» - «ولكن كيف يمكنك أن تقول ذلك، وتعلم تمام العلم أن أعظم غبطة عندي أن أخرج وإياك؟ لقد حدث انقلاب مفاجئ داخلها فقالت لي: «بما أننا نمضي للنزهة سوياً فلم لا نذهب إلى الجانب الآخر من «البليك» فنتناول طعام العشاء سوياً، ويكون ذلك لطيفاً جداً، إن ذاك الشاطئ في الأساس أكثر جمالاً، لقد سمعت نفسي «انفرقيل» وكلّ هذه الأمكنة الصغيرة المنعزلة ذات الخضرة الدائنة». - «ولكن صديقة عمّتك ستغضب إن لم تذهبي لزيارتها». - «ويزول غضبها، ويحك». - «لا، يجب أن لا نغضب الناس» - «ولكنها لن تنتبه حتّى للأمر، فإنّها تستقبل في كلّ يوم. فإن ذهبت في غد أو بعد غد أو بعد ثمانية أيام أو خمسة عشر يوماً فسيفي ذلك بالغرض» - «وصديقاتك؟» - «ما أكثر ما هجرني، وقد حان الآن دوري». - «ولكن ليس ثمة قطار بعد التاسعة في الجانب الذي تقترحينه لي». - «آه ! ما أعسرهما مسألة ! الساعة التاسعة توافقني تماماً. ثمّ ينبغي أن لا توقفنا البتّة مشاكل العودة. فسنلقى دوماً عربة نقل أو دراجة، فإن لم يكن، فساقينا». - «نلقى دوماً، يا «ألبيرتين»، ما أعجب ما تذهبين إليه فمن جانب «انفرقيل» حيث المحطات الخشبيّة الصغيرة التي يلتصق بعضها ببعضها الآخر، أجل. ولكن الأمر ليس نفسه في الجهة المقابلة». - «بل حتّى في الجهة المقابلة. إنّي أعدك بأن أعيدك صحيحاً سالماً» كنت أحسّ أنّ «ألبيرتين» تتخلّى من أجلي عن شيء مدبّر لم تشأ أن تقوله لي وأن ثمة واحداً سوف يكون عيساً كما كنت. وإذا رأت أنّ ما ابتغت لم يكن ممكناً بما أتّي أودّ مرافقتها، تخلّت صراحة عنه، وكانت تعلم أنّ ليس الأمر ممّا يتعلّز إصلاحه. ذلك لأنّها، شأن سائر النساء اللواتي هنّ على أمور عدّة في حياتهنّ، كانت لديها نقطة الاستناد هذه التي لا تضعف في يوم، عنينا الشكّ والغيرة، صحيح أنّها ما كانت تحاول إثارتها، بل على العكس. ولكنّ الحيين شديداً الريبة حتّى ليستشعرون الكذب في الحال، إلى حدّ أنّ «ألبيرتين»، وليست خيراً من أخرى سواها، كانت تعلم بالتجربة (ودون أن تحزر أقلّ ما تحزر أنّها مدينة بذلك للغيرة) أنّها متيقّنة على الدوام بأنّها ستلتقي ثانية الناس الذين «باعتهم» ذات مساء. فالشخص المجهول الذي كانت تتركه من أجلي سوف يتألم ويزداد حبّاً لها من جرّاء ذلك (ولا تعلم «ألبيرتين» أنّه يفعل بسبب ذلك)، وكبي لا يستمر في عذابه فإنّه يعود إليها من تلقاء ذاته كما لملي كنت فعلت. ولكنّي لم أكن أبغي لا غمّ الناس ولا إرهاق نفسي ولا الدخول في دروب التقصّيات الخيفة والمراقبة المتعدّدة الأشكال التي لاحصر لها «لا، يا «ألبيرتين»، لست أريد إفساد متعتك، فأمضي إلى سيّدتك في «انفرقيل»، أو إلى الشخص الذي يختبئ وراء اسمها، فالأمر عندي سواء. أمّا السبب الحقيقي لإحجامي عن الذهاب برفقتك فأنتك لا ترغبين في ذلك وأنّ النزهة التي قد تقومين بها برفقتي ليست تلك التي كنت تودّين القيام بها، والبرهان على ذلك أنّك ناقضت نفسك أكثر من خمس مرات دون

أن تتبين ذلك». وخشيت «ألبيرتين» المسكينة أن تكون تناقضاتها التي لم تنتبه لها أكثر خطراً فهي لا تعرف بالضبط الكذبات التي وقعت فيها: «يمكن جداً أن أكون ناقضت نفسي. إن هواء البحر لا يدع لي أي منطق. فأني أستبدل على الدوام بالأسماء غيرها، ثم إني أحسست (وبرهن الإحساس أنها ما كانت الآن لتحتاج الكثير من التوكيدات العذبة كيما أصدقها) ما يشبه ألم الجرح وأنا أسمع هذا الإقرار بما لم أكن افترضته إلا افتراضاً ضعيفاً، وقالت بصوت يطبعه الأسي، ولم تفعل دون أن تنظر إلى الساعة لتتبين أنها لم تكن متأخرة بالنسبة إلى الآخر مادمت أوفر لها الآن الحجة كي لا تمضي الأمسية معي. «أنت قاس مفرط القسوة فأني، أبدل كل شيء لأقضي أمسية حلوة معك وأنت من لا يريد وتتهمني بالكذب. لم أرك بعد قطّ بمثل قسوتك. سيكون البحر لحدي ولن ألقاك بعد في يوم. (وخفق فؤادي لدى سماع هذه الكلمات مع أنني كنت متيقناً من أنها ستجيء في الغد، وقد حصل). سوف أغرق، سألقى بنفسي في الماء». «مثل سافو»<sup>(١)</sup> - وهذه شتيمة تضيفها، فلست ترتاب بما أقول فحسب، بل بما أفعل». «ولكني يا صغيرتي ما كنت أحملها أي قصد، أفسمت على ذلك، فتعلمين أن «سافو» ألفت بنفسها في البحر». «بلى، بلى، لا ثقة لك في مطلقاً». ورأت أن الساعة تشير إلى الدقيقة الأربعين وخشيت أن يفوتها ما ينبغي لها أن تفعله فاختارت أقصر صيغة وداع (اعتذرت عنها بأية حال إذ جاءت لزيارتي في الغد، والأرجح أن الشخص الآخر كان مرتبطاً في ذلك الغد)، وفرت تجري صارخة: «ودائماً لا لقاء بعده»، وهي بادية الأسي. وربما كانت تلك حالها، فإذا كانت عالمة بما تفعل في هذه اللحظة أفضل مني وكانت أكثر قسوة وأوفر مسامحة لذاتها بما كنت لزاءها، فربما ساورها مع ذلك شكٌ بأنني لا أودّ استقبالها من بعد على إثر الطريقة التي هجرتني بها. وإني اعتقد أنها كانت حريصة عليّ إلى حدّ أن الشخص الآخر كان أكثر غيرة مني.

وبعد بضعة أيام في «البليك» وإذ كنا في قاعة الرقص في الكازينو دخلت شقيقة «بلوك» وابنة عمّه وقد أضحت كلتاها على جمال كبير، ولكنني لم أعد أسلم عليهما بسبب صديقتي لأن أصغرهما سنّاً وهي ابنة العم كانت تعيش على رؤوس الأشهاد مع الممثلة التي سبق أن تعرّفت إليها في أثناء إقامتي الأولى. وقالت لي «أندريه» لدى تلميح إلى الأمر جرى بصوت خفيض: «آه! إني بخصوص هذه المسألة شبيهة بـ«ألبيرتين» فليس ما ينفرنا كلتيهما مثل ذلك». أمّا «ألبيرتين» فقد أدارت ظهرها للفتاتين السيّعتي المسلك وقد شرعت في التحدث إليّ على الكنبّة التي كنا نجلس عليها. على أنني كنت لاحظت قبل هذه الحركة وأن بدت الآنسة «بلوك» وابنة عمّها، لاحظت في عيني صديقتي التماع ذاك الانتباه المفاجئ العميق الذي كان يضفي على وجه الفتاة الخبيثة أحياناً هيئة جدية، بل رزينة ثم يخلّفها حزينة. ولكن «ألبيرتين» أدارت في الحال صوبي نظراتها التي ظلّت مع ذلك جامدة حاملة بصورة غريبة. وغادرت الآنسة «بلوك» وابنة عمّها المكان في نهاية المطاف بعدما ضحكنا ضحكاً شديداً وأطلقنا صرخات غير لائقة إلى حدّ ما، فسألت «ألبيرتين» إن لم تكن الشقراء الصغيرة (تلك التي كانت صديقة الممثلة) هي نفسها التي حازت البارحة جائزة سباق عربات الزهور. فقالت «ألبيرتين»: «آه! لست أعلم، هل ثمة من هي شقراء منهما؟ سأقول لك إنهما لاثيران كبير اهتمامي لم أنظر إليهما البتّة». ثم سألت صديقاتها الثلاث بلهجة متسائلة متجرّدة قائلة: «هل ثمة شقراء بينهما؟ وبدا

(١) شاعرة يونانية ولدت في جزيرة «ليبيوس» (التي أورثت السحاقيات اسمها بالفرنسية) وقد ألفت بنفسها في البحر لحياتها للراكبي «فان» الذي كان يزوري صحتها.

لي ذلك الجهل إذ ينطبق على اشخاص كانت «ألبيرتين» تلتقيهم كل يوم فوق السدّ، بدا لي مبالغاً جداً كي لا يكون متكلفاً وقلت له «ألبيرتين»: «ولا يبدو عليهما كذلك أنهما تنظران إلينا»، ربّما بافتراض أن «ألبيرتين»، والافتراض ما كنت انظر إليه على نحو واع بآية حال، كانت تحبّ النساء وكيفا انزع من نفسها أي أسف حينما أبدي لها أنها لم تسترع انتباههما وأنه لم تجر العادة بعامة، حتّى بالنسبة إلى أكثرهنّ فسقا، أن تهتمّ بالفتيات اللواتي لا تعرفهنّ. وأجابني «ألبيرتين» على نحو طائش بقولها: «لم تنظرا إلينا؟ إنهما لم تفعلنا غير ذلك طوال الوقت». فقلت لها: «ولكنّما ليس بمقدورك معرفة ذلك فقد كنت تولينهما ظهرك». فأجابني: «وهذه ويحك؟» وهي تريني مرآة كبيرة قبالتنا مركّبة في الجدار، ولم أكن لحظتها وأخذت أدرك الآن أي صديقتي لم تكفّ، فيما تحدّثني، عن التحديق إليها بعينيها الجميلتين اللتين تفيضان همّاً.

منذ اليوم الذي دخل فيه «كوتار» برفقتي إلى كازينو «أنكرفيل» الصغير، ودون أن أشاطره الرأي الذي أبداه، بدا لي أنّ «ألبيرتين» لم تعد هي نفسها، فقد كانت رؤيتها تثير حققي. وكنت تبدّلت بدوري بقدر ما كانت تبدو لي مختلفة. وكففت عن تمنّي الخير لها وكنت أتحدّث عنها بالطريقة الأوفر تجريحا في حضرتها وفي غيابها حينما يمكن أن ينقل إليها ذلك. ولكنّما كان ثمة فترات مهادنة. فقد كان يبلغني ذات يوم أنّ «ألبيرتين» و«أندريه» قبلتا كلتاهما دعوة إلى منزل «ايلستير». واذا لا أشكّ أنّ الأمر تمّ باعتبار أنهما ربّما استطاعتا أن تلهوا في طريق العودة كطالبات داخلات وذلك بتقليد الفتيات سيّفات المسلك وتلقيان في ذلك متعة خفية تحسّ بها العذارى وتضيق عليّ أنفاسي، كنت أصل فجاءة إلى منزل «ايلستير» دون خبر منّي لإزعاجهما وحرمان «ألبيرتين» من المتعة التي كانت تتوقّعها. ولكنّي لا ألقى هناك غير «أندريه»، ف «ألبيرتين» كانت قد اختارت يوما آخر تزعم عمّتها الذهاب فيه. حينئذ كنت أقول في نفسي إن «كوتار» أخطأ دونما شكّ. وكان الانطباع المناسب الذي خلفه لديّ وجود «أندريه» بدون صديقتها يتناول ويعث في نفسي استعدادات أكثر رقة تجاه «ألبيرتين» ولكنّها لا تدوم أكثر من الصلّة الهشة التي لهؤلاء الأشخاص الضعاف البنية الذين يفيدون من فترات تحسّن عابرة ويكفي أقلّ القليل ليردّهم إلى مرضهم. كانت «ألبيرتين» تدفع «أندريه» إلى صنوف من اللعب ربّما لم تكن، وإن هي لا تذهب بعيداً جداً، بريئة تماما. وإذا كنت أعاني من ذلك الارتباب فقد كنت أستبعده في نهاية المطاف. ولكنّي لا أكاد أنجو منه حتّى يعاودني بشكل آخر. فقد اتّفق أن رأيته «أندريه» منذ قليل في واحدة من تلك الحركات الظريفة الخاصة بها تلقي برأسها بفتح ودلال على كتف «ألبيرتين» وتقبّلها في عنقها وهي نصف مغمضة العينين. أو هما تبادلتا نظرة سريعة، أو أن كلمة أفلتت من شخص سبق أن رأهما وحيدتين معاً ذاهبتين للسباحة، وكلها أمور صغيرة من مثل ما يعمر الجوّ المحيط بصورة طبيعية فيبتلعها القسم الغالب من الناس طوال النهار دون أن تتأثّر صحتهم أو يفسد مزاجهم، ولكنّها مسقمة تورث من كان لديه استعداد مسبق آلاماً جديدة. بل كنت أحيانا، دون أن أكون رأيت «ألبيرتين» مجدداً ودون أن يكون أحد حدّثني عنها، كنت أعود فألقني في ذاكرتي وقفة له «ألبيرتين» بالقرب من «جيزيل» وكانت بدت لي بريئة آنذاك. فكانت تكفي الآن للقضاء على الهدوء الذي أمكنني أن أستعيده، بل لم تعد بي حاجة للذهاب واستنشاق جراثيم خطيرة في الخارج فقد كنت سمّمت نفسي، كما لعلّ «كوتار» كان قال. وفكرت حينئذ في كلّ ما عرفته عن حبّ «سوان» له «أوديت» وعن الطريقة التي خدع بها

«سوان» طوال حياته. وإن كنت في الأساس أبغيت التفكير في الأمر فإن الفرضية التي جعلتني أبني شيئاً فشيئاً كاملاً طباع «ألبيرتين» وأقوم بتفسير مؤلم لكل لحظة في حياة ما كان بوسعي مراقبتها كلياً إنما كانت تذكّرني طباع السيدة «سوان» والفكرة الثابتة عنها على نحو ما نقل إليّ أنها كانت. وقد أسهمت هذه القصص في أن جفلت خيالي في المستقبل يقوم بلعبة يفترض بها أنّ «ألبيرتين» ربما استطاعت، بدلاً من أن تكون فتاة صالحة، أن تكون على ذات الفجور وذات القدرة على الخداع التي تميّز عاهرة سابقة وأخذت أفكر في صنوف العذاب جميعها التي كانت ستنتظرني في هذه الحالة لو انبغى لي أن أحبها في يوم.

وكنّت قمت ذات يوم، أمام الفندق الكبير الذي كنا مجتمعين فيه فوق السدّ، بتوجيه أكثر العبارات قسوة وإذلالاً لـ «ألبيرتين» فتقول «روزموند»: «آه! ما أكثر ما تبدلت مع ذلك بالنسبة إليها، فما كان أمر فيما مضى إلّا لها، وهي التي كانت تمسك الحبل، والآن لم تعد تصلح لتلقي طعاماً للكلاب». وكما أبرز أكثر من ذاك موقفني من «ألبيرتين» كنت آخذاً في توجيه كلّ اللطائف الممكنة إلى «أندريه»، وكانت تبدو لي، إن هي كانت مصابة بالعيب نفسه، أوفر عذراً لأنّها كانت مريضة موهنة الأعصاب، حينما رأينا عربة السيدة «دوكامبرمير» تطلع خبياً بحصانيتها في الشارع المعامد للسّد الذي كنا نقف في زوايته، وابتعد الرئيس الأول الذي كان يتقدّم باتّجاهنا في تلك اللحظة، ابتعد بقفزة واحدة حينما عرف العربية كي لا يشاهد بصحبتنا. ثمّ إنه حينما ظنّ أن نظرات المركيزة سوف تلاقي نظراته انحني محيياً بحركة واسعة بقبعته. ولكن العربية نوارت خلف مدخل الفندق بدلاً من متابعة سيرها عبر شارع «البحر» كما بدا ذلك مرجحاً. وكان انقضى تماماً عشر دقائق على ذلك حينما أقبل عامل المصعد ليبلغني منقطع الأنفاس: «إنّها المركيزة «دوكامبرمير» جاءت إلى هنا للقضاء سيّدي. لقد صعدت إلى الغرفة وبحثت في قاعة القراءة فما استطعت أن ألقى سيّدي. ومن حسن حظّي أن خطر لي أن ألقى نظرة على الشاطئ». وما كاد ينهي روايته حتى تقدمت المركيزة نحوي تتبّعها كنتها وسيد شديد التصنع، وكانت آتية على الأرجح من حفلة بعد الظهر أو جلسة شاي في الجوار وقد تقوّس ظهرها أقلّ تحت عبء الشيخوخة منه جرّاء طائفة الحاجات الكمالية التي تظنّ من الألفاظ والأجدر بمكانتها طرحها فوق جسمها كي تبدو أكثر ما يمكن «كمالاً مليس» في عيون من جاءت لزيارتهم، وخلاصة القول أنّه إنّما جرى في الفندق ذاك «الحلول المفاجيء» لآل «كامبرمير» الذي كانت جدّتي بالأمس توجس منه أشدّ الخوف حينما تودّ أن يظلّ «لوغراندان» جاهلاً أنّنا ربّما ذهبنا إلى «باليك». وكانت أمّي تضحك حينذاك من المخاوف التي يوحى بها حادث تراه مستحيلاً. فإذا هو يقع في نهاية المطاف، إنّما بسبل أخرى ودون أن تكون لـ «لوغراندان» يد فيه. وسألتنّي «ألبيرتين» (التي ظلّ في عينيها بضع دمعات لاحظتها دون أن أبدي أنّي أراها، وليس دون أن أغتبط لذلك، وقد جاءت بها الأشياء القاسية التي وجّهتها إليها منذ قليل): «هل يمكنني البقاء إن كنت لا أضايقك فرّبما كان لديّ ما أقوله لك». كانت قبعة مريضة يعلوها ديّوس من الياقوت قد وضعت كيفما اتفق على شعر السيدة «دوكامبرمير» المستعار مثل شارة إبرازها ضروري ولكنّه كافٍ وموقعها قليل الأهمية وأناقتها مبتذلة وثباتها لا جدوى منه. كانت السيدة العجوز قد ارتدت على الرغم من الحرّ معطفاً حالك السواد شبّيحاً بـ «دلماسية»<sup>(١)</sup> تتدلى من فوقه تلفيعة من فرو القاقوم يبدو أنّ ارتدائها لا

(١) ثوب طويل من قماش فاخر كان يرتديه عظماء الرومان وقد ورثته عنهم الكنيسة البيزنطية ولا يزال يرتديه الأساقفة والشماسة في الخدمة الدينية.

علاقة له بدرجة الحرارة والطقس بل بطابع الاحتفال. وعلى صدر السيدة «دوكاميرمير» يتدلى تاج بارونة معلق بسلسلة صغيرة كمثال صليب معلق على الصدر. وكان السيد محامياً مشهوراً من باريس من عائلة نبيلة وقد جاء لقضاء ثلاثة أيام في منزل آل «كاميرمير». كان واحداً من أولئك الرجال الذين تجعلهم خبرتهم المهنية التامة يزدرون مهنتهم بعض الشيء فيقول مثلاً: «أعلم أنني أترافع بصورة جيدة ولذا لم تعد المرافعة تبهجني»، أو «ليس يستهويني من بعد إجراء العمليات فإني أعلم أنني أجيد العمليات». وإذا هم أذكاء و«فنانون» فإنهم يشهدون من حول نضوجهم الذي يرفده النجاح رفاً قوياً التماح ذلك «الذكاء» وطبيعة «الفنان» تلك التي يقر لهم اخوانهم بها والتي توليهم مايقرب أن يكون ذوقاً وتمييزاً. ويشغفون لارسم فنان كبير بل فنان لامع جداً مع ذلك يستخدمون في شراء أعماله الدخول الكبيرة التي توفرها لهم مهنتهم الناجحة. كان «لوسيدانير» هو الفنان الذي اختاره صديق عائلة «كاميرمير» الذي كان من جانب آخر متمتعاً جداً. كان يجيد الحديث عن الكتب، ولكن لا عن كتب المعلمين الحقيقيين، أولئك الذين ملكوا ذواتهم. ولكن العيب الوحيد المزعج الذي يبيده هذا الهاوي أنه كان يستخدم بعض العبارات الجاهزة بصورة مستديمة من مثل: «في أكبر قسم منه»، مما يضيف على ما كان يريد التحدث عنه شيئاً من الأهمية والالا اكتمال. كانت السيدة «دوكاميرمير» قد أفادت، فيما قالت لي، من حفلة بعد الظهر نظمها أصدقاء لها في ذلك اليوم بالقرب من «بالبيك» كما تأتي لزيارتي مثلما سبق أن وعدت «سان لو» بذلك. «تعلم أنه سيجيء عمّا قريب لقضاء بضعة أيام في المنطقة، إن عمه «شارلوس» يصطاف فيها في منزل زوجة الدوقة «دولوكسمبور» وسيستغل السيد «دوسان لو» الفرصة ليذهب لتحية عمته وزيارة كتيته السابقة حيث يحيطونه بحب وتقدير عظيمين. فكثيراً مااستقبل ضباطاً يشيدون به أجمل الإشادة في أحاديثهم، وكم عساكما تبيان من لطف لو أوليتامنا سروراً بمجيئكما إلى «فيتيرن». وقدّمت لها «ألبيرتين» وصديقاتها. وذكرت السيدة «دو كاميرمير» أسماءنا لزوجة ابنتها، فمدّت هذه يدها، هي الفاترة أشدّ الفطور إزاء صغار النبلاء الذين يضطّرها الجوار في «فيتيرن» إلى مخالطتهم، هي المتحفظة جداً مخافة التعرّض للشبهات، مدّت لي يدها على العكس بابتسامة مشعة وقد وجدت نفسها في وضع أمين بهيج في حضرة صديق لـ «روبير دو سان لو» كان هذا الأخير، الذي يتمتّع بقدر من الرهافة المجتمعية يجاوز مايرز فيه للعيان، قد نقل لها عنه أنه وثيق الصلة بأل «غيرمانت». وهكذا كانت السيدة «دوكاميرمير»، بعكس حماتها، تملك صنفين من التأدّب مختلفين أشدّ الاختلاف. ولعلها كانت خصّنتني على الأكثر بالصنف الأوّل الجاف الذي لا يطاق لو أنني عرفتها عن طريق شقيقها «لوغراندان» ولكنها ما كانت تختزن مايكفي من ابتسامات لصديق لآل «غيرمانت». كانت الحجرة الأكثر ملاءمة للاستقبال قاعة المطالعة، هذا المكان الرهيب جداً بالأمس الذي كنت الآن أدخله عشر مرات في اليوم وأغادره حراً سيّداً كأولئك المجانين ذوى الإصابة الهينة وهم نزلاء مستشفى العاهات العقلية من فترة طويلة إلى حدّ أن استودعهم الطبيب مفتاحه، لذلك عرضت عليّ السيدة «دوكاميرمير» أن أصحبها إليها. ولما لم أعد أوجس خيفة من تلك الصالة ولم تعد تأسر فؤادي لأن وجه الأشياء يتغيّر بالنسبة إلينا كما يتغيّر وجه الأفراد، فقد عرضت عليها ذلك المقترح دونما اضطراب. ولكنها رفضت مفضلة البقاء خارجاً وجلسنا في الهواء الطلق في شرفة الفندق. ولقيت فيها فحملت معي كتاباً للسيدة «دو سيفينييه» لم يتّسع وقت أمي لحمله في هربها المفاجئ حينما علمت أن ثمة زائرین يجيئون إليّ. فقد كانت تخشى غزوات الغرباء تلك بقدر ماتفعل جدّي مخافة أن

لايسعها الإفلات من بعد إن هي حوطت فتتجو بنفسها بسرعة كانت تجعلنا على الدوام أنا ووالدي نسخر منها. كانت السيدة «دوكامبرمير» تحمل في يدها إلى جانب عصا شمسيتها عدّة أكياس مطرزة ومفرغة جيوب وكيس نقود من ذهب تتدلّى منه خيوط حمراء رمائية ومنديل من الدانتيل. كان يبدو لي من الأنسب لها لو تضعها على كرسي ولكنما أشعر من غير اللائق وغير المفيد أن أسألها التخلّي عن حلي جولتها الراعوية وكهنوتها الديني. كنّا ننظر إلى البحر الهادئ تطفو فوقه نوارس مبعثرة شأن تويجات بيضاء. ورأيتني من جرّاء مستوى «الوسيط» المحض الذي ينزلنا إلى دركه حديث الدينويات وكذلك رغبتنا في أن نروق غيرنا لا بوساطة ميزاننا التي تخفى علينا بل بوساطة مانظنّ أنّه لا بدّ مقدّر من جانب من هم معنا رأيتني أشرح غريزياً بالتحدث إلى السيدة «دوكامبرمير» المولودة «لوغراندان» بالطريقة التي لعلّ شقيقها كان انتهجها، فقلت وأنا أتحدّث عن النوارس: «إنّ بها جمود وبياض أزهار النيلوفر». وكانت بالفعل تبدو كأنّما توفّر هدفاً ثابتاً للموجات الصغيرة التي تتقاذفها إلى حدّ أن هذه الموجات كانت تبدو بالمقابل، وهي تلاحقها مدفوعة بمقصد معيّن، كأنّما تدب فيها الحياة. كانت المركيزة الوريثة لا تكلّ من الإشادة بمنظر البحر الرائع الذي يتوافر لنا في «البليك» وتحسّني هي التي ما كانت تشاهد الأمواج من «لاراسيلير» (الذي ماكانت تقطنه بأيّ حال في هذا العام) إلّا من بعيد جدّاً. كان بها عادتان فريدتان ناجمتان في الآن نفسه عن حبّها المتّقد للفنون (ولاسيّما الموسيقى) وعن قصورها السنّي. ففي كلّ مرّة كانت تتحدّث فيها عن علم الجمال كانت غدها اللعابية، كما هي حال غدد بعض الحيوانات في فترة النمو، تدخل مرحلة من فرط الإفراز يبلغ بفم السيدة العجوز الأردد أن يسمح بمرور بعض قطرات في زاوية الشفتين اللتين يكسوهما شارب خفيف، وهي هنا في غير محلّها، فكانت تسترجعها في الحال في تهيدة كبيرة كمن يستردّ أنفاسه، فإن تعلق الأمر أخيراً بجمال موسيقيّ عظيم كانت في حماسها ترفع ذراعها وتتفوّه ببعض الأحكام المختصرة التي تلوّكها بحزم وتنطلق من الأنف لدى الضرورة على أنّي ما ظننت في يوم أنّ شاطئ «البليك» العاديّ يمكن أن يوفّر بالفعل «إطلالة بحريّة»، فكانت أقوال السيدة «دوكامبرمير» البسيطة تغير أفكارها بهذا الشأن. وكنت في المقابل سمعت على الدوام من يشيد بالمنظر الفريد من «لاراسيلير» الواقع على قمة الهضبة حيث يطلّ صفّ كامل من نوافذ صالة كبيرة بموقدين، يطلّ من أقصى الحدائق وبين أوراق الشجر على البحر إلى مايجاوز «البليك»، ويطلّ الصفّ الآخر على الوادي. «كم أنت لطيف وما أحسن ما تقول: البحر بين أوراق الشجر. ذلك رائع، لكنّه .... مروحة». وأحسست في تنفّس عميق مهيباً لاسترجاع اللعاب وتنشيف الشاربين أن الإشادة كانت صادقة. ولكنّ المركيزة المولودة «لوغراندان» لبثت باردة لتبدي استهانتها لا بأقوالي بل بأقوال حماتها. وما كانت تستهين على أيّة حال بعقل هذه الأخيرة فحسب بل كانت تأسى للطفها إذ تخشى على الدوام أن لا يكون الناس فكرة كافية عن آل «كامبرمير». وقلت: «وكم هو جميل الاسم. وددت لو نعرف أصل هذه الأسماء جميعاً». وأجابتني السيدة العجوز برفق قائلة: «أنا بشأن ذلك فأستطيع أن أقوله لك. إنّ مسكن عائلي يعود لجديّ «أراسيل» وليست أسرة مشهورة، ولكنّها أسرة كريمة وعريقة جدّاً من الريف». وقاطعت زوجة ابنها الحديث بلهجة جافّة: «كيف هذا، غير مشهورة؟ ثمّة زجاجية كاملة في كاتدرائية «بايو» مليئة بشعاراتها فيما تحتفظ الكنيسة الرئيسيّة في «أفرانش» بأضرحتها. فإن كنت تجد تسلية في هذه الأسماء القديمة فقد تأخّرت سنة في الهجيء، تضيف



قولها. ذلك أننا كنا عينا في خورنيّة<sup>(١)</sup> «كريكتو»، على الرغم من كل الصعوبات الكثيرة في تبديل «الأبرشية»<sup>(٢)</sup>، عميد كهنة منطقة أملك فيها أراضي بعيداً جداً من هنا، في «كومبريه»، حيث أخذ يحسّ الكاهن الطيّب أنه يعاني من وهن الأعصاب. لكنّ هواء البحر لم يناسب لسوء الحظّ كبر سنّه، فقد زاد وهن أعصابه فأنشئ عائداً إلى «كومبريه». على أنّه وجد سلوى حينما كان جاراً لنا في المبادرة للاطلاع على القوانين القديمة جميعها، وألف نشرة صغيرة طريقة إلى حدّ ما حول الأسماء في المنطقة. وقد استملح الأمر. على أيّ حال إذ يبدو أنّه يشغل آخر سني عمره في تأليف كتاب كبير حول «كومبريه» والمنطقة المحيطة بها. وسأبعث لك عمّا قريب نشرته حول المنطقة المحيطة بـ «فيتيرن» إنّهُ أشبه بعمل «بندكتي»<sup>(٣)</sup>. سوف تقرّ فيه أموراً مثيرة حول أرضنا القديمة في «لاراسيلير» التي تحدّث عنها حماتي بتواضع مفرط جدّاً. وأجابت السيّد «دوكامبرير» الورثة قائلة: «لم يعد قصر «لاراسيلير» هذه السنة قصرنا في جميع الأحوال ولست أملكه. على أنّي أحسنّ لديك سليقة رسّام. جدير بك أن ترسم وكم وددت أن أريك «فيتيرن» فهي أفضل كثيراً من «لاراسيلير». ذلك أنّه منذ أن أجزّ آل «كامبرير» هذا المسكن الأخير لأسرة «فيردوران» كفّ موقعه المشرف فجأة عن أن يبدو لهم ما سبق أن كان في نظرهم على مدى سنوات طويلة، يعني أنّه يتمتّع بميزة فريدة في البلاد قوامها الإطلالة على البحر والوادي في آن واحد، وأبرز لهم في المقابل فجأة -وبعد فوات الأوان- السيّقة التي مفادها اضطرابهم المستمرّ للصعود والنزول للوصول إليه ومغادرته، ولعلّه بوجيز العبارة ساد الظنّ بأنّ السيّد «دوكامبرير» إن كانت أجزّته فلتريح جيادها أكثر منها لتزيد عائدها. وكانت تصرّح أنّها في غاية الغبطة أن يمكنها أخيراً امتلاك البحر على مدى كامل الوقت وعن قرب شديد في «فيتيرن» هي التي مارته على مدى فترة طويلة جداً إلا من علّ وكأتمّا ضمن مشهد عام وتنسى فترة الشهور التي تقضيها على شاطئه. «ها إنّي أكتشفه في سنّي، تقول، وكم استمتع به! وآية فائدة أجنّنها! ربّما أجزّت «لاراسيلير» مقابل لا شيء كي اضطرّ إلى سكني «فيتيرن».

وأردفت شقيقة «لوغراندان» التي كانت تقول للمركيزة العجوز: «أمّي»، ولكنّها تبنت على مرّ السنين تصرفات تتسم بالوقاحة إزاءها: «نعود إلى موضوعات أوفر إثارة، كنت تتحدّثين عن أزهار النيلوفر: وأظنّك تعرفين تلك التي رسمها «موني» ياله من عبقرى! ذلك يثير اهتمامي ولاسيّما أن ذلك المكان على مقربة من «كومبريه» حيث قلت لك إنّي أملك أرضاً...» ولكنّها فضّلت أن لا تفرط في الحديث عن «كومبريه». وصاحت «ألبيرتين» ولم تكن قالت شيئاً حتّى ذاك: «آه! تلك بالتأكيد المجموعة التي كلّمنا عنها «ايلستير» اعظم الرسّامين المعاصرين». وصاحت السيّد «دوكامبرير» التي شرقت دفقة لعاب وهي تأخذ نفساً عميقاً: «آه! واضح أن الآنسة تحبّ الفنون». وقال الحامي وهو يتسم ابتسامة العارف: «اسمحي لي يآنسة أن أفضّل «لوسيدانير» عليه». ولما سبق أن تذوّق أو شهد من تذوّق بعض «مواطن الجرأة» لدى «ايلستير» أضاف قوله: «كان «ايلستير» موهوباً، وهو حتّى كان جزءاً من الطليعة تقريباً، ولكنّي لا أعلم لماذا كفّ عن اللحاق بالركب، لقد أقسد حياته». وأقرّت السيّد «دوكامبرير» بصواب ما قال الحامي بخصوص «ايلستير» ولكنّها

(١) مقرّ الحوري أو كاهن الرعيّة. (٢) مجمل البلدان والقرى الواقعة تحت سلطة الأسقف أو المطران لدى الطوائف المسيحيّة.

(٣) الآباء البندكتيون الذين ينتمون للرهبانيّة التي أسسها القديس بندكتوس اشتهروا بمباحثهم المعمّقة المتأنيّة في علوم الدين والمجالات الأخرى، والصفة تطلق على أي عمل يتصفّ بالعمق والدقّة والتأني.

ساوت «مونية» بـ «لوسيدانير» مما أولى مدعوها غمًا كبيراً. لا يمكن أن نقول إنها كانت غبية؛ لقد كانت تفيض ذكاء أحسنه لا طائل تحته كلياً بالنسبة إليّ. كانت النوارس صفراء بالضبط الآن والشمس تنحدر على الأفق كما هي حال أزهار النيلوفر في لوحة أخرى من مجموعة «مونية» نفسها. فقلت إنني أعرفها وأضفت (وأنا أوالي تقليد كلام الشقيق الذي لم أكن جرؤت بعد على ذكر اسمه) أنه من المؤسف أن لم تخطر لها بالأحرى فكرة المحيي البارحة فلعلها كانت استطاعت في الساعة نفسها أن تشاهد ضياء على طريقة «يوسان»، لعل السيّدة «دوكامبرمير- لوغراندان» كانت دونما شك انتفضت كمن مُسّت كرامتها في حضرة واحد من نبلاء الريف النورماندي يجهله آل «غيرمانت» ويقول لها إنه كان يجدر بها أن تحيي البارحة. ولكني ربّما استطعت أن أكون بعد أكثر ألفة ولا تكون هي إلا نعومة طرية ذاتبة. كنت أستطيع في حرّ أواخر العشيّة الجميلة تلك أن أسرح كما يحلو لي في قرص العسل الضخم الذي يندر جداً أن تكونه السيّدة «دوكامبرمير» والذي حلّ محلّ المحمّصات الصغيرة التي لم يخطر لي أن أقدمها. بيد أن اسم «يوسان» أثار احتجاجات الهاربة دون أن يبدّل من وداعة امرأة المجتمعات الراقية. وإذ سمعت السيّدة «دوكامبرمير» ذلك الاسم أصدرت ستّ مرّات متوالية لا يفصل بينها تقريباً أيّ فاصل زمني نقرة اللسان الصغيرة تلك على الشفتين والتي تفيد في إبلاغ طفل يرتكب حماقة لوماً على أنه بدأ ونهياً عن المتابعة في الآن نفسه. «بحق السماء لاتبادر، بعد رساما مثل «مونية» هو بكلّ بساطة عبقرى، إلى تسمية مؤلّف مبتذل قديم تعوزه المهوبة من أمثال «يوسان». سأقول لك بصراحة مكشوفة إنني أجده من أكثر من يوردونك الملل. ماعساك تبغي، لست أستطيع تسمية ذلك رسماً. «مونية»، «دوغا»، «مانيه»، أجل هؤلاء رسّامون ! إنه لأمر غريب جداً، تضيف قولها وهي تثبت نظرة متفحّصة مبهورة على نقطة مبهمّة في الفراغ كانت تلمح فيها فكرتها الخاصّة، إنه لأمر غريب جداً، كنت فيما مضى أفضل «مانيه»؛ والآن لا أزال معجبة بـ «مانيه» بالطبع، ولكني أظنّ أنّي ربّما أفضل عليه «مونية» أيضاً. آه ! يا للكاتدرائيات ! كانت تلجأ إلى قدر متساوٍ من الدقّة المتحمّسة والتلطّف لإطلاعي على خطّ التطوّر الذي سلكه ذوقها. وكنت تحسّ أن المراحل التي تقلّب فيها هذا الذوق لم تكن في رأيها، أقلّ أهميّة من الأساليب المختلفة لدى «مونية» نفسه. وما كان لي بأية حال أن اعتزّ بأنها تُسرّ إليّ بمواطن إعجابها لأنها لم تكن تقوى، حتّى إزاء الرقيّة الأكثر محدوديّة، على البقاء خمس دقائق دون أن تحسّ بحاجة الإقرار بها. فحينما كانت سيّدة من نبلاء «أفرانش»، لعلها كانت عاجزة عن التمييز بين «موزارت» و «فاغنر» تقول في حضرة السيّدة «دوكامبرمير»: «لم يتوافر لنا جديد مثوّق أثناء إقامتنا في باريس، فقد ذهبنا مرّة إلى دار «الأوبرا الهازلة»، وكانوا يمثلون فيها «بيلياس وميليزاند»، وباللقباحة»، لم تكن السيّدة «دوكامبرمير» تغلي فحسب بل تحسّ بحاجتها أن تصرخ: «إنّها على العكس رائعة ملفتة»، و«تناقش». ربّما كانت تلك عادة في «كومبريه» اقتبست عن شقيقات جدّتي اللواتي يسمّين ذلك «الكفاح في سبيل القضية الصحيحة» ويعشقن الأعشبة التي يعلّمن أنّهن مدعوّات فيها كلّ أسبوعٍ إلى الدفاع عن آلهتهنّ ضدّ «غلاظ القلوب» .

كذلك كانت السيّدة «دوكامبرمير» تحبّ أن «تهتاج» وهي في «شجار» حول الفنّ كأخبارات حول السياسة. كانت تنحاز إلى «دوبوسي» كما لعلها تفعل بشأن واحدة من صديقاتها تُتهم في سلوكها. على أنه كان يجدر بها أن تدرك أنّها لا تستطيع بقولها: «لا، إنّها رائعة ملفتة» أن ترتجل لدى الشخص الذي كانت

تؤنّبه كامل التدرّج في تطوّر الثقافة الفنيّة الذي لعلّهما اتّفقا في نهايته دون أن تكون بهما حاجة إلى النقاش. وقال لي المحامي: «ينبغي أن أسأل «لوسيدانير» فكرته عن «پوسان». إنّه انطوائي سكوت ولكنّي سأعرف كيف أدفعه إلى الكلام».

وتابعت السيّد «دوكامبرمير» تقول: «إنّي على أيّ حال أنفر من مشاهد الغروب، فهي رومانتيكية، وهي أوبرالية. ولذلك أكره منزل حماتي بنباتاته الجنوبيّة. إنّه يبدو، كما سترى، كحديقة في «مونت كارلو»؛ ولذلك تراني أفضل شاطئكم. إنّه أشدّ حزناً وأوفر صدقاً، وثمّة درب صغير لا ترى البحر منه، وليس فيه في الأيام الماطرة سوى الأرواح، إنّه عالم قائم بذاته، ذلك كمال البندقيّة، فإنّي أكره القناة الكبرى ولا أعرف شيئا مؤثراً بقدر ما هي الجادّات الصغيرة، إنها مسألة محيط بآية حال». فقلت لها وبني إحساس بأن الطريقة الوحيدة لرّد اعتبار «پوسان» في عيني السيّد «دوكامبرمير» هي إطلاع هذه السيّد على أنّه عاد فأصبح رائجاً: «ولكنّ السيّد «دوغا» يؤكّد أنّه لا يعرف ماهو أفضل من لوحات «پوسان» في «شاتيبّي».

وقالت السيّد «دوكامبرمير» وهي لا تبني أن تكون من رأي مخالف لـ «دوغا»: «عجباً! لست أعرف لوحات «شاتيبّي» ولكنّي أستطيع التحدّث عن لوحات «اللوثر» وهي قبيحة منفرة». - «وإنّه لمعجب بها كذلك أشدّ الإعجاب». - «لابدّ أن أعود فأراها، فكلّ ذلك على شيء من قدم العهد في رأسي»، تجيب قائلة بعد لحظة صمت وكأنّها الحكم الإيجابي الذي ستطلقه بالتأكيد عمّا قريب على «پوسان» إنّما يرتبط وجوباً لا بالخبر الذي حملته إليها منذ قليل، بل بالامتحان الإضافي والنهائي هذه المرّة التي كانت تعتمز إخضاع لوحات «پوسان» في اللوثر له كي يسمعها الرجوع عن رأيها. واكتفيت بما كان بداية تراجع، بما أنّها إن لم تكن بعد معجبة بلوحات «پوسان» كانت تؤجّل الأمر لمداولة أخرى، وبغية أن لا أدعها فترة أطول نهب العذاب قلت لحماتها كم حدّثوني عن الأزهار الرائعة في «فيتيرن». فتحدّثت بتواضع عن الحديقة المتنوّعة الصغيرة الكائنة في الخلف حيث كانت تذهب بمبذلها بعدما تدفع باباً لتلقّي بالطعام لطواويسها وتجمع البيض وتقطف زينيّات أو وروداً كانت على حافة الطاولة تجعل إطاراً من الزهر للبيض بالكريما أو الأطعمة المقلّبة فتذكرها بجمراتها. وقالت لي: «صحيح أنّ لدينا الكثير من الورد، ومشتل الورد يكاد يكون قريباً جداً من بيت السكن، وثمّة أيام يورثني فيها صداعاً. والمتعة أعظم من شرفة «لاراسيلير» حيث تحمل الريح عطر الورد، ولكنّه أقلّ نفاذاً مذكّك». والتفت إلى الكنّة وقلت لها كي أرضي ميلها إلى النزعة العصرية: «إنّها تماماً «پيلياس» رائحة الورد هذه التي تتعالى إلى الشرفات، وهي قويّة في التقسيم الموسيقي إلى حدّ أنّي كنت آخذ بالعطس، إذ أنا مصاب بحمّى القشّ وحمّى الورد، في كلّ مرّة كنت أسمع فيها ذاك المشهد»، صاحت السيّد «دوكامبرمير» قائلة: «آية رائعة هي «پيلياس»! إنّي مشغوفة بها». واقتربت منّي بحركات امرأة متوحشة ودّت لو تسبّب لي إزعاجاً مستعينة بأصابعها لتنقر علامات موسيقيّة وهميّة وأخذت تدمدم شيئاً افترضت أنّه يمثّل بالنسبة إليها وداع «پيلياس» وتابعت باصرار وعنف كما لو كان من الأهميّة بمكان أن تذكرني السيّد «دوكامبرمير» في هذا الوقت بذلك المشهد، أو ربّما أن تريني بالأحرى أنّها كانت تتذكره، وأضافت قولها: «أظنّ أنّها حتّى أجمل من «پرسيفال» لأنّه إنّما ينضاف إلى أعظم مطارح الجمال في «پرسيفال» هالة من الجمل اللحنية، يعني التي عفي عليها الزمن بما أنّها تطريبيّة». وقلت للورثة: «أعرف أنّك موسيقيّة عظيمة

ياسيدتي. وددت كثيراً لو أسمعك». ونظرت السيدة «دوكامبرمير» - لوغراندان» إلى البحر كي لا تشارك في الحديث. وإذا ترى أن ما كانت تحبه حماتها لم يكن من الموسيقى في شيء فقد كانت تعتبر الموهبة (المزعمة في نظرها والبارزة كأكثر ماتكون في الواقع) التي يقرّون أنها تتمتع بها براءة لا طائل تحتها. صحيح أن تلميذة «شويان» الوحيدة التي ماتزال على قيد الحياة كانت تصرّح بحق أن طريقة عزف المعلم، أن إحساسه لم ينتقل عبرها إلا إلى السيدة «دوكامبرمير»، ولكن العزف على طريقة «شويان» ما أبعد كان عن أن يؤلف مرجعية في نظر شقيقة «لوغراندان» التي لاتزدري أحداً بقدر ازديادها للموسيقي البولوني. وصاحت «ألبيرتين» قائلة: «آه! إنها تطير»، وهي تدلني على النوارس التي تخلت للحظة عن تنكرها زهراء وارتفعت جميعها صوب الشمس. وقالت السيدة «دوكامبرمير» وهي تخلط بين النوارس وطيور القطرس: «تحول أجندتها العملاقة دون مسيرها». وقالت «ألبيرتين»: «إنني أحبها كثيراً وكنت أشهد منها في «امستردام». إنها تحس البحر وتقبل لتنتشفه حتى عبر أحجار الشوارع». وسألت السيدة «دوكامبرمير» سؤال الأمر: «آه! كنت في هولنده، فهل تعرفين «فيرمير»<sup>(١)</sup>؟ تقولها بلهجة من لعلها قال: «هل تعرفين آل «غيرمانت»؟»، لأن السنيوية إن هي غيرت موضوعها لا تغير لهجتها. وأجابت «ألبيرتين» أن لا لأنها كانت تظنهم أحياء يزقون؛ ولكنما لم يد شيء من ذلك. وقالت لي السيدة «دوكامبرمير»: «كان أسعدني أن أعزف لك شيئاً من الموسيقى. ولكنك تعلم، أنا لا أعزف سوى أشياء لا تثير اهتمام بني جيلك من بعد. فقد نشأت على حب «شويان»، تقولها بصوت خفيض إذ كانت تخشى كنتها وتعلم أن هذه ترى أن «شويان» إذ ليس من الموسيقى في شيء فإن إجادة عزفه أو إساءة عبارتان لا معنى لهما. كانت تقر بأن حماتها تملك الآلية وتجد العزف السريع». وتخلص السيدة «دوكامبرمير» - لوغراندان» إلى القول: «لن يحملوني يوماً على التصريح بأنها موسيقية». لأنها كانت تظن نفسها «متقدمة» وأنها (في نطاق الفن فحسب) «لم تكن إلى اليسار بما يكفي البتة»، فقد كانت تتصور أن الموسيقى لا تتطور فحسب، بل هي تفعل على خطّ وحيد وأن «دوبوسي» درجة تضاف نوعاً ما إلى «فاغنر» وأنه متقدّم قليلاً على «فاغنر». وما كانت تتنبه إلى أن «دوبوسي» إن لم يكن مستقلاً عن «فاغنر» بقدر ماسوف تفتقده هي بعد بضع سنوات لأن المرء إنما يستخدم الأسلحة التي غنمها كي يتحرر نهائياً من ذلك الذي غلبه مؤقتاً، فقد كان يجهد مع ذلك، في أعقاب الاكتفاء الذي يحس به المرء من الأعمال الكاملة المكتملة التي تعبّر عن كلّ شيء، في إرضاء حاجة مغايرة. كان ثمة نظريات بالطبع تدعم مؤقتاً ردة الفعل هذه وهي مشابهة لتلك النظريات التي تساند في نطاق السياسة القوانين المناهضة للجمعيات الدينية والحروب في الشرق (التعليم المضاد للطبيعة، والخطر الأصفر، الخ... الخ....). كانوا يقولون إن عصر العجلة يناسبه فنّ سريع، تماماً كما لعلمهم قالوا إن الحرب الآتية لا يمكن أن تدوم أكثر من خمسة عشر يوماً، أو أن الأركان الصغيرة الغالية على عربات الخيل سوف تهجر بظهور القطارات مع أن السيارة سوف تعيدها إلى الصدارة. وكانوا يوصون بأن لا يرهقوا انتباه المستمع كما لو أننا لا نملك صنوف انتباه مختلفة يعود للفنان بالضبط أن يوقظ أسمى أنواعها. فإن الذين يتشاءون تبعاً بعد عشرة سطور من مقالة ضحلة سبق أن أموا في كل عام «بايروت» لسماع «الرباعية». وعلى أي حال كان لابد أن يجيء اليوم الذي يعلن فيه لفترة من الزمن أن «دوبوسي» بمثل هشاشة «ماسنيه» وأن

(١) تسأل عن لوحات الرسام الشهير «فيرمير» والسؤال بالفرنسية ملتبس ويعني آل «فيرمير» ولوحات «فيرمير».

انتفاضات «ميليزاند» انحدرت إلى مصاف انتفاضات «مانون». ذلك لأن النظريات والمدارس، شأن الميكروبات والكريات، تتناهى وتضمن بصراعها استمرار الحياة، ولكن هذا الزمن لم يكن بعد قد حلّ.

ومثلما هي الحال في البورصة عندما يحدث ارتفاع ويفيد من ذلك قطاع كامل من القيم المالية، كان عدد من المؤلفين المزدريين يفيد من ردة الفعل، إما لأنهم ما كانوا يستحقون ذلك الازدراء، وإما لأنهم تعرضوا فحسب لذلك الخطر - الأمر الذي كان يفسح المجال لقول الجديد لدى امتداحهم - بل كانوا يمضون باحثين في الحقب الخوالى عن بعض مواهب مستقلة ما كان يبدو أن الحركة الراهنة سيكون لها أثر على سمعتهم ولكننا نقل عن أحد أربابها الجدد أنه قرن اسمهم بالتقدير. وكان ذلك في الغالب لأن الأستاذ، أي أستاذ، ومهما كانت مدرسته مقصورة حصريّة، إنما يدي رأيه في عاطفة أصيلة ويؤي الموهبة حقها حيثما وجدت، بل يفعل بالنسبة إلى إحياء متع عرفه فيما مضى ويرتبط بفترة حبيبة من يفاعته، أكثر منه بالنسبة إلى الموهبة. وأحيانا لأن بعض الفنانين من حقبة أخرى قد حققوا في مقطوعة واحدة شيئا يشبه ماتبين الأستاذ شيئا فشيئا أنه كان يؤد أن يفعله بنفسه. حينئذ يبصر في ذلك القديم كأنما سلفاً له ويجب عنده بلبوس آخر، جهداً هو بصورة وقتية وجزيّة أخويّة. فثمة قطع من «تورنو» في أعمال «بوسان» وجملة لـ «فلوير» في «مونتيكيو». وأحيانا كانت شائعة إشار الأستاذ تلك نتيجة خطأ لا يعرف أحد أين نشأ وتناقلوه في المدرسة. ولكن الاسم المذكور كان يفيد آنذاك من المؤسسة التي سبق أن دخل في الوقت المناسب في حمايتها لأنه إن كان ثمة بعض الحرية وميل حقيقي في اختيار الأستاذ فإن المدراس فيما يخصها لا تتوجّه من بعد إلا وفقاً للنظرية. وهكذا كان الفكر، في أتباعه مجراه الطبيعي الذي يتقدّم استطاداً فينعطف مرّة في اتجاه والمرّة التالية في الاتجاه المعاكس، يعيد النور من فوق على عدد من الأعمال أضافت إليها الحاجة إلى العدالة أو التجديد، أو ذوق «دوبوسي» أو نزوة عابرة لديه أو كلام ربّما لم يقله، أعمال «شويان». وإذا أوصى بها القضاة، وهم موضع ثقة تامة، وأفادت من موجة الإعجاب التي أثارها «بيلياس» فقد عادت فلقيت ألقاً جديداً وأضحى أولئك الذين لم يسبق أن عاودوا الاستماع إليها تملكهم رغبة شديدة في حبّها حتى ليفعلون ذلك رغما عنهم وإن كانوا يتوهّمون الحرية في تصرفهم. ولكن السيّد «دوكامبرمير - لوغراندان» كانت تقضي قسماً من العام في الريف، بل هي، لمرضها، كانت حتى في باريس تعيش كثيراً داخل غرفتها. صحيح أن مساوئ الأمر كان يمكن أن تحسّ بها على وجه الخصوص في اختيار التعابير التي تظنّها السيّد «دوكامبرمير» رائجة ولعلها كانت تناسب بالأحرى اللغة المكتوبة، وهي فوارق ما كانت تميّزها، لأنها أخذتها عن القراءة أكثر منها عن المحادثة. والمحادثة ليست ضرورية لمعرفة الآراء بدقة ضرورة التعابير الجديدة. على أن تجسيد «الليليات»<sup>(١)</sup> لم يكن بعد قد أعلن من جانب النقاد. وقد ذاع خبره فقط عن طريق محاضرات جماعة من الشبان، وكان لا يزال مجهولاً لدى السيّد «دوكامبرمير - لوغراندان». وقد لدني أن أنقل إليها، ولكنني أفعل موجّها الحديث إلى حمايتها، مثلما تلعب في البلياردو على الجوانب بغيّة إصابة إحدى الكرات، أن «شويان» كان الموسيقيّ المفضّل لدى «دوبوسي» وما كان متقادماً العهد وما أبعد أن يكون. وقالت الكتّه في ابتسامه: «عجبا، ذلك تمتع»، كما لو لم يكن الأمر سوى مفارقة ألقى بها مؤلف «بيلياس». على أنه كان من المؤكد الآن أنها لن

(١) مقطوعات من تأليف «شويان».

تسمع «شوبان» من بعد إلا بإحلال وحتى بغبطة. ولذلك فإن كلماتي التي دقت منذ قليل ساعة الخلاص بالنسبة إلى الوريثة أشاعت في محيّاها علائم الامتنان لي ولاسيما الغبطة. والتمعت عيناها مثل عيني «لاتود» في المسرحية التي عنوانها «لاتود أو خمسة وثلاثون عاماً في الأسر» وتنسم صدرها هواء البحر بذاك الاتساع الذي أجاد «بيتهوفن» إلى حد بعيد في الإشارة إليه في أوبرا «فيديليو» حينما يستنشق سجنائه أخيراً «ذاك الهواء المحيي». وخلصت أنها ستطبع على خدي شفيتها «المشورتين». «كيف هذا، تحب «شوبان»؟ إنه يحب «شوبان»، يحب «شوبان»، تصرخ قائلة في خنة حماسية كما لعلها كانت تقول «عجبا، تعرف كذلك السيدة «دو فرانكتو»؟ بفارق أن علاقتي بالسيدة «دوفرانكتو» ربما كانت غير ذات بال إلى أبعد حد في نظرها فيما دفعتها معرفتي لـ «شوبان» إلى ضرب من الهذيان الفتني. ولم يعد فرط الإفراز اللعابي كافياً. وهي حتى لم تحاول أن تفهم دور «دوبوسي» في إعادة اكتشاف «شوبان» بل أحست فحسب أن الحكم الذي أصدرته كان لصالحه، وتملكتها الحماسة الموسيقية. «إيلودي! إيلودي! إنه يحب «شوبان». وارتفع نهداها وضربت الهواء بذراعيها، وصاحت قائلة: «لقد شعرت تماماً أنك موسيقي». وإنني أدرك أنك تحب ذلك، وأنت «فتنان» بطبيعتك في الجماله! وكان صوتها حصياً كما لو أنها في سبيل التعبير عن تحمسها لـ «شوبان» ملأت فمها، مقلدة بذلك «ديموستين»<sup>(١)</sup>، بحصى الشاطئ جميعها. ثم كان الجزر يبلع حد غلالة الوجه التي لم يتسع لها الوقت لوضعها في مكان آمن وجرى اختراقها، وأخيراً مسحت المركزية بمتدليها المطرز الزبد الراغي الذي بلغت ذكرى «شوبان» شاربها به.

وقالت لي السيدة «دو كامبرمير» - لوغرانديان: «يا إلهي، أظن أن حماتي تبلغ قليلاً في تأخرها وتنسى أننا نستضيف على العشاء عمي «دو شنوفيل». ثم إن «كانكان» لا يحب الانتظار». ظلت «كانكان» غير مفهومة عندي وظننت الأمر ربما عنت به كلباً. أما فيما يخص أبناء عم «شنوفيل» فدونك الأمر. لقد حققت لدى المركزية الشابة المتعة التي كانت تحسها في نطق اسمها على هذا النحو، وقد سبق لها مع ذلك أن قررت الزواج للتمتع بنطقه، وكانوا في جماعات أخرى من المجتمعات الراقية حينما يتحدثون عن آل «شنوفيل» قد اتخذوا عادة التضحية بصائت «دو» (على الأقل في كل مرة يكون الحرف فيها مسبقاً باسم نهايته صائت، إذ هم مضطرون في الحالة المقابلة أن يتخذوا من «دو» نقطة استناد، فاللغة لا تطيق أن يقال «مدام دشونوسو»). فكانوا يقولون: «السيد «دشنوفيل». وكان التقليد معكوساً في أسرة «كامبرمير» ولكنه يمثل حتميته، فقد كان ما يحذف على الدوام هو صائت شنوفيل فتقال «شنوفيل». وسواء كان الاسم مسبقاً «بابن عمي أو ابنة عمي» فقد كان على الدوام «دو شنوفيل» وما كان في يوم «دو شنوفيل». (أما بالنسبة لوالد أفراد أسرة «شنوفيل» فقد كانوا يقولون «عمنا» إذ لم يكونوا على قدر كافٍ من التجربة في «فيتيرن» ليقولوا «عمو» كما لعل آل «غيرمانت» كانوا فعلوا، هم الذين كانت لغتهم الغريبة المقصودة التي يحذفون السواكن فيها ويضفون شكلاً وطنياً على الأسماء الأجنبية صعب الفهم صعوبة الفرنسية القديمة أو اللهجات المحكية الحديثة). كان كل شخص يدخل في أسرة «كامبرمير» يتلقى في الحال حول هذه النقطة المتعلقة

(١) خطيب مغرور من عصر «فليس» المقدوني والد الاسكندر الكبير، وكان في بداياته ألغ متعز للفظ، فلم يزل يجهد في ذلك بوضع الحصة تحت لسانه حتى استقام أمره.

بآل «شوفيل» تحذيراً لم تكن الآنسة «لوغراندان» بحاجة إليه. وإذا سمعت ذات يوم في زيارة لها فتاة تقول: «عمتي دوزيه» و«عمو دو روان»<sup>(١)</sup> فإنها لم تتعرف في الحال الاسمين الشهيرين اللذين تعودت أن تلفظهما «أوزيس» و«روان» وقد أخذ منها العجب والارتباك والخجل الذي يصيب واحداً يجد أمامه على المائدة أداة اخترعت حديثاً لا يعرف كيفية استخدامها فلا يجرؤ على مباشرة الأكل بها. ولكنها في الليلة التالية والغد ردّدت مفتونة: «عمتي دوزيه» بحذف حرف السين الأخير، وهو ما سبق أن أذهلها البارحة ولكنما يبدو لها الآن من قبيل الابتال الشديد أن لا يعرفها المرء إلى حدّ أن الآنسة «لوغراندان» أجابت واحدة من صديقاتها حديثاً عن تمثال نصفي للدوقة «دوزيس» أجابت بامتعاض وبلهجة مستكبرة: «بمقدورك على الأقل أن تتلفظي كما ينبغي أن تفعل: مام (مدام) دوزيه». لقد أدركت مذكاً أنه بمقتضى استحالة المواد الصلبة عناصر أكثر فأكثر خفة ورقة فإن الثروة الضخمة المكتسبة بصورة شريفة جداً والتي ورثتها عن والدها والتربية الشاملة التي حازتها ودوامها وثابرتها في «الصوربون»، سواء على دروس «كارو» أو دروس «برونتيير» وحفلات «لامورو» الموسيقية، كل ذلك كان ينبغي أن يتبخّر ويلقى تصعيده الأخير في متعة أن تقول ذات يوم: «عمتي دوزيه».

ولكنما لا يقضي من فكرها أنها ستستمر، على الأقل في الفترات الأولى التي تلي زواجها، في عشرة، لا بعض الصديقات اللواتي تحبهن واللواتي تسلمن بالتضحية بهنّ، بل بعض الأخريات اللواتي لا تحبهن وتود أن يمكنها أن تقول لهنّ «إذ هي ستزوّج لهذه الغاية»: «سأقد مكنّ لعمتي دو شوفيل و«سوف أوفر لكنّ عشاء مع أسرة «أوزيه». وقد قرّر زواج الآنسة «لوغراندان» من السيّد «دوكاميرير» وقرّر لها فرصة أن تقول الأولى من هاتين الجملتين لا الثانية إذ لم يكن المجتمع الذي يتراده حمواها ذاك الذي ظنّت والذي ما انفكت تخلم به. وهكذا فإنها بعدما قالت لي عن «سان لو» (متخلدة لذلك عبارة لـ «روبير»، إذ كانت، إن أنا تكلمت للحديث معها مثلما يفعل «لوغراندان»، تجيبني بإحساء معاكس بلهجة «روبير» التي لا تعرف أنها مقتبسة من «راحيل»، وهي تقرب إبهامها من سبابتها في نصف إغماضة كما لو أنها تنظر إلى شيء في غاية الدقة تمكّنت من التقاطه: «إنه يملك فكراً من نوعية محببة»، امتدحته بقدر من الحماسة كبير حتى لأمكن الظنّ أنها كانت مغرمة به (وكانوا زعموا بأية حال أن «روبير» فيما مضى، حينما أقام في «دونسيير»، كان عشيقاً لها)، ولكنها فعلت في الواقع لحض أن أردّد ذلك على مسامعها ولتصل إلى هذا: «إنك وثيق الصلة بالدوقة «دوغيرمانت»، وإنّي أكابد الآلام وأكاد لا أخرج وأعرف أنها تظنّ حبسية حلقة من الأصدقاء المختارين، وهذا ما أراه جيداً جداً، ولذلك فمعرفتي بها هيئة جداً ولكنني أعرف أنها امرأة رفيعة المستوى». وإذا كنت أعلم أن السيّد «دوكاميرير» تكاد لا تعرفها وكيفا أجعل نفسي صغيراً بقدر ما كانت هي فقد مررت مرور الكرام على هذا الموضوع وأجبت المركيزة بأني عرفت بوجه الخصوص شقيقها السيّد «لوغراندان». واتخذت لدى سماع هذا الاسم الهيئة المتهرة نفسها التي اتخذتها بشأن السيّد «دوغيرمانت»، ولكنما أضافت إليها ملامح استياء لأنها ظنّت أنني قلت ذلك لا لأذل نفسي بل لأذلها. فهل كان يتأكلها اغتمامها أن تكون ولدت

(١) d'Uzai بدلاً من d'Uzès ، Rouany بدلاً من Rohan.

لآل «لوراندان» ؟ ذلك على الأقل ما كانت تزعمه شقيقات وبنات حمي زوجها، وهن سيّدات نبيلات من الرّيف ما كنّ يعرفن أحداً ولا يعرفن شيئاً ويحسدن السيّدة «دوكاميرمير» ذكاءها وتعليمها وثروتها والمفاتيح الجسمانيّة التي كانت لها قبل أن يداهما المرض. «إنّها لا تفكر في أيّ أمر آخر وهذا ما يقتلها»، تقول تلك الخبيثات حالما يتحدّثن عن السيّدة «دوكاميرمير» إلى أحدهم، والأفضل إليّ أحد أبناء الطبقة الدنيا إمّا لإضفاء قيمة أوفر، بالتوكيد على مافي الطبقة الدنيا من خزي، على اللطف الذي يبدينه له، إن كان مغروراً غيباً، فإن كان خجولاً مرهقاً يطبّق القول على نفسه فليصبن متعة فيما يحسن استقباله في توجيه وقاحة غير مباشرة إليه. ولكن إن ظنّت تلك السيّدات أنهنّ يقلن الحقيقة بالنسبة إلى نبت حميهنّ فقد كنّ على ضلال. فإن هذه قد تقلّصت معاناتها من أنّها ولدت لآل «لوراندان» بقدر ما كانت قد نسيت ذكراها. واستاءت من أيّ رددت ذلك عليها وصمّت كما لو لم تفهم إذ لا ترى ضرورة في توفير ايضاح ولا حتّى توكيد لأقوالها.

«ليس أهلكنا السبب الرئيسيّ لتقصير زيارتنا»، تقول السيّدة «دوكاميرمير» الورثة التي كانت على الأرجح أكثر لامبالاة من زوجة ابنها بشأن المتعة الناجمة عن قولها: «شوفيل»؛ ولكن السيّد، تقول وهي تشير إلى المحامي، لم يجرؤ، بغية أن لا يتعبك بمزيد من الناس، على إحضار زوجته وابنه إلى هنا وهما ينتزّهان على الشاطئ بانتظارنا ولا بدّ أنهما بدأا يتضجّران» وطلبت وصفهما لي وصفاً دقيقاً وأسّرت لإحضارهما. كان للمرأة وجه مستدير شبيه ببعض الأزهار من فصيلة الشقيقيّات وفي زاوية العين علامة نباتيّة على اتّساع كاف. وإذ تحتفظ أجيال الناس بسماتها شأن فصيلة من النباتات، فإن العلامة نفسها، كما هي الحال على وجه الوالدة المتغصّن، العلامة التي ربّما أمكن أن تعين على تصنيف نوع معيّن، كانت تنتفخ في أسفل عين الابن. لقد أثّرت عناني بتزوجة المحامي وبولده في نفسه. فأبدى اهتماماً بشأن اقامتي في «البليك». «لا بدّ أنك تجد نفسك في جوّ من الغربة، فهنا أجنب في الكثير الغالب». وكان ينظر إليّ فيما يحدثني لأنّه يودّ، وهو لا يحبّ الأجنب مع أن كثيرين منهم من زبائنه، أن يتأكّد أنّي لا أناهض عداءه للأجنب فلعله كان تراجع إذ ذاك قائلاً: «يمكن بالطبع أن تكون السيّدة «س» امرأة رائعة. إنّها مسألة مبادئ». ولما لم أكن أحمل في تلك الحقبة أيّ رأي حول الأجنب فلم أبدأ أيّ استنكار وأحسن أنّه في أرض آمنّة. وبلغ به أن سألتني المحيي ذات يوم إليّ بيته في باريس لمشاهدة مجموعة «لوسيدانير» التي يملكها وأن أحمل أسرة «كاميرمير» على المحيي معي وكان يظنّ بجلاء أنّي على علاقة حميمة بهم. «سوف أدعوك بصحبة «لوسيدانير»، يقول وهو واثق أنّي لن أعيش من بعد إلّا بانتظار هذا اليوم المبارك. وسترى أيّ رجل رائع هو، وتفتنك لوحاته. لا يسعني بالطبع منافسة كبار أصحاب المجموعات ولكنّي أظنّ أنّي من يملك العدد الأكبر من لوحاته المفضّلة. وسوف يزيد من اهتمامك وأنت من «البليك»، أنّها في القسم الأكبر منها على الأقلّ لوحات بحريّة». كانت المرأة والابن اللذان يتّسمان بالطابع النباتي يصغيان خاشعين. وكنت تحسّ أن فندقهما في باريس نوع من المعبد مكرّس لـ «لوسيدانير» ومثل هذه المعابد ليس غير ذي جدوى فالإله حينما تتناهب شكوك حول ذاته يسدّ يسر شقوق رأيه بشهادات لاتدحض وجود بها أناس كرّسوا حياتهم لأعماله.

كانت السيّدة «دوكاميرمير» تزعم النهوض بناء على إشارة من كُنّتها وتقول لي: «بما أنّك لا تنوي الإقامة في «فيتير» أفلست تريد المحيي للغداء في أحد أيّام الأسبوع، في الغد مثلاً» وأضافت بلهجة رفيعة



وكيما تقتنعني: «سوف تعود فتلقى الكونت «دوغريزونا»، وما كنت أضعته في يوم، والسبب أنني ما كنت أعرفه. وكانت آخذة بعرض اغراءات أخرى عليّ، ولكنها توقفت على الفور. فإن الرئيس الأول الذي علم لدى عودته أنها في الفندق بحث عنها خفية في كل مكان وانتظرها فيما بعد وأقبل وهو يتظاهر بأنه يلتقيها مصادفة ليقدم لها مظاهر احترامه. وأدركت أن السيّدة «دوكاميرمير» لم تكن حريصة على أن تشملها الدعوة على الغداء التي وجهتها إليه منذ قليل، مع أنه كان أسبق منّي إلى معرفتها بفترة طويلة إذ كان منذ سنوات أحد رؤاد حفلات العصر في «فيتيرن». وما أكثر ما كنت أستهيها طوال إقامتي الأولى في «بالبيك»، ولكنّ القدم لا يمثل كلّ شيء في نظر ناس المجتمع الراقي، وهم يفضلون أن يخصصوا بحفلات الغداء المعارف الجدد الذين لا يزالون يستشيرون فضولهم ولاسيما إن جاؤوا تسبقهم توصية مهيبة حارة كتوصية «سان لو». وقدّرت السيّدة «دوكاميرمير» أن الرئيس الأول لم يسمع ماقالته لي ولكنها توجهت إليه بالطف القول لتهدئ ما تعانيه من ندم. وأبصرنا في ضياء الشمس الذي كان يغرق في الأفق شاطئ «ريشيل» المذهب، ولا يرى عادة، أبصرنا بوضوح أجراس «التبشير» الصغيرة تقرر في محيط «فيتيرن» وهي تكاد لا تنفصل عن زرقة السماء المشرقة وتطلع من المياه وريّة فضية الرنة تكاد لا تسمع. ولفت السيّدة «دوكاميرمير - لوغراندان» قائلاً: «ذلك أيضاً من لون «هيلياس» إليّ حدّ ما؛ تعرفين المشهد الذي أعنيه». - «اعتقد تماماً أنني أعرف»؛ ولكنّا صوتها ووجهها اللذان لم يتخذنا قالب أيّ ذكرى، وكذلك ابتسامتها السائبة التي لا مرتكز لها كانت كلّها تعلن قائلة: «لست أعرف على الإطلاق» كانت الوريثة في ذهول أن يصل صوت الأجراس إلى هنا ونهضت وهي تفكر بالساعة، وقلت: «ولكن بالفعل لسنا نرى عادة ذلك الشاطئ من «بالبيك»، كما لا نسمعه أيضاً. لا بدّ أن يكون الطقس تبدّل وضاعف من اتساع الأفق؛ ما لم تكن أقبلت تبحث عنك إذ أراها تحملك على الرجيل، فهي بالنسبة إليك جرس العشاء». كان الرئيس الأول، وهو قليل التأثر بالأجراس، يتطلع خلسة إلى السدّ الذي تغمّه رؤيته بهذا الإقفار. وقالت لي السيّدة «دوكاميرمير»: «إنك شاعر حقيقي، ويحكّ المرء عميق الانفعال وفنائاً إلى أبعد حدّ». وأضافت تقول وهي ترفع ذراعيها بهيئة المتهلّل وتنطق كلماتها بصوت أجشّ يبدو وكأنّه ينقلّ حصي: «تعال، سأعزف لك من موسيقى «شويان». ثم جاء دور بلع اللعاب ومسحت السيّدة العجوز بمنديلها شعر شاربها الخفيف المصفوف على الطريقة الأميركيّة وفعلت بصورة عفوية. وأدّى لي الرئيس الأول دونما قصد خدمة كبيرة جدّاً وهو يمسك بذراع المركيزة ليصحبها إلى عريشها، إذ يملي مقدار من السوقية والجرأة والميل إلى التباهي سلوكاً ربّما تردّد الآخرون في حمل مسؤوليته وما أبعد أن يسوء في دنيا المجتمعات. وكان على أيّ حال قد تعود ذلك أكثر مني منذ سنوات كثيرة. وفيما كنت أباركه لم أجروّ على تقليده وسرت إلى جانب السيّدة «دوكاميرمير - لوغراندان» التي أرادت أن ترى الكتاب الذي كان يدي. ودفعها اسم السيّدة «دو سيفينييه» إليّ قلب شفتها؛ وسألني، وهي تلجأ إلى كلمة سبق أن قرأتها في بعض الصحف ولكنها كانت إذ ينطق بها وتؤنّث وتنطبق على كاتب من القرن السابع عشر تخلف أثراً غريباً: «أو تجدها بالحقيقة ذات مواهب»؟ وزودت المركيزة الخادم الخاصّ بعنوان حلواني ينبغي أن تمرّ به قبل أن تنطلق ثانية في الطريق الوردية من غبار المساء وحيث أخذت الجروف المتدرّجة تكتسي زرقة وقد تشكّلت أردافاً، وسألت حوذيتها الشيخ إن كان أحد جيادها، وكان برّيداً، قد أصاب قسطاً كافياً من الدفء وإن كان حافر

الآخر لا يؤله. وقالت لي بصوت خافت: «سأكتب إليك عمّا يجدر الإنفاق حوله. لقد لاح لي أنك كنت تتحدث عن الأدب مع كنتي»، وأضافت تقول: «إنها رائعة»، مع أنها لا تظن ذلك ولكنها تعودت - واحتفظت بعادتها تلك عن كرم نفس - أن تقول في غمغمة أخيرة متحمسة: «ثم إنها فنانة، وأية فنانة!» ثم استقلت عربتها وهي ترجّح رأسها وترفع عصا شمسيتها وانطلقت عبر شوارع «بالبيك» تثقلها أثواب كهنوتها، شأن مطران شيخ في جولة تثبيت<sup>(١)</sup>.

قال لي الرئيس الأول بنيرة قاسية بعدما ابتعدت العربية وعدت برفقة صديقتي: «لقد دعيتك إلى الغداء. ونحن على فتور علاقة، فإنها ترى أنني أهملها. أجل، لتي سهل معاشتي، فإن كانوا بحاجة إليّ فإنني على الدوام هنا لأجيب: «حاضر». ولكنهم أرادوا الاستشارة بي. أمّا هذا، يضيف قوله بهيئة متذكية وهو يرفع إصبعه كمن يفرّق ويحاج، فلست أسمح به، وإنما يعني المساس بشؤون عطلتي، لقد اضطرت أن أقول: «مكانك، قف!» تبدو على مايرام معها. وعندما تبلغ عمري ستبتين أن المجتمع الراقى أمرهين جدًا وستندم على إيلائك هذا القدر من الأهمية لهذه الهنات. وهيا، سأقوم بجولة قبل العشاء». وصاح كأنما لا يكلم أحداً وكأنه ابتعد خمسين خطوة: «الوداع يا أولاد!»

حينما استودعت «روزموند» و«جيزيل»، أبصرتا بدهشة «أليبرتين» متوقفة لا تتبعهما. «ويحك، يا «أليبرتين» ما عساك تفعلن، أو تعرفين الساعة؟ فأجابتهما بقوة: «عودا أنتما»، وأضافت قولها وهي تشير إليّ بخضوع: «لديّ حديث معه». ونظرت «روزموند» و«جيزيل» إليّ وقد داخلهما احترام جديد في النظرة إليّ. كان يغطيني أن أشعر، لبرهة على الأقل، أنني كنت في نظر «روزموند» و«جيزيل»، شيئا أكثر أهمية بالنسبة إليّ «أليبرتين» من ساعة العودة ومن صديقاتها وأنه يمكن أن يكون بيننا أسرار خطيرة يستحيل إشراكهما بها». -«وهل نراك هذا المساء؟» - «لست أدري فالأمر مرهون به. إلى الغد في جميع الأحوال». وقلت لها بعدما ابتعدت صديقتها: «هيا نصعد إلى غرفتي». وأخذنا المصعد، فصممت أمام عامل المصعد. ذلك أن عادة الإضطراب للجوء إلى الملاحظة الشخصية والاستقراء لمعرفة شؤون الأسياد، هؤلاء الناس الغريبو الأطوار الذين يتحدثون فيما بينهم ولا يكلمونهم إنما تنمي لدى «الموظفين» (كما كان عامل الصعد يدعو الخدم) قدرة على التكهن أعظم مما يتوافر لأرباب العمل. فإن الأعضاء تضرر أو تصبح أكثر قوة أو رهافة حسبما تتعاطم الحاجة إليها أو تتناقض. ومنذ نشأة الخطوط الحديدية علمتنا ضرورة أن لا يفوتنا القطار أن نحسب حساب الدقائق فيما المفهوم لدى قدماء الرومان الذين لم يكن علم الفلك عندهم أكثر بدائية فحسب بل كانت الحياة عندهم أقل استعجالا، فإن مفهوم الدقائق بل حتى مفهوم الساعات المحددة، كاد يكون معدوما. ولذلك كان عامل المصعد قد أدرك أننا، أنا و«أليبرتين» قلقان ويعتزم أن يروي عن ذلك لرفاقه. ولكنه كان يكلمنا دون انقطاع إذ هو يفتقر إلى اللياقة. بيد أنني كنت أرى هيئة من الانكسار والاضطراب الغريبيين ترسم على وجهه وقد حلت محلّ شعور الودّ والغبطة المعتاد لديه من جرّاء اصطحابي في صعبه، ولما كنت أجهل سببها فقد قلت له في محاولة منّي لصرف انتباهه عنهما، ومع أنني كنت أكثر انشغالا بـ«أليبرتين» قلت له إن السيّد التي غادرت توكّ تدعى المركيزة «دوكامبرمير» وليس «دوكامبيير». وأبصرت في الدور الذي كنّا نمر أمامه

(١) من الطقوس الكنسية لدى المسيحيين وهو مكمل للطقس المعمودية.

حينذاك وصيفة دميعة تحمل مسنداً وقد حيّتي بإجلال وهي تأمل إكراميه عند الرحيل. وددت لو أعلم إن كانت هي التي اشتبهتها كثيراً في عشيّة حلولي الأول في «البليك» ولكنني لم أفلح البتة في بلوغ أيّ يقين بهذا الشأن. وأقسم لي عامل المصعد بصدق معظم شهود الزور، ولكن دون أن تفارقه هيئته اليائسة، بأن المركيزة طلبت منه تقديمها باسم «دوكامنيير». وكان من الطبيعي، كي نصدق القول، أن يكون سمع اسماً سبق أن عرفه. ثمّ لما كان يملك حول طبقة النبلاء وطبيعة الأسماء التي تصاغ بها الألقاب المفاهيم الشديدة الغموض التي يحملها كثير من الناس ليسوا عمال مصاعد، فقد بدا له اسم «كامنيير» محتملاً يزيد من احتمال أنه، لما كانت هذه الجبنة معروفة في كلّ أنحاء العالم، ما كان ينبغي أن ندهش من أنهم استخلصوا لقب مركيز من سمعة ماجدة إلى هذا الحدّ، ما لم يكن اللقب نفسه هو الذي أعطى الجبنة شهرتها. ولكنّه لما لاحظت أنني لأؤدّ الظهور بمظهر من أخطأ وكان يعلم أن الأسياد يحبّون أن تطاع أهواؤهم الأكثر تفاهة وتقبل كذباتهم الأكثر وضوحاً وعدني وعد الخادم الطيّب أن يقول: «كامبرمير» من الآن فصاعداً، صحيح أنّه ما كان لدكّانيّ في المدينة ولا لفلّاح في الضواحي حيث كان اسم وشخص آل «كامبرمير» معروفين تمام المعرفة ان يقعا في يوم في مثل خطأ عامل المصعد، ولكنّ مستخدمي «فندق بالبليك الكبير» لم يكونوا من أبناء المنطقة؛ فهم يجيئون مباشرة بكامل معدّاتهم من «بياريتز» و«نيس» و«مونت كارلو»، فيوجّه قسم إلى «دوفيل» وآخر إلى «دينار» والثالث يخصّص لـ «البليك».

ولكنّ ألم عامل المصعد وقلقه لم يكفّ عن التنامي. كان لابدّ أن تكون حلت به مصيبة كي ينسى هكذا أن يعرب لي عن إخلاصه بابتساماته المعتادة، فربما كانوا صرفوه. وعزمت في مثل هذه الحال أن أحاول الحصول على استبقائه إذ وعدني المدير بالمصادقة عليّ كلّ ما أقرّر بخصوص مستخدميهم «تستطيع دوماً أن تفعل ما تشاء فإني «أصدقك» سلفاً». وأدركت فجأة وأنا أغادر المصعد ضيق عامل المصعد ومظهر الذهول لديه. ذلك أنني لم أكن أعطيته بسبب وجود «البيرتين» المثة فلس التي تعودت أن أنقذه ليّانها في صعودي. وكان ذلك المعتوه قد أخذ يرتجف مفترضاً أن الأمر انقضى إلى غير رجعة وأنني أعطيه شيئاً من بعد، بدلاً من أن يدرك أنني ما كنت أريد أن أقدم إكرامياتي للآخرين على رؤوس الأشهاد. كان يتصور أنني زلت بي القدم إلى «درك العوز» (كما لعلّ الدوق «دوغيرمانت» كان قال) وما كان افتراضه يوحى إليه بأيّ إشفاق عليّ بل بخيبة أمل أنانيّة رهيبة. وقلت في نفسي إنني كنت أقلّ بعداً عن الصواب ممّا ترى أمّي حينما لا أجرو أن لا أعطي ذات يوم المبلغ المغالي فيه والمتنظر على نار الذي سبق أن أعطيته البارحة. كذلك بدا لي المدلول الذي أعطيته حتّي ذلك، ودون أن يداخلني أيّ شكّ، لمظهر الغبطة المعتاد الذي ما كنت أتردّد أن أبصر فيه دلالة حبّ، بدا لي غير مؤكّد المعنى تماماً، وإذا رأيت عامل المصعد على استعداد في خضّم يأسه أن يلقي بنفسه من الدور الخامس أخذت أتساءل، لو اتفق لشروطنا الاجتماعية أن تتبادل فيما بينها من جرّاء ثورة على سبيل المثال، إن لم يكن عامل المصعد ألقي بي، وقد أضحيّ بورجوازيّاً، من فوق المصعد بدلاً من قيادته بشكل لطيف من أجلي، وإن لم يتوافر لبعض طبقات الشعب قدر من النفاق أكبر ممّا يقع في المجتمع الراقي حيث يحتفظون دونما شكّ لغيايتنا بالأقوال المسبّبة، ولكنّنا لا يكون موقفهم منا مهيناً لو كنّا نعتساء.

عليّ أنّه لا يسعنا أن نقول إنّ عامل المصعد كان الأكثر نفعيّه في فندق «البليك»، فقد كان المستخدمون

ينقسمون من وجهة النظر هذه إلى فئتين: فمن جهة الذين يقيمون فروقاً بين الزبائن وهم أكثر تأثراً بالإكرامية المعقولة التي يقدمها نبيل عجوز (قادر من جانب آخر على تجنبهم ٢٨ يوماً إذ يوصي بهم الجنرال «دوبوتريي») منهم بالعلايا غير المتروية يقدمها حديث نعمة يكشف بذلك عن افتقار لحسن التصرف يدعونه في حضرته فقط طيبة. ومن جهة أخرى، الذين لا وجود عندهم لنبل وذكاء وشهرة ومركز وسلوك وقد غطى عليه رقم. وما كان في نظر هؤلاء سوى مراتبية واحدة هي مقدار ما لديك من مال، أو بالأحرى ماتعطي من مال. وربما كان «إيميه» نفسه، مع أنه يزعم لنفسه، بسبب عدد الفنادق الكبير الذي خدم فيه، مقداراً كبيراً من معرفة أمور المجتمع، ربما كان ينتسب إلى تلك الفئة. كان علي الأكثر يضي مظهراً اجتماعياً وشيئاً من معرفة الأسر على نمط التقدير ذاك فيقول عن الأميرة «دولوكسمبور» مثلاً: «أهنالك مال كثير؟» (وعلامه الاستفهام هنا كيما يستعلم أو يتحقق نهائياً من المعلومات التي جمعها قبل أن يوفّر لأحد الزبائن رئيس طبّاحين في باريس أو يضمن له طاولة على اليسار في المدخل مع إطلالة على البحر في «البليك»). وهو على الرغم من ذلك، ودون أن يخلو من المصلحة، ما كان ليبرز على الملأ بالياس الأحمق الذي أبداه عامل المصعد. ربما كانت سداجة هذا الأخير على أي حال تبسّط الأمور. إن التيسير الذي يوفّره فندق كبير أو بيت من نحو ما كان فيما مضى بيت «راخيل» أن رؤية ورقة من فئة المئة، وكم بالأحرى فئة الألف فرنك، حتّى إن أعطيت هذه المرّة لآخر غيره، إنّما تشيع، دونما وسطاء، ابتسامة وعروضاً على وجة مستخدم أو امرأة ظلّ حتّى ذاك جامداً. ثمّة على العكس في السياسة وفي علاقات العاشق بعشيقته أشياء ما أكثرها تقوم بين المال ولين العريكة، أشياء كثيرة حتّى ليعجز في الغالب هؤلاء الذين يوقظ المال البسمة لديهم في نهاية المطاف عن تعقّب السيرورة الباطنة التي تربط بينها ويظنون أنّهم أكثر رقة، وأنهم وكذلك. ثم إنّ ذلك يخلّص المحادثة المهذّبة من الشوائب التي من قبيل «أعرف مايقع عليّ فعله بعد، ففي غد يجدوني في غرفة عزرائيل». لذلك تصادف في المجتمع المهذّب القليل من الروائيين والشعراء وجميع الشخصيات الرفيعة التي تتكلّم بالضبط عمّا لا ينبغي قوله.

وما أن أضجينا وحدنا وولجنا الممرّ حتّى قالت لي «أليبيرتين»: «مال الذي تهمني به؟» فهل كانت قسوتي عليها أكثر إيلا ما لي؟ وهل كانت من جانبي محض حيلة لا شعورية تبغي إيصال صديقتي في مواجهتي إلى موقف الخشية والرجاء ذاك الذي قد يمكنني أن أسألها وربما أن أعلم أيّ الفرضيتين اللتين كوّنتهما عنها كانت هي الصحيحة؟ ومهما يكن من أمر، فإنني حينما سمعت سؤالها أحسستني فجأة كمن يبلغ هدفاً تمنّاه منذ زمن طويل. وقبل أن أجيبها صحبتها إلى بابي. وردّ الباب إذ انفتح النور الوردّي الذي كان يملأ الغرفة ويبدّل قماش الموسيلين الأبيض الذي صنعت منه الستارات المرخاة على العشيّة قماش «لباس»<sup>(١)</sup> بلون الشفق. وذهبت حتّى النافذة. كانت طيور النورس قد حطت من جديد على الماء ولكنها وردية الآن. ولفتت «أليبيرتين» إليّ ذلك فقالت: «لا تغرّ خطّ الحديث وكن صريحاً معي». فكذبت وصرّحت لها أنّه ينبغي أن تصغي إلى إقرار يسبق ذلك وهو عن شغف عظيم كان يعتمل فيّ منذ زمن إزاء «أندريه»، وقد فعلت ببساطة وصراحة جديرتين بالمرسح ولكنّا لا يوافقانك في حياتك إلا بشأن صنوف الحبّ التي لا تحس بها. واستعدت الكذبة التي سبق أن استخدمتها مع «جيلبيرت» قبل إقامتي الأولى في «البليك» ولكنّا بذلت فيها وبلغ بي، كي

(١) قماش حريري واسع الرسومات يكثر استعماله في أثاث البيوت.

أحملها بيسر أكبر على تصديقي حينما كنت أقول لها الآن أنني لا أحبها، أن أسرب ما مفاده أنني كنت فيما مضى على وشك الوقوع في غرامها، ولكننا انقضى زمن طويل على ذلك ولم تعد بالنسبة إليّ أكثر من رقيقة ولعلّه لن يمكنني من بعد، ولو قصدت ذلك، أن أحسّ ثانية تجاهها بعواطف أكثر اتقاداً. وإذ كنت أشدد هكذا أمام «ألبيرتين» على إثبات فتوري نحوها فما كنت - بسبب ظرف خاص وفي سبيل هدف خاص - إلا أبرز وأشير بقوة أكبر إلى الإيقاع الثنائي الذي يتخلده الحب لدى سائر الذين يفرطون في الشك في ذواتهم كي يصدقوا أن امرأة يمكنها في يوم أن تحبهم وأن يستطيعوا هم كذلك أن يحبوها حقاً. وإنهم يعرفون أنفسهم معرفة كافية كي يعلموا أنهم لدى أكثرهم اختلافاً كانوا يحسّون بالأمال نفسها وصنوف الضيق نفسها ويتندعون الروايات نفسها وينطقون بالأقوال نفسها من جرّاء أن انتضح لهم أنّ عواطفهم وأفعالهم لا تدخل في علاقة وثيقة وضرورية بالمرأة المحبوبة بل تمرّ من جانبها وترشّها وتداولها مخادعة كالموجة التي تنفضّ من حول الصخور، ثم إن الشعور باللا استقرار لديهم إنّما يزيد أيضاً من ارتيابهم بأن هذه المرأة التي ما أكثر ما يودّون أن تحبهم لا تحبهم. فلماذا شئت المصادفة، بما أنّها لا تعدو كونها عارضاً وضع أمام تفجّر رغباتنا، أن نكون نحن هدف الرغبات التي بها؟ لذلك وفيما نحسّ بحاجة البوح بكل هذه العواطف الموجهة إليها وهي شديدة الاختلاف عن العواطف الإنسانية المحضة التي يوحى لنا بها القريب، تلك العواطف الخاصة جداً التي تمثلها عواطف الحب بعدما نكون خطونا خطوة إلى الأمام باقرارنا لمن نحبّ بمودّتنا لها وآمالنا، فإننا في الحال نخشى إن نسوء في عينها ويخجلنا كذلك أن نحسّ أن الكلام الذي خاطبناها به لم يصغ خصيصاً لها وأنا استخدمناه وسوف نستخدمه مع أخريات غيرها، وأنّها إن كانت لا تحبنا فلا يمكن أن تفهمنا وأنا تكلمنا حينذاك بقلة ذوق وقلة احتشام المتحدلق الذي يوجّه إلى جاهلين جملاً دقيقة المعاني، فترى هذه الخشية وهذا الخجل يحملان معهما الإيقاع المضادّ والتراجع والحاجة إلى معاودة الهجوم والإمساك مجدداً بالتقدير والسيطرة، وإن تمّ ذلك بالتقهقر أولاً والإسراع في سحب المودّة التي سبق الإقرار بها. إن الإيقاع المزدوج واضح للعيان في مختلف الفترات العائدة للحبّ نفسه وفي سائر الفترات المقابلة العائدة لصنوف حبّ مشابهة لدى جميع الأشخاص الذين يحلّلون أنفسهم أفضل من إفراطهم في تقدير ذواتهم. ولئن بدا مع ذلك أكثر بروزاً في شدّته من المعتاد عبر الخطاب الذي كنت أوجهه لـ «ألبيرتين» فإنما لحض تمكيني من الانتقال بسرعة أكبر وزخم أشدّ إلى الإيقاع المضادّ الذي ستؤكدّه مودّتي.

وكما لو انبغى أن تصادف «ألبيرتين» عنتا في تصديق ما كنت أقوله حول استحالة أن أحبها ثانية لسبب طول الفاصل الزمني أخذت أدعم ما كنت أدعوه غرابية أطواري بأمثلة أخذها عن أشخاص سبق أن أضعت الساعة التي كان عليّ أن أحبهم فيها، بسببهم أو بسببي، دون أن يمكنني، مهما رغبت في ذلك، أن أعود فألقاها. كنت أبداً بذلك وكأني أعتذر إليها عن عجزني عن معاودة حبّها وكأني عن سوء تهذيب، فيما أحاول إفهامها الأسباب النفسية الكامنة وراء ذلك كما لو أنّها خاصّة بي، ولكنني إذ كنت أبرّ نفسي على هذا النحو، وأسترسل في موضوع «جيلبيرت» التي سبق بالفعل أن كان صحيحاً تماماً فيما يخصّها ما كان يضحي قليل الصحة إن طبق على «ألبيرتين»، فإنما كنت فقط أجعل مزاعمي ممكنة التصديق بقدر ما أظهار بالظنّ أنّها قليلة الاحتمال.

وإذ أحسست أن «ألبيرتين» كانت تقلّر ماتنّته «صراحة في القول» وترى في استنتاجاتي وضوح البداية، اعتذرت عن الأولى قائلاً إني أعلم تمام العلم أننا نسوء دوماً في عين الناس بقولنا الحقيقة وأنه لابد أن تبدو لها هذه الحقيقة عسيرة الفهم. ولكنّها شكرت لي على العكس صراحتي وأضافت أنّها إلى ذلك تدرك أحسن الإدراك حالة ذهنيّة شائعة جدّاً وطبيعية جدّاً.

إنّ هذا الإقرار لـ «ألبيرتين» بعاطفة وهميّة نحو «اندريه» وفيما يخصّها هي بلا مبالاة أكدت لها عرضاً، وكأنا بداعي إفراط في التهذيب، وكما تبدو صادقة تماماً وغير مبالغ فيها، أنّه يجدر بها أن لا تأخذها كثيراً بالمعنى الحرفي، استطعت أخيراً أن أكلم «ألبيرتين» به برقة امتنعت عنها طويلاً وبدت لي لليلة دون خشية لديّ أن ترتاب بوجود حبّ فيها. كنت الأمس تقريباً نجّيتي، وتغورق بالدمع عيناها وأنا أحذلّها عن صديقتها التي أحبّها. ولكنّي قلت لها في النهاية، وقد انتقلت إلى الأساسي من أمرنا، إنّها تعلم ما هو الحبّ وحساسياتها وآلامه وأنها ربّما تهتمّ، بوصفها صديقة قديمة لي، بإيقاف صنوف الكرة الكبيرة التي تسبّبها لي لا على نحو مباشر بما أنّها ليست هي من أحبّ، إن حالفتني الجرأة في ترداد ذلك دون أن أغمّها، بل على نحو غير مباشر إذ تصيبنني في حيّي لـ «اندريه». وتوقّفت لأنظر وألفت «ألبيرتين» إلى طائر كبير وحيد عجلان كان يمرّ أمامنا في البعيد وهو يضرب الهواء بخفق جناحيه المنتظم، يمرّ بأقصى سرعة فوق الشاطئ الذي تبعه ههنا وهناك انعكاسات ضوء شبيهة بقطع ورقية صغيرة حمراء ممزّقة، ويجتازه بكامل طوله دون أن يبطّئ انطلاقته ودون أن يصرف انتباهه ودون أن يحيد عن طريقه كمبعوث يمضي ليحمل إلى مكان بعيد جدّاً رسالة ضروريّة هامّة. فقلت لي «ألبيرتين» بمظهر اللاتم: «هو على الأقلّ يمضي رأساً إلى هدفه» - «تقولين ماتقولين لأنك لا تعلمين ماوددت أن أقوله لك. ولكنّ الأمر صعب حتّى لأفضلّ التخلّي عن ذلك، فإني على يقين من إغضابك ولن يفضي بي ذلك إلّا إلى الأمر التالي: لن يزيدني الأمر سعادة مع من أحبّها حبّاً حقيقياً وأكون فقدت رفيقة طيّبة» - «ولكنّ مادمت أقسم لك أنّي لن أغضب». كان مظهرها من رقة وخضوع حزين كمن تنتظر منّي سعادتها إلى حدّ كان يشقّ عليّ معه أن أتمالك عن تقبيل هذا الوجه - عن تقبيله بنوع المتعة التي ربّما أصبتها بتقبيل والدتي - هذا الوجه الجديد الذي لم يعد يوقرّ ذاك الحيّا النابض بالحياة وحمرة الخجل لهرة نائرة شريفة بأنفها الصغير المرفوع بل يبدو في تمام حزنها المضيئي وكأنا يمتزج سكبات عريضة مسطّحة مبتدئية في مساحة من الطيبة. وأخذت، وقد صرفت النظر عن حيّي وكأنا عن جنون مزمن لا علاقة له بها ووضعت نفسي مكانها، أخذت أرقّ نفساً أمام هذه الفتاة الطيبة التي تعودت أن يسلك الناس معها مسالك لطيفة ومستقيمة والتي كان الرفيق الطيب الذي أمكنها الاعتقاد بأنّي كنته بالنسبة إليها يلاحقها منذ أسابيع بأنواع من القسوة بلغت في النهاية الذروة. ولأنّني بدأت آتخذ وجهة نظر إنسانية محضّة خارجة عن نطاقنا نحن الاثنين ويتلاشى فيها حيّي الغيران أخذت أحسّ إزاء «ألبيرتين» بذلك الشفاق العميق الذي لعلّه كان أقلّ عمقاً لو لم أكن أحببتها. وفي هذا التراجّع الموزون الذي يتنقل بين البوح والاختصاص (الوسيلة الأكيدة كأكثر ما تكون، الناجعة في خطورتها كأكثر ما تكون كي تشكل بحركات متعارضة ومتعاقبة عقدة لا حلّ لها تربطنا بكائن ما ربطاً قوياً) ما جدوى أن نعيّز، في صميم حركة التراجع التي تؤلف أحد عنصري الإيقاع، ارتدادات الإشفاق الإنساني التي تقابل الحبّ والتي تحدث في جميع الأحوال الآثار نفسها مع أنّها

ربما تجمت لا شعورياً عن السبب نفسه؟ وحينما نتذكر فيما بعد مجموع ما فعلناه من أجل امرأة نتبين في الغالب أن الأفعال التي أوحى بها الرغبة في أن نبدي أننا نحب وأن نحَبَّ وأن نفوز بصنوف الحظوة لا تشغل حيزاً أكثر من تلك الناجمة عن الحاجة الإنسانية إلى إصلاح أخطائنا تجاه الشخص الذي نحبه تلبية لحض واجب أدبي وكأننا لانحبه. وسألتني «ألبيرتين» قائلة: «ولكن ما الذي أمكن أن أفعله. وقرع الباب فكان عامل المصعد. لقد توقفت عمّة «ألبيرتين» وكانت تمرّ أمام الفندق في عربتها، توقفت تحسباً لأيّ طارئ لئلا تم تنكح هناك وتعود بها. وأرسلت «ألبيرتين» تحييب أنها لا تستطيع النزول وأن يتناولوا طعام العشاء دونها وأنها لا تعلم في أية ساعة تعود. «ولكن عمّك سوف تفتاظ؟» - «نظنّ ذلك! سوف تفهم تمام الفهم».

وهكذا كان الحديث يبدو معي، بسبب الظروف، وعلى الأقل في هذه اللحظة وبصيغته التي ربما لن تعود - كان يبدو في عيني «ألبيرتين» أمراً ذا أهمية بديهية إلى حدّ كان ينبغي معه تقديمه علي أي شيء آخر ولا تشكّ صديقتي في أن تجد عمّتها من الطبيعي تماماً أن يضحي بساعة العشاء، وتستند في ذلك دونما شكّ بصورة غريزية إلى اجتهد عائلي فتعدد الظروف التي لم يبالوا فيها بتكاليف رحلة حينما كان مستقبل السيّد «بوتان» المهني في خطر. كانت «ألبيرتين» تدفع إليّ بتلك الساعة البعيدة التي تقضيها بدوني في منزل ذويها فتبهني إليها، وكان يوسعي استخدامها كما يحلو لي. وانتهى بي الأمر بأن تجرأت وقلت لها إنهم رويوا لي عن نمط حياتها وإني على الرغم من القرف الشديد الذي كانت توحى به إليّ النساء اللواتي يعانين من العيب نفسه لم أهتم للأمر إلى أن ذكروا لي اسم شريكها في الجرم وهي تستطيع أن تدرك بيسر أي ألم أحسست به من جرّاء ذلك لكثرة ما أحبّ «أندريه». ولعلّ قلبي بأنهم ذكروا لي نساء أخريات أيضاً، إنّما من اللواتي كنت لا أبالي بهنّ، لعله كان بدا أكثر حداقة. ولكنّ الكشف المفاجئ الرهيب الذي باح لي به «كوتار» كان نفذ إليّ صدمي يمزّقني حسبما أوردته كاملاً ولكن دونما زيادة. ومثلما لم تكن لتراودني في السابق من تلقاء نفسي فكرة حبّ «ألبيرتين» لـ «أندريه» أو على الأقل أن يكون ثمة مداعبات ممكنة معها لو لم يلتفتني «كوتار» إليّ وضعهما وهما ترقصان الفالس، كذلك لم أفلح في الانتقال من هذه الفكرة إلى أخرى ثانية مختلفة جداً في نظري ومفادها إمكان أن تكون «ألبيرتين» على علاقة مع نساء آخر غير أندريه ولا تكون المودة حتىّ عذراً لها. أما البيرتين فأبدت، حتىّ قبل أن تقسم لي أن الأمر ليس صحيحاً، أبدت، شأن كلّ شخص نقل إليه منذ قليل أنهم تناولوه بمثل ذاك الحديث، غضباً واغتماماً، وأما بحق المفترى المجهول ففضول الحائق ليعلم من عساه كان والرغبة في مواجهته لتستطيع أن تسومه الخزي والهوان. ولكنها أكّدت لي أنّها، على الأقلّ فيما يخصّني، لم تكن حاقدة عليّ. «لو كان ذلك صحيحاً لكنت أقررت به. فإننا أنا و«أندريه» نكره كلانا هذه الأمور الكره نفسه. ونحن لم نبلغ هذا القدر من عمرنا دون أن نرى نساء بشعور قصيرة لهنّ مسالك الرجال وهنّ من النوع الذي نقول وليس ماثير اشمئزنا بهذا القدر». كانت «ألبيرتين» تقسم بشرها فحسب بكلام قاطع لا يستند إلى براهين. وكان ذلك بالضبط ما يمكن أن يهدئ روعي كأفضل ما يكون، إذ تنتمي الغيرة إلى تلك الأسرة من الشكوك المرضية التي يتغلب عليها الحزم في التوكيد أكثر من مظهر الحقيقة فيه. وإنّ من مميزات الحبّ على أيّ حال أنّه يجعلنا أكثر تشككاً وأسرع تصديقاً ويحملنا على التشكيك بمن نحبّ بأسرع ممّا لعلنا كنّا نفعل بغيرها، وعلى تصديق صنوف انكارها بيسر أكبر. لا بدّ أن نحبّ كيما يساورنا القلق بأن

ليس ثمة نساء شريفات فحسب، وهو كمثّل قولنا أن تنبّه للأمر، كما لابد أن نحب أيضاً كيما نتمني، يعني كيما نتأكد أنّهن موجودات. وإنه لما يميّز الإنسان أن يبحث عن الألم وأن يبحث في الحال عن التخلص منه؛ والمقترحات القادرة على النجاح في هذا المضمار إنما تبدو لنا صحيحة وبسهولة فلستنا نملك كثيراً في أمر مهديّ يفعل فعله. ثم إن الشخص الذي نحبه يستطيع مهما كان متعدداً، أن يقدم لنا في جميع الأحوال شخصيتين أساسيتين حسبما يبدو لنا على أنه خاصتنا أو أنه يوجه رغباته وجهة غيرنا، ونملك أولى هاتين الشخصيتين القدرة الخاصة التي تحول دون أن نؤمن بحقيقة الثانية والسر المحدد ليسكن الآلام التي سببتها هذه الأخيرة. ويمثّل الشخص المحبوب على التوالي الداء والدواء الذي يوقف ويعمل على تفاعله. وليس من شك أنّي كنت مهياً منذ فترة طويلة، من جراء التأثير الكبير الذي لمثّل «سوان» على مخيلتي وقدرتي على الإنفعال، لأعدّ صحيحاً ما كنت أخشاه بدلاً مما كنت تمنّيته. لذلك أوشكت العذوبة التي حملتها إليّ توكيدات «ألبيرتين» أن تكون لفترة في خطر لأنني تذكرت قصة «أوديت». ولكنني قلت في نفسي إنه، إن كان من الصحيح أن نحسب حساب الأسوأ لا حينما حاولت، بغية إدراك آلام «سوان»، أن أضع نفسي مكانه فحسب، بل حين أبحث الآن، والأمر يتناولني أنا وكأنه يتعلق بآخر غيري، فليس ينبغي مع ذلك أن يفضي بي الأمر، بداعي القسوة على ذاتي، كجندي يختار لا المركز الذي يمكن أن يكون الأكثر فائدة فيه بل ذاك الذي يكون فيه أكثر عرضة للخطر، إلى خطأ احتساب فرضية أكثر صحة من غيرها لحض أنّها أكثر إيلاماً. أفلم تكن ثمة هوة بين «ألبيرتين» الفتاة التي من أسرة بورجوازية طيبة المستوى إلى حد ما و«أوديت» تلك العاهرة التي باعتهما أمّها منذ الطفولة؟ وما كان يمكن مقارنة عهد الواحدة بعهد الأخرى. ولم يكن لـ«ألبيرتين» على أية حال في الكذب عليّ المصلحة نفسها التي لـ«أوديت» على «سوان». أضف أنّ «أوديت» كانت أقرت لهذا الأخير بما أنكرته «ألبيرتين» منذ قليل. وكنت ارتكبت أذا خطأ في المحاكمة العقلية بمثل فداحة ذاك الذي كان صرّفتني إلى فرضية ما - وإن تكن عكسية - لأن هذه كانت أورثتني عذاباً أقل من الأخريات إن لم أخذ في اعتباري تلك الاختلافات الفعلية في المواقف وإن أعدت رسم مراحل حياة صديقتي الحقيقية بالاستناد فقط إلى ماسبق أن عرفتته عن حياة «أوديت». كان أمامي «ألبيرتين» جديدة، سبق والحق يقال أن استشففتها عدّة مرّات في أواخر إقامتي الأولى في «بالبيك»، صريحة طيبة، «ألبيرتين» اغتفرت لي منذ قليل بداعي مودتها لي شكوكي وحاولت تبديلها. وأجلستني إلى جانبها فوق سريري. وشكرتها عمّا قالت لي وأكدت لها أن مصالحتنا استكمّلت وأنني لن أكون في يوم قاسياً عليها من بعد. وقلت لـ«ألبيرتين» إنه يجدر بها مع ذلك أن تعود للعشاء. وسألتنني إن لم أكن هكذا بأحسن حال. وجذبت إليها رأسي لمداعبة لم يسبق أن خصّنتي بها من قبل وربما كنت أدين بها لخصامنا الذي انتهى فأمرت لسانها مرّاً خفياً عليّ شفّتي تحاول فتحهما. ولم أفتحهما في البداية، فقالت لي: «ما أكثر ماتبدي من خبث!».

كان يجدر بي أن أرحل في ذلك المساء دون أن أعود فألقاها في يوم. فقد كنت استشعر مذكاً أن المرء يمكنه في الحبّ غير المتبادل - والأحرى أن نقول في الحبّ لأنّ ثمة قوماً لا وجود للحبّ المتبادل في نظرهم - أن يتذوّق من السعادة محض ذلك المظهر الخارجي الذي كان يقدم لي منها في إحدى تلك اللحظات الفريدة التي يطبق في أنائها لطف المرأة أو نزوة لديها أو المصادفة على رغباتنا، في نوع من التطابق



تأم، ما تأتيه من أقوال وأفعال كما لو كنّا محبوبين حقاً. ولعلّ الحكمة كانت قضت بأن أتأمل بفضول وأمتلك بالتذاذ هذه الرقعة الصغيرة من السعادة التي كنت لولاها قضيت تحبي دون أن أرتاب بما يمكن أن تكون لقلوب أقلّ تشدداً أو أكثر حظوة، وبأن أفترض أنّها جزء من سعادة واسعة دائمة كانت تظهر لي في هذه النقطة فحسب، وأن لا أحاول، كي لا يجيئني الغد بتكذيب لذلك التظاهر، طلب معروف إضافي بعد الذي دان بحدوثه لمجرد حيلة صنعتها دقيقة استثنائية. كان يجدر بي أن أغادر «بالبيك» وأسجن نفسي في عزلي وأبقى داخلها في تناغم مع آخر رعشات الصوت الذي أفلحت في جعله مغرماً مقدار لحظة والذي ما كنت لأطالبه من بعد بشيء سوى الكفّ عن توجيه مزيد من الحديث إليّ، مخافة أن يجيء كلام جديد، ما كان يمكن أن يجيء مذكاً إلا مختلفاً، فيجرح بنشاز صمت الحواسّ الذي ربّما أمكن لرّة السعادة فيه أن تتردّد، كأنما بفضل دواسه ما، طويلاً في داخلي.

واذ وقر لي استيضاحي لـ «ألبيرتين» قسطاً من الطمأنينة عادت العيش فترات أطول بالقرب من أمي. كانت تحبّ أن تحدّثني برفق عن الفترة التي كانت فيها جدتي أحدث سنّاً. ولما كانت تخشى أن ألوم نفسي على صنوف الغمّ التي أمكن أن أكدر بها أواخر حياتها فقد كانت ترجع بادية السرور إلى السنوات التي أشاعت فيها دراستي الأولى في نفس جدتي بهجة أخفوها إلى الآن دوماً عني. كنّا نعاود الحديث عن «كومبريه». وقالت لي والدتي إنني كنت أقرأ هناك على الأقل ويجدر بي أن أفعل أيضاً في «بالبيك» إن لم أكن أعمل. فأجبت إنني أحبّ أن أعيد قراءة «ألف ليلة وليلة» كي أحيط نفسي فعلاً بذكريات «كومبريه» وبالصحون الجميلة المصوّرة. وكما كان شأنها بالأمس في «كومبريه» حينما كانت تعطيني كتباً في عيدي أمرت أمي سرّاً بإحضار كتابي «ألف ليلة وليلة» من ترجمة «غالان» و«ألف ليلة وليلة» من ترجمة «ماردروس» كي تفاجئني بالأمر. ولعلّ أمي بعدما ألقت نظرة على كلا الترجمتين كانت فضّلت أن أكتفي بترجمة «غالان» فيما تخشى التأثير عليّ بسبب الإحترام الذي تكنّه للحرية الفكرية والخوف من التدخل في حياة فكري والشعور أنّها لما كانت امرأة فإنّما ينقصها من جهة، فيما تظنّ، الكفاءة الأدبية اللازمة، كما ينبغي لها من جهة أخرى أن لا تتحكم على قراءات الشباب انطلاقاً ممّا يجرح إحساسها. وكان أثار تأثيرها، إذ وقعت على بعض الحكايات، الفجور في الموضوع وبذاءة التعبير. ولم يكن بوسع والدتي على وجه الخصوص، وهي تحافظ بعناية كبيرة، كأنما على ذخائر مقدّسة، لا على مشبك أمّها والمظلة والمعطف ومجلد السيدة «دوسيفينييه» فحسب، بل على عاداتها الفكرية والكلامية أيضاً، وتبحث في كلّ مناسبة، عمّا لعلّها كانت أبدت من رأي، لم يكن يوسعها أن تشكّ في الإدانة التي كانت أصدرتها جدتي ضدّ كتاب «ماردروس». كانت تتذكّر أن جدتي، بينما كنتُ قبل الذهاب في نزهة على الأقدام إلى جانب «مزيكلير» أقرأ «أوغوستان تييرّي»، كانت، وهي مسرورة بقراءاتي ونزهاتي، تثرثر تأثيرها مع ذلك لرؤيتها ذاك الذي ظلّ اسمه يرتبط بصدر بيت الشعر هذا: «ثمّ كان ملك «ميروفيه» المدعو «ميروفيج»، وترفض أن تقول «الكارولنجيين» بدلا من «الكارولوفنجيين» الذين بقيت مخلصه لهم. وكنت أخيراً قد رويت لها عن رأي جدتي بالأسماء اليونانية التي كان «بلوك» يطلقها على آلهة «هوميروس» متأثراً بـ «لوكونت دوليل»، حتّى ليبلغ به، بالنسبة لأبسط الأمور، أن يجعل من تبنّي الإماء اليوناني واجباً دينياً يظنّ المهوبة الأدبية قائمة عليه. فقد كان يكتب، إن وقع عليه

مثلاً أن يقول في رسالة إن الخمر الذى يحتسى فى داره كان من رحيق حقيقي (Nectar) ، (Nektar) بحرف الـ K ، وهو ما كان يسمح له بالقهقهة لدى سماع اسم «لامارتين» . فإن لم تعد «الأوذيسة» ، في نظرها، إن غاب عنها اسماً «أوليس» و«مينيرفا» ، هي «الأوذيسة» ، فما كان عساها تقول وهي ترى عنوان «ألف ليلة وليلة» الذى تعهده، مشوّهاً على الغلاف وإذ لا تلقى فيه من بعد اسمى «شهرزاد» و«دنيازاد» الشائعين أبدأ، وقد خطأ بالتمام مثلما تعودت على الدوام لفظهما، وحيث «الخليفة» الظريف والجنّ الأشداء يكادون، وقد تغيرت أسماؤهم في المعمودية، إن حالفتنا الجرأة في استعمال اللفظة في الحكايات الإسلامية، لا يتعرفون أنفسهم إذ هم يدعون الآن «الخليفة» بالنسبة للأول و«الجنّيون» بالنسبة للآخرين ؟ مع ذلك سلّمتني أمّي الكتابين وقلت لها إنني سأقرأهما في الأيام التي أكون فيها متعباً جداً فلا أتزوّ.

وما كانت تلك الأيام كثيرة جداً على أية حال. وكنا نمضي لتناول «العصرونية» جماعة، شأتنا بالأمس، أنا و«ألبيرتين» وصديقاتها فوق الجرف أو في مزوعة «مارى انطوانيت» . ولكنّا كان ثمة مرّات توليني فيها «ألبيرتين» هذه المتعة العظيمة إذ تقول لي: «بودى اليوم أن أمكث وإياك وحيدين فخير لنا أن نلتقي كلانا» . حينئذ كانت تقول إنها مشغولة وإنها غير ملزمة بتأدية حساب عن ذلك، وكى لا تستطيع الأخريات للحاق بنا، إن هنّ ذهبن مع ذلك للنزهة وتناول «العصرونية» ، كنّا نمضي وحدنا كعاشقين إلى «باغاتيل» أو إلى «لاكروا هولان» فيما الجماعة التي ماكان ليخطر لها في يوم أن تبحث عنا هناك ولا تذهب البتّة إلى ذلك المكان كانت تلبث زمناً غير محدود في «مارى انطوانيت» على أمل أن ترانا نصل إلى المكان. وإنّي أتذكّر الطقس الحارّ الذي كان سائداً حينذاك حيث كانت تسقط نقطة عرق من جبين أجراء المزرعة الشباب الذين يعملون في الشمس، تسقط عمودية منتظمة متقطّعة كمثّل نقطة ماء من خزان متناوبة مع سقطة الثمرة الناضجة التي تهوي من الشجرة في «البساتين» المجاورة. وقد ظلّ الطقس اليوم أيضاً، إلى جانب سرّ المرأة المخبّأة هذا، الجزء الأكثر تماسكاً لأيّ حبّ يفد إليّ. تلك امرأة يحدّثونني عنها، وما كنت لأفكر فيها لحظة، فأراني أعطل مواعيدي كلها في بحر الأسبوع لأتعرّف إليها إن كان أسبوعاً يسوده مثل ذلك الطقس وإن كنت سألتقيها في مزرعة منعزلة. وعبثاً أعرف أن مثل هذا الطقس وهذا الموعد لا يد لها فيهما فإتھما الطعام، وهو معروف لديّ تماماً، الذي استسلم له ويكفي ليملك فؤادي. أعلم أن هذه المرأة كان بوسعي أن أشتھيها في طقس بارد وفي مدينة آية مدينة، ولكن دون أن يترافق ذلك بعاطفة خيالية ودون أن أصبح عاشقاً. وليس يكون الحبّ لذلك أقلّ قوّة حالما يكون قيّدي بفضل ظروف معينة، إنّه أكثر كآبة فحسب على نحو ماضحي في الحياة العواطف التي نكتّھا لأشخاص معيّنين كلّما ازددنا إدراكاً للحيز المتزايد صغراً الذى يشغلونه فيها وبأن الحبّ الجديد الذي تمنّاه يدموم ويدوم سوف يكون، وقد قصّر مثلما قصّرت حياتنا ذاتها، هو الحبّ الأخير.

لم يكن بعدُ إلا القليل من الناس في «البليك» والقليل من الفتيات. وكنت أبصر أحياناً هذه أو تلك منهنّ متوقّفة على الشاطئ، دونما اغتباط على الرغم ممّا يبدو من تطابقات كثيرة تثبت لي أنّها هي نفسها التي سبق أن يقست من إمكان الاقتراب منها وهي تغادر مضمار الألعاب أو مدرسة الرياضة برفقة صاحباتها. فإن كانت هي نفسها (وقد تخاشيت أن أحدث «ألبيرتين» عنها) ، فالفتاة التي ظننتها فتانة لم تكن موجودة. ولكنّا لم يكن بمقدوري بلوغ اليقين لأن وجه تلك الفتيات لم يكن يشغل مساحة على الشاطئ ولا يقتم

شكلاً دائماً لأنه كان متقبضاً متمدداً متحولاً من جرأ أملي ذاته أو اضطراب الرغبة لديّ أو هناء يلقي كفايته في ذاته أو الأزياء المختلفة التي يرتديها أو سرعة مسيرها أو جمودها. كانت اثنتان أو ثلاثة منهنّ يبدون لي مع ذلك فائنات عن كشب، وفي كلّ مرّة كنت أشاهد إحداهنّ تملكني رغبة اصطحابها إلى شارع «التماري» أو إلى كنيان الرمال والأفضل من هذا وذاك فوق الجرف. ولكن على الرغم من أنه يداخل الرغبة مذكاً، بالمقارنة مع اللامبالاة، تلك الجرأة التي تؤلفها بداية التحقق وإن من طرف واحد فقد كان مع ذلك، بين رغبتني والفعل الذي قد يشكّله ابتغائي عناقها، كان ثمة كامل «الفراغ» اللامحدّد للتردد والخجل. حيثذ كنت أدخل دكان الحلواني بائع الليموناضة وأشرب سبع إلى ثماني كؤوس من «الپورتو» الواحدة تلو الأخرى. ويخطّ الكحول فوراً، بدلاً من المسافة الفاصلة التي يستحيل ردمها بين رغبتني والفعل، خطاً يربط بين الاثنين. فلا مكان من بعد للتردد أو الخوف. كان يبدو لي أن الفتاة تزع الطيران إليّ، فأذهب إليها وتخرج هذه الكلمات من شفتي من تلقاء ذاتها: «أودّ التنزّه برفقتك، ألا تريدان أن نمضي إلى الجرف، فليس يزعنا هناك أحد خلف الحرجة الصغيرة التي تحمي من الريح البيت القابل للتفكيك وغير المأهول حالياً؟». لقد ذللت جميع صعوبات الحياة ولم يبق ثمة عقبات أمام تعانق جسدنا. لا عقبات بالنسبة إليّ على الأقل. فإنها لم تكن تبغرت بالنسبة إليها هي التي لم تحس «الپورتو». وحتى لو فعلت وفقد العالم بعضاً من حقيقته في عينيها ففعلّ الحلم الذي طال الشوق إليه والذي كان سيبدو حينذاك فجأة ممكن التحقيق، لعله ما كان على الإطلاق أن ترتمي بين ذراعي.

لم تكن الفتيات قليلات العدد فحسب بل هنّ في هذا الفصل الذي لم يكن «الموسم» بعد لا يمكن إلاً وقتاً يسيراً. وإنّي أتذكّر واحدة ذات لون بحمرة زهرة القمد وعينين خضراوين ووجنتين صهباوين وبشبه وجهها المزدوج الخفيف البذور المجنحة لبعض الأشجار. لست أعلم أي نسيم جاء بها إلى «البليك» وأي نسيم آخر عاد فحملها معه. لقد جاء الأمر مفاجئاً إلى حدّ أن أصابني منه على مدى عدّة أيام غمّ تجرأت واعترفت به لـ «البيرتين» حينما أدركت أنها رحلت إلى غير رجعة.

ينبغي القول أن كثيرات كنّ إما فتيات لا أعرفهنّ البتّة أو أنني ما رأيتهنّ منذ سنوات. وكثيراً ما كنت قبل لقاءهنّ أكتب إليهنّ، فإن حملتني إجابتهنّ على الاعتقاد بحبّ ممكن فيالفرحتني! ولا يستطيع المرء في بداية صداقة يكنّها لامرأة، حتّى إن لم تتحقّق بعد ذلك، أن يتفصل عن هذه الرسائل الأولى التي يتسلّمها، إنه ينبغي أن تكون طوال الوقت بالقرب منه شأن أزهار جميلة وردته، ولا تزال نديّة يانعة، فلا يكفّ عن النظر إليها إلاً ليشمّها فيقربها منه أكثر. إن الجملة التي نعرفها عن ظهر القلب إنّما يمتعنا أن نعيد قراءتها، أمّا الجمل التي حفظناها بصورة أقلّ حرفيّة فإننا نودّ أن نتحقّق فيها عن مدى الحنان الكامن في عبارة. فهل كتبت «إن كتابك العزيز؟» هناك خيبة أمل طفيفة في العذوبة التي تنتسّمها لا بدّ من أن نعزوها إما إلى قراءة مقرطة السرعة، وإما إلى كتابة مراسلتنا التي تستعصي على القراءة؛ فهي لم تكتب: «وكتابك العزيز»، بل «حينما رأيت هذه الرسالة». ولكن الباقي رقيق رقيق. آه! فلتأت مثل هذه الزهرات في الغد! ثم لا يكفي ذلك وينبغي مقابلة الكلمات المكتوبة بالنظرات، بالصوت. ونضرب موعداً فأذا بنا -دون أن تكون ربّما تغيّرت- نجد، حيث كنّا نظنّ، بناء على الوصف المقدّم أو الذكري الشخصية، أننا ملاقون الجنيّة «فيشيان»، «الهرّ صاحب

الجزمة». ونضرب لها موعداً في الغد مع ذلك لأنها لا تزال على الرغم من كل شيء «هي»، وهي ما كنا نشتهي. على أن هذه الأشواق إلى امرأة حلمنا بها لا تجعل جمال هذا الملمح المعين أو ذاك ضرورياً. فهذه الأشواق هي الشوق إلى هذا الكائن فحسب، وهي غامضة غموض العطور، مثلما كان الأضرطوك هو الشوق الذي بد «بروتيرايا» والزعفران الشوق الأثيرى والطيبوب شوق «هيرا» والمَرَّ عطر الغيوم والمنَّ شوق «نيكيه» والبحور عطر البحر. ولكن تلك العطور التي تتغنى بها أناشيد «أورفيوس» تقل كثيراً عن عدد الآلهة التي تهواها؛ فالمرَّ عطر الغيوم، ولكنه إلى ذلك عطر «هروغونوس» و«نبتون» و«نيريه» و«ليتو»؛ والبحور عطر البحر، ولكنه إلى ذلك عطر «ديكيه» الجميلة و«ثيميس» و«كيركيه» وربات الشعر التسع و«إيبوس» و«فيموزين» والنهار و«ديكايوسينييه». أما بشأن الأضرطوك والمنَّ والطيبوب فلعلنا لا ننتهي من ذكر الآلهة التي توحى بها لكثرة عددها. فد «أنفيتيس» يملك العطور جميعها فيما عدا البحور، و«غايا» لا تستبعد منها سوى الفول والطيبوب. كذلك كان شأن تلك الأشواق التي بي إلى الفتيات. فإنها لما كانت أقلَّ عدداً منهنَّ كانت تستحيل خيالات وكأبات قريية الشبه الواحدة بالأخرى. وإني لم أقبل بالمرَّ في يوم وقد خصصت به «جوريان» والأميرة «دوغيرمانت»، إنه شوق «هروغونوس» حامل الجنسين الذي له خوار الثور ذو القصور الكثيرة الجدير بالذكر الذي يمتنع على الوصف وينحدر جذلان إلى أضاحي «الأرجيوفانت».

ولكن سرعان ما عَجَّ الموسم برؤاده، ففي كل يوم وصول جديد، وكان في أساس كثرة نزعاتي التي تنامت فجأة فحلت محلَّ قراءة «ألف ليلة وليلة» الممتعة سبب خلو من المتعة كان ينغصها كلها. لقد عملت أفتيات الشاطئ الآن ولما جعلتني الفكرة التي أوحى لي بها «كوتار»، ولم توفر لي شكوكاً جديدة، لما جعلتني أكثر حساسية وهشاشة من هذا الجانب ومحاذراً أن لا أدع لمثلها أن تتشكل في داخلي فقد كنت أحسني غير مرتاح ما إن تصل امرأة شابة إلى «بالبيك» فأقترح على «ألبيرتين» أكثر النزاهات بعداً كي لا تستطيع التعرّف بها، بل كي لا تستطيع أن ترى الوافدة الجديدة إن أمكن. وكنت بالطبع أكثر خشية بعد من اللواتي يلاحظن سوء سلوكهنَّ وتشيع سمعتهنَّ الرديئة، فكنت أحاول إقناع صديقتي أن تلك السمعة السيئة لا أساس لها البتة وأنها افتراء، وربما أفعل دون أن أقرّ لنفسي بذلك لخشية لا تزال لا واعيّة بأن تحاول مصادقة الفاسدة أو تأسف أنها لا تستطيع محاولة ذلك بسببي أو تعتقد بسبب عديد الأمثلة أن عيباً منتشراً إلى هذا الحدّ ليس مستكراً. وماكنت أنزع، وأنا أنفیه عن كلّ مذنب، إلى أقلّ من الزعم بأن السحاق لا وجود له. كانت «ألبيرتين» تتبنّى موقفني المتشكك بشأن فجور هذه أو تلك: «لا، اعتقد أنه محض مظهر خاصّ تحاول الظهور به، إنها تريد الظهور بمظهر خاص». ولكنني كنت آسف تقريباً حينذاك لأنني انتصرت للبراءة إذ كان يسوءني أن يسع «ألبيرتين»، هي المتشددة جداً فيما مضى الظنّ أن ذاك «المظهر» أمر يبعث على الزهو وهو مشرف إلى الحدّ الذي حاولت فيه امرأة بعيدة عن هذه الميول أن تظهر بمظهرها. وددت أن لا تجيء امرأة من بعد إلى «بالبيك». كنت أرتعد وأنا أفكر، إذ كانت الفترة تقريباً هي تلك التي ستصل فيها السيّدة «بوتبوس» إلى منزل آل «فيردوران»، بأن وصيفتها التي لم يخف «سان لو» عني ميولها يمكن أن تجيء في رحلاتها حتّى الشاطئ وأن تحاول، إن وقع ذلك في يوم لا أكون فيه بالقرب من «ألبيرتين»، جرّها إلى مواطن الفساد. وبلغ بي أن أتساءل، إذ لم يكن «كوتار» أخفى عني أن آل «فيردوران» حريصون جداً على صحبتي ولعلهم فيما يأنفون الظهور وكأنهم

يتعلقون بأذيالي، على حدّ قوله لعلهم كانوا يضحون بالكثير في مقابل ارتيادي منازلهم، إن لم يكن بوسعي، في مقابل وعود باصطحاب آل «غيرمانت» جميعهم دونما استثناء إلى باريس، أن أحصل من السيّد «فيردوران» على تحذير توجّهه بحجّة أو بأخرى إلى السيّد «بوتبوس» بأنّه يستحيل عليها الاحتفاظ بها في منزلها وأن تأمر بترحيلها بأقصى سرعة.

وعلى الرغم من تلك الأفكار وبما أنّ وجود «أندريه» هو الذي كان يقلقني على وجه الخصوص فإن الطمأنينة التي وفّرتها لي أقوال «ألبيرتين» كانت لا تزال مستمرة إلى حدّ. كنت أعلم على أية حال أنني سوف أكون عمّا قريب أقلّ حاجة إليها، فـ «أندريه» سوف ترحل مع «روزموند» و«جيزيل» في الفترة التي يصل فيها الجميع تقريباً ولم يبق لها سوى بضعة أسابيع تمكث فيها إلى جانب «ألبيرتين». وقد بدا في أنثائها على أيّ حال أن «ألبيرتين» تدبّر كل ما تفعله وكلّ ما تقوله من أجل القضاء على شكوكي إن بقيت شكوك ألو للحوّل دون عودتها. كانت تدبّر أمرها كي لا تلبث البتّة وحيدة مع «أندريه» وتلجّ عليّ حينما نعود كي أرافقها حتّى بابها وأعود لإصطحابها منه حينما ينبغي أن نخرج. وكانت «أندريه» في تلك الأثناء تتحمّل من جانبها المشقّة نفسها وتبدو كأنّها تتجنب لقاء «ألبيرتين». ولم يكن ذلك التفاهم الظاهر بينهما المؤثر الوحيد على أن «ألبيرتين» لا بدّ أطلعت صديقتها على حديثنا وطلبت منها أن تلتطف وتهذّي شكوكي اللامعقولة.

في حوالي تلك الفترة وقعت في فندق «بالبيك» الكبير فضيحة لم يكن من شأنها تغيير مواطن عذابي. فقد كانت شقيقة «بلوك» تقيم منذ وقت يسير علاقات خفية مع ممثلة سابقة ولم تعد تكفيهما تلك العلاقات بعد قليل. فقد بدا لهما أن مشاهدتهما إنّما تضيف فسقاً إلى متعتهما وتريدان لذلك إمتاع عيون الجميع بصنوف لهوهما الشريرة. كانت البداية مداعبات يمكن بالإجمال أن نعزوها إلى ألفه الأصدقاء في صالة اللعب وحول طاولة «البكارا». ثم تجاسرتا. وذات مساء، وفي زاوية من قاعة الرقص الفسيحة حتّى غير مظلمة لم تتورعا فوق إحدى الكنبات أكثر ممّا لو كانتا في سريرهما. واشتكى ضابطان إلى المدير وكانا غير بعيدين من هناك برفقة زوجتيهما. وظنّ الناس بعض الوقت أن احتجاجهما سوف يثمر إلى حدّ ما. ولكنّما كان في غير صالحهما أنهما، لما جاءا من «نيتلهوم» حيث سكناهما إلى «بالبيك» لقضاء أمسية واحدة، لم يكن بوسعها أن يفيدا المدير في شيء، فيما يمتد فوق الأنسة «بلوك» حتّى دون علم منها وأيّاً تكن الملاحظة التي يوجّهها المدير إليها جناح السيّد «نسيم بيرنار». ولا بدّ أن نقول سبب ذلك. كان السيّد «نسيم بيرنار» يتعاطى أعلى درجات الفضائل العائلية. فقد كان كلّ عام يستأجر «فيلا» رائعة في «بالبيك» لصالح ابن أخيه وما من دعوة كانت قادرة على صرفه عن العودة للعشاء في منزله الذي كان بالحقيقة منزلهم. ولكنّه ما كان قطّ يتناول غداؤه في منزله، فقد كان ظهر كلّ يوم في الفندق الكبير. ذلك لأنّه كان ينفق، مثلما يفعل غيره على راقصة أوبرا، على «مستخدم» قريب الشبه بأولئك الموزعين الذين تكلمنا عنهم والذين كانوا يذكروننا بالفتيان الإسرائيليين<sup>(١)</sup> في مسرحيتي «استير» و«آتالي». والحقيقة أن السنوات الأربعين التي كانت تفصل بين السيّد «نسيم بيرنار» والمستخدم الشاب كان وجب أن تحمي هذا الأخير من اتصال غير مجبّب. ولكن حسبما يقول

(١) الكلمة مأخوذة بالمعنى اللغوي كما وردت في المسرحيتين المذكورتين في متن النص.

«راسين» بعميق حكمته فى نشيد الجوقات نفسها:

«يا إلهى بأى خطى غير ثابتة تمضي  
الفضيلة الوليدة بين عظيم المخاطر!

وكم تبتد النفس التي تبحث عنك وتبغى أن تكون بريئة  
من عقبات لما عقدت العزم عليه!»

فعبثاً نشأ المستخدم الشاب «بعيداً عن العالم» فى هيكل «فندق» «بالبيك»، فهو لم يتبع مشورة «جواد»:  
«لا تجعل من الثراء والذهب سنداً لك».

وربما سلم بذلك وهو يقول فى نفسه: «إن الخطأ يغطون وجه الأرض». ومهما كان من أمره ومع أن  
السيد «نسيم بيرنار» لم يكن يأمل مهلة قصيرة إلى هذا الحد فإنه منذ اليوم الأول  
«لما فرغاً أو مداعبة له  
أحسن به يطوّقه بلراعيه البريثتين».

ومنذ اليوم الثاني، وفيما يأخذ «نسيم بيرنار» المستخدم فى نزهة «كان مقدّمه المعدادي يشوّه براءته». ومنذ  
ذلك الحين تبدلت حياة الصبي الصغير وعبثاً تراه يحمل الخبز والملح مثلما يأمره بذلك رئيس زمرة، فقد كان  
محيّاه كله ينشد:

«من زهور إلى زهور ومن متع إلى متع  
هيا ننقل رغباتنا  
فإن عدد سنيننا الزائلة غير ثابت.

فلنسارع اليوم إلى الاستمتاع بالحياة!  
وإنما التكريم والوظائف  
ثمن الطاعة العمياء الوادعة،  
فمن ذا يبادر ويرفع صوته  
ليساند البراءة الحزينة» (١).

منذ ذلك اليوم لم يفت السيد «نسيم بيرنار» البتة أن يجع ليشغل مكانه على الغداء (كما كان فعل فى  
قاعة المسرح ذاك الذى يتولّى الإنفاق على ممثلة صامتة، ممثلة من نمط شديد التميز ولا يزال ينتظر «دوغا»

(١) كل الاستشهادات مأخوذة من مسرحية «آتالي» وهي آخر مسرحيات «جان راسين» المسرحى الفرنسى الشهير فى القرن السابع عشر، وكان  
واقعا آنذاك تحت تأثير جماعة «الجانسينيين» المشددة.

يتبناه). وكانت تلك متعة السيد «نسيم بيرنار» أن يلاحظ بنظره في قاعة الطعام وحتى الآفاق البعيدة حيث ترتفع أمينة الصندوق في ظلال نخلتها حركات الفتى اليافع الحريص المبادر إلى الخدمة، خدمة الجميع، وأقلها لـ «نسيم بيرنار» منذ شرع ينفق عليه، إِمَّا لَأَنَّ ابن الجوقة الصغير لم يكن يرى ضرورة في ابداء مقدار اللطف نفسه لمن يظن أنه محبوب عنده بالقدر الكافي، وإِمَّا لَأَنَّ ذاك الحب يثير حنقه وإِمَّا لِإِنَّه يخشى أن يفوت عليه، أن اكتشف، فرصاً أخرى. لكن ذاك الفتور بعينه كان يروق السيد «نسيم بيرنار» في كل ما يخفي خلفه. فقد كان يصادف متعة غريبة، إن كان من جرّاء ما يجري في عروقه من إرث عبراني أو تدنيساً للشعور المسيحي، في هذا الاحتفال «الراسيني»، سواء أكان يهودياً أو كاثوليكياً. ولو كان ذلك تمثيلاً حقيقياً لـ «أستير» أو «آتالي» لأسف السيد «نسيم بيرنار» أن لا يكون اختلاف القرون مكنه من معرفة المؤلف، «جان راسين»، كي يحصل للمحسوب عليه دوراً أرفع شأنًا. ولما كان حفل الغداء لا يصدر عن أي كاتب فقد كان يكتفي بعلاقات طيبة مع المدير ومع «إيميه» كيما يرقى «الإسرائيلي الشاب» للوظيفة المبتغاة، فإِذَا نصف رئيس أو حتى رئيس مجموعة. وكانوا عرضوا عليه وظيفة مدير مؤن. ولكن السيد «نسيم بيرنار» ألزمه برفضها إذ لن يسعه من بعد انجبيء في كل يوم ليراه يجري في قاعة الطعام الخضراء وأن يقوم هو على خدمته كأحد الغرباء. لقد كانت تلك المتعة قوية إلى حد أن السيد «نسيم بيرنار» كان يعود كل عام إلى «بالبيك» ويتناول فيها طعام غدائه خارج منزله، وهما عادتان كان السيد «بلوك» يبصر في الأولى منهما ميلاً شاعرياً إلى الضياء الجميل وساعات غروب الشمس في هذا الشاطئ الذي يفضل أي شاطئ آخر، وفي الثانية هوس عازب عجوز مستعصياً.

والحقيقة أن خطأ والدَي السيد «نسيم بيرنار»، وما كانا يرتابان بالسبب الحقيقي لعودته السنوية إلى «بالبيك» وبما كانت السيدة المتحذقة «بلوك» تدعوه «بحياته المطبخية»، ذاك الخطأ إنما كان حقيقة أكثر عمقاً ومن الدرجة الثانية. ذلك أن السيد «نسيم بيرنار» نفسه كان يجهل ما يمكن أن يداخل من حب لشاطئ «بالبيك» والمنظر الذي يطل من المطعم على البحر، أو من عادات مهووسة الميل الذي به في الإنفاق، وكأنما على راقصة أوبرا من نوع آخر لا يزال ينقصها «دوغا» يتولى أمرها، على واحد من خدمه الذين كانوا بدورهم فتيات. لذلك كان السيد «نسيم بيرنار» يقيم مع مدير هذا المسرح الذي هو فندق «بالبيك»، ومع المخرج ومدير المسرح «إيميه» - وما كان دورهما في كل تلك المسألة من أصفاهها - علاقات ممتازة. وذات يوم تقوم ترتيبات ومناورات للحصول على دور كبير ربما كان مركز رئيس خدم. ويتنظار ذلك كانت متعة السيد «نسيم بيرنار»، مهما تكن شاعرية تأملية هادئة تتسم إلى حد ما بطابع أولئك الرجال الباحثين عن النساء الذين يعلمون على الدوام - وهي حال «سوان» بالأمس مثلاً - أنهم في ارتيادهم دنيا المجتمع الراقى سوف يلتقون عشيقته. فما إن يكون السيد «نسيم بيرنار» جلس حتى يرى محط أمنياته يتقدم على خشبة المسرح حاملاً في يده فواكه أو مجموعة سيكار على طبق. فكان يتأكله لذلك كل صباح، بعدما يقبل ابنة أخيه ويبدى اهتمامه بمشاغل صديقي «بلوك» ويعدما يلتم جواده قطعاً من السكر موضوعه على راحته الممدودة، استعجال محموم في الوصول إلى طعام الغداء في الفندق الكبير. ولعله لو شب حريق في بيته أو حلت أزمة قلبية بإبنة أخيه، لعله كان لا ريب مضى مع ذلك. وهو لذلك يخشى، خشيته من الطاعون، رشحاً يلزمه الفراش - إذ هو مصاب بوسواس المرض - ويضطره أن يطالب «إيميه» بإرسال صديقه الشاب إلى منزله قبل ساعة «العصرونية».

لقد كان يحب من جانب آخر كامل متاهة الممرات والحجرات السرية والإصالات والمشالح وغرف المؤونة والأروقة التي يمثلها فندق «البليك». وكان يحب من جراء منابته الشرقية، الحرم فتره حين يخرج في المساء يستكشف خلصة الزوايا منها والخفايا.

وفيما كان السيد «نسيم بيرنار»، فيما كان يجازف بالذهاب حتى الأقبية ويحاول مع ذلك أن لا يراه أحد وأن يتجنب الفضيحة، ويذكر في بحثه عن الفتیان اللاتين بهذه الأبيات من مسرحية «اليهودية»<sup>(١)</sup>:

يا إله آبائنا

حلّ فيما بيننا

واخف أسرارنا

عن أعين الأشرار !

كنت أصعد على العكس إلى غرفة شقيقتين رافقتا إلى «البليك» بصفة وصيفتين سيّدة أجنبية مسنة. كانتا مايدعى في لغة الفنادق ساعتين وفي لغة «فرانسواز» التي تظن أن الساعي أو الساعية إنما يفيدان في القيام بالمشتريات، «شاريتين». أما الفنادق فقد توقفت فيما يخصها بصورة أكثر شهامة في الفترة التي كانوا ينشدون فيها: «إنه ساع لأحد المكاتب».

وعلى الرغم من صعوبة وصول أحد الزبائن إلى غرف الوصيفات، والعكس بالعكس، فسرعان ما ربطتني صداقة قوية جداً وإن تكن عفيفة جداً بهاتين الشابتين: الأنسة «ماري جينيست» والسيدة «سيلست ألباريه». كانتا تبدوان، وقد ولدتا على حضيض جبال وسط فرنسة العالية على ضفاف سسواق وسيل (كان الماء يجري حتى تحت منزل الأسرة حيث تدور طاحونة والذي خربه الفيضان عدة مرات)، وكأنهما احتفظتا بطابعهما. فكانت «ماري جينيست» بصورة أكثر انتظاماً سريعة متقطعة الحركة، و«سيلست ألباريه» أكثر رخاوة ووهناً تنبسط مثل بحيرة ولكن بردات فوران مخيفة يذكر غضبها فيها بخطر الفيضانات والأعاصير المائية التي تقذف بكل شيء وتخرّب كل شيء. كانتا تجيئان في الغالب صباحاً للقاءني وأنا بعد في سريري. وإني ماعرفت يوماً أناساً يمثل جهلهما المتعمد وما كانتا تعلمتا شيئاً في المدرسة وكانت لغتهما مع ذلك ذات مسحة أدبية إلى حدّ تظنّ معه، لولا الطابع الوحشي تقريباً الذي يطبع لهجتهما، أن أقوالهما متكلفة. وكانت «سيلست» تقول لي، باللفة لا أغير فيها على الرغم من صنوف المديح (وليست هنا للإشادة بي بل للإشادة بعمقيرة «سيلست» الغريبة) والانتقادات، وهي مختلفة بدورها ولكنها صادقة تماماً، التي يبدو أن تلك الأقوال تتضمنها بالنسبة إليّ فيما كنت أغمس معجنات في فنان الحليب: «آه ! أيها الشيطان الأسود الصغير ذو الشعر الفاحم، يا للخبث العميق ! لست أعلم بما كانت تفكر أمك حين صنعتك، ففيك من العصفور كل شيء. هيا انظري يا «ماري»، أليس يخيل إليك أنه يصقل ريشة ويدبر عنقه، ويمرّنه؟ ويبدو شديد الخفة؛ لكنّا يتعلم الطيران. آه ! إنك محظوظ أن ولدك من صنعك في مرتبة الأغنياء؛ فما عساك كنت أضحي وأنت بمثل تبذيرك؟ ها

(١) مسرحية الكاتب «هالفي» (١٨٣٥).



إنه يرمي بقرص معجناته لأنه لابس سريره. عجباً، ها هو يريق الحليب، فانتظر لأضع لك فوطه لأنك لن تفلح في هذا الأمر، وإني ما رأيت يوماً أحداً بمثل غبائك وقلة مهارتك. حينذاك كنت تسمع الضجّة الأكثر انتظاماً لسيل «ماري جينست» التي تمضي حانقة تكيل التويخ لشقيقتها: «هيا يا «سيلست»، هلاً صمت؟ وهل جئت لتكلمي السيّد مثلما تفعلين؟» ولا تردّ «سيلست» بغير الابتسامة، ولما كنت أكره أن يربطوا لي فوطه حول عنقي: «ولكن لا، انظري إليه يا «ماري»، «ينغ»! هو ذا هو ينتفض منصباً كما الحيّة، حيّة حقيقية أقول لك». كانت تسرف على أيّ حال في التشبيهات الحيوانية، فما كانوا يعرفون حسب رأيها متى كنت أنام، وكنت أحرم طوال الليل نحويم فراشة وفي النهار كنت سريعاً سرقة تلك السناجب، «تعرفين يا ماري»، من مثل مانري عندنا، رشيقة حتّى لا تستطيعين ملاحقتها بالعين». - «ولكنك تدرين يا «سيلست» أنّه لا يحبّ وضع فوطه حينما يأكل» - «ليس الأمر أنّه لا يحبّ ذلك، بل ليقول بوضوح أنّه لا يمكن أن يغيروا مشيئته. إنّ سيّد ومراده أن يظهر أنّه سيّد، سنغيّر الملاءات عشر مرّات إن لزم الأمر لكنّه لن يكون تراجع. ملاءات البارحة انجزت مشوارها، ولكنّها اليوم مدّت منذ قليل فحسب وينبغي منذ الآن تغييرها. آه! كنت على حقّ إذ قلت إنّ لم يخلق ليولد بين الفقراء. انظري، إن شعره ينتصب وينتفخ جرّاء الغضب مثل ريش الطيور. أيّها المريش المسكين!» وهنا لم تعد «ماري» وحدها هي التي تتخجّ بل كنت أنا، لأنني ما كنت أحسني البتّة سيّداً. ولكن «سيلست» ما كانت تصدّق البتّة ضراحتي وقاطعتني بقولها: «آه! يا جعبة الأحاييل! يا للعدوّة! ويا للغدرا! أيّها المحتال بين المحتالين، الجفّس بين الأجفاس! آه! يا «موليير»! (كان الاسم الوحيد الذي تعرفه لكاتب ولكنّها تعزوه لي وتقصد بذلك من كان قادراً على تأليف المسرحيات وتمثيلها في آن معاً). وتصيح «ماري» بلهجة أمرة: «سيلست!» وهي تخشى لجهلها اسم «موليير» أن تكون شتيمة جديدة. وتعود «سيلست» إلى الإبتسام: «أفلم ترى في درجة صورته حينما كان طفلاً؟ لقد شاء أن يجعلنا نصدّق أنّه كانوا يلبسونه دوماً الثياب الأكثر بساطة. وههنا بعكازه الصغير يبدو كلّ فراء ودانتيلاً مثلما لم يحزه أمير من قبل. وليس ذلك شيئاً إزاء مهابته العظيمة وطيبته التي تفوقها عمقاً. وبزمج السيل الذي اسمه «ماري» قائلاً: «ويحك، ها إنك تنقّبين الآن في دروجه». وسألت «ماري» كي أهدئ من مخاوفها عمّا تظنّ أن السيّد «نسيم بيرنار» يفعله. «آه! ياسيديّ إنّها أمور ما كان يسعني الظنّ بأنّها موجودة: كان لابدّ من المجيء هنا» وتغلّبت هذه المرّة على «سيلست» بمقالة أكثر عمقاً: «آه! تدري ياسيديّ، لا يمكن أن نعرف البتّة ما يمكن أن تتضمنه حياة أحدهم». وكلمتها بغية تغيير الموضوع عن حياة والدي الذي كان يعمل ليل نهار. «آه! ياسيد، تلك حيوات لا يحتفظ المرء بشيء منها لنفسه، لا يحتفظ بدقيقة واحدة ولا بمتعة واحدة؛ كل شيء، كل شيء تماماً تضحية في سبيل الآخرين؛ إنّها حيوات «موهوبة»... انظري ياسيلست، إن لم يكن إلّا في وضع يده على غطاء السرير وأخذ فطيرته، آية أناقة تلك! يمكنه أن يأتي الأمور الأكثر تفاهة، وتخالين كامل نبلاء فرنسه حتّى جبال «الپيرنيه» ينتقلون في كلّ من حركاته».

كنت أصمت وقد حطمتني تلك الصورة القليلة القرب من الحقيقة إلى هذا الحدّ، فبصر «سيلست» في الأمر حيلة جديدة: «آه! يا جيبنا يبدو شديد النقاء ويخفي أموراً أكثرها، ياوجنتين صديقتين يانعتين كقلب لوزة، آيتها اليدان اللتان من ساتين يغطيه الوبر، والأظافر التي تشبه المخالب، الخ.. ويحك يا «ماري»، انظري إليه

يشرب حليبه بخشوع أتوق معه إلى القيام إلى صلاتي. وأي مظهر جدّي! ينبغي أن يوضع رسمه في هذا الوقت. كلّ ما فيه من الأطفال. أهو شرب الحليب مثلهم ما حفظ لك لون وجههم الفاخ؟ أه! يا للشباب! يا للبشرة الحلوة! لن تشيخ في يوم. أنت محظوظ فلن تضطرّ البتّة أن ترفع يدك على أحد لأنك تملك عينين تعرفان كيف تفرضان مشييتهما. ثمّ ها إنه يملكه الغضب الآن. إنه ينتصب واقفاً كالحقيقة الجليّة.

لم تكن «فرانسواز» تحب مطلقاً أن تجيء اللتان كانت تدعوها الساحرتين للتحدّث على هذا النحو معي. أمّا المدير الذي كان يرصد بمستخدميه كلّ ما يجري فقد لفت نظري بلهجة رزينة إلى أنّه لا يليق بأحد الزبائن أن يتحدّث إلى الساعيات. وأمّا أنا الذي كان يرى «الساحرتين» تفوقان زبائن الفندق جميعاً فقد اكتفيت بالانفجار ضاحكاً في وجهه ليقيني بأنّه لن يفهم إيضاحاتي. وتعود الشقيقتان: «انظري يا «ماري» قسماته الرقيقة جداً. يا للمنمنمة الكاملة الأكثر جمالاً من أئمن ما قد يشاهد خلف واجهة، فإنّ له حركات وأقوالاً من مثل ما يجري سماعه أياماً وليالي».

من أعاجيب الزمان أن استطاعت سيّدة أجنبية اصطحابهما، فإنّهما دون معرفة للتاريخ والجغرافية كانتا تمقتان من باب الثقة الإنكليزي والألمان والروس والإيطاليين «وحشالة» الأجانب ولا تحبّان مع بعض الاستثناءات سوى الفرنسيين. فقد كان وجههما احتفظ برطوبة غضار سواقيهما المطواع إلى حدّ أنّ «سيليست» و«ماري»، ما إن يجرى الحديث عن أجنبي يقيم في الفندق حتّى تلتصقا، بغية ترداد ماسبق أن قال، على وجهيهما وجهه ويصبح فمهما فمه وأعينهما عينيّه، وحبّذا لو جرى الاحتفاظ بأقنعة المسرح الرائعة هذه. بل كانت «سيليست»، وهي تتظاهر بأنّها لا تردّد إلا ما قاله المدير أو فلان من أصدقائي، كانت تدسّ في روايتها الصغيرة أقوالاً متكلّفة ترسم فيها بخبث عيوب «بلوك» جميعها أو عيوب الرئيس الأوّل دون أن تبدي من ذلك شيئاً. وكان ذلك رسماً لا يجارى على هيئة عرض لمهمة بسيطة تكلفتها متلطفة. ما كانتا تقرأن قطّ شيئاً، حتّى ولا صحيفة. لكنّهما ذات يوم وجدنا كتاباً على سريري، وكانت قصائد رائعة ولكنّها غامضة لـ«سان ليجيه ليجيه». وقرأت «سيليست» بضع صفحات وقالت لي: «ولكن هل أنت متيقن أنّها أبيات شعريّة، أفليست بالأحرى أحجيات؟» كان ثمة بالبداية، بالنسبة إلى امرئ تعلّم في طفولته قصيدة واحدة: «أزهار الليلك تموت جميعها على هذه الأرض الدنيا»، مرحلة وسيطة ناقصة. وفي اعتقادي أن عنادهما في رفض تعلّم أيّ شيء إنّما يرتبط قليلاً ببلدهما غير الصحيّ. وكانتا مع ذلك على مثل مواهب الشاعر. إلى جانب اتّضاع ليس للشعراء بعامّة. فإن سبق أن قالت «سيليست» شيئاً ملفتاً ولم أذكره تماماً فسألتهما أن تذكرني به كانت تؤكّد أنّها نسيت. إنّهما لن تقرأ أكتباً في يوم ولكنّهما لن تؤلّفا كتباً بالمقابل.

لقد أثار في «فرانسواز» إلى حدّ أنّ علمت أنّ شقيقي هاتين المرأتين البسيطتين جدّاً تزوّجا، الأوّل ابنة شقيق رئيس أساقفة «تور»، والثاني قريبة لمطران «روديز» ولعلّ الأمر ما كان عنى شيئاً للمدير. كانت «سيليست» تنعي على زوجها أحياناً أنّه لا يفهمها، أمّا أنا فكنت أعجب أن يطبق احتمالها. ذلك لأنّها كانت في ارتعاشها وحقتها وتخريبها كلّ شيء مقيمة في بعض الأحيان. يزعمون أن السائل المالح الذي هو دمنا إن هو إلا الأثر الداخلي الباقي للعنصر البحري البدائي. وفي اعتقادي كذلك أن «سيليست» كانت تحتفظ، لا في

صنوف غيظها فحسب بل في ساعات انحطاط قواه ، بإيقاع سواقي بلادها. فحين تكون منهكة فعلى شاكلتها، وتراها تجفّ حقاً. وما من شيء حينذاك يمكن أن يردّ إليها نشاطها. ثم يعود الجريان فجأة في جسمها الطويل الرائع الخفيف، وينساب الماء في الشفافية اللبنيّة لبشرتها المائلة إلى الزرقاء. كانت تبتسم في ضياء الشمس فتضحي أكثر زرقة بعد. لقد كانت في تلك الأوقات سماوية<sup>(١)</sup> بحق.

عيباً لم تكن أسرة «بلوك» ارتابت في يوم بالسبب الذي من أجله لم يكن عمّها يتناول غدائه في المنزل وقبلت بالأمر منذ البداية على أنّه هوس عازب عجوز، فإن كلّ ما كان يتعلق بالسيد «نسيم بيرنار»، ربّما لضرورات صلة مع إحدى الممثلات، كان محرّماً بالنسبة إلى مدير فندق «باليك». لذلك ودون أن يكون حتّى رجع إلى العمّ لم يجرّ في نهاية المطاف أن يخطئ ابنة الأخ فيما يوصيها في الوقت نفسه بشيء من الحيلة. وإذ ذلك سعدت الفتاة وصديقتها، وكان خيل إليهما على مدى بضعة أيام أنّهما مستبعدتان عن الكازينو والفندق الكبير، سعدتا إذ تريان كلّ شيء يتدبّر شأنه، أن تظهر لآباء الأسر الذين كانوا يستبعدونهما أنّهما تستطيعان دونما عقاب أن تأتيّا ما تشاءان. ليس من شكّ أنّه لم يبلغ بهما أن تكرّرا المشهد العلنيّ الذي أثار اشمئزاز الجميع. لكنّ تصرّفاتهما عادت شيئاً فشيئاً وعلى نحو تكاد لا تحسّسه. وذات مساء كنت خارجاً فيه من الكازينو وأنا نصف مطفأ برفقة «ألبيرتين» و«بلوك» الذي التقيناه من قبل، فمرّتا بنا وهما في عناق لا تكفّان عن القبل وإذ أصبحنا بموازاتنا أطلقتا ضحكات مكتومة وقهقهات وصيحات غير محتشمة. وأطرق «بلوك» كي لا يبدو أنّه يتعرّف شقيقته وكنت أنا في عذاب وأنا أفكر أنّ هذا الكلام الخاصّ والمريع ربّما كان موجّهاً إلى «ألبيرتين».

وإنّ حادثاً آخر زاد من تركيز اهتمامي على جانب «عامورة». فقد كنت رأيت على الشاطئ امرأة شابة جميلة مديدة القامة شاحبة اللون كانت عيناها تسطران حول مركزهما خطوطاً مضيفة هندست حتّى لتفكر لزاء نظرتها بإحدى المجموعات النجميّة. وفكرت كم كانت هذه الفتاة أوفر جمالاً من «ألبيرتين» وكم يبدو التخلّي عن الثانية أكثر حكمة. أكثر ما هنالك أن وجه هذه المرأة الشابة الجميلة قد مرّ عليه مسحاج خفيّ، مسحاج دناءة كبيرة في الحياة والقبول المستمرّ لوسائل وأموار دنيئة إلى حدّ ينبغي معه أن لاتشعّ عيناها، مع أنّهما أوفر نبلاً من باقي الوجه، إلا شهوات ورغبات. ولكنّي لاحظت في الغد، وكانت تلك المرأة الشابة أجلسّت بعيداً جدّاً عنّا في الكازينو، أنها لا تنفكّ تحطّ بأنوار ألحاضها المتناوبة الدوّارة على «ألبيرتين». لكأنّما كانت تعطّيها إشارات وكأنّما بمصباح. كان يعدّني أن ترى صديقتي أنّها تسترعي الانتباه إلى هذا الحدّ وكنت أخشى أن تحمّل هذه النظرات المتقدّمة باستمرار الدلالة المألوفة لموعّد حبّ يضرب للغد. ومن ذا يدري؟ ربّما لم يكن هذا الموعد هو الأوّل، إذ يمكن أن تكون المرأة الشابة ذات العينين المشرقتين جاءت إلى «باليك» في سنة أخرى. وإنّما كانت تجيز لنفسها توجيه تلك الإشارات اللماعة لأنّه ربّما سبق أن استجابت «ألبيرتين» لرغباتها أو لرغبات إحدى الصديقات. كانت تلك الإشارات تقوم حينئذ بأكثر من المطالبة بأمر يتصل بالحاضر، كانت تتوسّل لذلك بساعات الماضي الحلوة.

(١) تلاعب لفظي لأن اسم السيّد Celeste يعنى بالفرنسيّة «سماوية».

والموعد في هذه الحال كان ينبغي أن لا يكون الأول بل التتمة لحفلات أقيمت معاً في سنوات أخرى. ذلك أن النظرات ما كانت تقول: «هل تود؟» فما أن تسنى للمرأة الشابة أن تبصر «ألبيرتين» حتى أدارت رأسها تماماً وأرسلت باتجاهها بريق نظرات محملة بالذكى كما لو خشيت واعتراها ذهول أن لا تذكر صديقتي. أما «ألبيرتين» التي كانت تبصرها تماماً فقد لبثت رابطة الجأش لا حراك بها إلى حد أن كفت الأخرى، بذات التكتّم الذي يديه رجل يشاهد عشيقته السابقة مع عشيق آخر، عن النظر إليها والاهتمام بها أكثر مما لو لم تكن موجودة.

ولكنّما توافر لي بعد بضعة أيام البرهان على ميول تلك المرأة الشابة وكذلك على أرجحية أن تكون عرفت «ألبيرتين» فيما مضى. فغالباً ما كان يقع، حينما يتفق لفتاتين في قاعة الكازينو أن تشتهي إحدهما الأخرى، ما يشبه الظاهرة الضوئية ونوعاً من السحابة الفوسفورية تنتقل من الواحدة إلى الأخرى. ولنقل في معرض حديثنا أن «عامورة» إنّما تسعى بمثل هذه التجسيدات، وأن تمتنع على القياس، وبمثل هذه العلامات النجمية التي تلهب جزءاً من الجوّ بكامله، تسعى «عامورة» المشتتة، في كلّ مدينة وكلّ قرية، إلى التقاء أعضائها المنفصلين، وإلى إعادة تشكيل مدينة العهد القديم، فيما تتوالى الجهود نفسها، وإن يكن في سبيل إعماد متقطع، على يد من يهزهم الحنين والمنافقين وأحياناً الشجعان المنفيين من «صادوم».

وذات مرة أبصرت المجهولة التي تظاهرت «ألبيرتين» بأنها لا تعرفها بالضبط في وقت كانت تمرّ فيه ابنة عم «بلوك». وتلاّأت عينا المرأة الشابة، ولكنّما بدا تماماً أنها ما كانت تعرف الأنسة اليهودية. إنّها تبصرها للمرة الأولى وتحسّ رغبة، وليس من شكّ تقريباً أن لم يكن ثمة البتّة ذات اليقين الذي أبدته تجاه «ألبيرتين»، التي لا بدّ أنّها اعتمدت عليها إلى حدّ أنّها أحستّ إزاء فتورها بدشة غريب من رواد باريس ولكنّه لا يقطن فيها ويرى بعدما عاد لقضاء بضعة أسابيع فيها أنّهم ابتنوا مصرفاً في مكان المسرح الصغير الذي تعود أن يمضي فيه أمسيات جميلة.

ومضت ابنة عم «بلوك» فجلست إلى طاولة قلبت عليها مجلة مصوّرة. وسرعان ما أقبلت المرأة الشابة لتجلس إلى جانبها بهيئة ساهية. ولكن سرعان ما كان يمكن أن ترى تحت الطاولة اصطخاب أقدامهما، فالسوق والأيدي التي تمازجت. وأعقبت ذلك الكلمات وانعقد الحديث ودهش زوج الشابة الساذج الذي كان يبحث عنها في كلّ مكان أن لقيها تعقد مشروعات للأمنية نفسها مع فتاة لم يكن يعرفها. وقدمت له زوجته ابنة عم «بلوك» على أنّها صديقة طفولة باسم غير مفهوم إذ كان فانها أن تسألها عن اسمها. إلا أن وجود الزوج أكسب ألفتها خطوة إضافية فقد رفعتا الكلفة بينهما إذ كانتا تعارفا في الدير، وهو الحادث الذي ضحكنا منه فيما بعد، ومن الزوج المخدوع أيضاً، بمرح كان مناسبة لصنوف من الرقّة جديدة.

أما «ألبيرتين» فلست أستطيع أن أقول إنّها سلكت في أي مكان، في الكازينو على الشاطئ، سلوكاً مفرط الحرية مع إحدى الفتيات. بل كنت أرى لديهما فرطاً من الفتور والتفاهة كان يدر حيلة من شأنها تبديد الشكوك أكثر منه ثمرة تربية صالحة. فقد كانت لها طريقة سريعة باردة محتشمة في إجابته إحدى الفتيات بصوت عال: «أجل، سأذهب في حوالي الخامسة إلى كرة المضرب، وسأستحم في صباح الغد حوالي الساعة

الثامنة، ومفارقة الفتاة التي وجهت الحديث إليها في الحال، حديثاً يبدو بعنف أنه ينبغي التضييل وضرب موعد أو بالأحرى، بعد ما تكون حدّته بصوت خفيض، أن تقول بصوت قويّ تلك الجملة الثافهة بالفعل «كي لا تلفت الانتباه إليها». وما كنت أستطيع حينما أراها تمتطي دراجتها وتتسلّ بأقصى سرعة، ما كنت أستطيع أن أصرف نفسي عن التفكير بأنّها ماضية لالتقاء تلك التي لم تكذّ تكلمها.

وأكثر ما في الأمر أن «ألبيرتين» ما كان يسعها الإحجام عن الإلتفات حينما تنزل امرأة شابة جميلة من السيارة في زاوية الشاطئ. وتوضح في الحال قائلة: «كنت أنظر إلى الراية الجديدة التي رفعوها أمام المسابح. كان بوسعهم أن يتكلفوا أكثر في ذلك. لقد كانت الأخرى بائسة، لكنّي أعتقد حقاً أن هذه أكثر قبجاً بعد».

وذات مرّة لم تكتف «ألبيرتين» بالفطور فزاد الأمر من تعاستي. كانت تعلم أنّه يزعمني أن تستطيع أحياناً لقاء صديقة لعمّتها كانت سيّئة المسلك وتجيّ أحياناً لقضاء يومين أو ثلاثة في منزل السيّدة «بورتان». وكانت «ألبيرتين» قالت لي بلطف إنّها لن تحيّيها من بعد. وتقول «ألبيرتين» حينما تجيّ تلك المرأة إلى «أنكرفيل»: «تعلم بالمناسبة أنّها هنا. هل قيل لك ذلك؟» كأنّما لتبرهن لي أنّها لا تراها خفية. وقد أضافت في يوم كانت تنقل إليّ فيه الأمر: «أجل، لقد التقيتها على الشاطئ متقصّدة، من منطلق الفظاظة، لقد لامستها تقريباً وأنا أمرّ بها، لقد دفعتها». حينما قالت لي «ألبيرتين» ذلك عادت بي الذاكرة إلى جملة للسيّدة «بورتان» لم أكن افتكرتها ثانية البتّة، تلك التي قالت فيها للسيّدة «سوان» في حضرتي كم كانت ابنة أخيها «ألبيرتين» وقحة وكأنّما تلك ميزة، وكيف أنّها قالت لمن لست أذكر من نساء الموظفين أن والدها سبق أن كان مساعد طبّاح. ولكن قولاً قالت من نحبّ لا يحتفظ به طويلاً في نقائه؛ أنّه يفسد ويتعقّن. وعدت بعد مساء أو اثنين ففكرت في جملة «ألبيرتين» ولم يعد ما بدا أنّها تعنيه هو سوء التهذيب الذي كانت تفاخر به - وما كان بوسعها إلا رسم ابتسامة على شفتي - بل كان أمراً مغايراً، وأن «ألبيرتين»، حتّى دون هدف واضح ربّما، وكما تشير حواس تلك السيّدة أو تذكرها بخبث بعروض سابقة ربّما جرى القبول بها قديماً، لامستها لمساً سريعاً وظنّت أنّي ربّما عرفت بالأمر إذ وقع في العن فشاءت أن تستبق تفسيراً في غير صالحها.

ومهما يكن من أمر فإنّ غيرتي التي تبعثها النساء اللواتي ربّما أحبّتهنّ «ألبيرتين» كانت ستتوقّف على نحو مفاجئ. كنت و«ألبيرتين» أمام محطة القطار المحلي الصغير في «بالبيك». وكنا طلبنا من سيّارة الفندق الكبيرة نقلنا بسبب رداة الطقس. كان السيّد «نسيم بيرنار» غير بعيد عنا مورّم العين. فقد كان منذ وقت يسير يخون ابن جوقات «آتالي» مع عامل فتيّ في مزرعة مجاورة كثيرة الزبائن تدعى «أشجار الكرّز». كان هذا الصبيّ الأحمر ذو القسمات الحادة يبدو كأنّما يحمل بمثابة رأس «قرص بندورة». ويشكّل «قرص بندورة» يشبهه تمام الشبه رأساً لأخيه التوأم. ثمّة بالنسبة إلى المتأمل المتجرّد عنصر على قدر كاف من الجمال في تلك التشابهات التامة بين توأمين قوامه أن تبدو الطبيعة وكأنّها انقلبت صناعية مؤقتة فتزودنا بمنتجات متماثلة. ولكنّ وجهة نظر السيّد «نسيم بيرنار» كانت لسوء الحظّ مغايرة والتشابه ذاك محض خارجي. فقرص البندورة رقم ٢ كان يجد متعة جنونية في توفير ملذات السيّدات حصراً، أمّا القرص رقم ١ فلم يكن يأنف من مماشاة ميول بعض السادة. وفي كلّ مرّة كان السيّد «بيرنار» يحضر فيها إلى «أشجار الكرّز» يهزّه شأن فعل ارتكاسيّ

تذكر الساعات الحلوة التي قضاهـا مع قرص البندورة رقم ١، كان اليهودى العجوز، وهو قصير النظر (وقصر النظر لم يكن ضرورياً بأي حال للخلط بينهما)، يخاطب الشقيق التوأم، وهو يمثل دون علم منه «أمفيتريون»<sup>(١)</sup>، ويقول له: «هل تكرمت بموعد لي لهذا المساء؟» وكانت تردده في الحال سلسلة من الكلمات القوية. بل أتفق أن تجددت أثناء وجبة الطعام نفسها حيث كان يواصل مع الآخر مابداً من حديث مع الأول. وقد أصابه طول المدة ويتداعي الأفكار قرف شديد من البندورة، حتى ما كان منها أكيلاً، إلى حد أنه كان في كل مرة يسمع فيها مسافر يطلب شيئاً منها بالقرب منه في الفندق الكبيرة يهمس في أذنه قائلاً: «عذراً ياسيد عن آتي أخاطبك دون أن أعرفك، ولكنني سمعتك تطلب شيئاً من البندورة. إنها متعقنة اليوم؛ وإنني أقول ما أقول لمصلحتك، فالأمر واحد عندي بما أني لا أتناولها البتة». فيشكر الغريب بفيض من الكلام هذا الجار المحب للناس المتجرد ويستدعي النادل ثانية ويتظاهر بالعدول عن رأيه قائلاً: «لا، لا، لا بندورة بالتأكيد». أما «إيميه» العارف بالمشهد فقد كان يضحك وحده ويفكر قائلاً: «السيد «بيرنار» هذا، يا للعجوز الماكر، لقد تمكن مرة أخرى من تغيير الطلبية». لم يكن السيد «بيرنار» يحرص على تخيبتنا أنا و«ألبيرتين» وهو ينتظر الحافلة المتأخرة، بسبب عينه المورمة. وكنا أقل منه حرصاً على التحدث إليه. ولعله ما كان يمكن تجنب ذلك لو لم تنقض علينا بأقصى سرعة في تلك اللحظة دراجة. وقفز عامل المصعد عنها فاقد الأنفاس. كانت السيدة «فيردوران» قد اتصلت هاتفياً بعد ذهابنا بمدة وجيزة كي أحضر للغداء ما بعد الغد؛ وسرى بعد قليل لأي سبب. ثم فارقنا عامل المصعد بعدما زودني بمضمون الهاتف مفصلاً وأضاف، على غرار هؤلاء «المستخدمين» الديمقراطيين الذين يتكلفون الاستقلالية إزاء البورجوازيين ويعودون فيقيمون بينهم مبدأ السلطات، وأضاف وهو يقصد أن البواب وسائق العربة يمكن أن يستاء إن هو تأخر: «سأنتني عائداً بسبب رؤسائي».

كانت صديقات «ألبيرتين» قد رحلن فترة من الزمن. وكنت أود إلهاءها. كنت أعلم، بافتراض أن تكون شعرت بالسعادة في قضاء فترات العصر معي وحدي في «البليك»، أن السعادة لا تسمح البتة بأن تمتلك امتلاكاً كاملاً وأن «ألبيرتين»، ولا تزال في السن «التي لا يتجاوزها البعض» والتي لم يكتشف المرء فيها أن هذا العيب مرتبط بمن يحسن السعادة لا بمن يعطيها، كان يمكن أن تنساق إلى رد سبب خيبتها إلى. وكنت أفضل أن نعزوه للظروف التي نسجتنا أنا فلا تيسر لنا المكوث سوياً فيما تحول دون بقائها في الكازينو أو فوق السد بمعزل عني. لذلك سألتها في ذلك اليوم أن تراققني إلى «دونسير» حيث سأمضي للقاء «سان لو». وفي سياق هدف إشغالها نفسها كنت أشير عليها بالرسم الزيتي الذي سبق أن تعلمته فيما مضى، فإنها لن تتساعل حين تعمل إن كانت سعيدة أو تعيسة. ولعلني كنت اصطحبيتها بكل طيبة خاطر للعشاء بين حين وآخر في منزل آل «فيردوران» وآل «كاميرمير» وكان هؤلاء وأولئك استقبلوا بالتأكيد بكل سرور صديقة قدمتها أنا، لكننا كان ينبغي أن أتيقن أولاً من أن السيدة «بوتوس» لم تكن بعد في دارة «لاراسيلير» وما كان يوسعي تبين الأمر إلا في موقعه ولما كنت أعلم مسبقاً أن «ألبيرتين» مضطرة للذهاب بعد الغد برفقة عممتها إلى الضواحي المحيطة فقد استغللت الأمر لأبعث بعجالة إلى السيدة «فيردوران» أسألهـا إن كان يوسعها استقبالي يوم الأربعاء. فإن كانت السيدة «بوتوس» هناك تدبرت أمرى للقاء وصيفتها والتأكد إن كان يحتمل أن تجيء إلى

(١) مسرحية هولندية «مولير» يجرى الخلط فيها بين شخصين متشابهين.

«بالبيك» وأن أعلم والحالة هذه متى يكون ذلك كي أذهب بـ«ألبيرتين» بعيداً في ذلك اليوم. كان القطار المحلّي الصغير يقوم بانعطافة لم تكن موجودة حينما استقلتته برفقة جدتي فيمراً الآن بـ«دونسيير لاغويي»، وهي محطة كبيرة تنطلق منها قطارات هامة، ولا سيما القطار السريع الذي جئت فيه من باريس لزيارة «سان لو» وعدت به. وحملتنا سيارة الفندق الكبير أنا و«ألبيرتين» بسبب رداءة الطقس إلى محطة الحافلة الصغيرة «بالبيك الشاطيء».

لم يكن القطار الصغير قد وصل بعد إلا أنك كنت ترى سحابة الدخان التي خلّفها في طريقه خاملة بطيئة والتي اقتصرت الآن على محض وسائلها الخاصة كسحابة قليلة الحركة فأخذت تتسلق ببطء السفوح الخضراء لجرف «كريكتو».

وأخيراً وصل القطار الصغير الذي كان ذاك قد سبقه ليَتَّخِذ انجهاً عمودياً، وصل بطيئاً بدوره. وتباعد المسافرون الذين يزعمون استقلاله كي يفسحوا له في المكان ولكن دونما استعجال إذ يعلمون أنهم يعاملون سيّاراً لئِنْ العريكة يكاد يكون من البشر ولا يحتمل، إذ تقوده إشارات مدير المحطة المتساهلة، وكأنّما درّاجة مبتدئ، لا يحتمل في وصاية الميكانيكي النافذة أن يسقط أحداً ولكن توقّف حيثما يرغبون.

كانت عجالتني تفسّر هاتف آل «فيردوران» وكان يزيد من حسن توقيتها أن الأربعاء (واتفق أن بعد الغد كان يوم أربعاء) كان يوم حفلة عشاء كبرى بالنسبة إلى السيّدة «فيردوران» في «لاراسيلير» وباريس على حدّ سواء، وهو ما كنت أجهله. وما كانت السيّدة «فيردوران» تقيم حفلات عشاء، ولكنّما كان لها «أيّام أربعاء»، وكانت أيّام الأربعاء أعمّالاً فنيّة. وفيما تعلم السيّدة «فيردوران» أن ليس لها من شبيه في أيّ مكان فقد كانت تدخل فروعاً فيما بينها وتقول: «هذا الإربعاء الأخير ما كان يساوي السابق. ولكنّي اعتقد أن المقبل سيكون أحد أنجح منظمته في يوم». وكان يبلغ بها أحياناً أن تعترف قائلة: «هذا الأربعاء لم يكن خليقاً بالأخريات. ولكنّي في المقابل احتفظ لكم بمفاجأة كبيرة للتالي». وفي الأسابيع الأخيرة من الموسم الباريسي وقبل الإنطلاق إلى الريف كانت ربّة البيت تعلن ختام أيّام الأربعاء، وهي مناسبة لشحن عزائم الخلص، فتقول: «لم يبقَ إلا ثلاثة أيّام أربعاء، لم يبقَ إلا يومان»، باللهجة التي تعني أن العالم على وشك أن ينتهي، «لن تفوت الأربعاء القادم وهو للختام». ولكنّ الختام ذاك كان مصطنعاً، فقد كانت تنبّه قائلة: «الآن لم يعد ثمة أيّام أربعاء. لقد كان الأخير بالنسبة إلى هذا العام. لكنني مع ذلك سأكون هنا نهار الأربعاء، وسوف نحتفل بالأربعاء فيما بيننا؛ ومن يدري؟ ربّما كانت أيّام الأربعاء هذه الهيئة الحميمة من أكثرها إمتاعاً». كانت أيّام الأربعاء في «لاراسيلير» محدودة حكماً، وبما أنّهم كانوا يدعون في هذه العشيّة أو تلك أيّ صديق التقوه يمرّ مروراً عارضاً فقد كانت كلّ الأيّام تقريباً أربعاء. وكان عامل المصعد قال لي: «لست أذكر تماماً اسم المدعوين ولكنّي اعرف أن السيّدة المركزية «دوكامبير» هناك، ولم يكن تذكّر ليضاحتنا المتعلقة بآل «كامبرير» أفلح في الحلول نهائياً محلّ الكلمة القديمة التي كانت مقاطعها المألوفة المليئة بالمعاني تهبّ لمساعدة المستخدم الشاب حينما يربكه هذا الاسم الصعب فيفضّلها في الحال ويتبناها لا تكاسلاً وكأنّما تلك عادة قديمة لا يقوى على اقتلاعها، بل من جرّاء الحاجة إلى المنطق والوضوح اللذين ترضيهما.

وسارعنا للوصول إلى عربة خالية أستطيع فيها معانقة «ألبيرتين» طوال الرحلة. ولما لم نجد شيئاً من هذا القبيل صعدنا إلى مقصورة كانت تجلس فيها سيّدة ضخمة الوجه قبيحة مسنة ذكرية القسمات أسرفت في لباسها وتقرأ «مجلة العالمين». كانت على الرغم من سوقيتها متصنعة في حركاتها وتلهّيت في مسألة نفسي عن الفئة الإجتماعية التي يمكن أن تنضوي تحت لوائها. وخلصت في الحال إلى أنها لابدّ مديرة بيت كبير للمومسات، قوادة في رحلة لها. كان وجهها وكلّ تصرفاتها تبرز ذلك بوضوح. ولكنني كنت فقط جاهلاً حتّى ذلك أنّ تلك السيّدات يقرأن «مجلة العالمين». ودلتني عليها «ألبيرتين» ولم يفهما أن تغمز يعينها وهي تبتسم لي. كانت السيّدة تبدو شديدة الوقار، ولما كنت من جانبي أعى تمام الوعي أنّي كنت مدعوّاً في الغد في آخر محطة للقطار الصغير إلى منزل السيّدة «فيردوران» الشهيرة وأن «روبير دوسان لو» ينتظرني في محطة وسيطة وأنني إلى أبعد بقليل كنت أشعث أعظم السرور في نفس السيّدة «دوكامبرير» لو أقبلت للسكنى في «فيتيرن» فقد كانت عيناى لتتمعن استهزاء وأنا أتأمل تلك السيّدة الخطيرة التي يبدو أنّها تظنّ نفسها شخصية أرفع شأنًا منّي بسبب لباسها المتكلف والريش الذي يعلو قبعتها و«مجلة العالمين» التي تحملها. وكنت أمل أنّ لن تمكث السيّدة أكثر ممّا فعل السيّد «نسيم بيرنار» وأنّها ستخادر على الأقل في «توتانفيل»، وخاب الأمل. وتوقّف القطار في «ايرفيل»، فلبثت جالسة، وكذلك الأمر في «مونمارتان سورمير» و«بارفيس لابنغار» و«أنكرفيل» حتّى أنّي شرعت من يأس، وبعد ما غادر القطار «سان فريشو»، وكانت آخر محطة قبل «دونسير» بمعانقة «ألبيرتين» دون أن أهتمّ بالسيّدة. وفي «دونسير» كان «سان لو» قد جاء ينتظرني في المحطة متجشّماً أعظم الصعوبات، يقول، فإنه اذ يسكن عند عمته لم تصله برقيني إلّا لتلوّ ولن يستطيع أن يخصني إلّا بساعة واحدة لأنّه لم يسعه تدير وقته سلفاً. وبدت لي تلك الساعة للأسف مفرطة في طولها لأنّ ألبيرتين» لم تعد تهتمّ حالما نزلنا من العربة إلّا بـ«سان لو». فلم تكن تتحدّث إلّى وتكاد لا تجيبني إن خاطبتها وقد أبعدتني حين اقتربت منها. وكانت في المقابل تضحك بصحبة روبير» ضحكها المغربة وخذته بطلاقة كبيرة وتلاعب الكلب الذي معه وتحتكّ فيما تستثير الحيوان إحتكاكاً طفيفاً متعمداً بسيّده وتذكّرت أنّي في اليوم الذي سمحت فيه «ألبيرتين» بأن أقبلها للمرّة الأولى ابتسمت ابتسامة امتنان للغاوى المجهول الذي أدخل في نفسها تحوّلًا عميقاً إلى هذا الحدّ وسهّل لي المهمّة بدرجة كبيرة. أمّا الآن فكنت أفكر فيه باشمئزاز. ولا بدّ أن «روبير» تبين أن «ألبيرتين» لم تكن غير ذات شأن بالنسبة إليّ فهو لم يستجب لصنوف غنجها، الأمر الذي أوغر صدرها عليّ. ثم إنّه كلّ شيء كما لو كنت وحدي، وقد رفع ذلك من قدرتي عندها حينما انتبهت للأمر. وسألني «روبير» إن كنت لا أودّ محاولة العثور، بين الأصدقاء الذين كان يدعوني للعشاء ويأبهم كل مساء في «دونسير» حين أقمت فيها من قبل، على من لا يزال منهم هناك. ولما كان ينزع هو نفسه إلى نوع التباهي المزيج الذي يستهجنه قال: «مانفع أن تكون أبديت ما أبديت لهم من إغراء بذاك القدر من المثابرة إن كنت لا تريد لقاءهم ثانية؟» ورفضت اقتراحه إذ لم أكن أودّ المجازفة بالابتعاد عن «ألبيرتين» ولأنّني كنت كذلك قد انفصلت عنهم الآن. عنهم، يعني عن ذاتي. فإننا نرغب أعنف الرغبة أن تكون ثمة حياة أخرى نمائل فيها مانحن عليه في الحياة الدنيا. ولكننا لا نفكر أننا حتّى دون انتظار تلك الحياة الأخرى، وفي هذه نفسها، لا نظلّ مخلصين لما كنّا عليه وما كنّا نودّ أن نلبثه خالدين فيه. وحتّى دون افتراض أنّ الموت يبدّلنا أكثر من تلك



التغيرات التي تحدث في بحر الحياة، فإننا لو صادفنا في تلك الحياة الأخرى الأنا التي كناها لأعرضنا عن ذواتنا إعرضنا عن أولئك الأشخاص الذين ارتبطتنا بصداقتهم ولكننا لم نلتق بهم منذ فترة طويلة - كأصدقاء «سان لو» مثلاً الذين كان يمتعني أكثر ما يمتعني أن الحق بهم كل مساء في مطعم «الترج الذهبي» والذين لن يكون حديثهم بالنسبة إليّ الآن سوى إزعاج ومضايقة. ولعلّ نزهة بهذا الخصوص في «دونسير»، ولأني فضلت أن لا أذهب إليها لألتقي ما سبق أن أمتعني فيها، لعلها كانت استطاعت أن تبدو لي وكأنها تمثل مقدماً الوصول إلى الجنة. والمرء يحلم كثيراً بالجنة أو بالأحرى بجنّات كثيرة متعاقبة ولكنها جميعاً وقبلما نموت، جنّات مفقودة وربما أحسن المرء أنّه ضائع فيها.

وفارقنا في المخطلة وهو يقول: «ولكن ربما وجب أن تنتظر قرابة الساعة. فإن قضيتها هنا فسترى دون شك عمي «شارلوس» الذي يعود ليستقلّ القطار عمّا قليل إلى باريس عشر دقائق قبل قطارك. لقد سبق لي أن ودّعته لأتني مضطراً أن أكون عدت قبل إقلاع قطاره. ولم يكن بوسعي أن أحذنه عنك لأن بريقيتك لم تكن بعد وصلتني». وأجابني «أليبرت» عن اللوم الذي وجهته إليها بعدما فارقنا «سان لو» أنّها ابتغت من فتورها معي أن تمحو، تحسباً لكل طارئ، الفكرة التي أمكن أن تراوده لو أنّه رأي لحظة تتوقف القطار أنحنى فوقها وأمرّ ذراعي حول خصرها. وكان لاحظ بالفعل ذاك الوضع (وما كنت لمحته وإلا لاتخذت جلسة أكثر لياقة إلى جانب «أليبرت»)، واتسع له الوقت كي يهمس في أذني: «أهؤلاء هنّ الفتيات اللواتي حدثتني عنهنّ واللواتي ما كنّ يغيغن عشرة الآمنة «دوستيماريا» لأنهنّ يرين أنّها سيئة المسلك؟» وكنت بالفعل قلت لـ «روبير» وبمنتهى الصراحة حينما ذهبت من باريس لإلتقائه في «دونسير» وإذ كنّا نعيد الحديث عن «البليك» أنّه لا مجال للأقدام على أي شيء مع «أليبرت» إذ كانت الفضيلة مجسدة. أمّا الآن وقد علمت بنفسى منذ فترة طويلة أن الأمر غير صحيح فقد كنت بعد أكثر رغبة في أن يظنّ «روبير» أنّ ذلك صحيح. ولعلّه كان كفاني أن أقول لـ «روبير» إنّني أحبّ «أليبرت». فقد كان من هؤلاء الناس الذين يعرفون كيف يحجمون عن متعة ليجتنبوا صديقهم ألاماً ربما أحسّوا بها وكأنّها آلامهم. وأضفت أقول بادي القلق: «أجل، إنّها طفولية إلى أبعد حدّ. ولكن ألا تعرف شيئاً عنها؟» - «لا شيء سوى أنّي رأيكما تتخذان وضعية جيبين».

وقلت لـ «أليبرت» بعد أن فارقنا «سان لو»: «لم يكن موقفك يمحو شيئاً البتّة». فقالت: «صحيح، لقد كنت خرقاء وأشعت الغم في نفسك وإنّي لحزينة جداً من أجلك. وسترى أنّي لن أكون البتّة كذلك من بعد. سامحني»، تقول وهي تمدّ لي يدها بهيئة كئيبة. وأبصرت في تلك اللحظة من أقصى قاعة الانتظار التي كنّا نجلس فيها، السيّد «دوشارلوس» يمرّ بطيئاً يتبعه على مسافة قصيرة مستخدم كان يحمل حقائبه.

ما كنت في باريس حيث لا ألتقي إلا إبان السهرة جامداً لا حراك به متحرماً بلباس أسود، يحفظ له اتجاهه العمودي انتصاب قامته المستكبرة واندفاعه ليروق للناس وانطلاقة حديثه، وما كنت أتبين إلى أي حدّ تقدّمت به السن. أمّا الآن، وإذ يرتدي بدلة سفر بلون فاتح يبدو بها أوفر سمّة، وإذ يسير ويتمایل مرجحاً كرشاً يتكوّر وعجزاً يكاد يكون رمزياً، فقد كانت قسوة ضياء النهار تحلّل كلّ ما كان بدا على أنوار المصابيح حيوية في لون الوجه لدى شخص لا يزال فتياً، تحلله خضاباً على الشفتين وبودرة تبتتها الكريما على طرف الأنف وسواداً

على الشاربين المصبوغين اللذين يتعارض سوادهما الفاحم والشعر المشيب.

كنت فيما آنحلت إليه، إنما باقتضاب بسبب القطار الذي سيستقله، أنظر إلى عربة «ألبيرتين» كي أومي إليها بأنّي أت. وحين ملت برأسي صوب السيد «دوشارلوس» سألتني أن أتكرم وأدعو مجنّباً قريباً له كان في الجانب الآخر من السكة كما لو أنّه يرمع بالضبط أن يستقل قطارنا ولكن في الاتجاه المعاكس وفي الجهة التي يتعد بها عن «باليك». وقال لي السيد «دوشارلوس»: «إنّه في موسيقى الكتيبة. وإذ يسفك الحظ في كونك على شباب كاف، ويتعسني أنا أنّي هربت إلى حدّ، مما يمكنك تجنّبي اجتياز الخطّ والذهاب حتّى هناك...» ورأيت من واجبي أن أمضي إلى الجنديّ المعين وتبينت بالفعل من القيثارات المطرزة على ياقته أنّه من جماعة الموسيقى. ولكن آية دهشة أملت بي، بل يمكن أن أقول آية متعة أصبت لحظة كنت أرمع الوفاء بما كلّفت به حينما تعرّفت «موريل» ابن خادم عمّي الخاصّ والذي كان يذكّرني بأشياء ما أكثرها! ونسيت من جرّاء ذلك القيام بالمهمّة التي كلّفتني بها السيد «دوشارلوس». «عجباً، أأنت في «دونسيير»؟ - «أجل وقد ألحقت بفرقة الموسيقى في مجموعة آلات النقر». ولكنّه أجاب يقول بلهجة جافّة متعالية. فقد كان أضحي شديد التكلف ولم تكن رؤيتي لتروقه وهي تذكّره بمهنة والده. وأبصرت السيد «دوشارلوس» فجأة ينقضّ علينا. فمن الواضح أن تأخّري أفقده صبره، وقال لـ «موريل» دون آية مقدّمات: «ربّما رغبت في سماع بعض الموسيقى هذا المساء ولآتي أدفع ٥٠٠ فرنك للألمسية وربّما أمكن أن يكون ذلك موضع اهتمام أحد أصدقائك إن توافر في مجموعة الموسيقى. وعبثاً كنت أعرف وقاحة السيد «دوشارلوس» فقد أذهلني أن لم يقل حتّى مرحباً لصديقه الشاب. ولم يدع لي البارون على آية حال وقتاً للتفكير فقد مدّ يده بصورة ودية وقال: «إلى اللقاء أيّها العزيز» ليلبّغي بأن ليس عليّ سوى الذهاب. وكنت على أيّ حال بالغت في ترك عزيزتي «ألبيرتين» فترة طويلة، وقلت لها وأنا أصدع ثانية إلى القطار: «ترين، إنّ حياة الحمامات البحرية وحياة الأسفار تفهماني أن في مسرح الدنيا ديكورات أقلّ من الممثلين، وممثلين أقلّ من «المواقف». - «بأيّ شأن تقول لي ذلك؟» - «لأن السيد «دوشارلوس» سألتني منذ قليل أن أبعث إليه واحداً من أصدقائه عرفت فيه في هذه اللحظة تماماً وعلى رصيف هذه المحطة واحداً من أصدقائي». وكنت فيما أقول ذلك أبحث كيف يمكن للبارون أن يعرف «موريل»، فإن التفاوت الاجتماعي الذي لم تراودني فكرته بادئ الأمر كان شاسعاً جداً. وخطر لي أولاً أن الأمر تمّ عن طريق «جويان» الذي بدا أن ابنته، كما نذكر، أغرمت بعازف الكمان. على أن ما كان يذهلني أن يكون البارون طلب سماع الموسيقى في «دونسيير» وهو يعتزم الذهاب إلى باريس بعد خمس دقائق. ولكنّي إذ عدت أرى إينة «جويان» في ذكرياتي شرعت أرى أن «صنوف التعرّف»، وهي الوسيلة التعيسة التي تلجأ إليها الأعمال الأدبية المصطنعة، إنّما هي التعبير على العكس عن جزء هام من الحياة إن عرفنا كيف نذهب حتّى حدود الخياليّ الصحيح، حينما برق في خاطري بارق مفاجئ وأدركت أنّي كنت في غاية السذاجة. فما كان السيد «دوشارلوس» على أدنى معرفة بـ «موريل»، ولا «موريل» بالسيد «دوشارلوس» الذي بهر وأفرعه جندي ما كان يحمل مع ذلك سوى قيثارات فطلب منّي في غمرة اضطرابه أن أجيئه بمن لم يكن يرتاب بأنّي أعرفه. ولا بدّ في جميع الأحوال أن يكون عرض الخمس مئة فرنك قد حلّ في نظر «موريل» محلّ انتفاء العلاقات السابقة، فقد رأيتهما يواليان حديثهما دون أن يخطر لهما أنّهما بجوار حافظتنا. وإذ تذكّرت الطريقة التي أقبل بها السيد

«دوشارلوس» نحوي ونحو «موريل» أخذت أدرك شبهه ببعض أهليه حينما يتصيدون امرأة في الشارع، ولكن الموضوع المستهدف تبدل جنساً. فإنه ابتداء من سن معينة وحتى لو تحققت في داخلنا تطورات مختلفة، كلما أصبح المرء ذاته كلما برزت القسّمات العائليّة. لأنّ الطبيعة فيما توالي باتساق خطوط نسيجها إنّما تقطع رتبة التأليف بفضل تنوّع الرسوم المدرجة فيه. ومهما تكن الحال فإنّ التعالي الذي حدج به السيّد «دوشارلوس» عازف الكمان نسبيّ حسب وجهة النظر التي نعتمدها منطلقاً. ولعلّ ثلاثة أرباع أفراد دنيا المجتمع كانوا اقرّوا بذلك، وهم يسلمون بالأمر، لا مفوّض الشرطة الذي أمر بمراقبته بعد بضع سنوات.

وقال المستخدم الذي كان يحمل الحقائق: «لقد جرى الإعلان عن قطار باريس ياسيّد». «ولكنّي لا أستقلّ أي قطار، فضع كلّ ذلك في مستودع الأمانات ويحك!» يقول السيّد «دوشارلوس» وهو ينقد عشرين فرنكاً المستخدم الذي أذهله الانقلاب وفتنته الإكرامية. واجتذب هذا الكرم في الحال بائعة زهور. «خذ هذه القرنفلات، هاك هذه الوردة الجميلة، أيّها السيّد الطيّب، فسوف تجلب لك الحظّ» فمدّ لها السيّد «دوشارلوس»، وقد نفذ صبره، أربعين فلساً قدّمت له المرأة في مقابلها تبريكاتها وزهورها مرّة ثانية. «يا إلهي، لو أمكن أن تدعنا وشأننا»، يقول السيّد «دوشارلوس» موجّها حديثه بلهجة ساخرة باكية شأن رجل متوتّر الأعصاب، إلى «موريل» الذي كان يجد شيئاً من العذوبة في طلب مساندته. «فإنّ ما ينبغي لنا أن نقوله بلغ كفايته من التعقيد». ربّما لم يكن السيّد «دوشارلوس» حريصاً أن يكون من حوله حضور كبير إذ لم يكن مستخدم الخطّ الحديدي بعيداً جداً بعد، وربّما سمحت هذه الجمل العارضة، ربّما سمحت لحبائه المستكبر أن لا يتعرّض مباشرة لطلب المواعيد. أمّا الموسيقى فقد استدار بهيئة صريحة، هيئة الأمر المصمّم، صوب بائعة الزهور ورفع في وجهها راحة كانت تدفعها بعيداً وتعلن لها أنّهم لا يريدون أزهارها وأنّ عليها أن تمضي في سبيلها بأسرع ما يمكن. ورأى السيّد «دوشارلوس» باغتيال تلك الإشارة الحازمة الرجولية تقوم بها اليد الناعمة والتي كان ينبغي أن تكون بعد ثقيلة عليها وقاسية ضخمة، تقوم بها بحزم ومرونة سابقين لأنّهم وبوليان هذا المراهق الأمرد هيئة «داود» شابّ قادر على الإضطلاع بأعباء مقاتلة «جليات». كان إعجاب البارون يمتزج عن غير ما قصد بتلك الإيتسام التي نحسّ بها إذ نرى على وجه أحد الأطفال تعابير تفوق برزانتها سنّه. وقال السيّد «دوشارلوس» في نفسه: «هو ذا شخص أحببت أن يرافقني في أسفاري ويساعدني في أموري، وكمن لعله يسهّل أمور حياتي!».

انطلق قطار باريس (الذي لم يستقلّه البارون). ثمّ صعدنا إلى قطارنا أنا و«ألبيرتين» دون أن أكون علمت ما الذي حلّ بالسيّد «دوشارلوس» و«موريل». وعادت «ألبيرتين» تقول لي في إشارة إلى حادثة «سان لو»: «يجب أن لا تتنازع بعد اليوم، وإنّي استميتك عذراً؛ وأردفت تقول برقة: «يجب أن نظلّ كلانا لطيفين. أمّا فيما يخصّ صديقك «سان لو» فإنّ ظننت أنّي أهتمّ به لأمر آيا نظلّ كلانا لطيفين. أمّا فيما يخصّ صديقك «سان لو»، فإنّ ظننت أنّي أهتمّ به لأمر آيا كان فأنت على ضلال كبير. ما يروقني منه فقط ما يبدو أنّه يكتنه لك من حبّ عظيم». فقلت: «إنّه فتى طيّب جدّاً»، قلت وأنا أتحاشى أن انسب إلى «روبير» مزاياء عظيمة خياليّة كما لعله لم يكن فائتي أن أفعل مودة له لو كنت مع شخص آخر غير «ألبيرتين»؛ «إنّه شخص ممتاز صريح خدوم صادق يمكن الاعتماد عليه في كلّ شيء». وكنت إذ أقول ذلك أكتفي، تمنعني غيرتي، بإيراد

الحقيقة بشأن «سان لو» بيد أن ما أقول كان عين الحقيقة. وواقع الحال أنها كانت تستخدم بالضبط ذات الألفاظ التي سبق أن استخدمتها السيِّدة «دوفيلباريزيس» لتحذرتني عنه حين لم أكن أعرفه بعد وأتخيله مختلفاً جداً متعالياً جداً وأقول في نفسي: «يرونه طبيباً لأنه سيّد كبير». كذلك تصوّرت، حينما قالت لي: «سوف يسعدّ كثيرًا»، بعد ما شاهدته أمام الفندق جاهزاً للإطلاق، أن أقوال عمته كانت مجرد ترهات مجتمعية ترمي إلى مدهنتي. وتبيّنت بعد ذلك أنها قالت صادقة وهي تفكر بما يثير اهتمامي وبقراءاتي ولأنها كانت تعلم أن ذلك ما كان يحبه «سان لو» كما كان سيتفق لي أن أقول بصدق لواحد كان يؤلف قصة عن جدّه «لاروشفوكو» واضع كتاب «الحكم» وودّ لو يذهب لإستشارة «روبير»: «سوف يسعد كثيرًا». ذلك أني كنت تدرّبت على معرفته.

ولكنني يوم رأيته أوّل مرّة لم أصدق أن عقلاً مشابهاً لعقلي يمكن أن يتجلبب بهذا القدر من الأناقة ملبساً وموقفاً. وكنت حكمت من مظهره أنّه من نوع آخر. «ألبيرتين» الآن هي من قالت لي، ربّما لأن «سان لو» كان فائراً معها إلى هذا الحدّ ترفقاً بي، ما سبق أن فكّرت به فيما مضى: «آه! إنّه خديم إلى هذا الحدّ! فإني ألاحظ أنّهم يرون دومًا كلّ الفضائل تجتمع للناس إن كانوا من حيّ «سان جيرمان». أمّا أن يكون «سان لو» من حيّ «سان جيرمان» فذلك أمر ما عدت فكّرت فيه مرّة واحدة خلال تلك السنين التي أبرز لي فيها فضائله وقد تجرّد من مكانته. إنّه تغرّ في المنظور في نظرنا إلى الناس وهو أكثر جلاء في الصداقة منه في العلاقات الإجتماعية المحضة، وكم هو بعد أكثر جلاء في الحبّ حيث يضع الشوق على مقاس واسع جداً ويضخّم أدنى علامات الفتور بنسب عظيمة إلى حدّ أنّه انبغى لي قدر منه أقلّ كثيراً من الفتور الذي يديه «سان لو» لأوّل وهلة كي أظنّ في الحال أن «ألبيرتين» تزدريني وأنّ أتخيّل صديقاتها بمثابة كائنات غير بشرية إلى حدّ عجيب وأنّ أردّ إلى محض التسامح الذي نبيده للجمال ولنوع من الأناقة حكم «إليستير» حين كان يقول لي حول المجموعة الصغيرة ما كان تماماً من قبيل ما قالت السيِّدة «دوفيلباريزيس» حول «سان لو»: «إنهنّ فتيات طبيّات». على أن هذا الحكم ليس هو الذي كنت أصدرته مختاراً حينما أسمع «ألبيرتين» تقول: «ألمي في جميع الأحوال، أخدوماً كان أو غير خديم، أن لا ألقاه ثانية بما أنه جلب الخصام بيننا. ينبغي أن لا نختصم من بعد. أليس ذلك لطيفاً؟» كنت أحسّ، إذ بدا أنّها تشتبه «سان لو»، أنّي شفيت بعض الوقت من فكرة أنّها تحبّ النساء، لأنني كنت أرى تناقضاً في ذلك. وفي مواجهة المشمّع الذي كانت «ألبيرتين» تبدو فيه وقد أضحت امرأة أخرى، جوّالة الأيام الماطرة التي لا تكمل، ذاك المشمّع الملتصق الطيّع الرماديّ في هذه اللحظة الذي يبدو وكأنّه جعل أقلّ ما جعل لحماية ثيابها من الماء وأكثره لماهي بلكته فالتصق بجسد صديقتي كأنما ليرفع خطوط تقاطيعه لأحد النحاتين، رأيّنتي انتزع ذاك الرداء الذي يلاصق بعناية لهفي صدرها المشتهي وجذبت «ألبيرتين» إليّ وقلت لها:

«وأت، ألسّ تريدن، أينها المسافرة المترخية، أن تخلمي فوق كتفي وقد ألصقت بها جبينك؟»<sup>(١)</sup>

(١) من كتاب «المصادر» للشاعر ألفريد دو فيني، والقصيدة بعنوان «بيت الراعي».

قلت وقد أخذت رأسها بين يديّ وأريتها المروج الواسعة الفارقة الصامتة المنبسطة في الضياء الغارب حتّى الأفق الذي تسدّه سلاسل متوازية من تموجات أودية بعيدة ضاربة إلى الزرقة.

كنت بعد الغد، في ذاك الأربعاء الشهير وفي ذات القطار الصغير الذي أخذته من «بالبيك» للذهاب إلى «لاراسپيلير» وتناول العشاء هناك، كنت شديد الحرص على أن لا تفوتني فرصة لقاء «كوتار» في «غرانكور» سان فاست» حيث نقل إليّ هاتف جديد للسيدة «فيردوران» أتى ملاقيه هناك. كان عليه أن يصعد إلى القطار الذي استقلّه ليدلني أين ينبغي لي النزول لأجد العربات التي يبعثون بها من «لاراسپيلير» إلى المحطة. وبما أنّ القطار لا يتوقّف سوى لحظة في «غرانكور»، وهي المحطة الأولى بعد «دونسيير»، فقد أقمت سلفاً على الباب لخوفي الشديد أن لا أرى «كوتار» أو لا يراني هو، وعبثاً ساورتني المخاوف فلم أكن تبينّت إلى أيّ حدّ كانت العشيّة الصغيرة قد صاغت «روّادها» جميعاً على الشاكلة نفسها فأصبح من السهل، وهم فوق ذلك بلباس العشاء الرسميّ ينتظرون على الرصيف، التعرّف إليهم في الحال من جرّاء هيئة لهم تتسم بالثقة والأناقة والألفة ونظرات تجتاز صفوف الدهماء المكتظة، كأنما تلك مساحة فارغة ليس فيها ما يستوقف الانتباه، وتترصد وصول واحد من الرّواد استقلّ القطار في محطة سابقة وتلتصع مذكّات استمتاعاً بالحديث الآتي. وما كانت تلك العلامة المختارة التي طبعت بها عادة تناول العشاء سوياً أعضاء المجموعة الصغيرة، ما كانت تميّزهم فقط حينما كانوا يحتشدون بكثرة وقوّة فيؤلّفون بقعة أكثر لمعناً وسط قطيع المسافرين -وما كان «بريشو» يدعو الدهماء- الذين لا يمكن أن تقرأ على وجوههم الكامدة أيّة فكرة تتعلّق بآل «فيردوران» وأيّ أمل في تناول العشاء يوماً في «لاراسپيلير». ولعلّ هؤلاء المسافرين السوقة كانوا أبدوا اهتماماً أقلّ مني على أيّة حال لو جرى أمامهم النطق بأسماء هؤلاء الخلف -على الرغم من الشهرة التي اكتسبها بعض منهم- وكنت أعجب لما أراهم يوالون تناول عشاءهم في المدينة فيما كان بضعة منهم يفعلون ذلك، وفقاً للقصص التي سبق أن سمعتها، قبل مولدي وفي فترة هي في الآن نفسه بعيدة وغامضة حتّى ليغريني أن أبالغ في بعدها عني. وأن التعارض بين استمرارهم لا على قيد الحياة فحسب بل في التمتع بكامل قواهم وزوال الكثير من الأصدقاء الذين رأيتهم يختفون ههنا وهناك كان يوليني الشعور نفسه الذي ينتابنا حينما نقرأ في «أخبار آخر ساعة» في الصحف الخبر الذي كنّا بالضبط ننتظره أقلّ ما ننتظر، كخبر وفاة مبكرة على سبيل المثال تبدو لنا مفاجئة لأن الأسباب التي هي مآلها لبثت مجهولة لدينا. ذلك الشعور مفادته أن الموت لا يصيب جميع الناس بالتساوي، ولكن موجة أكثر تقدماً في هجمتها المأساوية ترهق حياة واقعة على مستوى حيوات أخرى توقّرها الموجات اللاحقة فترة طويلة بعد. وسوف نرى فيما بعد على أيّ حال أنّ تنوع الميئات التي تنتقل على نحو خفيّ إنّما تشكّل سبب المفاجأة الخاصّ التي تمثلها في الصحف زاوية الوفيات. ثمّ كنت أرى أن مواهب حقيقية يمكن أن تعيش أطفه صنوف الحديث تتكشف وتقرض نفسها مع مرّ الزمن وليس ذلك فحسب بل أنّ أفراداً ضحلي المستوى يبلغون تلك المقامات العالية التي تقتزن في مخيلة طفولتنا ببعض الشيوخ المشهورين دون أن نفكر بأن تلاميذهم سوف يضحون كذلك بعد انقضاء عدد من السنين وقد أصبحوا أساتذة بدورهم وهم الآن يوحون بالاحترام والمهابة للذين كانا يداخلانهم بالأس. ولكن كانت أسماء الخلف مجهولة لدى «الدهماء» فإن مظهرهم كان يكشفهم أمانهم. فإنّه حتّى في القطار (حين تجمعهم كافة فيه مصادفة ما انبغى أن يفعله هؤلاء

وأولئك في أثناء النهار)، ولا يقع عليه من بعد أن ينقل معه من المحطة التالية سوى شخص بمفرده، كانت العربية التي يجتمعون فيها، وقد أبرزها مرفق النخات «سكي» وصحيفة «الزمان» التي يحملها «كوتار» تتلأأ من البعيد مثل عربة باذخة وتلحق الرفيق المتأخر بالمحطة المقصودة. والوحيد الذي أمكن أن تفوته من جرأ نصف عماء علامات الميعاد تلك كان «بريشو». ولكنما كان أحد الرؤاد يقوم طواعية إزاء الأعمى بمهام الراصد وما أن يبصروا قبعة القش التي يعتمرها ومطرتة الخضراء ونظاريته الزرقاوين حتى يقودوه برفق واستعجال إلى المقصورة المختارة. إلى حد أن ليس من مثال على أن أحد الخالص، مالم يشير أخطر شكوك العريضة أو أنه حتى لم يستقل «القطار»، لم يلتق الآخرين وهو في الطريق إليهم. ويقع العكس أحيانا: فقد اضطر أحد الخالص أن يمضي بعيدا بعد الظهر وانبغى له بالتالي أن يقطع قسما من المسير بمفرده قبل أن تلتحق به المجموعة. وما كان في الكثير الغالب إلا ليخلف بعض الأثر وإن كان بمفرده على ذاك النحو وكان وحيدا من جنسه. فإن «الآتي» الذي يمضي شطره كان يلفت إليه نظر الجالس على المقعد المواجه فيقول في نفسه: «لا بد أنه ذو خطر» ويميز بالتبصر الغامض الذي لمسافري «عمّادس» ما يشبه الهالة حتى حول قبعة «كوتار» أو قبعة «سكي» ولا تأخذه إلا نصف دهشة حينما يستقبل جمهور أتيق في المحطة التالية، إن كانت المحطة الأخيرة، المخلص على عتبة المقصورة ويمضي معه باتجاه إحدى العربات التي تنتظر، يحبيهم جميعا أفضل خيئة المستخدم في «دوفيل»، فإن كانت محطة وسيطة اجتاحت المقصورة. ذلك ما فعلته الجماعة التي أطلقها «كوتار» رملا باتجاه العربيه التي رأى إشاراتي تنطلق من نافذتها، وقد فعلت باستعجال لأن الكثير منهم وصل متأخرا وفي اللحظة عينها التي يرمع فيها القطار المتوقّف من قبل في المحطة معاودة سيره. و«بريشو» الذي كان في عداد أولئك الخالص أصبح أكثر إخلاصا في بحر هذه السنوات التي حدّت بالنسبة إلى آخرين من مئابرتهم. ذلك أن بصره إذ تراجع تدريجا اضطره حتى في باريس إلى تخفيض أعماله المسائية أكثر فأكثر. وكان على أي حال قليل الميل إلى الصوروبون الجديدة حيث أخذت افكار الدقة العلمية تتقدّم على الاتجاه الإنساني. كان يقصر عمله الآن حصرا على درسه المقرّر وعلى اللجان الفاحصة، فيتوافر لديه وقت أكثر يصرفه لأمر الدنيا، يعني للأمسيات في منزل آل «فيردوران» أو لتلك التي يحييها أحيانا لآل «فيردوران» هذا المخلص أو ذاك وهو يرتعش انفعالا. وصحيح أن الحبّ كاد يفعل مرتين متواليتين ما لم تعد الأعمال تقوى عليه، أي فصل «بريشو» عن العشيرة الصغيرة. لكنّ السيّد «فيردوران» التي كانت تسهر على الأمور قد أفضى بها الأمر على أية حال، وكانت تعودت ذلك لصالح منتداهها، إلى إصابة متعة خالية الغرض في هذا النوع من الفواجع والإجراءات فجعلته يختصم على نحو نهائي مع الشخص الخطير، إذ هي تعلم، كما كانت تقول، كيف تتدارك الفوضى وكيف تضرب الحديد حاميا. وقد زاد من يسر الأمر عليها بالنسبة إلى إحدى المرأتين الخطرتين أنها كانت مجرد غسالة «بريشو» ولم يقع على السيّد «فيردوران»، وهي مخولة بدخول الدور الخامس الذي يقطنه الأستاذ ويكسي وجهها استكبارا لونا قرمزيا حينما تتفضّل وتصدع أذوارها الخمسة، لم يقع عليها إلا أن تطرد تلك المرأة التي لا قيمة لها، فقد قالت البارونة لـ «بريشو»: «ويحك! تشرفك امرأة مثلي بالجيء إلى بيتك وتستقبل مخلوقة كهذه؟» ولم ينس «بريشو» في يوم الصنيع الذي قدّمته له السيّد «فيردوران» إذ حالت دون أن تفوص شيخوخته في الأرواح وأخذ يزداد تعلقا بها في حين أخذت «المعلمة»، خلافا لتجدد الودّ ذلك

وربما بسببه، تنفر من مُخلص مفراط في خضوعه وهي متيقنة سلفاً من طاعته. على أن «بريشو» كان يجني من حال الألفة مع آل «فيردوران» ألقاً يميزه بين زملائه جميعاً في الصوريون. فقد كانت تبهرهم القصص التي يرويها عن أعشبة لن يدعو إليها في يوم، وكذلك ذكره في المجلات أو رسمه المعروض في الصالة، وقد أقدم عليهما هذا الكاتب أو ذاك الرسام الشهير الذي كان أصحاب الكراسي العلمية الأخرى في كلية الآداب يقدرون موهبته ولا يسعفهم الحظ إطلاقاً في إثارة اهتمامه، وأناقة اللبس نفسها التي يبرز بها فيلسوف المجتمع الخلمي، أناقة أخذوها بادئ الأمر على أنها من باب الإهمال إلى أن تكرم زميلهم وأوضح لهم أن القبة العالية تقبل طائفة أن توضع أرضاً في أثناء زيارة وليست مقبولة في حفلات العشاء في الأرياف مهما تكن أنيقة ولا بد أن تستبدل بها القبة الطرية التي تليق تماماً «بالسموكن». لم أستطع أثناء الثواني الأولى التي اندفعت فيها المجموعة الصغيرة داخل العرية، لم أستطع حتى التحدث إلى «كوتار» فإنه ضاقت أنفاسه لا من جرأ أنه جرى كي لا يفوته القطار، بل من جرأ دهشته أن يكون لحق به في الوقت المناسب تماماً. لقد أصابه من ذلك أكثر من فرحة النجاح، وما يقارب الضحك الناجم عن «مقلب» سار. وقال بعدما استعاد هدوءه: «آه! شيء عظيم! ولو زدنا القليل، ويحك لكان ذلك ما يسمونه الوقوف على الحافة تماماً»<sup>(١)</sup> يضيف قوله وهو يغمز بعينه لا ليسأل إن كان التعبير صحيحاً، إذ كان يفيض الآن ثقة بنفسه، بل بداعي الرضى عن الذات. وأخيراً استطاع أن يذكر اسمي أمام أعضاء المجموعة الصغيرة الآخرين. وأزعجني أن أبصر أن الجميع تقريباً كانوا يرتدون ما يدعى بـ«السموكن» في باريس؛ وكنت نسيت أن آل «فيردوران» باشروا تطوراً خجولاً باتجاه المجتمع الراقي بطأت منه قضية «دريفوس» وسرعته الموسيقى «الجديدة»، تطوراً جرى بأية حال تكذيبه من جانبهم وربما والوا التأكيد إلى أن ينجح، كما هي حال تلك الأهداف العسكرية التي لا يعلنها الجنرال إلا بعد ما يبلغها كي لا يبدو أنه غلب إن أخطأها. وكان المجتمع الراقي فيما يخصه على أتم الاستعداد للتقدم في اتجاههم. وكان لا يزال بعد يعتبرهم أناساً لا يذهب إليهم أحد من كبار القوم ولكنهم لا يشعرون بأي أسف من ذلك. كان منتدى آل «فيردوران» يعدّ معبداً للموسيقى، فهناك فيما يؤكّدون لاقى «فانتوي» الوحي والتشجيع. ولئن ظلت «سوناتا» «فانتوي» غير مفهومة كلياً ومجهولة تقريباً فقد كان اسمه، وبذكرونه كأعظم موسيقى معاصر، يشيع من حوله مهابة خارقة. ثم إن بعض فتیان «الحي» تنبهوا إلى وجوب أن يكونوا بمثل ثقافة البورجوازيين فكان ثلاثة من بينهم قد تعلموا الموسيقى وحازت سوناتا «فانتوي» عندهم شهرة عظيمة. وكانوا يحكون عنها بعد ما يعودون إلى منازلهم، للوالدة الذكية التي دفعتهم إلى تثقيف أنفسهم. والأمهات المهتمات بدروس أبنائهن كنّ في الحفلة الموسيقية يتطلعن باحترام إلى السيدة «فيردوران» وهي تتابع مجموعة العزف من مقصورتها الأمامية. هذه الصبغة المجتمعية الكامنة لدى آل «فيردوران» لم يكن يجسدها سوى واقعتين. فقد كانت السيدة «فيردوران» من جهة تقول عن الأميرة «دوكابرولا»: «آه! هذه ذكية، إنها امرأة ظريفة، وما لا أطيع احتمالاً هم البلهاء، الناس الذين يضجرونني، إنهم يثيرون جنوني». الأمر الذي يخال معه من كان على قليل من رهافة الفكر أن الأميرة «دوكابرولا»، وهي امرأة من عليا القوم، قامت بزيارة السيدة

(١) العبارة تعني بالفرنسية «الوصول في الوقت المناسب» وفي الأصل «السقوط عمودياً في النقطة المطلوبة»، وهو تلاعب لفظي يصعب رده، وقد أترنا الاحتفاظ بما يوحى بشيء من الخطر.

«فيردوران»، بل هي تقوّهت باسمها في أثناء زيارة مؤاساة قامت بها للسيدة «سوان» بعد وفاة زوج هذه الأخيرة وسألتهما إن كانت تعرفهم. فأجاب «أوديت» بلهجة أضحت فجأة حزينة: «كيف تقولين؟» - «فيردوران». فعادت تقول بأسى: «آه! أراني أعلم الآن، لست أعرفهم، أو أنا بالأحرى أعرفهم دون أن أعرفهم، هم جماعة التقيتهم فيما مضى لدى أصدقاء، منذ زمن بعيد، وإنهم على ظرف». وبعدما ذهبت الأميرة «دوكابرارولا»، ودّت «أوديت» لو أنها قالت الحقيقة دون سواها. لكنّ الكذبة الفورية لم تكن نتاج حساباتها بل الكاشف عن صنوف خشيتها ورغباتها. فلم تكن تنكر ما لعلّه كان من اللباقة انكاره بل ما ودّت أن لم يكن حتّى إن انبغى أن يعرف محدثك بعد ساعة أنّ ذلك كان بالفعل. وبعد قليل كانت قد استعادت ثقتها بنفسها وراحت حتّى تستبق الأسئلة بقولها، بغية أن لا يبدو أنّها تخشاها: «السيدة «فيردوران»، ياعجمي، لقد عرفتكم كثيراً، تقول بتصنع التواضع شأن سيّدة كبيرة تقصّ عليك أنّها استقلّت الحافلة الكهربائية. وتقول السيّدة «دوسوفريه»: «لقد كثر الحديث عن آل «فيردوران» منذ حين». فتجيب «أوديت» بابتسامة دوقة مستكبرة: «أجل، يبدو لي بالفعل أنّ الحديث عنهم كثير. ثمة بين الحين والحين أناس جدد من هذا القبيل يحلّون في المجتمع»؛ دون أن يخطر لها أنّها هي من أقربهم عهداً. وأردفت السيّدة «دوسوفريه» تقول: «لقد تناولت الأميرة «دوكابرارولا» عشاءها هناك»، فأجاب «أوديت» وهي تزيد من ابتسامتها: «آه! ليس يدهشني ذلك، فهذه الأمور تبدأ دوماً بالأميرة «دوكابرارولا»، ثم تأتي أخرى غيرها، كالكونتيسة «موليه» مثلاً». وإذا تقول «أوديت» ما تقول، تبدو وكأنّها تزدرى ازدراء عميقاً السيّدتين الكبيرتين اللتين تعودتا استباق الجميع إلى دخول المنتديات المفتوحة حديثاً، وكنت تحسّ في لهجتها أن ذلك إنّما يعني أنّهم لن يفلحوا في وضعها، هي «أوديت» والسيّدة «دوسوفريه» على حدّ سواء، في مثل هذه المراكب.

بعد الإقرار الذي أعلنت فيه السيّدة «فيردوران» عن ذكاء الأميرة «كابرارولا» كانت العلامة الثانية التي تشير إلى أنّ آل «فيردوران» كانوا يعون المصير الآتي أنّهم كانوا يرغبون رغبة شديدة (دون أن يكونوا طلبوا ذلك رسمياً بالطبع) أن يجيئهم الناس الآن للعشاء عندهم بلباس المساء الرسمي؛ كان يمكن الآن تحيّة السيّد «فيردوران» دونما خجل من جانب ابن أخيه، ذلك الذي كان «يحلّ أخيراً في التصنيف».

كان «سانيت» في عداد الذين صعدوا إلى عربتي في «غرانكور»، وسبق فيما مضى أن طرده ابن عمّه «فورشيغل» من منزل آل «فيردوران»، ولكنّه عاد من جديد. كانت عيوبه فيما مضى، على صعيد حياة المجتمعات الراقية، -على الرغم من مزايا عالية المستوى- تقرب أن تكون من نمط عيوب «كوتار»: خجل ورغبة في أن يروق الآخرين وجهود غير مثمرة لبلوغ ذلك. ولئن كانت الحياة ألبست «كوتار»، إن لم يكن لدى آل «فيردوران» حيث لبث إلى حدّ ما على حالة بفضل الإيحاء الذي تمارسه علينا الدقائق الماضية حينما نعود فنلقى أنفسنا في وسط تعودنا، فعلى الأقلّ بين زبائنه وداخل قسمه في المشفى وفي الأكاديمية الطبية، لئن ألبسته مظاهر من البرودة والاستعلاء والرزانة كانت تتزايد وهو يلقي على طلابه الذين يجاملونه تلاعباته اللفظية فأحدثت فجوة حقيقية بين «كوتار» الحالي والقديم، فقد تعاطمت العيوب نفسها على العكس لدى «سانيت» كلّما حاول أن يصطلح. فإذا كان يشعر أنّه يثير في الغالب الملل وأنهم لا يصغون إليه فإنّه عوضاً



عن الإبطاء حينذاك كما لعل «كوتار» كان فعل وشدّ الإنتباه إليه بمظهر السلطة عنده، لم يكن يحاول فحسب أن يطلب العفو عن طابع الجدّة المفرطة الذي يسم حديثه باللجوء إلى لهجة هازلة بل كان يسرّع إلقاءه ويمهّد له السبيل ويلجأ إلى الاختصارات ليبدو أقلّ تطويلاً وأكثر ألفه مع الأشياء التي يتحدّث عنها ويفلح فقط، إذ يجعلها متعذّره الفهم، في أن يبدو مطوّلاً لا ينتهي. لم تكن ثقته بنفسه كثقة «كوتار» الذي كان يجمّد الدم في عروق مرضاه فيجيبون من يمتدحون لطفه في المجتمع قائلين: «إنّه لا يلبث الرجل نفسه حينما يستقبلك في مكتبه، أنت في الضوء وهو بعكس الضوء ويعينيه الثابنتين». فلم تكن تفرض الإحترام وتحسّ أنّها تخفي الكثير من الحياء وأن أقلّ القليل يكفي لحملها على الهرب، و«سانيت» الذي قال له أصدقائه يوماً إنّهُ يفرط في لا ثقته بنفسه والذي كان يرى أناساً يحكم بحقّ أنّهم أدنى منه كثيراً يلفظون يسرّ نجاحات تحجب عنه، «سانيت» ما عاد يباشر قصّة دون أن يتسم لغرابتها مخافة أن لا ترفع الهيبة الجادة من شأن بضاعته إلى الحدّ الكافي. ويمنون عليه بالصمت الشامل أحياناً إذ يولون ثقته طابع الهزل الذي يبدو أنّه هو ملاقيه في ما سيقول. ولكنّ الحكاية تفشل فشلاً ذريعاً. وكان أحد المدعوين بمنّ حياهم الله طيب القلب يمرّر أحياناً لـ«سانيت» تشجيعاً خاصاً ويقرب أن يكون خفياً في ابتسامه استحسان يلفّه إياها خلصة دون أن يشير الانتباه كما لو يمرّر رسالة صغيرة. ولم يكن يبلغ بأحد أن يتحمّل مسؤولية قهقهة تنطلق وأن ينسبها لنفسه علناً. وظلّ «سانيت» وحده، بعد انتهاء الحكاية وفشلها، يتسم لذاته كأنها يتدقّق فيها ولذاته اللذة التي يتظاهر باعتبارها كافية والتي لم يحسّ بها الآخرون. أمّا النحّات «سكي»، وقد دعي هكذا بسبب الصعوبة التي يلقونها في النطق باسمه البولوني، ولأنّه كان يدي علناً منذ أن بدأ يعيش في مجتمع معيّن أنّه لا يريد أن يخلطوا بينه وبين أقارب مرموقين الموقع ولكنهم مملّون إلى حدّ وكثيرون جدّاً، فقد كان، وهو في الخامسة والأربعين وعلى قبح شديد، يدي نوعاً من «الشقاوة» والنزوات الحاملة التي ظلّ يحتفظ بها إذ كان حتّى العاشرة أروع طفل معجزة في العالم ومالك ألباب السيدات جميعاً. كانت السيّد «فيردوران» تزعم أنّه أعمق فناً من «ايلستير». وماكان يشاطر هذا الأخير على آية حال إلا وجوه شبه خارجيّة بحتة، وكانت كافية لتبعث في صدر «ايلستير»، الذي سبق أن التقى «سكي» مرّة واحدة، النفور العميق الذي يثيره فينا، حتّى أكثر من الأشخاص الذين يضادّوننا تماماً، أولئك الذين يشبهوننا على جودة أقلّ والذين ينداح فيهم ما كان الأسوأ عندنا، العيوب التي شفيها منها، فيذكروننا على نحو مزعج بما أمكن أن يبدو عليه في عيون بعض الناس قبل أن نكون أصبحنا مانحن عليه. ولكن السيّد «فيردوران» كانت تعتقد أن «سكي» يملك شخصية أقوى من «ايلستير» لأنّه لم يكن فنّ إلا وكان سهلاً عليه ويقينها أن هذه السهولة كان يمكن أن يبلغ بها حدّ الموهبة لو أنّه بدأ أقلّ كسلًا، بل يبدو هذا الكسل لـ«لمعلّة» موهبة إضافية بما أنّها عكس الشغل الذي تظنّه قسمة الأشخاص الذين لا نبوغ لهم. كان «سكي» يرسم ما تشاء على أزوار الأكمام وعلى القسم العلوي من الأبواب. وكان ينشد بصوت ملحن ويعزف من الذاكرة مضيّفاً على البيانو الانطباع الذي تعطيه الأوركسترا والأمر ناجم أقلّ ما ينبج عن براعته وأكثره عن نشازات في القرار تدلّ على عجز الأصابع أن تدلّ على وجود بوق هنا وكان يقلّده على آية حال بغيّة وإذ يبحث عن كلماته في حديثه ليحمل على الاعتقاد بانطباع غريب مثلما كان يؤخّر أثلاً فثانياً لحنياً يعزفه فيما بعد وهو يقول: «بنغ» كي يشعرك بوجود الآلات النحاسية، كان يعدّ

رائع الذكاء ولكن أفكاره كانت تختصر في الواقع بالنتين أو ثلاثة شديدة الايجاز. فقد كان صمّم، إذ تزعجه سمعته كشخص غريب الأطوار، أن يبرهن أنه رجل عملي واقعي بما بعث لديه تصنعاً ظاهراً لدقة كاذبة وسلامة تفكير زائغة يزيدهما سوءاً أنه لا ذاكرة البتة له وأن معلوماته غير صحيحة على الدوام. ولعلّ حركات رأسه وعنقه وساقيه كانت بدت محببة لو كان بعد في التاسعة بخصل شقراء وقبة دانتيلاً واسعة وحذاء صغير من الجلد الأحمر. ولما كانوا وصلوا قبل الوقت المحدد إلى محطة «غرانتكور» بصحبة «كوتار» و«بريشو» فإنهم تركوا «بريشو» في قاعة الانتظار ومضوا في جولة. وحينما أبدى «كوتار» رغبة في العودة أجاب «سكي» قائلاً: «ولكن لا داعي للعجلة، فالقطار اليوم ليس المحلي بل قطار المقاطعة». وإذا أخذ منه العجب أن يرى الأثر الذي يخلقه في نفس «كوتار» هذا الفارق في الدقة أضاف وهو يتحدث عن نفسه: «أجل، لأن «سكي» مغرم بالفنون ويشكّل عجينة الغضار بظنونة غير عملي. فليس من يعرف السكة أفضل مني». ولكنهم عادوا مع ذلك باتجاه المحطة حينما أبصروا فجأة دخان القطار الصغير وهو مقبل وصاح «كوتار» وقد أطلق صرخة قوية: «لابد أن نجري بأقصى سرعة». وقد وصلوا بالفعل في الوقت المناسب، إذ التمييز بين القطار المحلي وقطار المقاطعة لم يكن إلا من نسج خيال «سكي». وسأل «بريشو» بصوت مدوّ: «ولكن أليست الأميرة في القطار؟» فيما تبدو نظاراته الضخمتان، وهما تلتصمان كالكاسات التي يعلقها أطباء الحنجرة فوق جيبنهم ليضيئوا حنجرة مرضاهم، وكأنما استمدتا من عيني الأستاذ حياتهما فتبدوان، ربّما بسبب الجهد الذي يبذله كي يطابق بينهما وبين رؤيته، حتى في أقلّ اللحظات أهمية، كأنهما تنظران بذاتهما بانتباه متصل وتخدق ثابت خارق. وكان المرض على أيّ حال قد كشف لـ«بريشو»، وهو يسلبه الرؤية شيئاً فشيئاً، عن مواطن الجمال في هذه الحاسة مثلما ينبغي لنا غالباً أن نحزم أمرنا لفراق حاجة ما، كأن نهديها على سبيل المثال، كيما ننظر إليها ونأسف عليها ونأملها باعجاب. «لا لا، لقد صحبت الأميرة حتى «مينفيل» مدعوين لدى السيّد «فيردوران» سيستقلون قطار باريس وذلك لوداعهم. وليس يستحيل أن تكون السيّد «فيردوران» بصحبها إذ كان عليها قضاء بعض الحاجات في «سان مارس»! ولعلّها، وهذه حالها، تسافر معنا ونقطع الطريق جميعنا سوياً ويكون الأمر ممتعاً، وإنما يقع علينا أن نظلّ عيننا مفتوحة في «مينفيل»، والعين المطلوبة! آه! لا بأس علينا، يمكننا أن نقول إنّنا كنّا على شفا تفويت العربة. وحينما رأيت القطار أسقط في يدي. ذلك ما يدعونه الوصول في اللحظة النفسية المناسبة. أرايت ذلك لو فاتنا القطار وتبينت السيّد «فيردوران» أنّ العربات تعود بدوتنا: يالها من لوحة!، يضيف الدكتور قوله، وما كان بعد هذا روعه. «تلك مغامرة غير عادية». وعاد الدكتور يسأل بشيء من الاعتزاز: «هات نرّ، يا «بريشو»، ما عساك تقول في مغامرتنا الصغيرة؟» فأجاب «بريشو» قائلاً: «صديقاً، لو أنكم بالفعل لم يجدوا القطار لكانت وقعة وسخة، كما لعلّ «فيممان» كان قال. أما أنا، وقد شرد ذهني منذ اللحظات الأولى من جرّاء هؤلاء الناس الذين لا أعرفهم، فقد تذكرت فجأة ما سبق أن قاله لي «كوتار» في قاعة الرقص في الكازينو الصغير، وكما لو أنّ حلقة خفية أمكن أن تقرر بين عضو وصور الذاكرة كانت صورة «ألبيرتين» وهي تضغط بنهديها على صدر «أندريه» تصبيني بألم رهيب في القلب. ولم يدم ذاك الألم إذ لم تعد فكرة قيام علاقات ممكنة بين «ألبيرتين» ونساء أخريات تبدو لي ممكنة منذ ما قبل البارحة يوم أثارت «الدعوات» التي وجهتها صديقتي لـ«سان لو» غيرة جديدة في صدري أنستني الأولى. فقد كنت ساذجاً

سذاجة قوم يظنون أن ميلاً إنمّا يستبعد حتماً ميلاً آخر. وفي «أرامبوفيل»، ولما كان القطار مزدحماً، صعد إلى مقصورتنا مزارع بمريته الزرقاء وليس بيده سوى بطاقة من الدرجة الثالثة. وإذا رأى الدكتور أنّه لا يمكن أن ندع الأميرة تسافر معه استدعى مستخدماً وأبرز بطاقته بصفته طبيباً لشركة كبرى للخضوط الحديدية وألزم رئيس المحطة بانزال المزارع. وقد ألم هذا المشهد فؤاد «سانيت» الطيّب وأثار مخاوفه حتّى إنّ ما إن شهد بدايته وخشي من ذلك، من جراء عدد الفلاحين الكبير الواقفين على الرصيف، أن يتخذ حجم ثورة على السلطة تظاهر بأوجاع في البطن وكفى لا يمكن اتهامه بحمل قسم من المسؤولية في فعلة الدكتور العنيفة سلك الممرّ وهو يتظاهر بالبحث عمّا كان «كوتار» يسمّيه «بيوت الماء». ولما لم يجدها أخذ يحدّق في المنظر في الطرف الآخر من السكة. وقال لي يريشو» في حرصه على إبراز مواهبه أمام «مستجد» مثلي: «إن كانت هذه بداياتك لدى السيّد فيرودوران»، فستلاحظ أن ليس من وسط تحسّ أفضل إحساس فيه بـ«حلاوة العيش»، كما كان يقول أحد مخترعي نزعته الهوائية في الفنّ ونزعة اللامبالاة ونزعات أخرى كثيرة رائجة عند سنيّاتنا الصغيرات، عنيت السيّد الأمير «دوتاليران». ذلك أنّه حينما كان يتحدث عن موالي الماضي العظام كان يرى من النباهة ومن قبيل «إضفاء لون العصر» أن يجعل قبل اللقب كلمة «سيّد» فيقول السيّد الدوق «دولاروشفوكو» والسيّد الكاردينال «دوريتز» الذي كان يدعوهُ أيضاً بين الحين والحين: «هذا النضال»<sup>(١)</sup>. في سبيل الحياة المدعو «غوندي» وذاك «البولانجي» المدعو «مارسيك»<sup>(٢)</sup>. وما كان يفوته في يوم أن يدعو «مونتسكيو» من خلال ابتسامته حين يتحدّث عنه: «السيّد الرئيس سوغوندا دومونتسكيو». ولعلّ رجل مجتمع نبيهاً كان تضايّق من هذه الحذلقة التي تفوح منها رائحة «المدرسة». لكنّ ثمة في تصرفات رجل المجتمعات التي لا غبار عليها إذ يتحدث عن أحد الأمراء حلقة أيضاً تكشف النقاب عن طبقة ممّيزة أخرى، تلك التي يضعون فيها قبل اسم «غليوم» كلمة «الامبراطور» والتي يكلمون فيها صاحب الجلالة بضمير الغائب. وعاد «بريشو» يقول في حديثه عن «السيّد الأمير «تاليران»: «آه: هذا لابدّ من مخيّته بمظاهر الاحترام العميق، فإنّه من الأجداد». وقال «كوتار»: «إنّه وسط رائع وستجد فيه شيئاً من كلّ شيء لأنّ السيّد فيرودوران» ليست حصريّة في خياراتها؛ فعلماء مشهورون من أمثال «بريشو» وطبقة الأشراف العليا كالأميرة «شيرباتوف»، هذه السيّد الروسيّة العظيمة صديقة الدوقة الكبرى «أودوكسي» التي تراها حتّى وحيدة في الساعات التي لا يقبل فيها بدخول أحد. فأنّه لما كانت الدوقة الكبرى «أودوكسي» لا تهتمّ بأن تجي الأميرة «شيرباتوف»، التي لم يعد يستقبلها أحد منذ فترة طويلة إلى منزلها حينما لعلّه كان بمقدورها استقبال بعض الناس عندها فقد كانت لا تأذن لها بالجميع إلّا في ساعة مبكّرة جدّاً حينما لا يكون لدى صاحبة السموّ أيّ من الأصدقاء ممّن ربما كان التقاؤه الأميرة غير مستحبّ عنده بقدر ما هو سبب ضيق بالنسبة إليها. ولما كانت السيّد «شيرباتوف» تبادر منذ ثلاث سنوات، حالما تكون فارقت شأن عاملة «مانيكور» الدوقة الكبرى، إلى الذهاب إلى منزل السيّد «فيرودوران» التي أفاقت توتراً من نومها ولا تفارقها من بعد، فإنّه يمكن القول إنّ إخلاص الأميرة كان يتجاوز إلى ما لا حدود حتّى إخلاص «بريشو» مع أنّه كان شديد المثابرة على أيّام الأربعاء تلك التي يلذّه فيها أن يظنّ نفسه، في باريس،

(١) العبارة واردة بالانكليزية على نحو ما يلفظها الفرنسيون «Struggle for Life» وغوندي هو لقب الكاردينال دوريتز.  
(٢) هو «لاروشفوكو» صاحب كتاب «الحكم». أمّا «مونتسكيو» فهو المفكر الفرنسي المعروف الذي عاش في القرن الثامن عشر. وتبدل المقارنة غير مقنعة بين عصر «التمرّد والعصيان» في السابع عشر وعصر الجنرال «بولانجي» في التاسع عشر.

ما يقرب أن يكون «شاتوبريان» في «آبيي أوبوا»<sup>(١)</sup>، وفي الأرياف كان يورث انطباعاً بأنه أضحي معادلاً لما كان يمكن أن يكون عليه لدى السيِّدة «دو شاتلية» ذاك الذي كان يدعوهُ دوماً (بمكر وارتياح الأديب): «السيِّد دو فولتير».

لقد سمح انعدام المعارف لدى الأميرة «شيرباتوف» أن تمحض آل «فيردوران» منذ بضع سنوات إخلاصاً جعل منها أكثر من «مخلصة» عادية، المخلصة النموذج والمثل الأعلى الذي ظنَّته السيِّدة «فيردوران» عسير المنال وراه اليوم، بعد ما بلغت من اليأس، مجسداً في هذه المتطوِّعة الجديدة. وآية كانت الغيرة التي عانت منها «المعلمة» فلم يكن ثمة مثال على أن أكثر المثابرين من بين المخلصين لها لم «يتخلَّوا» عنها مرَّة. فإن أكثرهم ملازمة لبيته كان يقع في حبال رحلة ما، وأكثرهم تعقُّفاً أصاب فرصة طيبة، وأكثرهم صلابة كان يمكن أن تصيبه الوافدة؛ والأقلُّ انشغالاً أن تشغله الثمانية وعشرون يوماً<sup>(٢)</sup>، والأكثر لامبالاة أن يمضي ليغمض عيني والدته المحتضرة. وعبثاً كانت السيِّدة «فيردوران» تقول لهم حينذاك، مقالة الامبراطورة الرومانية<sup>(٣)</sup>، إنها الجنرال الوحيد الذي تجب طاعته، ومقالة المسيح أو القيصِر<sup>(٤)</sup>، إن من أحبَّ أباه وأمه قدر حبَّه لها ولم يكن مستعداً لهجرهما ليتبعها فليس يستحقُّها، وإن أفضل ما يفعلون أن يمكنوا إلى جانبها، هي الدواء الوحيد واللذة الوحيدة. ولكنَّ القدر الذي يروقه أحياناً أن يجعل الأيام الأخيرة في حياتها تتناول كثيراً جعل السيِّدة «فيردوران» تلتقي الأميرة «شيرباتوف». فإذا كانت الأميرة اختصمت مع أسرتها ونفيت من بلادها ولا تعرف من بعد سوى البارونة «پوتبوس» والدوقة الكبرى «أودوكسي» اللتين لا تذهب إلى منزليهما، لأنها ما كانت ترغب لقاء صديقات الأولى فيما لا ترغب الثانية أن تلتقي صديقاتها الأميرة، إلا في ساعات الصباح الأولى حيث السيِّدة «فيردوران» لا تزال بعد نائمة، وإذا لا تذكر أنها مكثت في غرفتها مرَّة واحدة منذ سن الثانية عشرة التي أصيبت فيها ببدء الحصبة، وكانت أجابت في ٣١ كانون الأول (ديسمبر) السيِّدة «فيردوران» التي سألتها في قلقها من المكوث وحدها إن لم يكن باستطاعتها البقاء للنوم عندها بصورة مباحة وعلى الرغم من يوم رأس السنة: «ولكن ما الذي يحول دون أن أفعل ذلك في أي يوم؟ وفي هذا اليوم على آية حال يبقى الناس بين أسرهم وإذ أنت أسرتي»، وإذ تعيش في نزل وتبدله حينما يخلي آل «فيردوران» منزلهم وتلحق بهم في أماكن اصطيفاهم فقد حققت للسيِّدة «فيردوران» أفضل ما يكون التحقيق بيت «فيني» القاتل:

«وحديك أنتِ بدوت لي بصورة ما نبحت دوماً عنه»

إلى حدِّ أن رئيسة الحلقة الصغيرة سألتها، وهي راغبة أن تضمن لنفسها «إحدى المخلصات» حتَّى في موتها، وأن تأمر من من الاثنين تموت أخيراً بأن تدفن إلى جانب الأخرى. كانت الأميرة «شيرباتوف» تخرص إزاء الغرباء -الذين لا بد أن نحصي بينهم على الدوام ذاك الذي يشقُّ علينا أكثر ما يشقُّ أن يزدرينا، عنينا ذاتنا- أن تصوِّر صداقاتها الثلاث الوحيدة -على الدوقة الكبرى وآل «فيردوران» والبارونة «پوتبوس»- على أنها

(١) حيث كان منتدى السيِّدة «ريكاميه» الشهيرة.

(٢) المدة التي يقضيها المدعوون لخدمة الاحتياط ويحاولون التأجيل باللجوء إلى معارفهم أو إلى شهادات طيبة.

(٣) «أغريينا» زوجة «كلادديوس» ووالدة «نيرون».

(٤) غليوم الثاني الذي كتب في سجل دار البلدية في «ميونخ» (١٨٩١) العبارة التالية: «مشيئة الملك رأس القوانين».

الوحيدة لا التي أفسحت لها كوارث خارجة عن إرادتها مجال البروز من وسط الدمار الذي حلّ بكلّ ما بقي، بل تلك التي جعلها الاختيار الحرّ تفضّلها على ما عداها والتي جعلها ميل معيّن إلى العزلة والبساطة تقتصر عليها. «لست أرى أحداً غيرهم»، تقول وهي تؤكد على الطابع الذي لا يلين لما كان يبدو قاعدة يفرضها المرء على نفسه أكثر منها ضرورة تفرض نفسها عليه، وتضيف قولها: «لست أتردد إلا على ثلاثة بيوت»، كهؤلاء المؤلفين الذين يعلنون أن مسرحيتهم لن تمثّل إلا ثلاث مرّات إذ هم يخشون أن لا يمكنهم بلوغ الرابعة. سواء أصدّق السيّد والسيدة «فيردوران» ذلك التخييل أم لا فقد ساعدنا الأميرة على إدخال ذلك في روع الخلص. وكان أولئك متيقّنين في الآن نفسه أن الأميرة اختارت من بين آلاف المعارف الذين يتوافرون لها، آل «فيردوران» وحدهم وأن آل «فيردوران» الذين يخطب ودّهم كبار الارستقراطيّين جميعاً لم يرتضوا إلا استثناء واحداً جاء لصالح الأميرة.

ما كانت الأميرة، وهي في نظرهم تفوق إلى حدّ كبير وسطها الأصليّ كي لا تحسّ بالملل فيه، ما كانت تجد بين الكثيرين مَن كان يمكن أن تخالطهم إلا آل «فيردوران» وحدهم ممّعين، وفي المقابل لم يقبل هؤلاء، وقد صمّموا أذنانهم دون محاولات كامل الارستقراطيّين الموجهة إليهم، إلا باستثناء واحد لصالح سيّدة كبيرة أوفر ذكاء من مثيلاتها هي الأميرة «شيرباتوف».

كانت الأميرة بالغة الثراء، فقد كانت لها في حفلات العروص الأولى كافة مقصورة كبيرة تصطبح إليها، بعد استئذان السيّدة «فيردوران»، الخلص وحدهم ولا أحد سواهم. كانوا يتدلّون على تلك المرأة الغامضة الشاحبة التي شاخت دون بياض في شعرها، بل احمرار بالأحرى كما هي حال بعض ثمار الأسيجة المعمّرة المتكرّشة. ينظرون باعجاب إلى اقتدارها وتواضعها في آن معاً إذ يصحبها على الدوام عضو في الأكاديمية هو «يريشو» وعالم مشهور هو «كوتار» وأوّل عازف بيانو آنذاك والسيّد «دوشارلوس» فيما بعد، ويجهد دوماً مع ذلك في حجز متقصد لأكثر المقصورات عتمة وتبقى في ركنها القصي ولا تهتمّ بأمر القاعة البتّة وتعيش حصراً للمجموعة الصغيرة التي تنسحب قبل نهاية العرض قليلاً تتبع هذه السلطانة الغريبة التي لا تخلو من جمال خجول فائن متعب. ولئن كانت السيّدة «شيرباتوف» لا تنظر إلى القاعة وتلبث في العتمة فلمحاولة أن تنسى أن ثمة عالماً حياً تشتهي به شغف ولا تستطيع أن تعرفه؛ فقد كانت «العصبة» المجتمع «في مقصورة»، كانت بالنسبة إليها ما هو بالنسبة إلى بعض الحيوانات التيسّ الجثي تقريباً في مواجهة الخطر. على أن الميل إلى العجّة والغربة الذي يعتل في صدور أرباب المجتمع كان يدفعهم ربّما إلى إيلاء هذه المجهولة التي تكتنفها الأسرار انتباهاً أكبر ممّا يولون مشاهير المقصورات الأولى الذين يقبل كلّ إلى زيارتهم. كانوا يتخيلونها مختلفة عن الأشخاص الذين يعرفونهم وأن ذكاء خارقاً مقروناً بطيبة كهنية كانت تمسك من حولها بذلك الوسط الصغير من الناس البارزين. كانت الأميرة إن حدّثوها عن أحدهم أو قدّموه لها مرغمة على تكلف فتور عظيم للابقاء على وهم كرهها للعالم. بيد أن بعض الجدد كانوا يفلحون بمساندة «كوتار» أو السيدة «فيردوران» في التعرف إليها وكانت نشوتها بمعرفة أحدهم تبلغ حدّاً تنسى معه خرافة العزلة المتعمدة وتصرف إلى حدّ الجنون من جهداها في سبيل الوافد الجديد. فإن كان شديد الضحالة عجب كلّ منهم. «أي أمر غريب هو أمر الأميرة التي

لا تبغي التعرف بأحد وتبادر إلى استثناء واحدٍ قليل التميز إلى هذا الحد! لكن هذه المعارف المثيرة كانت نادرة والأميرة تعيش قابعة بين الخُصُص.

كان «كوتار» يقول: «سألتقيه نهار الأربعاء في منزل آل «فيردوران» أكثر من قوله «سألتقيه نهار الثلاثاء في المجمع العلمي». كان يتحدث كذلك عن أيام الأربعاء وكأنما عن شغل يساويه أهمية وحتمية. وكان «كوتار» على أية حال من أناس قل أن يسعى إليهم الآخرون ويرون واجباً ملحاً في الذهاب إلى دعوة كما لو تشكل أمراً، كدعوة عسكرية أو قضائية. كان لا بد أن تستدعيه زيارة هامة جداً كيما يتخلى عن آل «فيردوران» نهار الأربعاء، والأهمية بأية حال تتعلق بصفة المريض أكثر منها بخطورة المرض، فـ«كوتار»، وإن كان رجلاً طيب القلب، كان يتخلى عن حلاوة يوم الأربعاء لا من أجل عامل ألمت به أزمة قلبية بل من أجل رشح أصاب وزيراً. على أنه كان في حالة كهذه يقول لزوجته: «اعذريني لدي السيّد «فيردوران» والفتية إلى أي سائل متأخراً. ولعل سيادته كان استطاع انتقاء يوم آخر ليصاب بالرشح». وذات أربعا قطعت فيه طبائعتهم العجوز وريد ذراعها، وكان «كوتار» ارتدى السموك للذهاب إلى منزل آل «فيردوران»، فارتفع بمنكبيه حينما سأله زوجته وجلة إن لم يكن يستطيع تضميد الجريحة وصاح بلهجة نائحة: «ولكني لا أستطيع يا «ليوتنين»، فأنك ترين أنني وضعت صدرتي البيضاء. وأرسلت السيّد «كوتار»، كي لا يضيق زوجها ذراعاً بها، في طلب رئيس العيادة بالسرعة القصوى. وكان هذا الأخير قد استقل سيارة ليمضي بسرعة أكبر وإذا دخلت إلى الباحة لحظة كانت سيارة «كوتار» تجمع الخروج لتقله إلى منزل آل «فيردوران» فقد أضاءوا خمس دقائق في التحرك إلى الأمام والخلف. وشعرت السيّد «كوتار» بضيق من أن يرى رئيس العيادة معلّمة في ثياب السهرة. وكان «كوتار» يتعالى صراخه جرّاء تأخره، وربما بسبب تبكيت ضميره ومضى بمزاج مقيت اقتضاء سائر متع نهار الأربعاء كي يفلح في تبديده.

وإن سأل أحد الزبائن «كوتار» قائلاً: «هل تلتقي أسرة «غير مانت» أحياناً؟» كان الأستاذ يجيب باصفي نية في العالم: «ربما ليس بالضبط آل «غير مانت»، لست أدري. ولكنني ألتقي كل أولئك القوم لدي أصدقاء لي. لقد سمعتم بالتأكيد عن أسرة «فيردوران» فأنهم يعرفون سائر الناس. ثم إنهم ليسوا على الأقل قوماً متأنفين تهاوت إمكاناتهم، إذ لديهم ما يكفي ذلك. فهم يقدرّون بعامة أن السيّد «فيردوران» ثرية بما يبلغ خمسة وثلاثين مليوناً. خمسة وثلاثون مليوناً، وبحك! ذلك رقم لا يستهان به. وهي لذلك لا تهتم بما تصرف وتتكلف. كنت تحدّثني عن الدوقة «دوغير مانت» وسوف أقول لك الفارق: إن السيّد «فيردوران» سيّد كبيرة والدوقة «دوغير مانت» يؤس كلّها على الأرجح. وإنك تدرك الفارق، أليس كذلك؟ وفي جميع الأحوال، وسواء ذهب آل «غير مانت» أم لا إلى منزل السيّد «فيردوران» فإنها تستقبل ما كان أفضل، من آل «شيرباتوف» و«فورشفيل» ومثلهم كثير، أناس من أرفع المستويات وكامل طبقة النبلاء في فرنسه و«نافار» وتراني أتحّدث إليهم حديث النّدّ للنّدّ. ثم إن هذا النمط من الناس يطيب له أن يبحث عن أمراء العلم، يضيف قوله بابتسامه اعتزاز مطمئنة رسمها على شفتيه شعور بالرضى والتعالي، لا لأن العبارة التي قصرت فيما مضى على أمثال «بوتان» و«شاركو» كانت تنطبق عليه الآن، بل لأنه يعرف أخيراً كيف يستخدم كما ينبغي

أن يفعل سائر العبارات التي تقرّها العادة والتي أصبح يملك ناصيتها بعد ما سبر أغوارها فترة طويلة. لذلك كان «كوتار» يضيف بعد ما ذكر لي الأميرة «شير باتوف» في عداد الأشخاص الذين تستقبلهم السيّدة «فيردوران»، يضيف وهو يغمز بعينه: «فأنت ترى نمط الدار وتترك ما أود أن أقول؟» وهو يود أن يقول ما كان أكثر أناقة. على أن استقبال سيّدة روسيّة لا تعرف سوى الدوقة الكبرى «أودوكسي» كان أمراً هيناً. لكنما كان يمكن حتّى أن لا تعرفها الأميرة «شير باتوف» دون أن يضعف الرأي الذي يحمله «كوتار» بخصوص أرفع درجات الأناقة التي يملكها متندى آل «فيردوران» وغبطته أن يرحب به فيه. فليس الروعة التي يخيّل إلينا أن من نعاشرهم من الناس يرتدونها أكثر التصاقاً بهم من روعة شخص المسرح الذين لا يجدي على الإطلاق أن يصرف مدير على ملابسهم مئات ألوف الفرنكات لشراء بزات أصيلة ومجوهرات حقيقة لن تخلف أي أثر في حين يعطي عنهم زخرفي كبير انطباعاً بالغنى يفوقها ألف مرّة بذخاً بتسليط شعاع صناعي على صدار من قماش غليظ نثرت فوقه قطع زجاجية وعلى معطف من ورق. وهذا رجل أمضى حياته بين ظهراني عظماء الأرض وما كانوا في نظره سوى أقارب مملّكين أو معارف يولونك سأمّاً لأنّ عادة اكتسبها في المهّد جرّدتهم من أية مهابة في عينيه. ولكنّما كان كافياً في المقابل أن تنضاف تلك المهابة بفعل المصادفة إلى أشخاص مغمورين كأكثر ما يكون كيما يكون عاش قوم لا يحصون من أمثال «كوتار» وقد بهرتهم نساء ذوات ألقاب خيّل إليهم أنّ متداهن كان مركز الأناقات الأرستقراطية وما كنّ حتّى ما كانت عليه السيّدة «دوفيلاريزيس» وصديقاتها (أي سيّدات كبيرات فقدن مكانتهنّ وما عادت الطبقة الأرستقراطية التي تربّت وليّاهن تتردّد عليهنّ)؛ لا، أولئك اللاتي شكّلت صداقتهنّ اعتزاز الكثيرين من الناس فما من أحد، لو نشر هؤلاء الناس مذكراتهم وذكروا فيها أسماء هاتيك النساء وأسماء من كنّ يستقبلنهنّ، يستطيع أن يعرف هويتهنّ، لا هوية السيّدة «دوكامبرمير» ولا السيّدة «دوغيرمانت». ولكن ما هم! فإن من كان مثل «كوتار» يملك هكذا بارونته أو مركيزته التي هي في نظره «البارونة» أو «المركيزة» مثلما هي عند «ماريغو» البارونة التي لا يذكر اسمها البتّة والتي لا يخطر حتّى لنا البتّة أنّ كان لها اسم ذات يوم، ويعتقد «كوتار» أنّه يجد فيها اختصاراً للأرستقراطية التي يتجهل تلك السيّدة - ويزيد من اعتقاده أنّه كلّما كانت الألقاب موضع شكّ كلّما شغلت التيجان مكاناً أكبر على الكؤوس والفضيات وورق الرسائل والحقائب. كثيرون من أمثال «كوتار»، ممن ظنّوا أنّهم قضوا حياتهم في قلب حيّ «سان جيرمان»، إنّما فتنت خيالهم الأحلام الإقطاعيّة أكثر من أولئك الذين سبق بالفعل أن عاشوا بين الأمراء تماماً كما هي حال التاجر الصغير الذي يذهب أحياناً يوم الأحد لزيارة أبنية من «العصور الغابرة» فإنّما يوافيه أكثر ما يوافيه شعور بالعصر الوسيط أحياناً في الأبنية التي تعود كلّ حجارتها إلى عصرنا والتي دهنت قبائها على يد تلاميذ «فيولييه لودوك» باللون الأزرق ونشر عليها نجّحات ذهبيّة. «ستكون الأميرة في «مينفيل» وستسافر معنا. ولكنّي لن أعرف بكم في الحال، فالأفضل أن تقوم السيّدة «فيردوران» بذلك، ما لم تتفق لي صلة وصل أخرى، فاعتبروا إذ ذاك أنّها لن تفلت من يدي». وقال «سانيت» الذي تظاهر بأنّه كان مضى يتفسّح: «عمّ كنت تتحدّث؟» فقال «بريشو»: «كنت أذكر للسيّد كلمة تعرفها تماماً لمن هو في نظري أول «جماعة نهاية القرن» (أقصد الثامن عشر) وهو المدعوّ «شارل مورس» رئيس إقطاعية «بريغور»<sup>(١)</sup>. فقد كان وعد في البداية أن يكون صحيفياً ممتازاً، ولكنه انتهى نهاية سيّئة، أعني أنّه أصبح وزيراً!

(١) تاليران.

فإن في الحياة تقلبات تسوء المرء. وكان علي أية حال سياسياً قليل التحرج ولا يريكه، بما يبدي من صنوف تعالي السيد الكبير الأصيل، أن يعمل في ساعات فراغه دون أن يجني من ذلك شيئاً، وهو ما ينبغي التنويه به إذ مات وهو يلبس لبوس يسار الوسط.

في «سان بيير ديزيف» صعدت فتاة رائعة لم تكن لسوء الحظ من الجماعة الصغيرة. وما كنت أستطيع صرف النظر عن بشرتها التي بلون زهر المانيوليا وعينيهما السوداوين والهندسة الرائعة المديدة لقلب جسمها. وما أن انقضت ثانية حتى ودت فتح زجاج النافذة فالطقس كان حاراً بعض الشيء في المقصورة وإذ لم تشأ أن تستأذن الجميع وكنت الوحيد الذي لا يرتدي معطفاً، فقد قالت لي بنبرة سريعة ريانة ضاحكة: «ليس يزعجك الهواء يا سيد؟» وددت لو أقول لها: «تعالي معنا إلى منزل آل «فيردوران»، أو «أخبريني عن اسمك وعنوانك». فأجبت قائلاً: «لا، ليس يزعجني الهواء يا آنسة». وقالت بعد ذلك، ودون أن تغادر مكانها: «والدخان، أليس يزعج أصدقاءك؟» وأشعلت لغافة. وفي المحطة الثالثة نزلت بقفزة واحدة. وفي الغد سألت «ألبيرتين» من يمكن أن تكون. فإني، إذ ظننت بغباء أن المرء لا يحب سوى أمر واحد، إذ أخذتني الغيرة من موقف «ألبيرتين» من «روبير»، كنت مطمئن النفس بخصوص النساء. قالت «ألبيرتين»، وأظنها فعلت بصدق كبير، إنها لا تعلم، فصرخت قائلاً: «كم أود لقاءها ثانية!» فتجيب «ألبيرتين»: «اطمئن بالأ، فالتناس يلتقون ثانية على الدوام». وكانت على خطأ في هذه الحالة الخاصة، فما عدت التقيت ولا عرفت هوية الفتاة ذات السجارة. وسوف نرى لاحقاً لماذا اضطرت أن أكف فترة طويلة عن البحث عنها. ولكني لم أنسها، وكثيراً ما يتفق لي إذ أفكر فيها أن تملكني رغبة جامحة. ولكن عودات الرغبة هذه تضطرننا إلى التفكير بأنه لا بد لنا، إن أردنا التقاء هاتيك الفتيت ثانية بالمتعة ذاتها، من العودة أيضاً إلى السنة التي تلتها مذ ذاك عشر أخريات خبت في اثناهما نضارة الفتاة. فإننا نستطيع أحياناً التقاء شخص ثانية، لا أن نلغي الزمن، وكل ذلك إلى اليوم اللا متوقع الحزين كليلة من ليالي الشتاء حيث لا نبحت من بعد عن تلك الفتاة ولا عن أخرى غيرها، وحيث يبلغ بك حتى أن تخيفك اللقيا. فإنك لا تحس من بعد بما يكفي من الجاذب لثمتع ومن القوة لتحب. وليس يعني ذلك أننا عاجزون بالمعنى الحقيقي للكلمة. فإنه بشأن الحب ربما أحببنا أكثر من أي وقت مضى. ولكننا نحس أنها عملية تتجاوز كثيراً النزر اليسير مما نحفظ به من قوى. فإن الراحة الأبدية قد وضعت فواصل زمنية لا تستطيع فيها الخروج أو الكلام. وإن وضع قدمك على الدرجة المناسبة نجاح كمثال أن لا تخطئ القفزة الخطيرة. فأن تراك في حالتك هذه الفتاة التي تحب حتى إن احتفظت بوجه شبابك وبكامل شعورك الشقاء! ليس يستطيع المرء من بعد تحمل تعب مماشاة الشباب. وليكن ما يكون إن الشهوة الجنسية تضاعفت عوضاً عن أن تنطفئ فإننا نجني لها بامرأة لا نهتم بأن نحسن في عينيها ولن تقاسمنا فراشنا إلا ليلة واحدة ولن نعود فلنقاها في يوم.

وقال «كوتار»: «لا بد أنهم بعد بدون أخبار عن عازف الكمان». فقد كان حدث الساعة في العشيرة الصغيرة هجر عازف الكمان المفضل لدي السيدة «فيردوران». وكان يمضي خدمته العسكرية بالقرب من «دونسيير» ويحيي ثلاث مرات في الأسبوع للعشاء في «لاراسيلير» إذ هو مأذون حتى منتصف الليل. لكن



الخلص لم يفلحوا للمرة الأولى قبل البارحة في اكتشافه في الحافلة، وافترضوا أنه لم يلحق بها. وبعثا أرسلت السيّد «فيردوران» من ينتظر الحافلة التالية ثم الأخيرة وعادت العربة فارغة. «لقد أودع السجن بالتأكيد، فليس من تفسير آخر لهربه. وأنت تدري، ويحك، أنه يكفي مع هؤلاء الفتيان في مهنة العسكر مساعد واحد شكس». وقال «بريشو»: «سوف يزيد من جرح كرامة السيّد «فيردوران»، إن تخلى هذا المساء أيضاً، أن مضيفتنا المحبوبة تستقبل بالضبط على العشاء للمرة الأولى الجيران الذين أجروها «لاراسبيلير»، المركيز والمركيزة «دوكاميرمير». وصاح «كوتار» قائلاً: «المركيز والمركيزة «دوكاميرمير»، في هذا المساء ولكني ما علمت عن ذلك شيئاً. كنت أعلم بالطبع مثلكم جميعاً أنهما لا يبدآن في يوم ولكني ما علمت أن الأمر قريب إلى هذا الحد». وقال وهو يلتفت صوبى: «يا عجبى، ما الذي قلته لك: الأميرة «شيرباتوف» والمركيز والمركيزة «دوكاميرمير». وبعد ما ردّد تلك الأسماء وهو يهدد النفس بأنغامها قال لي: «ترى أننا نبذل في ذلك جهوداً طيبة. ومهما يكن فإنك في بداياتك تصيب الهدف في الصميم. وسوف تتوفر هنا مجموعة استثنائية في تألقها». وأضاف وهو يستدير نحو «بريشو»: «لا بد أن المعلمة تستشيط غيظاً وقد آن الآن لتقبل ونمد لها يد العون». فحنن أن أقامت السيّد «فيردوران» في «لاراسبيلير» أخذت تتظاهر لإزاء الخلص أنها بالفعل ملزمة ومغتمّة من جرّاء دعوة أصحاب المنزل مرة واحدة. فقد تتوافر لها هكذا شروط أفضل في السنة التالية، تقول، وهي لا تقدم عليها إلا لمصلحة. ولكنها تزعم أن بها هلعاً عظيماً وتتصوّر وحشاً في هذا العشاء برفقة أناس ليسوا في المجموعة الصغيرة إلى حدّ كانت ترجى معه دوماً ذاك العشاء. وكان إلى ذلك يعث الذعر في صدرها للأسباب التي كانت تعلنها وهي تبالغ فيها، إن هو يفتنها من جانب آخر لأسباب سنوية تفضل السكوت عنها. لقد كانت إذا نصف صادقة وتظنّ العشيرة الصغيرة شيئاً فريداً في العالم وواحدة من تلك المجموعات التي يقتضي تشكيل مثلثتها قروناً إلى حدّ أنها كانت ترجى لفكرة أن يلجأ أناس من الريف يجهلون الرباعية والأساتذة ولا يسعهم القيام بالقسم الخاص بهم في «تخت» المحادثة العامة ويستطيعون بحضورهم إلى منزل آل «فيردوران» تخريب أحد أيام الأربعاء الشهيرة، هذه الروائع التي لا تضاهى والسريعة العطب الشبيهة بزجاجيات البندقية التي تكفي نغمة ناشرة لتعطيمها. وكان السيّد «فيردوران» قد قال: «لا بد أن يكونوا إلى ذلك أكثر الناس مناهضة لـ «دريفوس» وحباً للجيش». وأجابت السيّد «فيردوران»: «أما بهذا الخصوص فالأمر عندي سواء، فإنهم يتحدثون عن تلك القصة منذ فترة ليست بالقصيرة»، ولعلها، وهي صادقة في مناصرتها «دريفوس»، لعلها ودّت أن تجد في رجحان منتداها الدريفوسى النزعة مكافأة مجتمعية. إلا أن الدريفوسية كانت لها الغلبة على الصعيد السياسي لا على الصعيد المجتمعي.

فقد لبث «لابوري» و«ريناك» و«بيكار» و«زولا» في نظر رجال المجتمع من أصناف الخونة الذين لا يمكن إلا أن يبعدهم عن النواة الصغيرة. لذلك كانت السيّد «فيردوران» حريصه على العودة إلى الفن بعد هذه الغزوة في دنيا السياسة. ومن ناحية أخرى ألم يكن «داندي» و«دوبوسى» في موقع غير مريح بالنسبة إلى القضية؟ فقالت: «بخصوص القضية، ما علينا إلا أن نضعهم إلى جانب «بريشو» (وكان الجامعي هو الوحيد بين الخلص الذي انحاز إلى جانب ضباط الأركان، وقد خفف ذلك كثيراً من مكانته في تقدير السيّد «فيردوران»). فلنسا ملزمين بالتحدث أبداً عن قضية «دريفوس». لا، الحقيقة أن آل «كاميرمير» يزعمونني». أما

بالنسبة إلى الخُص، وهم تستثيرهم رغبتهم المكتومة في التعرف إلى آل «كامبرير» بقدر ما يخدمهم الانزعاج المتكلف الذي تقول السيِّدة «فيردوران» إنها تعاني منه في استقبالهم، فكانوا يردُّون كلَّ يوم في حديثهم إليها الحجج الرديئة التي كانت تقدِّمها هي في صالح تلك الدعوة ويجهدون في جعلها دافعة لا ترد. كان «كوتار» يردُّ قوله: «احزمي أمرك نهائياً تحسلي على تنازلات في الإيجار، فهم يدفعون للبستاني وتتصرفين أنت بالمرج. إن ذلك كله يساوي إنزعاجك سهرة واحدة وما حديثي في ذلك إلا من أجلك»، يضيف قوله، مع أن قلبه خفق ذات مرة لاقى فيها في الطريق وهو داخل عربة السيِّدة «فيردوران» عربة السيِّدة العجوز «دوكامبرير»، وأنه على وجه الخصوص أذلَّ في نظر مستخدم السكَّة الحديدية حينما كان يقف في المحطة بالقرب من المركز. ولما كانت أسرة «دوكامبرير» تعيش بعيداً جداً عن الحركة المجتمعية كيما يمكنها حتى الارتياح بأن بعض النساء الأنيقات كنَّ يتحدثن عن السيِّدة «فيردوران» بشيء من الاعتبار، فقد كانوا يتصورون أن هذه السيِّدة امرأة لا يمكنها أن تعرف غير المتشردين وربما لم تكن حتى متزوجة زواجاً شرعياً وأنها فيما يخص الناس «الكريمي المحتد» لن تلتقي غيرهم في يوم. ولم يسلّموا بأمر تناول العشاء عندها إلا ليكونوا على علاقة طيبة بمستأجرة يأملون عودتها لمواسم كثيرة، ولا سيما بعدما علموا في الشهر الفائت أنها ورثت الكثير من الملايين. وكانوا يستعدون لليوم المحتوم بصمت ودون مزحات قليلة الذوق. أمَّا الخُص فما عادوا يأملون أن يحلَّ في يوم لكثرة ما سبق أن حدّثت السيِّدة «فيردوران» في حضرتهم تاريخه الذي تغيره دوماً. كانت تلك القرارات الكاذبة تهدف لا إلى التظاهر بالازعاج الذي يسببه لها هذا العشاء فحسب، بل إلى انتظار محيرٍ تفرضه على أعضاء المجموعة الصغيرة الذين يقطنون في الجوار ويميلون أحياناً إلى التخلي عنها. وما ذلك لأن «المعلمة» حزرت أن «اليوم العظيم» كان يتمتعهم بقدر ما يتمتعها بل لأنها كان يمكن، بعدما أقتنعهم بأن ذاك العشاء كان في نظرها من أشد أعمال السخرة، أن تستنهض إخلاصهم. «لن تدعوني وحدي في مواجهة هؤلاء الصينيين! ينبغي على العكس أن نكون كثيرين لتحمل الملل. لن يسعنا بالطبع التحدث عن شيء يشوقنا. ما باليد حيلة! سوف يكون يوم أربعاء فاشل».

وأجاب «بريشو» موجّهاً حديثه إليّ: «بالفعل، أعتقد أن السيِّدة «فيردوران»، وهي ذكية جداً وتعدّ أيام أرباعها بأناقة عظيمة، لم تكن تخرص كثيراً على استقبال هؤلاء النبلاء الريفيين الذين من سلالة عريقة ولكنهم لا نباهة لديهم. فلم تستطع أن تقرّر دعوة المركيزة الوريثة فاكتفت بالابن والكنت. وقال «كوتار» بابتسامة ظنَّ أنه يجدر به أن يضمّنّها شيئاً من المجون والركة المتكلفة على الرغم من أنه يجهل إن كانت السيِّدة «دوكامبرير» جميلة أم لا: «ماذا! سنلتقي المركيزة «دوكامبرير»؟ ولكنّ لقب المركيزة كان يوقظ في نفسه صوراً رائعة غرامية. وقال «سكي» الذي كان التقاها مرّة كان يتنزه فيها مع السيِّدة «فيردوران»: «آه! إنني أعرفها». وقال الدكتور «لست أعرفها بمعنى الكتاب المقدس؟ قال وهو يرسل نظرة مشبوهة من تحت نظارته، وكانت تلك إحدى مزحاته المفضّلة وقال لي «سكي»: «إنها ذكيّة». وعاد يقول إذ يرى أنني لا أتفوه بكلمة ويشدّد وهو يبتسم على كل كلمة: «بالطبع هي ذكيّة وليست ذكيّة وتفتقر إلى التعليم وهي طائشة ولكنها تتمتع بغريزة الأشياء الجميلة. إنها تسكت ولكنها لن تفوه بحماقة في يوم. ثم إن لها لون بشرة جميلاً». وأضاف قوله وهو يطبق عينيه نصف إطباقه كما لو ينظر إليها وهي تقف إزاءه وقفة الجليس: «ولعله رسم كان

من المثير إيجازه». ولما كنت أفكر بما يناقض تماماً ما كان «سكي» يعبر عنه بفيض من التدرجات الدقيقة فقد اكتفيت بقولي إنها شقيقة مهندس مرموق جداً يدعى السيد «لوغراندان». وقال لي «بريشو»: «ها أنت ترى، سوف يعرفونك بامرأة جميلة وليس يعلم أحد ما قد ينجم عن ذلك. فلم تكن «كليوباترا» حتى سيّدة كبيرة، بل السيّدة العادية، السيّدة الهيّنة الطائشة المزعجة التي نجد لها لدى «ميلاك»، وهيا انظر إلى النتائج، لا بالنسبة إلى ذلك المغفل «أنطونيوس» فحسب، بل على صعيد العالم القديم». فأجبت: «سبق أن عرفت بالسيّدة «دوكامبرمير». - «فستكون إذاً في بلاد تعرفها». وأجبت قائلاً: «سوف يزيد من سعادتي بلقاءها أنها كانت وعدتني بكتاب لكاهن «كومبريه» السابق حول أسماء الأماكن في هذه المنطقة وسوف يسعني أن أذكرها بما وعدت. وإني أعتّم بهذا الكاهن وبالشقاكات والأصول». وأجاب «بريشو»: «لا تبالي في الوثوق بتلك التي يشير إليها. إن الكتاب الذي في «لاراسيلير» والذي تلهيت بتقليب صفحاته لا يساوي شيئاً ذا قيمة وهو محشو بالأخطاء، وسوف أعطيك مثلاً عن ذلك. فكلية «bricq» تدخل في تكوين عدد من أسماء الأماكن الممكنة في المناطق المحيطة بنا. وقد خطرت لرجل الدين الطيّب فكرة غريبة إلى حد ما قوامها أنها مستقاة من «briga» وتعني مرتفع والمكان المحصن. وهو يراها قبلاً في الأقوام السيلتيّة: «لاتوبريج» و«نيميتوبريج»، الخ، ويلاحقها حتى السماء مثل «بريان» و«بريون»، الخ. نعود إلى المنطقة التي يسرنا اجتيازها الآن برفقتك، فـ«بريكبوسك» تعني حينذاك حرج المرتفع و«بريكفيل» مسكن المرتفع و«بريكبيك» التي سنتوقف فيها بعد قليل قبل الوصول إلى «مينفيل» المرتفع قبل الساقية. وليس من ذلك شيء إطلاقاً من جرّاء أن «bricq» هي الكلمة الزوجية القديمة التي تعني بكلّ بساطة «جسر». وكذلك «fleur» التي يجهد محمّي السيّدة «دوكامبرمير» جهداً عظيماً في إلحاقها باللفظات الاسكندنافية «floi» و«flo» تارة وطوراً بالآيرلندية «ae» و«aer»، فهي على العكس كلمة «fford» الدانمركية وتعني «مرفأ» لا ريب في ذلك. وكذلك يعتقد الكاهن الطيّب أن محطة «سان مارتان لوفيتو» التي تجاور «لاراسيلير» تعني «سان مارتان لوفيو» (Vetus) (١). والأكيد أنّ كلمة «Vieux» لعبت دوراً كبيراً في أسماء بلدان هذه المنطقة. وكلمة «Vieux» (مسن - قديم) مشتقة بعامة من «Vadum» وتعني مخاضة، مثلما هو المكان المسمّى «ليه فيو»، وهو ما كان الانكليز يدعون «ford» (أكسفورد، هيرفورد)، ولكن «فيو» (Vieux) مشتقة في هذه الحالة الخاصة لا من (Vatus) بل من Vastatus وتعني المكان الخرب العاري. ولديك على مقربة من هنا «سوئفاست» (Sottvast) أي «خربة سيئول» و«بريلفاست» أي «خربة بيرولد». وإن ما يزيد يقيني من خطأ الكاهن أن «سان مارتان لوفيو» سميت فيما مضى «سان مارتان دو غاست» وحتى «سان مارتان تيرغات». ولكن حرفي «v» و«g» في هذين الكلمتين حرف واحد، فيقولون خرب وكذلك أتلّف، والأرض البور والمقفرة تحمل ذلك المعنى نفسه... و«تيرغات» هي إذن «تيرافاستا». أمّا بخصوص «سان مارس»، وهي بالأمر «سان ميرد» (٢) (وملعون كلّ من ساء ظنّه)، و«سان ميداردوس»، وهي تارة «سان ميدار» وطوراً «سان مارد» و«سان مارك» و«سانك مارس» وحتى «دماس». ويجب أن لا يغيب عنا على أية حال أن أمكنه قريبة جداً من هنا تحمل اسم «مارس» هذا إنما تثبت فحسب أصلاً وثنيّاً (إله الحرب مارس) ظلّ حياً في هذه المنطقة ولكن الرجل القديس يرفض الإقرار بالأمر. إن

(١) أي القديم من Vetus فيما الأصل Le Vetus هي من اللاتينية Vastatus وتعني خراب - قفر.  
(٢) «سان ميرد»: القسم الأخير من الكلمة يعني خ... في العربية، وهو ما يفسّر الملاحظة اللاحقة.

المرتفعات المكرسة للآلهة كثيرة بوجه الخصوص، كجبل «جويتير» مثلاً (جومون Jeumont) أما كاهنك فلا يريد أن يرى شيئاً من هذا القبيل وفي مقابل ذلك ترى في كل مكان خلفت المسيحية فيها آثاراً أنها تخفى عليه، لقد مدّ رحلته حتى «لوكتودي»، وهو اسم غريب، يقول، فيما هو «لوكتس سانكتي توديني» (أي بيت القديس تودينوس) ثم إنه إلى ذلك لم يكشف في لفظه «سامر كول» اسم «سانكتوس مارسيليس» (القديس مارس). وأردف «بريشو» يقول وقد لاحظ أنه يشير اهتمامي: «إن كاهنك يرد الكلمات المنتهية بـ holm, hon, home إلى كلمة «holl» (hullus) التي تعني «رابية» فيما هي مشتقة من النرويجية «holm» التي تعني جزيرة، وتعرفها تماماً في «ستوكهولم» وهي كثيرة الانتشار في هذه المنطقة: «لاهولم»، «أنغوهولم»، «تاهولم»، «رويهولم»، «كيتهولم» الخ.. وقد ذكرتني هذه الأسماء باليوم الذي اعتزمت فيه «البيوتين» الذهاب إلى «امغرفيل لاينغو» (نقلاً عن اسم اثنين من أربابها المتعاقبين، على حد ما قاله لي «بريشو») واقترحت بعدها عليّ أن نتناول العشاء معاً في «رويهولم». أما «مونمارتان» فكنا على وشك المرور فيها بعد وقت قصير. وسألت قائلاً: «أليست «ينهولم» على مقربة من «كاركتوي» و«كليثور»؟» - «تماماً، «ينهولم» هي «هولم»، أي جزيرة أو شبه جزيرة الفيكونت «نيجيل» الذي بقي اسمه أيضاً في «نيفيل». أما «كاركتوي» و«كليثور» اللتين تحدثني عنهما فمنااسبة تسمح لحميّ السيّد «دوكامبرمير» بارتكاب أخطاء أخرى. وهو لا شك يرى تماماً أن «كارك» تعني كنيسة وهي اللفظة الألمانية «كيرشه» (Kirsche). وأنت تعرف «كيركفيل» و«كاركبو»، ناهيك عن «دانيكرك»، فإنه من الأفضل لنا إذ ذاك أن نتوقف عند كلمة «دون» (dun) المشهورة التي كانت تعني للسليتين «المرتفع»، وهذا ما أنت واجده في كل أنحاء فرنسه. وكاهنك هذا يقف مبهوراً أمام «دونفيل». ولكنه لقي في مقاطعة «أور إي لوار» «شاتودون»، وفي مقاطعة «الشير» «دون لوروا»، و«دونو» في «السارت»، و«دون» في «أرييج»، و«دون» ليه بلاس» في «النييفر»، الخ.. وكلمة «دون» هذه تدفعه إلى خطأ غريب فيما يتصل بـ «دوفيل» التي سننزل فيها حيث تنتظرنا عربات السيّد «فيردوران» المريحة. «دوفيل»، يقول، من اللاتينية «دونفيل». و«دوفيل» تقع بالفعل على حضيض مرتفعات كبيرة. وكاهنك العارف بكل شيء يحس مع ذلك أنه ارتكب خطأ فاحشاً. فإنه قرأ في سجل كنسي قديم اسم «دومفيل»، فترجع آنذاك، وإذا «دوفيل» في نظره إقطاع لرئيس كهنة (domino abbati) جبل «سان ميشيل». ويسعد بذلك، وهو أمر غريب إلى حد ما تفكر بالحياة الفاضحة التي كانوا يعيشونها في جبل «سان ميشيل» وقد لا يكون أكثر غرابة من أن ملك الدانمارك سيد هذا الشاطئ بكامله حيث كان يدعو إلى ممارسة عبادة «أودين»<sup>(١)</sup> أكثر منه عبادة المسيح. ثم إن افتراض تحوّل حرف «n» إلى حرف «u» لا يصدمني ويقتضي تغييراً أقل من تغير «ليون» الصحيح تماماً فهي بدورها مشتقة من «دون» (Lugdunum). ولكن الكاهن مخطئ في النهاية، فـ «دوفيل» لم تكن في يوم «دونفيل» بل «دوشيل» (Eudonis villa) أي قرية «أود». ذلك أن «دوفيل» كانت تدعى فيما مضى «إيسكاليف»، أي درج المنحدر. وفي حوالي ١٢٣٣ مضى «أودلوبوتيبه» سيّد «إيسكاليف» إلى الأراضي المقدسة وفي حين الرحيل سلّم الكنيسة إلى دير «بلانسلاند» وكان تبادل في الخدمات المؤداة فاتخذت القرية اسمه الذي منه «دوفيل» الحالية، ولكنني أضيف أن علم التسميات المكاتبة

(١) إله الأساطير الإسكندنافية.

الذي أنا جاهل أشد الجاهل فيه ليس علماً دقيقاً، فلو لم تتوافر لنا هذه الشهادة التاريخية فربما أمكن اشتقاق «دوفيل» من «أوفيل»، يعني المياه. فالصيغة التي ترد بـ «ai» (مثل «إيغمورت» - Aigues-Morts) من اللاتينية «aqua» (ماء) كثيراً ما تستحيل «eu» و «ou». والحقيقة أنه كان ثمة عيون ماء مشهورة قرية جداً من «دوفيل» وتتصور أن الكاهن كان شديد الغبطة أن وجد هناك أثراً مسيحياً على الرغم مما يبدو من أن المنطقة كانت صعبة على صعيد التبشير إذ اتبغى أن يعيد الكرة فيها على التوالي القديس «أورسال» والقديس «غوفروا» والقديس «بارسور» والقديس «لوران دو بريشدان» الذي أوكل المهمة أخيراً إلى رهبان «بوبيك». لكن المؤلف يخطئ بشأن «توي» (tuit) فيرى فيها أحد أشكال «توفت» (toft)، بمعنى كوخ، كما هي حال «كريكتو» و«ايكتو» و«ليفنو»، فيما هي «تفيت» (thveit) وتعني «إعشاب» أو «استصلاح الأراضي» كما هو شأن «براكتوي» و«لوتوي» و«ريتوي»، إلخ... وإن كان أيضاً يتعرف في «كليثور» الكلمة النورماندية «ثورب» (Thorp) التي تعني «قرية» فإنه يريد اشتقاق القسم الأول من الاسم من «كليغوس» (clivus) التي تعني «منحدر» فيما هو مشتق من «كليف» (clife) وتعني «صخرة» لكن أكثر عثراته فداحة نجم أقل ماينجم عن جهله منه عن أحكامه المسبقة. أفينبغي لنا، مهما كنا فرنسيين في الصميم، انكار البديهة وأن نعتبر أن القديس «لوران آن بره» هو الكاهن الروماني الذائع الصيت، فيما الأمر أمر القديس «لورانس أوتول» رئيس أساقفة «دوبلن»؟ على أن الرأي الديني القبلي الذي يحمله صديقك إنما يوقعه، أكثر من شعوره الوطني، في أفدح الأخطاء. من ذلك أن ثمة موقعي «مونمارتان» في مكان غير بعيد عن مضييفنا في «لاراسيلير»: «مونمارتان سورمير» و«موغارتان آن غريني». أما فيما يخص «غريني»، فلم يرتكب كاهننا الطيب خطأ، إذ رأى بوضوح أن «غريني»، وهي في اللاتينية «غرانيا» وفي اليونانية «غريني»، إنما تعني مستنقعات، سبخات، وكم «كريسماس» و«كروين» و«غرينفيل» و«لانغرون» يمكننا الاستشهاد بها؟ ولكن عالم اللسانيات المزعوم مصمم حكماً، بخصوص «مونمارتان» إن الأمر يتعلق برعايات<sup>(١)</sup> مكرسة للقديس «مارتان». وهو يستند في ذلك إلى أن القديس شفيعها، ولكنه لا ينتبه إلى أن الأمر لم يؤخذ على هذا المحمل إلا بعد التسمية، أم تراه تعميه كراهيته للوثنية فلا يريد أن يتبين أنهم كانوا قالوا «مون سان مارتان» مثلما يقولون «مون سان ميشيل» لو أن الأمر يدور حول «سان مارتان»، فيما ينطبق اسم «مونمارتان» من وجهة نظر أقرب إلى الوثنية على معابد مكرسة للإله «مارس»، وهي معابد لم يبق منها بين أيدنا، والحق يقال، أطلالاً أخرى، ولكن وجود معسكرات رومانية ضخمة لا يرقى إليها الشك في الجوار تجعلها أكثر معقولة حتى بدون اسم «مونمارتان» الذي يقطع الشك باليقين. ترى إذاً أن الكتاب الصغير الذي ستجده في «لاراسيلير» ليس من أفضلها صنعة. ورددت بأن الكاهن في «كومبريه» كثيراً ما علمنا اشتقاقات مثيرة. «من المرجح أنه كان أفضل على أرضه فلا بد أن الرحلة في «نورمانديا» ضيعته». فأضفت قائلاً: «ولم تشفه، فقد كان جاء إليها موهن الأعصاب ورحل عنها مصاباً بالثرية». - «آه: إنما الذنب ذنب وهن الأعصاب فقد وقع من وهن الأعصاب في الفيلولوجيا (علم اللغة)، كما لعل معلّمي الطيب «بوكلان»<sup>(٢)</sup> كان قال. ولكن قل لي يا «كوتار» أيخيل إليك أن وهن

(١) أثراً «رعايات» على «رعايا» للتمييز ونقصد بها مجموعة المؤمنين التي يخدمها كاهن أو كهنة في كنيسة ما.

(٢) هو المسرحي الهزلي «مولير».

الأعصاب يمكن أن يؤثر تأثيراً سيئاً في الفيلولوجيا، والفيلولوجيا يمكن أن تخلف أثراً مهدئاً في وهن الأعصاب وأن يقود الشفاء من وهن الأعصاب إلى الرثية؟ - «بالضبط، فإن الرثية وهن الأعصاب شكلان بديلان من التهاب المفاصل العصبي، ويمكن المرور من الواحد إلى الآخر بظاهرة الانتقال». وقال «بريشو»: «يتحدث الأستاذ البارز، سامحنى الله، بفرنسية تخالطها اللاتينية واليونانية من مثل ما كان استطاع السيد «بورغون» المولييريّ الذكر نفسه أن يفعل! إليّ، ياعمّي، بل يا ناقدنا الوطني «سارسيه»<sup>(١)</sup>... ولكنّه لم يتمكن من إنهاء الجملة، إذ كان الأستاذ قد انتفض وأطلق صيحة مدوية: «يا لعنة الـ... ما...» يقول وهو ينتقل أخيراً إلى لغة واضحة النطق، لقد تجاوزنا، «مينفيل» (هيه! هيه!) وحتى «رينفيل». وكان لاحظ منذ قليل أن القطار توقف في «سان مارس لوفيو» حيث نزل المسافرون جميعهم تقريباً. «لابدّ أنهم لم يتجاوزوا الموقف مع ذلك. ولعلنا لم ننتبه ونحن في حديثنا عن آل «كامبرمير» - «اسمعني يا «سكي»، مهلاً، فسأقول لك شيئاً يسترك»، يقول «كوتار» الذي كان أعجب بهذه العبارة المستخدمة في الأوساط الطبية. «لابدّ أن الأميرة في القطار ولعلها لم تشاهدنا وصعدت إلى مقصورة أخرى. هيا نبحث عنها، والمهم أن لا يفرض الأمر إلى الفوضى!» واصطحبنا جميعاً للبحث عن الأميرة «شيرباتوف». ولقيها في زاوية عربية فارغة تقرأ «مجلة العالمين». فقد كانت تعودت منذ سنوات طويلة، مخافة جفاء الاستقبال، أن تبقى في مكانها، وتلبث في ركنها في الحياة والقطار على حد سواء، وأن تنظر أن يقرئوها السلام كي تمدّ يدها. واستمرت في قراءتها حينما دخل الخلف إلى عربتها. وتعرفتها في الحال، تلك المرأة التي يحتمل أن تكون فقدت مركزها، ولكنها مع ذلك من منشأ رفيع وهي في جميع الأحوال لؤلؤة منتدى من طراز منتدى آل «فيردوران»، إنما كانت هي السيدة التي ظننت قبل البارحة أنها قد تكون مديرة محلّ عمومي. وأصبحت شخصيتها الاجتماعية المشكوك فيها إلى أبعد حدّ واضحة لعيني في الحال حينما عرفت اسمها، شأننا حينما نعرف أخيراً، بعدما بذلنا من جهد انصبّ على أحجية، الكلمة التي توضح كلّ ما ظلّ غامضاً والتي هي الاسم فيما يخصّ الأشخاص. وإن إطلاعنا بعد الغد على اسم الشخص الذي سافرنا إلى جانبه في القطار دون أن نفلح في العثور على مركزه الاجتماعي مفاجأة أبعث للسرور من أن نقرأ في عدد جديد من إحدى المجلات كلمة السرّ المقترحة في العدد السابق. إن المطاعم الكبرى والكازينوهات وقطارات المناطق هي المتحف الذي يضمّ عائلات هذه الألفاظ الاجتماعية. «ربما فاتنا لقاءك في «مينفيل» أيتها الأميرة، فهل تسمحين لنا بالجلوس في مقصورتك؟» فقالت الأميرة: «أجل، ياله سؤال!» وإذ سمعت «كوتار» يكلمها رفعت حينذاك فقطع عن المجلة التي تقرأها عينيّن كانتا، شأن عيني السيد «دوشارلوس» وإن على وداعة أوفر، تبصران تماماً الأشخاص الذين تتظاهر بأنّها لا تلاحظ وجودهم. أما «كوتار» الذي فكر في أن دعوتي مع أسرة «كامبرمير» كانت بالنسبة إليّ توصية كافية فقد قرّر بعد حين أن يقدّمني للأميرة التي انحنت بتأدّب كبير ولكننا بدا أنّها تسمع اسمي للمرّة الأولى. وصاح الدكتور قائلاً: «يا لعنة، لقد نسيت امرأتى تبديل أزوار صدرتيّ البيضاء. آه: يا للنساء، إنهن لا يفكرن في شيء». ثم قال لي: «لا تتزوج البتّة، فأنت ترى». ولما كانت تلك إحدى المزحات التي يعتبرها مناسبة حينما لا يحضر شيء فتقوله، فقد نظر من طرف عينه إلى الأميرة والخلف الآخرين الذين ابتسموا، إذ هو

(١) أحد أشهر النقاد المسرحيين في النصف الثاني من القرن ١٩.

أستاذ وعضو أكاديمية، وهم يعجبون لظرافة طباعه وعدم غطرسته. وأعلمتنا الأميرة أنهم عثروا على عازف الكمان الشاب. فقد لازم الفراش بالأمس جراء صداع نصفي ولكنه سيجيء هذا المساء ويصطحب معه صديقاً قديماً لوالده التقاه في «دونسير» لقد علمت ذلك عن طريق السيِّدة «فيردوران» التي تناولت إفطارها معها في الصباح، تقول لنا بنبرة سريعة تسمع فيها دحرجة حروف «الراء» الروسية تدور بغمغمة لطيفة في أقصى الحنجرة كما لو كانت حروف «لام» لا «راء». وقال «كوتار» للأميرة: «آه! لقد تناولت إفطارك هذا الصباح معها»، ولكنه إذ يقول ينظر إليّ لأن تلك الأقوال كانت ترمي إلى إبراز مدى حميميّة علاقة الأميرة «بالمعلمة». «إنك لخلصة أنت!» - «أجل، إني أحبّ هذا المنتدي الصغير»<sup>(١)</sup> الذكيّ الظليّف غير السيِّ البسيط جداً غيل المتحدلق وحيث يمتلئ الناس ظلّفاً حتّى أطراف أظافرهم. - «يا للجنة! لابدّ أنّي أضعت بطاقتي، فإنني لا أجدها»، يقول «كوتار» صارخاً دون أن يداخله قلق كبير. فقد كان يعلم أن الموظف في «دوفيل»، حيث ستنظرنا عربتان، سوف يسمح له بالمرور دون بطاقة وسوف ينحني انحناءً أكبر محيياً بقبعته كي يوقّر بهذه التحية تفسيراً لتساهله قوامه أنّه تعرّف في شخص «كوتار» أحد رواد منزل آل «فيردوران». وخلص الدكتور إلى القول: «لن أوضع في قاعة الشرطة بسبب ذلك». وسألت «بريشو»: «كنت تقول يا سيّد إن ثمة على مقربة من هنا مياه مشهورة، فكيف يعلمون ذلك؟» - «إن اسم المحطّة التالية، من بين أدلة أخرى كثيرة، يشهد بذلك، فإنها تدعي «فيرفاش». - «لست أفهم ما تعنيه»، تقول الأميرة مغمغمة باللهجة التي لعلها كانت قالت بها ملاحظة: «أليس أنّه يزعمنا؟» - «ولكن، «فيرفاش» أيّها الأميرة تعني المياه الساخنة، (fervida aqua)<sup>(٢)</sup> ... وأردف «بريشو» يقول: «نسيت بخصوص عازف الكمان الشاب أن أنقل إليك الخبر الهامّ يا «كوتار»، فهل جاءك أن صديقنا المسكين «دوشامبر»، عازف البيانو السابق المفضل لدى السيِّدة «فيردوران» قد قضى نجه منذ فترة وجيزة؟ إنّهُ لأمر مخيف». فأجاب «كوتار»: «كان بعد فتياً، ولكن لا بدّ أنّه كان يعاني من كبده، ولا بدّ أن ثمة أمراً غير حميد في هذا الجانب، فقد كان وجهه متعباً منذ بعض الوقت». وقال «بريشو»: «لكنه لم يكن فتياً إلى هذا الحدّ، فمنذ أن كان «ايلستير» و«سوان» يرتادان منزل السيِّدة «فيردوران» كان «دوشامبر» ذائع الصيت في باريس، وأروع الأمور أن شهادة نجاحه لم تأت من البلاد الأجنبية. آه! ما كان صاحبنا من أتباع الانجيل بحسب القديس «بارنوم»<sup>(٣)</sup>. - «أنت تخط، فما كان بوسعه الذهاب إلى منزل السيِّدة «فيردوران» في تلك الفترة، إذ كان بعد في الحضانة». - «ولكنما يبدو لي، ما لم تخنّي ذاكرتي العتيقة، أن «دوشامبر» كان يعزف «سوناتا» فانتوي لـ«سوان» حين كان هذا المنتدي الذي تعوزه الارستقراطية يكاد لا يرتاب بأنّه سيضحي ذات يوم الزوج المبرّج لأميرتنا الوطنية «أوديت». - «مستحيل، فسوناتا «فانتوي» عزفت في منزل السيِّدة «فيردوران» بعد فترة طويلة من الوقت الذي لم يعد «سوان» يرتاد فيه منزلها»، يقول الدكتور، وأمره أمر من يعملون كثيراً ويظنّون أنّهم لا بدّ يحفظون الكثير من الأشياء التي يتخيّلون أنّها مفيدة فينسون الكثير غيرها، وذلك ما يسمح لهم بالافتتان إزاء ذاكرة أناس ليس لديهم ما يفعلونه. وأردف الدكتور مبتسماً: «أنت تسيء إلى معلوماتك مع أنّك لم تبلغ مرحلة الخرف». وأقرّ «بريشو» بغلطته. توقف

(١) الأميرة تلفظ «الراء» أقرب إلى «اللام».

(٢) وردت باللاتينية في متن النص.

(٣) مهرج اميركي مدير سيرك كتب سيرة حياته وكتبا آخر عنوانه: «كيف تكسب الملايين»؛ والمقصود واضح.

القطار، وكانت محطة «لاسوني»، وشغل الاسم بالي فقلت لـ «كوتار»: «كم ددت أن أعلم ماذا تعنيه كل هذه الأسماء». - ولكن، هيا اسأل السيد «بريشو» فربما عرف ذلك». «لاسوني تعني اللقلق وهي «سيكونيا» (Sicinia) اللاتينية، يجب «بريشو» الذي كنت أتحرق لسؤاله عن أسماء أخرى كثيرة.

بادرت السيدة «شيرباتوف»، وقد فاتها أنها تحرص على «ركتها الخاص»، فعرضت عليّ بلطف مبادلتني مكانتي كي يمكنني التحدث بصورة أفضل إلى «بريشو» الذي كنت أودّ سؤاله اشتقاقات أخرى تثير اهتمامي، وأكدت أنها لا تعير اهتماماً للسفر إليّ الأمام أو الخلف أو وقوفاً الخ.. كانت تقف موقف الدفاع مادامت تجهل مقاصد الوافدين الجدد، لكنها كانت تحاول، ما إن تكون عرفت أنها لطيفة، تحاول بجميع السبل إدخال السرور على قلب كل منهم. وأخيراً توقّف القطار في محطة «دوفيل-فيتيرن» التي تقع على مسافة تقرب أن تكون متساوية بين قرية «فيتيرن» وقرية «دوفيل» فحملت لهذه الخاصية اسميهما. وصاح الدكتور «كوتار» حينما وصلنا أمام الحاجز حيث تؤخذ البطاقات متظاهراً بالتنبّه للأمر آنذاك فقط: «يا عجب! لا أستطيع العثور على بطاقتي ولاأند أضععتها». لكنّ المستخدم أكدّ وهو يرفع قبعته أن الأمر لا أهمية له ويتسم باحترام. أمّا الأميرة فقد اصططحبتني إلى جانب «بريشو» في إحدى العربتين (وهي تزوّد الحوذي بتعليمات كما ربّما كانت فعلت إحدى وصيفات السيدة «فيردوران» التي لم تستطع بسبب أسرة «كاميرمير» المجيء إلى المحطة، وقليلًا ما تفعل على أية حال). واستقل العربّة الأخرى الدكتور و«سانيت» و«سكي».

كان الحوذي على صغر سنّه أول حوذي لدى آل «فيردوران» والوحيد الذي كان حقاً حوذيّاً رسمياً. فقد كان ينقلهم نهاراً في سائر نزهاتهم، إذ هو يعرف الدروب جميعها وفي المساء يمضي فيجيء بالخلص ويعيدهم فيما بعد. كان يرافقه يوم تدعو الحاجة إضافيون (يختارهم). كان فتى طيباً قنوعاً ماهراً ولكن له واحداً من تلك الوجوه الكئيبة التي تعني النظرة المفرطة في ثباتها أن المرء يقلق لأقل الأمور، بل تراه نهب الأفكار السوداء. لكنه كان شديد السعادة في هذه اللحظة لأنه أفلح في توظيف شقيقه، وهو من طينة رجال رائمة أخرى، في منزل آل «فيردوران». واجتزنا بادئ الأمر «دوفيل»، وفيها حداثات معشوشبة تنحدر مجموعات واسعة حتّى البحر يكسبها إشباع الرطوبة والملح كشافة ونعومة وحيوية في الألوان عظيمة. كانت جزيرات «ريفييل» وتقاطيعها وهي هنا أكثر قرباً منها في «البليك» تكسب هذا الجزء من البحر المظهر الجديد بالنسبة إليّ لمستو مجسّم. ومررنا أمام شاليهات صغيرة أجرت جميعها تقريباً لرسامين وسلكتنا درباً سدّت علينا الطريق فيه أبقار طليقة أصابها ما أصاب جيادنا من دعر على مدى عشر دقائق سلكتنا بعدها طريق الشاطئ. وسأل «بريشو» فجأة قائلاً: «سألتكم بالآلهة الخالدين أن دعونا نعود إلى ذلك المسكين «دوشامبر»، أنظنون السيدة «فيردوران» على اطلاع؟ وهل قيل لها؟» فالسيدة «فيردوران» كحال بني المجتمعات الراقية جميعاً على وجه التقريب، ولأنها بالضبط كانت بحاجة إلى مخالطة الآخرين، ما كانت تفكر يوماً واحداً من يعد فيهم بعدما لا يسمعون، وقد طواهم الموت، المجيء إلى أيام الأربعاء أو السبت أو العشاء بمباذلهم. وما كان باستطاعتك أن تقول عن العشيرة الصغيرة، وهي في ذلك صورة عن سائر المنتديات، إنها تتألف من عدد من الأموات يفوق عدد الأحياء إذ يضحي الأمر ما إن يموت المرء وكأنما لم يكن في يوم. لكن السيد «فيردوران»، تجنّباً للزعاج الناجم عن



التحدث عن المتوفين، بل عن تعليق حفلات العشاء، وهو أمر لا تطيقه «المعلمة»، من جرّاء حداد، كان يتظاهر بأن موت الخللّس يؤثر في زوجته إلى حدّ يتبغي معه الاقلاع عن التحدث عنهم في سبيل صحتها.

ولأن موت الآخرين ربما كان يبدو له بالضبط حادثاً نهائياً وعادياً إلى أبعد حدّ فإن فكرة موته هو كانت ترعبه فيتجنّب أية ملاحظة يمكن أن تتعلق به. أمّا «بريشو» فإذا كان طيّب القلب إلى أبعد الحدود وقد خدعه تماماً ما كان يقوله السيّد «فيردوران» عن زوجته، فقد كان يخشى على صديقته من الانفعالات الناجمة عن غمّ كهذا، وقالت الأميرة: «أجل إنها تعرف كلّ شيء منذ هذا الصباح ولم نستطع إخفاء الأمر عنها». وصاح «بريشو» قائلاً: «آه! يا ألف صاعقة للإله «زيوس»! لا بدّ أنها كانت ضربة رهيبة، هذا الصديق منذ خمسة وعشرين عاماً! ذلكم واحد كان من جماعتنا!» وقال «كوتار»: «بالطبع، بالطبع، وما يبدنا نحن، إنها مناسبات تشق عليك دوماً، ولكن السيّد «فيردوران» امرأة قوية، إنها امرأة عقل أكثر منها انفعالية». «لست أرى تماماً رأى الدكتور»، تقول الأميرة التي يكسبها كلامها السريع ونبرتها المهموسة بالتأكيد هيئة المستاءة النبيهة في آن واحد. «إن السيّد «فيردوران» تخفي كنوزاً من الحساسية خلف مظهر البرودة لديها. لقد قال لي السيد «فيردوران» إنه صادف عنتاً كبيراً في الحيلولة دون ذهابها إلى باريس لحضور المأتم، فقد اضطرّ أن يوهمها بأن كلّ شيء سيجري في الريف». «هكذا إذن! كانت تبغي الذهاب إلى باريس. ولكنني أعلم تماماً أنها حساسة، بل ربما مفرطة الحساسية. مسكين «دوشامبر»! وكما كانت تقول السيّد «فيردوران» منذ أقل من شهرين: «بلانتية»، «باديرفسكي» وحتى «ريسلر»، ليس ثمة في مواجهته ما يوازيه». آه! لقد وسعه أن يقول بالضبط أكثر من ذلك المزهو «نيرون» الذي استطاع تضليل العلوم الألمانية نفسها: أيّ مبدع يموت بموتي<sup>(١)</sup>! لكنّه هو، «دوشامبر»، لا بدّ مات وقد أنجز كهنوته في جوّ من ورع موسيقي «بيتهوفن»، وقضى بشجاعة، لا ريب في ذلك ولعلّ كاهن الموسيقى الألمانية هذا كان يستحقّ بالعدل والانصاف أن يقضى وهو يحتفل بـ«القدّاس الذي من مقام ربه»<sup>(٢)</sup>. بيد أنّه كان مع ذلك من صنف رجال يستقبلون الموت بالزغردة إذ كان هذا العازف العبقريّ يجد في أسلافه هو «الشامباني» الذي ليس لبوس الباريسيّين صنوفاً من الجسارة والأناقة تسمّ الحرس الفرنسيّ».

لم يعد البحر يتبدّى من المرتفع الذي كنّا نقف فوقه، كما هي حاله من «بالبيك»، شبيهاً بتموجات جبال متدافعة، بل على العكس مثلما تبدو من قمة أو من طريق يلفّ حول الجبل جليديّة ضاربة إلى الزرقة أو سهل يخطف الأبصار، والكلّ واقع على ارتفاع أقلّ. كان يبدو تقطع المياه المضطربة وكأنّها جمّد وخطّ نهائياً دوائره المتراكزة. حتّى ميتا البحر الذي كان يبدّل من لونه لا شعورياً كان يتخذ في أقصى الخليج حيث ينشق مصبّ البياض الأزرق الحلبيّ الذي بدت فيه عالقّة كما الذباب معديّات صغيرة سوداء لا تتحرّك إلى الأمام. لم يكن يبدو لي أنّه يمكن من أي مكان اكتشاف لوحة أكثر اتساعاً. بيد أن قسماً جديداً كان يضاف في كل منعطف، وحينما بلغنا «مركز الميرة» في «دوفيل» تراجع أنف الجرف الذي حجب عنّا حتّى ذلك نصف الخليج الصغير وأبصرت فجأة على يساري خليجاً بمثل عمق ذلك الذي كنت أراه حتّى ذلك أمامي ولكنّه كان

(١) العبارة المنسوبة إلى «نيرون» لدى وفاته: Qualis artifex pereo!

(٢) «بيتهوفن»، واسمه الآخر «القدّاس الاحتفالي».

يبدل في أبعاده ويضعاف من جماله. والهواء في هذه النقطة الشديدة الارتفاع أخذ يتسم بنشاط ونقاء أنتشي بهما. لقد أخذت أحب آل «فيردوران». وأن يكونوا بعثوا إلينا بعربة كان يبدو لي متسماً بطيبة مؤثرة، ووددت لو أعانق الأمير، وقلت لها إنني لم يسبق لي أن رأيت ما كان يمثل هذا الجمال. وصرحت بأنها تحب أيضاً هذه المنطقة أكثر من أية منطقة أخرى. لكننا كان يداخلني إحساس بأن المسألة الهامة في نظرها ونظر آل «فيردوران» على السواء لا تكمن في تأملها تأمل السائحين، بل في تناول وجبات طيبة وأن يستقبلوا فيها مجتمعاً يروقهم ويكتبوا رسائل فيها ويقروا ويعيشوا فيها باختصار القول، فكانوا يدعون لجمالها أن يغمرهم دونما تدخل من قبلهم أكثر من أن يجعلوا منه موضع اهتمامهم.

وإذ توقفت العربة حيناً على ارتفاع كبير فوق البحر إلى حد أن منظر الهاربة الضاربة إلى الزرقة كاد، كأنما من فوق إحدى القمم، يخلف الدوار فتحت زجاج «مركز الميرة». كانت الضجة الواضحة التي توافيك من كل موجة تنكسر تملك في عذوبتها ووضوحها طابعاً رائعاً. أفلم تكن مؤشر قياس يرينا، وقد قلب انطباعاتنا المعتادة أن المسافات العمودية يمكن مماثلتها بالمسافات الأفقية، بعكس التصور الذي يكونه فكرنا عنها عادة، وأنها، إذ تقرب السماء منا، ليست كبيرة، بل هي أقل اتساعاً بالنسبة إلى صوت يجتازها كما كان يفعل دوي هذه الأمواج الصغيرة بما أن الوسط الذي يقع عليها اجتيازه أكثر نقاء؟ فأننا بالفعل إن تراجعتنا مترين فحسب خلف «مركز الميرة» ما عدنا نميز صوت الأمواج الذي لم تفقده مثقنا متر من الجرف ووضوحه الرقيق الدقيق العذب. كنت أقول في نفسي إن جدتي ربما كانت أحست تجاهه بذلك الإعجاب الذي تبعته في نفسها تجليات الطبيعة أو الفن التي نقرأ في بساطتها العظيمة والجلال، كانت حماسي قد بلغت الأوج فترفع كل ما يحيط بي. وكنت متأثراً من أن تكون أسرة «فيردوران» كلفت من يصطحبنا من المحطة. وأعربت للأميرة عن الأمر فبدأ أنها ترى مني مغالة كبيرة إزاء مجاملة بسيطة إلى هذا الحد. وإني أعرف أنها أقرت فيما بعد لـ «كوتار» أنها تجتذني شديد الحماسة، فأجاب أنني أفرط في انفعالاتي وأني ربما كنت بحاجة إلى مهدئات وإلى القيام بنزهات. كنت ألفت الأميرة إلى كل شجرة وكل منزل صغير يتهاوى تحت وروده، واستثير إعجابها بكل شيء، بل وددت لو أضمتها هي إلى صدري وقالت لي إنها على بينة من موهبتي للرسم بالزيت وإنه يجدر بي أن أرسم وإنها فوجئت أن لم يعرب لي أحد عن ذلك بعد. وأقرت بأن المنطقة رائعة فعلاً. واجتازنا قرية «أنغليسكيڤيل» الصغيرة «انغليبرتي فيلا»، حسبما قال لنا «بريشو» الجائئة فوق الرابية. «ولكن هل أنت متيقنة تماماً من أن عشاء هذه الليلة قائم أيتها الأميرة على الرغم من وفاة «دوشامير»؟» يضيف قوله دون أن يفكر في أن حضور العربات التي كنا نستقلها إلى المحطة إنما كان جواباً. فقالت الأميرة: «أجل، فقد حرص السيد «فيلدولا» على أن لا يؤجل كي يحول بالضبط دون «تفكير» زوجته. ثم إن هذا التغيير في عاداتها، بعد هذه السنوات الكثيرة التي لم يفتها فيها أن تستقبل يوم أربعاء، كان يمكن أن يؤثر فيها. فإنها عصبية جداً في هذه الآونة». «لقد كان السيد «فيردوران» سعيداً بوجه الخصوص أن جئت للعشاء هذا المساء إذ يعلم أن الأمر سيكون سلوة كبيرة للسيدة «فيردوران»، تقول الأميرة، متناسية مانصنعت من أنها لم تسمع من يتحدث عتي وأضافت الأميرة قولها: «أظن أنه يحسن بك أن لا تجيء على ذكر شيء في حضرة الأميرة». فأجاب «بريشو» بسداجة: «حسنًا تفعلين بقولك ذلك، وسأنقل التوصية لـ «كوتار». توقفت العربة لحظة، وعادت سيرها ولكن

الضجة المنبثقة من العجلات في القرية انقطعت. وكنا دخلنا في ممر الشرف في «لاراسيلير» حيث كان السيد «فيردوران» ينتظرنا على الدرج الخارجي، فقال: «حسناً فعلت أن ارتديت «السموكن»، وقد لاحظت باغتيال أن الخلف يرتدون «السموكن» أيضاً، بما أن لدي رجالاً أتيقين إلى هذا الحد». وإذ أخذت اعتذر عن سترتي: «هيا، إنها تمام تمام. فهما أعشبة بين رفاق. كنت عرضت عليك أن أعيرك إحدى بزاتي السموكن ولكنها لن تناسبك». أما المصافحة التي تتضح تأثراً والتي خص بها «بريشو» رب البيت، وهو يدخل ردهة «لاراسيلير» وكنوع من التعازي يموت عازف البيانو، فلم تثر أي تعليق من جانب هذا الأخير. وأعرت له عن إعجابي بهذه المنطقة. «آه! نعم الأمر، وأنت لم تشاهد شيئاً، وسوف نريك إياها. فلم لا تجيء للسكنى بضعة أسابيع هنا؟ إن الهواء رائع». وخشي «بريشو» أن لا تكون مصافحته أدركت فقال، ولكن بصوت خفيض مخافة أن تكون السيدة «فيردوران» غير بعيدة: «يا له، هذا المسكين «دوشامبر»! وأجاب السيد «فيردوران» بلهجة مرحة: «أمر فظيع». فأردف «بريشو» قائلاً: «بشابه هذا». فرد السيد «فيردوران» وقد أزعجه التثاقل على هذه الأمور غير المفيدة. رد بلهجة معجلة وأنة أكثر من حادة، لا من غم بل من نفاد صبر حائق: «أجل، أجل، ولكن ماعساك تريد، لا نستطيع في ذلك شيئاً، فلن ترد أقوالنا الروح إليه، أليس كذلك؟» وقال السيد «فيردوران» وقد عادت إليه دماثته مع نبرة المرح: «هيا، أيها الطيب «بريشو»، ضع حاجاتك بسرعة، فإن عندنا حساء بالسّمك لا يطبق انتظاراً. ولكن بحق السماء إياك أن تتحدث عن «دوشامبر» للسيدة «فيردوران»! فأنت تعلم أنها تخفي إلى حد بعيد ما تحس به. ولكن بها مرض حساسية حقيقياً. لا، أقسمت لك، لقد كادت تبكي حين علمت أن «دوشامبر» قضى نحب» قال بلهجة تهكمية كبيرة. ولعله يخيّل إليك إذ سمعه أنه لا بد من نوع من الجنون كيما تأسف على صديق في الثلاثين من عمره، وكنت تستشف من جانب آخر أن الوحدة الدائمة التي تجتمع السيد «فيردوران» وزوجته ما كانت تمضي من جانبه هو دون أن يبدي رأيه فيها وأن تضايقه في الغالب. «إن حدثتها بالأمر فسوف أفيها المرض مرة أخرى. وذلك مؤسف بعد انقضاء ثلاثة أسابيع على ما أصابها من التهاب قصبات. وفي هذه الحالة تراني أنا الممرض، وإنك تدرك أنني فعلت من فترة وجيزة. تأس على مصير «دوشامبر» في صميم فؤادك ما طاب لك. فكر بالأمر ولا تتحدث عنه. كنت أحب «دوشامبر» بالتأكيد، ولكنك لا تستطيع ملامتي أن أحب زوجتي أكثر منه. دونك، هذا «كوتار»، وبوسعك أن تسأله». وكان يعلم بالفعل أن طبيب الأسرة يستطيع تأدية الكثير من الخدمات الصغيرة، كأن يصف لك مثلاً ضرورة أن لا تغتم.

وكان «كوتار» رجل الطاعة قد قال «للمعلمة»: «هيا، لتضطرب نفسك على هذا النحو فاذا بك تهيتين لي ترفعاً حرورياً يبلغ ٣٩»، كما لعله كان قال للطبّاخة: «هيتي لي للغد طبقاً من لوز العجل»، فالطب، إن هو لم يشف، يهتم بتغيير معاني الأفعال والضمائر.

أحسن السيد «فيردوران» بالسعادة إذ لاحظ أن «سانيت» لم يهجر النواة الصغيرة على الرغم من صنوف الجفاء التي أصابها أول البارحة. ذلك أن السيدة «فيردوران» وزوجها كانا قد اكتسبا في البطالة غرائز قاسية لم تعد المناسبات الكبرى، وهي نادرة، كافية لها. لقد أمكنهما فعلاً إفساد العلاقة بين «أوديت»

و«سوان»، وبين «بريشو» وعشيقته. ولعلهما يعيدان الكرّة مع آخرين، ذلك أمر مفروغ منه. ولكن المناسبة ما كانت تسنح كلّ يوم، فيما يوفّر لهم «سانيت»، بفضل حساسيته المرفهة وخجله المتهيب السريع الاضطراب، كبش محرقة يومية. لذلك كانا يحرصان، مخافة هجرانه، على دعوته بكلمات ودودة مقنعة كذلك التي تحضر قداماء المدرسة التجهيزيّة ومتقدّمي الكتيبة لغرّ يريدون ملاطفته ليمكنهم وضع اليد عليه لمجرّد مداعبته آنذاك وإساءة معاملته حين لا يستطيع الإفلات من بعد. وذكر «كوتار»، وما كان سمع السيّد «فيردوران»، ذكر «بريشو» قائلاً: «الصمت، الصمت بوجه الخصوص في حضرة السيّد «فيردوران». - «لا تخش يا «كوتار» فالأمر بين يدي حكيم، كما يقول «ثيوكريت». وأضاف قوله: «والسيّد «فيردوران» على حقّ في جميع الأحوال، فما عسى أن تفيد شكواؤنا؟» ذلك أنّه كان قادراً على تمثّل صيغ فعلية معيّنة والأفكار التي تبعثها في نفسها ولكنّه إذ لم يكن يملك الحسّ المرفه فقد أعجبه في أقوال السيّد «فيردوران» نزعة التجلّد الأكثر شجاعة. - «مهما يكن من أمر فإن موهبة عظيمة صارت إلى زوال». - «عجباً، لازلتّم تتحدّثون عن «دوشامبر»؟» يقول السيّد «فيردوران» وكان سبقنا فعاد أدراجه إذ رأى أننا لا نلتحق به، قال له «بريشو»: «اسمع، يجب تخاشي الغلوّ في أيّ أمر. فليس من سبب إذ هو مات أن نجعل منه عبقرية لم يكنه. كان يعزف عزفاً لا غبار عليه، ذلك مفروغ منه، وكان على وجه الخصوص محوّطاً على أحسن حال هنا. فإن رُحِّل لم يعد له وجود. لقد شغفت به زوجتي فصنعت شهرته، وتعرف ما فطرت عليه. بل أزيد فأقول إنّ في صالح شهرته ذاتها مات في الوقت المناسب، في الوقت المحدّد كما هو شأن جرّاد البحر المشويّ حسب تعليمات «پاميي»<sup>(١)</sup> التي لا مثيل لها، هذا أمني (ما لم تستمرّ أبداً الدهر في مراثيك في هذه القصة المعرّضة لرياح الأرض جميعها). لست تقصد مع ذلك أن نهلك جميعنا لأن «دوشامبر» قضى نحبه وحينما كان يضطرّ منذ عام أن يعزف عدداً من السلالم قبل مباشرة حفلته الموسيقيّة كي يستعيد وقتياً، وقتياً ليس إلا، رشاقته. وسوف تسمع هذا المساء على أيّ حال، أو تلتقي على الأقلّ، لأن هذا النايح كثيراً ما يهجر بعد العشاء الفنّ للعب الورق، من كان فناً من غير طراز «دوشامبر»، فتى اكتشفته زوجتي (كما سبق أن اكتشفت «دوشامبر» و«يادرفسكي» والباقيين): إنّ «موريل». لم يصل ذاك اللعين بعد. سأضطرّ إلى إرسال عربة إلى القطار الأخير. إنّ آت بصحبة صديق قديم لعائلته عاد فالتقاء وهو يبعث في نفسه أشدّ السأم ولكنّما يقال إنّ كان اضطرّ لولا ذلك أن يبقى معه، تجنّباً لشكاوى والده، في «دونسيير» ليؤانسّه في مجلسه: إنّ البارون «دوشارلوس». ودخل الخلف. أمّا السيّد «فيردوران» الذي بقي في المؤخّرة وأنا أنزع أغراضني فقد أمسك بذراعي مازحاً مثلاً يفعل ربّ البيت حين لا يتوافر له العشاء مدعوّة يقدّمها لك لاصطحابها. «هل قمت برحلة مريحة؟» فقلت، وأنا أفكر بالاشتقاقات ولأني سمعت من يقول إنّ آل «فيردوران» كانوا يمحضون «بريشو» إعجاباً كبيراً: «أجل، لقد علّمني السيّد «بريشو» أموراً استهوتني كثيراً». فقال لي السيّد «فيردوران»: «لعلني كنت عجبت أن لم يعلمك شيئاً، فإنّه رجل شديد الاتّضاع قليل الحديث عن الأمور التي يعرفها». ولم يبد لي هذا المديح منصفاً جدّاً، فقلت: «إنّه يبدو ظريفاً». فأجاب السيّد «فيردوران»: «رائع، لذيد، ليس فيه ظلّ حماقة، غريب الأطوار خفيف

(١) الاسم المستعار الذي كانت توفّع به السيّد «ليون دوديه» مقالاتها في باب الأزياء والطبخ، و«ليون دوديه» هو مدير صحيفة «العمل الفرنسي».

الظلّ تبعده زوجتي وأنا كذلك»، أجاب بلهجة تعمرها المغلاة كمن يتلو درسه. حينذاك فقط أدركت أن ما قاله عن «بريشو» كان من باب التهكم. وتساءلت إن كان السيد «فيردوران» لم يزح عنه نير وصاية زوجته منذ الزمن الذي سمعته يتحدثون عن ذلك.

وعجب النحات أشدّ العجب أن علم أن أسرة «فيردوران» كانت ترتضي استقبال السيد «دوشارلوس». ففي حين كانوا في حيّ «سان جيرمان» حيث كان السيد «دوشارلوس» معروفاً على نطاق واسع لا يأتون البتّة على ذكر أخلاقه (وبجملها السواد الأعظم وهي موضع شكّ بالنسبة إلى آخرين يظنون الأمر بالأحرى صداقات لاهية، ولكنها أفلاطونية، وصنوّفاً من قلة الحذر، فيما يتستّر عليها بعناية المطلعون على الأمور فيرتفعون بمنابكهم إن جازت هذه الـ«غالاردون» السيئة المقاصد أو تلك بتلميح ما)، تلك الأخلاق التي يكاد لا يعرفها إلا بعض الألف كانت على العكس موضع مذمة يومية بعيداً عن الوسط الفني الذي يعيش فيه، شأن بعض ضربات المدفع التي لا تسمعها إلا بعد تداخل مع منطقة ساكنة. وفي تلك الأوساط البرجوازية والفنية التي كان يعدّ فيها التجسيد الحيّ للشذوذ كانت مكانته الاجتماعية الرفيعة ونبل محتده مجهولين على أية حال جهلاً تاماً من جرّاء ظاهرة شبيهة بتلك التي تجعل اسم «رونسار» لدى الشعب الروماني معروفاً على أنه اسم سيّد عظيم فيما أثّره الشعرية مجهولة هناك. وأكثر من ذلك أن نبالة «رونسار» قائمة في رومانية على خطأ. كذلك إن كان للسيد «دوشارلوس» في عالم الرّسامين والمثّلين سمعة سيّئة إلى هذا الحدّ فمرّد ذلك إلى أنهم كانوا يخلطون بينه وبين «كونت» اسمه «لوبلو دوشارلوس» لم يكن يمتّ إليه بأيّة صلة قرى أو هي بعيدة جداً، وسبق أن ألقي القبض عليه ربّما خطأ في واحدة من مدهامات الشرطة ظلّت مشهور. وخلاصة القول أن القصص التي كانت تروى عن السيد «دوشارلوس» كانت تنطبق جميعها على المزيف. كان الكثيرون من المحترفين يقسمون أنهم ارتبطوا بعلاقات مع السيد «دوشارلوس» وكانوا صادقين إذ يظنون «شارلوس» الزائف هو الحقيقي، وربّما سهّل الزائف التباساً نصفه تباهاً بالنبالة والنصف الآخر طمس للمنكر، والالتباس ظلّ فترة طويلة بالنسبة إلى الحقيقة (البارون الذي نعرفه) مصدر ضرر ثم أصبح فيما بعد، حين انزلق وفق ميوله، مصدر راحة إذ أمكنه أن يقول بدوره: «لست أنا». والآن ما كانوا بالفعل يتحدثون عنه. ثم إن ما كان يزيد من زيف التعليقات على واقعة حقيقية (هي ميول البارون) أنه سبق أن كان الصديق الحميم والطاهر إلى أبعد حدّ مؤلف كانت له في عالم المسارح، دونما سبب معروف، تلك السمعة وما كان يستحقّها البتّة، فحينما كانوا يشاهدونها معاً في واحد من العروض الأولى كانوا يقولون: «أنت تعلم»، مثلما يظنون أن الدوقة «دوغيرمانت» تقيم علاقات لا أخلاقية مع الأميرة «دوبارما» والأسطورة عسيرة الزوال لأنها ما كانت لتتلاشى إلا باقتراب من هاتين السيّدتين العظيمتين لن يصل إليه على الأرجح في يوم الناس الذين كانوا يردّونها إلا باستكشافهما بالمنظار في المسرح والافتراء عليهما لدى شاغل المقعد المجاور. وكان النحات يدي رأيه في أخلاق السيد «دوشارلوس» بترّد يتناقص حجماً بقدر السوء الذي لا بدّ كان عليه وضع البارون في المجتمع الراقي وبمقدار ما لا يملك أيّ نوع من المعلومات حول الأسرة التي ينتمي إليها السيد «دوشارلوس» وحول لقبه واسمه. ومثلما كان يعتقد «كوتار» أنّ الجميع يعرفون أن لقب دكتور في الطب لا يعني شيئاً ولقب طبيب داخلي في المشافي يعني شيئاً ما، يخطئ أرباب المجتمع الراقي إذ يتخيّلون أن الجميع

يملكون الأفكار نفسها التي يملكونها هم والذين من وسطهم حول أهمية اسمهم الاجتماعية.

كان أمير «أغريجان» غريباً مشبه الثروة في نظر خادم ندوة يدين لها بخمسة وعشرين فرنكا ذهباً ولا يستعيد أهميته إلا في حي «سان جيرمان» حيث يتوافر له ثلاث شقيقات دوقات لأن السيد العظيم إنما يخلف بعض الأثر لا في نفوس الناس المتواضعين الذين يبدو قليل القدر في نظرهم، بل في نفوس اللامعين الذين يحيطون بالحال التي هو فيها. وكان سيتاح للسيد «دوشارلوس» على أية حال أن يتبين منذ المساء نفسه أن ربّ المنزل كانت معلوماته حول أشهر الأسر الدوقية تفتقر إلى العمق. وظنّ النحات من واجبه، وقد أيقن أن آل «فيردوران» سيقعون في خطأ سببه الجهل إذ يفسحون لرجل فاسد أن يدخل منتداهم المصطفى إلى أبعد حدّ، أن ينتحي بالمعلمة جانباً. فأجابت السيدة «فيردوران»: «إنك على ضلال مبين، وأنا بأية حال لا أصدق البتّة مثل هذه الأمور وسأقول لك، بافتراض أنها صحيحة، إنها لن تعرّضني كثيراً للشبهات فيما يخصّني»، أجابت وبها حتى لأنّها كانت تحرص قبل كلّ شيء، إذ يمثل «موريل» العنصر الرئيسي في أيام أرباعها، على أن لا تثير استياءه. أمّا «كوتار» فلم يتمكّن من ابداء رأيه إذ كان طلب الصعود برهة «القيام بمسعى صغير» في «بيت الخلاء» ولكتابة رساله عاجلة جداً بعد ذلك لأحد المرضى في غرفة السيد «فيردوران».

وقفل ناشر كبير باريس جاء في زيارة وظنّ أنهم سيستبقونه، قفل راجعاً بحركة عنيفة سريعة وقد أدرك أنّه لم يكن على أناقة كافية بالنسبة إلى العشرة الصغيرة. كان رجلاً مديد القامة قوياً شديد السمرة مجدداً وبه ما يشبه الحدّ القاطع. كان يبدو كأنه قاطعة ورق من خشب الأبنوس.

كانت السيدة «فيردوران» قد وقفت هنيئة من لعبة تنازل فيها صديقاً وذلك كيما تستقبلنا في صالتها الفسيحة حيث تتناوب طاقات من النجيليات والخشخاش وزهر الحقول قطفت في ذات اليوم والموضوع نفسه الذي رسمه بلون متدرّج فنّان الذوق قبل قرنين، واستأذنتنا إنهاءها بدقيقتين فيما توالي الحديث معنا. ولم يرق لها ما نقلت من انطباعاتي إلا جزئياً بأية حال. فقد صدمني باديء الأمر أن ألاحظ أنّها وزوجها كانا يعودان أدراجهما فترة طويلة قبل ساعات المغيب التي تعتبر عظمة الجمال إنّما شوهدت من ذلك الجرف، وأكثر من ذلك من سطح «لاراسيلير»، وكنت قطعت أميالاً في سبيلها. وقالت السيدة «فيردوران» بدون تروّ وهي تلقي نظرة على النوافذ الفسيحة التي تبدو كأنّها باب مرجّح: «أجل، لا مثيل لذلك، وعيناً نشاهده في كلّ يوم فإننا لا نملّه»، ثمّ عادت بعينيها إلى ورق اللعب. على أن اندفاعي نفسه كان يجعل منّي شخصاً متطلباً. فأخذت أشكو من أنني لا أشاهد من الصالة صخور «درانتال» التي سبق أن قال لي «ايلستير» إنّها بديعة في هذا الوقت الذي تعكس فيه الكثير الكثير من الألوان، «آه! لا يسعك مشاهدتها من هنا ولا بدّ من الذهاب إلى أقصى المنتزه، في موقع «منظر الخليج»، فمن الموقع الظاهر هناك تحيط بالمشهد بكامله. ولكنك لا تستطيع الذهاب إلى هناك فقد تضرّ الطريق». وأضافت تقول بلهجة فاترة: «سأصحبك إلى هناك إن شئت». — «كلا»، ويحك، ألا تكفيك الأوجاع التي انتابتك ذلك اليوم فتريدين أخرى جديدة؟ سوف يعود ويشاهد منظر الخليج في مرّة ثانية. ولم ألحّ وأدركت أنّه يكفي آل «فيردوران» أن يعلموا أن تلك الشمس الغاربة كانت حتّى داخل صالتهم وقاعة طعامهم بمثابة لوحة رائعة ومينا يابانية ثمينة تبرّر الثمن المرتفع الذي يؤجّرون به «لاراسيلير»

مفروشة بالكامل ولكنهم نادراً ما يرفعون الأنظار إليها. فإن الشأن العظيم هنا هو العيش والاستمتاع والذهاب في نزاهات والطعام الجيد والحديث واستقبال أصدقاء ممتعين يحملونهم على لعب أدوار مسلّية من البلياردو ووجبات طيبة وعصرونيّات مرحة. ولكنّي تبَيّنت فيما بعد بأيّ ذكاء سعوا إلى تعرّف المنطقة إذ يحملون ضيوفهم على القيام بنزهات «مبتكرة» كالموسيقى التي يسمعونهم يَنَاقِها. لقد كان الدور الذي تلعبه الأزهار في «لاراسيلير» والدروب على امتداد البحر والبيوت القديمة والكنائس المجهولة في حياة السيّد «فيردوران» كبيراً إلى حدّ كاد لا يسع الذّهن ما كانوا يلتقونه إلّا في باريس وكانوا فيما يخصّهم يستبدلون بالحياة على شاطئ البحر وفي الأرياف من بذخ المدنية أن يدركوا معه الفكرة التي يحملها عن حياته ذاتها والأهميّة التي تضفيها مسرّاته عليه في نظره هو. وتزايد هذه الأهميّة من جرّاء أن آل «فيردوران» كانوا على يقين من أن «لاراسيلير» التي يعتزمون شراءها عقار فريد في العالم. وقد برّر هذا التفوّق الذي يعزوه اعتزازهم بذاتهم إلى «لاراسيلير»، برّر في نظرهم حماسي التي ربّما كانت أزعجتهم لولا ذلك بعض الشيء بسبب خيبات الأمل التي تتضمنها (كتلك التي سبّها لي فيما مضى سماعي لـ «لايرما») والتي كنت أكشف لهم بصدق عنها.

وهمست المعلّمة فجأة تقول: «ها إني أسمع العربية تعود وأملنا أنّها وجدتهم». لم تعد السيّد «فيردوران»، ونقولها بوجيز العبارة، لم تعد حتّى فيما عدا التغيّرات التي يفرضها السنّ لا محالة تشبه ما كانت عليه في الزمن الذي كان «سوان» و«أوديت» يسمعان الجملة الصغيرة في منزلها. فلم تعد ملزمة، حتّى حينما يجري عزفها، بهيئة يضيئها الإعجاب تتخذها فيما مضى لأن هيئتها تلك أصبحت وجهها. لقد اتّخذ جبين السيّد «فيردوران»، تحت تأثير الآلام العصبيّة التي تسبّبها له موسيقى «باخ» و«فاغنر» و«فانتوي» و«دوبوسي» أبعاداً هائلة كحال الأعضاء التي تشوّهها الرّية في نهاية المطاف. كان صدغها، وشبهان دائرتين جميلتين ملتئمتين موجعتين بلون الحليب، وفيهما يدوي على الدهر توافق الأنغام، تلقيان من كل جانب خصلا فضيّة وتعلنان لحساب المعلّمة ودون أن تكون بها حاجة للكلام: «إني أعلم ما الذي ينتظرني هذا المساء». فلم تعد قسماتها تجهد في أن تصبغ على التوالي انطباعات جماليّة مفرطة القوّة إذ كانت هي ذاتها كأنّها التعبير الدائم عنها في وجه متخضّن مستكبر. كانت وقفة التسليم بالآلام الآتية على الدوام التي يوقعها الجمال بها والشجاعة التي أبديت في ارتداء فسطان وهي لم تكذب تشفى من آخر «سوناتا»، كانت تقضي بالسيّد «فيردوران» إلى أن تحتفظ بوجه هادئ ينضح استخفافاً حتّى من أجل سماع الموسيقى الأكثر إيلاماً، بل هي تختبئ لا ابتلاع ملعقتي أسبيرين صغيرتين.

وصاح السيّد «فيردوران» مشروح الصدر وهو يرى الباب ينفّث في وجه «موريل» يتبعه السيّد «دوشارلوس»: «آه! أجل، ها هما». وبدا هذا الأخير، وما كان العشاء في منزل آل «فيردوران» يعني له البتّة ارتياد المجتمع الراقى بل التردّد على مكان مشبوه، بدا متخوّفاً كطالب تجهيز يدخل أوّل مرة المحلّ العمومي ويدي الكثير من الاحترام لـ «لباترونه». لذلك سادت رغبة السيّد «دوشارلوس» المعتادة في أن يبدو على رجولة وفطور (حينما طلع في الباب المفتوح) أفكار التادّب التقليديّة التي تستيقظ ما إن يقضي الخجل على موقف متصنّع ويلجأ إلى وسائل اللارعي. فإذا فعل شعور تادّب غريزيّ وراثي من هذا القبيل فعله في نفس أمثال

«شارلوس» هذا، سواء أكان نبيلًا أو بورجوازيًا، فإن روحَ قريةٍ أنثى مُعينة كإلهة أو متجسدة شأن صنوله هي التي تتولى على الدوام التعريف به في صالة جديدة وقولية موقفه إلى أن يكون وصل أمام ربة المنزل. فهذا رسام شاب ربه ابنة عمّ بروتستانية قديسة سيدخل مائل الرأس مرتعشًا والعين عالقة بالسما واليدان تشبثان بمقبض خفيّ يعين شكله الموحى به ووجوده الحقيقي المنقذ الفنان المثهب على اجتياز المسافة المليئة بالهاويات الكائنة بين الردهة والصالة الصغيرة دون خوف يعتريه من الأماكن العامة، هكذا كانت القرية الورعة التي توجّهه اليوم ذاكرها تدخل لسنين كثيرة خلّت وبهيئة المتأوّه حتّى ليتساءل المرء أية مصيبة جاءت تنقل أخبارها فإذا به يدرك منذ كلماتها الأولى، كما هو شأن الرسام الآن، أنها جاءت في زيارة هضمية. وبمقتضى هذا القانون نفسه الذي يقضي بأن تعمل الحياة، لصالح الفعل الذي لم يُنجز بعد، على الإفادة من موارث الماضي الأكثر مدعاة للاحترام، والأوفر قدسية أحياناً والأكثر براءة مرآت فقط واستخدامها وتشويهها في حركة تعهر مستمرة، ومع أنها تولد آنذاك مظهرًا مختلفًا، فقد كان ذاك الذي من بين أشقاء السيدة «كوتار» كان يغمّ أسرته بتصرفاته المخنثة وعلاقاته الاجتماعية يدخل دوماً دخول المتهلّل كما لو يعترم أن يفاجئك بأمر أو يشترك بإرث وقد نورّت وجهه سعادة لعلّ من العبث سؤاله عن سببها المرتبط بموروثه اللاواعي وجنسه المهاجر. كان يمشي على رؤوس أصابعه ويعجب دونما شك من نفسه أن لا يحمل في يده دفتر بطاقات زيارة ويمدّ يده وهو يفتح فاه على هيئة قلب كما شاهد عمته تفعل ولاتّجه النظرة القلقة الوحيدة لديه إلّا إلى المرأة التي يبدو أنّه يغيى التحقق فيها من أن قبّعت، مثلما سبق أن سألت السيدة «كوتار» ذات يوم «سوان»، لم تكن ماثلة، مع أنّه كان حاسر الرأس، أمّا السيد «دوشارلوس» الذي كان المجتمع يزوّده في هذه الدقيقة الحرجة بأمثلة مختلفة وخطوط زخرفية أخرى للطفافة وأخيراً بالحكمة القائلة بأنّه لا بدّ في بعض الحالات من أن نعلم، بالنسبة إلى محض بورجوازيين صغار، كيف نصنع ونفقد من مواطن الظرف الأكثر ندرة والتي يحتفظ عادة على سبيل الاحتياط، فقد توجّه صوب السيدة «فيردوران» وهو يحرك جسمه بلطف متكلف وبالاتساع نفسه الذي يوليه ويقيد فيه لبس التنورة تمايلاته وبهيئة من تدغدغ مشاعره وتكرمه إلى حدّ يخيل إليك معه أنّ التعريف به في منزلها كان في نظره أرفع منه تسدى إليه. وكان وجهه نصف المائل الذي يتنازع الارتفاع والتهديب تغضنه تجاعيد صغيرة من اللطفافة. ورّما خلّت السيدة «دومارصانت» تتقدّم نحوك لشدة ما تبرز في هذه اللحظة المرأة التي جعلتها هفوة للطبيعة في جسم السيد «دوشارلوس». صحيح أن البارون جدّ كثيراً لطمس تلك الهفوة واتخاذ مظهر ذكوري. ولكنّه ما كاد يفلح في هذا الأمر وإذا احتفظ في الوقت نفسه بالميول نفسها، فإن عادة الشعور شعور المرأة أخذت تكسبه مظهرًا أنثويًا جديدًا ناجماً لا عن الوراثة بل عن الحياة الفردية. ولما أخذ يتوصّل شيئاً فشيئاً إلى التفكير حتّى في الأمور الاجتماعية بالمؤنث، وذلك دون انتباه منه، فليس يكفّ المرء عن ملاحظة كذبه لا لفرط ما يكذب على الآخرين فحسب بل لفرط ما يكذب على نفسه، ومع أنّه طالب جسده أن يبرز بشكل جليّ (حين كان داخلاً إلى منزل آل «فيردوران») كامل التأدّب الذي يميّز السيد الكبير، فإن هذا الجسد الذي أدرك تماماً ما كفّ السيد «دوشارلوس» عن فهمه أبرز، إلى حدّ لعلّ البارون استحقّق معه صفة «مشابه السيدة»، جميع صنوف إغراء السيدة الكبيرة. وهل يمكننا من جانب آخر أن نفصل فصلاً تاماً بين مظهر السيد «دوشارلوس» ومسألة أن الأبناء، وليسوا دوماً على شبه الأب إنّما يتمّون، حتّى دون أن يكونوا شاذين



وفي بحثهم عن النساء، يَتَمَوَّنُ في وجههم تدنيس اسم والدتهم؟ ولكن لندع جانباً ههنا ما رَيمَا كان أهلاً بفصل منفرد: الأمهات اللواتي تدنّس أسماؤهن.

ومع أنّ ثمة أسباباً أخرى توجّه هذا التحوّل الحاصل لدى السيّد «دوشارلوس» وأن خمائر ماديّة خالصة تخمّر المادّة لديه وتنقل جسمه شيئاً فشيئاً إلى فئة الأجسام الانثويّة، فإنّ التحوّل الذي تشير إليه هنا كان ذا منشأً روحيّ. والمرء لفرط ما يخال نفسه مريضاً يصيبه المرض ويهزل ولا يقوى من بعد على القيام ويصاب بالتهابات معويّة عصبية. ولفرط ما يفكر المرء بالرجال تفكيراً رقيقاً يصبح امرأة ويقيّد فسطان مستعار خطاك. إن الفكرة الثابتة تستطيع أن تغبّر في تلك الأحوال الجنس (مثلما الصّحة في أحوال أخرى). وأقبل «موريل» الذي كان معه يحييني. وقد خلّف في نفسي منذ ذلك الوقت، بسبب تحوّل مزدوج جرى في داخله (ولم أفلح في وقت مبكر كافٍ للأسف في أخذه في الاعتبار)، انطباعاً سيئاً. وإليك السبب. لقد قلت إنّ «موريل» الذي أقلت من عبوديّة والده، كان يستحلي بعامة ألفه شديدة التعالي. فقد سبق أن كلّمني يوم جاءني بالصور الشمسيّة دون أن يقول لي مرّة واحدة يا سيّد وعاملني معاملة الأعلى للأدنى. وبالدّهشتي في منزل السيّد «فيردوران» إذ رأيته ينحني انحاءاً عظيمة أمامي، وأمامي وحدي وسمعت منه، حتّى قبل أن يتفوّه بأيّ كلام آخر، لفظتي احترام ويفيض احتراماً يوجّهها إليّ - وكنت أظنّ من المستحيل ورود هاتين الكلمتين على شفتيه أو أن يجري بهما قلمه! وداخلني في الحال انطباع مفاده أنّ لديه أمراً يطلبه منّي. وانتحى بي بعد دقيقة ناحية وقال لي، وقد بلغ به هذه المرّة أن يكلّمني بصيغة الغائب: «سوف يؤدّي لي سيّدني خدمة كبيرة جداً إن أخفى تماماً عن السيّد «فيردوران» ومدعوّيها نوع المهنة التي كان يشغلها والذي في منزل عمّها. والأفضل أن يقال إنّّه كان في عائلتكم قيماً على أملاك واسعة حتّى ليجعل منه ذلك مساوياً تقريباً لوالديك». كان مطلب «موريل» يغيظني إلى مالا حدود لا لأنّه يضطرّني إلى تضخيم وضع والده، وما كان يهمني ذلك، بل إلى تضخيم ثروة والدي ظاهرياً على الأقلّ، وهو ما أجدّه مضحكاً. ولكنّ هيئته بدت تعيسة جداً ملحاحاً إلى حدّ أني لم أرفض. وقال متوسلاً: «لا، قبل العشاء، فلدى سيّدني ألف حجة كي ينتحي بالسيّد «فيردوران» جانباً». وذلك ما فعلت محاولاً أن أرفع ما وسعني الأمر من بريق اسم والد «موريل» دون أن أفرط في تضخيم نمط معيشة والديّ وما يملكان تحت الشمس. ومرّ ذلك مرور رسالة في البريد، على الرغم من استغراب السيّد «فيردوران» التي سبق لها أن عرفت جدّي معرفة سطحيّة. ولما كانت تعوزها اللباقة وكانت تكره الأسر (هذا العنصر الحالّ للنواة الصغيرة) فقد قالت لي، بعد ما أخبرتني أنّها تحت والد جدّي في الماضي وكلّمتني عنه وكأنّما عن رجل يكاد يكون مخبولاً ولعلّه ما كان ليفهم شيئاً في المجموعة الصغيرة، و«ما كان منها»، حسب تعبيرها: «الأسر بآية حال باعثة على الملل وتوقنا الوحيد أن نخرج منها»؛ وروت لي في الحال عن والد جدّي سمّة كنت أجهلها مع أنّي كنت ارتبت في المنزل (وما كنت عرفته ولكنّهم كثيراً ما كانوا يتحدثون عنه) ببخل لديه نادر (يقابله كرم يتجاوز قليلاً حدّ البذخ يتّسم به شقيق جدّي صديق السيّد ذات الأنواب الوردية وربّ عمل والد «موريل»): «بما أن أجدادك كانوا يملكون مدير أعمال أنيقاً إلى هذا الحدّ فإنّما يعني ذلك أن ثمة أناساً من كلّ لون في داخل الأسر. لقد كان والد جدّك بخيلاً إلى حدّ أنّه، وهو يقارب الخرف في آخر العمر، فما كان في يوم، والأمر بيننا، صلب العود وإنّك تفتديهم جميعاً -، لم يكن يقبل بانفاق ثلاثة فلوس

أجرة سيارة النقل العامة. وهكذا اضطرّوا أن يرسلوا من يتبعه ويوهم العجز الشحيح بأن صديقه السيّد «دويرسيني» وزير الدولة قد حصل له على التنقل مجاناً في سيارات النقل العامة، وإني بأية حال مسرورة جداً أن كان والد «موريل» على مثل مكانته. وكنت فهمت أنه مدرس في المدرسة الثانوية، وما هم فقد كنت أخطأت الفهم. ولكننا الأمر قليل الأهمية لأنني سأقول لك إننا لا نقدر هنا إلا القيمة الذاتية والإسهام الشخصي وما أسميه المشاركة، بشرط أن يكون المرء من دنيا الفن، وبوجيز العبارة أن يكون من الجماعة، أما الباقي فقليل الأهمية. والطريقة التي كان بها من المجموعة - بقدر ما وسعني أن أعلم - أنه كان يحب النساء والرجال بما يكفي كي يمتنع كل جنس بوساطة ما سبق أن جرّبه على الآخر، وهذا ما سوف نراه لاحقاً. لكن ما كان من الجوهري قوله هنا أنني ما إن أعطيته عهداً بالتدخل لدى السيّدة «فيردوران»، وما إن فعلت ذلك على وجه الخصوص ودون تراجع ممكن حتى تبخّر «احترام» «موريل» الموجه إليّ وكأنما بسحر ساحر واختفت عبارات الاحترام، بل هو تجنّبي بعض الوقت وهو يتدبّر أمره كي يبدو وكأنه يزدريني حتى إنه إن أرادت السيّدة «فيردوران» أن أقول له شيئاً ما وأن أطلب منه هذه المقطوعة الموسيقية أو تلك كان يوالي حديثه مع أحد الخالص ثم ينتقل إلى آخر ويبدّل مكانه إن مضيت إليه. وكانوا يضطّرون أن يقولوا له حتى ثلاث مرّات أو أربع إنني توجّهت بالحديث إليه، وبعد ذلك كان يرّد عليّ بهيئة المرغم وباختصار إلا إذا كنّا وحدنا. وإذ ذاك كان كثير الكلام ودوداً إذ يملك أفساماً رائعة في طباعة. لكن ذلك لم يحل دون أن أخلص من هذه الأهمية الأولى إلى أن طبيعته لا بدّ كانت خسيصة وأنّه لا يحجم إن اقتضى الأمر عن أي إسفاف وأنّه يجهل عرفان الجميل، وكان يشبه في ذلك السواد الأعظم من الناس. بيد أنني، لما كنت أحمل في داخلي شيئاً من جدّي وكان يروني تنوّع الناس دون أن أنتظر حاجة منهم أو أحقد عليهم، أهملت ذنائه وراقتي مرحة حيثما توافر ذلك، بل راقتي ما أظنّه كان صداقة صادقة من جانبه حينما تبين، بعدما استعرض كامل معارفه الزائفة عن الطبيعة البشرية تبين (بشكل غير منتظم، إذ كانت له ردّات غريبة إلى عشوائيته البدائية العمياء) أن رقتي معه كانت غير مغرضة وأنّ تسامحي لا يصدر عن قلة تبصّر بل عمّا دعاه طيبة، وفنتني على وجه الخصوص فنّه الذي كاد يكون محض مهارة رائعة ولكنها كانت تسمعي من جليد أو تعرفني كمّاً كبيراً من الموسيقى الجميلة (دون أن يكون موسيقياً حقيقياً بالمعنى الثقافي للكلمة). وقد أفلح على أيّة حال مدير أعمال هو السيّد «دوشارلوس» الذي كنت أجهل لديه تلك المواهب (مع أن السيّدة «دوغيرمانت» التي سبق أن عرفته مختلفاً جداً في شبابهما زعمت أنه ألف لها «سوناتا» ورسم مروحة يدويّة، الخ..). وكان متواضعاً فيما يخصّ مواطن تفوّقه الحقيقي ولكنّه من الطراز الأوّل، أفلح في وضع هذه المهارة في خدمة حسنّ فنيّ متعدّد زائدها عشرة أضعاف. فلنتصوّر فنّاناً من الباليه الروسي يتمنّع بمهارة بحتة ثم يهدّب ويدرب ويطور على يدي السيّد «دياغيليف».

كنت نقلت منذ قليل الرسالة التي كلّفني «موريل» حملها إلى السيّدة «فيردوران» وكنت أحدث السيّد «دوشارلوس» عن «سان لو» حينما دخل «كوتار» إلى الصالة يعلن، وكأنما ثمّة حريق، عن وصول آل «كامبرير». ولم تحرك السيّدة «فيردوران» ساكنها كي لا تبدي في حضرة أغرار من أمثال السيّد «دوشارلوس» (الذي لم يكن رآه «كوتار») ومثلي أنّها تولي هذا القدر من الأهمية وصول آل «كامبرير» ولم تردّ على

إعلان هذا الخبر واكتفت بأن قالت للدكتور وهي تحرك مروحتها برشاقة وباللهجة المتكلفة نفسها التي لمركيزة في المسرح الفرنسي: «كان البارون يقول لنا بالضبط...»، وكان ذلك كثيراً على «كوتار»! فصاح بحماسة أقل مما كان فعل فيما مضى، لأن الدراسة والمراكز العالية التي شغلها كانت قد بطأت إلقاءه، ولكنما بذلك الانفعال الذي يلقاه مع ذلك لدى آل «فيردوران»: «بارون! أين هو البارون؟ أين هو البارون؟» صاح وهو يبحث عنه بعينه بدهشة تقارب الشك واللاتصديق. وأجابت السيّد «فيردوران» باللامبالاة المتكلفة التي تبديها ربة بيت لخدام أتى أمام المدعوين على كسر كأس ثمينة، وبالنبرة المصطنعة المبالغ في ارتفاعها التي يتخذها حامل جائزة الكونسرفتوار الأولى وهو يمثل نصاً لـ «دوما» الابن، أجابت وهي تشير بمروحتها إلى حامي «موريل»: «إنه البارون «دوشارلوس» الذي سأعرفه باسمك... يا سيادة الأستاذ «كوتار». ولم يكن يسوء السيّد «فيردوران» على أية حال أن تسنح فرصة لعب دور السيّد الكبيرة. ومد السيّد «دوشارلوس» إصبعين شدّ عليهما الأستاذ بابتسامة «أمير العلم» المجانية، ولكنه توقّف في الحال إذ رأى أسرة «دوكامبرمير» داخله فيما كان السيّد «دوشارلوس» يدفع يي إلى زاوية ليقول لي كلمة، ولا يفعل دون أن يتلمّس عضلاتي، وهي طريقة ألمانية. لم يكن السيّد «دوكامبرمير» يشبه كثيراً المركز العجوز، فقد كان «بالتمام من جهة والده»، كما تقول بصوت حنون. كان مظهره الجسماني يدهش بالنسبة لمن لم يسمع إلا من يتحدث عنه أوحيتي عن رسائل منه تنبض بالحياة وقد صيغت صياغة مناسبة. كان لابدّ من التعود على الأمر دونما شك، لكن أنفه كان قد اختار، بغية أن يتخذ مكاناً له موارباً فوق فمه، ربما الخطّ المائل الوحيد من بين الكثير غيره الذي ما كانت لتوافيك فكرة اختطاطه على ذاك الوجه والذي كان يعني غلطة فظة يزيد منها مجاورتها للون نورمانديّ أحمر حمرة التفاح. ومن الممكن أن تكون عينا السيّد «دوكامبرمير» احتفظنا في الجفنين بشيء من سماء «الكوتنتان» وما أحلاها في الأيام الجميلة المشمسمة التي يتلهّى فيها المتنزه بأن يشاهد ويعدّ بالمئات ظلال أشجار الصفصاف المتوقفة على حافة الطريق، ولكن هذه الجفون الثقيلة الرمضاء السيئة الإطباق كانت حالت حتى دون مرور الفكر نفسه. لذلك كنت تردّد إلى الأنف الكبير الموارب، وقد حيرتك هزلة تلك النظرة الزرقاء. فكان السيّد «دوكامبرمير» بمناقلة بين الحواس ينظر إليك بأنفه. وما كان أنف السيّد «دوكامبرمير» هذا قبيحاً، بل هو إلى حدّ أكثر من جميل، مفرط البروز مفرط الاعتزاز بأهميته. كان بعقفته وصقله ولعانه وجدته الثامة مهياً تماماً للتعويض عن قصور النظرة الروحي. ولئن كانت العينان أحياناً العضو الذي يتكشف فيه الذكاء، فإن الأنف لسوء الخطّ (أياً يكون من جهة أخرى التضامن الحميم والتأثير غير المتوقع للقمصان بعضها في بعض) هو العضو الذي تنكشف فيه البلاهة بعامة كأيسر ما يكون الانكشاف.

عشاً كانت لياقة الأنواب القاتمة التي يرتديها السيّد «دوكامبرمير» على الدوام، حتى في الصباح، تطمئن أولئك الذين كان يهرهم ويثير حتقهم الألق الوقح لبرّات الشاطئ التي يرتديها أناس ما كانوا يعرفونهم، فما كان بوسعك أن تدرك كيف تعلن زوجة الرئيس الأوّل بهيئة الفطين ولهجة صاحب السلطة، وبوصفها شخصاً أكثر خبرة منك بالمجتمع الراقي في «آلانصون»، أن المرء في حضرة السيّد «دوكامبرمير» يحسّ نفسه في الحال، حتى قبلما يعرف من عساه يكون، في حضرة رجل رفيع السوية، رجل مهذب أكمل التهذيب يعطيك صورة من غير نمط «البليك»، رجل تستطيع بجواره أن تتنفّس. لقد كان في نظرها، هي

التي تختنق من جرّاء وفرة السائحين في «بالبيك» ممّن لا يعرفون عالمها، كأتمّا قارورة أملاح. وبدا لي على العكس من فعة أناس كانت وجدتهم جذّي في الحال «سيئين جداً، ولعلّها وهي لا تفهم السنويّة كانت دهشت أن أفلح في أن تزوّجه الأنسة «لوغراندان» التي لابدّ كانت متشدّدة بأمر التأتّق هي التي كان شقيقها متأنّقاً إلى هذا الحدّ، كان يمكن بالأكثر أن نقول عن دمامة السيّد «دوكامبرمير» المألوفة أنّها إلى حدّ ما من المنطقة وتتسم بشيء من الطابع المحلي القديم جداً. كنت إزاء قسماته المغلوطة التي وددت لو تقومها تفكّر بأسماء تلك المدن النورمانديّة الصغيرة التي كان الكاهن الذي أعرفه يخطيء في أصولها لأن الفلاحين أساووا لفظ أو فهم الكلمة النورمانديّة أو اللاتينيّة التي تدلّ عليها فثبتوا في نهاية المطاف معنى خاطئاً ولفظاً مشوهاً في صيغة مغلوطة فاضحة تجدها مذ ذاك في سجلات الكنائس، حسبما كان قال «بريشو». والحياة في هذه المدن الصغيرة القديمة يمكن على أيّة حال أن تكون متمعة ولابدّ أن السيّد «دوكامبرمير» كان يملك صفات مميزة لأنّه إن كان من خصائص الأمّ أن تفضّل المركيزة المعجوز ابنها على كتنّتها فإنّها في المقابل، هي التي ولّد لها عدّة أولاد اثنان منهم على الأقلّ لا يخلوان من المزايا، كثيراً ما كانت تعلن أن المركيز في رأيها أفضل أسرته. وكان رفاقه في الفترة القليلة التي أمضاها في الجيش قد أطلقوا عليه، إذ يجدون تطولاً مفرطاً في قولهم «كامبرمير»، لقب «كانكان» الذي لم يكن استحقّه في شيء في جميع الأحوال. كان يعرف كيف يزيّن حفل عشاء إذ يقول ساعة تقديم السمك (وإن تفسّخ السمك) أو الطبق الأول: (ماذا عساني أرى، يبدو لي أن ذلك صيد ثمين). وإذا تبنت زوجته حين دخولها الأسرة كل ماظنت أنّه في صميم طراز ذاك المجتمع فقد أخذت ترتفع إلى مستوى أصدقاء زوجها وتحاول أن تحسن في عينه على غرار عشيقه وكما لو سبق أن كانت في صلب حياته يوم كان عازباً فتقول بهيئة طليقة حينما تحدّث ضباطاً عنه: «ستلتقون «كانكان» عمّا قليل، لقد ذهب «كانكان» إلى «بالبيك» ولكنّه سيعود في المساء». وكانت حانقة من أنّها تعرّض نفسها للشبهات هذا المساء في منزل آل «فيردوران» وهي لا تفعل إلّا نزولاً عند رغبة حمايتها وزوجها ولصالح الإيجار. لكنّها، وهي أقلّ تهذيباً منهما، لم تكن تخفي السبب وكانت تهزأ من ذلك العشاء مع صديقاتها منذ خمسة عشر يوماً. «تعلمن أنّنا نتناول عشاءنا في منزل مؤجّرنا، والأمر يستحق زيادة في الإيجار. وبني فضول في الأساس أن أعلم ما الذي أمكن أن يفعلوه بمبنى «لاراسيلبير» العتيق المسكين (وكأتمّا ولدت وتعثر فيه على ذكريات أهلها جميعاً). لقد قال لي حارسنا المعجوز البارحة أيضاً أن لم يعد شيء بعد معروفاً. وتخونني الجرأة في التفكير بكل ما لابدّ يجري في الداخل، وفي اعتقادي أنّنا نحسن فعلاً إن أمرنا بتطهير كلّ شيء قبل العودة للإقامة فيه». قدمت متعالية مقطّبة ولها هيئة سيّدة عظيمة يحتل الأعداء قصرها بسبب حرب وقعت، ولكنّها تحسّ مع ذلك أنّها في بيتها وتحرص على أن تبين للمتصرّين بأنّهم دخلاء. لم تستطع السيّدة «دوكامبرمير» أن تراني بادئ الأمر لأنّني كنت في شرفة جانبيّة مع السيّد «دوشارولس» الذي كان يقول لي إنّ علم من جانب «موريل» أنّ والده سبق أن كان «مدير أعمال» في أسرتي وأنّه، هو «شارولوس»، يعتمد اعتماداً كافياً على ذكائي وشهامتي (والكلمة مشتركة بينه وبين «سوان») كي أمتنع عن المتعة السافلة الخسيسة التي لن يتردّد أغبياء صغار منحطون (وهكذا بلغني التحذير) في اتخاذها في مكاني وذلك بأن يكشفوا لمضيفينا تفاصيل ربّما ظنّوها هؤلاء تحطّ من شأنه. وخلص البارون إلى القول: «أن مجرد اهتمامي به وحمايتي له يتّسمان بشيء

من الرفعة الزائدة ويطلان الماضي». وفيما أصغني إليه وأعده بالصمت الذي كنت لزمته حتى دون أمل أن يراني بالمقابل ذكياً وشهماً، كنت أنظر إلى السيدة «دوكامبرمير». وعسر على أن أتعرّف الشيء الذائب اللذيذ الذي كان في ذاك اليوم بالقرب مني ساعة العصرية، على شرفة «البليك»، في الفطيرة النورماندية التي كنت أراها قاسية كالحصاة وعبثاً كان الخَلَص سيحاولون نهشها. فإذا تملكها الحنق سلفاً من الجانب الساذج الذي ورثة زوجها عن أمّه والذي ربّما أكسبه مظهر «المتشرف» حينما يقدمون له الخَلَص، ورغبة منها مع ذلك في القيام بوظيفتها كأميرة من المجتمع الراقي فقد شاءت، حينما ذكروا لها اسم «بريشو»، أن تعرّفه إلى زوجها إذ سبق لها أن شاهدت صديقاتها الأوفر أناقة يعلن هكذا، ولكن الحنق أو الكبرياء تغلب على التباهي بحسن التصرف فقالت، لا كما لعلّه انبغى أن تفعل: «اسمح لي أن أقدم لك زوجي»، بل «أقدم لك زوجي»، رافعة بذلك عالياً راية آل «دوكامبرمير» رغم أنهم لأنّ المركز انحنى أمام «بريشو» انخاء تساوي ما كانت توقّعه. إلا أن كامل مزاج السيدة «دوكامبرمير» هذا تغيّر فجأة حينما أبصرت السيد «دوشارلوس» الذي كانت تعرفه شكلاً. ولم تكن أفلحت في يوم أن يعرفوها به حتى في فترة العلاقة التي ربطتها بـ«سوان» لأن السيد «دوشارلوس»، إذ كان يتخذ على الدوام جانب النساء، جانب زوجة أخيه ضدّ سائر عشيقات السيد «دوغيرمانت»، و«أوديت» وهي غير متزوجة حينذاك ولكنّ علاقتها بـ«سوان» قديمة، ضدّ الجديدات، كان قطع لـ«أوديت» وعداً — برّ به —، هو المدافع الصارم عن الأخلاق وحامي الأزواج المخلص، بأن لا يسمح بذكر اسمه للسيدة «دوكامبرمير». ولم ترتب هذه الأخيرة بالتأكيد بأنّها لن تتعرّف هذا الرجل الذي يصعب الاقتراب منه إلا في منزل آل «فيردوران». وكان السيد «دوكامبرمير» يعلم أن الأمر يمثل في عينيها فرحاً عظيماً إلى حدّ أحسّ معه أن نفسه رقت به ونظر إلى زوجته بهيعة من يعني: «ها إنك راضية أن تكوني قرّرت المجيء، أليس كذلك؟» كان قليل الكلام على أيّ حال وهو يعلم أنّه تزوّج امرأة متفوّقة. «أنا غير أهل»، يقول في كل لحظة ويستشهد بكلّ سرور بمثل لـ«لافونتين» وآخر لـ«فلوريان» يبدو أنّهما ينطبقان على جهله ويمكّانه من جانب آخر بأشكال من التملّقى المتعالي أن يبرهن لرجال العلم الذين ليسوا من نادي الخيول أنّه يمكنك الصيد وأن تكون قرأت أمثالا. أمّا المصيبة فأنّه كاد لا يعرف إلا مثلين، ولذلك كثيراً ما كان يردّ ذكرهما. لم تكن السيدة «دوكامبرمير» غبية ولكن بها عادات مختلفة مزعجة جداً. فلم يكن تشويه الأسماء عندها يتسم على الإطلاق بشيء من التعالي الارستقراطي. فليس هي من لعلّها، شأن الدوقة «دوغيرمانت» (التي كان ينبغي من جرّاء نبل محتدها أن تكون في مأمن من تلك المزجة المضحكة)، كانت قالت كي لا يبدو أنّها تعرف الاسم القليل الأنافة (في حين هو الآن اسم واحدة من النساء اللواتي يصعب أكثر ما يصعب الاتصال بهن)، اسم «جوليان دو مونشاتو»: «سيدة هينة هي السيدة «بيك دولاميراندول»، لا، فحينما كانت السيدة «دوكامبرمير» تذكر خطأ أحد الأسماء فمن باب العطف وكلي لا يبدو أنّها تعرف شيئاً ما، وحتى حينما كانت تقرّ بالأمر من باب الصراحة فلظنّها أنّها تخفيه بنزع علامته المميزة. فإن كانت على سبيل المثال تدافع عن امرأة كانت تحاول أن تتسرّ، فيما تودّ أن لا تكذب على من يتوسّل إليها أن تقول الحقيقة، على أن السيدة فلانة هي الآن عشيقة السيد «سيلفان ليفي» وكانت تقول: «لا... لست أعلم شيئاً عنها على الإطلاق، وأظنّ أنّهم لاموها على أنّها أشعلت نار الهوى في صدر سيّد لا أعرف اسمه، شيء على شاكلة «كان»، «كون»، «كين». وأظنّ

على أية حال أن هذا السيد قضى منذ فترة طويلة جداً وأن لم يقع البتة شيء بينهما. إنها الطريقة الشبيهة بطريقة الكذابين - (وهي نقيض طريقتهم) - الذين يتصورون، إذ يحرفون مافعلوا حين يروون عنه لعشيقه أو لمجرد صديق، أن هذا أو تلك لن تتبين في الحال أن الجملة المحكية (على غرار «كان» و«كون» و«كين») مدسوسة وأنها من غير نوع الجمل التي تؤلف الحديث وأنها مزدوجة القعر.

سألت السيدة «فيردوران» زوجها همساً: «هل آخذ بذراع البارون «دوشارلوس»؟ فلعلنا استطعنا، بما أن السيدة «دوكاميرير» ستكون على يمينك، مصالبة الجماللات». فقال السيد «فيردوران»: «لا، لأن الثاني أرفع مرتبة ويقصد بذلك أن السيد «دوكاميرير» مركيز، وأن السيد «دوشارلوس» باختصار القول أدنى منه». - «حسن، أقيحه إذاً إلى جانب الأميرة». وعرفت السيدة «فيردوران» السيدة «شيرياتوف» بالسيد «دوشارلوس»، وانحنى الاثنان بصمت وكأتما يعرفان الكثير الواحد عن الآخر وبعد كل منهما الآخر بسرية متبادلة وقدمني السيد «فيردوران» للسيد «دوكاميرير». كانت قامته المديدة ومجياه النضر يبرزان في تأرجحهما، حتى قبل أن يكون تحدث بصوته القوي المتلعم، بعض الشيء، التردد العسكري لدى قائد يحاول طمأنتك ويقول لك: «لقد كلموني، وسوف تتدبر الأمر؛ على رفع عقوبتك، فلسنا مصاصي دماء؛ سيكون كل شيء على مايرام». ثم قال لي وهو يشد على يدي: «أظن أنك تعرف والدتي». وفعل «أظن» كان يبدو له من جهة أخرى أنه يناسب التحفظ الذي يسود أول تعريف بك ولا يعبر مطلقاً عن شك، إذ أضاف يقول: «وإني على أية حال أحمل رسالة منها إليك». كان السيد «دوكاميرير» يحس سعادة ساذجة أن يعود فيرى أماكن عاش فيها فترة طويلة. فقال للسيدة «فيردوران»: «ها إني اعرف طريقي»، فيما تلتصع الدهشة في عينيه لتعرفه لوحات الأزهار المرسومة فوق الأبواب والتمائيل الرخامية النصفية على قواعدها العالية. كان يمكن مع ذلك أن يحس بالغرابة لأن السيدة «فيردوران» كانت قد حملت معها الكثير من الأشياء القديمة الجميلة التي تملكها. وما كانت السيدة «فيردوران» من هذه الزاوية، وفيما يعتبر آل «كاميرير» أنها تقلب كل شيء رأساً على عقب، ثورية بل محافظة ذكية بمعنى لا يدركونه، كانوا كذلك يتهمونها زوراً بأنها تمقت هذا المنزل القديم وأنها تخط من قدره بلوحات بسيطة بدلاً من مخالمهم الفاخرة، مثلما يلوم كاهن جاهل مهندساً في دار الأسقفية لأنه يعيد إلى مكانها خشبيات قديمة محفورة كانت وضعت جانباً وظن رجل الدين من الأفضل أن يحل محلها زينات ابتاعها في ساحة «سان سوليس». ثم إن حديقة متعددة النباتات أخذت تحل أمام القصر محل الأحواض التي كانت موضع اعتزاز آل «كاميرير» ويستأنهم من قبلهم. وكان هذا يعتبر آل «كاميرير» وحدهم أسباده ويمن من جور آل «فيردوران» كما لو احتل الأرض مؤقتاً غاز وجماعة من الأجلاف، فيروح سراً يتظلم إلى المالكة التي نزع ملكيتها وتثور ثائرتة للمكانة الزرية التي يضعون فيها شجيرات «الأروكارية» وأزهار «البيغونية» والمخلدات والدهلية المزروجة ولأنهم يجرؤون في منزل غني إلى هذا الحد على غرس أزهار بمثل ابتذال الأقحوان وشعر الأرض. وكانت السيدة «فيردوران» تحس تلك المقاومة الخفية وقد عقدت العزم إن هي أقدمت على إيجار طويل الأمد أو ابتاعت «لاراسيلير» أن تشتتر صرف البستاني الذي تحرص عليه صاحبة البيت العجوز أشد الحرص. فقد خدمها مقابل شيء زهيد في الأيام الصعبة وكان يعدها. ولكنه كثيراً ما كان يقول عن السيدة «دوكاميرير» التي اضطرت عام ٧٠ وقد فأجأها الغزو في قصر كانت تملكه في الشرق أن

تتحمل على مدى شهر الاتصال بالألمان، يقول، من جرّاء هذا التجزئ الغريب في رأى عامة الناس حيث يداخل الأزراء الأدبي الأكثر عمقاً التقدير الذي يتسم بأشدّ الحماسة والذي يمتزج بدوره بأحقاد دفينّة: «ما عابوا أشدّ العيب على السيّد المركزية أنّها اتخذت في أثناء الحرب جانب البروسيين وأنّها حتّى أسكنتهم في بيتها. ولعلني في وقت آخر كنت فهمت، لكنّها ما كان ينبغي أن تفعل في زمن الحرب. فذاك غير صحيح». وهكذا كان يخلص لها حتّى الموت ويكرّمها لطيبتها ويؤكد أنّها ارتكبت جريمة الخيانة. وغازل السيّد «فيردوران» أن يزعم السيّد «دوكامبرمير» أنّه يتعرّف بهذا التمام «لاراسيلير». وأجابت تقول: «لابدّ مع ذلك أن نجد بعض التغييرات؛ فثمّة بادئ الأمر تماثيل ضخمة من البرونز من أعمال «باريديين» ومقاعد لعينة مؤبّرة سارعت إلى إرسالها إلى التسقيفة وهي أكثر بما تستحقّ». وبعد هذا الردّ اللاذع الموجه إلى السيّد «دوكامبرمير» مدّت له ذراعها للذهاب إلى المائدة. وتردّد لحظة يقول في نفسه: «ليس يصحّ مع ذلك أن أمرّ قبل السيّد «دوشارلوس». ولكنّه قرّر، إذ فكّر أن هذا صديق قديم لأهل الدار بما أنّه لم يخصّ بمقعد الشرف، قرّر أن يأخذ الذراع الممدودة إليه وقال للسيّد «فيردوران» كم كان فخوراً بقبوله في الندوة (هكذا سمى النواة الصغيرة دون أن يفوته أن يضحك قليلاً اعتزازاً بمعرفة تلك اللفظة). أمّا «كوتار» الذي كان يجلس بجانب السيّد «دوشارلوس» فكان ينظر إليه من تحت نظارته للتعارف وكسر الجليد بغمزات تزيد كثيراً في إلحاحها عمّا لعلّها كانت بدت فيما مضى ولا تقطّعها صنوف من الخجل. ولم يعد زجاج نظارته يحتوى نظرات الإغراء عنده، وقد تعاطمت بابتسامته فتفيض عنه من كلّ جانب. ولم يشك البارون الذي كان يبصر بيسر أشباهاً له في كلّ مكان، لم يشك أنّ «كوتار» واحد منهم وأنّه يغمز له بعينه. فأبدى للأستاذ في الحال قسوة الشاذّين، وهم في احتقارهم لمن يحسنون في عينه يمثل تهالكهم الشديد على من يحسن في عيّنهم. وليس من شك، مع أن الجميع يتحدثون كذباً عن العذوبة التي يحجبها القدر على الدوام والمتمثلة في أن تحبّ، ليس من شك أن ليس يسري على أمثال «شارلوس» فحسب القانون العامّ الذي قوامه أنّ الشخص الذي لا نجته ويحبّها إنّما يبدو لنا عسير الاحتمال. وإننا نفضّل على ذلك الشخص، على تلك المرأة التي لن نقول عنها إنّها تحبّها بل هي تتشبّه بنا، صحنبة آية امرأة أخرى لا تتمتع لا بسحرها ولا بفتنتها ولا بظرفها. ولن تعود فتكتسبها في نظرنا إلا بعدما تكف عن حبّها. ويمكن بهذا المعنى أن لا نبصر في الحق الذي يثيره في صدر أحد الشاذّين رجل يسوء في عينه ويسعى في إثره سوى نقل لهذه القاعدة الشاملة بصيغة مضحكة. ولكنّها أكثر قوّة عنده. ففي حين يحاول سواد الناس إخفاءها فيما يحسّون بها في الوقت نفسه فإنّ الشاذّ يشعر بها دون شفقة ذاك الذي كان سبباً لها مثلما لعلّه بالتأكيد لن يشعر امرأة بها، كما هو أمر السيّد «دوشارلوس» مثلاً مع الأميرة «دوغيرمانت» التي كان غرامها يزعجه ولكنّه يدغدغ مشاعره. ولكنهم حين يصرون رجلاً آخر يبدى نحوهم ميلاً خاصاً حينئذ، إمّا لعدم إدراكهم أنّه ذات الميل الذي بهم، وإمّا تذكر مزعج بأن هذا الميل الذي يجمّلون فيه ما داموا هم الذين يحسّون به إنّما يعدّ عيباً، وإمّا رغبة منهم في ردّ الاعتبار لذواتهم بتصرف أرعن في ظرف لا يكلفهم فيه شيئاً، وإمّا خشية من افتضاح أمرهم تعود تداخلهم فجأة حينما لا تقودهم الشهوة من بعد معصوبي العينين من تهوّر إلى آخر، وإمّا من حق أن يلحق بهم، من جرّاء موقف ملتبس يقفه آخر، الضرر الذي ما كانوا يخشون إلحاقه بآخر غيرهم من جرّاء موقفهم إن راقهم ذاك الآخر،

حيثذ يمكنك أن تسمع أولئك الذين لا يجدون حرجاً في ملاحقة شاب على مدى مسافات ولا يحولون أنظارهم عنه في المسرح حتى إن كان برفقة أصدقاء، فيعرضونه بذلك للاختصاص معهم، يمكنك لأقل ماينظر إليهم آخر لا يروقهم أن تسمعهم يقولون: «من تظنني ياسيد؟ (لمجرد أنهم يأخذونهم على حقيقتهم)، لست أفهمك، ولا جدوى من الالاحاق فأنت مخطئ»، ويبلغ بهم الأمر إن دعت الضرورة حد الصفعات ويشرون في حضرة من يعرف المشهور قائلين: «ويحك، أو تعرف هذا القبيح؟ وآية طريقة في النظر إليك! يا له من تصرف!» أما السيد «دوشارلوس» فلم يذهب بعيداً إلى هذا الحد، ولكنه اتخذ هيئة المهان المجافي التي تتخذها نساء حينما يبدو أنك تظنهن طائشات ولسن كذلك، بل يزدن إن كن كذلك. والشاذ إن وضعته في حضرة شاذ آخر ليس يرى على أي حال صورة مزعجة لذاته فحسب، لا تستطيع، إذ هي محض صورة جامدة، إلا إيذاء كبريائه، بل ذاتا أخرى له حية تنشط في الاتجاه نفسه وهي قادرة والحالة هذه على إيذائه في مطارح حبه. لذلك تراه من منطلق غريزة البقاء يطعن بمنافس محتمل إما مع من يستطيعون إيذاؤه (ودون أن يبالي الشاذ رقم ١ بأن يعد كاذباً حين ينهال على هذا النحو على الشاذ رقم ٢ في نظر أشخاص يمكن أن يكونوا على اطلاع على حالته الخاصة) إما مع الشاب الذي «كشّه» والذي ربما اختطف منه ولا بد من إقناعه بأن الأشياء ذاتها التي يصلح له أن يفعلها معه ربما تسببت في خراب حياته إن قادته النفس إلى تعاطيها مع الآخر. وفيما يخص السيد «دوشارلوس» الذي كان يفكر ربما بالمخاطر (وهي من نسيج الخيال) التي كان وجود «كوتار»، وهو من يفهم خطأ ابتسامة يعرض «موريل» لها لم يكن الشاذ الذي لا يروقه صورة كاريكاتورية عنه فحسب بل كان إلى ذلك خصماً مختاراً. فإن تاجرراً، ويعمل في تجارة نادرة، إن رأى، وهو يحل في المدينة الريفية التي يأتي للإقامة فيها مدى الحياة، في الساحة نفسها قبالة بالضبط التجارة نفسها يديرها منافس لن يكون أكثر خيبة من أشباه «شارلوس» يمشون ليخبطوا حبه في منطقة هادئة فيبصرون في يوم وصولهم نبيل المنطقة أو الحلاق اللذين لا يدع له مظهرهما وتصرفاتهما أي شك. والتاجر يكن في الغالب الكراهية لمنافسه، والكراهية تنقلب أحياناً كآبه، فإن اتفق أقل قدر محمل بالوراثة إلى حد ما رأيت في المدن الصغيرة التاجر يظهر بدايات جنون لا شفاء لها إلا إذا دفع إلى بيع تجارته وهجر بلده. أما حتى الشاذ فأشدّ تعذيباً بعد. لقد أدرك منذ الثانية الأولى أن النبيل والحلاق اشتها رفيقه الشاب. وعيشاً يردّ مئة مرة في اليوم أمامه أن الحلاق والنبيل لصان قد يلحق به الاقتراب منهما العار فأنه مضطر، شأن «هارياغون»، أن يسهر على كنزه وينهض ليلاً ليتأكد أنهم لا يأخذونه منه، وهذا دونما شك ما يجعل الشاذ يكتشف الشاذ بسرعة ويقين يكادان لا يخيبان حتى أكثر مما تفعل الشهوة أو التلاؤم في العادات المشتركة وعلى قدر خبرة المرء بذاته تقريباً، وهي الوحيدة الحقّة. من الممكن أن يخطئ حيناً ولكنما تردّه إلى جادة الصواب كهانة سريعة. لذلك كان خطأ السيد «دوشارلوس» قصير المدة. وقد أبرز له وضوح البصيرة السماوى بعد مضي لحظة أن «كوتار» لم يكن من عجينته وأن ليس عليه أن يخشى تودّده لا على نفسه، وما كان ذلك إلا ليغيظه، ولا على «موريل»، وهو ما كان بدا له أشدّ خطراً، واستعداد هدوءه، ولما كان بعد تحت تأثير مرور «فينوس» الخنثى أخذ يبتسم لأسرة «فيردوران» ابتسامة باهتة بين حين وآخر دون أن يكلف نفسه عناء شق فمه مكتفياً ببسط زاوية من شفثيه فيما يشمل مقدار ثانية نار الدلع في عينيه هو الكلف بالرجولة، كما لعل زوجة أخيه الدوقة «دوغيرمانت» كانت بالضبط فعلت. وقالت السيّد



«فيردوران» للسيد «دوكامبرمير» بلهجة يلونها الازدراء: «تذهب كثيراً إلى الصيد يا سيد؟» وسأل «كوتار» المعلمة قائلاً: «هل روى لك «سكي» أنه وقع لنا حادثة طريفة؟» وأجاب السيد «دوكامبرمير»: «أذهب إلى الصيد في غابة «شانتبي» على وجه الخصوص». وقال «سكي»: «لا، لم أرو عن شيء». - «وهل هي أهل لهذا الاسم؟» يقول «بريشو» موجهاً سؤاله إلى السيد «دوكامبرمير» بعدما نظر إلي بطرف عينه إذ سبق أن وعدني بالكلام عن الاشتقاقات فيما سألتني أن أخفي عن آل «كامبرمير» الازدراء الذي توحى به اشتقاقات كاهن «كومبريه». وقال السيد «دوكامبرمير»: «لا بد أنني عاجز عن الفهم، ولكنني لا أدرك معنى سؤالك». فرد «بريشو» قائلاً: «مرادى أن أقول: هل يغني فيها الكثير من طيور العقق؟» وكان «كوتار» يعاني في تلك الأثناء من أن السيدة «فيردوران» تجهل أنهم أوشكوا أن يفوتهم القطار. - «هيا، ويحك»، تقول السيدة «كوتار» لزوجها بغية تشجيعه، «أحك عن مغامرتك العجيبة». فقال الدكتور وهو يعيد سرد قصته: «إنها في الحقيقة غير عادية. فحينما شاهدت القطار في المحطة وقفت ذاهلاً. الذنب في كل ذلك ذنب «سكي». ما أقرب أن تكون غريب الأطوار في معلوماتك يا عزيزي! و«بريشو» الذي كان ينتظرنا في المحطة» فقال الجامعي وهو يلقي من حوله ما تبقى له من نظر ويتسم بشفتيه الرقيقتين: «كنت أظن أنكم إن كنتم تأخرتم في «غرانكور» فلا تكتم التقيتم إحدى المشاءات». فقال الأستاذ: «هلاً خرس! أما إن سمعتك زوجتي! فالزوجة التي لنا «غيور» فصرخ «سكي»، وقد أيقظت فيه مزحة «بريشو» الماجنة مرحة التقليدي: «آه! «بريشو» هذا، إنه لا يتغير»، مع أنه ما كان يعلم والحق يقال إن سبق أن كان الجامعي ماجناً. وكما يضيف إلى هذه الأقوال التي بُتت العرف الإشارة الشعائرية تظاهر بأنه لا يقوى على مقاومة رغبته في قرص ساقه. وأردف «سكي» يقول «إنه لا يتغير هذا الرجل»، وأضاف دون أن يفكر بالطابع الحزين والمضحك الذي يسبغه على هذه الكلمات شبه العمى الذي أصابه: «هناك على الدوام نظرة سريعة إلى النساء». وقال السيد «دوكامبرمير»: «انظر أي أمر هو أن تلتقي عالماً. فإني اصطاد منذ خمسة عشر عاماً في غابة «شانتبي» ولم أفكر يوماً في ما يعنيه اسمها. وحدثت السيدة «دوكامبرمير» زوجها بنظرة قاسية، فيما كان بودها أن يتضع هكنا أمام «بريشو». وزاد استياؤها بعد حينما أخذ «كوتار» إزاء كل عبارة «جاهزة» يستخدمها «كانكان»، أخذ يبرهن للمركيز، وكان يعرف مواطن القوة والضعف فيها إذ سبق أن جد في تعلمها، أنها لا تعني شيئاً، فيما يقر المركيز بغيبائه: «لماذا، غبي كالمفوف؟ أتظن أن المفوف أكثر غباء من أي شيء آخر؟ ونقول: رد الأمر ذاته ستاً وثلاثين مرة؛ فلم ست وثلاثون تخصيصاً؟ ولم قولك: نام مثل وتد؟ ولم رعود «بريست»؟ ولم قولك: عمل الأربع مئة عملة؟» (١) ولكن الدفاع عن السيد «دوكامبرمير» كان يتولاه آنذاك «بريشو» الذي كان يفسر منشأ كل عبارة. أما السيدة «دوكامبرمير» فكان يشغلها على وجه الخصوص أن تنظر في التغييرات التي أدخلها آل «فيردوران» على «لاراسيلير» كي تتمكن من انتقاد بعضها واصطحاب غيرها إلى «فيتيرن» أو ربما ذاك البعض نفسه. «إني أتساءل ما عسى تكون الثريا التي تتدلى مواربة تماماً. أكاد لا أتعرف «راسيلير» القديمة التي سكنتها»، تضيف قولها بلهجة مألوفة أرستقراطية كما لعلها كانت تكلمت عن خادم تزعم أقل ما تزعم الإشارة إلى سته والأكثر أن تقول إنه حضر ميلادها. ولما كانت لغتها مستمدة من الكتب أضافت تقول بصوت خفيض: «يبدو

(١) كقولنا: عمل السبعة وذمتها.

لي مع ذلك أنني لو كنت أقطن منزل غيري لداخلني استحياء من تغيير كل شيء على هذا النحو». وقالت السيدة «فريدوران» للسيد «دوشارلوس» و«موريل» وهي تأمل أن السيد «دوشارلوس» يشارك «في الاستعراض» وسوف يمثل للقاعدة القائلة بأن يصل الجميع في القطار نفسه: «من أسف أن لا تكونا وصلتما معهم». وأضافت تقول لتبرهن أنها كانت تشارك بوصفها سيّدة البيت في جميع الأحاديث في وقت واحد: «أمتيقن أنت أن «شانتبي» تعني طائر العقعق الذي يغني؟» وقالت لي السيدة «دوكامبرمير»: «كلمني قليلاً عن عازف الكمان هذا، فإنه يثير اهتمامي. إنني أعشق الموسيقى وإخالي سمعت من يتحدث عنه، فهيّا علمني». وكانت علمت أن السيد «موريل» جاء مع السيد «دوشارلوس» وبودها إذ تحضر الأول أن تحاول الارتباط بصداقة الثاني، على أنها أضافت كي لا يسعني استشفاف ذلك السبب: «والسيد «بريشو» يثير اهتمامي أيضاً». فإن كانت السيدة «دوكامبرمير» واسعة الثقافة، فإنها، مثلما يكاد بعض الذين يبدون استعداداً للبدانة لا يأكلون ويمشون طوال النهار دون أن يكفوا عن السمعة على مرأى منك، كانت بدورها أيضاً تعمق عبثاً، ولا سيما في «فيتيرن»، فلسفة أكثر فأكثر باطنية وموسيقى أكثر فأكثر علمية ولا تخرج من هذه الدراسات إلا لحبك دساتر تمكّنها من «قطع» صداقات شبابها البرجوازية وإقامة علاقات ظنّت بداية أنها جزء من مجتمع أسرة زوجها، وتبيّنت فيما بعد أنها واقعة على درجة أكثر علواً وأكثر بعداً. قال فيلسوف لم يكن على حداثة كافية بالنسبة إليها، وهو «لا يينيتس»، إن المسافة طويلة من العقل إلى القلب. والمسافة تلك لم يتفق للسيدة «دوكامبرمير» أكثر مما اتفق لأخيها من قوة لاجتيازها. فقد كانت، وهي لا تنصرف عن قراءة «ستورات ميل» إلا إلى قراءة «لاشلييه» (١)، كلما قلّ إيمانها بحقيقة العالم الخارجي زاد ما تصرف من سعي حثيث في محاولة إيجاد موقع طيّب لها فيه قبل مماتها. واذ هي مغرمة بالفنّ الواقعي لم يكن ثمة شيء محسوس يبدو لها على وضاعة كافية كي يستخدم نموذجاً للرسم أو الكاتب. ولعلّ لوحة أو رواية موضوعهما المجتمع الراقي كانتا أورتاها غثياناً، فيما يمثل «موجيك» تولستوي وفلاح «ميبه» الحد الاجتماعي الأقصى التي لا تسمح للفنان بتجاوزه. ولكنما تجاوز الخطّ الذي يحدّ علاقاتها الخاصة، والارتفاع به حتى مخالطة الدوقات إنما يشكّل هدفاً لكامل جهودها وذلك لقلة ما يبدو العلاج الروحي الذي تخضع عن طريق دراسة أمّهات الكتب ناجعاً ضدّ السنويّة الفطريّة المرضيّة التي تتنامى في نفسها. بل بلغ بتلك السنويّة في نهاية المطاف أن تشفيها من بعض ميول إلى البخل والزنى كانت تنزع إليها في صباحها في ما يشبه تلك الحالات المرضيّة الغريبة الدائمة التي يبدو أنها تحصّن المصابين بها ضدّ الأمراض الأخرى. وماكنت أستطيع بأيّة حال، وأنا أسمع حديثها، الحيلولة دون أن أنصف، ولا أصيب من ذلك آية متعة، العناية المثلى في اختيار تعابيرها. فقد كانت تلك التي يستخدمها في عصر معيّن كلّ الذين يمتازون بالسعة الفكرية ذاتها إلى حدّ تزودك معه العبارة المرفهة في الحال، كمثّل قوس الدائرة، بوسيلة خطّ وتحديد كامل الدائرة. لذلك كان من شأن تلك التعابير أن يعث في نفسى الملل في الحال أولئك الذين يستخدمونها على أنهم معروفون ولديهم ولكنما يعدّون من طينة متفوقة وكثيراً ما أعطيتهم جيراناً رائعين وغير محبّذين. «لست تجهلين يا سيّدي أن الكثير من مناطق الغابات تأخذ اسمها من الحيوانات التي تعيش فيها. فإلى جانب غابة «شانتبي» يقع حرج «شانتيرن» (٢). فقال السيد

(١) Jules Lachelier, Stuart Mill : فيلسوفان إنكليزي وفرنسي على التوالي، الأوّل مناهض للحدس والاستقراء بجميع أشكاله والثاني مناد به.

(٢) يخيل لأوّل وهلة أن الاسم يعني : حيث تنغي الملكة وهذا ما يبرّر ملاحظة السيد «دوكامبرمير».

«دوكامبرمير»: «لست أعلم أية ملكة يعنون، ولكنك لست كئيباً إزاءها». وقالت السيّد «فيردوران»: «خذها يا شوشوت». وبخلاف ذلك هل انقضت الرحلة على ما يرام؟ - «لم نلتق سوى خيالات بشر كانت تملأ القطار. ولكنني أجيب عن سؤال السيّد «دوكامبرمير»: «لفظة «رين» reine هنا لا تعني زوجة الملك بل الضفدعة، وهو الاسم الذي لبثت عليه أمداً في هذه المنطقة كما هو جليّ في محطة «رينفيل - Reineville» التي يجب أن تكتب «Reineville» وقال السيّد «دوكامبرمير» للسيّد «فيردوران» وهو يشير إلى سمكة أمامه: «يبدو لي أن ثمة صيداً ثميناً». كان ذلك من المحاملات التي يظنّ أنه يدفع بها حصّته في حفل عشاء ويردّ المحاملة مذ ذاك بمثلها. فكثيراً ما كان يقول وهو يحدث زوجته عن أصدقاء لهما: لاداعي لدعوتهم، فقد ابتهجوا كثيراً لوجودنا بينهم وهم من كانوا يشكرونني». ويصدر بي من ناحية أخرى أن أقول إنني أذهب كل يوم تقريباً إلى «رينفيل» ومنذ سنوات كثيرة، ولم أجد فيها ضفادع أكثر من غيرها. وكانت السيّد «دوكامبرمير» قد أرسلت في طلب كاهن رعية تملك فيها أرفاقاً كثيرة وكان من ذات طرازك الفكريّ فيما يبدو، وقد ألف كتاباً. فأجاب «بريشو» منافقاً: «اعتقد ذلك، وقد قرأته باهتمام عظيم». وقد بعث الارتياح الذي يوليه إيّاه هذا الجواب بصورة غير مباشرة ضحكة طويلة لدى السيّد «دوكامبرمير». «آه! حسن، إن مؤلف، كيف عساني أقول، هذه الجغرافية، هذا المعجم، يعلق تعليقاً طويلاً على اسم قرية صغيرة كنّا فيما مضى، إن جاز لي القول، أسياها وتدعى «پونتاكولوفر» (Ponta Couleuvre). ولست بالطبع سوى جاهل فظّ بالمقارنة ببحر العلم هذا، ولكنني ذهبت ألف مرة إلى «پونتاكولوفر» وهي واحدة بالنسبة إليه، وليأخذني الشيطان إن كنت رأيت فيها في يوم واحدة من تلك الحيّات الشنيعة، أقول الشنيعة على الرغم من المديح الذي يكيله لها هذا الطيّب «لافونتين» (و«الرجل والشعبان» واحد من المثليين). وأجاب «بريشو»: «أنت لم تر منها واحدة وأنت من أصاب إذ رأى إن الكاتب الذي تتحدث عنه يعرف موضوعه حق المعرفة بالتأكيد فقد ألف كتاباً ممتازاً». وصاحت السيّد «دوكامبرمير» قائلة: «بل الكتاب والقول بالتأكيد في محلّه، من عمل راهب بندكتي (١) حقيقي». - «لاشكّ أنه رجّع إلى بعض السجلات الكنسيّة (والمقصود بذلك لوائح الدخول الكنسيّة ومقارّ الرعايا في كلّ دائرة اسقفية)، وهو ما أمكن أن يزوده باسم المسؤولين العلمانيّين وموزعيّ المقطعات الماليّة من رجال الدين. ولكنّ ثمة مصادر أخرى، وقد استقى منها أحد أكثر أصدقائي علماً، وقد وجد أنّ المكان نفسه كان يدعى «پونتاكيلوفر» (Pontà-Quileuvre) وقد دفعه هذا الاسم الغريب إلى العودة إلى ما كان أبعد من ذلك، إلى نصّ لاتينيّ يطلّق فيه على الجسر الذي يظنّه صديقك مرتعاً للشعابين اسم Pons cui aperit (الجسر لمن يفتحه)، وهو جسر مغلق لا يفتح إلاّ مقابل أجر مناسب». - «تتكلم عن الضفادع. أمّا أنا فأخالفني، إذ أراني وسط جماعة عالمة إلى هذا الحدّ، الضفدعة أمام المحكمة العليا في أثينا» (وهو المثل الثاني)، يقول «كانكان» الذي كثيراً ما كان يطلق هذه المزحة في جوّ من الضحك الشديد ويظنّ بذلك، تواضعاً منه وبشيء من حضور البديهة في آن، أنه يقرّ بجعله ويرز معارفه. أمّا «كوتار» الذي سدّ عليه صمت السيّد «دوشارلوس» الأبواب وحاول التزوّد بالهواء في الجوانب الأخرى فقد استدار صوبي وطرح عليّ واحداً من تلك الأسئلة التي كانت تدهش مرضاه إن أصاب قنبرهن بذلك أنه يقيم داخل جسمهم، فإن كان

(١) الرهبان البندكتيون اشتهروا بدقّة معارفهم وعمق مؤلفاتهم.

العكس ولم يصب سمحت له بتصويب بعض النظريات وتوسيع وجهات النظر القديمة. وسألني قائلاً، وهو متيقن من إثارة الإعجاب بمعارفه أو من إكمالها: «حينما تصل إلى هذه المواقع العالية نسيباً كهذا الذي نحن فيه الآن هل تلاحظ أن ذلك يزيد من نزعة الاختناقات لديك؟» وسمع السيد «دوكامبرمير» السؤال وابتنس وأطلق نحوي عبر الطاولة قوله: «لا أستطيع أن أقول لك كم يضحكني أن أعلم عن اختناقاتك». ما كان مراده أن يقول إن الأمر يشيع السرور في نفسه وإن كان ذلك صحيحاً بدوره. ذلك لأن هذا الرجل ما كان يسعه سماع من يتحدث عن مصيبه الغير دونما شعور بالراحة ومرح عصبي سرعان ما يخليان المكان لإشفاق قلبه الطيب. ولكنما كان لجملة معنى آخر أوضحتها الجملة التي أعقبتها: «ذلك يضحكني»، يقول، لأن شقيقتي تعاني بالضبط منها». وخلاصة القول أن الأمر كان يشيع السرور في نفسه كما لو كان سمعني أذكر بمشابة أحد أصدقائي واحداً ممن تردّدوا كثيراً على منزلهم. «ما أصغر العالم»، تلك كانت الخاطرة التي أدلني بها ذهنياً وأبصرتها مخطوطة على وجهه المشرق حين كلمني «كوتار» عن اختناقاتي. وقد أصبحت هذه منذ ذلك العشاء ضرباً من العلاقة المشتركة ما كان يفوت السيد «دوكامبرمير» البتة أن يسألني عن أخبارها حتى نحض أن يزود شقيقته بالأخبار عنها.

كنت أفكر، فيما أجيب عن الأسئلة التي تطرحها عليّ زوجته حول «موريل»، بحديث جرى بيني وبين والدتي عصراً. ولما كانت والدتي تذكرني، فيما لا تنهاني عن ارتياد منزل آل «فيردوران» إن أمكن أن يفرج الأمر عني، بأنه وسط ما كان ليروق جذي ولعله كان صاح من جرائه: «حذارا حذارا» فقد أضافت قولها: «اسمع، لقد قال لي الرئيس «توروي» وزوجته إنهما تناولوا طعام الغداء مع السيدة «بوتنان». لم يطلب أحد مني شيئاً ولكنما خلتنني فهمت أن قرأنا بينك وبين «ألبيرتين» ربّما شكل حلم عمّتها. في اعتقادي أن السبب الحقيقي لذلك أنك قريب جداً إلى قلب الجميع. ومع ذلك فليس البذخ الذي يظنّوك قادراً أن توقّره لها ولا العلاقات التي يعلمون في كثير أو قليل أننا نقيمها، ليس كلّ ذلك بمنأى عن الأمر وإن كان ثانوياً. وما كنت لأحدثك عن الأمر لأنني غير حريصة عليه ولكنني فضّلت إذ أتصوّر أنهم سيحدثونك عنه، أن أكون السبّاقة». وقد سألت أمي قائلاً: «ولكن كيف ترينها أنت؟» - «ولكن لست أنا من سيتزوّجها: بوسعك بالتأكيد أن تفعل أفضل ألف مرّة على صعيد الزواج، ولكنني اعتقد أن جدّتك ما كان بوّدها أن يؤثروا فيك. لا أستطيع أن أقول لك حالياً كيف أجد «ألبيرتين»، فإنني لا أجدها، سأقول لك مثل السيدة «دوسيفينييه»: «إن لها صفات طيبة، ذلك اعتقادي على الأقل. ولكنني في هذه البداية لا أعرف أن أمدحها إلا بجمل منفيّة، فليست هذا، وليست تملك لهجة مدينة «رين» وربّما قلت مع مرّ الزمن: إنها هذا. وسأجدها دوماً على مايرام إن كان لابد أن تسعدك». لكنّ أمي وضعتني، بهذه الكلمات ذاتها التي تعيد إليّ أمر تقرير سعادتي، في حالة من الشكّ سبق أن أقمت فيها حينما أحسستني فجأة، بعد ما أذن لي والدي بالذهاب إلى مسرحية «فيدر» وعلى وجه الخصوص بأن أصبح أديباً، أحمل مسؤولية كبيرة عليّ ويسكنني هاجس غمّة وتلك الكتابة التي تداخلك حينما تكفّ عن الخضوع لأوامر تخجب عنك المستقبل يوماً فيوماً وتبين أنك شرعت أخيراً تعيش حياتك جدياً على غرار شخص بالغ، الحياة الوحيدة التي في متناول كلّ منا.

ربما كان خيراً لي أن أنتظر قليلاً، وأن أبداً بلقاء «البيتين» شأني في الماضي لأحاول أن أعلم إن كنت أحبها حقاً. بوسعي أن أصطحبها إلى منزل آل «فيردوران» كي أسري عنها، وذكرني ذلك بأنني لم أجيء بنفسي هذا المساء إلا لأعلم إن كانت السيدة «بوتوس» تقطن هناك أم هي ترمع المجيء. ولم تكن تتناول عشاءها على أي حال. «بشأن صديقك «سان لو»، تقول السيدة «دوكاميرمير» مستخدمة هكذا عبارة تنم عن ترابط أكبر في الأفكار بما كانت دلت عليه جملها، لأنها إن كلمتني عن الموسيقى فقد كانت تفكر بال«غيرمانت»، «تعلم أن الجميع يتحدثون عن زواجه بابنه شقيق الأميرة «دوغيرمانت». وسأقول لك فيما يخصني أنني لا أهتم البتة بكل هذا الهذر المجتمعي». وتملكتني خشية أن أكون تكلمت دون وداد في حضر «روبير» عن تلك الفتاة الزائفة في طرافتها والتي تتساوى ضحالة فكرها وعنف طباعها. ليس من خبر تقريباً ينقل إلينا إلا ويجعلنا نأسف على أحد أقوالنا. وأجبت السيدة «دوكاميرمير»، وكان الجواب صحيحاً بكل حال، أنني لا أعلم عن ذلك شيئاً وأن الخطيئة أيا كان الأمر، تبدو لي حديثة السن. - «ربما لم يكن الأمر بعد رسمياً لهذا السبب، ولكننا الحديث كثير حوله في جميع الأحوال». وقالت السيدة «فيردوران» للسيدة «دوكاميرمير»: «أفضل أن أحذرك، قالت بلهجة جافة، وقد سمعت أن هذه الأخيرة حدثتني عن «موريل» وإذ ظننت حينما خفضت صوتها لتكلمني عن خطبته «سان لو» أنها توالي الحديث عنه. «ليس ما يقدم هنا من الموسيقى الهينة. فإن المخلصين لأيام الأربعاء عندي، أو من أدعاهم بمثابة أبنائي، متقدمون تقدماً مذهلاً، تضيف قولها بنوع من الهلع المستكبر: «وأحياناً أقول لهم: «أيها الناس الأعزاء الطيبون، أنتم تمضون أسرع من معلمتكم التي لا يبدو أن صنوف الجراءة أخافتها في يوم». وفي كل عام تمضي الأمور أبعد قليلاً، وأني عما قريب أرى اليوم الذي لن يهزم فيه «فاغرن» و«داندي». وتقول السيدة «دوكاميرمير»: «ولكن حسن جداً أن يكون المرء متقدماً، فليس يبلغ في يوم حدًا كافياً، تقول وهي تتفحص كل زاوية في قاعة الطعام وتحاول تعرف الحاجات التي تركتها حماتها وتلك التي جاءت بها السيدة «فيردوران» وأن تأخذ هذه بجرم قصور الذوق المشهود. وكانت آنذاك تحاول أن تحدثني عن الموضوع الذي يشغلها أكثر ما يكون، عن السيد «دوشارلوس». فقد كان يحرك مشاعرها أن يسطر حمايته على عازف كمان. «إنه يبدو ذكياً». فقلت: «بل شرّ القريحة بالنسبة إلى رجل تقدم به العمر قليلاً». - «تقدم به العمر؟ ولكنه لا يبدو مستأ. هيّا انظر، فإن «الشعرة» لبثت فتية». (فمنذ ثلاث سنوات أو أربع استعملت كلمة «شعرة» بصيغة المفرد من جانب أحد هؤلاء المجهولين الذين يروجون للصبرعات الأدبية، وكل الذين يملكون طول موجة السيدة «دوكاميرمير» كانوا يقولون «الشعرة»، دون أن تفوتهم ابتسامة متكلفة. ولا يزالون يقولون في الوقت الراهن «الشعرة» ولكن الجمع سوف يطلع من جديد من الإفراط في المفرد). وأضافت تقول: «ما يستهويني على وجه الخصوص لدى السيد «دوشارلوس» أنك تحسّ الموهبة عنده. وسأقول لك أنني استخفّ بالعلم وإن ما يتعلمه المرء لا يثير اهتمامي». وما كانت تلك الأقوال تناقض القيمة الخاصة بالسيدة «دوكاميرمير» التي كانت بالضبط ثمرة التقليد والاكتساب. على أن أحد الأمور التي كان ينبغي بالضبط معرفتها في تلك الفترة أن المعرفة لا تساوى شيئاً ولا تزن قشة بجانب الطرافة. وكانت السيدة «دوكاميرمير» قد تعلمت، شأن الأمور الأخرى، أن ليس ينبغي تعلم أي شيء. ولذلك، تقول لي، فإن «بريشو» الذي يملك جانباً طريفاً، لأنني لا أزدري شيئاً من التبهر المستملح، إنما يستهويني مع ذلك أقل».

ولكن «بريشو» لم يكن يشغله في تلك اللحظة سوى شيء واحد: فإنه إذ سمعهم يتحدثون عن الموسيقى أخذ يرتعد من أن يذكر الموضوع السيّد «فيردوران» بموت «دوشامبر». وكان يؤدّ أن يقول شيئاً ليستبعد الذكرى المشؤومة. فوَقَّر له السيد «دوكامبرمير» الفرصة بهذا السؤال: «هيا قل، أتحمّل الأماكن المحرّجة دائماً أسماء الحيوان». - «بالطبع لا»، يجيب «بريشو»، وقد أسعده أن ييسط علمه أمام هذا العدد الكبير من المستجدين الذين كنت قلت له إنه واجد بالتأكيد بينهم واحداً على الأقل يثير اهتمامه. «يكفيك أن ترى إلى أي حدّ يتم الحفاظ على شجرة في أسماء الأشخاص أنفسهم مثل نبتة سرخس داخل الفحم الحجري، فإنّ واحداً في مجلس شيوخنا يدعى السيّد «دوسولس دو فريسينيه» الذي يعني، إن لم أكن مخطئاً، المكان المزروع بشجر الصفصاف والدردار (Salix et fraxinetum) (١)؛ أما ابن أخيه السيّد «دو سيلف» فيجمع بعد أشجاراً أكثر بما أنّه يدعى «دوسيلف» (sylva). أمّا «سانيت» فكان يرى باغتيال أن الحديث يتخذ منحى حامياً إلى هذا الحدّ. وكان بإمكانه، إذ يوالي «بريشو» الكلام طوال الوقت، أن يصمت صمتاً يجنبه أن يكون موضع هزة السيّد والسيّد «فيردوران». وإذ أصبح في غمرة فرحة بالنجاة أكثر إحساساً بعد فقد تأثر لسماعه السيّد «فيردوران» يقول لرئيس الخدم، على الرغم من السمعة الرسميّة مثل ذلك العشاء، أن يضع قارورة ماء قرب السيّد «سانيت» الذي لم يكن يشرب شرباً آخر. (فالجترالات الذين يرسلون إلى الموت أكبر عدد من الجنود يحرسون على أن يُغذّوا أحسن التغذية). ثم إن السيّد «فيردوران» ابتسمت مرّة لـ «سانيت» في نهاية المطاف. بالتأكيد كانا من الأناس الطيبين، ولن يُعذّب من بعد. وفي هذه اللحظة جرى تعطيل الطعام من جانب مدعوّ نسيت أن أذكره، وهو فيلسوف نروجي مشهور كان يتكلّم الفرنسية بصورة جيّدة جداً ولكن ببطء شديد وذلك لسبب مزدوج، أولاً لأنّه إذ تعلّمها منذ وقت قليل ولا يود الوقوع في أخطاء (مع أنّه كان يقع في بعضها) كان يرجع كلّ كلمة إلى ما كان من قبيل المعجم الداخلي، ثم لأنّه كان يفكر دائماً، بوصفه عالماً ميثافيزيقياً، في ما ينبغي أن يقوله أثناء مايقوله، الأمر الذي يكون سبباً في البطء حتّى لدى أحد الفرنسيين. وكان على أية حال إنساناً رائعاً وإن يكن يشبه كثيرين غيره، باستثناء نقطة واحدة. ذلك أن هذا الرجل الشديد البطء في كلامه (فبين كلّ كلمة كان ثمة صمت) كان يضحي ذا سرعة مدوّخة لينجو بنفسه ما إن يقول وداعاً كان استعجاله يحمل على الظنّ للمرّة الأولى بأنّه أدركه المفص أو حتّى حاجة أكثر إلحاحاً.

وقال لـ «بريشو»: أيها الزميل - العزيز، قال، بعدما قلب في فكره إن كانت لفظة «زميل» هي اللفظة المناسبة، «يدخلني نوع من - الرغبة لأعلم إن كان ثمة أشجار أخرى في - جدول مصطلحات لغتكم الجميلة - الفرنسية - اللاتينية - النورماندية. قالت لي سيدتي (ويقصد السيّد «فيردوران» مع أنّه لا يجرؤ على النظر إليها) إنك تعرف كلّ هذه الأشياء. أفليس هذا بالضبط وقتها؟» فقاطعت السيّد «فيردوران» إذ رأت أن العشاء لا ينتهي: «لا، إنّما الوقت وقت طعام». فأجاب الاسكندنافي يطأطئ الرأس في قصعته بابتسامة حزينة مستسلمة: «حسن إذا، ولكنّما يجدر بي أن ألفت سيّدتي إلى أنني إن سمحت لنفسني بهذا الاستقصاء - عفوك بهذا الاستسأل» (٢) - فلا تني يبغي أن أعود إلى باريس للعشاء «لدى» البرج الفضيّ أو «لدى» فندق

(١) الاسم اللاتيني للشجرتين المذكورتين، كما هو أمر sylva التالي ويعني الغابة.  
(٢) نصح بين مزدوجين ما كان من قبيل الأخطاء التي يرتكبها الفيلسوف النروجي.

«موريس». إن زميلي - الفرنس - السيد «بوترو» سوف يحدثنا في أثناءه عن جلسات مناجاة الأرواح - عفوك عن الاستحضارات الروحية - التي «ترقيها». فقالت السيدة «فيردوران» يادية الضيق: «هذا البرج الفضفي ليس طبيباً مثلما يقولون، حتى إني أقمت فيه حفلات مقبنة». - «ولكن هل أنا مخطئ، أو ليس الطعام الذي نأكله في منزل سيدتي من أفخر ما يقدم في المطبخ الفرنسي؟» وأجابت السيدة «فيردوران» وقد هدأت نفسها: «يا إلهي ليس شيئاً تماماً وإذا جئت يوم الأربعاء القادم فسيكون أفضل». - «ولكني ذاهب الاثنين إلى مدينة الجزائر ومن هناك أتوجه إلى «الرأس». وعندما أكون في «رأس الرجاء الصالح» فلن يتسنى من بعد لقاء زميلي الذائع الصيت - عفوك لن يتسنى لي من بعد لقاء زميلي في العمل». وبعدما قدم هذه الأعداد بعد الأوان أخذ يأكل طائعا بسرعة مدوحة. لكن «بريشو» كان يفيض سعادة إذ تسنى له أن يقدم أصولاً نباتية جديدة وأجاب فأنار اهتمام النروجي إلى حد أن هذا الأخير كف ثانياً عن الأكل ولكن وهو يومئذ بأنهم يستطيعون رفع قصعته الملائى والانتقال إلى الطبق الثاني وقال: «إن أحد الأربعين يدعى «هوسيه» (Houssaye) من المكان المزروع بنبات «شراية الراعي» (houx)، وإثك واجد في اسم ديبلوماسي رقيق هو «دورميسون» (d'Ormesson) شجرة الدردار (l'orme) وهي اللاتينية «Ulmus» العزيرة على قلب «فيرجيليوس» والتي أعطت اسمها لمدينة «أولم» (Ulm)، وفي اسم زملائه السيد «دولا بوليه» شجرة السندر (le bouleau) والسيد «دورنيه» (d'Aunay) شجرة جار الماء (l'aulne) والسيد «دوبوسير» (de Bussière) شجرة الشمشاد (le buis) والسيد «ألباريه» خشب الشكير (l'aubier) واعتزمت أن أقول ذلك لـ «سيلست» والسيد «دوشوليه» (de Choleat) الملفوف (le chou) وشجرة التفاح في اسم السيد «دولا بومريه» (de la Pommeray) الذي سمعناه يحاضر، هل تذكر ذلك يا «سانيت»، في الفترة التي أرسل فيها «بوريل» الطيب قنصلاً في إقليم «أوديونيا» في أقاصي الدنيا؟ ولدى سماع اسم «سانيت» على لسان «بريشو» رمى السيد «فيردوران» زوجته و«كوتار» بنظرة ساخرة أفقدت الخجل رباطة جأشه. وقلت لـ «بريشو»: «كنت تقول إن «شوليه» مشتقة من «Chou» (ملفوف). فهل المحطة التي مررت فيها قبل الوصول إلى «دونسيير» واسمها «سان فريشو» «Saint-Frichoux» مشتقة أيضاً من «Chou»؟ - لا، «سان فريشو» هي «Sanctus Fructuosus» مثلما «Sanctus Ferreolus» أعطتنا «سان فارجو» (Saint-Fargeau) ولكنها ليست نورماندية على الإطلاق». وقوفات الأميرة بصوت خافت: «إنه «يعلف» «الكثيل» من الأمور ويزعجنا». - «هناك الكثير مما يستهويني من أسماء أخرى ولكنني لا أستطيع أن أسألك كل شيء مرة واحدة». ثم استدرت صوب «كوتار» قائلاً: «هلي السيدة «پوتبوس» حاضرة؟» فأجابت السيدة «فيردوران» وكانت سمعت سؤاله: «لا، حمداً لله، فقد جهدت في حرف أيام اصطيفانها وجهة البندقية وتخلصنا منها في هذا العام». وقال السيد «دوشارلوس»: «سيكون لي الحق أنا بشجرتين، فقد حجرت لي تقريباً بيتاً صغيراً بين «سان مارتان دوشين» (Saint-Martin-du-Chêne) و«سان بيير ديزيف» (Saint-Pierre-des-Ifs) (١). «ولكن المكان قريب جداً من هنا، فأمل أن تجيء كثيراً برفقة «شارلي دوموريل» وما عليك سوى الاتفاق ومجموعتنا الصغيرة فيما يخص القطارات، فإنك على خطوتين من «دونسيير»، تقول السيدة «فيردوران» التي كانت تكره أن لا يجيئوا على القطار نفسه وفي الساعات

(١) Chêne تعني سديان و if تعني سرو، وهو ما يفسر حتى «دو شارلوس» بشجرتين.

التي تبعث فيها بعربات. كانت تعلم كم الصعود قاس إلى «لاراسيلير» حتى بسلك دروب دائرية من خلف «فيتيرن» مما يستبحر نصف ساعة تأخير، وتخشى أن لا يجد من ينفردون بالجيء عربات تقلهم أو أن يمكنهم، وقد مكثوا بالحقيقة في بيوتهم، أن يحتجوا بأنهم لم يلقوا عربات في «دوفيل-فيتيرن» وأنهم لم يؤنسوا من ذواتهم القوة لسلك مثل تلك الطريق الصاعدة سيراً على الأقدام. واكتفى السيد «دوشارلوس» بالنعناء صامتة للرد على هذه الدعوة. «إنه لابد غير سهل في سلوكه اليومي وهو يادي الانزعاج»، يقول الدكتور همساً لـ «سكي»، وقد ظلّ شديد البساطة على الرغم من طبقة استكبار سطحية فلا يحاول إخفاء أن «شارلوس» كان يعامله بفوقية. «إنه يجهل دون شك أن الأطباء في مدن الحمامات جميعها وحتى في العيادات في باريس، وأنا بالطبع «المعلم الكبير بالنسبة إليهم»، يصرون على شرف تقديمي لسائر النبلاء الحاضرين والذين يحرصون أمانى». وأضاف قوله بلهجة مستخفة: «وذلك يجعل الإقامة في مراكز الحمامات متممة إلى حد بالنسبة إليّ، بل إن الرائد في المكتبة في «دونسيير» وهو طبيب أمر اللواء المعالج، دعاني للغداء معه وهو يقول لي إنني في مركز من هو أهل لتناول العشاء مع الجنرال. والجنرال هذا سيد من النبلاء. ولست أدري إن كانت وثائقه أكثر أو أقل قدماً من وثائق هذا البارون». وأجاب «سكي» بصوت خافت: «لا تأخذك الحمية فإنه تاج حين جداً»؛ وأردف يقول شيئاً غامضاً ومع فعل ميزت فيه فحسب المقطعين الأخيرين «arden» إذ كنت مشغولاً بسماع ما كان «بريشو» يقوله للسيد «دوشارلوس». «لا، ليس لديك على الأرجح، ويؤسفني قول ذلك، إلا شجرة واحدة، فلن كانت «سان مارتان دوشيف» فهي بالتأكيد «Sanctus Martinus juxta quereum» (١)، فيمكن أن تكون لفظة «if» بالمقابل مجرد الجذر ave, eve الذي يعني «رطب» كما هو شأن «أفيرون» (Aveyron) و«لوديف» (Lodeve) و«إيفيت» (Yvette) والذي تراه بعد قائماً في المجال في مطابخنا (eviers) إنه الماء الذي يدعى في اللغة البريطانية «ستير» (Ster) Ster- en- dreuchen, Stermaria, (Ster). ولم أسمع الخاتمة إذ مهما تكن المتعة التي كنت أصبتها من سماع اسم «ستيرماريا» مجدداً كنت أسمع على الرغم مني «كوتار» الذي كنت بالقرب منه يقول لـ «سكي» بصوت خافت جداً: «آه! ما كنت أعلم. فهو إذا سيد يعرف كيف يتدبر أمره في الحياة. ويحك! إنه من الجماعة! وليس له مع ذلك عينان بحواسي من «الجمبون» (٢). ينبغي أن أنتبه لقدمي تحت الطاولة، فلن يلزمه إلا أن يقرص نياية عني. ولا أتعجب على أية حال كلّ العجب من ذلك؛ فإني أشاهد عذّة نبلاء في الحمام بحلة آدم وهم منحلون أخلاقياً بمقادير تكثر أو تقلّ وإنني لا أتحذّر إليهم لأنني موظف باختصار القول ويمكن أن يؤذيني ذلك. ولكنهم يعلمون تمام العلم من أنا. أنا «سانيت» الذي أفزعته المنادة عليه من جانب «بريشو» فقد أخذ يتنفس الصعداء شأن من يخشى العاصفة ويتبين أن البرق لم يعقبه أي صوت للرعد حينما سمع السيد «فيردوران» يسأله فيما يسمّر عليه نظرة لا تترك المسكين شأنه وأدام يوالي الحديث كيما يفقده في الحال رباطة جأشه ولا يدع له أن يعود إلى صوابه. «ولكنك أخفيت عنا دائماً أنك تتردد على حفلات العصر في مسرح «أوديون» يا «سانيت»؟ فأجاب «سانيت» وهو يرتجف كمجنّد في حضرة رقيب مشاكس ويضفي

(١) القديس مارتينوس الذي بجانب السندانية.

(٢) لحم الخنزير.



على جملته أصغر الأبعاد الممكنة كي تتوافر لها أحسن الحظوظ في تجنّب الضربات: «مرة واحدة إلى الباحثة». وصاح السيد «فيردوران» بأعلى صوته: «ما الذي يقوله؟» صاح بهيئة المشمئز الساخت وهو يقطب الحاجبين وكأنما لا يكتفي بكامل انتباهه ليفهم أمراً يمتنع على الإدراك. «ليس يفهم المرء بادئ الأمر ما تقول فما الذي في فمك»، يقول السيد «فيردوران» متزايد العنف ملمحاً إلى عيب التلفظ لدى «سانيت». فقالت السيدة «فيردوران» بلهجة الإشفاق الكاذب وكي لا تدع لأحد أن يشك في المقصد الوقح الذي يبيته زوجها: «يا لـ«سانيت المسكين»، لا أريد أن تجعل منه رجلاً تعيساً. «كنت في البـ...» - «بـ...»...»...» يقول السيد «فيردوران»، «حاول أن تتكلم بوضوح، فإني حتى لا أسمعك». لم يكن أحد من الخلف تقريباً يملك نفسه عن القهقهة ويبدون وكأنني بهم زمرة من أكلي لحوم البشر أيقظ فيهم جرح أحد البيض شهوة الدم. ذلك لأن غريزة التقليد وغياب الشجاعة إنمّا يحكمان الاجتماعات مثلما يحكمان الجماهير. والجميع يضحكون ثم يرون الناس يضحكون منه، على أن يجلّوه بعد عشر سنوات في منتدى هو فيه موضع إعجاب. وإنمّا يطرد الشعب الملوك أو يرحّب بهم بالطريقة نفسها. وقالت السيدة «فيردوران» «ليس الذنب ذنبه ويحك». - «وليس ذنبي أنا أيضاً، والناس لا يتناولون عشاءهم في المدينة حينما لا يستطيعون النطق من بعد». - «كنت في «الباحثة عن الفكر» لـ«فافار». - «ماذا؟ أهى «الباحثة عن الفكر» التي تسميها «الباحثة»؟ آه! ذلك رائع، كان يمكن أن أبحث مئة عام دون أن أجده، يقول السيد «فيردوران» صارخاً، مع أنّه كان حكم من المرة الأولى أن ليس أحدهم مثقفاً وفناناً وليس من الجماعة» لو سمعته يقول العنوان الكامل لبعض المؤلفات. كان ينبغي عل سبيل المثال أن يقال «المريض» أو «البورجوازي» ولعلّ من يضيفون «بالوهم» أو «النبل» لعلهم كانوا يبرهنوا على أنّهم غرباء عن «الدار»، مثلما يبرهن أحدهم في منتدى على أنّه ليس من المجتمع الراقى إن قال: السيد «دومونتسكيو - فزنراك» بدلاً من السيد «دومونتسكيو». وقال «سانيت» فاقده الأنفاس جرّاء انفعاله ولكنه يتسم مع أنّه غير راغب في ذلك: «ولكن ليس الأمر خارقاً إلى هذا الحد». وصاحت السيدة «فيردوران» مقهقهة وقد ثارت ثائرتها: «بلى، وتيقن أنّه مامن أحد في العالم كان استطاع أن يجرز أن الأمر يعني «الباحثة عن الفكر». وعاد السيد «فيردوران» يقول بصوت رقيق موجّها حديثه لـ«سانيت» و«بريشو» معاً: إنّها لمسرحية جميلة على أية حال هذه «الباحثة عن الفكر». وقد أولت هذه الجملة البسيطة التي قيلت بلهجة جدية ولا تجد فيها أثراً لخبث، أولت «سانيت» فائدة وأثارت في نفسه مقداراً من الامتنان يساوي ما تثيره مجاملة. ولم يستطع أن يقول كلمة واحدة وصمت صمتاً تغمره السعادة. وكان «بريشو» أكثر كلاماً فأجاب «فيردوران» قائلاً: «هذا صحيح، وإن عددناها من أعمال مؤلف Sarmate أو اسكندنافي أمكن أن نرشح «الباحثة عن الفكر» لموقع الرائعة الأدبية، وهو شاغر. ولكن دعنا نقول دون أن نسيء إلى روح «فافار» الطيب إنه لم يكن «إيسيني» (١) المزاج. (وكسته الحمرة في الحال حتى أذنيه إذ فكّر بالفيلسوف التروجي الذي كان يبدو تعيساً لأنّه يحاول عبثاً أن يعرف أيّ بنات يمكن أن تمثله شجيرة الشمشاد التي ذكرها «بريشو» منذ قليل بخصوص «بوسير»). وبما أنّ مرزبة «پوريل» هي بأية حال مشغولة الآن من جانب موظف

(١) نسبة إلى الكاتب الشهير هنريك إيسن (Henrik Ibsen).

من أتباع «تولستوي» المتشددين فمن الممكن أن نشاهد «آنا كارينينا» و«القيامة» تحت سقف الد«أوديون» (١). وقال السيد «دوشارلوس»: «إنني أعرف رسم «فافار» الذي توذّن الحديث عنه. لقد رأيت صورة جميلة جداً له في منزل الكونتيسة «موليه». وخلف اسم الكونتيسة «موليه» انطباعاً شديداً في نفس السيدة «فيردوران» فصاحت قائلة: «آه! إنك تزور السيدة «دوموليه». كانت تظنهم يقولون «الكونتيسة موليه» و«السيدة موليه» لحض الاختصار مثلما كانت تسميهم يقولون آل«روهان» أو بداعي الازدراء مثلما تقول بدورها «مدام لانريمواي». وما كان يخالجها أي شك بأن الكونتيسة «موليه»، وهي تعرف ملكة اليونان والأميرة «دوكابارولا»، لا يدانيها أحد في استحقاقها للحرف «دو» (de) (٢) وكانت عازمة هذه المرة على إطلاقها على شخصية متألقة إلى هذا الحد وسبق أن أبدت لها الكثير من اللطف. ولذلك عادت تقول كيما تبرز أنها إنما تكلمت على ذلك النحو قاصدة، وما كانت تتردد في منح الكونتيسة حرف الد«دو»: «ولكني ما كنت أعلم على الإطلاق أنك تعرف السيدة «دو» موليه!» كما لو كان ثمة غرابة مزدوجة: أن يكون السيد «دوشارلوس» عرف تلك السيدة وأن لا تعرف السيدة «فيردوران» أنه يعرفها. ولكننا يؤلف العالم، أو على الأقل ما كان السيد «دوشارلوس» يطلق عليه تلك التسمية، كلاً متجانساً نسبياً ومغلّقاً فبقدر ما ندرك بسهولة أن يقول محام في خضمّ البورجوازية المتباين لواحد يعرف أحد رفاقه في المدرسة الثانوية: «ولكن كيف تعرف فلاناً ويحك؟» يكاد استغرابك في المقابل من أن يعرف فرنسي معنى لفظة «معبد» أو «غابة»، يكاد لا يكون أكثر غرابة من أن تعجب بالمصادفات التي أمكن أن تجتمع بين السيد «دوشارلوس» والكونتيسة «موليه». أضف إلى ذلك أنه حتى لو لم تنجم مثل تلك المعرفة بصورة طبيعية عن القوانين المجتمعية وكانت ثمرة المصادفة فكيف يكون غريباً أن تجهل السيدة «فيردوران» الأمر وهي ترى السيد «دوشارلوس» أول مرة وما أبعد أن تكون علاقاته بالسيدة «موليه» الشيء الوحيد الذي لا تعلمه فيما يتصل به هو الذي ما كانت والحق يقال تعرف عنه شيئاً؟ وسأل السيد «فيردوران» يقول: «من ذا الذي كان يمثل هذه «الباحثة عن الفكر» يا صغيري «سانيت»؟ «وتردد أمين المحفوظات السابق في الإجابة مع أنه أحسّ العاصفة مرت. «ولكنك إلى ذلك تلقي الرعب في فؤاده، تقول السيدة «فيردوران»، فإنك تسخر من كلّ ما يقول ثم تريد أن يجيب». وأردفت السيدة «فيردوران» وهي تلمح نجيب إلى الخربة التي قذف «سانيت» بنفسه فيها ومراده لإخراج زوجين من أصدقائه منها: «قل من كان يمثلها وسوف تعطى هلامية جاهرة تحمّلها معك». فقال «سانيت»: «أذكر فقط أن السيدة «ساماري» كانت تقوم بدور «لازيرين»». وصرخ السيد «فيردوران» كأنما ثمة حريق: «لا زيرين؟ أي شيء هو هذا؟» - إنها عادة مستقاة من المجموعة المسرحية المعدّة للتمثيل، خذ مثلاً في «الكابتن فراكاس»، كان تقول «ترانش مونتانى» (٣) والمتحدث. وصاح السيد «فيردوران» قائلاً: «آه! إنما المتحدث أنت. «لازيرين»! لا، إنه مختلّ العقل». ونظرت السيدة «فيردوران» إلى مدعوها ضاحكة كأنما لتجد العذر لـ«سانيت». «لازيرين» يتصور أن الجميع يعرفون في الحال ماعسى يعني ذلك. إنك مثيل السيد «لونجبيير» الرجل الأكثر غباء ممن عرفت والذي كان يقول لنا يوماً، قول من ألف الأمر، الد«بنات». ولم يعرف أحد عما يعني المتحدث. وعلم القوم أخيراً أنها مقاطعة

(١) أحد المسارح الباريسية.

(٢) هو الحرف الذي يسبق أسماء النبلاء في فرنسا، وهذه الأسماء مأخوذة بعامية من القصور أو الإقطاعيات المختلفة.

(٣) أي قاطع الجبل.

من «صربيا». وبغية وضع حد لعذاب «سانييت» الذي كان يؤلمني أكثر منه سألت «بريشو» إن كان يعلم ما تعنيه «بالبيك» فقال لي: «بالبيك على الأرجح صيغة مشوهة لـ«دالبيك». وربما ينبغي أن نستطيع الاطلاع على صكوك ملوك انكلترا، وهم سادة «نورمانديا»، لأن «بالبيك» كانت تابعة لبارونية «دوفر» وغالباً ما كانوا يقولون بسبب ذلك «بالبيك ما وراء البحر» و«بالبيك اليابسة». ولكن بارونية «دوفر» كانت تخضع بدورها لأسقفية «بايو»، وعلى الرغم من الحقوق التي كانت لفرسان الهيكل مؤقتاً على الدير بدءاً من «لويس داركور» بطريرك القدس وأسقف «بايو» فإن أساقفة هذه الأبرشية هم الذين تولوا توزيع ربيع أملاك «بالبيك». ذلك ما شرحه لي عميد «دوفيل»، وهو رجل أصلع بليغ خيالي ذواق يعيش في طاعة «برياسفاران» وقد عرض لي عبارات غامضة بعض الشيء نظريات تربوية محيرة فيما يطعمني أروع البطاطا المقلية». وفيما كان «بريشو» يتسم ليظهر ما كان من ظرف في جمع أشياء متباينة إلى هذا الحد وفي استخدام لغة رفيعة المستوى وضحكة للتعبير عن أمور مألوفة، كان «سانييت» يحاول الإتيان بنكتة يمكن أن تنتشل من سقطته القرية. والنكتة كانت ما يدعونه بـ«التقريي» ولكنها بدلت شكلها لأن ثمة تطوراً في النكات اللفظية كما هي الحال بالنسبة إلى الأنواع الأدبية والأويشة التي تزول اذ تَحُلَّ أخرى محلها، الخ. وكان شكل «التقريي» فيما مضى «القمة»، ولكنها كانت متقدمة العهد وليس من يستخدمها من بعد ولم يظل سوى «كوتارا» ليقول أحياناً في أثناء لعبة ورق: «أتعلمون ما هي قمة شرودالذهن؟ أن تأخذ مرسوم «نانت» على أنه امرأة انكليزية» (١). ثم إن لفظة القمة استبدلت بها الألقاب وقد لبثت في الأساس «التقريي» القديم ولكن لم يكن أحد ينتبه للأمر إذ كان اللقب شائعاً في حينه. وحينما كانت تلك «التقرييات»، لسوء حظ «سانييت»، من غير وضعه وهي عادة مجهولة لدى النواة الصغيرة، كان يلقيها بلهجة خجولة إلى حد أن لم يكن أحد يفهمها على الرغم من الضحكة التي يذللها بها لإبراز طابع الدعابة فيها. فإن كانت الكلمة على العكس من وضعه، وإذ كان وجدها بعامة وهو يتحدث إلى أحد الخالص فردها هذا وقد خص نفسه بها فقد كانت حينذاك معروفة ولكن لا على أنها من وضعه. ولذلك كانوا حينما يهمس بواحدة منها يتعرفونها ولكنهم يتهمونه بالتقليد لأنه هو واضعها. وأردف «بريشو» يقول: «إذن، «بيك» في اللغة النورماندية تعني «ساقية». وهناك دير الـ«بيك» و«موبيك» أي ساقية المستنقع «مور» أو «مير» كانت تعني المستنقع كما هي الحال في «موفيل» أو في «بريكمار» و«ألفيمار» و«كامبرمير»؛ و«بريكبيك» وهي ساقية المرتفع واشتقت من «بريغا» (Briga) أي المكان المحصن، كما هي حال «بريكفيل» و«بريك بوسك» و«لوبيك» و«بريان»، أو من «بريس» (Brice) أي الجسر وهي ذات «بروك» (Bruck) الألمانية «إنسبروك» و«بريدج» (bridge) الانكليزية التي ترد في الكثير من أسماء المكان (كامبريدج، الخ). لديك أيضاً «نورمانديا» عدد آخر كبير من اشتقاقات «بيك»: «كودبيك» «بولبيك»، «لورويك»، «لوبيك هيلوان» «بيكريل». وتلك هي الصيغة النورماندية التي تقابل الألمانية «باخ» (Bach)، مثل «أو فنباخ» و«أنسباخ». و«فاراغبيك» جاءت من كلمة «فاريني» المساوية لـ«غارين» (garenne) أي

(١) تلاعب لفظي لا مجال لرده، أما مرسوم «نانت» الشهير هو الذي أصدره هنري الرابع عام ١٥٩٨ ويقر فيه حرية المعتقد للبروتستانت وللتقريب يمكن كتابة l'Edit de Nantes بالعربية «ليدي دوانت» أو «الليدي دوانت» للتمكن من فهم التلاعب اللفظي Lady Denant.

الأحراج والمستنقعات المحمية. وعاد «بريشو» يقول: «أما «دال» (dal) فهي شكل من «تال» (thal) أي الوادي: «دارنتال» و«روزندال» وحتى بالقرب من «لوفيه» «بيكدال». أما النهر الذي أورت «دالبيك» اسمها فرائع. فإن شاهده من جرف (falaise) (وهي fels الألمانية، بل لديك، على مسافة غير بعيدة من هنا وفوق مرتفع، مدينة «فاليز» الجميلة)، فإنه يجاور سهمي قباب الكنيسة، وهي واقعة في الحقيقة على مسافة بعيدة، ويبدو كأنما يعكسهما في مياهها». فقلت: «ذلك ما أعتقد، فإنه من المؤثرات التي يجلبها «ايلستير» كثيراً، وقد رأيت منها عدة خطيطات في منزل». وصاحت السيدة «فيردوران»: «ايلستير! أفتعرف «تيش»؟ تدري أي عرفته بأحسن ما تكون الألفة. شكراً لله أنني لا أراه من بعد. ولكن لا، هيّا أسأل «كوتار» و«بريشو» فقد كان مكانه معداً على مائدتي وكان يجيء كل يوم. ذاك واحد يمكن أن تقول إن هجره لنواتنا الصغيرة لم يكن خيراً عليه. سأريك عما قليل أزهاراً رسمها من أجلي، وسترى أي فارق بينها وبين ما يفعل اليوم ولا أحبه على الإطلاق، أقول على الإطلاق! كيف ذلك! لقد طلبت إليه أن ينفذ رسماً لـ «كوتار»، ولا أدخل في الحساب كل ما فعله من رسوم لي». - «وكان قد جعل للأستاذ شعراً بنفسجياً»، تقول السيدة «كوتار» وقد فاتها أن زوجها لم يكن حتى يحمل «الأكريكاسيون» آنذاك (١). «لست أدري يا سيدي إن كنت تجد لزوجي شعراً بنفسجياً». فقالت السيدة «فيردوران» وهي ترفع ذقتها بهيئة المزدري للسيدة «كوتار» والمُعجب بمن كانت تتحدث عنه: «لا أهمية لذلك، فقد كان من صنع خبير ألوان كبير ورسام مجيد». وأضافت تقول وقد توجهت صوبي ثانية: «فيما لا أعلم إن كنت تسمي فتاً كل هذه التأليفات الغريبة وهذه الأشياء الضخمة التي يعرضها منذ أن كف عن الحجى إلى منزلي. إنني أسمى ذلك تلطيخاً رسماً مكروراً، ثم إنه ينقصه التميز والشخصية فإن فيه كل واد عصا». وقال «سانيت» معجلاً وقد تقوى وردت إليه عزيته من جرأ ما أبدت من لطف: «إنه يرد إلينا رشاقة القرن الثامن عشر ولكن بصورة عصرية. على أنني أفضل «هيلو». وقالت السيدة «فيردوران»: «لا صلة له البتة بـ «هيلو». - «بلى، إنه شيء من الثامن عشر محموم، إنه «واتو» بخاري» (٢)، وطفق يضحك. - «آه! معروفة، معروفة تماماً، فهم يأتونني بها من سنين»، يقول السيد «فيردوران» الذي كان «سكي» بالفعل قد روى له ذلك فيما مضى، ولكن على أنه من صنعه. «يا خيبة حظك أنك في المرة اليتيمة التي تنطق فيها بأمر مفهوم يتسم بشيء من الغرابة لا أراه من صنعك». وأردفت السيدة «فيردوران»: «يشق عليّ ذلك لأنه كان شخصاً موهوباً، لقد قضى على نفسه فنان ملفتة، آه! لو لبث ههنا، فلعله كان أصبح أول رسام لوحات طبيعية في عصرنا. وإن ما أوصله إلى هذا الدرك امرأة! ليس يدهشني الأمر على أي حال لأن الرجل كان ممتعاً ولكنه سوقي. لقد كان في الأساس قليل الذكاء. وسأقول لك إنني أحسست ذلك في الحال، وهو في الأساس لم يثر في يوم اهتمامي. كنت أودّه، لا أكثر. ثم إنه أولاً، يا لقدارته! أحب كثيراً، أنت، أناساً لا يتسلون البتة». وسأل «سكي» قائلاً: «أي شيء هو هذا الذي نأكله وهو يمثل جمال اللون هذا؟» فقالت السيدة «فيردوران»: «إنه قشدة بالفريز». - «ولكنه رائع، ولابد أن يصار إلى فتح زجاجات من نبيذ «شاتو مارغو» و«شاتولافيت» ومن «البورتو». - «لا أستطيع أن أقول لك كم يضحكني، فإنه لا يشرب إلا الماء»، تقول السيدة

(١) شهادة تخصص واسع تلي الإجازة فديبلوم الدراسات العليا. أما لقب الأستاذ فلا يطلق إلا على حاملي الدكتوراة من أرباب

الكراسي في الجامعات.

(٢) التلاعب اللفظي لا يظهر إلا بالفرنسية (bateau à vapeur) مركب بخاري و (Watteau à vapeur)

«فيردوران» كي تخفي ستار المتعة التي تلقاها في هذا السلوك الطريف الهلع الذي يبعثه في نفسها ذلك الاسراف فأردف «سكي» قائلاً: «ما ذلك لغاية الشراب، بل تملؤون بها كؤوسنا جميعاً ويأتوننا بشمرات دراق رائحة وزليقات ضخمة، هنا قبالة الشمس الغاربة، وستكون وفرة ألوان كمثّل لوحة جميلة لـ «فيرونيز». وقال السيد «فيردوران» همساً: «وتكلّف ما تكلفه اللوحة تقريباً». ولكن ارفعوا هذه الأجبان القبيحة ألوانها، يقول وهو يحاول انتزاع قصعة ربّ المنزل الذي دافع عن حصّته من جنبه «الغروبير» بكامل قواه. وقالت السيّد «فيردوران»: «أنت تدرك أنني غير أسفة على «ايلستير»، فإن هذا حبته الطبيعة أكثر من ذلك. إن «ايلستير» يعني العمل، الرجل الذي لا يقوى على هجر رسمه حينما يرغب في ذلك. إنه التلميذ المجّد ووحش المباريات أمّا «سكي» فلا يعرف سوى نزواته، وتراه يشعل سيكارتة في أثناء عشائه وقال «كوتار»: «لست أعلم في الواقع لماذا لم تودّي استقبال زوجته، إذا لكان هنا كما في السابق». - «قل ويحك، هلاً كنت مهذباً يا أنت؟ فلست استقبل مومسات يا سيادة الأستاذ»، تقول السيّد «فيردوران» وكانت على العكس بذلت ماوسعها من جهد لاسترجاع «ايلستير» حتّى يرفقة زوجته. ولكنّها حاولت قبلما يتزوجان أن تزرع الخصام بينهما، فقالت لـ «ايلستير» إن المرأة التي يحبها غبية قدرة طائشة وسبق أن سرت. ولم تفلح في القطيعة هذه المرّة، وإنما قطع «ايلستير» علاقاته بمتنّدي آل «فيردوران» وكان يغبط لذلك كما يبارك المرتدون إلى الإيمان المرض أو النكسة التي دفعتهم إلى الاعتزال وكشفت لهم طريق الخلاص. «إنه لرائع الأستاذ، تقول؛ قل بالأحرى على الملأ إن متنادى بيت لقاءات. لكأنّي بك لا تعرف ما عسى تكون السيّد «ايلستير». ولعلني أفضل عليها استقبال أسوأ العاهرات! لا، لا؛ ليست تلك مشاربي. سأقول لك على أية حال أن لعلني كنت سأبدي في غض النظر عن المرأة غباء يتزايد بمقدار ما لم يعد الزوج يثير اهتمامي، ذلك انقضى عهده، بل هو لم يعد حتّى رسماً، فقال «كوتار»: «ذلك غريب بالنسبة إلى رجل يمثل ذكائه». فأجابت السيّد «فيردوران»: «لا، لا! ما كان يضايقل، حتّى في الفترة التي كان فيها صاحب موهبة، إذ كان الوغد ذا موهبة بل فيض من الموهبة، أنّه لم يكن ذكياً على الإطلاق». على أنّ السيّد «فيردوران» لم تنتظر لتطلق هذا الحكم على «ايلستير» اختصامهما وغياب حبّها لرسمه ذلك أنّه كان يتّفق، حتّى في الفترة التي كان فيها في عداد المجموعة الصغيرة، أن يقضي «ايلستير» أياماً كاملة بصحبة امرأة كانت السيّد «فيردوران» بحق أو بغير حقّ تجدها غبية، وما كان ذلك برأيها من فعل رجل ذكي. ثم قالت بلهجة المنصف: «لا. اعتقد أنّه وزوجته خلقا على أكمل وجه ليناسب أحدهما الآخر، ويعلم الله أنني لا أعرف امرأة على وجه البسيطة أبعث على الملل منها وأنتي قد يأخذني أشدّ الحقن لو انبغى أن أمضي ساعتين معها. ولكنما يقال أنّه يجدها ذكية جداً ذلك أنّه لا يند من الإقرار بأنّ «تيشيه» كان على وجه الخصوص مفرط الغباء! فقد رأيته تدهشه نساء لا تتصورها، بلهاوات ساذجات ما كنّا لنقبل بهنّ البتة ضمن عشيرتنا الصغيرة والعجيب أنّه كان يكتب إليهنّ ويناقشنهن هو «ايلستير»! لكن ذلك لا يحول دون جوانب ساحرة، أه! ساحرة، ساحرة ورائعة في عبثيّتها بالطبع». ذلك أنّ السيّد «فيردوران» كانت متيقّنة أن الرجال المرموقين حقاً يأتون ألفاً من الحماقات وهي فكرة خاطئة مع أنّها تتضمن شيئاً من الحقيقة. صحيح أن «حماقات» الناس لا تطاق. ولكنّ الخلل الذي لا نكتشفه إلا مع الأيام إنما ينجم عن دخول لطافات في دماغ الإنسان وهو غير معدّ لها عادة. مما يجعل غرايات الناس الظرفاء باعثة على الحق، ولكنّما ليس من

أناس ظرفاء إلا كانوا من جانب آخر غريبى الأطوار. وقالت لي وقد رأت زوجها يشير إليها بامكان مغادرة المائدة: «هيا، سيكون بوسعي أن أريك في الحال أزهاره». وعادت تتأبط ذراع السيد «دوكامبرمير». وود السيد «فيردوران» أن يعتذر للسيد «دوشارلوس» حالما فارق السيدة «دوكامبرمير» وأن يقدم له ودافعه وذلك على وجه الخصوص في سبيل متعة التحدث عن هذه الفوارق المجتمعية الدقيقة إلى رجل صاحب ألقاب هو مؤقتا أدنى من أولئك الذين كانوا يعينون له المكان الذي يحكمون أنه حق له. ولكنه حرص بادئ الأمر أن يهدي للسيد «دوشارلوس» أنه يضعه على الصعيد الفكري في مرتبة أرفع من أن يظنه قادراً على الالتفات إلى هذه التفاهات. وبدأ يقول: «عفوك أنني اكلمك عن هذه التوافه لأنني أفترض أنك لا تقيم لها وزناً. العقول البورجوازية تأبه بها، فأما الآخرون، الفنانون، الناس الذين هم حقاً من الجماعة فلا يلتفتون إليها. وإني منذ الكلمات الأولى التي تبادلناها أدركت أنك منها». أما السيد «دوشارلوس» الذي كان يولي هذه العبارة معنى شديد الاختلاف فقد انتفض مرتعشاً. فإن صراحة «المعلم» المهينة، في أعقاب غمزات الدكتور، كانت تقطع أنفاسه. وأردف السيد «فيردوران» يقول: «لا ترفع صوتك بالاحتجاج أيها السيد العزيز، فإنك منها، فأنتك منها، ذلك واضح وضوح الشمس. لاحظ أنني لا أعرف إن كنت تمارس أياً من الفنون، ولكن ليس الأمر ضرورياً وليس يكفي دائماً «دوشامبر» الذي قضى نحبه منذ قليل كان يعزف على الوجه الأكمل وبالألية الأكثر متانة ولكنه لم يكن منها؛ كنت تحس في الحال أنه ليس منها و«بريشو» ليس منها. أما «موريل» فمنها، وزوجتي منها، وأحس أنك منها...» وقاطعه السيد «دوشارلوس» وقد شرع يطمئن إلى ما يرمي إليه السيد «فيردوران» ولكنه يفضل أن يخفف من الصراخ بتلك الأقوال المزوجة المعاني: «ماذا كنت تزمع أن تقول لي؟» فأجاب السيد «فيردوران»: «لقد وضعناك إلى اليسار فقط». وود السيد «دوشارلوس» بابتسامة متفهمة بسيطة وقحة: «لا عليك! فلا أهمية البتة لذلك، هنا!» وأطلق ضحكة خفيفة كان يتميز بها - ضحكة يرجح أنها انتقلت إليه من جدّة من «بافار» أو «اللورين» وقد ورثتها يدورها مماثلة تماماً لذاتها من جدّة لها فكانت تجلجل هكذا دونما تغيير منذ عدد لا بأس به من القرون في البلاطات الأوربية الصغيرة العتيقة ويتذوقون نوعيتها الثمينة كما هي حال بعض الآلات القديمة الشديدة الندرة. فهناك أوقات ينبغي فيها، بغية رسم أحدهم رسماً متكاملًا، أن تقتري المحاكاة الصوتية بالوصف، وربما جاء وصف الشخصية التي يصطنعها السيد «دوشارلوس» ناقصاً بسبب غياب هذه الضحكة الصغيرة الرقيقة الخفيفة كمثّل بعض متتابعات لـ «باخ» لا يجري في يوم ردها ردّاً دقيقاً لأن الأوركسترات تفتقر إلى تلك «الأبواق الصغيرة» ذات الجرس الخاص جداً والتي كتب لها المؤلف هذا القسم أو ذاك. وقال السيد «فيردوران» المجروح موضحاً: «ولكن ذلك متعمد؛ على أنني لا أولي ألقاب النبلاء أية أهمية»، يضيف قوله بتلك الابتسامة المتعالية، حيال جدتي وأمي، والتي رأيت كثيرين ممن عرفن يتخذونها إزاء الأشياء التي لا يملكونها، في حضرة من لن يسمعهم والحالة هذه، فيما يعتقدون، أن يجعلوا منها أداة تفوق عليهم. «ولكن بما أن السيد «دوكامبرمير» حاضر بالضبط هنا وهو مركز وأنت بارون فحسب...» وود السيد «دوشارلوس» باستعلاء على السيد «فيردوران» الذي أخذته الدهشة: «اسمح لي، فإنني إلى ذلك دوق «برابان» وفتى «مونتارجيس» وأمير «أوليرون» و«كارانسي» و«فياريجيو» و«دون». على أن ذلك لا يهم على الإطلاق، فلا تعذب نفسك، يضيف قوله وهو يستعيد ابتسامته الرقيقة التي اشرقت على وقع هذه الكلمات

الأخيرة: «لقد تبينت في الحال أنك لم تتعود هذه الأمور».

وجاءت إلى السيد «فيردوران» لتريني أزهار «ايلستير». ولئن أولاني فعل الذهاب في المدينة، وقد اضحى منذ زمن طويل ذي شأن في نظري، لئن أولاني على العكس، بالشكل الذي كان يجذده كليا، شكل رحلة على امتداد الشاطئ يعقبها صعود بالعربة إلى ارتفاع مئتي متر فوق البحر، نوعاً من النشوة، فإن هذه لم تتلاش في «لاراسيلير». وقالت لي «المعلمة هاك، انظر إلى هذا»، وهي تدلني على وردات لـ «ايلستير» ضخمة رائعة ولكن حمرتها القرمزية الناعمة وبياضها المندوف كانا يعطيان بروزاً على بعض إفراط في شكلها القشدي فوق حامل الأصص الذي وضعت عليه. «أتظنه يملك بعد يداً على قدر من المهارة ليلتقط كل هذا؟ وأية قوة فيه! ثم إن هذا جميل كمادة أولية وقد يشوقك أن تتقرأه لمساً. لا أستطيع أن أقول لك كم كان يفرحني أن أراه يرسمها، إذ كنت تحس أنه مهتم بالبحث عن هذا الأثر الذي تخلقه». وتوقفت نظرة المعلمة حاملة على حاضر الفنان هذا الذي تختصر فيه لا موهبته العظيمة فحسب، بل صداقتها الطويلة التي لم تلبث حية إلا في هذه الذكريات التي ورثتها عنه. فقد كان يخيل إليها أنها ترى من جديد، خلف الأزهار التي قطفها فيما مضى من أجلها، اليد الجميلة التي رسمتها صبيحة يوم تنضح نضارة إلى حد أنها استطاعت أن تمثل الورود، وهي بعد حية، ورسمها، الذي يشبهها إل يحد، يتقابلان، في غداء المعلمة، هذه على الطاولة والآخر المكون على مقعد في قاعة الطعام، قلنا يشبهها إلى حد، لأن «ايلستير» لا يقوى على النظر إلى زهرة إلا إذا نقلها بادئ الأمر إلى ذلك البستان الداخلي الذي نضطر إلى المكوث فيه على الدوام. وقد أبرز في هذه اللوحة المائية ظهور الورود التي رآها والتي ما كانت قط عرفت لولاه، حتى ليتمكن القول إنها كانت نوعاً جديداً أغنى به هذا الرسام، على نحو ما يفعل جنائتي حاذق، فصيلة الورد. وقالت: «منذ اليوم الذي فارق فيه النواة الصغيرة قضى على الرجل. ويبدو أن حفلات العشاء عندي كانت تضيق وقته وأني كنت أسوء إلى تطوّر عبقريته»، تقول بلهجة ساخرة؛ ورفعت صوتها بحركة مستكبرة: «كما لو أمكن أن لا تكون عشرة امرأة مثلي مفيدة لفنان! وعلى مقربة منا هم السيد «دوكاميرير»، وكان جالساً منذ ذلك، هم إذ رأى السيد «دوشارلوس» واقفاً يغني القيام وأن يعطيه كرسية. ربما لم يكن هذا العرض يوافق في فكر المركز سوى نية في مجاملة غير محددة المعالم. وفضل السيد «دوشارلوس» أن يقرن بها الدلالة على واجب يعلم النبيل البسيط أنه يقع عليه الوفاء به تجاه أمير وما ظن بمقدوره تثبيت حقة في أن يتقدم غيره إلا يرفضه. لذلك صاح قائلاً: «ولكن كيف يكون ذلك! رجوك! ما أغزبه أمر! لقد اتسمت لهجة الاحتجاج المتحالية في عنفها، اتسمت مذ ذاك بشيء من طابع آل «غيرمانت» برز أكثر فأكثر في الحركة الأمرة اللامجدية الأليفة التي ضغط بها السيد «دوشارلوس» بكلتا يديه، وكأنما ليرغمه على الجلوس ثانية على كتفي السيد «دوكاميرير» الذي لم يكن نهض من مكانه، وألح البارون يقول: «عجباً لك يا عزيزي! ما أحوجنا إلى مثل هذا! ليس ما يدعو إلى ذلك! فمثله مقصور على أمراء الأسرة المالكة». لم يتأثر لا آل «كاميرير» ولا السيدة «فيردوران» بما أبدى من حماسة إزاء منزلهم. ذلك لأنني كنت فاتراً إزاء جمالات يدلونني عليها وأتحمس لذكريات مبهمة، بل كنت أقرّ لهم أحياناً بخيبة أمني إذ لا أجد ما كان مطابقاً لما سبق أن أثاره اسمه لدي من تخیلات. وقد أثرت حفيظة السيدة «دوكاميرير» إذ قلت لها إنني ظننته أكثر طابعاً ريفياً. وفي المقابل توقفت مسحوراً أستنشق رائحة ريح تنسلّ عبر الباب. «أرى أنك تحبّ

مجارى الهواء. ولم يصادف ما أثبت به على قطعة صقيلة من الحرير الأخضر سدّ بها لوح زجاج مكسور نجاحاً أوفر، إذ رفعت المركيزة صوتها تقول : «باللفظاعة» وطفح الكيل إذ قلت: «كان أعظم فرح أصبته حينما وصلت، فعندما سمعت وقع خطائي في الممرّ لست أعلم في أي مكتب عمديّة قرية تحوى خارطة المنطقة خلّنتني دخلت». وفي هذه المرّة أدارت لي السيّدة «دوكامبرمير» بحزم ظهرها. وسألها زوجها بالعناية المُشفقة نفسها التي كان اتّخذها لو استعلم كيف احتملت زوجته احتفالاً حزيناً: «لم تجدى في كلّ ذلك سوء ترتيب مفراطاً؟ فثمة أشياء جميلة». ولكن، لما كان سوء الطويّة يجد كلّ شيء قابلاً للانتقاد لدى الذين حلّوا محلنا، سواء في شخصهم أو منزلهم حين لا تفرض عليها قواعد ثابتة في الذوق السليم حدوداً حتمية، فقد قالت: «أجل، ولكنها ليست في مكانها، ثمّ هل هي بمثل هذا الجمال؟». - «لقد لاحظت، يقول السيّد «دوكامبرمير» باغتمام يحدّ منه شيء من الحزم، ثمة لوحات لـ «جوي» بانّت خيوطها، وأشياء متهرّقة تماماً في هذه الصالة».

- «وقطعة القماش هذه بورودها الضخمة كما هو لحاف فلاحة»، تقول السيّدة «دوكامبرمير» التي كانت ثقافتها المصطنعة تنطبق حصراً على الفلسفة المثالية والرسم الإنطباعي وموسيقى «دو بوسّي». وكبي لا يكون الإدعاء باسم البذخ حصراً، بل باسم الذوق أيضاً أضافت: «ثم إنهم أقاموا صادات للريح! فأني خطّأ في الأسلوب! ما عساك تريد هؤلاء الناس لا يعرفون وأين عساهم كانوا تعلّموا؟ لا بدّ أنّهم تجار كبار اعتزلوا، وهذا شيء لا بأس به بالنسبة إليهم». وقال المركيز: «لقد بدت لي الشمعدانات جميلة»، دون أن يعلم أحد لماذا كان يستثنى الشمعدانات، مثلما كان مايبادر دوماً، لا محالة في ذلك، في كلّ مرّة يجرى الحديث فيها عن كنيسة، سواء أكانت كاتدرائية «شارتر» أو «رانس» أو «أميان» أو كنيسة «البليك»، إلى ذكره على أنّه رائع هو: «طاولة الأرغن والمنبر وأعمال الرحمة». «أما الحديقة، فلا داعي للحديث عنها، تقول السيّدة «دوكامبرمير»، إنها مجزرة، تلك الممرّات التي تمضي كلها بالمقلوب!

وانتهزت فرصة تقديم السيّدة «فيردوران» القهوة لأبادر إلى إلقاء نظرة على الرسالة التي سلّمني إياها السيّد «دوكامبرمير» والتي تدعوني أمة فيها إلى العشاء. كان الخطّ بهيّن الخبر ذاك يعبر عن شخصيّة أصبحت منذ الآن معروفة لديّ من بينها جميعاً دون أن تكون حاجة من بعد إلى اللجوء إلى فرضيّة براعات خاصّة أكثر ممّا يلزم الرّسّام ألوان نادرة خفيّة الصنعة ليعبر بها عن رؤيته الفريدة، ولعل مشلولاً أصيب بفقد الكتابة بعد أزمة قلبية وقضى عليه أن ينظر إلى الحروف على أنّها رسم دون أن يعرف كيف يقرؤها، لعله كان أدرك، حتّى هو، أن السيّدة «دوكامبرمير» تنتمي إلى أسرة عريقة بعث فيها تعاظم الآداب والفنون الحماسي شيئاً من الجوّ الرّحب للتقاليد الأرستقراطية؛ وكان حزر أيضاً في آية سنوات تقريباً تعلّمت المركيزة في الآن نفسه الكتابة وعزف «شوبان». ذلك كان العصر الذي كان فيه الناس الحسنو التهذيب يتقيّدون بقاعدة التزام اللطف والقاعدة المسماة بالصفات الثلاث. وكانت السيّدة «دوكامبرمير» تألف بين الإثنين. فما كانت تكفيها صفة مادحة فتتبعها (بعد خطّ صغير) بأخرى ثمّ بثالثة (بعد خطّ ثان). لكنّ ما كان خاصاً بها أنّ تعاقب الصفات الثلاث، خلافاً للهدف الاجتماعي والأدبي الذي ترمي إليه، لم يكن يرتدي في وريقات السيّدة «دوكامبرمير» طابع التدرج الصاعد بل شكل التناقض، فقد نقلت إلى السيّدة «دوكامبرمير» في هذه الرسالة الأولى أنّها



التقت «سان لو» وقدّرت أكثر من أي وقت مضى صفاته «الفريدة - النادرة - الحقيقية» وأنه سيعود مع أحد أصدقائه (ذاك الذي بالضبط كان يحب الكنة) وأتي إن وددت المحيىء إلى «فيتيرن» برقتهم أو بدونهم للعشاء فسوف «يفتنها ذلك - يسعدها - يفرحها». ربّما كان ذلك بسبب أن الرغبة في اللطف لديها لم تكن توازيها خصوبة الخيال وثراء المفردات، وأنّ هذه السيّدة التي تحرص على إطلاق ثلاث صيغ تعجّب لم يكن يتوافر لها من القوّة في الثانية والثالثة سوى صدى ضعيف للأولى، حتى إن اتفق ثمة صفة رابعة لم يبق شيء من اللطافة الأولى. ثم إنّ السيّدة «دوكاميرمير» كانت قد تعودت، جرّاء بساطة مرفهة لا بد أنّها ولدت انطباعاً ضخماً في الأسرة وحتى في دائرة معارفها، أن تستبدل بكلمة «صادق» التي كان يمكن في النهاية أن تبدو كاذبة كلمة «حق». وكيفا تظهر تماماً أن الأمر يتعلق بالفعل بشيء صادق، كانت تكسر الحلف التقليدي الذي يضع كلمة «حق» قبل الاسم وتغرسها بشجاعة بعده. فكانت رسائلها تختتم بالكلمات التالية: «أرجو أن تتأكدوا من ودّي الصادق»، «أرجو أن تتأكدوا من تعاطفي الصادق»، ولكنّما أصبحت تلك لسوء الحظّ عبارة معتادة إلى حدّ أن ذلك التظاهر بالصراحة أخذ يخلف إنطباعاً بالجمالة الكاذبة أكثر من العبارات القديمة التي لم نعد نفكر بمعناها. كنت مربكاً على آية حال في قراءتي من جرّاء لفظ الأحاديث الغامضة التي يطغى عليها الصوت الأكثر ارتفاعاً للسيّد «دوسارلوس» الذي لم يتخلّ عن موضوعه وكان يقول للسيّد «دوكاميرمير»: «كنت تذكّرني في مرادك أن أخذ مكانك، برجل بحث إليّ هذا الصباح برسالة يوجّهها «إلى سموّ البارون دوسارلوس» ويبدأها بـ «سيدي». فأجاب السيّد «دوكاميرمير» وهو يستسلم لضحكة خفيفة: «كان مراسلك بالفعل يبالغ بعض الشيء». وكان السيّد «دوسارلوس» قد أثار تلك الضحكة ولكنّه لم يشاطره إيّاها، فقال: «ولكن في الأساس ياعزيزي لاحظ أنه هو من كان على حقّ من منظور الشّعاعات، لست أجعل من الأمر مسألة شخصية، لا بدّ تعلم ذلك. إنني أخذت عن الأمر كما لو تناول آخر غيري. ولكنّ ما عسك تريد، التاريخ هو التاريخ ولا حيلة لنا فيه وليس يعود لنا أن نعيد صناعته. فلن أذكر لك الإمبراطور «غليوم» الذي لم يكفّ قطّ في «كيل» عن مناداتي بـ «سيدي». وقد تناهى إليّ أنّه كان يدعو على هذا النحو سائر الدوقة الفرنسيّين، وفي الأمر إفراط، وربّما كان محض لفظة لطيفة موجّهة من فوق رؤوسنا إلى فرنسه». - «لطيفة وفي الصراحة بين بين»، يقول السيّد «دوكاميرمير». وأضاف السيّد «دوسارلوس»: «لا أوافقك الرأي. لاحظ أن سيّدنا من أدنى طراز كهذا الـ «هوهنزوليرن»، وبروتستنتيّ إلى ذلك، وقد انتزع أملاك ابن عمّي ملك «هانوفر»، لا يمكن فيما يخصّتي شخصياً، أن يروّقيني، وقد بدا أن «هانوفر» أقرب إلى قلبه من «الألزاس واللورين». «ولكنّي أظنّ الميل الذي يدفع بالإمبراطورنحونا صادقاً عميقاً، سيقول الهيل إنّه امبراطور مسرح، ولكنّه على العكس رائع الذكاء. إنّه غير خبير في الرسم وقد أرغم السيّد «تشودي» على سحب لوحات «ايلستير» من المتاحف الوطنيّة. لكن «لويس الرابع عشر» ما كان يحبّ الأساتذة الهولنديّين وكان كذلك ميّلاً إلى الأبهة وكان بمجمل القول ملكاً عظيماً، أضف أن «غليوم الثاني» سلّح بلاده على الصعيد العسكري والبحري كما لم يفعل «لويس الرابع عشر» وأمل أن لا يشهد حكمه في يوم النكسات التي أظلمت بها نهاية حكم من يدعى ابتداءً الملك - الشمس. لقد ارتكبت الجمهورية فيما أرى خطأ كبيراً برفضها لفتات سليل «الهوهنزوليرن» أو بأن لم تردّها له إلا بالقطارة. ويتبيّن ذلك بنفسه بأوضح شكل ويقول بما يملك من موهبة تعبير: «ما أبغيه

مصافحة بالأيدي لاحتية بالقبعات». إنه سافل كإنسان، فقد هجر وسلم وأنكر أفضل أصدقائه في ظروف كان سكوته فيها بالأسوأ بقدر ما كان سكوتهم عظيماً، يقول السيد «دوسارلوس» موالياً فكرته وكان ينزلق، مدفوعاً على الدوام على سفح انحداره، باتجاه قضية «أو لنبورغ» ويتذكر الكلمة التي وجهها إليه أحد المتهمين الأعلى مكانة: «أفينبغي أن يثق الإمبراطور برقة نفوسنا كي يكون نجراً وسمح بمثل هذه الدعوى! لكنه لم يخطيء على كل حال إذ وثق بتكتمنا، فلعلنا كنا حبسنا ألسنتنا حتى على المقصلة». كل ذلك لا دخل له؛ أيا كان الحال، مع ما كنت أبغى قوله، وأعني أننا بوصفنا أمراء يستمدون السلطة من غيرهم، أصحاب السمو الرفيع في ألمانية، فيما كانت مكانتنا كأصحاب سمو في فرنسة مقررًا بها علناً. أما «سان سيمون» فيزعم أننا أخذنا اللقب تجاوراً وهو مخطئ تماماً فيما مضى إليه. وإن الحجّة التي يقدمها في ذلك، وقوامها أن لويس الرابع عشر أمرنا بالامتناع عن دعوته الملك المسيحي جداً وأصدر أمره إلينا بدعوته الملك فحسب، إنما تبرهن فقط أننا كنا مرتبطين به لا أننا ما كنا نملك الإمارة؛ وإلا لا نبغى إنكارها على دوق «دولورين» وكثيرين غيره! على أي حال عدّة ألقاب جاءتنا من أسرة «دولورين» عن طريق «تيريز ديسبينوا» جدّة جدتي التي كانت إبنة الفتى «دوكوميرسي». وإذا انتبه السيد «دوسارلوس» أنّ «موديل» كان يصغي إليه فقد توسّع أكثر في أسباب إدعائه فقال: «لقد لفت شقيقي إلى أن النبذة حول أسرتنا لا بد أن تكون موجودة في الجزء الثاني من دليل «غوتا»<sup>(١)</sup> إن لم تكن في الأول، وليس في الثالث»، قال دون أن يتبين أن «موريل» ما كان يعلم ما عسى يكون دليل «غوتا». ولكن الأمر يتعلق به، إنه رئيسي في السلاح وبما أنه يرى أن الأمر حسن كذلك ويدع الأشياء على سجيّتها فما عليّ إلا أن أغمض عينيّ دونها. وقلت للسيدة «فيردوران» وهي تقبل إليّ وفيما كنت أضع رسالة السيدة «دوكاميرمير» في جيبي: «لقد استهوانني السيد «بريشو» كثيراً». فأجابني بفتور: «إنه رجل مثقف وطيب القلب. وهو يفتقر بالطبع إلى الظرف والدق، ويتمتّع بذكرة مخيفة. كانوا ينقلون عن «جدود» الناس الذين نستقبلهم هذا المساء، عنيت المهاجرين، أنهم لم ينسوا شيئاً. ولكنهم كانوا يلقون على أيّ حال عذراً، تقول وقد أخذت لحسابها كلمة لـ «سوان»، في أنهم لم يتعلموا شيئاً، فيما يعرف «بريشو» كلّ شيء ويقذفنا في أثناء العشاء بأكداس من المعاجم؛ وعندئذ أتلك لا تجهل شيئاً من بعد ممّا يعنيه اسم هذه المدينة وتلك القرية». وفيما كانت السيدة «فيردوران» تتكلم تذكرت أنني كنت عازماً على سؤالها عن أمر ولكّني عجزت عن أن أتذكر ما كان ذاك الأمر. وقال «سكي»: «يقيني أنكما تتحدثان عن «بريشو». «شانبي» و«فريسيني»، لم يسامحكما بشيء. لقد راقبتك أيتها «المعلمة» العزيزة». - لقد رأيته بدوري وأوشكت أنفجر». لا يسعني أن أقول اليوم أية ملابس كانت ترتديها السيدة «فيردوران». وربما لم أكن أكثر علماً بذلك في تلك اللحظة نفسها لأنّي لا أتمتع بروح الملاحظة. بيد أنني قلت لها، وقد أحسست أنّ ملابسها لا تخلو من نزعة تباه، قولاً لطيفاً، بل يتسم بالإعجاب، لقد كانت كالنساء جميعهنّ تقريباً اللواتي يخجلن إليهن أن الثناء الموجّه إليهنّ إنّما يمثل التعبير عن الحقيقة حصراً وأنّه حكم يطلق دون محاباة وعلى نحو لا يقاوم وكأنّما الأمر أمر حاجة فنية لا ترتبط بشخص، ولذلك طرحت عليّ هذا السؤال الذي يتسم بالاعتزاز والسذاجة، وهو عاديّ في مثل هذه الأحوال، طرحته بجديّة كستني منها حمرة الخجل من نفاقي: «يروقك

(١) هو دليل ديبلوماسي وأنسابي، نشر في «غوتا» (ألمانية) بدءاً من عام ١٧٦٣.

ذلك ؟» وقال السيد «فيردوران» وهو يقترب منا : «تحدثون عن «شانيتي»، إني متيقن من ذلك». لقد كنت الوحيد، وأنا أفكر بقماشي الأخضر اللماع وبرائحة تنبعث من الخشب، في أنني لم ألاحظ أن «بريشو» أثار السخرية منه وهو يعدد تلك الاشتقاقات. ولما كانت الانطباعات التي تكسب الأشياء قيمتها في نظري من تلك التي لا يحسها الآخرون أو يكتبونها دون التفكير بها على أنها غير ذات بال، وأنها كانت لبثت بالتالي غير مفهومه أو كانت موضع إزدراء لو استطعت الإفصاح عنها، فقد كانت بالنسبة إلي غير ذات فائدة إطلاقاً وتحمل إلى ذلك خطر احتسابي غيباً في نظر السيدة «فيردوران» التي بدا لها أنني أصدق السيد «بريشو» مثلما سبق أن بدوت للسيدة «دوغيرمانت» لأنني كنت أستحلي المكوث في منزل السيدة «دارياجون». أما بالنسبة إلى «بريشو» فشمة سبب آخر قوامه أنني لم أكن من العشيرة الصغيرة. وفي كل عشيرة، سواء أكانت من دنيا المجتمع، أم سياسية أم أدبية يكتسب المرء سهولة شريفة في اكتشاف كل ما لم يكن ليخطر للفقراء النزبه أن يجده في حديث أو خطاب رسمي أو أقصوصة أو قصيدة قصيرة. فكم مرة أتفق لي، وأنا أقرأ بشيء من الانفعال حكاية نسجها بمهارة عضو أكاديمية فصيح اللسان على شيء من القدم، أن أجد نفسي على شفا أن أقول لـ «بلوك» أو للسيدة «دوغيرمانت»: «ما أجمل هذا» فإذا بهما يصيحان كل بلغة مختلفة قبلما أكون فتحت فمي: «إن أردت قضاء فترة طيبة فاقراً حكاية لفلان، فالغناء البشري لم يبلغ قط الحد الذي يبلغه». أما ازدراء «بلوك» فنتاج على وجه الخصوص من أن بعض المؤثرات الأسلوبية، وهي ممتعة على أي حال، كانت قد خبا إلى حد بريقتها؛ وأما ازدراء السيدة «دوغيرمانت» فمن أن الحكاية تبدو كأنما تبرهن بالضبط عن عكس ما قصد إليه المؤلف لأسباب واقعة كانت تبرع في استخلاصها ولكنها ما كانت لتخطر لي على بال. وكانت دهشتي أن أرى السخرية التي تختفي وراء لطف آل «فيردوران» الظاهر إزاء «بريشو» تساوي دهشتي لسماع آل «كامبرمير» يقولون لي بعد بضعة أيام في «فيتيرن» في مقابل المديح الحماسي الذي أوجهه لقصر «لاراسيلير»: «لا يمكن أن تكون صادقاً بعد الذي فعلوه به». صحيح أنهم أقرروا بأن آتية الطعام كانت جميلة، وما كنت رأيتهما أكثر مما رأيت صادقات الريح التي تؤذيك رؤيتها. وقال السيد «فيردوران» بلهجة ساخنة: «باختصار القول، سوف تعلم الآن حينما تعود إلى «البليك» ما تعنيه «البليك». وكانت الأمور التي يطلعي عليها «بريشو» هي بالضبط ماثير اهتمامي، أما ما كانوا يدعونه ظرفه فقد كان بالضبط هو نفسه الذي كانوا يستسيغونه إلى حد كبير داخل العشيرة الصغيرة، فقد كان يتكلم بذات السهولة التي تبعث فيك الضيق، ولكن كلامه لم يعد مؤثراً وكان عليه أن يغالب صمتاً عداًياً أو أصداً مزعجة، ولم يكن ما يقول هو الذي تغير، بل شروط السماع في الصالة وميول الجمهور. وقالت السيدة «فيردوران» وهي تدل على «بريشو»: «حذار! ولما كان هذا قد حافظ على حاسة سمع أكثر نفاذاً لديه من الرؤية فقد حذج «المعلمة» بنظرة أحسر وفيلسوف سرعان ما مال بها عنها. ولئن كانت عيناه أقل صلاحاً فإن عيني فكره كانتا في المقابل تلقيان في الأشياء نظرة أشمل. فقد كان يبصر القليل الذي يمكن توقعه من صنوف الود الإنساني وقد سلم بذلك. كان بالتأكيد يعاني العذاب من جرأته، إذ يتفق حتى لذلك الذي يكشف ذات مساء واحد، داخل وسط تعود أن يكون فيه موضع استحسان، أنهم وجدوه إما شديد الطيش أو مفرط الحذقة أو شديد الهوج أو مفرطاً في جرأته، الخ .. أن يعود إلى منزله تعيساً. وغالباً ما يكون بدا لغيره غير معقول أو من نمط قديم بسبب مسألة

آراء معيّنة، نظام معين. وغالباً ما يعلم حقّ العلم أن هذا الغير لا يساويه؛ وربما استطاع بيسر تشريح السفسطات التي حكموا بها عليه ضمناً ومراده أن يمضي للقيام بزيارة، لكتابة رسالة: ولكنه أكثر حكمة فلا يقدم على شيء وينتظر دعوة الأسبوع المقبل. وأحياناً كان فقدان الخطوة ذاك يدوم شهوراً بدلاً من أن ينتهي في أمسية واحدة. فإذا هو ناجم عن تقلب الأحكام المجتمعية فإنه يزيد منه أيضاً، لأنّ الذي يعلم أنّ السيّدة «س» تحتقره ويحسّ أنّه موضع تقدير أكبر لدى السيّدة «ع...» فإنه يعلن هذه الأخيرة أفضل منها ويهاجر إلى منتداه. وليس هنا على أيّ حال مجال وصف هؤلاء الناس الذين هم أعلى مستوى من الحياة المجتمعية ولكنهم لم يفلحوا في تحقيق ذاتهم خارجها، الذين يسعدهم أن يستقبلوا ويغيظهم أن يتجاهلهم الآخرون، الذين يكتشفون في كلّ عام عيوب ربّة البيت التي كانوا يمجّدونها ونبوغ تلك التي لم يقدروها حقّ قدرها، على أن يعودوا إلى حبّهم الأول بعدما يكونون عانوا من سيّئات الثاني وتكون سيّئات الأول طواها النسيان إلى حدّ. ويمكننا انطلاقاً من فترات فقدان الخطوة القصيرة هذه أن نقدّر الغمّ الذي يلحقه بـ«بريشو» غياب الخطوة الذي يعلم أنّه نهائيّ. فلم يكن يجهل أن السيّدة «فيردوران» تسخر منه في العلن أحياناً وحتى من عاهاته، وإذ يعلم أنّ ما ينبغي توقّعه من الوداد البشريّ قليل وقد سلّم به فإنّ ذلك لم ينتقص من اعتباره «المعلّمة» بمثابة أفضل صديقه له. إلا أنّ السيّدة «فيردوران» أدركت من الحمرة التي كست وجهه الجامعيّ أنّه سمعها فاعتزمت أن تكون لطيفة معه في أثناء السهرة. ولم استطع أن أمسك عن قولها إنّها كانت تبدي منه القليل القليل لـ«سانيت». «ما بالك تقول غير لطيفة! ولكنّه يعشقنا ولست تعلم ما نمثّل بالنسبة إليه! إن زوجي يحسّ أحياناً بشيء من الضيق من جرّاء غيابه، ولا بدّ من الإقرار بأنّ ثمة ما يبرّره، ولكن لماذا لا يثور أكثر ممّا يفعل في تلك الأحيان بدلاً من اتخاذه مظهر الكلب الخنوع؟ ذلك يفترق إلى الصراحة ولست أحبه. ولا يحول ذلك دون أن أحاول دوماً تهدئة زوجي لأنّه إن تمادى فلن يظّل لـ«سانيت» إلا أن لا يعود؛ ولست راغبة في الأمر لأنني سأقول لك إنّّه لم يعد يملك شروى نقيير وهو بحاجة إلى حفلات العشاء هذه. فإنّ تكذّر على أيّ حال فعليه أن لا يعود، فليست تلك مشكلتي، وحين تحتاج الآخرين نحاول أن لا تكون بمثل ذاك الغباء». وكان السيّد «دوشارلوس» يوضح للسيّد «دوكاميرير» قائلاً: «كانت دوقية «أومال» على مدى فترة طويلة من أملاك أسرتنا قبل أن تؤول إلى أسرة «فرنسة»، ويفعل في حضرة «موريل» الذاهل والذي إن لم يكن كامل هذا البحث موجهاً إليه فقد كان على الأقلّ غايته. «فقد كان لنا حقّ التقدّم على سائر الأمراء الأجانب، وبوسعي أن أعطيك ألف مثقال عن ذلك. منها أن الأميرة «دوكروا» إذ أرادت أن تجشّو راكمعة أثناء جنازة «السيّد»<sup>(١)</sup> بعد جدّة جدّتي فقد أفهمتها بلهجة قاسية أن ليس لها الحق في الوساد وأمّرت ضابط. الخدمة برفعة ورفعت الأمر إلى الملك الذي أمر السيّدة «دوكروا» بالمبادرة إلى الاعتذار من السيّدة «دوغيرمانت» في منزلها؛ وأنّ الدوق «دوبرغونني»<sup>(٢)</sup> إذ جاء إلى منزلنا برفقة حجّابه وهم يرفعون العصا، فقد حصلنا من الملك أن يأمر بخفضها. أعلم أنّه من غير المستحبّ التحدّث عن فضائل الأقارب، إلا أنّه من الذائع أن أهلنا كانوا دائماً في المقدّمة ساعة الخطر. وأنّ صبيحة الحرب التي اعتمدناها بعدما أقلعنا عن تلك الخاصّة بدوقة

(١) هو دوق أورليان وشقيق لويس الرابع عشر.

(٢) هو لويس، ولي عهد فرنسا، حفيد لويس الرابع عشر ووالد لويس الخامس عشر.

«دويرابان» كانت «احتلّ المقدمة». وهكذا يبدو بوجيز القول مشروعاً إلى حدّ ما أن نكون حصلنا فيما بعد على ذاك الحقّ الذي سبق أن خصصنا أنفسنا به قروناً طويلاً في الحرب، أن نكون حصلنا عليه في البلاط. والحقّ أنّه أقرّ لنا فيه على الدوام. سأذكر لك أيضاً برهائناً على ذلك الأميرة «دوبادن»، فإذا بلغ بها النسيان أنّ اعترفت منازعة الدوقة «دوغيرمانت» نفسها التي كنت أكلمك عنها تروا مكانتها وهمّت تريد الدخول أولاً لدى الملك مستغلة حركة تردّد ريمّا بدرت من قريتي (مع أنّه لم يكن ما يدفع إليها) صاح الملك بحزم: «هيا، ادخلي يا ابنة العمّ، فإنّ السيّد «دوبادن» أكثر علماً بما تدين به لك». وإنّما كانت تحتلّ تلك المكانة بما هي دوقة «دوغيرمانت»، مع أنّها من جانبها سليله أسرة عظيمة إلى حدّ ما إذ هي بوالدتها ابنة شقيقة ملكة بولونيا وملكة المجر وتاخب «اللاتينا» والأمير «دوسافوا كارينيان» وأمير «هانوفر»، وهو فيما بعد ملك انكلترة. وقال «بريشو»: "Maecenasatairs edite regibus" (ميكينس الذي ينحدر من جدد ملكيين)<sup>(١)</sup>، قال متوجّهاً إلى السيّد «دوشارلوس» الذي ردّ على هذه المجاملة بانحناء بالرأس طفيفة. وقالت السيّد «فيردوران» تسأل «بريشو» الذي ودّت لو تحاول التكفير عن كلمات تفوّهت بها منذ قليل: «ما الذي تقوله؟» - «كنت أتكلّم، يسامحني الله عن رجل شديد التأتّي كان زهرة الصفوة (وقطبت السيّد «فيردوران» حاجبيها)، في دوائر عصر «أغسطس» (واتخذت السيّد «فيردوران»، وقد هدأ من روعها بعد تلك الصفوة، هيئة أكثر صفاءً)، عن صديق لـ «فيرجيليوس» و«هوراسيوس» وكانا يذهبان بالتملّق إلى حدّ التصريح له في حضرته عن أسلاف له أكثر من أرسقراطيين، أسلاف ملكيين، كنت بوجيز القول أتكلّم عن «ميكينس»، عن جليس مكينات صديق لـ «هوراسيوس» و«فيرجيليوس» و«أغسطس». وإنّي لعلّي يقين أن السيّد «دوشارلوس» يعلم تمام العلم وعلى جميع الوجوه من كان «ميكينس». وأرسل السيّد «دوشارلوس» من طرف عينه نظرة لطيفة إلى السيّد «فيردوران» لأنّه سمعها تضرب موعداً لـ «موريل» في مابعد الغد وخشي أن لا يدعى فقال: «أعتقد أن «ميكينس» هو ما يقرب أن يكون «فيردوران» العصور القديمة». ولم تستطع السيّد «فيردوران» أن تكبت نصف ابتسامة بعثها الارتياح. وذهبت إلى «موريل» وقالت له: «إنّه محبّب، صديق أهلك، واضح أنّه رجل متعلّم وحسن التهذيب وسوف ينسجم مع نواتنا؛ فأين يقطن في باريس؟» وصمت «موريل» صمت المتعالي وطالب فقط بلعبة ورق. وأصرّت السيّد «فيردوران» قبل ذلك على شيء من الكمان. ورافق السيّد «دوشارلوس» الذي ما كان يتكلّم في يوم عن المواهب العظيمة التي يتمنّع بها، رافق، فأثار دهشة الجميع، بالأسلوب الأكثر صفاء، المقطوعة الأخيرة (القلقة المعذبة «الشومانية» الطابع)<sup>(٢)</sup>، ولكنها سابقة لسوناتا «فرانك» من سوناتا «فوريه» للبيانو والكمان، كنت أحسّ أنّه سيزوّد «موريل» ذا المواهب الرائعة في نطاق الصوت والبراعة، بما ينقصه بالضبط، أي الثقافة والأسلوب. ولكنّي فكّرت باستغراب بالذي يقرن لدى شخص واحد نقيصة جسميّة وموهبة روحية، ولم يكن السيّد «دوشارلوس» كثير الاختلاف عن أخيه الدوق «دوغيرمانت». بل هو منذ قليل (وكان الأمر نادراً) تكلم فرنسيّة بمثل سوء فرنسيّة. وإذ لامي (دونما شك

(١) كان ميكينس في العصر الروماني حامياً وسنداً (بالنفوذ والمال) للشاعرين الكبيرين فريجيليوس وهو راسيوس وغداً اسمه فيما بعد يعني راعي الأدب والفن والمحسن إلى الأدياء والفنانين. Mécène  
(٢) الموسيقى الكبير ذو النزعة الغنائية.

بغية أن أتحذث بلغة أكثر حرارة عن «موريل» إلى السيّد «فيردروان» على آتني لا أمضي البتّة إلى زيارته، فيما تعلّلت أنا بالتزام التحفظ، أجابني قائلاً: «ولكن بما أنني أنا من يطلب ذلك فليس سواي من يمكن أن يستاء جرّاءه». كان يمكن أن يجيء ذلك على لسان الدوق «دو غير مانت». والسيّد «دوشارلوس» في نهاية المطاف إن هو إلّا «غير مانتني». لكنّما كان كافياً أن تحدث الطبيعة خللاً كافياً في منظومته العصبية كيما يفضل على امرأة، كما لعل أخاه الدوق كان اختار، أحد رعاة «فيرجيليوس» أو تلميذاً لأفلاطون، وفي الحال جعلت صفات يجهلها الدوق «دوغيرمات»، وغالباً ما ارتبطت بذلك الخلل، جعلتني السيّد «دو شارلوس» عازف بيانو رائعاً ورسمًا هاوياً لا يخلو من ذوق ومتحدثاً بليغاً. والأسلوب السريع القلق الساحر الذي كان السيّد «دوشارلوس» يعزف به الجزء «الشوماني» من سوناتا «فوريه»، من ذا كان يستطيع أن يتبين أن هذا الأسلوب يجد مقابله - ولا نجوّر أن نقول سببه - في أقسام جسميّة حصراً، في صنوف من الخلل عصبية لدى السيّد «دوشارلوس»؟ سوف نوضح فيما بعد عبارة «الخلل العصبي» هذه ولأية أسباب كان يمكن أن يكون يوناني من زمن «سقراط» وروماني من زمن «أغسطس» ما عهدك به فيما يلبثان من الرجال الطبيعيين تماماً، لا من الرجال - النساء على نحو ما نرى اليوم من هذا القبيل. كذلك كان السيّد «دوشارلوس»، إلى جانب استعدادات فنيّة حقيقية لم تبلغ حدّها، قد أحب والدته أكثر كثيراً من الدوق، وأحب زوجته، بل كان حينما يحدثونه عنها بعد سنوات فيفيض دمع من عينيه، ولكنه سطحي، شأن تعرّق رجل مفرط السمته يتندّى جبينه عرقاً لأقل ما أمر. مع فارق أنك تقول لهؤلاء: «ما أشدّ مابك من حرّ!» فيما تتظاهر بأنك لا تبصر دموع الآخرين. وإنّما أعني بك الناس، لأنّ الشعب يقلق أن يرى من يبكي كما لو كان الانتحاب أشدّ خطراً من التزييف. أمّا الحزن الذي أعقب موت زوجة السيّد «دوشارلوس» فما كان يتنافى لديه، بفضل تعودّه الكذب، وحياته تطابقه. بل بلغت به النذالة فيما بعد أن يسرّب بأنّه تسوّى له في أثناء الاحتفال الجنائزي يسأل الفتى معاون الكاهن اسمه وعنوانه. وربما كان ذلك صحيحاً.

وفي ختام المقطوعة أذنت لنفسني بالمطالبة بموسيقى لـ «فرانك»، وقد بدا أن ذلك بعث في نفس السيّد «دوكامبرمير» من العذاب ما منعني من الإلحاح. وقالت لي: «لا يمكن أن تحب مثل هذا». وطلبت عوضاً عنها مقطوعة «أعياد» لـ «دوبوسي» ممّا جعل الناس يصرخون من أوّل نوبة: «آه! يا للروعة!» ولكن «موريل» تبين أنّه لا يعرف سوى الفواصل الأولى وياشر، بفعل تصرف صبياني، ودونما مقصد تضليل، لحناً عسكرياً لـ «مايربير»، ولما لم يدع لسوء الحظ سوى اليسير من الفواصل الإنتقالية ولم يتولّ إعلان الأمر فقد ظنّ الجميع أن موسيقى «دوبوسي» مستمرة ولم ينفكوا عن الصراخ قائلين: «يا للروعة!» وقد بعث «موريل» إذ أعلن أن المؤلف ليس واضح «بيلياس» بل «روبير لو ديابل» شيئاً من الحرج. ولم يتسع الوقت للسيّد «دوكامبرمير» كيما تحسّ به لنفسها إذ كانت اكتشفت منذ قليل دفتر لـ «سكارلاتي» وانصرفت إليه باندفاع هيسستيرية، وكانت تصرخ قائلة: «آه! اعرف هذه، إليك هذه إنّها سماءيّة». ولكنّ ما كانت تصطفيه في استعجالها المحموم، من ذلك المؤلف الذي طال ازدهاره ووضع منذ فترة وجيزة في أعلى مراتب التكريم إنما واحدة من تلك المقطوعات اللعينة التي غالباً ما زادت عنك المنام وتقبل تلميذة خلت من الشفقة على تكرارها إلى مالا نهاية في الدور الملائق للدور الذي تسكن فيه. لكن السيّد «موريل» كان قد ملّ الموسيقى ولما

كان حريصاً على لعب الورق فقد ودَّ السيد «دوشارلوس» من أجل المشاركة في اللعب لو تكون لعبة «الويست». وقال «سكي» للسيدة «فيردوران»: «لقد قال منذ قليل لربّ المنزل إنه أمير، وليس الأمر صحيحاً فهو من مجرد أسرة بورجوازية من صغار المهندسين». وعادت السيدة «فيردوران» تقول لـ «بريشو»: «أريد أن أعرف ما كنت تقول عن «ميكينس»، فإن ذلك يمتعني أنا، بلي»، تقول بلطف انتشى به هذا الأخير. فقال ومراده التآلق في نظر «المعلمة» ربّما في نظري: «لكنّ «ميكينس»، والحق يقال ياسيدتي، يثير اهتمامي على وجه الخصوص لأنّه الرسول الأول المتميّز لهذا الإله الصيني الذي فاق عدد أتباعه اليوم أتباع «براهما»، بل أتباع المسيح نفسه، الإله القدير Je - Men foy <sup>(١)</sup> (لست أباي). ما كانت السيدة «فيردوران» تكتفي في تلك الحالات بدفن رأسها في راحة يدها، فقد كانت تهوي بفجائية الحشرات المدعوة «ابنة يومها» على الأميرة «شيرباتوف»؛ فإن كانت هذه على مسافة قليلة تعلّقت «المعلمة» بإبط الأميرة وأنشبت فيه أطرافها وأخفت رأسها على مدى لحظات كطفل يلعب لعبة «التخاية». كان يفترض أنّها خلف هذه الستارة التي تخمّيها، تضحك حتّى لتدفع منها العين كما يمكن أن لا تفكر في شيء مثلها مثل الذين يحتاطون لأنفسهم بحكمة أثناء ما يقومون بصلاة على شيء من الطول فيدنون وجههم في أيديهم. كانت السيدة «فيردوران» تقلّدهم وهي تصني لرباعيّات «بيتهوفن» كي تبدي أنّها تأخذها مأخذ صلاة وكي لا تدع لأحد في الوقت نفسه أن يرى أنّها نائمة. وقال «بريشو»: «إنّي جادّ تماماً في ما أقول ياسيدتي. فإنّي اعتقد أن عدد الذين يقضون الوقت في النظر إلى سرّتهم على أنّها مركز العالم هو اليوم كبير جدّاً، وليس لي، وفق صحيح العقيدة، من اعتراض على ما لست أدرى أيّ «نيرفانا» تنزع إلى إذابتنا في الكلّ الأعظم (الذي هو، شأن موبنخ، واكسفورد، أكثر قرباً إلى باريس من «أنير» أو «واكولومب»، ولكنّا ليس من شيم الفرنسيّ الطيّب ولا حتّى الأوروبي الطيّب أن يصادر قوم مشرّكون مناهضون للروح العسكرية بنقاش رزين حول فضائل الشعر الحرّ الرئيسيّة حينما اليابانيون ربّما على أبواب «بيزنطة» وظنّت السيدة «فيردوران» بإمكانها ترك كنف الأميرة المعذب وسمحت بظهور وجهها من جديد، دون أن يفوتها التظاهر بمسح عينيها واسترداد أنفاسها مرّتين أو ثلاثاً. لكن «بريشو» أراد أن يحصل على نصيبي من الوليمة، وإذ احتفظ من مناقشات الأطروحات التي كان يترأسها أفضل من أيّ سواه أنّك لا تدغدغ مشاعر الشباب في يوم بقدر ما تفعل بتعنيفهم وإيلائهم أهميّة وبحملهم على رميك بالرجعيّة، قال وهو يختلس إليّ النظرة التي يلقيها الخطيب خلصة على واحد من الحضور يذكر اسمه: «لا أودّ التجديف على آلهة الشباب، ولا أودّ أن يقضى عليّ بالهلاك على أيّ هرطوقي» <sup>(٢)</sup> أو مرتدّ في معبد «مالارمي» حيث لا بدّ أن صديقنا الجديد قد خدّم القديس الباطنيّ شأن جميع من هم في سنّه، على الأقلّ بصفة مساعد للكاهن، وأبدى أنّه منحلّ أو من جماعة «روزكروا». ولكننا والحق يقال رأينا كثيرين من هؤلاء المثقّفين الذين يتعبّدون للفنّ بالمعنى القويّ للكلمة والذين حينما لا يكتفون من بعد بالانتشاء بخمرة «زولا» يأخذون حقنات من «فيرلين». وربما لم يعدوا قادرين، وقد أدمنوا المخدرات إخلاصاً لـ «بودلير»، على بذل الجهد الرجولي الذي يمكن أن يطلبه الوطن منهم في هذا اليوم أو ذاك وقد تخدروا جرّاء العصاب

(١) أثبتنا الاسم المزعوم بالفرنسية لابرّاز الشكل الصيني «جو-مان-فو» والجناس اللفظي الذي يتم على أسامه المزاح، والعبارة الفرنسية تعني «اللامبالاة»، مع تضمين الإهانة وهي شعبية تقابلها عندنا «ط....»  
(٢) خارج على تعاليم الدين القويم

الأديبي الكبير في الجوّ الحارّ المثقل بروائح عفنة ضاربة والمنبعث من رمزية محشنة أفيون». ولما كنت عاجزاً عن التظاهر بأدنى الإعجاب بأبيات «بريشو» السخيفة المرقشة انصرفت إلى «سكي» وأكدت له أنّه مخطيء تماماً بشأن العائلة التي ينتمي إليها السيّد «دوشارلوس»، فأجابني أنّه متيقّن بما أورد وأضاف أنّه حتّى سبق لي أن قلت له أن اسمه الحقيقي «غاندان»، «لوغاندان». فأجبت: «لقد قلت لك إن السيّد «دوكامبرير» هي شقيقة مهندس يدعى «لوغاندان»، ولم أخلّك البتّة عن السيّد «دوشارلوس». فثمة صلة مولد بينه وبين السيّد «دوكامبرير» بقدر الصلة القائمة بين «كوندي الكبير» و«راسين». وقال «سكي»: «آه! ظننت، قال مقالة طيش دون أن يعتذر عن خطأه أكثر ممّا فعل قبل بضعة ساعات عن الخطأ الذي أوشك أن يفوت علينا القطار. هل تنوي المكوث فترة طويلة على الشاطئ؟» تقول السيّد «فيردوران» للسيّد «دوشارلوس» الذي كانت تتوسّم فيه أحد الخلل وتترعد من أن تراه يعود إلى باريس أبكر ممّا ترغب. فيجيب السيّد «دوشارلوس» بصوت أحنّ متباطئ: «يا الله، ليس الأمر أكيداً. فبودي البقاء حتّى آخر أيلول». فقالت السيّد «فيردوران»: «إنّك على حقّ، فإنّها فترة العواصف الشديدة». - ليس ذلك في الحقيقة ما قد يدفعني إلى الجزم. فإني بالغت منذ بعض الوقت في إهمال رئيس الملائكة القديس ميخائيل شفيعي وأود تعويضه عن ذلك بالبقاء إلى عيده في ٢٩ أيلول في دير «الثلة»، وسألت السيّد «فيردوران» قائلة: «تهمك كثيراً هذه المسائل؟»، ولعلّها كانت أفلحت في إسكات عدائهما الإكليروس الذي أصيب في الصميم لو لم تخش أن تؤدّي رحلة بهذا الطول إلى «هجران» عازف الكمان والبارون مدّة ثمان وأربعين ساعة. وأجاب السيّد «دوشارلوس» بوقاحة: «ربّما عانيت من صمم متقطع، فقد قلت لك إن القديس ميخائيل أحد شفعائي الأماجد». ثم أضاف وهو يتسم بافتتان رفيق وقد علقت عيناه في البعيد وتعاطم صوته جرّاء حماسة بدت لي أكثر من جمالية ولكنها دينيّة: «ما أجمل ذلك لحظة التقدمة»<sup>(١)</sup> حينما يقف ميخائيل على قدميه قرب المذبح بالثوب الأبيض يرجّح مبخرة من ذهب ويأكّداس من العطور كبيرة حتّى لتصعد رائحتها حتّى عرش الله! واقترحت السيّد «فيردوران» قائلة على الرغم من كرهها للقلنسوة: «يمكن أن نذهب إلى هناك جماعة»، وأردف السيّد «دوشارلوس» يقول، وما كان يجيب البتّة لدى مقاطعته ويتظاهر بأنّه لم يسمعها على غرار مايفعل الخطباء المفوهون في المجلس ولكنّما تحدّوه أسباب أخرى: «وإنّه لرائع في تلك اللحظة وحال التقدمة أن تشاهد صديقنا الشابّ يتمايل ويعزف حتّى لحناً له «باخ» وسوف يطير الكاهن الطيّب هو الآخر فرحاً، وإنّه لأعظم تكريم، أعظم تكريم علنيّ على الأقلّ، يمكن أن أحيط به شفيعي القديس، وآية هداية للمؤمنين! سوف نتحدّث عن ذلك في الحال لـ «انجيليكو» الموسيقي الشابّ، وهو عسكريّ كالقديس ميخائيل».

وأعلن «سانيت»، إذ دُعِيَ لينهض بدور الميت، أنّه لا يعرف لعبة «الويست». وإذ تبين «كوتار» أنّه لم يعد ثمة متسع كبير من الوقت قبل ساعة القطار باشر في الحال لعبة «استبعاد»<sup>(٢)</sup> مع «موريل». أمّا السيّد «فيردوران» فقد أقبل على «سانيت» بهيئة مخيفة وصاح قائلاً: «أنت إذن لا تحسن اللعب بشيء! وقد هوّ الحنق أن أضاع فرصة لعبة ورق عليه، والطرب أن صادف فرصة لشتم مدير المحفوظات السابق. واتخذ هذا

(١) أيّ تقدّيس الخبز والخمر في القدّاس لدى الطوائف المسيحية

(٢) لعبة ورق يجري فيها التخلي عن كلّ ورقة لا يريدّها اللاعب ويستبدل بها غيرها.



الأخير، وقد دبّ فيه الهلع، هيئة المتظرف وقال: «بلى، فإني أحسن العزف على البيانو».

وكان «كوتار» و«موريل» قد جلسا وجهًا لوجه. وقال «كوتار»: «تفضل أنت». وقال السيد «دوشارلوس» للسيد «دوكامبرمير»: «هلاً اقتربنا قليلاً من طاولة اللعب»، وقد ألقاه أن يبصر عازف الكمان بصحبة «كوتار»، فذلك مشوق كمثل أمور آداب السلوك التي لم تعد تعني الكثير في عصرنا. إن الملوك الوحيدين الذين مازالوا لدينا، في فرنسه على الأقل، هم «ملوك» لعبة الورق؛ ويبدو لي أنهم يقبلون بأعداد كبيرة بين يدي الموسيقار الشاب، يضيف بعد قليل قوله بداعي إعجاب بـ«موريل» أخذ يمتدّ إلى طريقة لعبه كما يدغدغ مشاعره أيضاً وليفسّر في نهاية المطاف الحركة التي ينحني بها فوق كتف عازف الكمان. وقال «كوتار»: «آني بقطع»، وهو يقلّد لهجة الثريّ الغريب التي انفجر لها الأطفال بالضحك كما كان يفعل طلابه ورئيس المستوصف حينما كان «المعلم» يطلق، حتى أمام سرير مريض إصابته خطرة وهو يتخذ قناع مصروع جامد القسما، إحدى نكاته المعتادة. وقال «موريل» مستشيراً السيد «دوكامبرمير»: «لست أدري تماماً مايجدر بي أن ألبه». — أنت وما تشاء، فأنت مغلوب على جميع الوجوه، هذا أو ذاك، سيّان». وقال الدكتور وهو يرسل باتجاه السيد «دوكامبرمير» نظرة مخادعة مجّانية: «سيّان ..... سيّان ماريه»؟ لقد كانت مائدعوه سيّدة الغناء الحقيقية، كانت الحلم، كانت «كارمن» من نوع لن نراه ثانية، لقد كانت امرأة الدور المخصّص لها. كنت أحبّ كذلك أن أسمع بالدور نفسه «أما سيّان ماريه»<sup>(١)</sup>. ونهض المركيز بتلك السوقية المستكبرة التي تصدر عن ناس كريمي المختل لا يدركون أنهم يحقرون ربّ البيت إذ يبدو وكأنهم غير متأكّدين من أنه يمكن مخالطة مدعوه، ويحتجون بالعادة الإنكليزية ليتسنى لهم استخدام عبارة تتسم بالإزدراء: «من السيد الذي يلعب الورق؟ وما الذي يفعله في الحياة؟ وماذا «بيع»؟ فإني أحبّ أن أعرف مع من أقيم كي لا تكون لي علاقة بأيّ كان. والمسألة أني لم أسمع اسمه حينما أوليتني شرف تعريفه بي». لو أن السيد «فيردوران» كان قدّم، تأسيساً على هذه الكلمات الأخيرة، السيد «دوكامبرمير» لمدعوه، لرأى هذا الأخير الأمر في غاية السوء. ولكنّه إذ كان يعلم أن ما جرى هو العكس فقد كان يرى من الظريف أن يظهر بمظهر الساذج المتواضع دونما خطر يلّم به. هذا وأن الاعتزاز الذي يداخل السيد «فيردوران» لعلاقته الحميمة بـ«كوتار» ما انفك يتعاظم منذ أن أصبح الدكتور أستاذاً مشهوراً، ولكنه لم يعد يظهر للعيان بالشكل الساذج الذي كان بالأمس. حينذاك، وعندما كان «كوتار» معروفاً على نطاق ضيق، كان السيد «فيردوران» يقول، إن حدّثه عن آلام الأعصاب الوجهية لدى زوجته: «ليس هناك ما يمكن فعله»، يقول بالإعتزاز الساذج الذي لقوم يظنون أن ما يعرفونه مشهور وأن الجميع يعرفون اسم أستاذ ابتتهم في الغناء. «لو كان طبيبيها من النسق الثاني لأمكن البحث عن علاج آخر، ولكن حينما يدعى ذلك الطبيب «كوتار» (وكان يلفظ الاسم كما لو كان «بوشار» أو «شاركو») فليس بعد من أمل». ولجأ السيد «فيردوران» إلى أسلوب عكسيّ، وهو يعلم أن السيد «دوكامبرمير» قد سمع بالتاكيد من يحدث عن الأستاذ المشهور «كوتار»، فاتخذ مظهر الساذجة. «إنّه طبيب العائلة، رجل طيّب القلب نعشقه وقد يقدم على أيّ شيء في سبيلنا، ليس طبيباً، بل صديق، لا أظنّ أنك تعرفه أو أن اسمه يوحى إليك بأيّ شيء،

(١) التلاعب اللفظي مخلّق، وغني عن التبيان أنه يستحيل ردّ التلاعب الوارد في النص وهو. Egal...Goll-Marié Ingal-Marié وهما مفتيتان شهيرتان في القرن التاسع عشر.

أما فيما يخصنا فإن اسمه في جميع الأحوال اسم رجل طيب جدا وصديق عزيز جدا، «كوتار». وخذع الاسم، وقد جرى النطق به بهمس متواضع، خدع السيد «دوكاميرير» الذي ظن الأمر يتعلق بآخر غيره. «كوتار؟ لست تحدثني عن الأستاذ «كوتار»؟ كان يتناهى بالضبط إلى الأسماع صوت الأستاذ المذكور الذي كان يقول ممسكا بأوراقه وقد حار في لعبة: «ههنا أدرك الأثنيون بعضهم بعضا». وقال السيد «فيردوران»: «آه! بلى، بالضبط إنه أستاذ». - يا عجبى! الأستاذ «كوتار»! لست تخطيء القول! وأنت متيقن تمام اليقين أنه هو نفسه! هو الذي يسكن في شارع «لوباك»! - أجل، إنه يسكن في شارع «لوباك» - ٤٣- فهل تعرفه؟ - ولكن الجميع يعرفون الأستاذ «كوتار» فهو من الجهابذة، وكما لو أنك تسألني إن كنت أعرف «بوف دو سانيليز» أو «كورتوا سوفي». لقد تبينت تماما وأنا أصغي إلى حديثه أنه رجل غير عادي، لذلك سمحت لنفسى أن أسألك. وكان «كوتار» يسأل قائلا: «هات نر، ما الذي تنبغي إضافته؟ الورقة الرابعة؟» ثم اتخذ «كوتار» فجأة، وقد صمم على لعب الورقة الرابعة، هيئة متجهمة، هيئة «الرجل المتهور»، وفي تلميح إلى الذين يخاطرون بحياتهم لعب ورقته وكأنما تلك حياته، وصاح بسوقية لعلها كانت أورثت إزعاجا حتى في ظرف بطولي يعني فيه أحد الجنود أن يولي إزدراءه للموت تعبيراً مألوفاً ولكنها تصبح مضاعفة الغباء في إطار ألهيّة الورق الخلو من الخطر، صاح قائلا: «إلى جهنم في كل الأحوال!» وما كان يجب أن يلعب كما فعل ولكنما أصاب عزاء بعده، فإن السيدة «كوتار» كانت، إذ استسلمت، في مقعد عريض في وسط الصالة، لمفعول فترة ما بعد الغداء، قد أسلست القيادة بعد جهود غير مجدية لنعاس واسع خفيف كان يملكها. وعبثاً كانت تستقيم في لحظات لتبتسم إما هزءاً بنفسها وإما مخافة أن تدع دون جواب كلمة لطيفة ربما وجهت إليها، فقد كانت تعود فتهوي رغماً عنها فريسة داء لذيذ لا يرحم. ما كان يوقظها هكذا على مدى ثانية فحسب إنما كانت النظرة أكثر منها الضجة، النظرة (التي كانت تراها من فرط حنان حتى مغمضة العينين وتتوقعها، لأن المشهد نفسه كان يجري كل مساء ويسكن نومها كالساعة التي يقع عليك أن تنهض فيها من نومك) والتي كان يبلغ بها الحاضرين عن نوم زوجته. كان يكتفي بداية بالنظر إليها والإبتسام، فإنه إن كان بوصفه طبيعياً يذم هذا النوم بعد العشاء (كان على الأقل يقدم هذا السبب العلمي من أجل أن يغضب في النهاية. بيد أنه ليس أكيدا أنه سبب جازم لكثرة ما كان لديه من نظريات متنوعة حول الموضوع)، كان بوصفه زوجاً كلياً الاقتدار نكداً يغبطه أن يسخر من زوجته وأن لا يوقظها بادئ الأمر إلا نصف إيقاظه كي تعود فتنام ويصادف متعة في إيقاظها ثانية.

كانت السيدة «كوتار» تنام الآن ملء جفونها. فصاح بها الأستاذ: «ما دهاك يا هليونتين»، إنك نائمة. فأجابات السيدة «كوتار» بصوت ضعيف: «إنني أصغي إلى ما تقول السيدة «سوان» يا صاحبي»، وأهوت ثانية في سباتها. وصاح «كوتار» قائلا: «بالجنون، ستؤكد لنا بعد قليل أنها لم تنم. إنها كمثّل أولئك المرضى الذين يمضون إلى المعالجة ويزعمون أنهم لا ينامون البتة». فقال السيد «دوكاميرير» ضاحكاً: «إنهم يتخيلون ذلك، ربّما». لكن الدكتور كان يحب المعارضة بقدر ما يحب التأكيد وما كان يقبل على وجه الخصوص أن يتجرأ على الحديث عن الطب غريب عنه، فأعلن بلهجة حازمة: «لا يتخيل المرء أنه لا ينام»، فأجاب المركز وهو ينحني باحترام كما لعل «كوتار» كان فعل فيما مضى: «آه!» وأردف «كوتار» يقول: «واضح أنك لم تعط مثلي

ما يصل إلى غرامين من «التريونال» دون أن تفلح في إحلال النوم». فأجاب المركز ضاحكاً وقد اتخذ هيئة مناسبة: «فعلاً، فعلاً، لم أتناول «التريونال» في يوم ولا آياً من تلك العقاقير التي سرعان ما تكفّ عن التأثير ولكنها تخرب معدتك. حينما تصطاد مثلي طوال الليل في غابة «شاتبي» فإنني أؤكد لك أنك لست تحتاج «التريونال» لتنام. ورد الأستاذ قائلاً: «الجهلة من يقولون ذلك. فإن «التريونال» يرفع أحياناً بصورة لافتة النشاط العصبي». تتحدث عن «التريونال»، فهل تعرف على الأقل ما عسى أن يكون؟» - «حسن... لقد سمعت من يقول إنه دواء يعين على النوم». فعاد الأستاذ يقول بلهجة تعليمية، وكان ثلاث مرّات في الأسبوع من لجان الإمتحان في الكلية: «لست تجيب عن سؤال. فأني لا أسألك إن كان يتّوم أم لا، بل ما هو. فهل تستطيع أن تقول لي ما يحتوي عليه من أجزاء من «الأميل» و«الإيتيل». فأجاب السيد «دوكامبرمير» محرجاً: «لا؛ وإنّي أفضل كأساً من ماء الحياة الجيد أو حتّى الـ«پورتو» ٣٤٥». فقاطعه الأستاذ: «وهما عشر مرّات أكثر سمّة»، وقال السيد «دوكامبرمير» محاذراً: «بخصوص «التريونال»، فإن زوجتي تعودت كلّ ذلك، ولعلّ من الأفضل أن تتحدّث إليها عن ذلك». - «ولابد أنّها تعرف عنه قدر ما تعرف تقريباً. على أيّ حال، إن كانت زوجتك تتناول «التريونال» لتنام فأنت ترى أن زوجتي لا حاجة لها به. هيّا يا «ليونتين» تحرّكي، فينكّ تتصلّبي، أتراني أنام بعد العشاء أنا؟ وما عساك تفعلين في السّتين من عمرك إن كنت الآن تنامين مثل امرأة عجوز؟ سوف تستكرشين وتوقفين دورتك الدّموية... ها إنّها لم تعد حتّى تسمعي». وقال السيد «دوكامبرمير» كيما يردّ اعتباره لدى «كوتار»: إنّها ضارّة بالصّحة تلك الإغفاءات اليسيرة بعد العشاء، أليس أنّها كذلك، دكتور؟ على المرء بعدما يكثر من الطعام القيام بالتمارين». فأجاب الدكتور قائلاً: «حكايات! فقد رفعوا ذات كمية الطعام في معدة كلب ظلّ ساكناً ومعدة كلب آخر قام بالجري، وكان الهضم في مرحلة أكثر تقدّماً لدى الثاني». - «النوم إنّما هو الذي يوقف عمليّة الهضم؟» - «الأمر يختلف باختلاف صنوف الهضم على صعيد المريء والمعدة والأمعاء. ولا فائدة من إعطائك إبطاحات قد لا تفهمها بما أنّك لم تقم بدراسة الطّب. هيّا يا «ليونتين»، أمام... سرا لقد حان وقت الرحيل». وما كان ذلك صحيحاً لأنّ الدكتور كان ينوي فقط إنهاء لعبة الورق، ولكنه يأمل بذلك أن يقاوم بصورة أعنف نوم الخرساء التي كان يوجّه إليها أكثر صنوف الحضّ علميّة دون أن يصله منها أيّ جواب. ثم إن رأس السيّد «كوتار» أطيح به آلياً من اليسار إلى اليمين ومن الأسفل إلى الأعلى وكأنّه شيء جامد في الفراغ، إمّا لأنّه لا يزال لديها عزم على مقاومة النوم حتّى وهي نائمة، إمّا لأنّ المقعد ما كان ييسّر مسنداً لرأسها، فبدت في ترجيح الرأس وكأنّها تصغي إلى الموسيقى تارة وطوراً كأنّها دخلت في آخر مرحلة النزاع. وأفلح شعورها بحماقتها حيث أخفقت صنوف تأنيب زوجها المتزايدة عنفاً، فهمست تقول: «حمّامي جيّد بخصوص السخونة»، ثم صرخت وهي تستوي في مقعدها: «ولكن ريش معجمي... آه! يا إلهي كم أنا غبيّة! ما الذي أقوله؟ كنت أفكر في قبّعتي ولا بدّ أنّي نفوّت بحماقة، لولا القليل لأغفيت، إنّها تلك النار اللعينة». وأخذ الكلّ يضحكون، فلم يكن ثمة نار.

«انكم تسخرون منّي»، تقول السيّد «كوتار» نفسها ضاحكة وتمحو بحركة من يدها عن جبينها، بخفّة المنوم المغناطيسي ومهارة امرأة تعيد تصفيف شعرها، آخر آثار النوم، «وأودّ تقديم عذري المتواضع للسيّد العزيزة «فيردوران» ومعرفة الحقيقة من فمها». ولكن سرعان ما أضحت ابتسامتها حزينة لأن الأستاذ الذي كان يعلم

أن زوجته تحاول أن تحسن في عينه وترتعد أن لا تفلح في ذلك كان قد صاح بها: «انظري إليك في المرأة فإنك اكتسيت حمرة كما لو أصابك طفق من حب الشباب وتبدلين كأنك فلاحه عجز». وقالت السيدة «فيردوران»: «تدرون، إنه ظريف ولديه جانب حلو من الطيبة الساخرة ثم إنه ردّ زوجي عن أبواب القبر بعد ما حكمت الكلية بأسرها أنه هالك. لقد أمضى ثلاث ليال إلى جانبه دون أن ينام. ولذلك فإن «كوتار» بالنسبة إلى شيء مقدس لو تدرون»، تضيف قولها بلهجة رزينة تكاد تكون متوعدة وهي ترفع يدها إلى كرتي صدغيها الموسيقيتين بخصلهما البيضاء وكما لو أردنا المساس بالدكتور، «بوسعك أن يطلب ما يشاء، وإني على كل حال لا أدعوه الدكتور «كوتار» بل الدكتور «العليّ القدير»! وإني حتى افتري عليه إذ أقول ذلك لأن هذا «العليّ القدير» يصلح ما أمكن الإصلاح جزءاً من المصائب التي تقع مسؤوليتها على عاتق الآخر». وقال السيد «دوشارلوس» لـ «موريل» وقد بدت السعادة على وجهه: «العب الورقة الرابعة». وقال عازف الكمان: «الورقة الرابعة للاستطلاع». فقال السيد «دوشارلوس»: «كان ينبغي الإعلان عن الملك الذي تحمله أولاً، إنك شارد الفكر، ولكن كم تحسن اللعب!» فقال «موريل»: «الملك في يدي». وأجاب الأستاذ: «إنه رجل حسن الطلعة». وسألت السيدة «فيردوران» وهي تدلّ السيد «دوكاميرمير» على شعار رائع النحت فوق الموقد: «ما هو هذا الشيء مع هذه الأوتاد؟» وأضافت تقول بإزدراء يفيض استهزاء: «أهو شعاركم؟» فأجاب السيد «دوكاميرمير»: «لا، ليس شعارنا، لأن شعارنا ذهبي له ثلاثة أشربة في الوسط محززة بالأحمر ومعكوسة الحزوز لكل شريط خمس قطع تحمل كل منها ورقة نفل ذهبية. لا، هذا الشعار هو لآل «أراشيل» الذين ما كانوا من فصيلنا ولكننا ورثنا عنهم المنزل ولم يشأ الذين من ذريتنا أن يبدلوا فيه شيئاً البتة. وكان لآل «أراشيل» (وهم فيما مضى آل «يلفيلان» فما يقال) شعار بترس ذهبي بخمسة أوتاد حمراء متلعة الرأس. وحينما ناسبوا آل «فيتيرن» تهدلّ ترسهم ولكننا لبث مزوداً في زواياه بعشرين صليباً صغيراً أعيد رسمها في الوتد الذي يتوسط الترس والمغموس بالذهب وإلى اليمين جناحان من فرو القاقم». وقالت السيدة «دوكاميرمير» بصوت خفيض: «إليك هذه.» - كانت جدة جدتي من آل «أراشيل» أو «دوراشيل» كما تشائين، لأننا نجد الأسمين في الصكوك القديمة، يعلن السيد «دوكاميرمير» موالياً قوله وقد كست وجهه حمرة شديدة إذ خطرت له حينذاك فقط الفكرة التي بعثت زوجته الفزع منها في نفسه وخاف أن تكون السيدة «فيردوران» نسبت لنفسها أقوالاً ما كانت موجهة إليها البتة. وفي الرواية أن أول «أراشيل» في القرن الحادي عشر، وهو «ماسيه» المدعو «يلفيلان»، أبدى مهارة خاصة في انتزاع الأوتاد في الحصار، ومنها جاء لقب «أراشيل» الذي أصبح نبيلاً على أساسه والأوتاد التي لاتزال مستمرة في شعارهم على مدى القرون، وإنما أعني الأوتاد التي كانوا يغرزونها، واسمحوا لي أن أقول «يدقونها» في الأرض أمام الحصون ليضعافوا من صعوبة الإقتراب منها، وكانت توصل فيما بينها. وهي ما كنتم تدعونها المجموعات الوتدية والتي لا علاقة لها بالعصي الطافية لدى ذاك الطيب «لافونتين» (١). ذلك أنها اشتهرت باكتساب المناعة التامة لحصن ما، والأمر بالطبع أدعى إلى السخيرة مع المدفعية الحديثة. ولكننا ينبغي أن نتذكر أن الأمر يعود إلى القرن الحادي عشر. وقالت السيدة «فيردوران»: «ذلك تعوزه الراهنية، ولكن برج الأجراس يتسم بطابع خاص». وقال «كوتار»: «حظك حظّ مهراجاً،

(١) من أمثال «لافونتين»: «الجمل والعصي الطافية».

والكلمة يردّها عادة لتجنّب كلمة «موليير» (١). «أتعلم سبب صرف ملك الديناري من الخدمة». وقال «موريل» الذي كانت تزعجه الخدمة العسكرية: «وددت لو أكون مكانه» وصاح السيّد «دو شارلوس» الذي لم يتمالك عن قرص أذن عازف الكمان: «آه! يا للوطني السيء!» وعاد «كوتار» يقول، وكان حريصاً على مزحاته: «لا، لست تعرف سبب صرف ملك الديناري من الخدمة؟ لأنّه لا يملك سوى عين واحدة». وقال السيّد «دوكامبرمير» لبيهرن لـ «كوتار» أنّه كان يعلم من هو: «أمامك خصم قويّ يادكتور». وقاطع السيّد «دو شارلوس» الحديث بسذاجة وهو يدلّ على «موريل»: «هذا الشاب مدهش! إنّه يلعب لعب الآلهة». ولم ترق الفكرة الدكتور كثيراً فأجاب: «من يعيش يرّ، والمخادع نقابله بأكثر من مثله». وأعلن «موريل» بلهجة ظافرة، وكان الحظّ إلى جانبه: «البت، الأص». وأطرق الدكتور برأسه وكأنّما لا يقوى على انكار هذا الحظّ وأقرّ ذاهلاً: «جميل ذلك». وقالت السيّد «دوكامبرمير» للسيّد «فيردوران»: «لقد سررنا سروراً جمّاً بتناول العشاء مع السيّد «دو شارلوس». فأجابت السيّد «فيردوران»: «أما كنت تعرفينه؟ إنّه مسلّ إلى حدّ وذو طابع خاصّ وينتمي إلى عصر» (ولعله كان أخرجها أشدّ الحرج أن تقول أي عصر)، أجابت بابتسامة الرضى التي تطبع الهاوية والقاضي وربة المنزل، وسألتي السيّد «دوكامبرمير» إن كنت سألني إلى «فيتيرن» بصحبة «سان لو». ولم أفلح في احتباس صرخة إعجاب وأنا أبصر القمر معلّقاً كمثل فانوس في عقد شجر السنديان المنطلق من القصر. - ليس في الأمر شيء يذكر حتّى الآن وسوف يصبح ألف مرّة أكثر جمالاً حينما يكون القمر بعد قليل أكثر ارتفاعاً ويمتدّ الضياء على الوادي. ذاك ما لا يتوافر لكم في «فيتيرن»! تقول بلهجة مستكبرة للسيّد «دوكامبرمير» التي لا تعلم بمّ تجيب إذ لا تبغي الإنقاص من قيمة أملاكها ولا سيّما في حضرة المستأجرين وسأل السيّد «دوكامبرمير» السيّد «كوتار» قائلاً: «أتمكّنين بعد بعض الوقت في المنطقة ياسيّدتي؟»، الأمر الذي كان يمكن اعتباره من قبيل النية الغامضة في دعوتها وكان يغني في الوقت الحاضر عن موعد أكثر دقّة. - «آه! بالتأكيد ياسيّد، فإنّي جدّ حريصة بالنسبة إلى الأولاد على هذه «الطلعة» السنويّة. وعبثاً يقولون، فلا بدّ لهم من الهواء الطلق، ربّما كنت في ذلك شديدة البدائيّة ولكنّي أرى أنّ ليس من علاج يساوي الهواء الطلق بالنسبة إلى الأطفال حتّى وإن أقاموا البرهان على العكس بـ A+B. لقد تغيّرت منذ الآن وجوههم الصغيرة تغيّراً تامّاً. كانت الكلّيّة عازمة على إرسالني إلى «فيشي»، ولكنها محصورة أكثر ممّا ينبغي وسوف أهتمّ بمعدّتي بعد ما يكون هؤلاء الصبية الكبار قد كبروا بعد قليلاً. ثم إن الأستاذ ينذل على الدوام جهداً كبيراً في الأعمال الإمتحانية التي يجريها، وإن فترات الحرّ تبعه كثيراً. ثم إنّي أرى أنّ المرء يحتاج راحة حقيقية حينما يلبث مثله طوال العام دائباً. سوف نمكث في جميع الأحوال نيّفاً وشهراً بعد». - «فنحن إذاً ممّن سيلتقون».

- «ما يزيد على أي حال من اضطراري للبقاء أنّ زوجي يجب أن يذهب في جولة إلى مقاطعة «سافوا» ولن يعود إلى إقامة ثابتة هنا إلّا بعد انقضاء خمسة عشر يوماً». وعادت السيّد «فيردوران» تقول: «أفضّل بعد جانب الوادي على جانب البحر. سوف يتوافر لكم طقس رائع للعودة». وقال لي السيّد «فيردوران»: «ينبغي حتّى التأكد من أنّ العربات أسرجت إن كنت حريصاً تماماً على العودة إلى «البليك» هذه الليلة، فإنّي أنا لا أجد

(١) كلمة «المقرون» (من نبت له قرون) أو الزوج المخدوع، ترد في مسرحيات لـ «موليير» كاتب الهزليات الشهير.

ضرورة في ذلك، وغداً صباحاً يعيدونك في العربة ويكون الطقس جميلاً بالتأكيد، والطرق رائعة». فقلت إن الأمر مستحيل. واعترضت المعلمة قائلة: «لم نحن الساعة بعد في جميع الأحوال، فدعهم وشأنهم فإن الوقت يتسع لهم. سوف يكسبون الكثير في الوصول إلى المحطة قبل ساعة من الموعد. إنهم هنا أفضل حالاً». ثم قالت لـ «موريل»: «وأنت أيها المحبب موزار»، ولا تجرؤ التوجه مباشرة إلى السيدة «دوشارلوس»، ألسنت تريد البقاء؟ فإن لدينا غرماً جميلة تطل على البحر». وأجاب السيد «دوشارلوس» عن اللاعب المشدود الإنتباه الذي لم يكن قد سمع: «ولكنه لا يستطيع، فإجازته حذها منتصف الليل، ولا بد أن يعود لينام، فعَل الوالد المطيع العاقل»، يضيف قوله بصوت مجامل متكلف ملحاح كما لو يجد متعة سادية في استعمال هذا التشبيه العفيف وفي تناقل صوته كذلك، في معرض الحديث، على ما يتصل بـ «موريل»، وفي لمسه إن لم يكن باليد فبكلام يبدو وكأنه يتحسس.

استخلص السيد «دوكامبرمير» من العظة التي وجهها إليّ «بريشو» أني من أنصار «دريفوس» ولما كان مناهضاً لـ «دريفوس» إلى أبعد حد ممكن فقد شرع مجاملة منه لأحد الأعداء يكيل المديح للواء يهودي كان دوماً عادلاً جداً إزاء ابن عم آل «شوفيني» وعمل على إعطائه الترفيح الذي يستحقه. «وكان ابن عمي يحمل أفكاراً معارضة تماماً»، يقول السيد «دوكامبرمير» وهو يمرّ سريعاً على ما كانت عليه تلك الأفكار التي احسستها بمثل قدم وسوء تكوين وجهه، أفكار لا بد أن بعض أسر من بعض مدن صغيرة كانت تحملها منذ زمن طويل جداً. وخلص السيدة «دوكامبرمير» إلى القول: «إيه، تدري، إني أجد ذلك جميلاً جداً» صحيح أنه ما كان يستخدم كلمة «جميل» بالمعنى الجمالي الذي لعله كان أشار بالنسبة إلى والدته أو زوجته إلى أعمال مختلفة، ولكننا هي أعمال فنية. أمّا السيد «دوكامبرمير» فكان يستخدم هذه الصفة بالأحرى في تهانيه لرجل ناحل الجسم على سبيل المثال سمن قليلاً. «عجياً، كسبت ثلاثة كيلوات في مدى شهرين؟ تدري أن هذا جميل جداً» وكان على إحدى الطاولات مرطبات معدة. ودعت السيدة «فيردوران» الرجال إلى المبادرة بأنفسهم إلى اختيار الشراب الذي يريثونه، ومضى السيد «دوشارلوس» فشرب كأسه وقفل سريعاً للجلوس بالقرب من طاولة اللعب ولم يبد من بعد حراكاً. وسألته السيدة «فيردوران»: «هل أخذت بما أعددت من شراب البرتقال؟» حينئذ أجاب السيد «دوشارلوس» بابتسامة ناعمة وصوت بصفاء الكريستال نادراً ما يتخذه وبألف من زمات فمه وتخلع في القامة: «لا، لقد فضلت عليه جاره وهو من شراب توت الأرض فيما أعتقد، إنه لذيقه. والغريب أن بعض صنوف الأعمال السرية تكون نتيجتها الظاهرة طريقة في الكلام أو حركات لليدين تكشفها. ولئن آمن رجل أو لم يؤمن بالحب بل دنس أو ببراءة «دريفوس» أو بتعدد العوالم وابتغى السكوت عن ذلك فلن نجد في صوته أو مشيته ما يمكن أن يكشف عن فكره لكننا كان يسعل أن تقول، وأنت تسمع السيد «دوشارلوس» يقول بذلك الصوت الحاد وتلك الإبتسامة وحركات ذراعيه: «لا، لقد فضلت جاره شراب توت الأرض»، ويحك، إنه يحب الجنس الخشن» باليقين نفسه الذي يتيح بإصدار الحكم، بالنسبة إلى القاضي على مجرم لم يعترف، وبالنسبة إلى طبيب على مصاب بشلل عام ربما لا يعرف هو نفسه داءه ولكنه وقع في أخطاء تلفظية من شأنها أن يستخلص منها أنه سيكون في عداد الأموات بعد ثلاث سنوات. وربما لم يكن أولئك الذين يستنتجون من طريقة قول أحدهم: «لا، فضلت عليه جاره شراب توت الأرض»

حبا يسمونه مضادا للطبيعة، ربما لم يكونوا بحاجة إلى هذا الكم من العلم. وإنما الأمر هنا أن نمة صلة أكثر مباشرة بين الإشارة الكاشفة والسّر. فأنت تحسّ دون أن تصرّح بذلك بوضوح لنفسك أن من يجيبك سيّدة عذبة مفترّة الثغر وأنها تبدي تصنعا لأنها تتظاهر بأنها رجل وأنتك لم تتعود رؤية الرجال يقومون بهذا القدر من صنوف التصنع. وربما كان من الألف أن نعتقد أن عدداً من النساء الملائكيات حشرن خطأ منذ زمن طويل في جنس الذكور حيث يعرفن، وهنّ منغيات فيما تخفق أجنتهنّ عبثاً باتجاه رجال يبعثن نفوراً جسدياً في صدورهم، كيف يترنّ صالة ويهندسن منازل من الداخل. ما كان السيّد «دوشارلوس» يهتم لأن تكون السيّدة «فيردوران» واقفة وظلّ يوالي الجلوس على كنيته ليكون أكثر قرباً من «موريل». وقالت السيّدة «فيردوران» للبارون: «أعتقد أنّ ليس من باب الإجرام أن يجلس هذا الشخص الذي يمكن أن يفتننا بكماله إلى طاولة لعبة «الاستبعاد»، وحين يعزف على الكمان كما يفعل!» - «إنه يحسن لعب الورق ويحسن كلّ ما يفعل، وهو شديد الذكاء»، يقول السيّد «دوشارلوس» فيما يتابع سير اللعب كي يسدي النصيح لـ «موريل». لم يكن ذلك على أيّ حال السبب الوحيد لامتناعه عن القيام من مقعده أمام السيّدة «فيردوران». فقد كان إلى جانب الخليط الغريب الذي ألفه من مفاهيمه الاجتماعية، مفاهيم السيّد الكبير وهاوي الفنون في آن معاً، كان يصنع لنفسه، بدلاً من أن يكون مهذباً كما لعلّ رجلاً من مجتمعه كان، أنواعاً من اللوحات الحيّة يأخذها عن «سان سيمون»؛ وكان في هذا الوقت يتسلّى بتمثيل دور المارشال «دوكسيل» الذي كان يثير اهتمامه بجوانب أخرى والذي قيل عنه أنّه كان معتزاً بنفسه إلى حدّ لا ينهض معه عن مقعده بنوع من الكسل الظاهر أمام ما كان الأكثر رفعة في البلاط. وقالت السيّدة «فيردوران» وقد شرعت تبدي ألفة: «ألا قل لي يا «شارلوس»، أليس في حيّكم من نبيل عجوز فقد ثروته ويمكن أن يقوم عندي مقام بواب؟» وأجاب السيّد «دوشارلوس» وهو يتسم بهيئة ساذجة: «بلى... بلى... ولكنّي لا أنصحك به». - «ولماذا؟» - «أخشى من أجلك أن لا يمضي الزوّار الأنيقون إلى أبعد من حجرة البواب»، كانت تلك أوّل مناوشة بينهما، وكادت السيّدة «فيردوران» أن لا تنبّه له. وسوف تتبعها في باريس، لا بدّ في ذلك، مناوشات أخرى لسوء الحظّ. ولبت السيّد «دوشارلوس» لا يغادر مقعده. ما كان على أيّ حال يستطيع أن يملك النفس عن ابتسامة خفيفة وهو يرى إلى أيّ حدّ كان إخضاع السيّدة «فيردوران» الذي حصل عليه بيسر عظيم يؤكّد حكمه المفضّلة حول مهابة الأرستقراطية وجبن البورجوازيين. لم يد البتة أنّ المعلّمة دهشت من وضعة البارون، ولكن فارقته فلاّتها فقلقت فحسب إذ رأت السيّد «دو كامبرمير» يلاحقني. ولكنها كانت تبغي قبل ذلك أن تستوضح مسألة علاقات السيّد «دوشارلوس» بالكوتيتيصة «موليه». وسألت تقول: «أنبأتني أنّك تعرف السيّدة «دوموليه». فهل تذهب إلى منزلها؟» تقول وهي تولي الكلمات: «تذهب إلى منزلها» ما يعني أنّه يجري استقباله في منزلها وأنّه حصل منها على إذن بالذهاب لالتقائها. وأجاب السيّد «دو شارلوس» بعطفة في الصوت يلونها الإزدراء وتكلف في الدقّة ولهجة مرّتلة: «أحيانا». وبعثت كلمة «أحيانا» هذا شكوكاً في صدر السيّدة «فيردوران» فسألت: «وهل التقيت هناك بالدوق «دوغريمانت»؟» - «آه! لست أذكر». وقالت السيّدة «فيردوران»: «آه! ألا تعرف الدوق «دوغريمانت»؟ فأجاب السيّد «دوشارلوس» وقد مرّجت فمه ابتسامة: «ولكن كيف لي أن لا أعرفه؟» وكانت الابتسامة ساخرة، إلا أن البارون قطعها، وقد خشي من إظهار سنّ له من ذهب، وبإرتداد من شفتيه ممّا جعل الإلتواء الحاصلة التواءة

ابتسامة رفيقة. - «ولماذا تقول: كيف لي أن لا أعرفه؟» - «كيف ذلك وهو أخي»، يقول السيد «دوشارلوس» بلهجة لامبالية ويخلف السيدة «فيردوران» غارقة في ذهولها وحيرتها في أن تعلم إن كان ضيفها يسخر منها أم هو ابن من خارج الزواج أم ابن من زواج آخر. ولم تخطر لها فكرة أن يدعى شقيق الدوق «دوغيرمانت» البارون «دوشارلوس». وقصّدت إليّ تقول: «سمعت منذ قليل أنّ السيد «دو كامبرمير» يدعوك للعشاء. أمّا أنا، فأنت تدرك أنّ الأمر عندي سواء. ولكنني أمل لصالحك أنّك لن تذهب، فالمكان بادئ الأمر يعجّ بالميرمين، أمّا إذا كنت تحبّ تناول العشاء بصحبة «كونتات» و«مركيزات» من الريف لا يعرفهم أحد فأنت وما تشتهي». - «أظنني مضطراً للذهاب إلى هناك مرة أو مرتين، ولست بأيّ حال خالي الأشغال كثيراً، فإن لي إنيّة عمّ شايّة لا يمكن أن أدعها وحدها (وكنّت أرى أن هذه القرابة المزعومة تبسّط الأمور للخروج بمعية «ألبيرتين»). ولكن لما سبق فيما يخصّ آل «كامبرمير» أن عرفتها بهم...» - «إفعل ما تشاء. ما يمكن أن أقوله لك أن المكان غير صحّي على الإطلاق. وبعدما تكون جنيت نزلة صدرية أو رثيات الأسر اللطيفة المحبّة أترأك تكون كسبت الكثير؟» - «ولكن أليس المكان جميلاً جداً؟» - «انننننننن... إن شئت. أمّا أنا فأقرّ صراحة أنني أفضل مئة مرة الإطالة على هذا الوادي من هنا. وبأدنى الأمر ما كنت لأخذ البيت الآخر حتّى لو تقدونا مالا بالمقابل لأنّ هواء البحر قاتل بالنسبة إلى السيد «فيردوران». حسبك أن تكون ابنة عمك عصبية... ولكنك عصبية أنت أيضاً على أيّ حال فيما اعتقد... وتصاب باختناقات. حسن! سوف ترى. امضِ إلى هناك مرة ولن تنام لثمانية أيام. لا، ليس يناسبك ذلك». ودون أن تفكّر في ما ستحمّله جملتها الجديدة من تناقض مع سابقتها: «إن سرك أن تزور البيت الذي لا بأس به»، فقد نغلو إن قلنا الجميل، ولكنه تمتع بأيّ حال، بالخدق القديم والجسر المتحرّك العتيق، وبما أنّه لا بدّ لي من الإمثال للأمر وأنّ أتناول فيه طعام العشاء مرة، فتمال إلى هناك في ذلك اليوم وسأحاول اصطحاب كلّ جماعتي الصغيرة وإذ ذاك يكون الأمر لطيفاً. بعد غد سنمضي إلى «أرامبو فيل» في عربتنا. إن الطريق رائع وهناك عصير تفاح لذيذ. فتمال إذن. وأنت يا «بريشو» تعال بدورك. وأنت أيضاً يا «سكي»، سوف تكون تلك حفلة لا بدّ أن زوجي على كلّ حال دبرها سلفاً. لست أعلم الكثير عمّن دعا. سيّد «دوشارلوس» هل أنت من الركب؟ وانتفض البارون الذي لم يسمع سوى هذه الجملة، وما كان يعلم أن الحديث يدور حول رحلة إلى «أرامبو فيل»، وهمس بلهجة ساخرة أحسّت السيدة «فيردوران» أنّها تمسّها في الصميم: «سؤال غريب». وقالت لي: «من جانب آخر وبانتظار عشاء آل «كامبرمير» لماذا لا تصطحب ابنة عمك إلى هنا؟ أهي تحبّ المحادثة والقوم الأذكاء؟ وهل هي ظريفة؟ أجل، جيّد جداً والحالة هذه. تعال وليأها، فإنّ في العالم غير آل «كامبرمير». إنّي أدرك أن يسعدوا بدعوتها فهم لا يفلحون في الحصول على أحد. ستجد هنا جوّاً طيّباً وأناساً أذكاء على الدوام. وأحسب في جميع الأحوال أنّك لن تتخلّى عنيّ يوم الأربعاء القادم. وقد نميّ إلى أنّ لديك عصرونية في «ريفيل» بصحبة ابنة عمك والسيد «دوشارلوس» ولست أعلم من بعد. يجب أن تتدبّر أمر نقل كلّ ذلك إلى هنا، ربّما كان لطيفاً أن تصلوا جماعة. إن المواصلات من أيسرها إطلاقاً والدروب رائعة، ولدى الضرورة أمر بالجيء بكم. لست أعلم على أيّ حال ما الذي يمكن أن يجذبكم إلى «ريفيل» فإنّها يملؤها البعوض. ربّما أمنت بشهرة فطائر الرقاق. إن طباخي يضعها بجودة غير هذه، وسأطعمكم أنا فطيرة الرقاق النورماندية الحقيقية والمرمّلات، ولن أقول لك غير هذا. أمّا إن كنت حريصاً



على القذارة التي يقدّمونها في «ريغبيل» فهذا لا أريده. إنّي لا أقتل المدعوين عندي ياسيد، وحتى لو شئت ذلك فإن طبّاخي ما كان ليقبل أن يضع هذا الشيء الذي لا يسمّى وكان غير هذا البيت. هذه القطائر هناك لست تعلم من أي شيء صنعت. إنّي أعرف فتاة مسكينة أورثها ذلك إلتهاًباً في الحجاب الحاجز قضى عليها في ثلاثة أيام، ولم تكن تجاوزت السابعة عشرة ذلك محزون بالنسبة إلى أمّها المسكينة، تضيف السيّدة «فيردوران» قولها بادية الكآبة تحت دوائر صدغيها المثقلين بالخبرة والألم. «ولكن هيّا اذهب إلى عصرونيّتك في «ريغبيل» إن سرك أن يسّرخ جلدك وتلقني بما لك من النوافذ. إنّما، رجوتك، إنّها مهمّة قائمة على الثقة أكلفك أيّاها: حينما تدقّ السادسة جعني بجماعتك كلّها إلى هنا ولا تدع الناس ينشئون عائدين كلّ إلى منزله مشتتّي الصفوف. تستطيع اصطحاب من تشاء؛ وما تراني أقول ذلك لسائر الناس، ولكنّي متيقّنة أن أصدقاءك لطفاء، فإنّي أرى منذ الساعة أنّنا متفاهمان. وفي يوم الأربعاء يجيء بالإضافة إلى النواة الصغيرة أناس هم بالضبط ظرفاء جداً. ألا تعرف السيّدة الشابة «دولونيون»؟ إنّها فاتنة كثيرة الظرف غير متحلقة على الإطلاق، سوف ترى أنّها ستروكك كثيراً. وأضاف السيّدة «فيردوران» تقول لتظهر أنّها من طراز طبّ وتشجّعني بالمثل الصالح: «وهي بدورها ستصطحب زمرة كاملة من الأصدقاء. وسوف نرى من يكون الأوفر نفوذاً ويصطحب أوفر عدد من الناس، «دوبارب - دولونيون» أم أنت. في ظنّي كذلك أنّهم سيصطحبون «بيرغوت» أيضاً، تضيف قولها بطريقة مغممة إذ أصبحت مشاركة شخصية شهيرة كهذه أكثر من بعيدة الإحتمال جرّاء ملاحظة نشرت صباحاً في الصحف تعلن أن صحّة الكاتب الكبير توحى بأشدّ المخاوف. «سوف ترى بمختصر القول أنّه سيكون من بين أكثر أيام الأربعاء التي أدعوا إليها نجاحاً ولست أريد نساء مزعجات. ومهما يكن من أمر، فلا تحكم قياساً على أربعاء هذا المساء فقد كان فاشلاً تماماً. لا ترفع صوتك بالإحتجاج، فلا يمكن أن تكون تضجّرت أكثر منّي، فقد ألفيته بنفسه قاتلاً. لن تكون الأمور دوماً كهذا المساء تدري! وإنّي على كلّ حال لا أتحدّث عن أسرة «كامبرير» فهم لا يحتملون، ولكنّي عرفت جماعة من عليه القوم كانوا يعدون من الظرفاء، ولكنّهم كانوا لا وجود لهم بجانب نواتي الصغيرة. سمعتك تقول إنّك ترى «سوان» على ذكاء. رأيي بادئ الأمر أن هذا مبالغ فيه كثيراً، ولكن حتّى دون الكلام عن طبيعة الرجل الذي وجدته على الدوام منقراً إلى أبعد حدّ وخبيثاً ومتستراً فغالباً ما كان في عداد المدعوين إلى العشاء يوم الأربعاء. حسن! بوسعك أن تسأل الآخرين، فد «سوان» حتّى لو قارنته بـ «بريشو»، وما أبعد أن يكون هذا نسراً وهو أستاذ ناجح في الثاني الثانوي أدخلته المعهد، ما كان مع ذلك ليظلّ على شيء. يا الله كم كان باهتاً! وإذ كنت أبدي رأياً مخالفاً: «الأمر كذلك. ولست أريد أن أقول لك شيئاً ضده بما أنّه كان صديقاً لك. كان على آية حال يحبّك حبّاً جيّداً وقد حدّثني عنك حديثاً حلواً، ولكن أسأل هؤلاء الناس إن كان قال في يوم شيئاً مشوّفاً على موأد عشنا؛ ذلك والحق يقال حجر المحكّ. عجباً! لست أدري سبباً لذلك، ولكنّ «سوان» في منزلي لم يكن يعطي شيئاً، لم يكن ينتج شيئاً. والقليل الذي يساويه إنّما كسبه هنا». وأكدت أنّه كان شديد الذكاء. «لا، إنّما تعتقد ذلك لحض أنّك تعرفه من فترة تقلّ عن معرفتي له. وفي الحقيقة ما أسرع ما كنت تحيط بكل شيء لديه. أمّا أنا فكان يقتلني. (وترجمتها: كان يرتاد منزل آل «لاتريمواي» وآل «دوغيرمانت» ويعلم أنّي لا أذهب إلى هناك). بوسعي أن احتمل كلّ شيء فيما عدا الملل. أمّا هذا فلا! كان النفور من الملل يمثل الآن في نظر السيّدة

«فيردوران» السبب المكلف بتفسير تركيبة الوسط الصغير. فهي بعد لا تستقبل دوقات لعجزها عن الملل عجزها عن القيام برحلة بحرية بسبب دوار البحر، كنت أقول في نفسي إن ما تقوله السيدة «فيردوران» لم يكن خطأ بالطلق، ففي حين كان يمكن أن يعلن آل «غيرمانت» أن «بريشو» هو الرجل الأكثر غباء ممن ربما التقوهم في يوم كنت غير متيقن إن لم يكن بالحقيقة يفوق «سوان» نفسه أو على الأقل أولئك الذين اكتسبوا روح آل «غيرمانت» ولعله تيسر لهم من سلامة الذوق ما جعلهم يتجنبون، ومن الحياء ما يحرمون به خجلاً من نكاته الحذلية، كنت أسائل النفس عن ذلك كما لو أمكن أن تتضح طبيعة الذكاء إلى حد ما بالإجابة التي أقدمها لنفسي وبجديّة مسيحي متأثر بتعاليم «هورتال» يطرح على نفسه مشكلة النعمة. وتابعت السيدة «فيردوران» تقول: «سوف ترى، حينما يجتمع لديك أناس من المجتمع الراقي وأناس أذكيا حقاً، أناس من وسطنا، فإذا ذك يجدر بك أن تلتقيهم، وإن رجل المجتمع الراقي الأكثر ظرماً في مملكة العميان ليس من بعد هنا سوى أعور. أضف إلى ذلك أنه يجمد الآخرين الذين لا يشعرون من بعد أنهم في جولة. إلى حدّ أنني أتساءل إن لم أرتب لنفسي، عوضاً عن اللجوء إلى تخطيط يفسد كل شيء، مجموعات للمبرمين فحسب حتى أجد أحسن المتعة في نواتي الصغيرة. الخلاصة الآن: نجني بصحبة ابنة عمك. اتفقنا. حسن. هنا على الأقل سيتوافر الطعام لكليهما. أما في «فيتيرن» فالجوع والعطش. أه! أنا إن كنت تحبّ الجردان فامض إليها في الحال وسيتوافر لك منها ما تشتهي ويحفظون بك قدر ما تشاء. وتموت وحقك جوعاً. وفي جميع الأحوال عندما أذهب سأتناول طعام عشائي قبل الذهاب. ويجدر بك، كي يكون الجو أكثر مرحاً، أن تأتي لاصطحابي. فنتناول العصرية بجدّ وتتناول العشاء لدى العودة. هل تحبّ الفطائر بالتفاح؟ تحبّها، حسن! إن طبّاخنا يصنعها كما لا يفعل أحد سواه. ترى أنني كنت على حقّ بقولي إنك خلقت لتعيش هنا. فهلمّ إذن واسكن فيه. تعلم أن المكان عندي متسع أكثر ممّا يبدو. وأني لا أقول ذلك كي لا أجتذب المزعجين. بوسعك اصطحاب ابنة عمك بصورة دائمة، وسيتوافر لها هواء غير هواء «البليك». وإني أزعّم أنني أشفي بالهواء الذي هنا من لا شفاء لهم، وقد شفيت منهم، أقسمت، وليس اليوم فحسب. ذلك أنني سكنت فيما مضى، قريباً جداً من هنا، شيئاً كنت اكتشفته وحصلت عليه مقابل كسرة خبز وكان له طابع غير الذي لقصر «لا راسيلير». سأريك ذلك إن ذهبنا في نزهة. على أنّي أقرّ أن الهواء منشط حقاً حتى هنا. بيد أنني لا أريد الإفراط في التحدّث عن ذلك إذ لن يبقى للباريسيين سوى الشرع في تعشّق ركني الخاص. ذاك كان على الدوام نصيبي. باختصار القول انقل ذلك لابنة عمك وسوف تعطيان غرفتين جميلتين تطلّان على الوادي، وستشهد ذلك في الصباح، والشمس ونسط الضباب! وأي شيء هو هذا، «روبير دو سان لو» الذي كنت تتحدّث عنه؟، تقول بادية القلق إذ سبق أن سمعت أنّني أزعّم الذهاب للقاءه في «دونسيير» ونخشيت أن يحملني على هجرها. «يمكنك بالأحرى أن تجيء به إلى هنا إن لم يكن من المزعجين. لقد سمعت «موريل» يتحدّث عنه، تقول السيدة «فيردوران» وهي تكذب تماماً لأن «سان لو» و«موريل» ما كان أحدهما يعلم حتى بوجود الآخر. ولكنّها ظنّت وقد سمعت أن «سان لو» كان يعرف السيّد «دوشارلوس» أن ذلك كان عن طريق عازف الكمان وأرادت أن يبدو أنّها على إطلاع. «أليس يُحتمل أنه يدرس الطبّ أو الآداب؟ فأنت تعلم، إن كنت بحاجة إلى توصيات في الإمتحانات، أن «كوتار» قادر على كل شيء وأنا أفعل به ما أشاء. أما بخصوص الأكاديمية، وذلك لما بعد إذ اعتقد أنه لم

يلغ السن، فإن بتصرفي عدة أصوات، وقد يحسّ صديقك هنا أنه في بلد يعرفه وربما سرّه أن يشاهد البيت. و«دونسير» ليست متعة ومسرّات. وختمت تقول: «خلاصة القول، تفعل ما تشاء وأفضل ما تراه مناسباً لك»، تقول دونما إلحاح كي لا يبدو أنها تحاول التعرف بالنبلاء ولأنها كانت تطمح أن يدعى النظام الذي تفرض على الخلف العيش في ظله، عنيينا الاستبداد، حرّية. ثمّ قالت: «ويحك، ما بك؟» وهي تشاهد السيّد «فيردوران» يتجّه، بيتشو من نفد صبره، نحو الشرفة التي من ألواح خشبية تمتدّ من أحد جوانب الصالة فوق الوادي، وكأنه رجل يختنق غيظاً وبه حاجة إلى الهواء: «هو «سانيت» أيضاً أزعجك؟ ولكن مادمت تعلم أنّه معنوه فسلم بالأمر ولا تبلغ مثل هذه الأطوار». وقالت لي: «لست أحبّ ذلك فهو يلحق به الأذى ويسبّب له احتقاناً. لكننا ينبغي لي أن أقول إنّه لا بد أحياناً من صبر أيّوب لاحتمال «سانيت» وأن نتذكّر على وجه الخصوص أن من الإحسان إيواؤه. أمّا أنا فأقرّ أن روعة غبائه مدعاة بالأحرى لسروري. وفي ظنيّ أنّك سمعت نكتته بعد العشاء: «لست أحسن لعبة «الويست» ولكنني أحسن العزف على البيانو». يالجمالها! إنّها واسعة اتّساع العالم وهي كذبة على أيّ حال، فهو لا يعرف هذا ولا تلك. لكنّ زوجي بطواره الخشنة حسّاس جداً طيب جداً، ونوع الأنانية التي يبدّيها «سانيت»، وهو دائم الإهتمام بالأثر الذي يخلقه، إنّما يخرجّه عن طوره... هيّا يا عزيزي، هذئ من روعك، فأنت تعلم أن «كوتار» قال إن ذلك مؤدّ لكيدك. وإنّما سيرتد كلّ شيء عليّ، تقول السيّد «فيردوران». في غد يأتي «سانيت» يجرّ نوبة أعصابه ودموعه. يالرجل المسكين! إنّهُ مريض جداً، على أن ذلك ليس سبباً كافياً ليقتل الآخرين. ثمّ إن غباءه يضع حداً قاطعاً لإشفاقك عليه حتّى في الفترات التي يعاني فيها كثيراً وتودّ فيها أن ترثي لحاله. إنّهُ مفرط الغباء. ما عليك إلا أن تقول له بلطف شديد أن هذه المشاهد تعلّكما كليكما وأن يمتنع عن العودة. وبما أن ذلك أخشى ما يخشاه فسوف يكون له أثر مهذئ على أعصابه»، تقول السيّد «فيردوران» لزوجها همساً.

كنت تكاد لا تميّز البحر من النوافذ التي إلى اليمين. لكنّ النوافذ من الجانب الآخر كانت تكشف الوادي الذي انهمر عليه الآن ليلج ضياء القمر. وكان يتناهى إليك بين الحين والحين صوت «موريل» وصوت «كوتار»: «معك الصنف الرابع؟» - «yes» (أجل) - «آه! معك من أحسنها أنت»، يقول السيّد «دوكامبرمير» لـ«موريل» جواباً عن سؤاله إذ رأى أن أوراق الدكتور مليئة بالصنف الرابع. وقال الدكتور: «هذه بنت الديناري. وهي من الصنف الرابع، تعرف ذلك؟ «آني» أقطع و«آني» آخذ... ولكن لم يعد ثمة صوروبون»، يقول الدكتور للسيّد «دوكامبرمير»، ليس ثمة سوى جامعة باريس». وأقرّ السيّد «دوكامبرمير» أنّه يجهل لماذا وجّه إليه الدكتور تلك الملاحظة. وأردف الدكتور يقول: «ظننتك تتحدّث عن الصوروبون. وكنت سمعت أنّك تقول: انفخ في «الصور وين»، يضيف قوله وهو يغمز بعينه ليظهر أن الأمر من باب النكتة. وقال وهو يدلّ على خصمه: «انتظر، فإنني أعدّ له وقعة جبل طارق (١)». ولا بدّ أن الضربة كانت عظيمة من جانب الدكتور، فإنّه شرع في غمرة ابتهاجه يهزّ كتفيه بتلذذ وهو يضحك، الأمر الذي كان يعني في الأسرة وفي «طراز» كوتار سمة تقرب أن تكون حيوانية للانشرّاح. كان يرافق تلك الحركة لدى الجيل السابق حركة فرك اليدين كما

(١) إشارة إلى هزيمة نابليون والأسطول الأسباني الفرنسي أمام الأنجليز عام ١٨٠٥.

لوتفسلان بالصابون. وسبق أن استخدم «كوتار» نفسه بادئ الأمر تلك الإيمائية المزدوجة في آن واحد، ولكن حركة فرك اليدين اختفت ذات يوم دون أن يعرف عن أي تدخل كان ذلك ناجماً، تدخل الزوجة وربما الأستاذ. كان الدكتور يكتفي حتى في لعبة «الدومينو» وحين يرغم شريكه على أخذ مجموعة من الأحجار وصولاً إلى «الستتين»، وهو في نظره أشد صنوف المسرات، كان يكتفي بحركة كتفيه. وحينما كان يذهب إلى مسقط رأسه بضعة أيام - وهو أندر النادر - فيلتقي ابن عمه الشقيق الذي كان يرافق لا يزال على حركة فرك اليدين، كان حين عودته يقول للسيدة «كوتار»: «لقد وجدت «رنيه» المسكين عادياً جداً». ثم قال وهو يستدير صوب «موريل»: «معلك من ذاك الشيء الصغير؟ لا؟ ألعب إذا داوود العجوز (١) هذا». - ويحك معلك خمسة منه، لقد ربحته!». وقال المركيز: «إنه لنصر مؤزر يادكتور». - «نصر كانتصار «بيروس» (٢)، يقول «كوتار» مخاطباً المركيز فيما ينظر من فوق نظارته ليحكم على الأثر الذي تخلقه نكته. وقال لـ «موريل»: «إن كان ثمة متسع من الوقت فإنني أفسح لك في الثأر. دوري أنا في ... ولكن لا، فهاهي العربات، موعدنا يوم الجمعة وسأريك خدعة ليست بالأمر القليل». ورافقنا السيد والسيدة «فيردوران» خارجاً. وأبدت المعلمة رقة خاصة تجاه «سانيت» كي توقن أنه سيحضر في الغد. لكننا لا يبدو لي أنك لم تثقل في اللباس يا صغيري»، يقول لي السيد «فيردوران»، وكان تقدمه في السن يسمح له بهذا النداء الأبوي، إذ يخيل إلي أن الطقس تبدل. وملأني هذه الكلمات جوراً وكأنما انبغى أن تؤذن الحياة العميقة، وإنشاق تأليفات جديدة تقتضيها في الطبيعة، بتغيرات أخرى، وهذه تجرى في حياتي، وأن توفر فيها امكانات جديدة. فإني أفتح الباب على الحديقة قبل الإنطلاق، أن «طقساً» آخر يشغل خشبة المسرح منذ لحظة. فقد أخذت أنسام عيلة، هي ملذات الصيف، تهب في حرجة الصنوبر (حيث كانت السيدة «دوكامبرمير» تحلم بالأمس بـ «شويان») وبدأت، على نحو يكاد لا يلحظ وفي تننات رقيقة وارتدادات غير متوقعة، ليلياتها الرشيقة. ورفضت الغطاء الذي كنت سأرضيه في الأمسيات التالية حينما تكون «البيرتين» هناك في سبيل سرية المتعة أكثر مني اتقاء لخطر البرد. وعبثاً جرى البحث عن الفيلسوف الترويجي، فهل ألم به مخص؟ وهل خشني أن يفوته القطار؟ وهل أقبلت طائرة لنقله؟ أم هو حملته ظاهرة صعود؟ لقد اختفى في جميع الأحوال، دون أن يتسع الوقت لملاحظة ذلك، شأن إله. وقال لي السيد «دوكامبرمير»: «أنت مخطيء، فالبرد يقصّ المسمار». وسأل الدكتور قائلاً: «ولم يقصّ المسمار؟» وعاد المركيز يقول: «حذار من الاختناقات. إن شقيقتي لا تخرج البتة في العشية. وهي الآن في جميع الأحوال مقيدة بأسوأ ارتهان. لا تلبث على أي حال هكذا حاسر الرأس وسارع إلى وضع غطاء رأسك». وقال «كوتار» بلهجة قاطعة: «ليست اختناقات afrigore (٣) ناشئة عن البرد». ورد السيد «دوكامبرمير» وهو ينحني: «آه! إذا، مادام ذلك رأيك ...» - «رأيي إلى القاريء!» يقول الدكتور وهو يسرح نظراته خارج نظارته ليبتسم، وضحك السيد «دوكامبرمير»، ولكنه كان مقتنعاً أنه على حق فالتج قائلاً: «ومع ذلك فإن شقيقتي تصاب بنوبة في كل مرة تخرج فيها مساءً». وأجاب الدكتور: «لا جدوى من المماحكة».

(١) ملك البستوني.

(٢) هو نصر يحزه المرء بعد ما يُمنى بخسائر كبيرة (إشارة إلى انتصار «بيروس» على الرومان على إثر خسائر فادحة في معركة «اسكولوم» (٢٧٩ ق.م)).

(٣) باللاتينية وهي طريقة كان يتصنها أطباء أوروبا ومجال سخرية منهم يلجأ إليه متقدمهم.

دون أن ينتبه إلى سوء تهذيبه. «ولائي على أي حال لا أقوم بالتطبيب على شاطئ البحر، إلا إذا استدعت في استشارة. فإني هنا في عطلة». وكان كذلك أمره ربما أكثر مما لعله أراد. فإن «كوتار»، إذ قال له السيد «دوكاميرير»، وهو يستقلّ العربة وإياه: «إننا محظوظون أن يكون على مقربة كبيرة منا (ليس من جانب الخليج الذي تطلّ عليه، بل من الآخر ولكنه ضيق جداً في ذلك المكان) شخصيّة طبيّة أخرى مشهورة: الدكتور دبوليون»، وكان يمتنع عادة، تمسكاً بشرف المهنة، عن انتقاد زملائه، لم يملك نفسه عن أن يصرخ، مثلما سبق أن فعل أمامي في اليوم المشؤم الذي ذهبنا فيه إلى الكازينو الصغير: «ولكنه ليس طبيباً، إنه يعطى الطبّ الأدبي وفنّ مداواة غريب وشيئاً من التهريج نحن على أي حال متفاهمان تماماً، ولو لم أكن مضطراً للتغيب لبادرت في المركب للاقائه ذات مرة». ولكنّي أحسست إزاء الهيئة التي آخذها «كوتار» للكلام عن «دبوليون» مع السيد «دوكاميرير»، أحسست أن المركب الذي لعله كان استقله بسرور للاقائه ربما كان أشدّ شبهاً بتلك السفينة التي استأجرها أطباء «ساليرن» للمبادرة إلى تخريب المياه التي اكتشفها طبيب أديب آخر هو «فيرجيليوس» (الذي كان يحرمهم أيضاً كامل زياتهم)، ولكنها غرقت وإياهم في أثناء العبور (١). «إلى اللقاء يا عزيزي «سانيت» ولا تنس أن نحبي غداً، فأنت تعلم أن زوجي يودّك كثيراً. إنه يحبّ طرفك وذكائك. بلى، تعلم ذلك تماماً، إنه يحبّ اتخاذ مظاهر فظة ولكنه لا يقوى على الاستغناء عنك. إنه دوماً السؤل الأوّل الذي يطرحه عليّ: «هل يأتي «سانيت»؟ فشدّ ما أريد لقاءه» وقال السيد «فيردوران» لـ «سانيت»: «ما قلت ذلك في يوم»، قال بصراحة متكلفة كانت تبعد وكأنها توفّق تمام التوفيق بين ما تقول المعلّمة والطريقة التي يعامل بها «سانيت». ثم نظر إلى ساعته كي لا يطيل دونما شك فترات الوداع في برودة المساء فأوصى الحوذيّة بأن لا يتباطؤوا وأن يتوخّوا الحذر أثناء النزول وأكد أننا سنصل قبل القطار. وكان سيتولّى نقل الخلص، هذا إلى هذه المحطة وذاك إلى أخرى فينتهي بي، إذ لا يمضي آخر غيري إلى ما كان في بعد «بالبيك» ويبدأ بأسرة «كاميرير»، وكانوا استقلّوا القطار معنا، كي لا يصعدوا بأحسنتهم ليلاً حتّى قصر «لاراسيلير»، في «دوفيل فيتيرن». ولم تكن هذه بالفعل الأقرب إلى منازلهم، وهي على بعد يسير عن القرية وأكثر بعداً عن القصر، بل محطة «لاسونيي». وحرص السيد «دوكاميرير» لدى وصوله إلى محطة «دوفيل فيتيرن» أن ينقد حوذيّ آل «فيردوران» «قطعة»، كما كانت تقول «فرانسواز»، وكان بالضبط الحوذيّ اللطيف الحساس صاحب الأفكار الكئيبة ذلك أن السيد «دوكاميرير» كان كريماً وكان أقرب في ذلك إلى «جانب أمّه». ولكنّما كان يحسّ، إمّا لأنّ «جانب والده» كان يتدخل هنا، كان يحسّ فيما يعطي هاجس خطأ يقع - إمّا على يده هو إذ قد يعطي، لسوء الرؤية، فلساً عوضاً عن فرنك، وإمّا من جانب المتلقّي الذي قد لا يتبيّن أهميّة الهبة التي يقدمها له. ولذلك لفت الانتباه إلى تلك الأهمية، وقال للحوذيّ وهو ينقل بريق القطعة في الضوء وكما يستطيع الخلص ترداد ذلك على مسامع السيّد «فيردوران»: «ما أعطيك فرنك، أليس كذلك؟ إنها عشرون فلساً مادام المشوار قصيراً، أليس كذلك؟» وفارقنا هو والسيّد «دوكاميرير» في محطة «لاسونيي». وأعاد عليّ مسمعي قوله: «سأنقل لشقيقتي أنك تصاب باختناقات وإني متأكد من إثارة اهتمامها». وفهمت من ذلك أنه

(١) يقال أن شاعر الرومان الأكبر فيرجيلوس كان يعطى الطب إلى جانب الشعر وإنه اكتشف مياه ذات مفعول سحري على مقربة من نابولي ممّا أوغر صدر الأطباء عليه وكان ما كان.

يقصد: إشاعة السرور في نفسها. أمّا زوجته فقد استخدمت وهي تستودعني اثنين من تلك الإختصارات التي كانت تصدمني حينذاك وإن مسطرة في رسالة مع أنّ الناس تعودوا الأمر مذ ذاك، ولكنّها إمّا قبلت لا تزال تبدو لي حتّى في يومنا هذا وكأنّها تحمل في لا مبالاتها المقصودة وألفتها المكتسبة شيئاً من الحدقة لا يحتمل. وقالت لي: «سرّني أن قضيت الأمسية بصحبتك؛ مع مشاعر المودة لـ«سان لو» إن كنت تراه». وقالت السيّد «دوكامبرمير» «سان لو» وهي تدلي بجملتها تلك. ولم أثبتن في يوم من الذي سبق أن نطقها على هذا النحو أمامها أو ما الذي حملها على الظنّ بأنّه لا بدّ من نطقها على هذا النحو. ومهما يكن من أمر فقد لفظتها «سان لو» على مدى بضعة أسابيع وكذلك فعل رجل كان يدي إعجاباً كبيراً بها ولا يؤلّف وليّاتها سوى كائن واحد. وإن قال آخرون غيرهما «سان لو» كانا يلحّان ويلفظان بقوة «سان لو» إمّا ليعطيا الآخرين درساً غير مباشر وإمّا ليميّزا عنهم. وليس من شك أن نساء أكثر تألقاً من السيّد «دوكامبرمير» قلن لها أو أنهمنها بصورة غير مباشرة أن ليس ينبغي لفظها هكذا، وأنّ ما كانت تأخذه مأخذ التفرّد كان غلطة ربّما حملت على الظنّ بأنّها قليلة الإحاطة بأمور الدنيا، إذ عادت السيّد «دوكامبرمير» تقول بعد وقت قصير «سان لو» وأوقف المعجب بها كذلك آية مقاومة، إمّا لأنّها عثفته في ذلك وإمّا لأنّه لاحظ أنّها لم تعد تشدد على الحرف الأخير وقال في نفسه إنّ لا بدّ كيما تتراجع امرأة بذلك القدر وتلك الهمة وذلك الطموح فلا بدّ أن تفعل عن حسن تبصّر ودراية. وكان أسوأ المعجبين بها زوجها. فقد كانت السيّد «دوكامبرمير» تستحسن توجيه مضايقات للآخرين غالباً ما تكون شديدة الوقاحة. وحالما كانت توجّه على هذا النحو سهامها إمّا إليّ أو إلى آخر غيري كان السيّد «دوكامبرمير» يأخذ في النظر إلى الضحية ضاحكاً. ولما كان المركّز أحول -والأمر يولي حتّى مرح المعتوهين مقصد الظرف - فقد كان من أثر تلك الضحكة أن تردّ شيئاً من الحدقة إلى بياض العين وهو لولا ذاك كامل. كذلك تلقي فرجة شيئاً من الزرقة في سماء تلبّدت بالغيوم. كانت النظارة تحمي على آية حال هذه العملية الدقيقة مثلما زجاج فوق لوحة ثمينة. أمّا بخصوص مقصد الضحك نفسه فلست تعرف تماماً إن كان لطيفاً: «آه! أيها اللعين! يمكن أن تقول إنّك محسود. فإنّك لقيت حظوة في عين امرأة صلبة المراس»؛ أو فظاً: «والآن، ياسيّد، أمل أنّهم يتدبّرون أمرك، فما أكثر ماتبلع من أمواس»؛ أو خدوماً: «تعلم أنّي هنا، إنني أخذ الأمر بالضحك لأنّه مزاح صرف، ولكنّي لن أدع لهم أن يقسوا عليك». أو محرّضاً قاسياً: «ليس لي أن أندخل في مالا يعنييني ولكنك تراني أتلوّ وأنا أشهد كلّ الإهانات التي تكيّلها لك. إنّني أضحك ملء الأشدق، وأوافق بالتالي، أنا زوجها، فإنّ حلالك أن تثور فستجد من يقف في وجهك أيّها السيّد العزيز. سوف أوجّه لك بادئ الأمر زوجاً من الصفعات الرقبة، ثم نمضي تتقارع بالسيف في غابة «شانتبي».

ومهما يكن من أمر هذه التفسيرات المختلفة لمرح الزوج، فإنّ نزوات الزوجة سرعان ما كانت تبلغ نهايتها. حينئذ كان السيّد «دوكامبرمير» يكفّ عن الضحك وتزول الحدقة المؤقّته وبما أن عادة العين البيضاء كلّها قدّدت منذ بضعة دقائق فقد كانت تكسب هذا النورماندي الأحمر شيئاً من الشوب والذهول في أن معاً كما لو أوجرت للمركّز عملية قريبة أو كان يلمس من السماء، من تحت نظارته، أكايل الشهادة.



## الفصل الثالث

[أحزان السيد «دوشار لوس» - مبارزته الوهمية - محطات «عابر الأطلسي» - مرادي، وقد سُميت «ألبيرتين»، أن أقطع علاقتي بها].

كنت أترنح من النعاس. وحملت في المصعد حتى الدور الذي أسكنه، لا من جانب عامل المصعد، بل من جانب صبي الفندق الأحول الذي بادر إلى الحديث ليحكي لي أن شقيقته ما زالت مع السيد الشديد الثراء وأنها إذ رغبت ذات مرة في العودة إلى منزل ذويها بدلاً من البقاء على رصانتها فإن رجلها مضى فالتقى والدة صبي الفندق الأحول والأولاد الآخرين الأوفر حظاً، وأن والدة أعادت الحمقاء بالسرعة القصوى إلى صديقها. «تدري ياسيد، إن شقيقتي لسيدة عظيمة الشأن. فهي تداعب البيانو وتكلم الاسبانية. وقد لا تصدق ذلك، بالنسبة إلى المستخدم البسيط الذي يجيئك بالمصعد، إنها لا تحرم نفسها شيئاً. فللسيدة وصيبتها الخاصة، ولن يدهشني أن تكون لها ذات يوم عربتها. إنها حلوة جداً لو رأيتهما، على شيء من فرط الاعتزاز، ولكن ذلك مفهوم بالطبع. وهي على قدر كثير من الذكاء. وليست تغادر فندقاً في يوم إلا قضت حاجتها في خزانة أو صوانة لتخلف تذكاراً صغيراً للخادمة التي يقع عليها القيام بالتنظيف. بل هي تفعلها أحياناً في عربة. وبعدما تدفع أجرة مشوارها تختبئ في زاوية لمجرد أن تضحك وهي ترى الحوذي يحتج إذ يضطر أن يغسل عربته. وقد كانت «وقعة» والذي عظيمة كذلك إذ عثر لشقيقي الأصغر على ذاك الأمير الهندي الذي كان عرفه فيما مضى. ذلك بالطبع طراز آخر، ولكن المكانة رفيعة، ولو لم تكن ثمة رحلات لكان غاية المنى. وحدي حتى الآن بقيت على الحصار. ولكن ما من أحد يستطيع أن يعلم، فالحظ مقيم في أسرتنا، ومن ذا يعلم إن كنت لن أصبح يوماً رئيساً للجمهورية؟ ولكنني أحملك على الثروة (ولم أكن قلت كلمة واحدة وشرعت أغفو وأنا أصغي إلى ما يقول). مساء سعيداً ياسيد. أوه! شكراً ياسيد. لو كان الكل بمثل طيبة قلبك لما بقي تعساء من بعد. ولكن لا بد كما تقول شقيقتي أن يبقى منهم دوماً كيما أستطيع الآن وقد أصبحت غنياً أن «أحرق دينهم» بعض الشيء، اسمح لي بالعبرة. ليلتك سعيدة ياسيد».

ربما قبلنا في كل مساء احتمال أن نعيش، ونحن نيام، ألا ما نحسبها كأنها لم تكن لأننا نكون أحسننا بها في أثناء غفوة نظنها لاوعي فيها.

وكان يتملكني في تلك العشيات التي كنت أعود فيها متأخراً من «لاراسيلير» نعاس شديد. ولكن ما إن أقبل البرد حتى لم أعد أستطيع الإغفاء في الحال لأن النار كانت تتوهج كما لو أضيء مصباح. على أن ذلك لم يكن أكثر من هبة إذ لا يلبث ضياؤها الشديد - كالمصباح أيضاً - وكأنها حينما يحلّ المساء - أن يتخافت. فكنت ألج النوم، وهو بمثابة شقة ثانية نملكها ونمضي للنوم فيها وقد هجرنا شقتنا. وإن له أجراسه، وأحياناً يوقظنا فيه بعنف رنين جرس سمعته اذننا بوضوح في حين لم يدق أحد. كما له خدمه وزواره الخاصون الذين يجيئون لاصطحابنا في نزهة حتى إننا على استعداد للنهوض فيما لا يسعنا إلا أن نلاحظ، فور هجرتنا تقريباً إلى الشقة الأخرى، شقة البقعة، أن الغرفة خالية وأن لم يجيء أحد. إن الجنس الذي يسكنها، شأن جنس البشرين الأوائل، من صنف الخناث. ويظهر فيها بعد لحظة رجل بهيئة امرأة. والأشياء مؤهلة فيها



أن تصبح بشراً، والبشر أصدقاء وأعداء. والوقت الذي ينقضي بالنسبة إلى النائم في أثناء هذه الاغفاءات مختلف تمام الاختلاف عن الوقت الذي تجري فيه حياة الانسان اليقظان. فتارة يكون جريانه أكثر سرعة فيبدو ربع الساعة نهراً، وأحياناً أكثر طولاً فنظن أننا لم نصب إلا إغفاءة هيئة في حين نمنا اليوم بكامله. حينئذ نتحدر على عربة النوم إلى أعماق لا يستطيع التذكر من بعد اللحاق بها فيما اضطرّ العقل أن يعود أدراجه قبل أن يبلغها. إن عربة النوم، مثلها مثل عربة الشمس، تذهب بخطو متساو، وفي جو لا يمكن لأية مقاومة فيه أن توقفها من بعد إلى حدّ أنه لا بدّ من حصاة نيزكية صغيرة غريبة عنّا (ألقى بها أي مجهول من القبة الزرقاء؟) لتصيب النوم المنتظم (الذي ما كان ثمّة داع لتوقفه لولا ذلك وربما دام بحركة متشابهة إلى أبد الأبدين) وترده في انعطافه مفاجئة إلى الواقع وتجعله يحرق المراحل ويجتاز المناطق المجاورة للحياة - حيث سيسمع منها النائم عمّا قليل الضوضاء الذي لا يزال غامضاً تقريباً ولكنه مسموع منذ ذاك وإن يك مشوهاً - ويحطّ فجأة على أرض اليقظة. حينئذ يستيقظ المرء من تلك الاغفاءات العميقة في فجر لا يعرف فيه من يكون، إذ هو لا أحد، وهو جديد متأهب لكلّ شيء وقد أفرغ دماغه من ذاك الماضي الذي كان حتّى ذاك الحياة. وربما كان أجمل بعد حين يكون هبوط اليقظة عنيفاً ولا يتسع الوقت لأفكار النوم، وقد حجبتها غطاء من النسيان، للعودة تدريجاً قبل أن يتوقّف النوم. حينئذ نطلع من العاصفة السوداء التي يبدو لنا نحن أننا اجتازناها (ولكنّا لا نقول حتّى «نحن»)، نطلع منظرين مجرّدين من الأفكار وكأنّما ثمّة «نحن» بدون مضمون. فأية ضربة مطرقة أصابت الكائن أو الشيء بالأحرى الذي أماننا كيما يجهل كل شيء وهو في ذهول إلى اللحظة التي تردّ له الذاكرة فيها، وقد سارعت إليه، وعيه أو شخصيته؟ على أنه لا بدّ، فيما يخصّ هذين النوعين من الاستيقاظ، أن لا ننام، وإن يكن النوم عميقاً، تحت سلطان العادة. لأنّ العادة إنّما تراقب كلّ ماتضمّمه في شباكها؛ فينبغي الافلات منها وولوج النوم في اللحظة التي كنا نظنّ فيها أننا فاعلون أي شيء آخر ما عدا النوم، وباختصار القول أن نلج ذاك النوم الذي لا يقيم تحت وصاية التنبصّ وبرفقة التفكير وإن مستتراً. كان كل شيء يجري، على الأقلّ في صنوف اليقظة على نحو ماجئت على وصفه، وهي في الغالب ما كان يجري لي بعدما أكون تناولت العشاء الليلة البارحة في «لاراسبليير»، وكان الأمور على هذا المنوال، وأستطيع أن أشهد للأمر أنا الكائن الغريب الذي يعيش، بانتظار أن يعتقه الموت، ومصاريعه مغلقة لا يعلم شيئاً عن الدنيا ويظلّ لاحراك به كطائر البوم أو كمثل لا يصير بشيء من الوضوح إلّا في الظلمات. كلّ شيء يجري وكان الأمور على هذا المنوال، ولكن وحدها طبقة من مشاقّة الكائن ربّما حالت دون أن يسمع النائم حوار الذكريات الداخلي وثرثرة النوم التي لا تنقطع. ذلك لأنّ النائم في اللحظة التي تتمّ فيها اليقظة (الأمر الذي يمكن تفسيره تماماً في النمط الأوّل، وهو أكثر اتساعاً وأوفر أسراراً وأقرب إلى عالم النجوم) يسمع صوتاً داخلياً يقول له: «أترأى تأتي في هذا المساء للعشاء أيها الصديق العزيز؟ كم يسرني ذلك! ويفكر في نفسه: «أجل، وكم نصيب من مسرة، سوف أذهب»؛ ثمّ تتزايد اليقظة فيتذكّر فجأة: «لم يبق لجدتي سوى بضعة أسابيع تعيشها فيما يؤكد الدكتور». ويقرّع الجرس ويكي إذ تداخله فكرة أن لن نكون، شأنها بالأمس، جدته، جدته التي تحتضر، بل خادم غير مبال سوف يقبل ليردّ عليه. وفي جميع الأحوال، حينما كان النوم يحمله بعيداً جداً خارج العالم الذي يسكنه التذكر والفكر عبر أثير كان فيه وحده ليس إلّا، لا يتوافر له حتّى ذاك الرفيق الذي يصير ذاته فيه، كان

خارج الزمن ومقاييسه. فهي هو ذا الخادم الخاصّ يدخل، ولا يجزؤ أن يسأله عن الساعة لأنّه يجهل إن كان نام وكم ساعة نام (بل يتساءل إن لم يكن السؤال «كم يوماً» لشدة ما يعود منهوك الجسم مرتاح الفكر يملأ قلبه الحنين وكأنّما من رحلة أبعد من أن لا تكون دامت فترة طويلة). أجل يمكن الزعم أن ليس ثمة سوى زمن واحد للسبب التافه الذي مفاده أنّنا إنّما لاحظنا بالنظر إلى ساعة الحائط أن ما ظنّناه نهراً إن هو إلا ربع ساعة. ولكنّا حين نلاحظ الأمر فأنّنا بالضبط رجل مستفيق مغموس في زمن الناس المستيقظين وقد هجر الزمن الآخر، بل ما كان ربّما أكثر من زمن آخر: حياة أخرى. إن المتع التي نصيها في النوم لا نضعها في حساب المتع التي نحسّ بها خلال حياتنا. وكبي لا نلّمح إلا إلى أكثرها ابتزّالاً في شهورنا، من ممّا لم يشعر لدى استيقاظه ببعض الازعاج من أنّه أصاب في نومه متعة لن يستطيع، إمّا استفاق ولم يشأ أن يفرط في إرهاق نفسه، أن يكرّرها بلا حدود في ذلك اليوم ؟ لكأنّما ذلك خير نفقده. لقد أصبنا متعة في حياة أخرى ليست حياتنا. إن آلام ومتع الحلم (التي سرعان ما تتلاشى بعامّة حين اليقظة) لو أدرجناها في موازنة فلن يكون ذلك في موازنة الحياة اليومية.

قلت بزمنين، وربّما ليس ثمة سوى واحد، وما ذلك لأن زمن المستيقظ صالح للنائم، بل لأنّ الحياة الأخرى، الحياة التي ننام فيها، قد لا تكون -في قسمها العميق- خاضعة لفقه الزمن. كنت أتصوّر ذلك حينما كنت أنام غداً حفلات العشاء في «لاراسيلير» ذلك النوم الكامل الشامل. وإليك السبب. كنت أخذ بالاغتمام لدى استيقاظي إذ أرى أن الخادم الخاصّ لم يكن جاء بعدما قرعت الجرس عشر مرّات. وفي المرّة الحادية عشرة كان يدخل. ولم تكن تلك سوى الأولى. أمّا الأخريات العشر فإن هي إلا خطوط أولية كنت أخطّها في أثناء نومي الذي ما يزال قائماً عن قرع الجرس الذي أبغيه، وما كانت يدي المخدّرتان حتى تحركتا. على أن جهدي في تلك الصبيحات (وذلك ما يحملني على القول إن النوم ربّما كان جاهلاً لقانون الزمن) من أجل أن استيقظ إنّما كان يقوم على جهد إدخال الكتلة الغامضة غير المحدّدة للنوم الذي عشته منذ قليل في أطر الزمن. وليست المهمّة سهلة؛ فالنوم الذي لا يعرف إن كنّا نمنا ساعتين أو يومين لا يمكن أن يزودنا بأيّ معلم. فان لم نلق معلماً في الخارج فأنّنا نعود، إذ لا نفلح في ولوج الزمن، إلى النوم مدّة خمس دقائق تبدو لنا ثلاث ساعات.

لقد قلت دوماً -وجرّبت- أن أشدّ النّومات هو النوم. فبعدما نمنا ساعتين نوماً عميقاً وتقاتلنا مع الكثير من العمالة وعقدنا على مدى الدهر الكثير من الصداقات، يبدو الاستيقاظ أكثر صعوبة ممّا هو الأمر بعدما تناولنا عدّة غرامات من مادة «الفيرنال». ولذلك أدهشني أن أعلم، وأنا أنقل الفكر بين هذه وذاك، من الفيلسوف النروجي الذي أخذه عن السيّد «بوترو» «زميله الشهير-بل أخوه الشقيق، عفواً»، ما كان يعتقده «بيرغسون» حول التشوّهات الخاصّة التي تصيب الذاكرة جرّاء النّومات. وكان «بيرغسون»، على حدّ قول الفيلسوف النروجي، قد قال للسيّد «بوترو»: «بالطبع، لا تأثير للنّومات التي يجري تناولها بين الحين والحين بكميّات معتدلة على تلك الذاكرة المتينة لحياتنا اليومية المستقرّة في داخلنا على أفضل أساس. لكن ثمة ذاكرات أخرى أرفع مكانة وأقلّ استقراراً أيضاً. إن أحد زملائي يدرّس مقرّراً في التاريخ القديم، وقد قال لي إنّهُ إن تناول في العشيّة قرصاً لينام فقد كان يصادف عنثاً في العشر أثناء درسه على الشواهد اليونانية التي

يحتاجها.

وقد أكّد له الدكتور الذي كان أوصى بتلك الأقراص أن ليس لها تأثير على الذاكرة. وقد أجاهبه المؤرخ دون أن يغفل شيئاً من الاستعلاء الساخر: «ربّما يعني ذلك أن ليس عليك الإتيان بشواهد يونانية».

لست أدري إن كان هذا الحديث بين السيد «بيرغسون» والسيد «بوترو» صحيحاً. والفيلسوف التروجي ربّما أساء الفهم مع أنّه عميق الفكر واضح إلى حدّ بعيد ويهيم بالدقّة أشد الهيام. وقد زوّدتني تجربتي فيما يخصني بنتائج عكسية. فإن فترات النسيان التي تعقب في الغداة تناول بعض المخدرات تشبه جزئياً فقط، ولكنّها الشبه مقلق، النسيان الذي يسود في ليلة من النوم الطبيعي العميق. فإن ما أنساه في كلا الحالتين ليس هذا البيت لـ «بودلير» الذي يرهقني بالأحرى «كما تفعل آلة التامينون»، وليس ذاك المفهوم لأحد الفلاسفة المذكورين، بل حقيقة الأشياء العادية التي تحيط بي - إن كنت نائماً - والتي يبعث فيّ لا إدراكها الجنون؛ وليس كذلك - إن كنت يقظان وخرجت على إثر نوم اصطناعي - منظومة «بورفيروس» أو «أفلوطين» التي أستطيع الجدال فيها كما هي حالي في يوم آخر، بل الجواب الذي وعدت بتقديمه عن دعوة حلّ محلّ تذكرها حيّز أبيض تماماً. لقد لبثت الفكرة السامية في مكانها، أمّا ما جعله المنوم خارج التداول فإمكان الفعل في الأشياء الصغيرة، في كلّ ما يتطلب نشاطاً لتعود فتمسك في الوقت المناسب، لتقبض على هذه الذكري من الحياة اليومية. وعلى الرغم من كلّ ما يمكن أن نقوله عن البقاء بعد تلف الدماغ فإني ألاحظ أن كلّ تشوّه في الدماغ يقابله جزء من الموت. إنا لانملك ذكرياتنا جميعها إن لم نملك القدرة على استدكارها، يقول نقلاً عن السيد «بيرغسون» الفيلسوف التروجي الكبير الذي لم أحاول؛ تخاشياً للإبطاء، محاكاة لغته؛ إن لم يملك القدرة على استدكارها. ولكن ما عسى أن تكون ذكري لا تذكرها؟ أو دعنا نمض أبعد من ذلك. إننا لاتتذكّر ذكرياتنا العائدة للسنوات الثلاثين الأخيرة؛ ولكنّها تخمرنا من كلّ جوانبنا؛ فلم نتوقّف، والحالة هذه، عند السنوات الثلاثين ولمّ لا نمذّ إلى ما وراء الولادة تلك الحياة السابقة؟ وبما أنني لا أعرف قسماً كاملاً من الذكريات الكائنة ورائي وبما أنّها خافية عليّ ولا أملك القدرة على استدعائها إليّ، فمن ذا يقول لي أن ليس في هذه الكتلة المجهولة لديّ ذكريات تعود إلى ما كان أبعد من حياتي البشرية؟ وإن أمكن أن يقوم في داخلي ومن حولي هذا الكم من الذكريات التي لا أتذكرها فإن هذا النسيان (على الأقلّ النسيان الواقع بما أنني لا أملك القدرة على رؤية شيء) يمكن أن ينسحب على حياة عشتها في جسم رجل آخر وحتىّ فوق كوكب آخر. ثمّ نسيان واحد يمحو كلّ شيء. ولكن ما الذي يعنيه والحالة هذه خلود النفس ذاك الذي كان الفيلسوف التروجي يؤكد حقيقة؟ فالفرد الذي سأكونه بعد الموت لا دواعي لديه لتذكّر الشخص الذي كنته منذ مولدي أكثر ممّا يتذكّر هذا الأخير ما كنته قبل مولدي.

وكان الخادم الخاصّ يدخل ولا أقول له إنني قرعت الجرس عدّة مرّات اذ كنت أثبتن أنني لم أقم حتّى ذاك بغير الاحتلام بأنّي أقرع الجرس. على أنني كنت فزعاً من التفكير بأن هذا الحلم اكتسب وضوح المعرفة. فهل تكتسب المعرفة بالمثل لا واقع الحلم؟

ولكنني في المقابل كنت أسأله من ذا الذي بالغ إلى هذا الحدّ في قرع الجرس هذه الليلة، فيجيبني «لا

أحد» وباستطاعته أن يؤكد ذلك لأن «لوحة» الأجراس كانت سجلت ذلك. ومع ذلك كنت أسمع الضربات المتكررة الحانقة تقريباً والتي لا تزال ترن في أذني وسوف تظل مسموعة لديّ على مدى عدة أيام. مع أنه يندر أن يلقي النوم على هذا النحو في حياة اليقظة ذكريات لا تموت معه. ويمكن إحصاء هذه النيازك. فإن كانت فكرة صنعها النوم فأنها تتفكك بسرعة عظيمة قطعاً دقيقة لا يمكن العثور عليها. ولكن النوم هنا كان قد صنع أصواتاً أكثر ماديةً وأشدّ بساطة فتدوم أكثر. لقد دهشت للساعة الباكرا نسبياً التي ذكرها لي الخدام الخاص، ولكنما لم أكن أقل ارتياحاً لذلك. فإنّ صنوف النوم الخفيف هي التي تدوم طويلاً لأنها متوسطة بين اليقظة والنوم، وإذا تحتفظ من الأولى بفكرة غائمة المعالم قليلاً ولكنها ثابتة فإنما تقتضي كيما تريحنا وقتاً أطول بما لا يقاس مما يقتضي النوم العميق الذي يمكن أن يكون قصيراً. وكنت أحسني مرتاحاً تماماً لسبب آخر. فإن كان كافياً أن يتذكر المرء أنه تعب كيما يوافيه شعور بمرارة التعب فإن قوله لنفسه: «قد استرحت» كاف لبعث الراحة لديه. وإني حلمت أن السيد «دوشارلوس» بلغ المئة وعشر سنوات وأنه أقدم منذ قليل على توجيه صفتين لوالدته السيّدة «فيردوران» لأنها ابتاعت باقة بنفسج لقاء خمسة مليارات؛ لقد كنت على يقين إذا من أنني نمت نوماً عميقاً وحلمت بعكس مفاهيمي في اليقظة وامكانات الحياة العادية جميعها، وكان ذلك كافياً كما أحسني مرتاحاً تماماً.

لعلني كنت أدهشت أمي، وما كان بمقدورها فهم مواظبة السيّد «دوشارلوس» لدى آل «فيردوران»، لو رويت لها مع من جاء السيّد «دوشارلوس» لتناول طعام العشاء في صالة الفندق الكبير في «باليلك» (في ذلك اليوم بالضبط الذي كنا أو صينا فيه على قلنسوة «ألبيرتين» دون أن نبدي لها من ذلك شيئاً كي تفاجأ بها). فلم يكن المدعو سوى الخادم الخاص لواحدة من بنات عمومة آل «كاميرير». وكان هذا الخادم يرتدي ملابس عظيمة الأناقة، وحينما اجتاز البهو برفقة البارون بدا في نظري السباح «وكأنه من عليّة القوم»، كما لعلّ «سان لو» كان قال. حتّى الخدم من الشبان و «اللاويون»<sup>(١)</sup> الذين كانوا ينحدرون جمّاً غفيراً على أراج المعبد في ذلك الوقت، إذ كان وقت التبدّل، لم يعيروا الوافدين انتباهاً، وقد حرص أحدهما، وهو السيّد «دوشارلوس»، أن يبدي وهو يطرق برأسه أنه لا يعيرهم إلا القليل القليل، كان يبدو وكأنه يشقّ لنفسه طريقاً فيما بينهم. ثم قال وهو يتذكر أحياناً لـ «راسين» يستشهد بها بمعنى مختلف أشدّ الاختلاف: «ازدهر يا أملاً غالياً لأمة مقدّسة». وسأل الخادم الخاص، وهو قليل الاطلاع على الأدباء الكلاسيكيين، قائلاً: «بم تفضّلت؟» ولم يجبه السيّد «دوشارلوس» إذ كان يجد بعض الاعتزاز في أن لا يأخذ في اعتباره الاسئلة وأن يمضي في خطّه مستقيماً أمامه كما لو لم يكن في الفندق زبائن سواه، كأنما ليس في الدنيا سواه، هو البارون «دوشارلوس». لكنّه بعدما تابع أبيات «جوزابيت»: «هيا، إلى يابناتي» شعر أنّه نهب القرف ولم يضيف كما فعلت: «لا بدّ من دعوتهنّ»، لأن هؤلاء الأولاد الصغار ما كانوا بلغوا بعد السنّ الذي يكون الجنس فيه كامل التكوين والذي كان يروق السيّد «دوشارلوس». ولئن كتب إلى خدام السيّدة «دوشفروني» الخاص لأنّه ما كان يشكّ في سهولة انقياده فقد كان يتمناه على أية حال أوفر رجولة. وكان يجده من حيث مظهره أكثر تخشاً ممّا لعله أراد. وقال له إنّه خيّل إليه أنّه يتعامل مع آخر سواه لأنّه كان يعرف بالوجه خادماً خاصاً آخر للسيّدة «دوشفروني»

(١) من هم من قبيلة «لاوي» لدى العبرانيين وكانوا يعدّون لخدمة الهيكل.

كان بالفعل لفت انتباهه فوق العربة. كان من صنف الفلاح الخشن، تماماً نقيض هذا الذي كان يرى أطفافه المتكلفة على العكس بمثابة مواطن تفوق ولا يشك أن صفات رجل المجتمع الراقى تلك هي التي لعلها فتنت السيد «دوشارلوس» فلم يفهم حتى عمن كان البارون يبغي التحدث. «ولكن لا رفيق لي إلا واحد لا يمكن أن تكون نظرت إليه، فإنه دميم ويشبه فلاحاً غليظاً». وإذ خطر له أن ذاك الفظ ربما كان هو الذي شاهده البارون أحسن يوخزة في كرامته. وحزرها البارون فوسّع من دائرة بحثه: «ولكنني لم أقطع على نفسي عهداً خاصاً بأن لا أتعرف إلا على جماعة السيدة «دو شفرورني»، يقول: أفلا تستطيع، هنا أو في باريس، بما أنك راحل عما قليل، أن تعرفني بكثيرين من رفاقك، من هذا البيت أو ذاك؟» فأجاب الخادم الخاص: «لا، لا، فإني لا أخالط أحداً من طبقتي ولا أحدثهم إلا بشأن الخدمة. ولكن ثمة واحداً من أحسنهم يمكنني أن أعرفك به». وسأل البارون قائلاً: «ومن ذا يكون؟» «الأمير «دو غير مانت». واغتاط السيد «دوشارلوس» من أنه لا يقدم له سوى رجل هذا عمره ولم يكن على أي حال يحتاج بشأنه توصية خدام خاص. ولذلك رفض العرض بلهجة جافة. وعاد، دون أن يدع لمزيمته أن توهنها مطامع الخادم المجتمعية، عاد يوضح له ما هو راغب فيه، النوع والنمط، ولنقل فارس سباق، الخ... وإذ خشي أن يكون سمعه الكاتب العدل الذي كان يمر طريقه في ذلك الحين، ظن من النباهة أن يبرز للعيان أنه كان يتكلم عن أمر مغاير تماماً لما لعله أمكن اعتقاده وقال مشدداً وموجهاً خطابه لشخص لاثراه ولكن كمن يتابع فحسب حديثه: «أجل لقد بقيت على الرغم من سني على حب البحث عن القديم، حب التحف الجميلة وإني يجن جنوني إزاء برونزية عتيقة، إزاء ثريا عتيقة. أتني أعشق الجمال». على أن السيد «دوشارلوس» بغية إفهام الخادم الخاص ما أجراه بتلك السرعة من تغيير في موضوعه، كان يتناقل على كل كلمة ويصرخ بها جميعها، كي يسمعه الكاتب العدل، بقوة ربما كانت كل هذه التمثيلية كافية معها لتكشف ما كان يخفيه بالنسبة إلى أذان أكثر ترمساً من أذني المأمور القضائي. ولم يرتب هذا الأخير بشيء ولا أي زبون آخر في الفندق، وقد رأوا جميعاً في الخادم الخاص الحسن الملبس أجنباً أنيقاً. ولئن أخطأ أولو المجتمع الراقى الحكم فحسبوه اميركياً ذا أناقة بالغة، فإنه ما كاد في المقابل يطلع أمام الخدم حتى حزرروا من هو، مثلما المحكوم بالأشغال يتعرف المحكوم، بل بسرعة أكبر، بالاشتغال عن بعد مثلما الحيوان من جانب بعض الحيوانات، ورفع قادة الرتل نظرهم إليه، وراه «إيميه» بنظرة ارتباب. أما الساقى فارتفع بمنكبيه وقال من خلف يده، إذ ظن ذلك من باب التأدب، جملة تنضح بالاساءة تناهت إلى مسمع الجميع. حتى عزيزتنا «فرانسواز» العجوز، التي كان بصرها آخذاً بالتراجع وكانت تمر في تلك اللحظة في أسفل الدرج لتذهب للعشاء في «موقع البرد»، تعرفت خادماً حيث لم يرتب نزلاء الفندق به— مثلما تتعرف المربية العجوز «أوريكلييه» «أوليس» قبل طلاب الزواج الجالسين إلى مائدة الوليمة— وبدا عليها إذ رأت السيد «دوشارلوس» يسير وإياه مسيرة الألف علائم الأسى كما لو اكتسبت فجأة أقوال سوء سمعتها تداع ولم تصدقها، كما لو اكتسبت فجأة شكل الحقيقة المؤلم. ولم تكلمني البتة، ولا كلمت سواي عن تلك الواقعة ولكنّها لابد تسببت بعمل هائل لدماعها لأنها في كل مرة سنحت لها فرصة لقاء «جوليان» الذي أحبته حتى ذلك حياً جداً أبدت له على الدوام شيفاً من التأدب ولكنما كان أصابه الفتور وانضاف إليه دوماً كمية من التحفظ. ولكن تلك الواقعة نفسها دفعت على العكس آخر غيره إلى استידاعي سرّاً. وكان «إيميه». فحينما

التقيت السيد «دوشارلوس» صاح بي، وما كان يتوقع لقايتي: «مساء الخير»، وهو يرفع يده باللامبالاة الظاهرة على الأقل التي يديها السيد الكبير الذي يظن كل شيء جائزاً له ويرى براعة أكبر في الظهور مظهر من لا يتستر. بيد أن «ايمي» الذي كان يرقبه في تلك اللحظة بعين الريبة والذي أبصرني أحيي رفيق ذاك الذي كان متيقناً أنه يبصر فيه خادماً سألتني في المساء نفسه من عساه كان. فإن «ايمي» منذ بعض الوقت كان يحب الحديث أو «الجدال» بالأحرى كما كان يقول كي يبرز دونما شك الطابع الفلسفي الذي يراه لهذه الأحاديث. ولما كنت أقول له في الغالب إنني أشعر بالازعاج من أن يلبث واقفاً بالقرب مني وأنا أتناول طعام العشاء فيما كان يمكنه الجلوس ومشاركتي الطعام كان يعلن أنه لم يشهد قط زبوناً «صحيح المحاكمة إلى هذا الحد». كان في ذلك الوقت يكلم خادمين. وقد سلماً عليّ وما كنت أدري سبب ذلك. كان وجههما مجهولين لديّ مع أن في حديثهما رنة غمغمات ما كانت تبدو لي جديدة. كان «ايمي» يعتفهما كليهما بسبب خطبتهما التي كان يستنكرها. واستشهد بي على ذلك فقلت إنه لا يمكنني تكوين رأي بما أني لا أعرفهما. وذكر اني باسمهما وأنهما كثيراً ما قاما على خدمتي في «ريفييل». ولكن أحدهما كان أطلق شاربته والآخر خلقه وقصّ شعره. وبسبب ذلك ومع أن ما وضع على كتفهما أتما كان رأسهما بالأمس (وليس آخر كما هي الحال في أعمال الترميم الخاطئة في كنيسة نوتردام) فقد لبث خفياً عليّ كما هي تلك الأشياء التي تخفى على صنوف التفتيش الأكثر دقة والملقاء على أبسط صيغة فوق الموقد أمام أعين الجميع الذين لا يلاحظونها. وما أن عرفت اسمهما حتى عرفت بالضبط غنة صوتهما المبهمة لأنني عدت أرى وجههما السابق الذي كان يحدّدها. وقال لي «ايمي»: «إنهما يغيان الزواج وهما حتى لا يعرفان الانكليزية!»، وما كان يفكر أنني قليل الاطلاع على المهنة الفندقية ولا أفهم تماماً أنه لا يمكنك الاعتماد على مركز عمل إن كنت لا تعرف اللغات الأجنبية. أمّا أنا الذي ظنّ أنه سوف يعرف بسهولة أن «المتعشي» الجديد هو السيد «دوشارلوس»، بل تصوّر أنه لابدّ سيتذكّره إذ قام على خدمته في قاعة الطعام حينما جاء البارون في أثناء اقامتي الأولى في «البليك» لزيارة السيدة «دوفيلارييس»، فقد ذكرت له اسمه، ولكن «ايمي» ما كان يتذكّر البارون «دوشارلوس»، وليس ذلك فحسب بل بدا أن الاسم يخلف لديه انطباعاً عميقاً. وقال لي إنّه سوف يبحث في الغد بين أغراضه عن رسالة ربّما استطعت أن أفسرها له. وقد زاد من دهشتي أنّ السيد «دوشارلوس» حينما شاء أن يعطيني كتاباً لـ «بيرغوث» في السنة الأولى في «البليك» كان بعث بشكل خاص في طلب «ايمي» الذي لابدّ أنه عاد فلقيه في مطعم باريس ذاك الذي تناولت فيه طعام الغداء بصحبة «سان لو» وعشيقته حيث جاء السيد «دوشارلوس» يتجسّس علينا. صحيح أن «ايمي» لم يستطع القيام شخصياً بهاتين المهمتين إذ كان مرة في سريره وفي الثانية في أثناء خدمته. على أنني كانت تساورني شكوك كبيرة حول صدقه حين كان يزعم أنه لا يعرف السيد «دوشارلوس». فلا بدّ من جهة أنه كان يناسب البارون. فإن «ايمي»، كما هي حال سائر المشرفين على الأدوار في فندق «البليك»، وكما هي حال عدّة خدّام لدى الأمير «دوغيرمانت» كان ينتمي إلى سلالة أكثر عراقاً من سلالة الأمير وبالتالي أوفر نبلاً. وحينما كنت تطلب صالة كنت نظنّ باديء الأمر أنك وحيد. ولكن سرعان ما كنت تلمح في غرفة الخدمة رئيس خدم منحوت البنية، من ذلك النوع الايتروسكيّ الأصهب الذي كان «ايمي» نموذجيه، وقد شاخ قليلاً جرّاء إفراط

«الشمبانيا» وهو يرى اقتراب الساعة التي لابدّ منها للانصراف إلى مياه «كونتركسيفيل»<sup>(١)</sup> وما كان سائر النزلاء يطلبون أن يبادر إلى تقديم الطعام لهم فحسب. أما المستخدمون الذين كانوا صغاراً دقيقين معجلين تنتظرهم عشيقه في المدينة فكانوا يتهريرون. وكان «ايمي» يأخذ عليهم لذلك أنهم غير جدّيين. وكان له الحقّ في ذلك، فقد كان جدّياً هو، وكانت له زوجة وأبناء، وطموح في سبيلهم. وما كان يرفض والحالة هذه محاولات التقرب التي تجيئه من غريبة أو غريب وإن انبغى المكوث طوال الليل. فالحمل يحلّ قبل أي شيء آخر. كان إلى حدّ بعيد من النمط الذي يمكن أن يروق السيّد «دوشارلوس» حتّى شككت أنّه يكذب حينما قال لي إنّّه لا يعرفه. وكنت مخطئاً. فقد كان الساعي نقل بمتهنى الصدق إلى البارون أنّ «ايمي» (الذي مرّ إليه صابونة في الغد) كان في سريره (أو هو خرج) وفي المرّة الثانية أنّه قائم على الخدمة. ولكنّ الخيال يفترض ما هو أبعد من الواقع. ويحتمل أن يكون ارتباك الساعي قد أثار في صدر السيّد «دوشارلوس» شكوكاً حول صدق أعداره جرحت لديه مشاعر ما كان «ايمي» يرتاب بوجودها. كذلك رأينا أن «سان لو» كان قد منع «ايمي» من الذهاب إلى العربة التي أصيب السيّد «دوشارلوس» فيها، وكان حصل، ولا أعرف كيف، على العنوان الجديد لرئيس الخدم، بخيبة أمل ثانية. وأحسّ «ايمي» الذي لم ينتبه للأمر بدهشة يمكن أن تتصوّرّها حينما تسلّم في ذات مساء اليوم الذي تناولت فيه طعام الغداء برفقة «سان لو» وعشيّقته رسالة مختومة بخاتم يحمل شعار آل «غيرمانت» وسوف أذكر منها هنا بعض مقاطع مثلاً على الجنون الأحاديّ الطرف لدى رجل ذكيّ يخاطب معتوهاً سليم الحسّ. «لم أفلح ياسيّد، على الرغم من جهود ربّما أدهشت الكثيرين بمن يحاولون عبثاً أن استقبلهم وأسلم عليهم، في التوصل إلى أن تصغي إلى بعض إيضاحات لم تكن تطالبني بها ولكنّي ظننت من كرامتي وكرامتك أن أقدمها لك. سوف أخطّ هنا إذن ما لعلّه كان من الأسر أن أقوله لك مشافهة. ولن أخفيك أن وجهك بدا لي صراحة في أول مرّة رأيته فيها في «البليك» منفراً». ويعقب ذلك خواطر حول الشبه - الذي لوحظ في اليوم الثاني فقط - بصديق متوفّي كان يكنّ له السيّد «دوشارلوس» مودة عظيمة. «حينذاك وافتنني للحظة فكرة أنّك ربّما استطعت، دون أن تترك عملك البتّة، أن تجيء وتوهمني بأنّه لم يمت وذلك بالقيام معي بلعبات الورق التي كان مرحة يفلح بها في تبديد كآبتي. وآياً تكن طبيعة الافتراضات الحمقاء إلى حدّ ما التي أرجّح أنّك قمت بها وهي أقرب إلى فكر الخادم (الذي لا يستحقّ حتّى هذا الاسم بما أنّه رفض أن يخدم) من إدراك شعور بذاك السموّ، فالمرجّح أنّك ظننت أنّك تضيفي أهميّة على نفسك متجاهلاً من أنا وما أنا عليه حين تبعث من يجيبني، إذ كنت أرسلت إليك في طلب كتاب، أنّك تنام في سريرك. ولكنّنا من الخطأ الظنّ بأنّ أسلوباً سيّئاً يزيد في يوم من ظرف أنت على أي حال خلو منه تماماً. وكنت توقّفت عند هذا الحدّ لو لم يتفق لي مصافدة أن أتحدّث إليك في صباح الغد. وقد تزايد الشبه بينك وبين صديقي المسكين، ممّا أزال حتّى شكل ذقنك البارز الذي لا يطاق، إلى حدّ أدركت معه أن المتوفّي هو الذي كان يمدّك في تلك الفترة بمظهره الطيّب كي يمكنك من لمّ شتات نفسي والحؤول دون أن تفوتك الفرصة الفريدة التي تسنح لك. ولعلّي كنت سعدت بالفعل أشدّ السعادة، مع أنني لا أريد أن أخلط في كلّ ذلك مسائل مصلحيّة فظة بما أن كلّ ذلك لم يعد ذا موضوع، بأن أنصاع لرجاء الميت (لأنّي اعتقد

(١) مياه معدنية معروفة في فرنسه.

بشراكة القديسين وابتغائهم التدخل في مصير الأحياء، أن أتصرف معك تصرفي معه هو الذي كان يملك عريته وخدمه والذي كان من الطبيعي أن أكرس له القسم الأعظم من دخلي بما أنني كنت أحبه كابني لي. وقد قررت خلاف ذلك. فقد أرسلت تجيب طلبي إليك بأن تحمل إليّ كتاباً أنك مضطر للخروج. وحينما طلبت منك المجيء هذا الصباح إلى عريتي انكرتني للمرة الثالثة إن وسعني التحدث على هذا النحو دون تدنيس للمقدسات. أرجو أن تعذرني أن لا أضع في هذا الملف الإكراميات الكبيرة التي كنت اعتزم إعطائك إياها في «بالبيك» والتي كان يشق عليّ الاكتفاء بها إزاء شخص ظننت حيناً مشاطرة كل شيء. ولعلك تستطيع على الأكثر تجنيبي القيام لديك وفي مطعمك بمحاولة رابعة غير مجدية لن يبلغ اصطباري حدودها. (وهنا كان السيد «دوشارلوس» يدلي بعنوانه ويحدد الساعات التي يجدونه فيها، الخ..). الوداع ياسيد. واذ اعتقد أنك لا يمكن أن تكون، وأنت تشبه إلى هذا الحد الصديق الذي فقدته، غيباً تماماً وإلا لكان علم الفراسة علماً كاذباً فأنني متيقن أنك إن فكرت ثانية بهذه الحادثة ذات يوم قلن يتم ذلك دون بعض الأسف وشيء من الندم. أما فيما يخصني، فتق أني بكل صدق لا أحمل منها أية مرارة. لعلني كنت فضلت أن نفرق عند ذكرى أقل سوءاً من ذاك المسعى الثالث اللامجدي. وسوف ننساها بسرعة فإننا شبه تلك السفن التي لا بد أنك شاهدتها أحياناً من «بالبيك» وتلاقت حيناً؛ وربما كان لكلتيهما منفعة في التوقف، ولكن إحداها ارتأت غير ذلك. وعمّا قليل لن يتسنى لأي منهما من بعد حتى أن ترى الأخرى في الأفق ويمحي اللقاء. ولكن كل واحدة منهما تحيي الأخرى قبل هذا الفراق النهائي. ذاك مايفعله هنا ياسيد البارون «دوشارلوس» وهو يتمنى لك حظاً سعيداً.

لم يكن «ايبيه» حتى قرأ تلك الرسالة إلى نهايتها إذ هو لا يدرك فيها شيئاً ويخشى من خدعة ما. وحينما أوضحت له من يكون البارون بدا حالماً بعض الشيء وأحسّ بذاك الأسف الذي توقعه له السيد «دوشارلوس». ولست حتى أقسم أن لا يكون كتب حينذاك يعتذر إلى رجل كان يعطي عربات لأصدقائه. ولكن السيد «دوشارلوس» كان تعرف في تلك الأثناء إلى «موريل». وكان السيد «دوشارلوس» يبحث في الأكثر بين حين وآخر، إذ ربما كانت علاقاته بهذا الأخير أفلاطونية، عن رقعة لمساء واحد كتلك التي التقيته معها منذ قليل في البهو. لكنه ما كان يستطيع من بعد أن يصرف عن «موريل» العاطفة العنيفة التي كان غاية مطلبها، يوم هي حرة قبل بضع سنوات، الالتصاق بـ «ايبيه» وقد أملت الرسالة التي كنت أشعر بالضيق بشأنها إزاء السيد «دوشارلوس» والتي سبق أن أراني إياها رئيس الخدم. وكانت بسبب الحب المخالف للنظام الاجتماعي الذي يمثلته حب السيد «دوشارلوس» مثلاً أكثر جلاءً على القوة غير المحسوسة والشديدة التي لتيارات الهوى تلك التي سرعان ما يغيب منظر الأرض جرائها عن عين العاشق كما هي حال السباح الذي تجرفه دون أن يلاحظ ذلك. وليس من شك أن حب الرجل الطبيعي يستطيع بدوره، حينما يبنى العاشق بالاستنباط المتلاحق لرغباته وصنوف أسفه وخيبات أمله ومشروعاته رواية كاملة حول امرأة لا يعرفها، أن يمكن من قياس تباعد هام إلى حد ما بين ساقي فرجار. وكان مثل ذلك التباعد مع ذلك يزداد اتساعه على نحو فريد من جراء طابع عشق ليس متبادلاً بعامة ومن جراء اختلاف الأوضاع الاجتماعية لكل من السيد «دوشارلوس» و«ايبيه».

كنت كل يوم أخرج برفقة «ألبيرتين». وكانت اعتزمت العودة إلى الرسم واختارت باديء الأمر بقصد



العمل كنيسة «سان جان دو لاهيز» التي لم يعد أحد يتردد عليها وهي معروفة لدى القلة القليلة ويصعب الاستدلال عليها، يستحيل اكتشافها دون دليل ويطول المسرى إليها في عزلتها وهي على أكثر من نصف ساعة من محطة «ايرفيل» بعدما تكون جاوزت منذ فترة طويلة آخر منازل قرية «كيت هولم». لم ألقَ توافقاً بخصوص اسم «ايرفيل» بين كتاب الكاهن ومعلومات «بريشو». فقد كانت «ايرفيل» حسب أحدهما «سهرشيل» القديمة، أما الآخر فكان يشير إلى «أبريشيل» بمثابة أصل لها. وفي المرة الأولى أخذنا القطار الصغير في الاتجاه المعاكس لـ «فيتيرن»، أي باتجاه «غرانفاست». ولكن الوقت كان قائظاً وسبق أن كان الانطلاق بعد الغداء مباشرة أمراً مريعاً. ولعلي كنت فضلت أن لا أخرج في وقت مبكر إلى هذا الحد، وكان الهواء المشرق الحارق يوقظ أفكاراً كلها حمول واسترطاب. وكان يملأ غرفتي، وأنا وأمي، حسب اتجاههما، وبدرجات حرارة غير متساوية وكأنما هي غرف استشفاء بالحمّات. وكانت حجرة ملابس والدتي التي تفرّض الشمس حواشيها، وهي من بياض ساطع مغربي، تبدو كأنما تغوص في قعر بئر بسبب جدران الجصّ الأربعة التي تطلّ عليها فيما السماء في أعلى مكان وفي المربع الذي ترك فارغاً، السماء التي كنت تشهد أمواجها الطرية المتناضرة تنزل بعضها فوق بعض، تبدو (بسبب الرغبة التي بك) كأنها حوض سباحة واقع فوق سطح (أو يشاهد بالمقلوب في مرآة عُلقت بالنافذة) وقد امتلأ مياهاً زرقاء مخصّصة للاغتسال. وعلى الرغم من تلك الحرارة الخانقة بادرنّا إلى ركوب قطار الساعة الواحدة. ولكنّ «ألبيرتين» عانت من الحرّ الشديد في عربة القطار وعانت أكثر من ذلك أثناء سيرها الطويل وخشيت أن يصيبها البرد وقد لبثت بعد ذلك لا حراك بها في هذا التجويف الرطب الذي لا تبلغه الشمس. ثمّ إنّي لما تبينّت منذ زيارتنا الأولى لـ «ايلستير» أنها ربّما لم تتوقّف عند حبّ البدخ بل هي تتجاوزه إلى شيء من الرفاهة يحول دونه افتقارها إلى المال، فقد اتفقت مع مؤجّر في «بالبيك» كي تجيء في كل يوم عربة لنقلنا، وكنا نسلك طريق غابة «شاتبي» لنقل من معاناة الحرّ. وإن احتجاب الطيور التي لا تحصى، وبعضها نصف بحرية، والتي كانت تتنادى إلى جانبنا في الأشجار، كان يخلف فيك ذات الانطباع بالراحة الذي تحسّ به مغمض العينين. وكنت أصغي إلى تلك الحوريات البحرية إلى جانب «ألبيرتين» وقد كبّلتني ذراعها في أقصى العربة. وحينما كنت ألح مصادفة أحد أولئك الموسيقيين يمرّ من ورقة تحت أخرى ثانية كانت العلاقة الظاهرة بينه وبين أنغامه سيرة إلى حدّ أنني ما كنت أظنّني ألقى سبب هذه في الجسم الصغير المتقافز الوضع المستغرب الذي لانظر له. وما كان بإمكان العربة المضني بنا حتّى الكنيسة، فكنت أطلب إيقافها لدى مغادرة «كيت هولم» وأستودع «ألبيرتين» ذلك أنها أفزعنتني وهي تقول لي عن هذه الكنيسة، كشأنها عن أوابد أخرى وعن بعض اللوحات: «آية متعة أصيبها أن أزور كل ذلك برفقتك!» فما كنت أحسنّي قادراً على توفير تلك المتعة، ولا يداخطني إحساس ذلك أمام الأشياء الجميلة إلا إذا كنت وحيداً أو تظاهرت بأنّي كذلك وصمت. ولكن بما أنها ظنّت أنها قادرة بفضلّي أنا على الشعور بأحاسيس فنية لا تبثّ على هذا النحو فقد رأيت قسطاً أوفر من الحذر في قولّي لها إنّي مفارقها وسوف آتي لاصطحابها آخر النهار، ولكنّما ينبغي لي حتّى ذلك أن اعود بالعربة لأقوم بزيارة للسيدة «فيردوران» أو لأسرة «دوكامبرمير» أو حتّى لقضاء ساعة مع والدتي في «بالبيك»، ولا أذهب أبعد من ذلك البتّة، في البداية على الأقل. ذلك أن «ألبيرتين» قالت لي ذات مرّة تدفعها نزوة عابرة: «مزعج أن تكون الطبيعة أساءت إلى هذا الحدّ

في صنع الأمور فجعلت «سان جان دولاهيز» في جانب و«لاسيلير» في جانب آخر وأن تظلّ النهار بطوله سجين المكان الذي اخترته، وما أن تسلمت القلنسوة والثوب الرقيق حتى أوصيت لسوء حظي على سيرة في «سان فارجو» (سانكتوس فيريولوس - Sanctus Ferréolus - حسبما ورد في كتاب الكاهن). ودهشت «ألبيرتين» التي جاءت لتصبحني، وكنت تركتها في جهل عمّا يجري، دهشت إذ سمعت أمام الفندق أزيز المحرك واغتنبت حين علمت أن تلك السيارة لنا. وأصعدتها حيناً إلى غرفتي. كانت تقفز فرحاً. «سنقوم بزيارة لآل فيردوران؟» - «أجل، ولكن خير لك أن لا تمضي إلى هناك بهذا اللباس بما أنك ستحصلين على سيارتك. خذي، ستكونين هكذا أفضل». وأخرجت القلنسوة والثوب الرقيق وكنت خبأتها. فصاحت وهي تطوّق عنقي: «أهذا لي؟ أه: كم أنت لطيف! وإذا التقانا «ايميه» على الدرج ودخله الاعتزاز لأناقة «ألبيرتين» وواسطة النقل التي حزننا، لأن أمثال تلك السيارات كانت نادرة في «بالبيك»، فقد وفّر لنفسه متعة النزول خلفنا، ولما كانت «ألبيرتين» راغبة أن يشاهدها الناس قليلاً في حلّتها الجديدة فقد طلبت إليّ رفع الغطاء، على أن نرعيه فيما بعد كي نكون أكثر حرية في مكوثنا معاً. وقال «ايميه» للميكانيكي الذي لم يكن يعرفه على أيّ حال والذي لم يبرح مكانه: «هيا، ألا تسمع أنهم يقولون لك أن ترفع الغطاء؟ ذلك أن «ايميه» الذي حركته حياة الفنادق التي حصل فيها بأية حال على مركز مرموق لم يكن يمثل خجل حوزي العربية الذي كانت «فرانسواز» في نظره «سيّدة». وعلى الرغم من غياب التعارف المسبق فقد كان يكلم دونما كلفة أفراد الشعب الذين لم يكن العقاهم في يوم، دون أن يتضح تماماً إن كان الأمر من جانبه استخفافاً ارستقراطياً أم تأخياً شعبياً. وأجاب السائق الذي ما كان يعرفني: «لست خالي الارتباط، وقد أوصى عليّ لصالح الأنسة «سيمونية»، ولا استطيع اصطحاب السيّد. وحقه «ايميه» قائلاً في ردّه على الميكانيكي، وقد أقنعه في الحال: «ويحك أيها الأهل الكبير، هذه بالضبط الأنسة «سيمونية» والسيّد الذي بأمرك برفع الغطاء هو بالضبط معلّمك». ولما كان «ايميه» فخوراً بسببي باللباس الذي كانت «ألبيرتين» ترتديه، مع أنّه لا يكن شخصياً آية مودة لها، فقد همس في أذن السائق: «لو أمكنك لاصطبحت كلّ يوم، هيه، أميرات من هذا القبيل» في هذه المرّة الأولى لم أكن أنا الوحيد من استطاع الذهاب إلى «لاراسيلير» مثلما فعلت في أيام أخرى أثناء ما ترسم «ألبيرتين»، فقد أرادت المجيء إليها برفقتي. صحيح أنّها كانت تعتقد أنّ بوسعنا التوقّف ههنا وهناك في طريقنا، ولكنّها ترى من المستحيل أن نبدأ بالذهاب إلى «سان جان دولاهيز»، يعني في اتجاه آخر، وأن نقوم بنزهة يبدو أنّها مكرّمة ليوم آخر. ولكنّها علمت من الميكانيكي خلافاً لذلك أن ليس ما كان أسهل من الذهاب إلى «سان جان» حيث يصل في عشرين دقيقة وأنّه يمكننا المكوث فيها إن أردنا بضع ساعات أو المضي إلى أبعد من ذلك لأنّه لن يستغرقه من «كيتھولم» إلى «لاراسيلير» أكثر من خمس وثلاثين دقيقة. وأدركنا ذلك حالما اجتازت السيارة في انقضاضها عشرين خطوة لجواد ممتاز دفعة واحدة. فليست المسافات سوى نسبة المدى إلى الزمن وهي تختلف باختلافها. وإننا نعبر عن الصعوبة التي نصادفها في الذهاب إلى مكان ما بمنظومة من الفراسخ والكيلو مترات تصبح مغلوطة ما إن تتناقص هذه الصعوبة. حتّى الفنّ يتبدّل بذلك، فإنّ قرية كانت تبدو في عالم غير عالم قرية أخرى تضحي جارتها ضمن منظر تغيّرت أبعاده. ومهما يكن من أمر فعلاً سماعك بإمكان وجود عالم يساوي فيه ٢ و ٢ = ٥ ولا يكون فيه الخطّ المستقيم أقصر طريق

بين نقطة وأخرى كان أقلّ ادهاشاً لـ«البيرتين» من سماع الميكانيكي يقول لها إنه من السهل الذهاب في العصر نفسه إلى «سان جان» و«لاراسيلير». فقد أقبلت «دوفيل» و«كيت هولم» و«سان مارس لوفيو» و«سان مارس لوفيتو»، و«غورفيل» و«البليك لوفيو»، و«تورفيل» و«فيتيرن»، وهي سجينة احتبست بأحكام حتى ذلك في زنزانة الأيام المختلفة شأنها شأن «ميزيكليز» و«غيرمانت» بالأمس، ولا تستطيع العيون نفسها أن تخطّ عليها في عصر يوم واحد، فإذا هي تحرّرت الآن على يد العملاق الذي حذاؤه سبعة فراسخ، أقبلت تجمع حول ساعة عصر ونيّتا قباب أجراسها وأبراجها وحدائقها التي يسارع الحرج المجاور إلى الكشف عنها.

بعدما وصلت السيّارة إلى أسفل الطريق الشاطئيّ صعدت دفعة واحدة بضجيج متّصل كأنما سكين تُشخّذ، فيما البحر الذي هبط يتّسع من تحتنا. وتراكضت بيوت «مونسورفان» القديمة الريفيّة وهي تشدّ إلى صدرها كرمتها أو شجيرة ورودها. وجرى صنوبر «لاراسيلير» وهو أكثر اضطراباً منه حين تهبّ ريح المساء، جرى في كل صوب ليتجنّبنا، وأقبل خادم جديد لم يسبق أن رأيته البتّة ليفتح لنا الأبواب في مطلع الدرج فيما كان ابن البستاني يتلع بعينه موضع الحرك كاشفاً بذلك عن استعدادات مبكرة. وما كنّا نعلم، واليوم ليس يوم اثنين، إن كنا سنلقى السيّدة «فيردوران»، فإنّه باستثناء ذلك اليوم الذي تستقبل فيه لم يكن من الحكمة أن تذهب لزيارتها مبالغاً. ليس من شكّ أنّها كانت تمكث في منزلها «مبدئيّاً»، ولكن هذا التعبير الذي كانت السيّدة «سوان» تستخدمه في الزمن الذي كانت تحاول فيه هي الأخرى تأليف عشيرتها الصغيرة واجتذاب الزبائن وذلك بأن لا ترح مكانها وإن بلغ بها في الغالب أن لا تحصل على نتيجة ما بذلت من جهد، وكانت تترجمه خطأً بعبارة «التزاماً بالمبدأ»، إنّما كان يعني فقط «بصورة عامّة»، أي باستثناءات كثيرة. فلم تكن السيّدة «فيردوران» تحبّ الخروج فحسب، بل كانت تبلغ بالتزامات المضيفة حدّاً بعيداً، فقد كان البرنامج يتضمّن، إن اتفق لها أن استقبلت جماعة على الغداء، فور تناول القهوة والمشروبات الهاضمة ولفائف التبغ (وعلى الرغم من الاسترخاء الأولي ولبد الحرّ والهضم والذي لعلك فضّلت فيه مشاهدة باخرة «جيرسيه» من خلال خضرة الأغصان في الشرفة، تنزل فوق بريق مينا البحر) سلسلة من النزّهات كان المدعوّون في اثناها يحملون رغماً عنهم، بعدما أجلسوا عنوة في العربة، إلى هذا المطلق أو ذاك، وهي كثيرة جداً حول «دوفيل». ولم يكن هذا القسم الثاني من الاحتفال (بعد ما بذلت جهدك في النهوض والصعود إلى العربة) لم يكن القسم الذي يسرّ المدعوّين أقلّ ما يسرهم وقد أعدّوا نفسياً جرّاء الأطباق اللذيذة أو الخمر النقيسة أو شراب التفاح الفوّار كي يستسلموا بيسر للنشوة المنبعثة من نقاوة الأنسام وروعة المناظر. وكانت السيّدة «فيردوران» تنظّم زيارة تلك المواقع للغرباء كما لو كانت أماكن (قرية أو بعيدة) ملحقة بأملّاكها ولا يمكنك الامتناع عن الذهاب لزيارتها ما دمت تأتي لتناول الغداء في منزلها، وما كنت بالمقابل لتعرفها لو لم يرحّب بك في منزل المعلّمة. وما كان عزمها على الاستئثار بحقّ تنفرد به على النزّهات كما على عزف «موريل»، وعزف «دوشامبر» بالأمس، وإلزام المناظر بأن تؤلف جزءاً من العشيرة الصغيرة، ما كان على آية حال بمثل ما يبدو عليه من استحالة للوهلة الأولى. فقد كانت السيّدة «فيردوران» تسخر من غياب الذوق الذي يبيده، حسب رأيها، آل «كامبرير» لا في تأنيث «لاراسيلير» وترتيب الحديقة فحسب، بل في النزّهات التي يقومون بها أو يدعون إليها في الجوار. ومثلما ترى أن «لاراسيلير» مبادئ تضحي ما كان ينبغي أن نكون عليه إلا منذ أصبحت

منتجعاً للعشيرة الصغيرة، كذلك كانت تؤكد أنّ آل «كامبرير» كانوا يسكنون المنطقة بصورة دائمة ولكنهم لا يعرفونها إذ هم يقطعون على الدوام بعريتهم وعلى طول السكة الحديدية على شاطئ البحر الطريق الشنيعة الوحيدة الكائنة في المناطق المحيطة. وكان في ذلك الادعاء شيء من الصحة. فلم يكن آل «كامبرير» يغادرون منزلهم إلا ليمضوا دوماً إلى الأماكن نفسها وفي الدروب نفسها، بداعي الروتين أو غياب الخيال أو اللافضول إزاء منطقة تبدو مطروقة لأنها قريبة جداً. كانوا يسخرون بالتأكيد من ادعاء آل «فيردوران» بأنهم يعلمونهم منطقتهم. ولكنهم لو أخرجوا لعجزوا هم وحتى حوزيهم عن اصطحابنا إلى الأماكن الرائعة الخفية بعض الشيء التي يأخذنا إليها السيد «فيردوران» فيرفع هنا حاجز ملك خاص ولكنه مهجور وما كان غيره يظن بوسعه أن يغامر في الدخول إليه، وهناك ينزل من العربة ليسير في درب لم يكن صالِحاً لسير العربات، ولكننا كل ذلك تصحبه المكافأة الأكيدة المتمثلة في مشهد ساحر. ولنقل على أي حال أن حديقة «لاراسيلير» كانت تختصر نوعاً ما كلّ الزهات التي يمكن القيام بها على مسافة كيلو مترات كثيرة في المنطقة المحيطة. أولاً بسبب موقعها المشرف الذي يطلّ من جهة على الوادي ومن الأخرى على البحر، ثم لأنّ ثمة، حتى من جهة واحدة، جهة البحر على سبيل المثال، فرجات كانت شقت وسط الأشجار حتى لتشهد من هنا هذا الأفق ومن هناك ذاك الآخر. وكان في كلّ من تلك المطلّات مقعد، وكانوا يقبلون للجلوس بالتناوب على هذا الذي تكشف منه «باليك» أو «بارفيل» أو «دوفيل». وكانوا قد وضعوا حتى في الاتجاه نفسه مقعداً يقرب أن يكون عمودياً على الجرف أو متراجعا عنه قليلاً. كان لديك من هذين المقعدين طليعة أولى من الخضرة وأفق يبدو مدّ ذلك أوسع ما يكون ولكنه كان يتعاضد إلى مالا نهاية إن واليت السير على درب صغير فمضيت حتى المقعد التالي حيث يحيط النظر بكامل دائرة البحر. من هنا كنت تسمع ضجّة الأمواج التي ما كانت تصل بعكس ذلك إلى الأقسام الأكثر إغلافاً في الحديقة حيث لا يزال الموج ماثلاً للعيان ولكنك لا تسمعه. كانت أماكن الاستراحة هذه تحمل بالنسبة إلى صاحبي المنزل في «لاراسيلير» اسم «المطلّات». ولقد كانت بالفعل تجمع حول القصر أجمل المطلّات على المناطق المجاورة أو الشواطئ أو الغابات، وتشاهد مقفصة جداً جرّاء البعد، مثلما سبق أن جمع «هدريانوس» في دارته مجسمات مصغرة عن الأبنية الأثرية الأوفر شهرة في مختلف المناطق. أما الاسم الذي كان يعقب كلمة «المطلّ» فلم يكن اضطراراً اسم مكان على الشاطئ، بل في الغالب على الضفة المقابلة من الخليج وكنت تكتشفها وقد حافظت على شيء من التضاريس على الرغم من اتساع المنظر الشامل. ومثلما كنت تأخذ مجلداً في مكتبة السيد «فيردوران» لثمضي إلى ساعة قراءة في «مطلّ باليك» كذلك كنت تمضي، إن كان الوقت صحواً، لتناول مشروبات مقبلة في «مطلّ ريفيل»، ولكن بشرط أن لا تكون الرياح قويّة جداً إذ كان الهواء هناك قارساً على الرغم من الأشجار التي زرعت على كلّ جانب. نعود الآن إلى الزهات التي كانت السيدة «فيردوران» تنظّمها في العربات بعد الظهر، فقد كانت المعلمة تتظاهر أنها في قمة السعادة إن وجدت لدى عودتها بطاقات أحد أرباب المجتمعات «لدى مروره العابر على الشاطئ»، ولكنها كانت مغتمة لما فاتتها زيارته فكانت تسارع (مع أنّهم لا يجيئون بعد إلا لمشاهدة «البيت» أو التعرّف يوماً واحداً على امرأة صاحبة منتدى فني شهير ولكننا يصعب ارتياده في باريس) إلى دعوته على يد السيد «فيردوران» للمجيء لتناول طعام العشاء يوم الأربعاء القابل. ولما كان السائح مضطراً في

الغالب إلى العودة قبل ذلك أو هو يخشى العودة متأخراً فقد كانت السيِّدة «فيردوران» قد وافقت على أنهم سيلقونها نهار السبت دوماً ساعة العصر ونِّية. ولم تكن حفلات العصورنية تلك كثيرة وسبق أن عرفت في باريس ما كان أكثر روعة في منزل الأميرة «دوغيرمانت» وفي منزل السيِّدة «دوغاليفيه» أو السيِّدة «داراجون». ولكنَّما المكان هنا ليس بالطبع باريس من بعد وإن سحر المحيط لم يكن يؤثّر في نظري في محض بهجة اللقاء، بل في نوعيّة الزّوّار. فإنّ التّقاء رجل مجتمعات، وما كان ليورثني في باريس أيّ متعة ولكنّه في «لاراسيلير» التي جاءها من بعيد مروراً بـ«فيتيرن» أو بغاية «شانتيي»، يتغيّر طابعاً وأهميّة، كان يضحي حدثاً ممتعاً. وكان أحياناً واحداً أعرفه تمام المعرفة وما كنت لأقوم بخطوة واحدة للقاءه في منزل آل «سوان». بيد أن اسمه كان له رنة مختلفة فوق هذا الجرف، كما هو اسم ممثّل تسمعه كثيراً في المسرح وقد طُبِعَ بلون آخر في الاعلان المخصّص لحفلة تمثيلية استثنائية واحتفالية تتعاضد فيه شهرته فجأة من جرّاء السياق اللامتوقّع. ولما كان الناس في الأرياف لا يقيّدون أنفسهم فإنّ رجل المجتمعات كان يأخذ على عاتقه في الغالب اصطحاب الأصدقاء الذين يقطن عندهم مؤكداً بصوت خافت للسيِّدة «فيردوران» على سبيل الاعتذار أنّه لا يستطيع التخلّي عنهم وهو يسكن في بيتهم، فيما يتظاهر في المقابل بأنّه يوفر لهؤلاء المضيفين نوعاً من الجمالة في اطلاعهم على هذا النوع من التسلية في حياة الشاطئ الرتيبة، تسلية قوامها الذهاب إلى وسط يتسم بالطرافة وزيارة مسكن رائع والحصول على عصورنية ممتازة. وكان ذلك يؤلف في الحال اجتماعاً لبضعة أشخاص متوسطي القيمة. ولئن اكتست حديقة صغيرة جداً تؤلفها بضع شجرات، وربّما بدت غير ذات بال في الريف، سحرأ فريداً في شارع «غبريل» أو شارع «دومونسو» حيث يتيسر لأصحاب الملايين الكثيرة فحسب أن يقتنوها، فإن سادة هم بالعكس من النسق الثاني في أمسية باريسيّة كانوا يكتسبون كامل قيمتهم عصر الاثنين في «لاراسيلير». فما إن يجلس هؤلاء المدعوون حول الطاولة التي يغطيها سباط مطرّز بالأحمر ويقدم لهم عليها تحت الفرجات المتدرّجة اللون الكعك والحلوى النورمانديّة المورّقة وفطائر على شكل قوارب مملوءة بكرز كأنّه در مرجانيّ وحلوى البودينغ حتّى يطرا عليهم جرّاء الاقتراب من الكوب اللازوردي العميق الذي تفتتح عليه النوافذ ولاسبيل لرؤيته إلّا وإياهم، تغيّر وتحوّل عميق كان يقلبهم شيئاً أكثر نفاسة. ثم إن القوم، حينما يجيئون يوم الاثنين إلى منزل السيِّدة «فيردوران»، ولم تكن لهم في باريس سوى نظرات أتعبتها العادة يلقونها على العربات الأنيقة المتوقّفة أمام أحد الفنادق الفخمة، كانوا حتّى قبلما يرونها يحسّون قلوبهم تخفق لدى رؤية النجّادتين أو الثلاث المهلهلة المتوقّفة أمام «لاراسيلير» تحت الصنوبرات الكبيرة، وما ذلك دونما شكّ إلّا لأنّ الاطار الريفي كان مختلفاً وأن الانطباعات المجتمعية كانت تعود فتصبح أكثر جدّة بفضل هذا الانتقال. وكذلك لأنّ العربة المهلهلة التي يستقلونها للذهاب لزيارة السيِّدة «فيردوران» كانت تذكّر بنزهة جميلة «وسعر مقطوع» مكلف أثق عليه مع حوذيّ سبق أن طلب «هذا القدر» في اليوم. لكنّما الفضول المشوب بشيء من الانفعال إزاء الوافدين، ويستحيل بعد تمييزهم، كان ناجماً كذلك عن أنّ كلاً كان يتساءل: «من يكون هذا؟» والسؤال كان يصعب الاجابة عنه، إذ لا تعلم من أمكن أن يجيء لقضاء ثمانية أيّام لدى أسرة «كامبرير» أو في مكان آخر، ويحبّ المرء أن يطرحه على ذاته في مناطق العيش الريفي المتعزل حيث يكفّ التّقاء شخص لم نره منذ فترة طويلة، أو التعريف بشخص لا نعرفه، عن كونه ذاك الأمر المملّ الذي يشكّله في حياة باريس ويقطع

بصورة تلذكَّ جوَّ الفراغ في الحيوانات المفردة في عزلتها التي تضحي فيها ساعة البريد ذاتها بمتعة. وفي اليوم الذي جئنا فيه بالسيارة إلى «لارمبليير» لابدَّ أن السيد والسيدة «فيردوران»، إذ لم يكن يوم الاثنين، كانا نهب تلك الحاجة إلى التقاء الناس التي تقلق الرجال والنساء وتبعث في نفس المريض الذي حَجَّرَ عليه بعيداً عن ذويه من أجل استشفاء بالعزلة الرغبة في القاء نفسه من النافذة. ذلك لأن الخادم الجديد ذي القدمين الأوفر سرعة والذي اتلف تلك التعابير إذ أجاب أن «السيدة إن لم تكن خرجت فلا بدَّ أنها» في مَطْلٍ «دوفيل» وأنه ماض ليرى، فقد عاد في الحال يقول لنا إنها ستستقبلنا. ووجدناها مشعَّة الشعر قليلاً إذ كانت تعود من الحديقة وخمَّ الدجاج والمبقلة حيث ذهبت لتطعم طواويسها ودجاجتها وتجلب البيض وتقطف الفاكهة والزهور «لتعدَّ دربها الزخرفي فوق الطاولة»، درياً يذكر بصورة مصغرة بدرب الحديقة، بيد أنه كان يوكر على الطاولة هذه العلامة المميزة بأنه لا يحملها مجرد أشياء مفيدة وصالحة للأكل، فمن حول هبات الحديقة الأخرى التي تؤلفها ثمار الإجاص وبياض البيض المخفوق كانت ترتفع سوق أزاهير الأقمى والقرنفل والورد وزهر البقي، ومن خلالها تبصر، وكأنما بين أوتاد اتجاه مزهرة، تبصر من زجاج النافذة المراكب في أعلى البحر تنتقل الهوى. وأضح لي من الدهشة التي أبداها السيد والسيدة «فيردوران» بتوقفهما عن ترتيب الأزهار لاستقبال الزائرين المعلن عنهما حينما تبين لهما أن هذين الزائرين إن هما إلا أنا و«ألييرتين»، أضح لي أن الخادم الجديد الذي يفيض حماسة ولكنما لم يكن اسمي بعد مألوفاً لديه قد أخطأ في ترداد «السيدة «فيردوران»، إذ تنهى إلى مسمعا اسم ضيفين مجهولين، قد أمرت مع ذلك بادخالهما لما كانت بحاجة للقاء أي شخص كان. أما الخادم الجديد فكان يتأمل هذا المشهد على الباب كي يكون على بينه من الدور الذي ننهض به في البيت. ثم ابتعد جرياً يخطو خطى واسعة إذ لم يكن قد عيَّن إلا البارحة. وعندما أرت «ألييرتين» قلنسوتها ونوبها الرقيق لآل «فيردوران» رمتي بنظرة تذكّرني بها أنه لم يكن أماناً وقت كثير إزاء ماكننا راغبين أن نقوم به. كانت السيدة «فيردوران» تود أن تنتظر العصرية ولكننا رفضنا حينما انكشف فجأة مشروع ربما كان قضى على جميع المتع التي كنت أمني النفس بها من نزهتي بصحبة «ألييرتين»: فالعلمة كانت تريد العودة معنا إذ لم تستطع أن تحمل النفس على فراقنا أو ربما على الافساح لتسليّة جديدة بأن تفوتها. وإذ تعودت منذ فترة طويلة أن لا تحمل عروض من هذا القبيل من جانبها أية مسرة ولم تكن على الأرجح متيقنة أن هذا العرض سوف يولينا سروراً فقد أخفت تحت فيض من الثقة بالنفس الخجل الذي تحسّه بتوجيهنا لنا وإذ لم يبد حتى أنها تفترض امكان وجود شك بجوابنا فإنها لم تطرح علينا أي سؤال بل قالت لزوجها وهي تكلمه عن «ألييرتين» وعتي وكأنما تولينا منه: «سوف أعيدهما أنا» وارتسمت في الوقت نفسه على فيها ابتسامة ماكانت تخصّها هي ابتسامة سبق أن رأيتهما لبعض الناس وهم يقولون لـ «بيرغوت» بلهجة رقيقة: «لقد اشتريت كتابك، يا حسنه»، واحدة من تلك الابتسامات الجماعية الكلية التي يستخدمها الأفراد حينما يحتاجون إليها - مثلما يستخدمون السكّة الحديدية وعربات نقل الأثاث - ماعدا بعضاً منهم من أكثرهم رهاقة، من أمثال «سوان» أو السيد «دوشار لوس»، من الذين لم أشاهد يوماً تلك الابتسامة تحطّ على شفاههم. ومنذ ذاك فسدت زيارتي، وتظاهرت بأنني لم أفهم. وأصبح واضحاً بعد هنيهة أن السيد «فيردوران» سيحضر بدوره. فقلت: «ولكن ذلك سيطول بالنسبة الي السيد «فيردوران». وأجابت السيدة «فيردوران» بلهجة المتفضّل المبتهج: «لا، لا، فإنه يقول

إنه سيسرّه كثيراً أن يقطع مع هذه الشبيبة ذلك الطريق الذي ما أكثر ماقطعه فيما مضى. وإن دعت الحاجة جلس إلى جانب السائق فليس يفزع ذلك، ثم نعود كلانا بهدوء في القطار كما يفعل الأزواج المحمودو السيرة. هيّا انظرا، فهو يبدو شديد الاغتياب. كان يبدو وكأنها تتحدث عن رسام كبير عجوز يفيض طيبة بيني مسرته، وهو أكثر شباباً من الشباب، على «خريشة» صور لإضحاك أحفاده. وما كان يزيد من غمي أن كانت «ألبيرتين» تبدو كأنها لا تشاطرنني إياه وتجد متعة في الطواف على هذا النحو مع الزوجين «فيردوران» في كل المنطقة. أما أنا، فإن المتعة التي منيت النفس بأن أصيبها معها كانت ملحة إلى حد أنني لم أشأ أن أفصح للمعلمة في مجال تخريبها. واختلقت أكاذيب كانت تهديدات السيّد «فيردوران» المغيظة تبررها، ولكن «ألبيرتين»، للأسف، كانت تكذبها. فقد قلت: «ولكن علينا أن نقوم بزيارة». فسألت «ألبيرتين»: «آية زيارة؟»

- «سوف أوضح لك، لا بدّ من ذلك». وقالت السيّد «فيردوران» وقد سلّمت بكل شيء: «إذا سوف ننتظر كما». ويعث في نفسي في آخر المطاف قلقي من أن أحسّ سعادة مشتبهة إلى هذا الحدّ تنتزع مني الشجاعة في أن أبدر عديم التهذيب. فرفضت رفضاً قاطعاً وهمست في أذن السيّد «فيردوران» متذرعاً بأنه لا بدّ من بقائي وحيداً مع «ألبيرتين» بسبب غمّ ألم بها وهي راغبة أن تستشيرني حوله. واتخذت المعلمة مظهرًا مغضباً وقالت لي بصوت يهدّجه الغيظ: «حسن، لن نجني». وأحسستها مختالة إلى حد أنني قلت بغية أن أبدر وكأنني أراجع قليلاً: «ولكن ربما كان بوسعنا...». فأردفت تقول متزايدة الحنق: «لا، وحينما أقول لا فأعني لا». وظننتني اختصمت وإياها ولكنها استدعتنا من الباب كي توصينا بأن لا «نخلف الوعد» يوم الأربعاء في الغد وأن لا نحضر بهذا «الشيء» الذي يشكل خطراً في الليل، بل بالقطار مع كامل المجموعة الصغيرة؛ وأمرت بإيقاف السيارة وقد تحركت في ممر الحديقة المتجه نزولاً لأن الخادم الجديد نسي أن يضع في الغطاء قطعة الفطيرة ومزمارات الحلوى التي كانت لفتها لنا. وعدنا تواكبنا فترة قصيرة البيوت الصغيرة التي سارعت إلينا بأزهارها. وبدا لنا شكل المنطقة وقد تغير كلياً لفرط ما يبدو أن مفهوم المكان في الصورة الطبوغرافية التي نكوّن عنها عن كلّ منها بعيد عن أن يكون المفهوم الذي ينهض بالدور الأعظم. وقلنا إن مفهوم الزمان يباعدنا أكثر. ولكنه ليس الوحيد بدوره. فان بعض الأماكن التي نراها على الدوام معزولة تبدو لنا وكأنما تفوق كلّ ما عداها، كأنما هي خارج العالم تقريباً، كمثّل أولئك الناس الذين عرفناهم في فترات منفصلة من حياتنا، في الجيش، في زمن الطفولة، ولا نربط بينها وبين أي شيء آخر. كان ثمّة في السنة الأولى لإقامتي في «بالبيك»، مرتفع تحب السيّد «دوقيلاريزيس» أن تصحبنا إليه إذ كنت لا ترى من هناك سوى الماء والأحراج، وكان يدعى «بومون». وبما أن الطريق الذي كانت تأمر بسلوكه للوصول إليه، وتراه من أجملها بسبب أشجاره العتيقة، كان في صعود مستمر فقد كانت عربتها مضطربة للسير الهوينى فتستغرق وقتاً طويلاً جداً. وما إن تصل إلى فوق حتى كُنّا ننزل وننزله قليلاً ثمّ نستقل العربة ثانية ونعود في الدرب نفسه دون أن نصادف آية قرية وأي قصر. كنت أعرف أن «بومون» شيء غريب جداً، بعيد جداً، عالٍ جداً، ولكننا لا فكرة لديّ البتّة عن الجهة التي يقوم فيها إذ لم أسلك في يوم طريق «بومون» للذهاب إلى مكان آخر، وكُنّا بأيّة حال ننفق وقتاً طويلاً في العربة لبلوغه. كان الموقع بالطبع جزءاً من مقاطعة «بالبيك» نفسها، ولكنه في نظري واقع في مستوى آخر ويتمتع بميزة الأرض الخارجة عن حكم المحيط. ولكن السيارة التي لا تخترم أي سرّ وبعد أن

تجاوزت «أنكرفيل» التي كانت بيوتها مازال تسكن عيني، وإذ كنا نسلك المنحدر المختصر الذي يقضي إلى «بارفيل» وأبصرت البحر من سطح كنا عليه سألت كيف يدعون هذا المكان وتعرفت، حتى قبل أن يجيبني السائق، «بومون» الذي كنت أمر هكذا بجانبه دون أن أعرفه في كل مرة كنت أستقل فيها القطار الصغير، إذ كان على مدى دقيقتين من «بارفيل». وكمثل ضابط في كنيستي كان بدلي كائناً خاصاً، مفرط الطيبة والبساطة كما يكون من أسرته كبيرة، مفرط البعد كثير الأسرار كي يكون فقط من أسرة كبيرة، ثم عرفت أنه صهر أو ابن عم لهؤلاء أو أولئك ممن كنت أتناول طعام عشائي معهم في المدينة، كذلك فقد «بومون» الذي ارتبط فجأة بإمكانة كنت أظنه مختلفاً تمام الاختلاف عنها، فقد سره واتخذ مكانه داخل المنطقة وجعلني أفكر بهلع أن «مدام بوفاري» و«لاصا نيسفيرينا» ربما كانتا بدلتا لي امرأتين شبيهتين بغيرهما لو أنني التقيتهما في غير جو الرواية المغلق. وربما بدا أن عشقي للرحلات التي تفتن الأبواب بالسكك الحديدية كان لابد أن يحول دون مشاطرتي «ألبيرتين» افتتانها أمام السيارة التي تحمل حتى مريضاً إلى حيث يشاء وتحول دون احتساب الموقع كما سبق أن فعلت حتى ذلك - بمثابة العلامة الفردية والجوهر الذي لا بد له للجماليات التي لا تحوّل ولا تنزل. ذلك الموقع دون شك ما كانت السيارة تجعل منه، مثلما السكة الحديدية بالأمس حين جئت من باريس إلى «بالبيك»، هدفاً متحرراً من طوارئ الحياة العادية، يقرب أن يكون مثاليّاً لدى الرحيل ويبدو إذ يلبث على حاله تلك عند الوصول، الوصول إلى هذا المسكن الكبير الذي لا يقطنه أحد ويحمل فحسب اسم المدينة، عينا الخطّة، وكأنه يعد بامكان الوصول إليها كما ربما كانت هي تجسيدا له. لا، لم تكن السيارة تأخذنا على هذا النحو المسحور إلى مدينة كنا نراها بادية الأمر ضمن المجموعة التي يختصرها اسمها وبأوامر المشاهد في القاعة. لقد كانت تدخلنا في كواليس الشوارع وتتوقف لتسأل أحد السكان بعض المعلومات. ولكن لدينا في مايقابل هذا التقدم المألوف إلى هذا الحد تلمّسات السائق الحائر في طريقه والذي يعود خطاه القهقري، وتقاطعات المنظور التي تدفع قصرأ إلى لعبة الزوايا الأربع مع هضبة وكنيسة والبحر فيما تقترب منه على الرغم مما يختبئ عبثاً تحت ظلال شجرة العتيق، وتلك الدوائر التي تضيق أكثر فأكثر والتي تخطّتها السيارة حول مدينة مفتونة كانت تهرب في كل صوب كي تغفل منها والتي تنقض عليها في نهاية المطاف بخطّ مستقيم عمودي إلى قعر الوادي حيث تظل مطروحة أرضاً. وهكذا فإن هذا الموقع، وهو النقطة الوحيدة التي يبدو أن السيارة جرّدها من أسرار القطارات السريعة، إنما تولينا هذه النقطة على العكس انطباعاً باكتشافه وتحديدنا له وكأنما بفرجار وبمساعدتنا على أن نتحسّس بيد تكتشف بحب أعظم ودقة أوفر هندسة الأرض الحقيقية ومقاسها الجميل.

ماكنت أجهله لسوء الحظّ في تلك الفترة ولم أطلع عليه إلا بعد نيف وستين أن أحد زبائن السائق كان السيّد «دوشار لوس» وأن «موريل» المكلف بأن يدفع له والذي كان يحتفظ لنفسه بجزء من المال (وذلك يحث السائق على مضاعفة عدد الكيلومترات ثلاث مرّات وخمس مرّات) كان قد ارتبط بعلاقة وثيقة معه (فيما يظهر بمظهر من لا يعرفه في حضرة الناس) وكان يستخدم سيّارته في مشاوير بعيدة. ولو أنني عرفت ذلك في حينه وأن الثقة التي سرعان ماوضعها آل «فيردوران» في ذلك السائق إنما كانت ناجمة عن ذلك دون علم منهم لكننت تفاديت الكثير من غموم حياتي في باريس في السنة التالية والكثير من المصائب المتعلقة بـ



«أليزتين» ولكني ماكنت أرتاب بالأمر البتة. لم تكن نزوات السيد «دوشار لوس» بصحبة «موريل» بالسيارة، لم تكن في حد ذاتها موضع اهتمام خاص بالنسبة إليّ. فقد كانت تقتصر على آية حال في الغالب على غداء أو عشاء في مطعم على الشاطئ يحسبون السيد «دوشار لوس» فيه خادماً عجوزاً مفلساً و «موريل» المكلف دفع الحساب نبيلاً مفرط الطيبة. وسأروي عن واحدة من تلك الوجبات يمكن أن تزود بفكرة عن الأخيريات. كان ذلك في مطعم مستطيل الشكل في «سان مارس لوفيتو». «ألا يمكن رفع هذه؟» يقول السيد «دوشار لوس» ل «موريل» وكأنما لوسيط وكلي لا يوجّه الكلام إلى النادل مباشرة. وكان يعني بـ «هذه» ثلاث وردات ذابلة ظنّ رئيس خدم حسن النية من واجبه أن يزيّن بها الطاولة. فأجاب «موريل» مريكاً: «بلى.. ألا تحبّ الورود؟» - «ربّما برهنت على العكس بالطلب الذي تقدّمت به أني أحبّها إذ ليس من ورود هنا (ويدت الدهشة على «موريل»). على إني في الحقيقة لا أحبّها كثيراً. وإني أتأثّر بالأسماء إلى حدّ ما، فما أن تكون وردة على شيء من الجمال حتّى تعلم أنّها تدعى «البارونة دو روتشيلد» أو «المارشالّة نييل»، الأمر الذي يوليك فتوراً. هل تحبّ الأسماء؟ وهل لقيت عناوين حلوة لمقطوعاتك الموسيقية الصغيرة؟» - «هناك واحدة تدعى «قصيدة حزينة». فأجاب السيد «دوشار لوس» بصوت حادّ مفرق مثلما الصفعة: ذلك مريع. ولكني كنت طلبت شمبانيا؟» يقول لرئيس الخدم الذي ظنّ أنّه يجيء بشيء منها وهو يضع إلى جانب الزونين كوين من النبيذ الفوار. - «ولكن ياسيد..» - «أبعد هذا القرف الذي لاعلاقة له بأردأ الشمبانيا. إنّه المقبيء الذي يسمّونه «كب» (cup) والذي يلقون فيه بعامة ثلاث حبّات من توت الأرض متعفّنة في مزيج من الخلّ وماء «سيلتز»....» وأردف قوله وهو يستدير صوب «موريل»: «أجل، يبدو أنّك تجهل ما عسى يكون العنوان. وحتّى في تنفيذ ماتعزفه أفضل ما يكون العزف يبدو أنّك لا تتبيّن الجانب الوسيط في الأمر» وسأل «موريل»: «ماذا تقول؟»، وقد خشني، بعدما لم يفهم شيئاً ممّا قاله البارون، أن يفوّت على نفسه معلومة مفيدة من قبيل دعوة على الغداء على سبيل المثال. ولما أحجم السيد «دوشار لوس» عن اعتبار «ماذا تقول؟» بمثابة سؤال فقد ظنّ «موريل» إذ لم يصله بالنتيجة جواب، ظنّ من واجبه تغيير الحديث واعطاء طابعاً شهنائياً: «هيا انظر، الشقراء الصغيرة التي تباع تلك الزهور التي لا تحبّها، فهذه واحدة أيضاً لديها بالتأكيد صديقة صغيرة. وكذلك العجوز التي تتناول عشاءها على طاولة الركن القصي». وسأل السيد «دوشار لوس» وقد أدهشه علم «موريل» المسبق بالأمور: «ولكن كيف تعلم كلّ هذا الشيء؟»

- «آه! أحزهنّ في مدى ثانية. ولو تجوّ لنا كلانا داخل جمهور من الناس لرأيت أنّي لا أخطئ مرتين». ولعلّ من كان شهد «موريل» في تلك اللحظة بمظهره البنوتي في إطار جماله الذكوري، لعله كان أدرك العرافة الغامضة التي ماكانت تدلّ بعض النساء عليه أقلّ ممّا تدلّه عليهن. كان يصبو إلى الحلول محلّ «جويان»، وبه رغبة غامضة في أن يضيف إلى مرتبة الثابت الدخول التي يستجّرها صانع الصداري، فيما يظنّ، من البارون. «أمّا بخصوص الفتيان الذين تتمهّد لهم عشيقاتهم فإنّي أكثر خبرة بأمورهم وسوف أجنّبك الأخطاء جميعها. وعمّا قليل يقام المعرض في «بالبيك» وسوف نلقى أشياء كثيرة؛ ناهيك عن باريس حيث ستري أنّك واجد صنوفاً من اللهو. ولكنّ حذر الخادم الوراثي جعله يعطي الجملة التي كان آخذاً بها منحى آخر، حتّى ظنّ السيد «دوشار لوس» أن الأمر مازال يدور حول الفتيات. وقال «موريل» وهو راغب في إثارة حواسّ البارون

بطريقة يظنها أقل تورطاً له (مع أنها في الواقع أكثر إغراقاً في اللا أخلاق): «تدري، حلمي أن ألقى فتاة طاهرة جداً وأن أحملها على حبي ثم أسلبها عذريتها». ولم يملك السيد «دوشار لوس» نفسه عن فرك أذن «موريل» برقة، ولكنه أضاف بسذاجة: «ومعاساك تفيد من ذلك؟ إن سلبتها بكارتها فستضطر أن تتزوجها». وصاح «موريل» قائلاً: «أتزوجها؟»، وهو يحس أن البارون قد انتشى، أو هو ما كان يفكر أن الرجل الذي يتحدث إليه هو باجمال القول أكثر تحسباً للأخلاق مما يظن، «أتزوجها؟ هراء! ربما وعدت بذلك، ولكن ما إن تتم العملية الصغيرة على مايرام حتى أهجرها في المساء نفسه». كان السيد «دوشار لوس» قد تعود، حينما يستطيع وهم ما أن يتسبب له بمتعة حسية مؤقتة، أن يوافق عليه، على أن يسحب موافقته كاملة بعد انقضاء لحظات على نفاذ المتعة. وقال لـ «موريل» وهو يضحك ويشده أكثر فأكثر إليه: «أحقاً تفعل ذلك؟» - «بالطبع أفعل! يقول «موريل» وهو يرى أنه ما كان يسوء في عين البارون وهو ماضٍ في شرح صادق لما كانت بالفعل إحدى رغباته. وقال السيد «دوشار لوس»: هذا أمر وبيل العاقبة». - «أحزم حقائبي سلفاً وأطلق ساقتي للريح دون أن أترك عنواناً». وسأل السيد «دوشار لوس»: «وأنا؟» وسارع «موريل» يقول: «أصطحبك معي بالطبع»، وما كان فكر بما يصير إليه البارون الذي كان أقل ما يهتّم له. - «اسمع، ثمة صغيرة قد تروقي كثيراً لذلك، إنها خيطة صغيرة دكانها في فندق السيد الدوق». وصاح البارون فيما كان الساقى يدخل: «ابنة جوييان! وأضاف يقول: «لا! على الإطلاق! إما لأن وجود شخص ثالث ربما يثقل فتوراً في نفسه، وإما لأنه ما كان ربما يستطيع عقد العزم على اقحام أشخاص يكنّ لهم مشاعر الصداقة في مثل هذه الطقوس السوداء التي كان يحلو له فيها تدنيس أكثر الأمور قدسية، «إن «جوييان» رجل طيب القلب والصغيرة رائعة ومن الشنيع أن نغمهما». وأحسن «موريل» أنه تمادى فسكت، ولكن عينه والت في الفراغ التحديق بالفتاة التي ودّ ذات يوم أن أدعوه في حضرتها «بالفتان العزيز العظيم» والتي أوصى لديها بصدرية. وما كانت الصغيرة، وهي عظيمة الجذ في عملها، قد أفادت من عطلتها، ولكني علمت منذ ذلك أنها لم تكف، فيما كان عازف الكمان في جوار «البليك»، عن التفكير بمحيّاه الجميل وقد أواه نبلاً أنها بعدما رأت «موريل» بصبحتي حسبه أحد «السادة».

قال البارون: «ما سمعت «شويان» يعزف في يوم، مع أنني ربما وسعني ذلك، فقد كنت ألتقي دروساً لدى «ستاماتي»، ولكنه منعني من الذهاب لسماح سيد «الليليات» في منزل عمّتي «شيميه». فصرخ «موريل» قائلاً: «آية جماسة ارتكب!» ردّ السيد «دوشار لوس» بصوت عنيف حاد: «بالعكس، كان يقيم برهاناً على ذكائه، فقد أدرك أنني «طبيعة» مميزة وأنتي قد أقع تحت تأثير «شويان». ولكن لا بأس، بما أنني هجرت الموسيقى صغيراً جداً، كأني شيء آخر على أي حال». وأضاف يقول بصوت أخن مبطاً متهاكاً: «ثم إنك تتخيل الأمر قليلاً، فثمة على الدوام أناس سمعوا، ويزودونك بفكرة. على أن «شويان» كان حجة فحسب للعودة إلى الجانب الوسيط الذي تهمله».

نلاحظ أن لغة السيد «دوشار لوس»، بعد إدراجة للغة العامية، عادت فجأة فأصبحت يمثل تصنعها وتعالها المعتادين. ذلك لأن الفكرة التي مفادها أن «موريل» قد يهجر دون تبيكيت من ضمير فتاة اغتصبت أذاقته فجأة متعة كاملة. وقد هدأت حواسه منذ ذلك بعض الوقت وولّى السادي هارباً (هو الوسيط حقاً) ذاك الذي كان

حلّ على مدى لحظات محلّ السيّد «دوشار لوس» وأعاد الكلام للسيّد «دوشار لوس» الحقيقي الذي يفيض رقةً فنيّةً وحساسيةً وطيبة. «لقد عزفتَ ذاك اليوم نسخَ الرباعيّة الخامسة عشرة على البيانو، وهو بادئ الأمر من اللامعقول إذ ليس ما كان أقلّ موافقة للبيانو. وقد صمّم للناس الذين تهرق أذانهم أوتار الأطرش العظيم التي بولغ في شدّها، ولكنّما تلك الصوفيّة بالضبط، ويقرب أن تكون مرّة الطعم، هي الإلهيّة. وقد عزفتها في جميع الأحوال أسوأ عزف بتغييرك لجميع الحركات. ينبغي أن تعزفها كما لو أنّك تؤلفها: «موريل الشاب» الذي ألمّ به صمم وقتيّ وعيقريّة غير موجودة يبقى لحظة دون حراك؛ ثم يأخذ الهديان المقدّس فيعزف ويؤلف المقاطع الأولى؛ وإذ ذاك ينهار وقد خارت قواه جرّاء مباشرة مثل هذا الجهد تاركاً خصلة شعره الجميلة تهوي ليروق السيّد «فيردوران»، ثم إنّه بذلك يستغلّ الوقت ليرسم الكميّة الهائلة من المادّة الرماديّة التي اقتطعها من أجل التجسيد العرافيّ. حينئذ ينطلق، بعدما استعاد قواه وتملكه وحي جديد فائق، صوب الجملة الرائعة التي لا تنضب والتي سيروح الموسيقار البرليني (ونظن السيّد «دوشار لوس» يقصد بذلك «منديلسون» يقلّدها دونما كلل. بهذه الطريقة، وهي وحدها متسامية حقّاً ومحركة للنفس، سأجعلك تعزف في باريس». كان «موريل»، حين يقدّم له السيّد «دوشار لوس» آراء من هذا القبيل، أشدّ فرعاً من أن يرى رئيس الخدم يحمل معه ورداته وكوبه المزدراة إذ كان يتساءل بقلق أيّ أثر سوف يخلف ذلك في «حلقة الدارسين». لكنّما لم يكن بوسعها التوقّف عند هذه الأفكار إذ كان السيّد «دوشار لوس» يقول له بلهجة الأمر: «إسأل رئيس الخدم إن كان لديه «مسيحي» من النوع الصالح» - «مسيحي» من النوع الصالح؟ لست أفهم. - «تلاحظ تماماً أنّنا بمرحلة الفاكهة، فهي إحصاءة إذن. وتأكّد أنّ السيّد «دوكامبرمير» لديها إحصاء لأن الكونتيسة «ديسكار بنياس» (١) وهي وإياها سواء لديها شيء منه. فالسيّد «تبيودييه» يبعث به إليها ويقول هي: «هذا من صنف المسيحيّ الصالح وهو جميل جدّاً» - «لا، ما كنت أعرف» - «أرى على أيّ حال أنّك لا تعرف شيئاً. إن كنت حتى لم تقرّ «مولير».. هيا، إذا، بما أنّك لا بدّ لن تحسن الطلب أكثر من غيره فاسألهم فقط إحصاءة يجمعونها بالضبط على مقربة من هنا: «لويزة الطيّبة» من «أفرانش». - «لويد...» - «على رسلك، بما أنّك أخرق إلى هذا الحدّ فسوف أطلب بنفسني غيرها من التي أفضّلها: يارئيس الخدم، هل عندك من صنف «دواينييه دى كوميس» (٢). «شارلي»، هلاًّ قرأت الصفحة الرائعة التي كتبتها الدوقة «اميلي دو كليرمون توتير» حول هذه الإحصاءة. - «لا، ياسيّد، ليس عندي منها. - «وهل لديك «تريونف جودواني»؟ - «لا، ياسيّد. - «ومن صنف «فيرجيني داليه»؟ و«باس كولمار»؟ لا؟ إذا سوف نمضي بما أنّكم لا تملكون شيئاً. إن «دوقة أنغوليم» لم تنضج بعد؛ هيا، فلنذهب يا «شارلي». إن غياب الحسن السليم لدى السيّد «دوشار لوس»، لسوء حظّه، وربّما العلاقة العفيفة التي تربطه على الأرجح بـ «موريل» جعله يسعى جاهداً منذ تلك الفترة لغمر عازف الكمان باللطاف غريبة ما كان بوسع هذا أن يفهمها ولا تستطيع طبيعته، وهي من النوع المجنون، ولكنها ناكرة للجميل خسيصة، أن تردّ عليها إلّا بجفاء أو عنف متزايدين على الدوام وكانا يفرقان السيّد «دوشار لوس» -

(١) من هزليات الكاتب «مولير» (سيد الكوميديا في القرن السابع عشر) وكان «تبيودييه» يستعين باسم الإحصاء هذا ليعبر عن حيّة الكونتيسة ويفعل كالمسيحي الصالح الذي يقابل الشرّ بالخير، فيبعث بالإحصاء فيما تقابله بالجفاء أي بالشر.

(٢) أقرنا عدم الترجمة لأخذها مأخذ الاسم العلم والحقيقة أنّ Doyenne' des cornices تعني «عمادة جماعات المزارعين» وهي من نوع الإحصاء اللذيذ الذائب. وحكم مايلي من اصناف حكمها.

وهو شديد الاعتزاز فيما مضى واليوم يمتلئ خجلاً -في نويات من اليأس الحقيقي-. وسوف ترى كيف فهم «موريل»، وهو من خال أنه أضحى «دوشار لوس» آخر ألف مرة أعظم خطراً، كيف فهم بالمقلوب في أهون الأشياء تعاليم البارون المستكبرة فيما يخصّ الأرستقراطية وذلك بأخذها بمعناها الحرفي. دعنا نقل الآن فقط، فيما تنتظرني «ألبيرتين» في «سان جان دولايز»، إنه إن كان من أمر يضعه «موريل» فوق الأرستقراطية (والأمر من حيث المبدأ فيه بعض الثبل ولاسيما من جانب من كانت متعته في البحث عن البنات الصغيرات - «لامن» رأى ولا من عرف - مع السائق)، فإنما سمعته الفنية وما يمكن أن يرواها من أفكار في «حلقة الكمان الدراسية».

وليس من شك أنه من القبح بمكان أن يبدو، لأنه يحسّ السيد «دوشار لوس» ملك يديه، وكأنه ينكره ويسخر منه، على النحو نفسه الذي عاملني به معاملة الأعلى للأدنى حالما وعدته بالتزام السرّ حول وظيفة والده لدى شقيق جدي ولكنما كان اسمه «موريل»، كفتان يحمل شهادة، كان يبدوله فوق «الاسم». وحينما كان السيد «دوشار لوس» يودّ، في أحلام الوداد الأفلاطونية لديه، أن يحمل «موريل» على اتخاذ أحد ألقاب أسرته، كان يرفض الأمر رفضاً حازماً.

حينما كانت «ألبيرتين» ترى أنّ البقاء للرسم في «سان جان دولايز» أوفر حكمة، كنت أستقلّ السيارة، وما كان بوسعي الذهاب، قبل العودة لاصطحابها، إلى «غورفيل» و«فيتيرن» فحسب، بل إلى «سان مارس لوفيو» وحتى «كريكتو». وفيما كنت أظاهر بالانشغال عنها بأمر أخرى، وبأنني مضطّر إلى هجرها إلى متع أخرى، كنت لا أفكر إلا بها. وكنت في الكثير الغالب لا أمضي أبعد من السهل الكبير الذي يطلّ على «غورفيل»، ولما كان يشبه قليلاً السهل الذي يبدأ فوق «كومبريه» باتجاه «ميزكيليز» فقد كان يسعدني التفكير، حتى على مسافة كبيرة إلى حدّ ما من «ألبيرتين»، أنّه إن لم تقو نظراتي على الذهاب إلى حيث هي، فإن نسيم البحر القويّ العليل هذا الذي يمرّ بجاني ويمتدّ مداه أبعد منها لابدّ سينحدر مسرعاً دون أن يشبه شيء حتى «كيتيهولم» وقبل ليهزّ أغصان الأشجار التي تغمر «سان جان دولايز» بأوراق أغصانها فيما يداعب محباً صديقتي ويقيم بذلك بيني وبينها رباطاً مزدوجاً في هذه الخطوة التي تعاضمت إلى مالا نهاية، ولكن دونما مخاطر كما هو الحال في تلك الألعاب التي يتفق لولدين فيها أن يكون كلّ منهما خارج مرمى صوت وبصر الآخر وبمكثان فيها على صلة على الرغم من بعد الواحد عن الآخر. كنت انشني راجعاً في تلك الدروب التي تبصر منها البحر وحيث كنت أغمض عينيّ فيما مضى قبل أن يطلع بين الأغصان كي أفكر تماماً بأن ماسوف أراه أنما هو جدّ الأرض الشاكي يوالي، كحالها يوم لم يكن بعد كائنات حيّة، اضطرابه المجنون المغرق في القدم. أما الآن فلم تعد في نظري سوى وسيلة لموافاة «ألبيرتين». وحينما كنت أتعرفها مشابهة تماماً لذاتها إذ أعلم إلى أين تعدو في خطها المستقيم وأين تعطف كنت أتذكر أنّي سرت فيها وأنا أفكر بالآنسة «دوستيرماريا» وأن الاستعجال نفسه لالتقاء «ألبيرتين» سبق أن أحسسته في باريس وأنا أنحدر في الشوارع التي تمرّ فيها السيّد «دوغير مانت» كانت تتخذ بالنسبة إليّ الرتبة العميقة والدلالة الأخلاقية التي لنوع من الخطّ الذي تتبعه طبائعي. كان ذلك طبيعياً، بيد أنّه لم يكن غير ذي بال؛ فقد كانت تذكرني أنّ قدرتي هو أن لا ألاحق سوى أشباح، سوى كائنات كانت حقيقتها في جزء كبير منها داخل مخيلتي. فتمة

بالفعل أناس - وتلك كانت حالي منذ شبابي - لا يقيمون وزناً لكل ما يحمل قيمة ثابتة يمكن للغير ملاحظتها : الثروة والنجاح والمراكز العليا. أما ما ينبغي لهم فالأشباح. إنهم يضجون في سبيلها بكل ما عداها ويحركون كل شيء ويوجهون كل شيء ليفيد في التقاء هذا الشبح أو ذاك. ولكن سرعان ما يتلاشى هذا الأخير. حينئذ يجرون خلف آخر غيره، على أن يعودوا إلى الأول فيما بعد. وما كانت المرة الأولى التي أسعى فيها إلى «ألبيرتين»، تلك الفتاة التي شاهدها في السنة الأولى أمام البحر. والحقيقة أن أخريات من النساء أدرجن بين «ألبيرتين» التي أحببتها أول مرة وهذه التي أكاد لأفارقها في هذه الفترة، أخريات من بينهن على وجه الخصوص الدوقة «دوغير مانت». ولكن ربّ قائل يقول لماذا يحمل المرء نفسه كل هذه الهموم بشأن «جيلبيرت» ويتحمل كل هذا العناء في سبيل السيدة «دوغير مانت» إن كان ذلك، وقد أضحي صديق هذه الأخيرة، لحض أن لا يفكر فيها من بعد بل يقصر التفكير على «ألبيرتين»؟ كان بوسيع «سوان» أن يجيب قبل وفاته وهو من كان غاوي أشباح. كانت دروب «باليك» تلك مليئة بأشباح تلاحق وتنسى ويسعى إليها مجدداً للقاء وحيد أحياناً ويهدف لمس حياة غير حقيقية كانت في الحال تمنع في الهرب. كان يبدو لي في تفكيري بأن أشجارها، أشجار الإجاص والتفاح والطرفاء، سوف تبقى من بعدي أنني أخذ منها نصيحة بالانصراف أخيراً إلى العمل مادامت لم تزف بعد ساعة الراحة الأبدية.

كنت أنزل من السيارة في «كيت هولم» وأجري في الدرب المحفر الوعر وأقطع الساقية على لوح من الخشب والتقي «ألبيرتين» التي كانت ترسم أمام الكنيسة التي كلها قبب صغيرة وهي شائكة حمراء تزهر مثلما شجرة ورد. وحدها الجبهة المثلثة كانت صقيلة، وعلى صفحة الحجارة الضاحكة كانت تبرز ملائكة يوالون أمام زوج من ناس القرن العشرين القيام باحتفالات القرن الثالث عشر والشموع بأيديهم. هم من كانت «ألبيرتين» تحاول نقل صورهم على قماش لوحاتها المعدة وتخط في تقليدها لـ «إيلستير» ضربات ريشة واسعة تحاول بها الالتزام بالايقاع السامي الذي يجعل أولئك الملائكة، كما سبق أن قال لها المعلم الأكبر، شديدي الاختلاف عن كل من كان يعرف. ثم كانت تستعيد حاجاتها وتعود فتصعد في الدرب المحفر وقد مال يستند واحدنا على الآخر، تاركين الكنيسة الصغيرة تصغي، بمثل هدوئها لو لم تبصرنا، إلى صوت الساقية الذي لا ينقطع. كانت السيارة تنطلق بعد قليل وتحميلنا في العودة على درب غير درب الذهب، فكنا نمر أمام «مركوفيل المستكبرة». وكانت الشمس الغاربة تلقي على كنيسة التي نصفها جديد والنصف مرمم طبقة في مثل جمال الطبقة التي يخلّفها الزمان. وكانت النقوش تبدو من خلالها وكأنها لا تشاهد إلا تحت طبقة مائعة نصفها سائل والنصف منير. كانت العذراء والقديسة «أليصابات» والقديس «يواكيم» يسبحون بعد في الموجة المرتدة العصبية على اللمس في ما قارب الجفاف، يسبحون على وجه الماء أو وجه الشمس. والتماثيل الحديثة الكثيرة كانت تطلع فجأة في الغبار الساخن وتنتصب فوق أعمدة تبلغ نصف ارتفاع حجب الغروب المذهبة، وأمام الكنيسة تبدو شجرة سرو وكبيرة وكأنها في ما يشبه الأرض المسيجة المكروسة. وكنا ننزل قليلاً لمشاهدتها ونمشي بضع خطوات. كان لدى ألبيرتين شعور مباشر بقلنسوتها القش الإيطالية ومنديلها الحريري (وما كانا بالنسبة إليها مركز أحاسيس بالهناء أقل) بمقدار وعيها لأعضاء جسمها، ويجيئها منهما، فيما تطوف أرجاء الكنيسة، نوع آخر من الدفع يجسده ارتياح جامد كنت أراه مع ذلك على لطافة. وما كان المنديل والقلنسوة

سوى جزء حديث طارئ من صديقتي، ولكن الجزء كان غالباً عليّ من ذاك وكنت أتعقب بالعين خطّه على امتداد شجرة السرو في ربح المساء. وما كانت هي نفسها تستطيع رؤية ذلك ولكنها كانت تشكّ أن هذه الأنافات إنما تليق بها لأنها كانت تبتسم لي فيما توفّق بين ركزة رأسها والعمرة التي تكملها. وقالت لي: «ليست تعجبني فقد جرى ترميمها»، وهي تدلّي على الكنيسة وتذكر ماسبق أن قال لها «إليستير» عن جمال الحجارة القديمة الثمين الذي يتمتع على التقليد. كان بمقدور «ألبيرتين» أن تتعرّف الترميم في الحال، وما كان يسعك إلا أن تعجب لسلامة الذوق الذي قد كسبته في فن العمارة في مقابل الذوق الرديء الذي يلازمها في الموسيقى. وما كنت أحبّ تلك الكنيسة كما هو شأن «إليستير»، وكانت واجهتها المشمسة قد أقبلت تقف أمام ناظريّ دون أن توليني متعة، ولم أنزل لمشاهدتها إلا لأحسن في عين «ألبيرتين». وكنت أرى مع ذلك أنّ الانطباعيّ القدير كان يناقض نفسه؛ فلماذا هذه الصنميّة التي تتمسك بالقيمة الهندسيّة الموضوعيّة دون أن تأخذ في اعتبارها تحوّل الكنيسة في الغروب؟ وقالت لي «ألبيرتين»: «لا، لست أحبّها بالتأكيد؛ إنني أحبّ اسم المستكبرة لديها. لكنّ ما ينبغي التفكير بسؤال «بريشو» عنه هو لماذا يدعون «سان مارس» باللابس. نذهب في المرّة القادمة، أليس كذلك؟ تقول وهي تنظر إليّ بعينيها السوداوين اللتين ترخي فوقهما قلنسوتها مثلما بالأمس قبعتها الصغيرة. كان حجابها يخفق في الهواء، وكنت استغلّ السيارة برفقتها ثانية وتغمرنا السعادة أنّ سنضطرّ إلى الذهاب سوياً في الغد إلى «سان مارس» الذي كان يرجا أجرامه العتيقان يبدوان، في مثل هذا الطقس اللاهب الذي لا يفكر فيه المرء إلا بالاستحمام، ويلونهما المورد ومعيّنات أجرحهما كأنهما، بانحاءتهما الطفيفة وما يشبه الخفقان فيهما، سمكتان قديمتان حادثتا الخطوط متداخلتا الحراشف راغبتان صهبا وإن ترتفعان، دون أن تبدوا لهما حركة، في مياه صافية زرقاء. كنّا ننعطف لدى مغادرتنا «ماركوفيل»، بغية تقصير الطريق، على ملتقى طرق تقوم إلى جانبه مزرعة. وكانت «ألبيرتين» أحياناً تأمر بالتوقّف وتسلّني الذهاب وحيداً لأجلب لها شراب «الكالفادوس» أو شراب التفّاح كي تتمكن من تناوله في السيارة؛ وكانوا يؤكّدون أنّه غير فوّار فيصيبنا منه بلل تامّ. كنّا نلتصق واحدنا بالآخر ويكاد الناس في المزرعة لا يرون «ألبيرتين» في السيارة المغلقة. وكنت أعيد لهم الزجاجات، وننطلق من جديد وكأنّنا لموالاة هذه الحياة الثنائية، حياة العاشقين التي كان يمكن أن يفترضوها بيننا ولعلّ التوقّف للشرب ما كان سوى برهة زهيدة منها. ولعلّ الافتراض كان بدا أقلّ ما يمكن بعداً عن الحقيقة لو رأونا بعدما تناولت «ألبيرتين» زجاجة شراب التفّاح، فقد كان يبدو حينذاك أنّها لا تقوى على احتمال وجود مسافة بيني وبينها، وما كان ذاك عادة مصدر ضيق لها. كانت ساقاها تضغطان على ساقيّ تحت تنورتها التي من كئنان، وكانت تقرب من وجنتيّ وجنتيها اللتين أضحتا شاحبتين وحارقتين حمراوين في أعلاهما وبهما شيء من اللهب والذبول كما هو أمر بنات الضواحي. كانت في تلك الأوان تبدّل صوتها بمثل السرعة التي تبدّل فيها شخصيتها، ففقد صوتها لتأخذ آخر غيره به بحة وجراة وما يقرب أن يكون فجوراً. كان الظلام قريب الحلول، وآية متعة أن أحسّها ملتصقة بي، بمنديلها وقلنسوتها إذ أنذرك أنّنا إنّما نلتقي العشاق دوماً على هذا النحر جنباً إلى جنب. ربّما كان بي عشق لـ «ألبيرتين» ولكنّي لا أجزّ على إظهاره لها، بحيث أنّه إن كان موجوداً في داخلي فلا يمكن أن يكون ذلك إلا بمثابة حقيقية لا وزن لها إلى أن نكون استطعنا التحكّم بها عن طريق التجربة. ولكنّما كان يبدو لي غير

قابل للتحقيق وخارج مرتسم الحياة. فأما غيرتي فكانت تدفعني إلى مفارقة «ألبيرتين» أقل القليل مع أنني أعرف أنها لن تشفى تماماً إلا بافتراقها عنها دونما رجعة. بل كنت أستطيع أن أحسّ بها بالقرب منها، ولكنني أتدبر نفسي آنذاك كي لأدع للمناسبة التي أيقظتها في صدري أن تتجدد. من ذلك أننا ذهبنا في يوم صحو لتناول طعام الغداء في «ريفيل» وكانت الأبواب الواسعة المزججة لقاعة الطعام، لذلك البهو الذي على شكل ممر وكان يستخدم في حفلات الشاي، كانت مفتوحة على مستوى المروج التي كستها الشمس ذهباً والتي يبدو المطعم الفسيح المتور كآته جزء منها. كان النادل ذو الوجه المورّد والشعر الأسود المفتول على هيئة لهب ينطلق في كامل هذه المساحة الواسعة بسرعة تقلّ عما كانت عليه بالأمس، إذ لم يعد مستخدماً بل رئيس مجموعة. ولكنك كنت تلمحه، بسبب نشاطه الطبيعي أحياناً في البعيد، في قاعة الطعام، وأحياناً أقرب من ذلك، إنمّا في الخارج في خدمة زبائن فضّلوا تناول غدائهم في الحديقة، فطوراً هنا وتارة هناك كتمائيل متعاقبة لإله شاب يبدو، بعضها في داخل منزل يستطيل مروجاً خضراء، والداخل جيّد الاضاءة على أيّ حال، وبعضها الآخر في ظلال الشجر وضياء الحياة في الهواء الطلق. ووقف برهة على مقربة منا. وأجابت «ألبيرتين» عما كنت أقول لها ساهية. كانت تنظر إليه بعينين موسعتين. وأحسست على مدى بضع دقائق أنه يمكنك أن تكون قرب الشخص الذي تحبّ ولا يكون معك على الرغم من ذلك. كانا يدوان وكأنهما في لقاء انفرادي غامض أصبح صامتاً جرّاء وجودي وربما أعقب مواعيد قديمة ماكنت أعرفها أو محض نظرة رماها بها- وكنت فيه الشخص الثالث المزعج الذي يتكلم عليه. وحتى حينما ابتعد بعدما استدعاه ربّ عمله بلهجة عنيفة كان يبدو على «ألبيرتين»، فيما توالي تناول غدائهما، أنها تحسب المطعم والحدائق محض حلبة مضاءة يظهر فيها ههنا وهناك داخل أطر متنوّعة الإله العداء ذو الشعر الأسود. وتساءلت لحظة إن لم تكن عازمة على تركي وحيداً إلى طاولتي كي تتبعه. ولكني منذ الأيام التالية أخذت أنسى للأبد ذاك الانطباع المؤلم، فقد كنت عزمّت أن لا أعود البتّة إلى «ريفيل» وطلبت إلى «ألبيرتين» التي أكّدت لي أنها جاءت إلى هذا المكان للمرة الأولى أنها لن تعود إليه في يوم. وأنكرت أن لم تكن للنادل ذي القدم الرشيق عین إلا لها كي لا يتبادر إليها أن صحتي حرمتها من متعة معينة. لقد اتفق لي أحياناً أن أعود إلى «ريفيل» ولكن وحيداً، وأن أبالغ في الشراب كما سبق أن فعلت هناك. وفيما أفرغ كوباً أخيراً كنت أنظر إلى تجمية مرسومة على الجدار الأبيض وأصّب عليها المتعة التي كنت أحسّ بها. كانت وحدها موجودة في العالم بالنسبة إليّ، كنت ألحقها وألصقها طوراً وطوراً أفقدها بنظرتي المثيرة وكنت غير مبالي بالمستقبل أكتفي بنجمتي شأن فراشة تدور حول فراشة جائمة سوف تضع معها حدّاً لحياتها في فعلة شهوانية أخيرة. على أنني كنت أرى خطراً في أن أسمح بأن يقيم في داخلي، حتى بصورة خفيفة، مرض يشبه تلك الحالات المرضية المعتادة التي لانعيرها انتباهاً ولكنها كافية، إن حلّ به فجأة أقلّ عارض غير متوقّع ولا مفرّ منه، لتكسبه في الحال خطورة بالغة. وربما كانت الفترة قد أحسن اختيارها إلى حدّ بعيد للتخلّي عن امرأة ماكان أيّ عذاب قريب العهد شديد يضطرني أن أطلب منها هذا البلمس الشافي للمرض، البلمس الذي تملكه اللائي تسببن بذلك المرض. كانت تلك التزهات عينها تشيع الهدوء في نفسي وكانت، مع أنني ما اعتبرتها في أوانها سوى انتظار لغد لن يكون على الرغم من الرغبة التي يعشها، مختلفاً عن الأمس، تحمل سحر كونها انتزعت من الأماكن التي عمرتها «ألبيرتين» حتى ذلك

وما كنت معها : في منزل عمّتها ولدى صديقاتها؛ لاسحر ينبعث من فرح إيجابيّ، بل من هدأة اضطراب فحسب، مع أنه قويّ جدّاً. فحين كنت أعود، بعد انقضاء بضعة أيام، إلى التفكير بالمرزعة التي شربنا أمامها عصير التفّاح أو بمجرّد الخطوات القليلة التي خطوناها أمام «سان مارس لوفيتو»، وإذا تذكر أن «ألبيرتين» كانت تمشي بقلنسوتها إلى جانبي، كان الاحساس بوجودها يضيف قوّة مفاجئة إلى صورة الكنيسة الجديدة التي لا آبه لها، قوّة يبدو لي معها، لحظة تقبل الواجهة المشمسة لتحطّ هكذا من تلقاء ذاتها في ساحة ذكرياتي، كأنما تلصقُ على صفحة قلبي كمادّة كبيرة مهدّئة. كنت أنزل «ألبيرتين» في «پارفيل» ولكن كيما أعود فألتقيها مساءً وأمضي لأستلقي إلى جانبها على رمل الشاطئ في الظلام. ليس من شك في أنني ما كنت ألقاها كلّ يوم ولكنّما كنت أستطيع أن أقول في نفسي: «لو أنّها تروي عن جدول توزيع وقتها وحياتها لكنت أنا من يحتلّ المكان الأوسع فيه». وكنا نقضي سوياً ساعات طويلاً على التوالي تشيع في أيامي نشوة عذبة إلى حد أنني ما كنت أحسّني، حتّى حينما تقفز في «پارفيل» من السيّارة التي سأعدها إليها بعد ساعة، أكثر وحدة في السيّارة منّي لو أنّها تركت فيها قبل مغادرتها زهوراً. كان بوسعي أن أكون بغنى عن لقاءها كلّ يوم؛ وكنت سأفارقها سعيداً وأحسّ أنّ الأثر المهدّئ لتلك السعادة يمكن أن يدوم عدّة أيام. ولكنني كنت حينئذ أسمع «ألبيرتين» تقول وهي تفارقني، لعمّتها أو واحدة من صديقاتها: «إذن، في غد الساعة الثامنة والنصف. ينبغي أن لا تتأخري فسيجهزون منذ الثامنة والرّبع». ان حديث امرأة نجّيتها يشبه أرضاً تحوي مياهاً جوفيّة خطيرة، فإنك تحسّ في كلّ لحظة وراء الكلمات وجود طبقة خفيّة وبرودتها النفاذة، وتلمح ههنا وهناك ارتشاحها الغادر، ولكنّها هي تلبث في الخفاء. وما إن تناهت إلى جملة «ألبيرتين» حتّى تهاوى هدوني. كان بودّي أن أسألها التّقاءها في صباح الغد بغية الحؤول دون ذهابها إلى موعد الثامنة والنصف الغامض هذا والذي لم يجر الحديث عنه أمامي إلّا بكلمات مبطنّة. ولعلّها كانت أطاعني بالتأكيد في المرات الأولى وبها أسف مع ذلك للتخلّي عن مشاريعها؛ ثم لعلّها كانت اكتشفت حاجتي الدائمة إلى تخريبها فكنت ذاك الذي يختبئون عنه في كلّ أمر. ثم إنّه من الأرجح أن تلك الدفلات التي كنت أقصّي عنها كانت تقوم على أقلّ القليل وأنهم ما كانوا يدعونني ربّما مخافة، أن ألتقي مدعوّة سوقية أو مبرمة. على أن هذه الحياة الشديدة الامتزاج بحياة «ألبيرتين» ما كانت من أسف تؤثّر في وحدي، فقد كانت توليني هدوءاً فيما تحمّل لأميّ هواجس قضى الإفصاح عنها على ذاك الهدوء. وفيما كنت أعود منشراح الصدر وقد عزمت على أن أضع بين يوم وآخر حدّاً لعيش كنت أظن نهايته رهناً بمحض مشيئتي قالت لي أُمّي، وقد سمعنتني أوصي بأن يمضي السائق لاصطحاب «ألبيرتين» بعد العشاء : «ما أكثر ماتنفق من مال ! (وكانت «فرانسواز» تقول بلغتها البسيطة المعبرة ويزخم أكبر: «المال يطير»)، وأردفت والدتي تقول: «اجهد أن لا تنضحني كـ «شارل دو سيفينييه» الذي كانت أمّه تقول عنه: «يده بوقّة ينصهر فيها المال». واعتقد إلى ذلك أنك أكثر حقّاً من الخروج برفقة «ألبيرتين». وأؤكد لك أنّ الأمر مبالغ فيه وأنّه يمكن أن يبدو موضع سخريّة حتّى بالنسبة إليها. لقد اغتبطت لما يروح ذلك عنك. لست أسألك الامتناع عن لقاءها، وإنّما أن لا يكون التّقاء كما الواحد دون الآخر مستحيلاً. وعادت حياتي مع «ألبيرتين»، وهي خلّو من المتع البالغة- المتع البالغة الرئيّة على الأقلّ-، تلك الحياة التي كنت اعترّم تغييرها بين يوم وآخر باختيار ساعة من الصفاء، عادت فأصبحت فجأة ضروريّة لي إلى حين عندما



ألفيتها مهددة من جرّاء أقوال أمي. وقلت لوالداتي إن أقوالها أخرت ربّما مدّة شهرين القرار الذي تطالب به والذي كان ربّما أتخذ لولاها قبل ختام الاسبوع. وشرعت أمي تضحك (كي لا تغمّي) من الأثر الفوري الذي أحدثته نصائحها ووعدت أن لا تتحدّث عنها ثانية كي لا تحول دون انبعاث طيب مقاصدي. ولكن في كل مرة كانت والدتي، منذ وفاة جدّتي، تستسلم فيها للضحك كانت الضحكة المنطلقة تتوقّف للحال وتنتهي باعراب عن الألم قريب من النحيب، إمّا للملّة ذاتها أن استطاعت أن تنسى مقدار لحظة، وإمّا للزيادة التي أجج بها ذلك النسيان الهين قلق نفسها الأليم. لكنّي شعرت أن قلقاً آخر ينضاف إلى القلق الذي تسبّب ذكرى جدّتي المقيمة في صدر أمي وكأنّما فكرة ثابتة، قلقاً يتعلّق بي وبما كان والدتي تخشى من عقابيل ألفتي و«ألبيرتين»، ألفة لم تجرؤ مع ذلك على اعتراض سبيلها بسبب ماقلت لها منذ قليل. ولكنّما لم يد أنّها اقتنعت بأنّني غير مخطئ. كانت تتذكّر كم سنة لم تبادر في أنثائها هي وجدّتي في التحدّث إلّي عن عملي وعن منهج حياتي أكثر سلامة كان الاضطراب الذي تزجّني فيه ارشاداتهما يحول وحده، فيما أقول دون مباشرته ولم أستمّر في الأخذه على الرغم من سكوتهما وإذعانهما.

كانت السيّارة تُعيد «ألبيرتين» بعد العشاء والوقت لا يزال على بقيّة من ضياء. كان الهواء أقلّ سخونة؛ ولكننا بعد يوم لاهب كنّا نحلم كلانا بصنوف ابتراء مجهولة. حيث بدا القمر ليعيوننا الحمومة دقيقاً جداً بادئ الأمر (مثله في المساء الذي ذهب فيه إلى منزل الأميرة «دو غير مانت» والذي هافتني فيه «ألبيرتين») وكأنّه القشرة الخفيفة الرقيقة ثم القطعة النديّة لثمرة أخذت موسى خفيّة تنزع قشرتها في السماء. وأحياناً كنت أمضي أنا لاصطحاب صديقتي، ويكون ذلك حيثذ في وقت متأخّر قليلاً. كان عليها أن تنتظرني أمام قناطر السوق في «مينفيل». وماكنت أميزها في اللحظات الأولى فيأخذ في القلق مذاك من أنّها لن تجيء وأن تكون أساءت الفهم. حينذاك كنت أبصرها بقميصها الأبيض المنقّط بالأزرق تقفز إلى جانبي في العربة قفزة رشيقة أقرب أن تكون لحيوان صغير منها لفتاة، وكمثل كلبة أيضاً شرعت في الحال تداعبني مداعبات لا تنتهي. وبعدما يرخي الليل سدوله وتتناشر (١) (كما كان يقول لي مدير الفندق) النجوم على كامل صفحة السماء كنّا، إن لم نذهب في نزهة في الغابة نحمل معنا زجاجة شمبانيا، نتمدّد على حضيض الكثبان دونما اهتمام للمتنزّهين وهم بعد يمشون الهويني على السدّ الضعيف الانارة، ولعلّهم ماكانوا يميّزوا شيئاً على خطوتين منهم فوق الرمل الأسود. وذاك الجسد عينه الذي تنبض رشاقته بكل السحر الانثوي والبحري والرياضي، جسد الفتيات اللواتي رأيتهنّ يخطرن أوّل مرّة أمام أفق الماء، كنت أمسك به وأشدّه إلّي تحت الغطاء نفسه وبمحاذاة شاطئ البحر الساكن الذي يقسمه شعاع راعش. كنّا نصغي إليه دونما كلل وبالمتعة نفسها إمّا حين يمسك أنفاسه ويطلب إلى حدّ تظنّ معه أنّ الموجة الراجعة توقّفت، وإمّا حين يلفظ على أقدامنا همسته المنتظرة المؤجّلة. وفي النهاية كنت أعود بـ«ألبيرتين» إلى «بارفيل». كان لا بدّ لي حين وصولي إلى بيتها من قطع قبلاطنا مخافة أن يشاهدونا. ولما لم تكن راغبة في النوم فقد كانت تعود معي حتّى «بالبيك» وأعود بها من هناك آخر مرّة إلى «بارفيل»، فقد كان سائقو تلك الفترات الأولى من عمر السيّارات من قوم ينامون في آية ساعة. وما كنت بالفعل أعود إلى «بالبيك» إلّا مع نداء الصباح الأولى، أعود وحيداً هذه المرّة ولكنّما لا يزال

(١) يخلط المدير المتحلق بين الكلمات ونحاول إيجاد المقابل ولو بصعوبة؛ المقصود بالطبع «تتناثر» وليس «تتناشر».

يغمرنى حضور صديقتي وأغرقتُ في مؤونة من القبل يطول نفاذا كنت ألقى على طاولتي برقية أو بطاقة بريدية، والكُل من «ألبيرتين» أيضاً. لقد سطرتهما في «كيتهولم» أثناء مازدته في السيارة وحدي كي تقول لي إنها تفكر في. وكنت أندس في فراشي وأنا أعيد قراءتهما. حينئذ كنت أبصر فوق الستائر خطَّ النهار الطالع فأقول في نفسي إننا لابد متحابان على أي حال بما أننا قضينا الليل في عناق. وحينما كنت ألتقي «ألبيرتين» في صباح الغد فوق السد كانت تملكني خشية عظيمة من أن تجيب بأنها مرتبطة في ذلك اليوم وأنها لا تستطيع النزول عند طلبي إليها الخروج سوياً إلى حد أنني كنت أوجل ما استطعت توجيه ذلك الطلب وكان قلقي يتزايد بقدر ما تبدو باردة مهتمة. ويمر أناس من معارفها؛ لاشك أنها خططت لمشروعات بعد الظهر كنت مقصي عنها. فكنت أنظر إليها، أنظر إلى ذلك الجسم الرائع، ذلك الرأس المورّد لـ «ألبيرتين» يرفع قبالي لغز نواياها، القرار المجهول الذي سيكون سرّ سعادتي أو تعاسي في فترة ما بعد الظهر. إنها حالة نفسية بتمامها، مستقبل حياتي كامل قد اتخذ أمامي شكل فتاة رمزياً قاتلاً. وحينما كنت أحزم أمري في نهاية المطاف، حينما كنت أسأل بأقصى ما أستطيع من اللامبالاة: «هل تنتزه سوياً بعد قليل وفي هذا المساء؟» وتجيبني: «بكل سرور»، حينئذ كان التبدل المفاجئ الكامل على الوجه المورّد، تبدل قلقي المديد طمأنينة لذيذة، يجعل تلك الأشكال أكثر قيمة لدي تلك الأشكال التي أدين لها على الدوام بالهناء، بالهدوء الذي تحسه بعد أن تارت العاصفة. وكنت أردد بيني وبين ذاتي: «كم هي لطيفة وآية مخلوقة رائعة هي!» في حماسة أقل خصباً من تلك الناجمة عن السكر، وتكاد لاتجاوز في عمقها تلك الناجمة عن الصداقة ولكنها تفوق كثيراً تلك التي توليها الحياة المجتمعية. وما كنا نلغي حجز السيارة إلا في الأيام التي يقام فيها حفل عشاء لدى آل «فيردوران»، والأيام التي ربما كنت أفيد منها، إذ لا تستطيع «ألبيرتين» لانشغالها الخروج برقتي، لإخطار من كانوا يرغبون في لقائي بأنني باق في «البليك». كنت أجزل «سان لو» الهجي في تلك الأيام، ولكن في تلك الأيام فقط. ذلك لأنني فضلت ذات مرة وصل فيها على حين غرة أن احترم رؤية «ألبيرتين» على أن أجازف بالتقائه إياها وتعرض حال الهدوء السعيد الذي كنت فيه منذ وقت يسير للخطر ويتجدد غيرتي. ولم يطمئن فؤادي إلا بعدما قفل «سان لو» راجعاً. ولذلك كان يلزم نفسه أسفاً، ولكننا الالتزام دقيق، بأن لايجيء في يوم إلى «البليك» دون دعوة مني. وكنت بالأمس أولي التقاء ثمناً أي لمن وأنا أفكر حاسداً بالساعات التي تقضيها السيّدة «دو غير مانت» بصحبته. إن المخلوقات لاتنكّ تبدل مكانها بالنسبة إلينا. وإننا نعتبرها في مسيرة العالم غير المحسوسة والدائمة مع ذلك على أنها جامدة في لحظة رؤية معينة هي من القصر حتى لا تلاحظ الحركة التي تدفعها. ولكن ماعلينا إلا أن نختار في ذاكرتنا صورتين أخذتا لها في أوقات مختلفة ولكنها متقاربة بما يكفي كي لاتكون تغيرت في حدّاتها على نحو محسوس على الأقل، وإذ ذلك يقيس اختلاف الصورتين الانتقال الذي قامت به بالنسبة إلينا. وقد ألقني افطع القلق وهو يكلمني عن آل «فيردوران» وخشيت أن يطلب إلي أن يستقبل عندهم ولعل ذلك كان كافياً لإفساد كامل المتعة التي كنت أصيبتها لديهم بصحبة «ألبيرتين» بسبب الغيرة التي ماكانت لأتوقّف عن الإحساس بها. لكن «روبير» أقرّ أمامي لحسن الحظ أنه كان راجباً على العكس أن لايعرفهم. وقال لي: «لا، فاني أجد هذا النوع من الأوساط الأكليروسية مثيراً للحزن». ولم أفهم بادئ الأمر صفة «الأكليروسي» التي تطلق على آل «فيردوران»، ولكن آخر جملة «سان لو» كشفت

فكرته وانجرافه خلف أشكال كلامية كثيراً ما يدهشنا أن يتبناها أناس أذكاء، فقد قال لي: «إنها أوساط يلتفتون فيها قبائل وجمعيات وطوائف. ولن تقول لي إنها ليست طائفة، فإنهم «سمن وعسل» لمن كانوا منها، ولا يملكون ما يكفي من ازدراء لمن ليسوا منها. ليست المشكلة، كما هي الحال بالنسبة إلى «همليت»، أن تكون أو لا تكون، بل أن تكون منها أو لا تكون منها. وإنك منها، وخالي «شارلوس» منها. ما عساك تريد؟ أنا مأحبت في يوم هذا الصنف وليست تلك غلطتي.»

أما القاعدة التي فرضتها على «سان لو» بأن لا يجيء لزيارتي إلا على إشارة مني فقد سنتتها بالطبع بشكلها القاطع هذا بالنسبة لأي من الأشخاص الذين ارتبطت شيئاً فشيئاً بصداقة معهم في «لاراسيلير» و«فيتير» و«مونسورفان» وغيرها. وحينما كنت أبصر من الفندق دخان قطار الساعة الثالثة الذي كان يخلف في تجاويف جروف «بارفيل» سحابته الثابتة التي كانت تلبث فترة طويلة عالقة على جنبات السفوح الخضراء لم أكن أتردد إطلاقاً حول الزائر الذي كان سيجيء لتناول العصرونية معي ولا يزال محتجباً عني خلف تلك السحابة الصغيرة، مثله في ذلك مثل إله. وإني مضطراً أن اعترف أن ذلك الزائر الذي أذنت له مسبقاً بالجيء لم يكن البتة تقريباً «سانيت»، وكثيراً ما ملت نفسي على ذلك، ولكن وعي «سانيت» لبعث الملل لدى الآخرين (أكثر بالطبع حين يجيء في زيارة منه حين يروي قصة) كان ينجم عنه أن يبدو من المستحيل، مع أنه كان أوسع علماً وأوفر ذكاءً وأفضل من كثيرين غيره، أن تحسّ بالقرب منه بأية متعة، بل بغير ملل يكاد لا يطاق يفسد عليك كل فترة العصر. ولو أن «سانيت» كان أقر صراحة بذلك الملل الذي كان يخشى إشاعته فالأرجح أنك ماكنت لتخشي زيارته. والملل واحد من الشرور الأقل خطراً من تلك التي يقع علينا تحملها، وربما لم يكن ذلك الملل موجوداً إلا في مخيلة الآخرين أو هو أدخل في خلده بنوع من الإحياء صادر عنهم، إحياء تمكن من تواضعه المحبب. ولكنه كان شديد الحرص على أن لا يبدي أنه غير مرغوب فيه إلى حد لا يجزو معه أن يعرض نفسه على الغير. كان بالتأكيد على حق أن لا يفعل ما يفعل الناس الذين يغبطهم أن يحيوا تحيات واسعة في مكان عام إلى حد أنهم، إن لم يروك منذ فترة طويلة وأبصروك في مقصورة برفقة أشخاص لامعين لا يعرفونهم، يلقون عليك تحية خاطفة مدوية وهم يعتذرون عما يصيبون من متعة، عما يصيبهم من انفعال لدى رؤيتك، لدى اكتشافهم أنك تعود إلى متع الحياة، وأن صحتك تحسنت، الخ «أما «سانيت» فكان يفتقر على العكس إلى الكثير من الجراءة، كان يوسع أن يقول لي، في منزل السيدة «فيردوران» أو في القطار الصغير، إنه قد يسره أعظم السرور أن يأتي لزيارتي في «بالبيك» لولا أنه يخشى ازعاجي. وما كان مثل ذلك الاقتراح ليفزعني. ولكنه كان على العكس لا يقترح شيئاً، بل يقول بوجه معذب ونظرة بمثل صلابة المينا المشوية، ولكنما يداخلها، إلى جانب رغبة لاهثة في لقاءك - ما لم يجد آخر غيرك أكثر تفكهاً - العزم على أن لا يبدي شيئاً من تلك الرغبة، يقول لي بمظهر متجرد: «لست تعلم ما أنت فاعل هذه الأيام؟ لأنني سأذهب دونما شك بالقرب من «بالبيك». لا، لا، لا بأس، كنت أسألك ذلك عرضاً.» والمظهر ذاك ما كان يخدع أحداً والعلامات العكسية التي نعرب بوساطتها عن مشاعرنا بما كان عكسها واضحة القراءة إلى حد أننا نتساءل كيف يمكن أن يكون ثمة أناس يقولون على سبيل المثال «لدي الكثير الكثير من الدعوات حتى لا أعرف إلى أين أتوجه» كي يخفوا أنهم لا يدعون. أضف أن ذلك المظهر المتجرد، بسبب ما كان على الأرجح يدخل في تركيبه الغامض، كان يسبب

لك مالم يكن بوسع خشية الملل أو الاقرار الصريح برغبة التقائل أن يفعل في يوم، عنيما هذا النوع من الانزعاج، هذا النفور الذي يعادل في رتبة علاقات المجاملة الاجتماعية البحة ماكان على صعيد الحب العرض المقنع الذي يقدمه المحب لسيّدة لاحتجّه بأن يلتقيها في الغد فيما يحتجّ بأنّه غير حريص على ذلك، أو حتى مالم يكن ذلك العرض، بل موقف يتسم بفتور كاذب. وكان ينبعث في الحال من شخص «سانييت» مالت أدري مما يحملك على أن تجيبه باللهجة الأكثر رقة في العالم: «لا، للأسف، هذا الأسبوع، سوف أوضح لك..» وكنت أفسح في المجال لمجيء أناس غيره مابعد أن يساوره ولكنما لم يكن لهم نظره المثقلة بالكآبة وفمه الذي يلتوي بكامل المرارة لكلّ الزيارات التي كان يرغب في القيام بها لدى هؤلاء وأولئك وهو يكتهم تلك الرغبة. وكان من النادر جداً لسوء الحظّ أن لا يصادف «سانييت» في القطار الصغير المدعوّ الذي جاء لزيارتي، هذا إن لم يكن هذا الأخير حتى قال لي في منزل آل «فيردوران»: «لا تنسى أنّي سأزورك يوم الخميس»، اليوم الذي قلت بالضبط فيه لـ «سانييت» إنّني لن أكون حراً. وبذلك كان يخلص إلى تصوّر الحياة وكأنّها ملأى بصنوف من اللهو تنظم دون علم منه، إن لم يكن حتى ضده. وبما أن المرء من جانب آخر لا يكون البتّة واحداً موحداً فإنّ هذا الشديد التكتّم كان فضولياً إلى حدّ المرض. فقد كانت رسالة مَن لست أدري مرميّة، في المرة الوحيدة التي جاء فيها مصادفة لزيارتي على الرغم منّي، على الطاولة. ولاحظت بعد برهة أنّه لا يصني إلا ساهياً لما كنت أقوله له. فإن الرسالة التي كان يجهل مصدرها تماماً كانت تخلب لبّه وكنت أظنّ في كلّ لحظة أن حدقته الملتصعتين توشكان الإفلات من محجريهما للحاق بهده الرسالة العادية ولكنّ فضوله كان يمتنظها. لكأنه طائر يزعم الانقراض لامحالة على حيّة. ولم يستطع في نهاية المطاف اصطباراً فيدل مكانها بادئ الأمر وكأنما ليرتّب غرفتي. ولما لم يكفّه ذلك أخذها وقلبها وأعاد قلبها وكأنما على نحو آلي. ثمّ إن شكلاً آخر من فضوله كان يتمثّل بأنّه موقّف بك فلا يستطيع فكاً. ولما كنت يومها متألماً فقد طلبت إليه أن يعود فيستقلّ القطار التالي ويغادر في مدى نصف ساعة. وما كان يشكّ بأنّي أتألم ولكنّه أجباني قائلاً: «سأملك ساعة وربع الساعة وبعد ذلك أنصرف». ومنذ ذلك الحين تألمت لأنني لم أسأله، في كلّ مرّة كنت أستطيع ذلك فيها، أن يجيء. فمن ذا يعلم؟ ربّما كنت دفعت عنه شرّاً يبيّت له وكان دعاه آخرون غيري فكان حينها هجرني في الحال إليهم، وهكذا كانت أفضت دعواتي إلى مكسب مزدوج في إعادة السرور إلى نفسه وإنقاذي منه.

في الأيام التي تعقب تلك التي كنت أستقبل فيها لم أكن بالطبع أنتظر زيارات وكانت السيّارة تعود لتقلنا أنا و«ألبيرتين». وحينما كنّا نعود ماكان «إيميه» يستطيع، على أول درجة من الفندق، أن يحول دون النظر بعينين مشغوفتين فضوليتين نهمتين ليرى أيّ إكرامية أعطي السائق. وعيناً كنت أدفن قطعة أو ورقة النقود في يدي المطبقة فقد كانت نظرات «إيميه» تباعد أصابعي. وكان يدير رأسه بعد ثانية إذ كان غير فضولي وحسن التهذيب وكان حتى يكتفي بمكاسب صغيرة نسبياً فيما يخصّه. ولكن المال الذي يرد غيره كان يثير في صدره فضولاً لا يستطيع أن يكبته ويسيل له لعبه. كان يبدو في تلك اللحظات القصيرة متيقظاً محمواً كولد يقرأ رواية لـ «جول فيرن»، أو كرجل يتناول عشاء ويجلس في مكان غير بعيد عنك في أحد المطاعم، وهو إذ يرى أنّهم يقطعون لك تدرج لا يستطيع هو أو لا يريد أن يطلبه يهجر لحظة أفكاره الجدّيّة ليسمرّ على الطير نظرة

يبحث فيها الحبَّ والرغبة إشارة ابتسامة.

هكذا كانت تتتالي في كلَّ يوم تلك النزعات بالسيارة. إلا أن عامل المصعد قال لي ذات مرَّة لحظة كنت أستقلُّ المصعد إلى فوق: «لقد جاء هذا السيّد وكلّفني بمهمةٍ بشأنك». «قال لي عامل المصعد تلك الكلمات بصوت مرتعش تماماً وهو يسعل ويصق في وجهي. وأضاف قوله: «ياله شرع أعانيه! كما لو لم أكن قادراً على تبين ذلك وحدي». «يقول الدكتور إنَّه السعال الديكي»، وطفق يسعل من جديد ويصق عليّ. فقلت له بمظهر اللطف الذي كنت أتصنّعه: «لا تتعب نفسك بالحديث»، وبني خشية من أن أصاب بالسعال الديكي الذي ربّما كان شقّ كثيراً عليّ إمّا اقترن باستعدادي للاختناقات. ولكنّه على غرار عازف ماهر لا يودّ أن يعدّوه مريضاً، جعل اعتزازه في الكلام والتفّ طوال الوقت، وقال: «لا، لا أهمية لذلك» (وقلت في نفسي: في نظرك، وليس في نظري). على أيّ حال سأعود إلى باريس عملاً قليل (ونعم مايفعل، على أن لا ينقله إليّ قبل ذلك). وأردف يقول: «يبدو أن باريس شيء بالغ الروعة. ولا بدّ أن يكون ذلك أكثر روعة من هنا ومن «مونته كارلو» مع أنّ بعض الخدم الفتيان وحتى بعض الزبائن بل رؤساء الخدم الذين كانوا يذهبون إلى «مونته كارلو» في الموسم كثيراً ما قالوا لي إن باريس أقلّ روعة من «مونته كارلو». ربّما كانوا مخطئين، على أنّه ينبغي أن لا يكون المرء معتوهاً كي يصبح رئيس خدم. فلتسجيل الطلبات جميعها وحجز الطاولات أيّ رأس أنت بحاجة إليه! لقد قيل لي إن الأمر ربّما كان أقسى من كتابة المسرحيات والكتب». وكنا وصلنا تقريباً إلى الدور الذي أسكنه حينما أنزلني عامل المصعد إلى أسفل لأنه كان يرى أن المفتاح لا يعمل تماماً وأصلحه بلمح البصر، وقلت له إنني أفضل الصعود سيراً على الأقدام وهو ما كان يعني ويخفي أنني أفضل أن لا أصاب بالسعال الديكي. ولكن عامل المصعد عاد فدفع بي إلى المصعد بنوبة من السعال ودبة معدية. «لا خطر من بعد، الآن، فقد أصلحت المفتاح». وإذا تضخّ لي أنه لا يكفّ عن الكلام وفضّلت معرفة اسم الزائر والرسالة التي تركها لي على المقارنة بين جمالات «بالبيك» وباريس و«مونته كارلو» قلت له «كأنما لمغني «تينور» (١) يرهقك بـ«بنيامين غودار»: غنّ لي بالأحرى لـ«دو بوسّي»: ولكن مندا الذي جاء يزورني؟» - «إنّه السيّد الذي خرجت البارحة برفقته. سأمضي لجلب بطاقته المودعة لدى بوابي». لما كنت أوصلت «روبير دو سان لو» في الليلة البارحة إلى محطة «دونسيير» قبل أن أمضي لأصطحب «ألبيرتين» فقد خلت عامل المصعد يودّ الحديث عن «سان لو»، ولكنّه كان السائق. وكان، حين يشير إليه بهذه الكلمات: «السيّد الذي خرجت برفقته»، ملّمني بالمتاسبة نفسها أن عاملاً هو سيّد تماماً بقدر ما يكون رجل مجتمعات سيّداً. وهو درس كلمات حسب، فما أقمت فارقاً في يوم بالنسبة إلى قوام الأمر، بين الطبقات. ولئن أخذتني، لدى سماعهم يدعون السائق سيّداً، ذات دهشة الكونت س.. الذي لم يكن «كونت» إلا منذ ثمانية أيّام والذي جعلته إذ قلت له: «يبدو أن الكونتيسة متعبة» يدير رأسه إلى الوراء ليرى عمّن كنت أودّ الحديث، فلمجرد نقص في تعود الألفاظ؛ انني لم أقم في يوم فارقاً بين العمال والبورجوازيين وكبار السادة ولعلّي كنت اتخذت من هؤلاء وأولئك على السواء أصدقاء، مع شيء من التفضيل للعمال يليهم كبار السادة، لا عن ميل ولكن لعلمي بإمكان مطالبهم بتهذيب أكبر تجاه العمال ممّا يمكن الحصول عليه من جنب البورجوازيين، إمّا لأن كبار

(١) مغني الطبقة العالية في تصنيف أصوات الرجال.

السادة لا يزودون العمال كما يفعل البرجوازيون. أو لأنهم مهذبون تلقائياً تجاه أي كان، مثلهم مثل النساء الجميلات اللواتي يسعدن بتقديم ابتسامة يعلمن أنها تستقبل بفرح عظيم. لست أستطيع أن أقول على أية حال إن تلك الطريقة، التي كانت طريقتي في وضع عامة الناس على قدم المساواة مع ناس المجتمع الراقي، إن كانت تصادف أحسن القبول لدى هؤلاء، كانت ترضي في المقابل والدتي تمام الرضى. وليس ذلك لأنها كانت تقيم فارقاً، أي فارق، بين الناس على الصعيد الإنساني، وإن اتفق أن أصاب «فرانسواز» غم أو شكت من ألم فقد كانت تلقى العزاء والعناية على الدوام من جانب أمي بالوداد نفسه والتفاني نفسه الذي تبديه أفضل صديقة. ولكن أمي كان يطبعها أنها ابنة جذي إلى حد يحول دون أن لا تأخذ في اعتبارها الطبقات على الصعيد الاجتماعي. وعشاً يبدي أهل «كومبريه» شهامة ورقة مشاعر يأخذون بأفضل النظريات حول المساواة الإنسانية فإن أمي، حين يتحرر خادم ويقول ذات مرة «أنت» وينزلق انزلاقاً تدريجياً إلى الإقلاخ عن مخاطبتي بشخص الغائب، كانت تبدي إزاء هذه التعدييات ذات الاستياء الذي يتفجر في «مذكرات» «سان سيمون» كلما انتهز أحد السادة فرصة يتخذ بها لقب «السّم» في صكّ رسمي ولاحق له بذلك، أو لا يؤدي للدوقة مايتوجب عليه إزاءهم ومايعفي نفسه منه شيئاً فشيئاً. كان ثمة «ذهنية لكومبريه» مستعصية إلى حد ينبغي معه قرون من الطبقة (وطيبة أمي لاحت لها) ومن نظريات المساواة لنفلج في تطويعها. وليس يمكنني القول إن بعض أجزاء من تلك الذهنية لدى والدتي لم تظلّ مستعصية على الحل. ولعلها كانت استصعبت مدّ يدها لأحد الخدم بمثل السهولة التي كانت تهبه بها عشرة فرنكات (التي كانت توليه بأية حال سروراً أعظم). لقد كان الأسياد في نظرها، سواء أقرّت بالأمر أم لم تقرّ، هم الأسياد والخدم هم الذين يتناولون طعامهم في المطبخ. وحينما كانت ترى سائق سيارة يتناول عشاءه بصحبتني في قاعة الطعام لم تكن راضية تماماً وكانت تقول لي: «يبدو لي أنه بوسعك أن تلقى أفضل من ميكانيكي صديقاً لك» كما لعلها كانت قالت لو أن الأمر أمر زواج: «باستطاعتك أن تلقى مع ماكان أفضل كزوجة. وكان السائق (وإنني لحسن الحظ لم أفكر البتة في دعوة هذا الأخير) قد جاء يقول لي إن شركة السيارات التي أرسلته إلى «بالبيك» للموسم تأمره بالعودة إلى باريس منذ الغد. وبدا لنا أن هذا السبب لا بدّ مطابق للحقيقة، لاسيّما أن السائق كان ظريفاً ويتكلم ببساطة كبيرة حتى ليخيل إليك على الدوام أنها أقوال من الإنجيل. وما كان إلا نصف مطابق لها. فلم يبق بالفعل مايقوم به في «بالبيك». وكانت الشركة ترغب في جميع الأحوال، إذ لاثق ثقة كاملة بصدق الانجيلي الشاب، المستند إلى عجلة تقديسه، أن يعود أسرع ماتكون العودة. فلئن كان الرسول (١) الشاب ينجز عجائباً تكثير الكيلو مترات حينما يعدّها للسيد «دوشار لوس» فقد كان بالمقابل يقسم على ستة ماقده جناه حالما يقع عليه أن يؤدي حساباً للشركة. وكانت الشركة نتيجة لذلك، وفي اعتقادها إما أن لم يعد أحد يقوم بنزهات في «بالبيك»، والموسم يجعل الأمر محتملاً، وإما أنهم يسرقونها، كانت ترى في كلّ من الافتراضين أن من الأفضل استدعاءه إلى باريس حيث لا يقومون على أي حال بالكثير، كانت رغبة السائق أن يتجنّب موسم الكساد إن أمكن ذلك. لقد قلت -وهو ماكنت أجعله حينذاك ولعلّ معرفته كانت جنبتي الكثير من الهموم- إنه كان وثيق الصلة بـ «موريل» (دون أن يبديا البتة أن أحدهما يعرف الآخر أمام الآخرين). ومنذ

(١) فضلناها على الحواريّ لنبقى في جوّ الكاتب.

اليوم الذي استدعي فيه دون أن يعلم بعد أن لديه إمكانية الامتناع عن الذهاب، اضطربنا أن نكتفي لنزهاتنا باستئجار عربة أو جواد ركوب أحياناً لتسليية «ألبيرتين» إذ كانت تحب ركوب الخيل. كانت العربات سيئة، فتقول «ألبيرتين»: «بالعربة المهلهلة!» ولعلني كثيراً ما أحببت على أي حال أن أكون فيها بمفردي. كنت أتمنى، دون أن أبغي تحديد التاريخ، أن تنتهي هذه الحياة التي أخذ عليها أنها تضطربني إلى التخلي لأقصد أن أقول عن العمل بل عن المتعة. على أنه كان يتفق أيضاً أن تلغى على نحو مفاجئ العادات التي كانت تمسك بي، وكان ذلك في الأغلب حينما تحل «أنا» قديمة تفيض رغبة في عيش مرح محلّ الأنا الحالية على مدى لحظة. وقد أحسست على وجه الخصوص برغبة الهروب تلك ذات يوم تركت فيه «ألبيرتين» في منزل عمّتها ومضيت على صهوة جواد لزيارة آل «فيردوران» فسلكت في الغابة طريقاً موحشاً سبق أن أشادوا لي بجماله. كان يماشي أشكال الجرف فيصعد تارة وطوراً يضيّق بين الأجمات فيغوص في مضائق موحشة. وعلى مدى لحظة طفت أمام ناظري، كأنما أجزاء من عالم آخر، الصخور الجرداء والبحر الذي يترأى من شقوقها؛ لقد تعرّفت المنظر الجبلي والبحري الذي جعل منه «إيلستير» إطاراً لما ثبتيه الراجعتين: «شاعر يلتقي ربة شعر» و«شاب يلتقي قنطوراً»، اللتين شاهدتهما في منزل الدوقة «دو غير مانت». كان ذكرهما يعيد وضع الأماكن التي أقف فيها خارج العالم الراهن إلى حدّ أنني ما كنت دهشت لو أنني، على غرار الشاب الذي من عصور ما قبل التاريخ والذي يرسمه «إيلستير»، التقيت شخصاً أسطورياً في أثناء نزهتي، وفجأة احتاج جوادي وشبّ، فقد سمع ضجّة غريبة وصادفت عنثاً في السيطرة عليه وفداي السقوط أرضاً ثم رفعت عينين يملؤهما الدمع صوب النقطة التي يبدو أن الضجّة كانت تنبعث منها وأبصرت على قرابة خمسين متراً فوقني في الشمس وبين جناحين عظيمين من الفولاذ الملتصع كانا يحملان كائناً بدلي وجهه القليل الوضوح كأنما يشبه وجه إنسان. وقد بلغ بي الانفعال المبلغ الذي يمكن أن يبلغه يوناني يشاهد للمرة الأولى نصف إله. كنت أبكي أيضاً، إذ كنت مهياً النفس للبكاء مادمت قد عرفت أن الضجّة تجيئني من فوق رأسي - وكانت الطائرات نادرة بعد في هذه الفترة-، لدى التفكير بأن ما أزعج أن أراه أول مرّة إنما كان طائرة. حينئذ ما كنت أنتظر إلا أن أكون أبصرت الطائرة حتى تنهمر الدموع من عيني كحالك حينما تحسّ بورود كلام مؤثر في صحيفة. وبدا الطيار في تلك الأثناء وكأنه يتردّد حول خطّ طيرانه؛ كنت أحسّ طرق الفضاء والحياة جميعها مفتوحة أمامه - وأمامي لو لم توقّعي العادة أسيراً لها. واندفع إلى أبعد من ذلك وحلق لحظات فوق البحر ثم عقد العزم فجأة وبدا أنه ينقاد لجاذب معاكس لذلك المنبعث من الجاذبية، وكما لو يعود إلى موطنه انقضّ رأساً شطر السماء بحركة خفيفة لجناحيه المذهبين.

هياً نعد الآن إلى الميكانيكي، فقد سأل «موريل» لا أن يتخذ آل «فيردوران» سيارة محلّ عربتهم فحسب (وكان ذلك سهلاً نسبياً بالنظر إلى سخاء آل «فيردوران» تجاه الخلص) بل أن يستبدلوه، هو السائق، بجوذيهم، الرئيسي، الشاب الحساس النزاع إلى الأفكار السوداء، والأمر أكثر صعوبة. وقد جرى تنفيذ ذلك في بضعة أيام على النحو التالي. لقد بدأ «موريل» بتسهيل سرقة كل ما كان ضرورياً للإسراج من الحوذي ففي يوم لايلقى للجام، وفي آخر لايلقى الزرد. وفي مرّات أخرى كان مسند المقعد هو الذي يختفي، وحتى سوطه وغطاؤه والمقرعة والأسفنجة وجلد «الشاموا». ولكنّه تدبّر أمره دوماً مع الجيران؛ لكنّما كان يحضر متأخراً وكان ذلك

يثير حنق السيّد «فيردوران» عليه ويغرقه في حال من الحزن والأفكار السوداء. وأعلن السائق لـ «موريل»، وهو في عجلة من أمره للدخول، أنه يزمع العودة إلى باريس كان لابد من ضربة قويّة وأقنع «موريل» خدم السيّد «فيردوران» أن الحوذي الشاب سبق أن أعلن أنه سيوقعهم جميعاً في مكيدة وأنه يأخذ على نفسه أن يقهرهم هم الستّة، وقال لهم إنّه لا يمكنهم التغاضي عن ذلك. ولم يكن بوسعهم فيما يخصّه أن يقحم نفسه في الأمر ولكنّه يحذّرهم كي يبادروا هم أولاً. وأنفق أن ينهال الجميع على الشاب في الاسطبل عندما يكون السيّد والسيدة «فيردوران» وأصدقاؤهما في نزهة. وسوف أنقل هنا أنّه كان نمّه في ذلك اليوم صديق لأسرة «فيردوران» يصطاف لديهم وكانوا يودّون حمله على القيام بنزهة سيراً على الأقدام قبل رحيله الذي حدّد في المساء نفسه، مع أن هذا الأمر كان محض مناسبة لما سيجري.

مأدهشني كثيراً حين ذهبنا في نزهة أن «موريل» قال لي، وكان جاء برفقتنا في نزهة على الأقدام يقع عليه أن يعزف فيها الكمان بين الأشجار: «اسمع، إن ذراعي تؤلني ولا أودّ قول ذلك للسيدة «فيردوران»، ولكن اسألها أن تصطحب أحد أجراءئها، «هاوسلر» مثلاً، ليحمل الآتي». فأجبت قائلاً: «في اعتقادي أنّ آخر غيره قد يكون اختياراً أفضل، فهم بحاجة إليه لحفل العشاء». ولاحظت أمارات الغضب على وجه «موريل»: «لا، لا، لا أريد أن أعهد لأيّ كان بكماني». وأدركت فيما بعد سبب هذا الإيثار، فقد كان «هاوسلر» الشقيق المحبوب جدّاً للحوذي الشاب ولو أنّه مكث في البيت لاستطاع أن يمدّ له يد المساعدة. وقال «موريل» في أثناء النزهة وبصوت خفيض لا يستطيع معه الأخ الأكبر «هاوسلر» أن يسمعا: «هذا صبيّ طيّب، وأخوه طيّب كذلك. ولو لم تكن به عادة الشراب المشؤومة تلك..» وقالت السيدة «فيردوران» وقد امتقع لونها إذ فكّرت بأنّ لديها حوذيّاً يشرب «كيف ذلك، شراب؟» - «لست تلاحظين ذلك. وإنّي أقول دوماً في نفسي إنّها لمعجزة أن لا يكون وقع له حادث حينما يقود السيارة بك..» - «أترأه يحمل آخرين غيري؟» - «يكفيك أن تلاحظي كم مرّة انقلب: فوجهه اليوم تملؤه الكدمات. لست أدري كيف لم يقتل نفسه، لقد كسر محفّته». وقالت السيدة فيردوران وهي ترتعش إذ تفكّر بما كان يمكن أن يقع لها هي: «لم أره اليوم، وإنّك نغمّني». وابتغت تقصير النزهة لتعود، واختار «موريل» لحنا لـ «باخ» يحتمل تنويعات لا تخصّص كيما يطيل فيها. ومضت فور عودتها إلى الحظيرة وشاهدت الحفّة على جدّتها و«هاوسلر» يلطّخه دمه. كانت تزمع أن تقول له، دون أن تبدي له آية ملاحظة، إنّها لم تعد بحاجة لحوذيّ، وأن تعطيه مالا، ولكنّه طلب من تلقاء ذاته أن ينصرف، إذ لا يريد أنهام رفاقه الذين كان يعزو بعد الأوان إلى عدائهم السرقة اليومية التي تتناول سروجة جميعها، الخ.، وبذلك سويّ كلّ شيء. ودخل السائق في الغد وقد أحسّت السيدة «فيردوران» فيما بعد (وكانت اضطرت أن تستخدم آخر) بالرضى الشديد عنه إلى حدّ أنّها أوصتني به بحرارة وكأنّما برجل يوحى بثقة مطلقة. وأخذته في باريس بالمياومة أنا الذي كان يجهل كلّ شيء. ولكن ما أكثر ما استبقت الأمور فكلّ ذلك سنعود فنلقاه في قصّة «البييرتين». أمّا في هذه الفترة فإنّي في «لاراسيلير» التي أحضر للعشاء فيها أوّل مرّة بصحبة صديقتي، والسيدة «دوشار لوس» بصحبة «موريل» الابن المفترض «المدير» يكسب ثلاثين ألف فرنك سنوياً كدخل ثابت ويملك عربة وعدداً من القهرمانات ذوي المراتب الدنيا والبستانيّين والمشرفين والمزارعين الذين يأتّمرون بأمره. ولما كنت قد سبقت كثيراً، فإنّي لا ابتغي مع ذلك أن أخلف لدى القارئ انطباعاً بخبث



مطلق انطلوت عليه نفس «موريل». فقد كان بالأحرى يفيض تناقضات وكان قادراً في بعض الأيام على إبداء لطف حقيقي.

لقد دهشت تماماً بالطبع إذ علمت أن الحوذني قد طرد، وأكثر من ذلك أن أتعرّف في شخص بديله السائق الذي أخذنا في زهات أنا و«ألبيرتين». ولكنه ألقى على مسامعي قصة معقدة كان يفترض وفقاً لها أن يكون عاد إلى باريس حيث طلبوه من أجل آل «فيردوران»، ولم يخالجنني الشك مقدار ثانية. فإن طرد الحوذني كان سبباً في حديث قليل أدلى به «موريل» كي يعرب لي عن حزنه بالنسبة إلى رحيل هذا الشاب الطيب، وإذا رأى «موريل» من جانب آخر، حتى خارج اللحظات التي كنت فيها وحدي والتي كان يشب إليّ فيها، بالمعنى الحرفي للكلمة، بفيض من السرور، إذ رأى أن الجميع كانوا يحتفون بي في «لاراسبليير» وشعر أنّه يقصي نفسه طوعاً عن ألفة شخص لا يشكل خطراً عليه بما أنه نفس كلّ الجسور من حولي وجردني من أية إمكانية للظهور مظهر الحامي له (الذي لم أفكر البتّة على أيّ حال في اتخاذه)، فقد كفّ عن البقاء بعيداً عني. وعزوت التبدّل في موقفه إلى تأثير السيّد «دوشارلوس» الذي كان يجعله أقلّ محدودية حول بعض النقاط وأكثر فنّاً ولكنه كان يزيد من غبائه حول نقاط أخرى كان يطبّق فيها حرفياً قواعد معلّمه البليغة الكاذبة، والمؤقّعة على أيّ حال. فالشيء الوحيد الذي افترضته كان بالفعل ما أمكن أن يقوله له السيّد «دوشارلوس». فكيف كان لي أن أحرز حينئذ ما قبل لي فيما بعد (ومالم أتيقّن به في يوم، إذ بدت لي توكيدات «أندريه» في كلّ مايتعلّق بـ«ألبيرتين»، ولاسيّما فيما بعد، بدت لي دوماً مشكوكاً فيها إلى حدّ بعيد، ذلك لأنّها حسبما تبيّناه في السابق، لم تكن صادقة في حبّ صديقتي وكانت تغار منها)، وما أخفي عنيّ في جميع الأحوال، إن كان صحيحاً، بصورة ملفّقة من جانبهما كليهما : عنيت أنّ «ألبيرتين» كانت على معرفة وثيقة بـ«موريل» ؟ لقد سمح لي الموقف الجديد الذي وقفه مني «موريل» حوالي تلك الفترة من طرد الحوذني، بتغيير رأيي فيه. فقد احتفظت من طبعه بالفكرة البشعة التي حملتني إليها الدناءة التي أبداها لي ذلك الشاب حينما كانت به حاجة إليّ وأعقبها فور تأدية الخدمة ازدراء بلغ به حدّ الظهور مظهر من لايراني. وكان لابدّ أن نضيف إلى ذلك وضوح صلات له بالسيّد «دوشارلوس» تطبعها الرشوة إلى جانب الغرائز البهيمية التي لاعتاقبة لها والتي كان نقص إشباعها (إنّما اتّفق ذلك) أو التعقيدات التي تحملها معها تسبّب أحزانه. لكنّ ذلك الطبع لم يكن متماثل القبح إلى هذا الحدّ وكان مليئاً بالتناقضات. كان يشبه كتاباً عتيقاً من العصر الوسيط مليئاً بالأخطاء والتقاليد اللامعقولة والبداءات، وكان مزيجاً عجيباً من عناصر شتى. وظننت في البداية أنّ فنّه الذي امتلك حقّاً ناصيته قد أولاّه صنوفاً من التفوّق تتجاوز براعة العازف العاديّ. وفي مرّة كنت أعرب فيها عن رغبتني في مباشرة العمل قال لي: «هياّ اعمل وصر مشهوراً». فسألته: «ولن القول؟» - «من «فوننتان» إلى «شاتوبريان».

كان يعرف كذلك مراسلات غرامية لـ«نابليون». وفكرت قائلاً: حسن، إنّه مثقّف. ولكنّ تلك الجملة التي لا أعلم أين قرأها كانت دون شكّ الوحيدة التي يعرفها في كلّ الأدب القديم والحديث إذ كان يرّددها على مسامعي كلّ مساء. كان نمةً أخرى يرّددها أكثر كي يمنعني أن أقول عنه شيئاً لأحد هي هذه التي كان يظنّها أدبية أيضاً وتكاد لا تكون فرنسية أو هي على الأقلّ لا تتضمن أيّ معنى إلّا ربّما في نظر خادم نزاع إلى الخفاء : «فلنحذر من طبعهم الحذر». ولعلّنا بانتقالنا من هذا القول المأثور وصولاً إلى جملة «فوننتان» إلى

«شاتوبريان»، لعلنا نكون طغنا في الأساس بقسم كامل من طبع لـ «موريل» منوع ولكنه أقل تناقضاً مما يبدو. فهذا الفتى الذي كان فعل، بشرط أن يكسب من ذلك مالا، أي شيء ودون تبيكت ضمير - وربما لم يخل الأمر من تكدر غريب يصل حد التهيج العصبي الشديد ولكن اسم تبيكت الضمير قد لا ينطبق عليه تماماً، والذي كان أشاع الأسى أو حتى الحداد، إن رأى في ذلك مصلحته، في نفوس عائلات بأسرها، هذا الفتى الذي كان يضع المال فوق أية منزلة، وبصرف النظر عن الطيبة، فوق مشاعر الإنسانية البحتة الأكثر قرباً من الطبيعية، هذا الفتى نفسه كان يضع مع ذلك فوق المال دبلوم الجائزة الأولى الذي حصل عليها من الكونسرفتوار وأن لايسع أحداً أن يقول قولاً يتناوله بالسوء في درس الناي أو «الكونتريوان». لذلك كانت أعظم صنوف غضبه ونوبات احتياجه الأكثر كآبة والأقل تبريراً ناجمة عما كان يدعوه (وهو يعصم دون شك بعض الحالات الخاصة التي صادف فيها بعض السيئي الطوية) بالخداع الشامل. وكان يباهي بتحاшибه وذلك بأن لايتكلم عن أحد البتة وبإخفاء أوراقه وبإبداء الحذر من الجميع. (ولكن حذره، لسوء حظي وبسبب ماكان سينتج عنه بعد عودتي إلى باريس، لم يفلح إزاء سائق «بالبيك» الذي لاشك أنه تعرّف فيه مثيلاً له، أي بعكس حكمته المأثورة محاذراً بالمعنى الجيد للكلمة، محاذراً معانداً في صمته في حضرة الشرفاء وتراه في الحال شريكاً للخليع). كان يبدو له - وما كان الأمر خطأ تماماً - أن ذلك الحذر سوف يمكّنه من التخلص دوماً من أية ورطة والانسلال خفياً لاندركه العين عبر أكثر المغامرات خطورة ودون أن يستطيع أحد انجيء بشيء ضده في معهد شارع «بيرجير» (١)، ناهيك عن إقامة البرهان على شيء ضده. سوف يعمل ويصبح مشهوراً وربما أضحى في يوم، والكرامة محفوظة لامساس بها، رئيس اللجنة الفاحصة للكمائن في مسابقات هذا المعهد الشهير.

ولكن ربما بالغنا في مانضع من منطق في دماغ «موريل» بأن نخرج منه التناقضات بعضها من بعض. والحقيقة أن طبيعته كانت حقاً كورقة جعلوا فيها من الثنيات في كل اتجاه ما يستحيل معه الاهتداء فيها. كان يبدو أن لديه مبادئ سامية إلى حد ما وكان يقضي ساعات يكتب فيها إلى شقيقه، بخط رائع تشوّهه أبشع الأخطاء الإملائية، أنه أساء التصرف مع شقيقاته وأنه الكبير بينهم وهو سندهم، وإلى شقيقاته أنهن كنّ غير لائقات تجاهه هو. بل إنك بعد قليل حينما كنت، والصيف في أواخره، تنزل من القطار في «دوفيل» ماكانت الشمس، وقد خفّفها الضباب، ماكانت في السماء ذات اللون الخبازي المتساوي سوى كتلة حمراء. وكان ينضاف إلى السكون الكبير الذي يحلّ في المساء على هذه المروج الكثيفة المليحة والذي كان نصح الكثيرين من الباريسيّين، وغالبيتهم من الرّسامين، في المبادرة إلى الاصطياف في «دوفيل» رطوبة تحملهم على الرجوع في ساعة مبكرة إلى الشاليهات الصغيرة، وفي كثير منها كان المصباح قد أوقد. وحدها بعض الأبقار كانت تلبث في الخارج تنظر إلى البحر وهي تخور، بينما تبدي أخرى غيرها اهتماماً أكبر بالإنسانية فتصرف انتباهها إلى سيارتنا. وثمة رسام كان، بعدما نصب حامل لوحاته على رابية صغيرة، يعمل وحده في محاولة ردّ هذا السكون العظيم وهذه الضياء. وربما كانت الأبقار عازمة على أن توقّر له نماذج على نحو غير واع وقطوعي إذ أن مظهرها التأملّي ووجودها المفرد بعدما يكون البشر قد عادوا، كانا يسهمان على طريقتهما في هذا الانطباع

(١) حيث المعهد العالي للموسيقى.

القوي من السكنينة المنبعث من المساء. ولم تكن عملية النقل بعد انقضاء عدّة أسابيع أقلّ امتاعاً حينما أضحي النهار بتقدّم الخريف قصيراً جداً وانبغي إتمام هذه الرحلة ليلاً. فإن قمتُ بجولة بعد الظهر كان لابدّ من العودة في الخامسة على أبعد حدّ لارتداء ثيابي، وكانت الشمس حينها قد انحدرت مستديرة حمراء وسط المرأة المائلة الممجوجة فيما مضى، وأخذت تلهب، شأن نار رومية، مياه البحر في زجاج مكتباتي كافة. وإذا أثارت حركة تعزيمية، فيما كنت أرتدي لباسي الرسمي، الأنا الرشيق الطائشة التي كانت لي حينما كنت أمضي بصحبة «سان لو» للعشاء في «ريفييل» وفي العشية التي خلّطني سأصطحب فيها الأنسة «دوستير ماريا» لتناول العشاء في جزيرة الغابة، أخذت أدندن على نحو غير واع لحن ذاك الحين نفسه؛ وكنت حينما ألاحظ ذلك فقط أتعرّف من الأغنية المغني «المعاود» الذي ما كان يعرف بالفعل غيرها. فأول مرّة غنيته فيها كنت أخذاً في حبّ «ألبيرتين» ولكنّي كنت أظنّ إنني لن أعرفها في يوم. وكان ذلك فيما بعد في باريس حينما توقّفت عن حبّها وبعد بضعة أيام على امتلاكها لها أوّل مرّة. والآن كان ذلك وأنا أخذ في حبّها من جديد ولحظة الذهاب لتناول طعام العشاء معها فأثير أسف المدير الذي كان يعتقد أنني سوف أسكن في النهاية في «لاراسيلير» وأتخلّى عن فندقه والذي كان يؤكّد أنه سمع من يقول أن ثمة حمات تتسيّد المكان ناجمة عن مستقعات «دوبيك» ومياها «العاسنة» (١) كنت سعيداً لهذا التعداد الذي أراه على هذا النحو في حياتي المنشورة على ثلاثة مستويات. ثم إنك حينما تعود فتصبح على مدى لحظة إنساناً سابقاً، أعني مختلفاً عن الإنسان الذي أنت عليه منذ زمن بعيد، فإن الحساسية إذ لم تعد تكسر العادة من حدّتها تجني من أدنى الصدمات انطباعات حادة إلى درجة أنها تحجب كلّ ماسبقها وأتأثّر بها، من جرّاء شدّتها، بالحساسية العابرة التي تهزّ السكير. كان الليل قد حلّ حينما كنّا نستقل الحافلة أو العربة التي كانت ستقلنا إلى المحطة لنستقلّ القطار الصغير. وكان الرئيس الأوّل يقول لنا في الردهة: «آه! تذهبون إلى «لاراسيلير» يالها، السيّدة «فيردوران»، وآية جسارة أن تحملك على قضاء ساعة في القطار في أثناء الليل لمحض أن تتناولوا طعام العشاء، ثم تعاودون المشوار في العاشرة ليلاً عبر رياح جهنمية، واضح تماماً أنه لابدّ أن ليس لديكم ماتفعلون» يضيف قوله وهو يفرك يديه. ولأنك أنه كان يتكلّم على هذا النحو لاستيائه من أنه لا يدعى وبسبب الارتياح الذي يحسّه الناس «المشغولون» - حتى بأكثر الأعمال غياباً - في «أن لا يتوافر لهم الوقت» ليقوموا بما تقوم به. وإنه لمن المشروع بالتأكيد أن يحسّ الرجل الذي يسطرّ تقارير ويراكم الأعداد ويردّ على رسائل تجارية ويتابع أسعار البورصة، عندما يقول لك مقهقهة: «هذا يناسبك أنت الذي ليس عنده مايفعله»، بمتعة الشعور بتفوقه، ولكنّ هذا التفوق كان يتجلّى بذات القدر من الاستكبار، بل وأكثر (فالعشاء في المدينة يفعله الرجل المشغول أيضاً)، إن قامت تسليتك على كتابة «هاملت» أو على قراءته فحسب، وفي ذلك يفتقر الرجال المشغولون إلى التفكير. ذلك لأن الثقافة الخالية الغرض التي تبدو لهم تسلية من فعل عاطلين عن العمل حينما يضبطونها في لحظة قيامك بها إنّما ينبغي التفكير بأنّها هي ذاتها التي تضع في مكانة فذة داخل مهنتهم رجالاً ربّما ليسوا قضاة أو مديرين أفضل منهم ولكنّهم ينحنون أمام تقدمهم السريع قائلين: «يبدو أنه مثقّف كبير وشخص متميّز تماماً». ولكنّ الرئيس الأوّل ما كان يتبيّن على وجه الخصوص أنّ ما يروفي في حفلات العشاء هذه في «لاراسيلير»

(١) يريد بها «الآنسة».

أنها «تمثل رحلة حقيقية» كما كان يقول بحق، وإن كان على سبيل الانتقاد، رحلة كان يبدو سحرها متزايد القوة بقدر مالم تكن هدفاً لذاتها ولا يبحثون فيها البتة عن المتعة، فهذه مخصصة للاجتماع الذي يمشون إليه والذي لا يكف عن التبدل الشديد من جراء الجو الذي يحيط به. كان الليل قد حلّ الآن حينما كنت أستبدل بحرارة الفندق -الفندق الذي أصبح بيتي- عربة القطار التي كنت أضعدها إليها برفقة «ألبيرتين» والتي يطلعني انعكاس المصباح على زجاجها في بعض مواقف القطار الصغير المنهوك القوى على أننا وصلنا إلى محطة. وكى لا أجازف بأن لا يصيرنا «كوتار»، ولما لم أسمع باسم المحطة ينادون عليه، فقد كنت أفتح باب العربة، ولكن ما يهرع إلى العربة كانت الريح والمطر والبرد وليس الخلع. وكنت أميز في العتمة الحقول وأسمع البحر فقد كنا في أرض مكشوفة. كانت «ألبيرتين» قبل أن نلحق بالنواة الصغيرة تنظر في مرآة صغيرة تخرجها من صندوق زينة ذهبيّ تحمله معها. فقد كانت السيدة «فيردوران» في المرات الأولى قد أضعدها إلى حجرة ملابسها كي تتزين قبل العشاء وأحسست أنا في صميم الطمأنينة العميقة التي كنت أعيش فيها منذ بعض الوقت بشيء من الاضطراب والغيرة لاضطراري أن أترك «ألبيرتين» في مطلع الدرج وشعرت بضيق عظيم فيما كنت في الصالة وحيداً وسط العشيرة الصغيرة أتساءل عما كانت صديقتي تفعل فوق إلى حدّ إنني بادرت في الغد فأوصيت برقيّاً، بعدما سألت السيد «دوشارلوس» حول ما كان أكثر أناقة في هذا المضمار، على صندوق زينة لدى «كارتييه» كان يهيج «ألبيرتين» ويهيجني. لقد كان بالنسبة إليّ عربون طمأنينة وكذلك عربون عطف صديقتي. فقد حررت بالتأكيد أنني ما كنت أودّ أن تمكث بدوني لدى السيدة «فيردوران» فكانت تتدبّر أمرها فتقوم في عربة القطار بكامل الزينة التي تسبق العشاء.

كان السيد «دوشارلوس» قد أصبح الآن منذ عدة شهور في عداد رواد منزل السيدة «فيردوران» وأكثرهم جميعاً إخلاصاً. فقد كان المسافرون الذين يتوقّفون في قاعات الانتظار أو على رصيف «دونسيير» الغربية يشاهدون بانتظام ثلاثاً في الأسبوع هذا الرجل السمين يمرّ بشعره الأبيض وشاربه الأسود وشفتيه الحمراء بفعل خضاب يلاحظ في آخر الموسم أقلّ منه في الصيف حيث يجعله الضياء الساطع أكثر التمعاً والحرّ نصف مائع. وما كان يستطيع، وهو يتوجّه إلى القطار الصغير، أن يملك نفسه (من جراء عادة الخبير لديه فحسب، بما أن لديه الآن إحساساً كان يجعله عفيفاً أو على الأقل مخلصاً في غالب الأحيان) عن أن يلقي على الرجال الكادحين والعسكريين والشبان بلباس كرة المضرب نظرة يختلسها قاسية هيابة في أن معاً يرخي بعدها جفنيه في الحال على عينيه المطبقتين تقريباً بعدوبة رجل دين يصلي مسبحته، وتحفظ زوجة نذرت نفسها لحبها الوحيد أو فتاة حسنة التهذيب. كان يزيد من قناعة الخلع بأنه لم يصبرهم صعوده إلى مقصورة غير مقصورتهم (كما كانت تفعل في الغالب أيضاً الأميرة «شيرياتوف») فعل رجل لا يعرف إن كان يسرك أو لا يسرك أن تشاهد بصحبته فيدع لك أن تأتي للقاءه إن رغبت في ذلك. والرغبة لم يكادها الدكتور في المرات الأولى وقد شاء أن ندعه وحده في مقصوره. وإذا كان يبرز عالياً، منذ أن أصبح يشغل مكانة طيبة كبيرة، طبعه المتردد فقد قال وهو يتسم وينقلب إلى الورا وينظر إلى «سكي» من فوق نظارته، قال بخبث أو كى يفاجئ مواربة رأي رفاقه : «تدركون، لو كنت وحدي، عازباً.. ولكنني أتساءل إن كنت أستطيع، بسبب زوجتي، أن أدع له أن يسافر معنا بعد الذي قلموه لي» يضيف الدكتور همساً. وسألت السيدة «كوتار» تقول

: «مالذي تقول ؟» فأجاب الدكتور وهو يغمز بعينه :«لاشيء والأمر لايعنيك وليس للنساء»، أجاب بجلال الراضي عن نفسه، جلال هو الوسط بين مظهر المضحك الذي لا يضحك الذي يحتفظ به أمام تلاميذه ومرضاه والقلق الذي كان يرافق نكاته فيما مضى في منزل آل «فيردوران»، وتابع كلامه بصوت خافت. ولم تتبين السيّد «كوتار» سوى لفظتي «من الجماعة» و«لسان» (١)، ولما كانت الأولى تعني في لغة الدكتور جنس اليهود والثانية اللسان الثّر الكلام فقد خلصت السيّد «كوتار» إلى أن السيّد «دوشارلوس» لابدّ كان يهودياً ثرّاراً. ولم تفهم أن يجري استبعاد البارون بسبب ذلك وحكمت أن من واجبه كعميدة للعشيرة أن تطالب بأن لا يتركوه وحده واتخذنا جميعاً طريقنا إلى مقصورة السيّد «دوشارلوس» ودلينا إليه «كوتار» الدائم الارتباك. ولمح السيّد «دوشارلوس» ذاك التردّد من الركن الذي كان يقرأ فيه كتاباً لـ «بلزاك»، مع أنّه لم يرفع ناظره. ولكن مثلما يعرف الصمّ البكم من مجرى هواء لا يحسّه الآخرون أنّ أحدهم يجيء على إثرهم كان يملك فرط حدة إحساس حقيقة كيما يتنبّه للفتور الذي يواجهه به. وقد ولدت تلك الحدة لدى السيّد «دوشارلوس» عذابات وهمية كما تعودت أن تفعل في سائر المجالات. وعلى غرار مرضى الأعصاب الذين يستشفون حين يحسّون برودة خفيفة أنّه لابدّ ثمة من نافذة مفتوحة في الدور العلوي فيثرون غاضبين ويأخذون بالطاس، كان السيّد «دوشارلوس» يستخلص، إن أبدى أحدهم انشغالاً وهمّاً في حضرته، أنّهم لابدّ ردّدوا لذلك الشخص قولاً سبق أن قاله فيه. بل لم تكن ثمة حاجة أن يبدو المرء ساهياً أو متجهّماً أو مستهزئاً فقد كان يتدع تلك المظاهر. وكانت المودة في مقابل ذلك تحجب عنه بيسر ضروب النيمية التي لا يعرفها. وإذ حرز في المرّة الأولى تردّد «كوتار»، ولكن مدّ يده فأثار إلى حدّ بعيد دهشة الخُص، ويظنّون أن القارئ المطرق الرأس لم ييصبرهم بعد، لكن مدّ لهم يده حينما أصبحوا على مسافة مناسبة فقد اكتفى بالنسبة إلى «كوتار» بانحساء لكامل جسمه، الذي سارع في الحال فاعتدل، دون أن يأخذ بيده التي يكسوّه قفاز من السويد اليد التي كان الدكتور قد مدها له. وقالت السيّد «كوتار» للبارون بلهجة تفيض طيبة :«لقد حرصنا كلّ الحرص ياسيّد على مراقبتك وعلى أن لاندعك هكذا وحيداً في ركنك الصغير. إنّهُ لسرور عظيم نصيبه.» وتلا البارون بلهجة فاترة وهو ينحني :«لقد نلت شرفاً عظيماً.» -«سعدت كثيراً حين علمت أنّك اخترت هذا البلد بصورة نهائية لتقيم فيه مظهراً...» لقد أوشكت أن تقول مظلّتك، ولكنّ الكلمة بدت لها عبرية ومكدّرة بالنسبة ليهوديّ يمكن أن يرى فيها تلميحاً. فاستدركت بغية اختيار تعبير آخر من تلك المألوفة لديها، ونعني بها عبارة رسمية :«لتقيم فيه، قصدت أن أقول «آلهة بيتك» (صحيح أن هذه الآلهة ما كانت بدورها تنتمي إلى الديانة المسيحية بل إلى أخرى اندثرت منذ فترة طويلة جدّاً حتى لم يعد لها أتباع تخشى الإساءة إليهم). أمّا نحن فلا نستطيع، لسوء الحظ، بسبب افتتاح المدارس وعمل الدكتور في المشفى، لا نستطيع البتّة اختيار مسكن لنا في المكان نفسه.» ثمّ قالت وهي تربه بطاقة دعوة :«انظر على أيّ حال كم نحن النساء أقلّ حظاً من الجنس الخشن فإننا نضطرّ في ذهابنا إلى مكان يمثل قرب منزل أصدقائنا آل «فيردوران» أن نحمل معنا طائفة من الحاجات.» أمّا أنا فكنت أنظر في هذه الأثناء إلى مجلّد «بلزاك» خاصّة البارون. لم يكن طبعة بغلاف عاديّ ابتيعت مصادفة

(١) الحقيقة أن كلمة «Tapette» تعني «لسان» في اللغة الدارجة و«لوطي سلبى» في اللغة البذيئة، وإن كنا اخترنا المعنى الأول فليتماشى مع مايلي مع أن الثاني هو المقصود.

مثل مجلد «بيرغوت» الذي أقرضني إياه في السنة الأولى. لقد كان واحداً من مجلدات مكتبته وكان يحمل بصفته تلك الشعار التالي: «أني أخصّ البارون «دوشارلوس» الذي تفصح له في المجال أحياناً، إبرازاً لميل لدى آل «غير مانت» إلى العمل المجّد، مثل هذه «In praeliis nom semper» (ليس في المعارك دوماً)، وأخرى أيضاً مثل: «Non sine labore» (لا شيء يجيئك دون جهد). ولكننا سنجدها عملاً قليل وقد حلّ محلّها أخرى في محاولة منه ليحسن في عين «موريل». وياشرت السيّد «كوتار» بعد فترة موضوعاً كانت ترى أنّه ألصق بشخص البارون، فقالت له بعد فترة وجيزة: «لست أدري إن كنت تشاركني الرأي يا سيّد، ولكنني رجبة الفكر إلى حدّ بعيد، والأديان كلّها حسبما أرى صالحة، بشرط أن يمارسها المرء باخلاص. ولست من هؤلاء الناس الذين يجعلهم منظر أحد البروتستانتين .. يخشون المياه». فأجاب السيّد «دوشارلوس»: «لقد علّموني أن ديني هو الحق». وفكرت السيّد «كوتار» قائلة: «إنّه متعصّب. لقد كان «سوان» أكثر تسامحاً إلّا في أواخره، وصحيح أنّه كان قد اهتدى إلى الإيمان». ولكنّ البارون، على العكس تماماً، لم يكن مسيحياً على نحو ماهو معلوم فحسب، بل كان تقيّاً على طريقة العصر الوسيط. لقد كانت الكنيسة المسيحية بالمعنى الحيّ للكلمة، في نظره ونظر النحّاتين في القرن الثالث عشر على السواء، تعمّرها طائفة من الكائنات يعتقد أنّها حقيقة تماماً: أنبياء ورسل وملائكة وقديسون من كل نوع يحيطون بالكلمة المتجسّد ووالدته وزوجها الآب الأزلي، والشهداء ومعلّموا الكنيسة جميعاً حتّى إن جمهرتهم تتدافع بارزة النقوش على البوّابة أو تملأ صحن الكاتدرائيّات. وكان السيّد «دوشارلوس» قد اختار من بينهم بمشابة أولياء شفعاء له رؤساء الملائكة ميخائيل وجبرائيل ورفائيل الذين كان يجري معهم أحاديث متعدّدة كي ينقلوا توسّلاته إلى الآب الأزلي الذي يقفون أمام عرشه. ولذلك أضحتني غلطة السيّد «كوتار» كثيراً.

ولنقل، كيما ندع الميدان الديني جانباً، إنّ الدكتور الذي جاء إلى باريس يحمل زوادة يسيرة قوامها نصائح والدة فلاحة، ثم شغلته الدراسات الماديّة المحضة تقريباً التي يضطرّ من يغنون الذهب بعيداً في مهنتهم الطبيّة أن يصرفوا النفس إليها على مدى سنوات كثيرة لم يتحقّق في يوم. لقد اكتسب قسطاً أوفر من النفوذ، ولكنّه لم يكتسب خبرة. وقد أخذ كلمة «أصبنا شرفاً» بالمعنى الحرفي فاغتبط بها إذ كان مغروراً واغتمّ لها إذ كان تقيّ طبيباً في آن معاً. وقال في المساء لزوجته: «دوشارلوس المسكين، ياله، لقد شقّ عليّ حينما قال لي إنّ نال شرفاً عظيماً بسفره برفقتنا. تحسّ أنّه، المسكين، لا معارف له وأنّه بذلّ نفسه».

لكنّ الخلص أفلحوا بعد قليل، ودونما حاجة بهم أن تقودهم السيّد «كوتار» الشفوقة، في السيطرة على الحرج الذي عانوا جميعاً منه إلى حدّ ما في البداية لأن يكونوا بجانب السيّد «دوشارلوس». فليس من شكّ أنّهم ما كان يغرب عن بالهم وهم في حضرته ذكرى تصريحات «مكي» وفكرة الغرابة الجنسيّة التي ينطوي عليها رفيق أسفارهم. بيد أنّ هذه الغرابة عينها كانت تمارس عليهم نوعاً من الجاذب. كانت تولي حديث البارون في نظرهم، وهو ملفت على أيّ حال ولكنّما في أجزاء يكاد أن لا يسعهم تقديرها، نكهة كانت تظهر حديث أكثرهم إشارة، وحتّى «بريشو» نفسه إلى جانبه، على أنّه تافه بعض الشيء. وقد طاب لهم منذ البداية على أيّ حال أن يقرّوا بأنّه ذكيّ «العبقريّة يمكن أن تجاور الجنون»، يعلن الدكتور قوله، فإن ألحّت الأميرة، في نهمها إلى التعلّم، لم يكن ليزيد على ذلك إذ المسلّمة هذه كلّ ما كان يعرف عن العبقريّة وهي لا تبدو له

من جانب آخر واضحة البرهان وضوح كل ما تعلق بالحمى التيفية والتهاب المفاصل. ولما كان قد أضحى متعجرفاً ولبت سيء التهذيب: «لا أسئلة أيتها الأميرة، لانسأليني فيني على شاطئ البحر لأستريح. ولن تفهميني بأية حال، فلست عارفة بالطب». وكانت الأميرة تصمت وهي تعتذر إذ ترى «كوتار» رجلاً ظريفاً وتذكر أن ليس مشاهير الناس دوماً ليئي الجانب. لقد خلصوا في هذه الفترة الأولى إذن إلى اعتبار السيد «دوشارلوس» ذكياً على الرغم من المعيبة التي به (أو ما يطلقون عليه هذا الاسم بعامة). والآن كانوا بسبب تلك النقيصة، ودون أن يتبينوا ذلك، يرون أنه أوفر ذكاء من الآخرين. كانت أبسط الحكم التي ينطق بها السيد «دوشارلوس»، وقد استشاره بمهارة الجامعي أو النحات، حول الحب والغيرة والجمال، كانت تكتسب في نظر الخلف، بسبب التجربة الفريدة والخفية والمرفهة والرهبة التي استقاها منها، سحر الشعور بالغربة الذي ترتديه سيكولوجية شبيهة بتلك التي قدّمها لنا على الدوام أدبنا المسرحي في مسرحية روسية أو يابانية يقوم بأدوارها ممثلون من هناك. كانوا بعد يجازفون، حينما لا يسمح، بالقاء مزحة مستنكرة؛ فكان النحات يهمس لدى رؤيته مستخدماً شائناً بأهداب كثيرة الألوان طويلة لم يستطع السيد «دوشارلوس» أن يملك نفسه عن التفرس فيه: «آه! إن شرع البارون يغمز بعينه للمفتش فلن نصل عن قريب وسيمضي القطار القهقري. فهياً شاهدوا بأية طريقة ينظر بها إليه، وبعد ليس مانحن فيه قطار صغير، إنه «معجزة» (١) ولكنهم كانوا في الأساس يحسّون بالخيبة تقريباً إن لم يجع السيد «دوشارلوس»، للسفر بين مجرد أناس مثل كل الناس وأن لا يكون بالقرب منهم ذاك الشخص الذي تغطيه الأصباغ المنتفخ المغلق الذي يشبه علبة أجنبية مشبوهة تنبعث منها الرائحة الغريبة التي لفواكه تكفي فكرة مجرد تذوقها لتصاب بالفثيان. ومن وجهة النظر هذه كان الخلف من الذكور يصيرون مسرات أكثر شدة في الجزء القصير من الرحلة الذي يقطعونه بين «سان مارتان دوشين» حيث يصعد السيد «دوشارلوس» و«دونسير» حيث يلحق بهم «موريل». فما كان السيد «دوشارلوس»، مادام عازف الكمان غير موجود هناك (وإن أقامت السيدات و«ألبيرتين» بعيداً وقد انتحن جانبا كي لا ينگدن عليهم الحديث) ما كان يتحرّج كي لا يبدو أنه يتجنّب بعض الموضوعات ويتكلم عمّا اصطلح على تسميته بسوء الأخلاق. ما كان بوسع «ألبيرتين» أن تضايقه إذ كانت على الدوام برفقة السيدات وذلك تلطفاً من فتاة لاتود أن يحدّ وجودها من حرية الحديث. أمّا أنا فكنت أحتمل بيسر أن لا تكون إلى جانبي ولكن بشرط أن تمكث في العربة نفسها. فأنا الذي كان لا يحسن من بعد لا بالغيرة عليها ولا بالحبّ تقريباً ولا يفكر بما كانت تفعل في الأيام التي لا يراها فيها، إنّما كان حاجز بسيط، ساعة أكون حاضراً، ويمكن لدى الاقتضاء أن يخبي خيانة، كان عسير الاحتمال في نظري، فإن مضت برفقة السيدات إلى المقصورة المجاورة كنت بعد حين لا أطيق المكوث في مكاني فأنهض مجازفاً بتقدير من كان يمسك بزمام الكلام، «بريشو» أو «كوتار» أو «دوشارلوس» الذين ما كان بمقدوري أن أوضح لهم سبب هربي، فأتركهم هناك وانتقل إلى الجوار لأرى إن لم يكن ثمة أمر غير طبيعي. وكان السيد «دوشارلوس» يتحدث حتى «دونسير»، إذ لاخشية به من خدش الأسماع، حديثاً شديد الفجاجة أحياناً عن عادات يعلن أنه لا يراها فيما يخصه حسنة أو سيئة. كان يفعل ذلك عن مكر كيما يظهر سعة فكره

(١) نحاول ما أمكن ردّ التلاعبات اللفظية، وهي بذية في هذا السياق  
(funiculeur , funiculaire)

إذ هو على يقين أن ممارساته تكاد لاثير أي ارتياب في أذهان الخلق. كان يعتقد جازماً أن في الكون بضعة أشخاص كانوا حسب تعبير أصبح فيما بعد مألوفاً عنده، «على بينة من أمرهم فيما يخصه». ولكنه كان يتصور أن أولئك الأشخاص لايتجاوزون الثلاثة أو الأربعة وأن ليس واحد منهم على الشاطئ النورماني. ومثل هذا الوهم يمكن أن يشير العجب من جانب شخص يمثل رفاقته وبمثل تحسبه. فقد كان يمني النفس حتى بالنسبة إلى من يظنهم على بعض اطلاع بأن ذلك إنما يحيط به الغموض، ويزعم أنه، حسبما يقول لهم هذا الشيء أو ذاك، يضع هذا الشخص أو ذاك خارج نطاق افتراضات محاور كان يتظاهر تأدياً بتقبل أقواله. كان يتصور، حتى إن شك بما يمكن أن أعرفه أو افترضه حوله، أن ذاك الرأي، الذي يظنه أكثر قدماً فيما يخصني مما كان في الواقع، كان عاماً جداً، وأنه يكفي إنكار هذا التفصيل أو ذاك كيما يصدقوه في حين أن معرفة الإجمال إن كانت على العكس تسبق دوماً معرفة التفاصيل فإنها تسهل إلى أبعد حد البحث عنها ولا يمكن من يبغي كتم الأمور، بعدما قضت على إمكان التخفي، من إخفاء ما يحلو له إخفاءه. صحيح أن السيد «دوشارلوس» حينما كان يلجأ، إذ يدعوه واحد من الخلق أو واحد من أصدقاء الخلق إلى حفل عشاء، إلى أكثر المداورات تعقيداً ليسوق ضمن أسماء الأشخاص العشرة الذين يذكروهم اسم «موريل» ما كان يرتاب أن مضيفيه كانوا يضعون محل الأسباب المختلفة على الدوام التي كان يقدمها حول البهجة أو الارتياح الذي يمكن أن يصادفهما في ذلك المساء إن هو دعي معه، وفيما يتظاهرون بأنهم يصدقونه تماماً، سبباً وحيداً لا يتبدل البتة وهو يظنه مجهولاً لديهم، عنيما أنه كان يحبه. كذلك كانت السيدة «فيردوران» تبدو دوماً وكأنها تقبل تماماً الأسباب التي نصفها فنية ونصفها إنسانية التي يقدمها السيد «دوشارلوس» عن الاهتمام الذي يوليه له «موريل» فلا تنفك تشكر البارون بانفعال على الألفاظ المؤثرة، تقول «التي يديها لعازف الكمان. ولكن كم لعل السيد «دوشارلوس» كان دهش لو أنه سمع، ذات يوم تأخر فيه هو «موريل» ولم يأتي بطريق السكة الحديدية، المعلمة تقول: «لسنا ننتظر من بعد سوى هاتين الآنتين! ولعل البارون كان ازداد ذوله بمقدار ما كان يظهر في «لاراسبليير» وهو يكاد لا يغادرها، مظهر كاهن كنيسة أو رئيس دير، وكان يقضي فيها أحياناً (عندما يتوافر له «موريل» إذن بشماني وأربعين ساعة) ليلتين متواليتين. كانت السيدة «فيردوران» تختار لهما حينذاك غرفتين متصلتين وتقول كيما توفر لهما الراحة النفسية : وإن طاب لكما بعض العزف فلا تترددا في ذلك، فالجدران أشبه بجدران الحصون وليس أحد في الدور الذي أنتم فيه وزوجي ينام نوماً ثقيلاً». كان السيد «دوشارلوس» في تلك الأيام يحل محل الأميرة في الذهاب لاصطحاب الجدد من الحطة ويلقى العذر للسيدة «فيردوران» لأنها لم تجيء بسبب وضع صحي كان يحسن وصفه إلى حد أن المدعوين كانوا يدخلون بوجه يناسب الوضع ثم يطلقون صيحة استغراب إذ يجدون المعلمة واقفة تفيض نشاطاً ويفسطان يكشف نصف كتفها.

ذلك أن السيد «دوشارلوس» أصبح مؤقتاً بالنسبة إلى السيدة «فيردوران» المخلص من بين المخلصين ونموذجاً آخر من الأميرة «شير باتوف». كانت أقل ثقة بوضعه في المجتمع الراقي منها بوضع الأميرة إذ تتصور أنه إن لم ترغب هذه الأخيرة إلا ببقاء النواة الصغيرة فإنما ازدراء للآخرين وإثارة لها. ولما كانت تلك الحيلة هي بالضبط ما يميز آل «فيردوران» الذين كانوا يحسبون كل من لا يستطيعون مخالطتهم مبرمين فليس يصدق أن يكون



وسع المعلمة أن تظنّ للأميرة روحاً فولاذية تكره الأناقة. ولكنها ظلت تتشبّث برأيها وتوقن أنّه، فيما يخصّ السيّدة الكبيرة أيضاً، إن لم تكن تخالط المبرمين فإنما تفعل بصدق ومن جرّاء ميل إلى أمور الفكر. والمبرمون على أية حال كان يتناقص عددهم بالنسبة إلى آل «فيردوران». فإن الحياة في الحمامات البحرية كانت تفقد التعريف النتائج المستقبلية التي ربّما خشي المرء منها في باريس. وإن رجالاً لامعين جاؤوا إلى «البليك» بدون زوجتهم، الأمر الذي كان يسهّل كلّ شيء، كانوا يقومون في «لاراسيلير» بمحاولات تقرب ومن مبرمين ينقلبون ظرفاء. وكانت تلك حال الأمير «دو غير مانت» الذي ما كان غياب الأميرة ليحمله على الذهاب «بصفة عازب» إلى منزل آل «فيردوران» لو لم يكن مغناطيس مناصرة «دريفوس» قوياً إلى حدّ أنّه جعله يصعد دفعة واحدة السفوح التي تقود إلى «لاراسيلير» في يوم كانت المعلمة لسوء الحظ قد خرجت فيه. والسيّدة «فيردوران» لم تكن على أيّ حال متيقّنة من أنّه ينتمي والسيّد «دوشارلوس» إلى العالم نفسه. لقد سبق بالحقيقة أن قال البارون إن الدوق «دو غير مانت» شقيقه، ولكن ربّما كانت تلك كذبة مغامر. لقد كانت المعلمة تتردّد تقريباً في دعوته مع الأمير «دو غير مانت» مهما يكن أبدى من أناقة ولطف وإخلاص لآل «فيردوران». واستشارت «سكي» و«بريشو»: «البارون والأمير «دو غير مانت»، هل يستقيم الأمر بهما؟»

— «ياإلهي، أظنّني يأسديتي أستطيع أن أقول بخصوص أحد الاثنين..»

— «أحد الاثنين، وماعسى أن يهمني ذلك؟» «تقول السيّدة «فيردوران» مغناطة، «أسألك إن كان الأمر يستقيم بكليهما؟» — «آه! يأسديتي، تلك أمور ما أصعب أن نعرفها». وما كانت السيّدة «فيردوران» تضمّن الأمر أيّ شيء؛ فقد كانت متيقّنة من أخلاق البارون، ولكنها لم تكن حينما تحدّثت على نحو ما فعلت تفكر فيها البتّة بل لحض أن تعلم إن كان بالإمكان دعوة الأمير والسيّد «دوشارلوس» سوياً وإن كان الأمر يستقيم بذلك. لم تكن تضمّن أيّ مقصد سوء تلك العبارات الجاهزة التي تستخدمها والتي تحبّها «الجماعات الصغيرة» الفتية. وكما تباهي بالسيّد «دو غير مانت» كانت تؤدّ اصطحابه بعد الظهر الذي يلي الغداء إلى حفل خيرى سوف يمثّل فيه بحارة من الساحل عملية إقلاع. ولما كان لا يتسع لها الوقت للاهتمام بكلّ شيء فقد عهدت بمهامّها إلى المخلص من بين المخلصين، إلى البارون «تدرك أنت أنّه ينبغي أن لا يلبثوا جامدين كالثقالب، يجب أن يروحوا ويحيوا وأن تشاهد «القيامة القائمة»، ولست أدري ما اسم كلّ ذلك. لكنك ربّما استطعت أنت الذي كثيراً ما يذهب إلى مرفأ «البليك الشاطئ» أن تدعو إلى القيام بتجربة دون أن تنعب نفسك. لا بدّ يأسيد «دوشارلوس» أنّك خبير بالأمر أكثر منّي في قصة تحريك بحارة صغار. ولكننا في نهاية المطاف نبذل جهوداً كبيرة من أجل السيّد «دو غير مانت»، فرّما كان معتوهاً من نادي الخيول. آه! ياإلهي، إنني أتناول بالسوء نادي الخيول ويبدو لي أنّي أنذكر أنّك من أهله. هيه، أيها البارون، أنت لا تجيبني، فهل أنت منهم؟ ألا تؤدّ الذهاب في رحلة معنا؟ هاك، هو ذا كتاب وصلني، واعتقد أنّه سيحظى باهتمامك. إنّه من أعمال «روجون» وعنوانه جميل: «بين الرجال».

كنت فيما يخصّني أزداد سعادة بأن يحلّ السيّد «دوشارلوس» مرّات عدّة محلّ الأميرة «شيرياتوف» بقدر ما كنت على أسوأ حال معها لسبب عديم الشأن وعميق في الآن نفسه. ففي يوم كنت فيه في القطار الصغير

أعمر يصنوف حديبي، كما هي حالي دوماً، الأميرة «شيرباتوف» شاهدة السيّد «دو فيلبا ريزيس» تستقله. لقد جاءت بالفعل لقضاء بضعة أسابيع لدى الأميرة «دو لوكسمبور»، ولكنني لم أستجب يوماً، إذ كانت تقيدني حاجتي اليومية لرؤية «ألبيرتين»، لدعوات المركيزة ومضيفتها الملكية المتكررة. وأتّني ضميري إذ رأيت صديقة جدتي وبداعي محض الواجب (ودون أن أفارق الأميرة «شيرباتوف») تحدّث إليّها فترة طويلة إلى حدّ ما. كنت أجهل تماماً على أيّة حال أنّ السيّد «دو فيلبا ريزيس» تعلم حقّ العلم من كانت جارتني ولكنها لا تريد أن تعرفها. وفي المحطة التالية غادرت السيّد «دو فيلبا ريزيس» عربّة القطار وبلغ بي أن لمت نفسي على أنّي لم أعنيها على النزول. ومضيت لأجلس من جديد إلى جانب الأميرة. ولكنّما خيل إليّ أن تغيباً يحلّ تحت ناظريّ - وهو انقلاب غير نادر الحدوث لدى الأشخاص الذين تشكو أوضاعهم من قلة المانة والذين يخشون أن تكون سمعت من يتناولهم بسوء وأن تحتقرهم. كادت السيّد «شيرباتوف»، وهي غارقة في «مجلة العالمين»، لا يجيب إلا من أطراف شفتيها على أسئلتي وقالت في نهاية المطاف إنّي أسبّب لها الصداخ. ماكنت أفهم شيئاً في أمر جريمتي. وحينما ودّعت الأميرة لم تشرق الابتسامة المعتادة على وجهها وأقبلت تحيّة جافة تخفض ذقنها وهي حتى لم تمدّ إليّ يداً ولم تكلمني مذكاً في يوم. لكنّها لا بدّ كلّمت أسرة «فيردوران» - بغية أن تقول ماذا، لست أدري - فاتّهم حالماً كنت أسألهم إن يكن يحسن بي أن أجمال الأميرة «شيرباتوف» كانوا يسارعون جميعاً بصوت واحد: «لا، لا، لا، خصوصاً لا، فإنّها لا تحبّ الملاحظات!» ماكانوا يفعلون ذلك كيما يوقعوني في خلاف معها، ولكنها أفلمت في حملهم على الاعتقاد بأنّها لا تهزّها صنوف المراعاة ولا تأخذ منها أباطيل هذه الدنيا. ينبغي أن تكون شاهدت السياسي الذي يعدّونه الأكثر تصلّباً والأكثر تشدّداً والأصعب اتّصلاً منذ أن جاء إلى السلطة، ينبغي أن تكون شاهدته في زمن زوال الخطوة يستجدي بوجل وبايتسامة عاشق مشرقة التحيّة المتعالية لصحفيّ عاديّ؛ لا بدّ أن تكون شاهدت ارتداد قامة «كوتار» (الذي كان مرضاه الجدد يعدّونه قضيباً من حديد) وأن تعلم من أيّ صنوف حنق العاشقين وأي إخفاقات السنويّة تشكّل التعالي الظاهريّ ومناهضة السنويّة التي يقرّ بها الجميع للأميرة «شيرباتوف» كي ندرك أن القاعدة في الإنسانية - القاعدة التي تحتمل استثناءات بالطبع - هي أنّ القساة ضعاف لم يرغب بهم أحد، وأن الأقوياء الذين قليلاً ما يهتمّون بأن يرغب بهم أحد أو لا يرغب يملكون وحدهم تلك الوداعة التي تحسبها العامّة ضعفاً.

يجدر بي على أيّة حال أن لأحكم حكماً قاسياً على الأميرة «شيرباتوف»، فما أكثر حالتها! فإن رجلاً مرموقاً كان إلى جانبيّ دلّني ذات يوم، إنّ دفن أحد آل «غيرمانت»، على رجل مشوق القوام رزق محبّاً جميلاً، وقال لي جاري: «إن هذا من بين آل «غيرمانت» جميعهم هو الأكثر إدهاشاً والأكثر غرابة. إنّه شقيق الدوق». فأجبتّه غير محاذر أنّه يخطئ الظنّ وأن هذا السيّد الذي لا تربطه بآل «غيرمانت» أيّة قرابة يدعى «فورنييه سارفوليز». فأدار لي الرجل المرموق ظهره وما عاد مذكاً حيّاني.

ومرّ موسيقيّ كبير عضو في المجمع ومن أصحاب المقامات الرسميّة العالية، وكان يعرف «سكي»، مرّ به «أرامبوفيل» حيث كانت له ابنة أخ وجاء أحد أيام أربعاء آل «فيردوران». وقد أبدى له السيّد «دوشارلوس» لطفاً خاصّاً (بناء على طلب «موريل») وذلك على وجه الخصوص كيما يمكنه عضو المجمع لدى عودته إلى باريس من حضور مختلف الجلسات الخاصّة والحفلات التجريبيّة، إلخ.. التي كان عازف الكمان يعزف فيها.

ووعده عضو المجمع، وقد رافقه الأمر وهو إلى ذلك رجل ظريف، وبرّ بوعده. وقد تأثر البارون بالغ التأثير بسائر صنوف الحفاوة التي أحاطه بها هذا الرجل (وهو على أي حال فيما يخصه عاشق للنساء فحسب والعشقر عظيم)، وبكل التسهيلات التي وفّرها له للقاء «موريل» في الأماكن الرسمية التي لا يدخلها الغرباء عن الفنّ وبسائر الفرص المهيأة من جانب الفنان الشهير للموسيقار الشاب كي يظهر ويعرّف بنفسه وذلك بتعيينه وتفضيله على سواه، بتساوي الموهبة، في حفلات موسيقية ينتظر أن تكون لها أصداء واسعة. ولكن السيد «دوشارلوس» ما كان يرتاب أنّه يدين للأستاذ بامتنان يتعاضم بقدر مالم يكن هذا الأخير، وهو مزدوج الفضل أو إن فضلت مزدوج الجرم، يجهل شيئاً من علاقات عازف الكمان والحامي الكريم له. وقد يسرها، دونما تعاطف معها بالتأكيد إذ لا يستطيع أن يفهم حباً غير حب المرأة الذي كان الملمهم لكلّ موسيقاه، بل بداعي اللامبالاة الأخلاقية والمجاملة وحب الخدمة المهنيّة واللطافة الاجتماعية والسنوية. فأما عن الشكوك بطبيعة هذه العلاقات فقد كان لديه منها القليل القليل حتى أنّه سأل: «سكي» منذ أول عشاء له في «لاراسيلير»، سأله وهو يتحدث عن السيد «دوشارلوس» و«موريل» كما لعله كان فعل عن رجل وعشيقته: «هل مضى زمن طويل على وجودهما معاً؟» لكنّ صفة رجل المجتمع عنده كانت أقوى من أن يدع شيئاً من ذلك يظهر للمعنيين، كما كان على استعداد، إن جرى بين رفاق «موريل» تداول بعض القيل والقال، أن يخمدّه ويطمئن «موريل» وهو يقول بلهجة أبوية: «يقولون ذلك عن كلّ الناس في يومنا»، فلم يكف عن غمر البارون بصنوف اللطف التي ألفها هذا الأخير رائعة ولكنّها طبيعية إذ كان عاجزاً عن افتراض هذا القدر من الرذيلة هذا القدر من الفضيلة لدى الأستاذ الذائع الصيت. ذلك لأنّ الكلمات التي كانوا يقولونها في غياب السيد «دوشارلوس» و«التقريبات» بحق «موريل» لم يكن أحد يملك ما يكفي من ندالة ليردها أمامه. ومع ذلك فإنّ هذا الوضع البسيط كافٍ ليظهر أن هذا الشيء المذموم في العالم أجمع والذي لعله لا يجد مدافعاً عنه في أيّ مكان، عينا «القبل والقال»، فإنّه حتى هو، وسواء كنّا نحن موضوعه وأضحى بذلك مقبلاً بشكل خاص في نظرنا أو أطلعنا بشأن شخص ثالث على أمر كنّا نجهله إنّما يملك قيمته السيكولوجية. فهو يمنع الفكر من الإغفاء على الرؤية الزائفة التي يأخذها عمّا يظنّه الأشياء وليس سوى ظاهرها. فيقلب هذا الظاهر بمهارة فيلسوف مثالي ساحرة ويقدم لنا بسرعة زاوية غير متوقّعة من قفا القماش. أفعلّ السيد «دوشارلوس» كان استطاع أن يتخيّل هذه الكلمات تدلي بها قرية رقيقة القلب: «كيف تريد «ميميه» أن يكون عاشقاً لي؟ أغاب عنك إذا أنتي امرأة أنا!» ولكنّها تبدي مع ذلك تعلقاً حقيقياً عميقاً بالسيد «دوشارلوس». فكيف نعجب إذا، فيما يخصّ آل «فيردوران» الذين لم يكن له أيّ حقّ في الاعتماد على وداهم وطيبتهم، أنّ كانت الأقوال التي يدلون بها بعيداً عنه (وما كانت أقوالاً فحسب كما سنرى) شديدة الاختلاف عمّا يتخيّلها، يعني مجرد انعكاس لتلك التي كان يسمعها حينما يكون حاضراً؟ تلك فقط كانت ترين بنقوش المودة المبني الصغير المثالي الذي كان السيد «دوشارلوس» يقصده أحياناً ليحلم وحيداً حينما يدخل خياله زمناً يسيراً في الفكرة التي يحملها آل «فيردوران» عنه. لقد كان الجوّ هناك محبباً ودياً إلى حدّ بعيد والراحة تشدّ العزيمة إلى حدّ أنّ السيد «دوشارلوس» حينما كان يجيء قبل النوم ليروّح عنه همومه حيناً ما كان يغادره البتّة دون أن تشرق على شفته إبتسامة. لكنّ هذا النوع من المباني مزدوج بالنسبة إلى كلّ منّا. فقباله المبني الذي نظنّه

الوحيد هناك الآخر الذي لاتراه عيننا عادة، وهو الحقيقي الموازي للذي نعرفه ولكنه شديد الاختلاف عنه وربما أفرغتنا نقوشه التي لاتتعرف فيها شيئاً ثم كنا ننتظره وكأنما صنعت من الرموز البشعة لعدائية لم نرتب بها. فأني ذهول كان أصاب السيد «دوشارلوس» لو دخل أحد تلك المباني المعادية بفضل «قيل وقال» وكأنما بوساطة واحد من سلالم الخدم خطت كتابات بلذبة على أبواب الشقق بيد موردين مستائين أو خدام مفصولين! ولكننا بمقدار ماحررنا من حس التوجه الذي تتصف به بعض الطيور فإننا نفتقر إلى حس الرؤية كما نفتقر إلى حس المسافات فتتخيل على قرب شديد منا اهتمام أناس هم على العكس لايفكرون البتة بنا فيما لارتاب بأننا في الوقت نفسه هم غيرهم الوحيد. هكذا كان السيد «دوشارلوس» يعيش مخدوعاً كالسمكة التي تظن أن الماء الذي تسبح فيه يمتد خلف زجاج حوضها الذي يريها انعكاسه، فيما لاتبصر بالقرب منها في العنمة الجذلان الذي يراقب صنوف مرجحها أو مربّي الأسماك الجبار الذي سيخرجها دونما إشفاق، في اللحظة اللامتوقعة المحتومة، واللحظة مؤجلة الآن فيما يخص البارون (الذي سيكون مربّي الأسماك في باريس بالنسبة إليه هو السيدة «فيردوران»)، الوسط الذي كان يروقه العيش فيه ليلقي بها في آخر سواء. أضف أن الشعوب بما هي تجمعات أفراد يمكن أن توفر أمثلة أوسع، ولكنها ماثلة في كل من أجزائها، عن ذلك العمى العميق العنيد الخير. ولئن تسبب حتى الآن في أن يدلي السيد «دوشارلوس» ضمن العشيرة الصغيرة بأقوال تتسم بمهارة لاجدوى منها أو بجرأة تثير ابتسامات في الخفاء فإنه لم يجر بعد عليه ولن يكون له في «بالبيك» مغبات خطيرة. فليس يحول قليل من الزلال والسكر ولاانتظام ضربات القلب دون استمرار الحياة طبيعياً بالنسبة إلى من لايتنبه حتى لذلك في حين يرى الطبيب وحده ماينبئ فيه عن وقوع كوارث. أما الآن فإن ميل السيد «دوشارلوس» إلى «موريل» -أفلاطونياً كان أم لا- إنما كان يجده جميلاً جداً ظناً منه أن الأمر سوف يجري سماعه ببراءة كلية ومتصرفاً في ذلك تصرف رجل مرهف الحس لايشقى، وقد دعي للإدلاء بشهادته أمام المحكمة، الدخول في تفاصيل تبدو في ظاهرها في غير صالحه ولكنها لهذا السبب نفسه تتسم بطبيعية أكبر ويسوقية أقل من الاحتجاجات التقليدية لمتهم مسرحي. وكان يطيب للسيد «دوشارلوس» أن يتكلم بالحرية نفسها، وعلى الدوام بين «دونسير الغربية» و«سان مارتان دوشين» -أو العكس في رحلة العودة- عن أناس لهم، فيما يبدو، عادات غريبة، وكان حتى يضيف قائلاً: «إني على كل حال أقول غريبة دون أن أدري سبب ذلك إذ ليس في الأمر ماكان غريباً إلى هذا الحد»، كي يبرهن لنفسه كم كان مرتاح النفس مع جمهوره. وكذلك كان بالفعل بشرط ان تكون مبادرة العمليات بيده وأن يعلم أن جمهور المشاهدين أبكم باسم مغلوب على أمره من جراء سذاجته أو حسن تربيته.

عندما لم يكن السيد «دوشارلوس» يتكلم عن إعجابه بجمال «موريل» كما لو لم تكن له صلة بميل يدعونه عيباً كان يبحث في ذلك العيب ولكن كما لو لم يكن العيب عيبه. وما كان يتردد أحياناً في أن يسميه باسمه. ولما كنت أسأله، بعدما تأملت التجليد الفاخر لكتاب له لـ«بلراك»، ماالذي يفضلته في «الكوميديا الإنسانية» أجابني وهو يوجه فكره صوب فكرة ثابتة: «هذا بالكامل أو ذاك بالكامل، المنمنمات

الصغيرة من مثل «كاهن تور» و«المرأة المهجورة»، أو الجداريات الكبيرة كسلسلة «الأوهام الضائعة». عجباً! ألا تعرف «الأوهام الضائعة»؟ إنها لغاية في الجمال تلك اللحظة التي يسأل فيها «كارلوس هيريرا» عن اسم القصر الذي تمرّ عريته أمامه: إنه «راستينيك» مسكن الشاب الذي أحبه فيما مضى. ويستغرق الكاهن حينذاك في حلم كان «سوان» يدعوه، وفي ذاك ظرف كثير، «كآبة أو لمييو» اللوطة (١). ثم موت «لوسيان»! لست أذكر أيّ رجل ذوّاقه حضره هذا الجواب، وكانوا يسألونه أية حادثة بعثت أعظم الأسى في حياته: «أنه موت «لوسيان دو روبامبريه» في كتاب «مباهج الحياة وشقاؤها». وقاطعه «بريشو» قائلاً: «أعرف أنّ «بلزاك» كثير الزواج في هذا العام كما هي حال التشاؤم في العام الماضي. ولكنّي أقرّ، حتى إن جازفت ببيع الأسى في نفوس تعاني من قلة احترام «بلزاك»، دون أن أدعي لنفسي، يالجنة الله! دور دركيّ الآداب وأسطر ضبوطاً لأخطاء قواعديّة، أقرّ إذاً بأنّ المرجل الضخم الذي يبدو لي أنّك تبالغ كثيراً في تقييم صنوف هذيانه المريعة قد بدا لي دوماً ناسخاً تنقصه الدقّة الكافية. لقد قرأت تلك «الأوهام الضائعة» التي تحدّثنا عنها أيها البارون وأنا أسوم نفسي العذاب لبلوغ حرارة المتدريين وأقرّ بكلّ بساطة قلب أنّ هذه الروايات المسلسلة التي سطرّت بلغة مفعمة وبنوع من الابهام مضاعف ومثلّت «سعادة استير» و«أين تقود دروب السوء» و«كم يكلف الحبّ الشيوخ» (٢) قد وقعت دوماً منّي موقع أسرار «روكمبول» (٣) الذي رقيّ بفعل امتياز يصعب تفسيره إلى موقع الرائعة المشكوك فيه. - تقول ذلك لأنّك غير عارف بالحياة، يقول البارون وقد شعر بضيق مزدوج لأنه كان يحسّ أن «بريشو» لن يفهم لا أسبابه كفتان ولا الأسباب الأخرى. فأجاب «بريشو» قائلاً: «أدرك تماماً أنّك تبغي أن تقول، كيما أنّك بطريقتك الأستاذ «فرانسوا رابليه»، إنني لودع لودعي أصمعي. مع ذلك فأنتي أحبّ بقدر مايفعل الرفاق أن يخلف الكتاب انطباعاً لديّ بالصدق ونبض الحياة، فلست من رجال العلم أولئك..» وقاطعه الدكتور «كوتار»، لا بلهجة التشكك من بعد بل بلهجة المتأكد المتظرف: «ساعة دفع الحساب». - ... الذين ينزرون النفس للأدب باتباع نظام دير «لايبسي أو بوا» وفي طاعة السيّد الفيكونت «دوشاتويريان»، كبير أساتذة التصنّع، وفق نظام الإنسانيين الصارم. إن السيّد الفيكونت «دوشاتويريان».. - «دوشاتويريان مع البطاطا؟» يقول «كوتار» مقاطعاً. - «إنّه هو سيّد الجماعة»، يضيف «بريشو» قوله دون أن يلحظ مزاح الدكتور الذي أثارت مخاوفه في المقابل جملة الجامعيّ فنظر إلى السيّد «دوشاتويريان» بادي القلق. لقد بدا أنّ «بريشو» أخلّ باللياقة في حقّ «كوتار» الذي رسم تلاعبه اللفظيّ ابتساماً دقيقة على شفتي الأميرة «شيرياتوف»، فقالت تلطفاً وكبي تبدي أنّ «نكتة» الطبيب لم تمرّ بها مرور الكرام: «إن السخرية اللاذعة للارتياحيّ الكامل لا تفقد البتّة مع الأستاذ حقوقها». فأجاب الدكتور: «الرجل الحكيم ارتياحيّ حتماً. وما يدريني أنا؟ كان سقراط يقول: اعرف نفسك. ذلك صحيح تماماً، فالغلوّ في كلّ شيء نقيصة. ولكنّنا أظنّ مذهولاً حين أفكر بأنّ ذلك كان كافياً لدوام اسم سقراط إلى يومنا هذا. فما عسانا نجد في هذه الفلسفة؟ القليل القليل باختصار القول. وحينما نفكر بأنّ «شاركو» وسواه قدّموا أعمالاً ألف مرّة أكثر روعة وتستند على الأقل إلى شيء ما، إلى إلغاء

(١) Tristesse d'olympio من أشهر قصائد الشاعر «فيكتور هوغو» في مجموعته «الاضواء والظلال» وفيها يروي عن بدايات حبّه لمن ستصبح زوجته: «جوليت درويه».

(٢) هي الثناوين الأول والثالث والثاني من كتاب «بلزاك»: «مباهج حياة الجلال وشقاواتها».

(٣) يطل ثلاثين رواية كتبها «بونسون دو تيراي» في القرن التاسع عشر ويمثل المعاصر الذي لا تصدّق مغامراته.

منعكس حدقة العين بوصفه متلازمة الشلل العام، وهم الآن منسيون تقريباً! ومجمل القول أن سقراط ليس أمراً خارقاً. إنهم أناس ماكان لديهم مايفعلونه وكانوا يقضون النهار كله في التنزه والمشاحنة. ذلك كحال يسوع المسيح: أحبوا بعضهم بعضاً، ذلك جميل جداً. ورجته السيدة «كوتار»: «يا صديقي..» -زوجتي تحتج بالطبع، إنهن عصائيات جميعهن. وقالت السيدة «كوتار» همساً: «ولكنني لست عصائية يادكتور العزير.» -كيف لاتكون عصائية؟ وحينما يكون ابنها مريضاً تنتابها أعراض أرق. على أنني في النهاية أعترف بأن سقراط وماتبقي أمر ضروري من أجل ثقافة عالية وكى تمتلك مواهب في العرض. إنني استشهد دوماً بـ«اعرف نفسك» أمام طلابي في الدرس الأول. وقد هنأني على ذلك الأب «بوشار» بعدما أخذ علماً به. وأردف «بريشو» يقول: «لست من مناصري الشكل للشكل كما لعلني لن أكنز في الشعر القافية الغنية جداً. ولكن «الكوميديا الانسانية» -القليلة الإنسانية إلى حد بعيد- تتجاوز كثيراً كونها عكس تلك المؤلفات التي يتجاوز فيها الفن المضمون كما يقول ذلك الكديش الطيب المدعو «أوفيد» (١). ومن المسموح به تفضيل درب في نصف المنحدر يقودك إلى مقر رعية «مودون» (٢) أو إلى صومعة «فيرنيه» (٣) على مسافة متساوية من «لافاليه أولو» (٤)، حيث كان «رونيه» يفي على نحو رائع بواجبات حبرية لاتعرف الغفران والمسامحة، و«جادي» (٥) حيث ماكان يكف «هونوريه دو بلزاك» الذي يلاحقه مبلغو المحاكم عن خريشة الرسائل إلى البولونية، فعل رسول متحمس للطرقات المبهمة. وأجاب السيد «دوشارلوس» ولايزال شديد التشرب بدوق «سوان» كي لايفيظه «بريشو»: «إن «شاتوبريان» أوفر حيوية مما تقول و«بلزاك» كاتب كبير مع ذلك، ثم إن «بلزاك» قد عرف حتى تلك الأهواء التي يجهلها الجميع أوهم لاينظرون فيها إلا للتثديد بها. هذا، وإن «سارازين» و«الفتاة ذت العينين الذهبيتين» و«عشق في الصحراء» وحتى «العشيقة الكاذبة» المحيرة بعض الشيء وبصرف النظر عن «الأوهام الضائعة» الخالدة، إنما تعزز كلها أقوالي. وحينما كنت أكلم «سوان» عن هذا الجانب «الخارق الطبيعة» لدى «بلزاك» كان يقول لي: «إنك من رأي «تين» (Taine) وأردف السيد «دوشارلوس» قائلاً: «وماكنت تشرفت بمعرفة «تين» (يقول بهذه العادة المفيضة في استخدام كلمة «السيد» التي لاتجدي نفعاً، عادة لدى علية القوم كما لو ظنوا أنهم باطلاقهم صفة «السيد» على كاتب كبير إنما يولونه شرفاً وربما يلزمون الناس حدودهم ويعلمونهم تماماً أنهم لايعرفونه)، ماكنت أعرف السيد «تين»، ولكنما أحسبني نلت شرفاً عظيماً أن كنت من ذات رأيه. لقد كان السيد «دوشارلوس» على أية حال ذكياً جداً على الرغم من تلك العادات المجتمعية المضحكة. ومن المرجح أنه كان أحس، لو وقر زواج قديم رباط قرابة بين أسرته وأسر «بلزاك»، بارتياح (لايقل على أية حال عن ارتياح «بلزاك») لعله ماكان ملك نفسه مع ذلك عن الاعتداد به وكأنه علامة تنازل رائع من قبله.

كان يستقل القطار أحياناً في المحطة التي تلي «سان مارتان دوشين» بعض الفتيان. وماكان السيد

- (١) من كبار شعراء الرومان، اشتهر على وجه الخصوص بكتاب «التحويلات» (Me'tamorphoses)
- (٢) Meudon : كان «رابليه» (من مشاهير كتاب العصر الوسيط وكان راهباً) قد عين لخدمة هذه الرعية.
- (٣) بيت ريفي سكنه «فولتير» (مفكر فرنسي وكاتب كبير من القرن الثامن عشر) من ١٧٥٨ إلى ١٧٧٨ .
- (٤) بيت اشتره «شاتوبريان» واسمه «رونيه» عام ١٨١١ وسكن فيه عدة سنوات .
- (٥) المنزل الذي سكن فيه «بلزاك» من عام ١٨٣٧ وحتى ١٨٤٠ والبولونية المعنية لاحقاً هي السيدة «هانسكا» التي تزوجها عام ١٨٥٠

«دوشارلوس» يستطيع الحؤول دون النظر إليهم، ولما كان يختصر ويخفي الاهتمام الذي يصرفه إليهم فقد كان ذلك الاهتمام يبدو وكأنه يخفي سراً أكثر خصوصية بعد من السر الحقيقي؛ لكأنما كان يعرفهم ويتبدى ذلك رغباً عنه بعد ماسلم بتضحيته قبل أن يستدير صوبنا كما يفعل أولئك الأطفال الذين منعوا في أعقاب اختصاص بين الأهلين من تحية رفاقهم ولكنهم لا يستطيعون حينما يلتقونهم الامتناع عن رفع رؤوسهم قبل أن يهويوا من جديد تحت سوط مربّيهم.

لدى سماع الكلمة المأخوذة عن اليونانية (١) التي أتبع بها السيد «دوشارلوس» في حديثه عن «بلزك»، التلميح إلى «كآبة أولمبيو» في «مباهج الحياة وشقاواتها» نظر «سكي» و«بريشو» و«كوتار» بعضهم إلى بعض بابتسامة ربما كانت أقلّ سخرية من اتسامها بالرضى الذي قد يصيبه متعشّون أفلحوا في حمل «دريوس» على التحدّث عن قضيتّه أو الامبراطورة عن عهدهما. كنّا ننوي دفعه قليلاً حول هذا الموضوع ولكنّها «دونسيير» وصلناها حيث كان «موريل» يلحق بنا. وكان السيد «دوشارلوس» يراقب حديثه بعناية في حضرته وحينما أراد «سكي» أن يعيده إلى حبّ «كارلوس هيريرا» لـ «لوسيان دو روبنريه» اتخذ البارون هيئة متكدّرة غامضة ثم قاسية انتقامية في آخر المطاف (إذ رأى أنّهم لا يصغون إليه)، هيئة والد يسمع من يتفوّه ببذاءات في حضرة ابنته. ولما أبدى «سكي» شيئاً من العناد في موالاة حديثه قال السيد «دوشارلوس» وقد جحظت عيناه وتعالى صوته، قال بلهجة ذات دلالة وهو يدلّ على «ألبيرتين»، مع أنّها لا تستطيع أن تسمعنا وقد شغلها الحديث مع السيدة «كوتار» و«ميرة» «شيرباتوف»، وبيرة مزدوجة المعنى لمن يبغي تلقين درس لجماعة سيّفي التهذيب: «في اعتقادي أن الوقت ربما حان للتحدّث عن أمور يمكن أن تثير اهتمام هذه الفتاة». لكنّي أدركت تمام الإدراك أن الفتاة في نظره لم تكن «ألبيرتين» بل «موريل». وقد أظهر فيما بعد على آية حال صحّة تفسيري بالعبارات التي استخدمها حين طلب أن لا يكون بينهم أحاديث من هذا القبيل أمام «موريل». وقال لي وهو يكلمني عن عازف الكمان: «تعلم أنّه ليس البتّة ماقد تظنّ. إنّهُ صغير شريف جدّاً وقد لبث دوماً عاقلاً وجدياً إلى أبعد حدّ». كنت تحسّ في هذه الكلمات أنّ السيد «دوشارلوس» كان يعدّ الشدوذ الجنسيّ خطراً يهدّد الشباب بقدر مايفعل البغاء بالنسبة إلى النساء وأنّه إن كان يستخدم صفة الجدّيّة بالنسبة إلى «موريل» فأتما بالمعنى الذي تتّخذهُ إن طبقت على عاملة صغيرة. حينذاك سألتني «بريشو» بغية تغيير الحديث إن كنت أنوي المكوث بعد طويلاً في «انكرفيل». وعبثاً سبق لي أن حملته عدّة مرّات على ملاحظة أنّي لم أكن أقطن «انكرفيل» بل «بالبيك»، فقد كان يرتكب دوماً الخطأ نفسه إذ كان يطلق على هذا القسم من الشاطئ اسم «انكرافيل» أو «بالبيك انكرفيل». ثمّة على هذا النحو أناس يتكلمون عن الأمور نفسها التي تتكلم عنها ويطلقون عليها اسماً مختلفاً بعض الشيء. كانت سيّدة من حيّ «سان جيرمان» تسألني دوماً حينما تبغي الكلام عن الدوقة «دو غير مانت» إن كان مضيّ وقت طويل لم ألتق فيه «زيناييد» أو «أوريان زيناييد». وكنت لذلك لأفهم لأول وهلة. والأرجح أن كان ثمّة زمن كانت قرية السيّدة «دوغيرمانت» تدعى «أوريان» فدعيت هي، بنية تجنّب الخلط «أوريان زيناييد». وربما كان ثمّة بادئ الأمر محطة واحدة فقط في «انكرفيل» وكانوا

(١) سبق أن ذكر «دوشارلوس» الكلمة في الحديث عن «كآبة أولمبيو لواطه الأولاد» والكلمة الفرنسية pédérastie مأخوذة عن اليونانية.

يمضون من هناك إلى «البليك» بالعريّة. وقالت «ألبيرتين» مستعجبة من لهجة والد الأسرة المهيبة التي انتحلها السيد «دوشارلوس» منذ قليل: «عمّ كنتم تتحدّثون؟» وسارع البارون يجيب: «عن «بلزاك»، وأنك بالضبط ترتدين في هذا المساء أثواب الأميرة «دوكادينيان»، لا الأولى، أثواب العشاء، بل الثانية». «كان مردّ هذه المصادفة أنني كنت استلهم لاختيار أثواب لـ «ألبيرتين» الذوق الذي كوّنته لذاتها بفضل «ايلستير» الذي كان يقدر أعظم التقدير اعتدالاً ربّما أمكن أن ندعوه بريطانيّاً لو لم ينضف إليه قدر أكبر من النعومة والطراوة الفرنسيّة. فقد كانت الفساطين التي يفضلها تبسط في الأغلب للناظرين تآلفاً متسقاً من الألوان الرماديّة شأن «ديان دو كادينيان». كاد لا يكون ثمة غير السيد «دوشارلوس» ليعرف كيف يقدر حقّ قدرها أثواب «ألبيرتين»، فقد كانت عيناه تكتشفان في الحال مايؤسّس ندرتها وقيمتها؛ وما كان في يوم ليقول اسم قماش آخر وكان يتعرّف الصانع. على أنّه كان يفضل -فيما يخصّ النساء- شيئاً من الألق واللون يجاوز قليلاً ماكان يقبل به «ايلستير». ولذلك فقد رمّتي ذاك المساء بنظرة نصفها ابتسامة والنصف قلق وهي تخني أنفها الصغير، أنف الهرة المورّد. وبالفعل كانت سترتها التي من صوف الشوفيتوت الرماديّ توهم وهي تغطّي تنورتها التي من كريب الصين الرماديّ أن «ألبيرتين» كلّها باللون الرماديّ. ولكنّها، إذ أشارت إليّ بأن أساعدها لأن أكمّامها المنفّخة كانت بحاجة أن تملّس أو ترفع كي ترتدي أو تخلع سترتها، خلعت تلك السترة، ولما كانت تلك الأكمّام من قماش اسكتلندي ناعم جدّاً ورديّ اللون وأزرق باهت وضارب إلى الخضرة ومتموج الألوان فقد بدا كأنّما تشكّل قوس قزح في سماء رماديّة. وكانت تتساءل إن كان ذلك سيروق السيد «دوشارلوس»، فصاح هذا مفتوناً: «ذلكم شعاع وموشور ألوان. إني أقدم كلّ تهاني». فأجابت «ألبيرتين» بلطف وهي تشير إليّ: «لكنّ الفضل يعود للسيد وحده»، إذ كان يحلو لها أن تبرز ماياثيها عن يدي. وأردف السيد «دوشارلوس» يقول: «ليس من يخشى اللون سوى النساء اللاتي لا يحسنّ اختيار ملايسهنّ. فيمكن أن تكون المرأة متألفة دون سوقيّة وناعمة دون تفه. وليس لديك على آية حال ذات أسباب السيّدة «دوكادينيان» لابتغاء الظهور مظهر المتجرّدة عن الحياة، إذ تلك كانت الفكرة التي تريد أن تغرسها في صدر «آريز» بتلك الأثواب الرماديّة» أما «ألبيرتين» التي كانت بهتّم بلغة الفساطين الصامتة تلك فقد سألت السيد «دوشارلوس» عن الأميرة «دوكادينيان» فقال البارون بلهجة حاملة: «آه! إنّها أفصوصة رائعة. وإنني أعرف الحديقة الصغيرة التي تنزّهت فيها «ديان دو كادينيان» مع السيّدة «ديسبار» فهي حديقة إحدى بنات عمومتي. وهمس «بريشو» في أذن «كوتار»: «إنّ مسائل حديقة ابنة عمّه مجتمعة، وكذلك سلسلة أنسابه، يمكن أن تكتسب ثمناً بالنسبة إلى هذا البارون الطيّب. ولكن مافائدة ذلك بالنسبة إلينا نحن الذين لم يسعفهم الحظّ بالتنزّه فيها ولانعرف تلك السيّدة ولانملك ألقاب نبلاء؟» فما كان «بريشو» يظنّ أنّه يمكن لامرئ الاهتمام بفسطان وحديقة اهتمامه بعمل فنيّ وأن السيد «دوشارلوس» كان يعود فيرى ممرات السيّدة «دوكادينيان» الصغيرة كما هي واردة لدى «بلزاك». وتابع البارون يقول: ولكنك تعرفها، يقول لي وهو يتكلّم عن ابنة العم تلك ويوجّه الحديث إليّ بغية دغدغة عواطفني وكأنّما لمن كان منفياً داخل العشيرة الصغيرة. وإن لم يكن في نظر السيد «دوشارلوس» من عالمه فقد كان على الأقلّ يرتاد عالمه. «لابدّ في جميع الأحوال أن تكون رأيتها في منزل السيّدة «دوفيلباريزيس». وسأل «بريشو» بهيئة المفتون: «هي المركيزة «دوفيلباريزيس» التي تملك قصر «بوكرو»؟



فسأله السيد «دوشارلوس» بجفاء: «أجل، وتعرفها؟» فردّ «بريشو» قائلاً: «كلاً، ولكن زميلنا «نورپوا» يقضي في كل عام قسماً من عطلته في «يوكرو»، وقد تسنى لي أن أكتب إليه إلى هناك.» وقلت لـ «موريل» ظناً مني أنني أثير اهتمامه إنَّ السيد «دو نورپوا» كان صديق والدي. لكننا لم تنبئ حركة في وجهه عن أنه سمع لشدة ما بعد والدي من أناس هينين ولا يقربون من بعيد جداً ماسبق أن كان شقيق جدّي الذي كان والده يعمل خادماً خاصاً عنده والذي خلف لدى خدامه ذكرى مبهورة إذ كان يحبّ بعكس باقي أسرته «أن يخلق المتاعب». «يبدو أن السيّد «دو فيليپارييس» امرأة متفوّقة، ولكننا لم يتسنّ لي في يوم أن أحكم على الأمر بنفسي ولا لزملائي على أيّ حال لأنّ «نورپوا» لم يقدم أبامناً للمركيزة، مع أنه من جانب آخر يفيض تأدباً ولطفاً في الجمع. ولست أعلم أن استقبل أحد من جانبها سوى صديقنا «تورو دالجان» الذي كانت تربطه بها علاقات عائلية قديمة، وكذلك «غاستون بواسييه» الذي رغبت في معرفته على إثر دراسة كانت تحوز اهتمامها على نحو خاصّ. فقد تناول عشاء مرّة هناك وعاد وهو تحت تأثير السحر. وفوق ذلك لم تدع السيّد «بواسييه». وابتسم «موريل» تخائناً لدى سماع تلك الأسماء، وقال لي بهيئة يساوي الاهتمام فيها اللامبالاة التي أبداه حين سمع من يتحدث عن المركيز «دونورپوا» وعن والدي: «آه! تورو دالجان!» «تورو دالجان» كان يؤلف زوج أصدقاء مع عمك، وحينما كانت تريد سيّد مكاناً في الوسط بمناسبة استقبال في الجمع كان عمك، يقول: «سأكتب إلى «تورو دالجان»، وكان المكان طبعاً يرسل في الحال، فأنت تدرك تماماً أن «تورو دالجان» ما كان ليجازف برفض أيّ أمر لعمك الذي كان اقتصر منه في أول فرصة تلوح. كذلك يبهجنني أن أسمع اسم «بواسييه»، فإنما كان شقيق جدك يقوم هناك بالتوصية على مشترياته كافة للسيدات في فترة رأس السنة. أعرف ذلك لأنني أعرف الشخص الذي كان مكلفاً بالمهمة. وكان أكثر من عارف له، فقد كان والده. كان بعض من تلميحات «موريل» الرقيقة تلك إلى ذكرى عمّي على علاقة بانتفاء نيتنا أن نوالي البقاء في فندق آل «غير مانت» حيث لم نجئ للسكنى إلا بسبب جدتي. وكان الحديث يجري أحياناً عن انتقال محتمل. ولابد أن نعلم، بغية فهم النصائح التي كان «شارل موريل» يسديها لي بهذا الشأن، أن شقيق جدّي كان يسكن فيما مضى في البناء رقم ٤٠ مكرّر من شارع «مالزيرب». وقد نجم عن ذلك في الأسرة أنهم كانوا يقولون، بما أننا كنّا نرتاد كثيراً منزل العم «أدولف» إلى اليوم المشؤم الذي حملت فيه والدي على الاختصام معه إذ رويت لهم عن السيّد ذات الأتواب الوردية، كانوا يقولون «إلى الرقم ٤٠ مكرّر» بدلاً من أن يقولوا «إلى منزل عمك». وكانت بعض بنات عمومة أمّي يقلن لها أبسط ما يكون القول: «آه! لن يمكننا أن نستضيفكم يو الأحد، فإنكم تتناولون عشاء كم في الرقم ٤٠ مكرّر». وإن ذهبت لزيارة قريبة لي كانوا يوصوني بالذهاب أولاً «إلى الرقم ٤٠ مكرّر» كي لا يتفق أن يستاء عمّي من أن البداية لم تكن به. فقد كان مالك البيت وكان يدي، والحق يقال، تشدداً كبيراً في انتقاء مستأجريه الذين كانوا كلهم أصدقاء أو هم يصبحون. وكان العقيد البارون «دوفاتري» يجيء كل يوم ليدخن سيجاراً وليأه كي يحصل بيسر أكبر على بعض الإصلاحات. كانت بوابة العربات مغلقة دوماً. وإن لمح عمّي قماشاً أو سجادة على نافذة كان يتملكه الغيظ ويأمر بنزعها بأسرع مما يفعل عناصر الشرطة في يومنا. ولكننا لا يحول ذلك دون تأجير قسم من البيت فلا يستبقي له سوى دورين والاسطبلات. وكانوا على الرغم من ذلك، وإذ يعرفون كيف يسرونه بامتداح جودة

الصيانة في المنزل، يشيدون بوسائل الراحة في «الفندق الصغير» كما لو كان عمي شاغله الوحيد وكان يدعمهم يقولون دون أن يكذبهم كما كان يجدر به أن يفعل. كان «الفندق الصغير» بالتأكيد مريحاً (إذ كان عمي يدخل إليه مخترعات العصر كافة). ولكننا لم يكن فيه شيء خارق. وحده عمي كان، فيما يقول بتواضع زائف «كوخي الصغير القدر»، على يقين أو هو أدخل في روع خادمه الخاص وزوجته والحوذي والطاهية أن ليس في باريس ما كان شبيهاً بالفندق الصغير من حيث وسائل الراحة والبذخ والترفيه. وكان «شارل موريل» قد نشأ على هذا الإيمان، ولبث عليه. ولذلك كان، حتى في الأيام التي لا يبادلني فيها الحديث، إن كلمت أحدهم في القطار عن احتمال انتقال من بيتنا، كان يتسم لي في الحال ويقول وهو يغمز بعينه غمز من كان على اطلاع: «آه! ما يلزمكم هو شيء من قبيل الرقم ٤٠ مكرراً! فهناك تجدون راحتكم التامة! ويمكننا أن نقول إن عملك كان خبيراً بهذا الشأن. وإنني متأكد تماماً أن ليس في باريس ما يساري الرقم ٤٠ مكرراً».

لقد أحسست تماماً في الهيئة الكثيفة التي اتخذها السيد «دوشارلوس» في كلامه عن الأميرة «دو كادينيان» أن تلك الأقصوصة ما كانت تذكره بمحض حديقة صغيرة لابنة عم لا تثير اهتمامه إلى أحد ما. وشرد في تفكير عميق وصاح كأتما يكلم نفسه: «أسرار الأميرة «دو كادينيان»، يالها رائعة! وكم هي عميقة ومؤلمة سمعة «ديان» السيئة تلك التي تخشى أكثر ماتخشى أن يطلع عليها الرجل الذي تحبه! وأية حقيقة أزلية وأكثر عمومية مما يبدو عليه الأمر! وما أبعد ما يذهب إليه! وقد تلفظ السيد «دوشارلوس» بتلك الكلمات بكآبة كنت تحس مع ذلك أنه لا يراها تخلو من الروعة. صحيح أن السيد «دوشارلوس» ما كان يعرف بالضبط إلى أي حد كانت أخلاقه معروفة أو غير معروفة فیرتعد منذ بعض الوقت من أن تتدخل عائلة «موريل»، بعدما يكون هو قد عاد إلى باريس وشاهدوه وإياه، وتتعرض سعاده للخطر. وما كان ذلك الاحتمال بدا له حتى ذاك على الأرجح إلا بمثابة أمر مزعج ومكدر إلى حد بعيد. ولكن البارون كان فتناً عميق الفن. واذ أصبح الآن منذ فترة يخلط ما بين وضعه والوضع الذي وصفه «بلزاك» فقد أخذ يحتمي نوعاً ما خلف الأقصوصة وكان يجد العزاء لسوء الطالع الذي يتهدهه ربما، وما زال في جميع الأحوال يفرغه، في ما يجده داخل قلقة نفسه مما لعل «سوان» وكذلك «سان لو» كانا دعياء شيئاً «ذا طابع بلزاكي» عميق. وقد سهل من ذلك التماهي وأميرة «دو كادينيان»، سهله على السيد «دوشارلوس» النقل الذهني الذي أخذ يصبح عادياً عنده والذي سبق أن قدم أمثلة عدة عنه. وكان كافياً من جانب آخر كما يطلق في الحال مجرد استبدال المرأة، بما هي الشخص المحبوب، بفتى شاب كل طائفة التعقيدات الاجتماعية التي تنامي حول علاقة عادية، من حوله، حينما ندخل لسبب أي سبب، وعلى نحو نهائي، تعديلاً على تقويم أو مواعيد عمل، وإن حددنا بداية السنة بعد بضعة أسابيع وجعلنا الساعة تدق منتصف الليل قبل ربع ساعة فكل ما ينجم عن قياس الزمن سيبقى واحداً بما أن الأيام ستألف في جميع الأحوال من أربع وعشرين ساعة والشهور من ثلاثين يوماً. يمكن أن يكون كل شيء قد تغير دون أن يستجر ذلك أي اضطراب بما أن النسب بين الأعداد ستبقى متماثلة دوماً. وهذا هو شأن الحيوانات التي تتبنى «توقيت أوروبا الوسطى» أو التفاويم الشرقية. بل يبدو أن الاعتزاز الذي يداخل المرء لدى انفاقه على مثله إنما يلعب دوراً في هذه العلاقة. أجل لقد اطلع السيد «دوشارلوس» حينما استعلم عما كانت عليه حال «موريل» على أنه من منبت متواضع، ولكن الغاية التي نجبها لاتفقد من مهابتها في نظرنا لأنها ابنة أناس

فقراء. وفي المقابل أجاد الموسيقيون المعروفون الذين أمر بالكتابة إليهم -دون أن يكون ذلك حتى عن مصلحة شأن الأصدقاء الذين وصفوا «أوديت» وهم يعرفون بها «سوان» بأنها أكثر تصعباً ومرغوبة أكثر مما كانت-، أجابوا البارون تجرد عادة لرجال بارزين يعرفون من قدر مبتدئ: «آه موهبة كبيرة ومكانة بارزة بما أنه بالطبع حديث السن ومقدر أعظم التقدير لدى الخبيرين بالأمور، مستقبل باهر». ولعادة مستهجنة لدى الناس الذين يجهلون الشذوذ أخذوا في الحديث عن جمال الذكور: «ثم إنه جميل حين تراه يعزف، وهو أفضل من أي آخر في المجموعة الموسيقية، وله شعر جميل ووقفات متميزة، والرأس منه رائع ويبدو كأنه عازف كمان في لوحة. لذلك كان السيد «دوشارلوس» يباهي، وقد احتاج من جانب آخر من جرّاء أن «موريل» ما كان يدعه يجهل كم عرض كان يوجّه إليه، باصطحابه في عودته وبأن يبني له عليّة يعود إليها مرّات عدّة فقد كان يريد حراً باقي الوقت، الأمر الذي أصبح ضرورياً جرّاء عمله المستقبلي الذي كان السيد «دوشارلوس» يرغب في استمرار «موريل» فيه مهما اضطّر أن يقدم له من مال، إمّا بسبب هذه الفكرة ذات الطابع «الغير ماتي» العميق القائلة بأنه لا بد أن يفعل المرء شيئاً وأن لا قيمة له إلا بعمله وأن طبقة النبلاء أو المال إن هما إلا الصفر الذي يضاعف قيمة ما، وإمّا لأنه خشي أن يصيب الملل عازف الكمان إذ هو عاطل عن العمل وإلى جانبه على الدوام. وما كان يريد أخيراً أن يحرم نفسه المتعة التي كان يصيها إبان بعض الحفلات الموسيقية الكبيرة، متعة أن يقول في نفسه: «إن الذي يهتفون له في هذه اللحظة سيكون عندي في هذه الليلة». إن القوم الأنيقين حينما يحبّون وبأية طريقة أحبّوا يفاخرون بما يمكن أن يدمّر المكاسب السابقة التي لعلها كانت أرضت غرورهم.

وإذ أحسّ «موريل» أني أدخلو من الخبث لزاءه وأنني صادق التعلّق بالسيد «دوشارلوس» وأنني على الصعيد الجسدي لا أبالي على الإطلاق بكليهما فقد خلص في النهاية إلى أن يبدي تجاهي مشاعر المودة الحارة نفسها التي تبديها غانية تعلم أنك لا تشتهيها وأن عشيقها يرى فيك صديقاً صدوقاً لن يحاول جرّه إلى الاختصام معها. فلم يكن يكلمني بالضبط كما كانت تفعل «راحيل» عشيقة «سان لوه» فحسب، بل هو، حسيما كان السيد «دوشارلوس» يرّده لي، يقول له عنّي في غيابي الأمور نفسها التي كانت «راحيل» تقولها عنّي لـ«روبير». وفي النهاية كان السيد «دوشارلوس» يقول لي: «إنه يحبك كثيراً» كما كان يقول «روبير»: «أنها تحبك كثيراً». وكان العمّ يطلب إليّ في الغالب المجيء لتناول العشاء معهم عن طريق «موريل»، كما كان ابن الأخ عن طريق عشيقته. ولم يكن يثور بينهما على أية حال نزاعات أقلّ ممّا كان بين «روبير» و«راحيل». أجل لم يكن السيد «دوشارلوس»، بعدما يذهب «شارلي» (موريل)، يتوقّف عن كيل المديح له مردداً كم كان عازف الكمان كيساً بحقه. الأمر الذي كان يزهو به. ولكنما كان جلياً مع ذلك أن «شارلي» كان يبدو في الغالب حانقاً حتى في حضرة الخلص جميعهم، بدلاً من أن يبدو دائماً السعادة والإذعان كما لعل البارون كان تمنى. وقد بلغ به هذا الحنق فيما بعد، من جرّاء الضعف الذي كان يدفع السيد «دوشارلوس» إلى مغفرة مواقف «موريل» غير اللائقة، الحدّ الذي لا يحاول فيه عازف الكمان اخفاءه، أو كان حتى يتكلّفه. لقد شاهدت السيد «دوشارلوس» في دخوله إلى عربة قطار كان «شارلي» فيها برفقة عسكريين من أصدقائه، شاهدته تستقبله هزّات أكتاف الموسيقي ترافقها رفات عين لرفاقه. أو هو يتظاهر بالنوم شأن من يرهقه وصوله

ضجراً. أو يأخذ بالسعال فيضحك الآخرون ويتصنعون بقصد الاستهزاء الكلام اللطيف المتكلف الذي لرجال من طينة السيد «دوشارلوس»، ويتحون جانباً به «شارلي» الذي كان يعود في نهاية المطاف وكأنماً مرغماً بالقرب من السيد «دوشارلوس» الذي كانت تخترق فؤاده كل هذه السهام. وإنه لما يفوق التصور أن يكون احتمالها. وكانت أشكال العذاب المختلفة في كل مرة تطرح على السيد «دوشارلوس» مجدداً مشكلة السعادة ورغمهم لا على طلب المزيد فحسب، بل على الرغبة في شيء آخر إذ إن التركيبة السابقة قد أفسدت ذكري رهيبة. ومع ذلك لابد من الإقرار، ومهما كانت تلك الاختصامات فيما بعد شاقة، بأن عقيرة رجل الشعب في فرنسه كانت ترسم له «موريل» وتلبسه أشكالاً رائعة من البساطة والصراحة الظاهرة، بل من الاعتزاز الاستقلالي الذي يبدو كأنما يوحى به التجرد. وكان ذلك زائفاً، ولكن مكسب الموقف كان أكثر فأكثر إلى جانب «موريل» بقدر ما يبدو يسيراً، فيما يضطر من يحب أن يعيد الكرة ويزيد على الدوام: يبدو يسيراً على العكس على من لا يحب أن يتبع خطأ مستقيماً صلباً ناعماً. وكان قائماً بفضل الامتياز العرقي في الحيا المنفتح جداً لـ «موريل» هذا ذي الفؤاد المغلق بإحكام، ذاك الحيا الذي يزدان بالحسن الهلنستي الذي يزهو في كنائس شامبانيه. وعلى الرغم من أنفثه المصطنعة كثيراً ما كان يشعر بالضيق عن العشيرة الصغيرة إذ يصير السيد «دوشارلوس» في حين لا يتوقع ذلك، فتكسو الحمرة وجهه ويخفض عينيه فينتشي البارون فرحاً وهو يرى في ذلك رواية كاملة. كان ذلك مجرد علامة حق وخجل. والأول كان يجد تعبيره أحياناً، إذ مهما بدا مظهر «موريل» هادئاً بالعادة وشديد الاحتشام فما كانت تمضي الأمور دونما فتور في الغالب. بل كانت تنطلق أحياناً من جانب «موريل» لدى كلمة يوجهها إليه البارون، تنطلق بلهجة قاسية إجابة وقحة تصدم الجميع. وكان السيد «دوشارلوس» يطأطئ الرأس حزناً ولا يجب البتة ولا يتوقف مع ذلك عن كيل المديح لعازف الكمان بهذه القدرة التي يديها الآباء المحبون على الاعتقاد بأن لم يلاحظ شيء من جفاء وقسوة أبنائهم. على أن السيد «دوشارلوس» لم يكن دوماً يمثل ذاك الخنوع ولكن مظاهر تمرده ما كانت تبلغ بعمامة هدفها ولا سيما أنه كان يأخذ في الحسيان، وقد عاش بصحبة عليقة القوم وفي احتساب ردات الفعل التي يمكن أن يثيرها، السفالة الأصلية، فإن لم يكن فعلى الأقل تلك المكتسبة بالتربية. ولكنه كان يصادف ما كان لدى «موريل» بعض نزعة شعبية إلى لامبالاة مؤقتة بيد أن السيد «دوشارلوس» ما كان يدرك لسوء حظّه أن كل شيء كان يتهاوى أمام المسائل التي للمعهد والسمة الطيبة في المعهد دخل فيها (ولكن هذا الذي لابد سيكون أكثر خطراً لم يكن مطروحاً الآن). من ذلك على سبيل المثال أن البورجوازيين يسهل عليهم تغيير اسمهم بداعي التباهي وكبار الموالى بداعي المصلحة. أما بالنسبة إلى عازف الكمان الشاب فقد كان اسم «موريل» على العكس يرتبط ارتباطاً وثيقاً بجائزة الكمان الأولى التي نالها ويستحيل والحالة هذه تبديله. وأما السيد «دوشارلوس» فلعله ود أن يستمد «موريل» كل شيء منه، حتى اسمه. واذ تبين أن اسم «موريل» كان «شارل» الذي يشبه «شارلوس» وأن العقار الذي يلتقيان فيه يدعى «ليه شام» فقد عزم على إقناع «موريل» بأنه يجدر بالعازف الماهر أن يتخذ دون تردد اسم «شارمل»، وهو تلميح من طرف خفي إلى مكان لقاءاتهما، فإن اسماً جميلاً يمتلك قوله إنما يؤلف نصف الشهرة الفنية. وارتفع «موريل» بمنكبيه. وخطرت للسيد «دوشارلوس» بمثابه حجة أخيرة الفكرة المشؤومة بأن يضيف بأنه اتخذ خادماً خاصاً كان يدعى هكذا. ولم يفد ذلك إلا في

إثارة حنق مجنون لدى الشاب. «لقد كان زمن فاخر فيه جدودي بلقب خادم الملك الخاص ورئيس ندل الملك». فأجاب «موريل» باعتزاز: «وكان زمن آخر أمر فيه أجدادي بقطع رأس أجدادك». ولعل السيد «دوشارلوس» كان دهش أيما دهشة لو وسعه أن يفترض، وقد سلم، إن لم يكن بـ «شارميل»، فباعتتماد «موريل» وباعطائه أحد ألقاب أسرة آل «غيرمانت» التي بحودته إلا أن الظروف كما سنرى لم تمكنه من تقديمه لعازف الكمان، بأن هذا الأخير كان سيرفض وهو يفكر بالسمعة الفتيّة الملازمة لاسم «موريل» وبالتعليقات التي ربّما أقدموا عليها «داخل الدرس». فلشدّ ما كان يضع شارع «بيرجير» فوق حيّ «سان جيرمان»! ولم يسع السيد «دوشارلوس» في حينه إلا الاكتفاء بأن يصنع له «موريل» خواتم رمزيّة تحمل النقش القديم التالي: «Plus ultra Carol's» (١) صحيح أنّه كان ينبغي للسيد «دوشارلوس» في مواجهة خصم من نوعيّة لا يعرفها أن يغيّر من خطّته الآنيّة. ولكن من ذا يقوى على ذلك؟ فكلّ من كان يعزى من جانب آخر بعض الرعونة للسيد «دوشارلوس» فلم يكن «موريل» ليخلوا منها هو الآخر. ثم إن ماسوف يودي به لدى السيد «دوشارلوس»، مؤقّتاً على الأقلّ (ولكن ذاك المؤقت انقلب نهائيّاً)، فأكثر كثيراً من الظرف نفسه الذي سبّب القطيعة ومفاده أن مابه لم يكن قاصراً على الدناءة التي كانت تجعله ينطح أمام القسوة ويردّ على النعومة بالوقاحة. فقد كان ثمة، في موازاة تلك الدناءة الطبعيّة، وهن عصبيّ يضاعفه سوء تربية يستفيق في كلّ ظرف كان فيه مذنباً أو أصبح ثقيلاً فتجعله، في الوقت الذي ربّما احتاج فيه كامل لطفه وكلّ عذوبته وكامل مرحه لتهدئة البارون، متجهماً شكساً يحاول مباشرة نقاشات يعلم أنّهم لا يوافقونه الرأي فيها فيؤيد وجهة نظره العدائيّة بهجج ضعيفة وعنف قاطع يزيد من ذلك الضعف نفسه. ذلك أنّه سرعان ما كان يعوزه البرهان فيستبسط مع ذلك براهين تنبسط فيها كامل مساحة جهله وغبائه، وكاد لا يظهران حينما كان لطيفاً ولا يبحث إلا عن أن يروق الآخرين. فيما كنت على العكس لاتبصر غيرهما في نوبات تجهم مزاجه حيث ينقلبان من أمرين غير مؤذنين إلى أمرين مقيتين. حيث كان السيد «دوشارلوس» يحسّ أنّه عيل صبره فكان لا يجعل أمله إلا في غدٍ أفضل فيما كان «موريل»، وقد نسي أن البارون كان يوفّر له معيشة باذخة، يتسم ابتساماً ساخرة متعالية في إشفاقها ويقول: «لم أقبل في يوم شيئاً من أحد، وهكذا ليس من شخص أدين له بقولة شكراً».

وعلى هذا كان السيد «دوشارلوس»، كما لو تعامل مع واحد من رجال المجتمع الراقي، يوالي ممارسة صنوف غضبه الحقيقي أو المصطنع، على أنّه أصبح لاجدوى منه. ولكنّه لم يكن دوماً كذلك. ففي يوم (يقع على أيّ حال بعد هذه الفترة الأولى) كان فيه البارون يعود برفقة «شارلي» ورفقتي من حفل غداء في منزل آل فيردوران، وفي اعتقاده أنّه سيمضي آخر العصر والسهرة بصحبة عازف الكمان في «دونسير»، سبّب وداع هذا الأخير الذي أجاب حال خروجه من القطار: «لا، لديّ مايشغلني»، سبّب للسيد «دوشارلوس» خيبة أمل شديدة إلى حدّ أني رأيت، على الرغم من محاولته مواجهة الشدائد برياطة جأش، دموعاً تذيب طلاء أهدابه فيما يقف ذاهلاً أمام القطار. وكان ذلك الألم شديداً إلى حدّ أني همست في إذن «ألبيرتين» وكنا ننوي هي وأنا أن ننهي نهارنا في «دونسير»، أني أودّ أن لاندع السيد «دوشارلوس» وحيداً وكان يبدو لي مغتماً دون أن أدري السبب. وقبلت الصغيرة العزيزة طائعة. وسألت السيد «دوشارلوس» حينذاك إن لم يكن يودّ أن أرافقه

(١) هو شعار «شارلماني» (ومعناه: شارل الكبير) باللاتينيّة ويعني: أبعد من ذلك يا شارل .

بعض الوقت. وقبل بدوره ولكنه رفض إزعاج ابنة عمي لذلك السبب. ولقيت شيئاً من العذوبة (وللمرة الأخيرة دون شك إذ كنت عازماً على قطع صلتني بها) في أن أمرها بلطف كما لو كانت زوجتي: «عودي من جانبك وسوف ألحق بك هذا المساء»، وفي سماعها تأذن لي، كما لعل زوجة كانت فعلت، بأن أفعل ما ابتغيه، وتقرني على ذلك، وأن أضع نفسي بتصرف السيد «دوشارلوس» الذي تحبه إن كان بحاجة إليّ. ومضينا أنا والبارون، هو يمايل جسده السمين ويخفض عيني اليسوعي لديه (١) وأنا أتبعه إلى مقهى جاؤونا فيه بشيء من البجعة. وأحسست بعيني السيد «دوشارلوس» عالقتين قلقاً بمشروع ما. وفجأة طلب ورقاً ومداداً وطفق يكتب بسرعة فريدة. وفيما كان يسود الورقة تلو الأخرى كان يتلألأ في عينيه حلم غاضب. وبعدما سطر ثماني صفحات قال لي: «هل يمكن أن أسألك خدمة كبرى؟ اعذرني أنني أغلق هذه الكلمة، ولكن لا بد من ذلك. تستقلّ عربة، بل سيارة إن استطعت لتمضي بسرعة أكبر. سوف تلقى بالتأكيد «موريل» وهو بعد في غرفته حيث مضى ليبدل ثيابه. ياللسبي المسكين، أراد أن يظهر بمظهر المتباهي لحظة فراقنا، ولكن تأكد أنه أشد حزنًا منّي. سوف تعطيه هذه الكلمة، فإن سألك أين رأيته تقول له إنك قد توقفت في «دونسير»، (وهي الحقيقة على أي حال) كي تلتقي «روبير» (وهو ما كان ربما غير ذلك)، ولكنك صادفتني مع رجل لا تعرفه وكنت أنا أبداً وقد تملكني الغيظ وآته خيل إليك أنك تسمع اختلاصاً لكلمات تقول بارسال شهود (فإنّي غداً في نزال). لا تقل له خصوصاً إنّي أطلبه ولا تحاول اصطحابه، ولكن إن أراد الهجيء معك فلا تمنعه عن ذلك. هيّا يا بنّي، ذلك في صالحه، وتستطيع الحؤول دون مأساة كبيرة. في أثناء ذهابك سوف أكتب إلى شهودي. لقد منعك من التنزه برفقة ابنة عمك، وأملّي أنها لم تحقد عليّ لذلك، بل اعتقد ذلك. فإنّها امرأة نبيلة وأعرف أنّها من اللواتي يعرفن كيف لا يرفضن عظمة الظروف. ينبغي أن تشكرها عنّي وإنّي أدين لها شخصياً وبروقني أن يكون الأمر كذلك». وداخلني إشفاق عظيم على السيد «دوشارلوس»، فقد كان يبدو لي أنّ «شارلي» كان يستطيع الحؤول دون هذه المباراة التي ربما كان سببها، وكان يثير حنقي والحالة هذه أن يكون مضى بتلك اللامبالاة بدلاً من تقديم المعونة لمن يحميه. وتعاظمت ثورتي حينما تعرّفت، لدى وصولي إلى البيت الذي كان يقطنه «موريل»، صوت عازف الكمان الذي كان، للحاجة التي به لنشر المرح من حوله، يغني من أعماق فؤاده: «مساءً السبت بعد العمل!» (٢) والبيت السيد «دوشارلوس» المسكين كان سمعه، هو الذي كان يود أن يعتقد أو هو كان يعتقد أنّ «موريل» مجروح الفؤاد في هذا الوقت! وأخذ «شارلي» إذ شاهدني يرقص ابتهاجاً. «آه! يا شيخ، (أعذر لي أنني أدعوك هكذا فإنك تتخذ عادات وسخة في هذه الحياة العسكرية اللعينة) بالحظي أنني ألتقيك! ليس لديّ ما أفعله في أمسيّتي، فلنقضيهما سوياً رجوتك. نمكث ههنا إن طاب لك، أو نمضي في قارب إن كنت تفضل، أو نعزف الموسيقى، فليس عندي ما أفضله». قلت له إنّي ملزم بتناول عشاءيّ في «باليلك»، وكان شديد الرغبة في أن أدعوه إليها ولكنّي ماكنت أود ذلك. «ولكن لم جئت إن كنت معجباً إلى هذا الحد؟» - «إنّي أحمل إليك كلمة من السيد «دوشارلوس». وزال كلّ مرحه

(١) اليسوعيون : جمعية دينية كاثوليكية أسسها «أغناطيوس دوليولا» في القرن السادس عشر واشتهروا باتجاه إلى الجدال المفرط ولاسيما على الصعيد الأخلاقي، ويطلق عليه بالفرنسية كلمة: Casuistique

(٢) أغنية شعبية مطلعها : «هيا ياحلوتي» وتعود إلى مطلع القرن العشرين.

لدى سماع ذاك الاسم وتقبّض وجهه. «كيف ذلك! أفنبغي أن يأتي حتى هنا لمطاردي! فأنني عبد والحالة هذه! كن لطيفاً يا عزيزي، فلن أفتح الكتاب؛ قل له إنك لم تلقني.» «أليس من الأفضل أن تفتحه؟ فإني أتصوّر أنّ ثمة أمراً خطيراً.» - «لا، مرةً، فلست تعرف الأكاذيب والحيل الجهنمية لدى هذا القرصان العتيق. إنها خدعة كي أمضي للقائه. وبعد، فلن أذهب، وليدعني وشأني هذا المساء. وسألت «موريل»: «ولكن، أليس هناك مباراة في الغد؟»، وكنت أظنه كذلك على اطلاع. فقال مذهولاً: «مبارزة؟ لست أعلم كلمة من ذلك. لست أبالي على أيّ حال، ويستطيع ذلك العجوز المقرّف أن يذهب إلى الذبح إن طاب له ذلك. لكنك والله تشغل بالي، وسوف ألقى نظرة على رسالته مع ذلك. وتقول له إنك تركتها تحسباً لكلّ طارئ إن أنا عدت.» وفيما كان «موريل» يكلمني كنت أتطلع بدهشة عظيمة إلى الكتب الرائعة التي سبق أن أعطاه إياها السيّد «دوشار لوس» وكانت الغرفة تزدهم بها، ولما رفض عازف الكمان الكتب التي تحمل عبارة: «إني ملك يد البارون، الخ» والشعار يبدو له مهيناً بما هو علامة امتلاك، فإن البارون، بتلك المهارة العاطفية التي تليّد الحبّ غير الموفّق، كان قد نوع فيها بأخرى جاءته من جدود له ولكنّا أوصي بها إلى عامل التجليد وفق ظروف صداقة كثيبة. فقد كانت أحياناً مختصرة وثيقة كمثّل: «Spes mea» (أملّي) و «Expectata non eludet» (لن يخيب الآمال) (١)، وأحياناً فقط مستسلمة، مثل «سأنتظر»؛ وبعضها غرامية: «متعة السيّد نفسها»، أو هي تصبح بالعفة كمثّل الشعار المأخوذ عن آل «سيميان» والذي تنتشر فوقه الأبراج اللازوردية وأزهار الزنبق، وقد حُرف معناه «Sustentant lilia turres» (الأبراج تساند الزنايق)، وغيرها أخيراً يائس يضرب موعداً في السماء لمن أعرّض عنه على الأرض: «Manet ultima caela» (النهاية ملك السماء) (٢). وإذ يجد السيّد «دوشار لوس» العنقود الذي أخفق في الوصول إليه حصراً كلّ ويتظاهر بأنّه لم يسعَ إلى مالم يحصل عليه فقد كان يقول في أحدها: «Non mortale quod opto» ليس طموحي إلى زوال) (٣)، ولكنّا لم يتسع لي الوقت لأراها جميعاً.

ولئن بدا السيّد «دوشار لوس»، وهو يخطّ على الورق هذه الرسالة، وكأنّما تحت سلطان شيطان الوحي الذي يجري به قلمه، فما أن فضّ «موريل» الخاتم «Atavis et armis» (بالجدود والسلاح) (٤) الذي يعلوه فهد إلى جانب وردتين باللون الأحمر حتّى أخذ يقرأ بسرعة محسومة تساوي تلك التي أبداه السيّد «دوشار لوس» وهو يكتب، وما كانت عيناه تجريان على تلك الصفحات التي سوّدت بسرعة جهنمية بأقلّ ما كان يجري به قلم البارون. وصاح قائلاً: «آه! يا إلهي! ما كان ينقصنا غير ذلك! ولكن أين نجدّه؟ الله يعلم أين هو الآن.» وألحّت إلى أنّا إن حثّنا السير ربّما لقيناه لايزال في مقهى أوصى فيه على جعة ليستعيد هدوءه. وقال لعاملة المنزل: «لست أعلم إن كنت سأعود»؛ وأضاف يقول بصوت خافت: «ذلك رهن بالمنحي

(١) الشعار الأوّل هو للملك «هنري الثالث» ونصّه الأصلي: «الله أملّي». أمّا الثاني فلزوجة «هنري الرابع» الأولى واسمها «مغريث دو فالوا»

(٢) شعار آخر للملك «هنري الثالث»

(٣) هو شعار «شارل دو لورين»

(٤) شعار الكونت «داجيفليه» مدير أبنية «لويس السادس عشر»

الذي ستتخذهُ الأمور. وماهي إلا دقائق حتّى وصلنا إلى المقهى. ولاحظت هيئة السيّد «دوشار لوس» ساعة لحنني. وإذا أبصرني لأعود وحيداً شعرت أن أنفاسه وأن الحياة رُدّت إليه. ولما لم يكن بحالة تمكّنه من الاستغناء عن «موريل» فقد ابتدع أنّهم نقلوا إليه أن ضابطين من الكتيبة تناولا به بالسوء بشأن عازف الكمان وأنه عازم أن يرسل إليهما شهوداً. ورأى «موريل» الفضيحة وحياته التي أضحت مستحيلة في الكتيبة فهرع إليه. ولم يكن تماماً على خطأ في ما فعل. ذلك لأن السيّد «دوشار لوس» كان قد كتب إلى صديقين (كان أحدهما «كوتار») ليسألهم أن يكونا شاهدين له وذلك ليجعل الكذبة أكثر قرباً إلى الحقيقة. ولو لم ينجح عازف الكمان فالأكيد أنّ السيّد «دوشار لوس» كان، بالجنون الذي به، (وكيما يبذل حزنه غيظاً)، أرسل بهما كيّفما اتّفقا إلى ضابط، أي ضابط، لعلّ منازلته كانت فرّجت عنه. وفي أثناء ذلك تذكّر السيّد «دوشار لوس» أنّه من عرق أكثر صفاء من آل البيت في فرنسه فكان يقول في نفسه ما أحسنه أن يجرع كلّ هذا الجزع من أجل ابن رئيس خدم لعله ما كان تنازل أن يتردّد على سيّده. ولئن لم يعد يستمتع من جانب آخر بغير معايشة حثالة الناس فإن العادة المتأصلة التي لديهم في عدم الإجابة عن رسالة وفي الإخلاف بموعد دون سابق إنذار ودون الاعتذار بعده كانت تعبت في نفسه، إذ الأمر في الغالب أمر غرام، الكثير من الانفعالات، وكانت تسبّب له فيما تبقى من الوقت الكثير من الأزعاج والضيق والحنق حتّى ليبلغ به أن يتأسف أحياناً على كثرة الرسائل التي تسطر في أمر زهيد وعلى الدقّة المفرطة في مواعيد السفراء والأفراد الذين إن هم للأسف لا يثيرون اهتمامه كانوا يولونه على الرغم من كل شيء نوعاً من الراحة. وإذا كان السيّد «دوشار لوس» قد ألف تصرفات «موريل» ويعلم إلى أي حدّ لسلطان له عليه وأنة عاجز عن الانسلاخ داخل حياة كانت الصبغات السوقية، ولكنّها كرسّتها العادة مع ذلك، تأخذ حيزاً من المكان والزمان أكثر من أن يحتفظ بساعة للسيّد الكبير المقصّي المتكبّر المتوسّل عبثاً، فقد كان متيقّناً أن الموسيقي لن يعود وبه خشية أن يكون اختصم إلى الأبد معه لأنة تجاوز الحدّ حتّى إنّه صادف عنتاً في كتم صوت صراخه حين رآه. ولكنّه حرص وقد ألفى نفسه منتصباً على إملاء شروط السلام واستخلاص ما استطاع من المكاسب. فقال له: «ماذا جئت تفعل هنا؟» وأضاف قوله وهو ينظر إليّ: «وأنت؟ لقد أوصيتك على وجه الخصوص أن لا تعود به إليّ.» - «لم يكن يريد العودة بي»، يقول «موريل» وهو ينقل باتجاه السيّد «دوشار لوس»، بسداجة دلالة، نظرات مصطلح حزنها متعبة في تقادّمها وقد اتخذ هيئة حكم دون شكّ أنها لا تقاوم، هيئة من يبغي عناق البارون وبه رغبة في البكاء، «فأنا من جاء على الرغم منه. ها أنا ذا أتّي باسم صداقتنا لأتوسّل إليك جاثياً على ركبتيّ بأن لا تقدم على هذا الجنون.» كان السيّد «دوشار لوس» قد جنّ فرحاً. لقد كانت ردّة الفعل شديدة على أعصابه ولكنه ظلّ يسيطر عليها مع ذلك. وأجاب بجفاء: «كان يجدر بالصدّاقة التي تدّعيها بغير مناسبة أن تحملك على العكس على إقرار ما فعل حينما لا أرى لزوماً عليّ التغاضي عن سفاهات أحد الحمقى. ولو شئت من جانب آخر أن أستجيب لتوسّلات مودّة عرفتها أفضل إلهاماً فلن تتوافر لي القدرة على ذلك فإن رسائلي إلى شهودي أرسلت ولست أشكّ بقبولهم. لقد تصرّفت دوماً إزائي تصرّف الأبله الكامل وبدلاً من أن تفاخر، كما كان لك الحقّ أن تفعل، بالإيثار الذي أبديته لك، بدلاً من أن تفهم حثالة مساعدتي الضباط أو الخدام الذين يضطرك القانون العسكري إلى العيش بين صفوفهم أيّ باعث على الاعتزاز الذي لا يدانيه اعتزاز تؤلّفها بالنسبة إليك صداقة كما هي



صداقتي، حاولت الاعتذار، بل حتى أن تفاخر بغباء بأن لا تبدي لي ما يكفي من امتنان. أعلم أن لا ذنب لك في ذلك سوى أنك أمتحت لغيرة الآخرين مجال دفعك إلى ذلك، يضيف قوله كي لا يبدي إلى أي حد أدلته بعض المشاهدات. ولكن كيف تكون في مثل سنك طفلاً إلى حد ما (وطفلاً سيء التهذيب إلى حد ما) كي لا تكون حزرت في الحال أن اصطفاي لك وسائر المكاسب التي ستنتجم عنه فيما يخصك سوف تثير حسد الآخرين؟ وأن رفاقك جميعاً سيعملون على احتلال مكانك فيما يستثيرونك لتختصم معي؟ ولم أر من واجبي لفتك إلى الرسائل التي وردتني بهذا الشأن من كل الذين توليهم أكثر ثقتك. فأني أزدري على السواء محاولات التقرب التي يقوم بها هؤلاء الخدام وصنوف سخرتهم التي لا تجدي فتيلاً. الشخص الوحيد الذي أعيا به هو أنت لأنني أحبك حقاً ولكن للوداد حدوداً وكان يجدر بك أن تتوقع ذلك. ومهما أمكن أن تكون لفظة «خادم» قاسية على مسامع «موريل» الذي سبق لوالده أن كان خادماً، بل بالضبط لأنه كان كذلك، فإن تفسير سائر الحوادث الاجتماعية المؤسفة «بالغيرة»، وهو تفسير ساذج وغير منطقي، ولكنه لا يلبى ويصادف على الدوام لدى طبقة ما نجحاً لا يخيّب شأن الخدع القديمة لدى جمهور المسارح أو التهديد الناشئ عن خطر رجال الدين في المجالس، إنما كان يلقي لديه إيماناً يساوي في قوته إيمان «فرانسواز» أو خدام السيدة «دو غير مانت»، وكانت في نظرهم السبب الوحيد لمصائب البشرية. ولم يشك في أن يكون رفاقه حاولوا أن يخطفوا منه مكانه فإذا به أكثر تعاسة جرّاء هذه المبارزة المفجعة والوهمية على أي حال. وصاح «شارلي» قائلاً: «آه! يا الغمّي! فلن أبقى من بعده. ولكن ألا ينبغي أن يلتصياك قبل الذهاب للقاء ذاك الضابط؟» - «لست أدري، وفي اعتقادي أن بلى. لقد بعثت أقول لأحدهم إنني سأمكث هنا هذا المساء وسوف أزوده بتعليماتي.» وسأله «موريل» بلهجة رقيقة قائلاً: «أمل أن أكون أقنعتك حتى مجيئه. اسمح لي فقط أن أمكث بجانبك.» كان ذلك جلّ ما ينفخي السيد «دوشار لوس» ولكنه لم يتراجع من أول مرة. «لعلك تغلط إن طبقت هنا مقولة «من أحب كثيراً أعاق بصرامة»، فإنك أنت من أحببت كثيراً ومرادي أن أعاقب حتى بعد خصامنا أولئك الذين حاولوا محاولة جبانة أن يسيثوا إليك. ولم أحب حتى الآن عن تلميحاتهم المتسائلة التي تجرؤ أن تستوضحني كيف يستطيع رجل مثلي أن يكون على صلة بـ «زبون» من طينتك نبت من لاشيء إلا بشعار أبناء عمومتي من آل «لاروشوكو»، «ذلك يروقتي». بل أبرزت لك عدّة مرّات أن تلك المسرة يمكن أن تصبح أعظم مسرة لديّ دون أن ينتج عن ارتفاعك التحكّمي حطاً لمنزلي» وصاح في نبرة استعلاء يقارب الجنون وهو يرفع ذراعيه: «Tantus ab uno splendor!» (كلّ هذه الروعة من واحد) (١). فليس التنازل نزولاً، يضيف قوله بهدوء أكبر في أعقاب هذا السيل العارم من الاعتزاز والفرح، «أمل على الأقل أن الدم الذي يجري في عروق خصمي، على الرغم من اختلاف المكانة، يمكن أن أريقه دونما خجل. وقد جمعت بهذا الصدد بعض المعلومات السريّة التي طمأننتني. ولعله يجدر بك، إن احتفظت لي بشيء من الجميل، أن تفخر على العكس لما ترى من أنني استعيد بسببك المزاج الحربي الذي لجدودي فأقول مثلهم إن حلّت النهاية المحتومة، الآن وقد أدركت أي شخص غريب الأطوار أنت: «الموت حياة لي.» وكان السيد «دوشار لوس» يقول ذلك صادقاً لا بداعي حبّه لـ «موريل» فحسب بل لأنّ ميلاً للقتال يظنّ بسذاجة أنّه أخذه عن جدوده كان

(١) شعار «لويز دوليرين» ارملة الملك هنري الثالث.

يوليه قدراً من الحبور لدى التفكير بالافتتال إلى حدّ إن تلك المباراة المدبّرة بادئ الأمر لمحض استقدام «موريل» ربّما أحسن الآن بالأسف للتخلّي عنها. فلم يكن واجه أمراً في يوم دون أن يظنّ نفسه في الحال مقدماً ومثالاً للقائد العام الشهير «دو غير مانت»، في حين يبدو له الذهاب إلى ميدان المباراة بالنسبة لآخر سواء عملاً في غاية التفاهة. وقال لنا بصدق وهو يرثّل كلّ لفظة: في اعتقادي أنّها ستكون جميلة جداً. فماعسى أن تكون مشاهدة «ساره بيرنار» في مسرحيّة «النسر الصغير»؟ خ... و«مونيّه سولي» في مسرحيّة «أوديب»؟ خ... وهو على الأكثر يستند بعض شحوب يتبدّل به وجهه حينما يجري الأمر في حلبات «نيم». ولكن ماعسى أن يكون ذلك مقابل هذا الشيء الخارق أن تشهد قتال واحد من نسل القائد العام بالذات؟ وشرع السيّد «دوشار لوس» لدى ورود هذه الفكرة وحدها، شرع وهو لا يملك نفسه من الفرح يقوم بحركات دفاعيّة كانت تذكّر بـ«موليير» ودفعتنا إلى أن نقرب منّا محاذرين أكوابنا وأن نخشى من أوّل عناق للسيوف أن يجرّح الخصمين والطبيب والشاهدين. وقال لي: «أيّ مشهد مغرّ لرسام هو هذا! وأنت يا من يعرف السيّد «ايلستير» يجدر بك أن تنجيء به» فأجبت أنّه ليس على الساحل. فألمح السيّد «دوشار لوس» إلى إمكان الإبراق له، وأضاف قوله في مواجهة سكوتي: «آه! أقول ذلك من أجله، فأنه لمفيد دوماً بالنسبة لأستاذ- وإنه كذلك فيما أرى- أن يثبت مثلاً على مثل هذا الانبعاث الإثني، وربّما لم يكن ثمّة واحد منه على مدى قرن».

ولكن كان السيّد «دوشار لوس» يغتبط بفكرة نزال ظنّه بادئ الأمر مجرد وهم، فقد كان «موريل» يفكر يهلع بالأقاويل التي يمكن أن تنقل من «موسيقى» الكتيبة، بسبب الضجّة التي ستثيرها تلك المباراة، إلى معبد شارع «بيرجير». وإذ خيّل إليه أن «الصف» أصبح مطلعاً على كلّ شيء فقد أضحي أكثر فأكثر إلحاحاً لدى السيّد «دوشار لوس» الذي كان يوالي التشوير بيديه إزاء فكرة النزال المسكرة. وتوسّل إلى البارون أن يأذن له بأن لا يفارقه إلى مابعد الغد، وهو يوم المباراة المفترض، كي يرقبه عن كثب ويحاول أن يسمعه صوت العقل. وقد قضى عرض رقيق إلى هذا الحدّ على آخر معاقل التردّد لدى السيّد «دوشار لوس»، فقال إنّّه سيحاول إيجاد مخرج وإنه سوف يعمل على تأجيل القرار النهائي إلى مابعد الغد. كان السيّد «دوشار لوس» إذ لا يتدبّر الأمر دفعة واحدة، كان بإمكانه الاحتفاظ بـ«شارلي» يومين على الأقلّ والإفادة منهما كي يحصل منه على تعهّدات للمستقبل في مقابل تخلّيه عن المباراة، هذا التمرين الذي يغتبط له، يقول، أشدّ الاغتناب، ولن يمتنع عنه دونما أسف. وكان فيما يقول صادقاً فقد وجد على الدوام متعة في ارتداد حلبات المباراة حينما يقتضي الأمر أن يقاتل بالسيف خصماً أو يبادل الرصاص. وأخيراً وصل «كوتار» وأن يكن تأخر كثيراً، ذلك لأنّه كان شديد الغبطة بأن يكون شاهداً، ولكنّه كان بعد أكثر انفعالاً فاضطّر أن يتوقّف في سائر المقاهي أو المزارع على الطريق يسأل أن يتكرّموا ويدلّوه على الرقم «١٠٠» أو «بيت الخلاء الصغير». وما أن وصل حتّى اصططحبه البارون إلى حجرة منفردة إذ كان يرى أقرب إلى النظام أن لانهضر اللقاء أنا و«شارلي» وكان يجيد في أن يجعل من غرفة عاديّة غرفة تخصّص مؤقتاً لتكون قاعة عرض أو مدالوات. وما إن أصبح وحده مع «كوتار» حتّى صرّح أنّه يبدو على الأرجح أنّ الأقوال المردّدة لم يجر الكلام بها في الحقيقة وأن يتكرّم الدكتور ضمن هذه الظروف باخطار الشاهد الثاني بأن الحادثة اعتبرت منتهية إن لم تطرأ تعقيدات. وإذ تباعد الخطر أصيب «كوتار» بخيبة أمل، بل خطر له حيناً أن يعبر عن غضبه ولكنّه تذكّر أن أحد أساتذته الذي نجح أعظم

نجاح في عصره على الصعيد الطبي كتم غيظه وتحمل مصيبتيه بعد ما فشل في المرة الأولى في الجمع بفارق صوتين فحسب ومضى فشد على يد غريمه المنتخب. ولذلك أعفى الدكتور نفسه من الاعراب عن حقن ما كان ليغير شيئاً من بعد، وأضاف بعدما همس، هو أشد الرجال خوفاً، بأن ثمة أموراً لا يمكن أن ندعها تمر مرور الكرام، وأضاف أن الأمر هكذا أفضل وأن هذا الحل يدخل السرور الى قلبه. وبادر السيد «دوشار لوس»، رغبة منه في الاعراب عن امتنانه للدكتور، وبالطريقة نفسها التي لعل شقيقه الدوق كان رتب بها ياقة معطف والذي ولقت لها دوقه على وجه الخصوص خصر واحدة من العامة، فقرب كرسيه بملاصقة كرسى الدكتور على الرغم من القرف الذي يوحى به هذا الأخير. وكما يودع الدكتور أخذ يده، ولم يفعل دون آية متعة مادية فحسب بل فيما يغالب نفوراً جسدياً، فعل واحد من آل «غير مانت» لأفعل شاذ، وداعبها حيناً بلطف سيد يدغدغ خطم جواده ويعطيه قطعة سكر. ولكن «كوتار» الذي لم يكشف في يوم البارون أنه حتى سمع أقاويل سوء غامضة يجري تناقلها حول أخلاقه، ولم يكن في قرارة نفسه أقل احتساباً له على أنه من صنف «الشاذين» (فقد كان حتى باستخدامه العادي للألفاظ في غير معانيها الصحيحة ولهجة أكثر ماتكون جديّة يقول عن أحد خدم السيد «فيردوران» «أليس أنه «عشيق» البارون؟) وهم قوم كان قليل الخبرة بهم، تخيل أن تلك المداعبة باليد كانت التمهيد المباشر لعملية اغتصاب أوقعه البارون في سبيل اتسامها، والمباراة لم تكن سوى حجة، في فتح وساقه إلى هذه الصالة المنفردة حيث سيؤخذ عنوة. وإذا لايجرؤ على مغادرة كرسيه حيث يسمره الخوف، فقد كان ينقل عينيه هلعاً وكأنهما وقع بين يدي متوحش لم يكن متيقناً تماماً من أنه لا يتغذى بلحوم البشر. وأخيراً أفلت السيد «دوشار لوس» يده وقال وهو يود أن يكون لطيفاً حتى النهاية «مستناول شيئاً معنا، كما يقولون، ماكان يدعى بالأمس «مازا غران» أو «غلوريا» (١)، وهما من الأشربة التي لا نجد لها من بعد، بوصفها غرائب أثرية، إلا في مسرحيات «لايش» ومقاهي «دونسيير»، وربما ناسب فنجان «غلوريا» المكان إلى حد ما، أليس كذلك؟ والظروف، فما قولك؟ «فأجاب «كوتار»: «إني رئيس رابطة مناهضة الكحول، ويكفي أن يصادف مرور «طبيب» من الريف كي يقال إني «لا أعظ بالمثل الصالح Os homini sublime dedil caelum que tueri. (وهب الانسان وجهاً يتجه به صوب السماء)، يضيف قوله مع أن الأمر لاصلة له البتة وإنما لأن مخزون استشهاده اللاتينية كان حيناً إلى حد ما، ولكنه كاف على أية حال كي يدهش تلاميذه. وارتفع السيد «دوشار لوس» بمنكبيه وعاد به «كوتار» إلينا بعدما طلب إليه سرّاً كان يهمه بقدر يزيد منه أنه كان لابد، وسبب المباراة التي أجهضت كان من نتاج الخيال البحت، من الحؤول دون بلوغه مسامع الضابط الذي اتهم تعسفاً. وفيما كنا نشرب نحن الأربعة دخلت السيدة «كوتار» التي كانت تنتظر زوجها في الخارج أمام الباب وقد رآها السيد «دوشار لوس» بوضوح تام ولكنه ماكان يهتم بلفت نظرها، وحيث البارون الذي مد يده إليها وكأنما لخادمة دون أن يتحرك من كرسيه فعل ملك يتقبل آيات الاحترام في جزء، وفي آخر فعل سنوبي لا يريد أن يجلس إلى طاولته امرأة هيئة الأناقة، وفي جزء ثالث فعل أناني يصيب متعة في أن يكون وحيداً برفقة أصدقائه ولا يود أن يزعجه أحد. وليث السيدة «كوتار» والحالة هذه واقفة تحدثت إلى السيد «دوشار لوس» وإلى زوجها. ولكن، ربما لأن الأدب، أي مايقع عليك أن

(١) Mazagran و gloria : نوعان من مشروب القهوة يضاف إليه بعض «الروم»، والثاني محلى بقليل من السكر.

تفعل، ليس امتيازاً قاصراً على آل «غير مانت» ويمكن فجأة أن ينير ويوجّه العقول الأكثر تردداً، أو لأن «كوتار» كثيراً ما كان يمدح زوجته فيحسن بين الحين والحين حاجة، جرّاء نوع من الثأر لها، إلى حمايتها ممن كان يقصر معها، قطب الدكتور فجأة حاجبيه، وهو مالم يسبق أن رأيته يفعل في يوم، ودون أن يستشير السيد «دوشار لوس» قال بلهجة صاحب الأمر: «هيا يا «ليونتين»، لاتلبثي هكذا واقفة، واجلسي.» - ولكن أليست أزعجكم؟» تقول السيدة «كوتار» بلهجة خجولة للسيد «دوشار لوس» الذي لم يحر جواباً وقد فاجأته لهجة الدكتور. وعاد «كوتار» يقول دون أن يوقر له الوقت لذلك للمرة الثانية: «لقد قلت لك أن تجلسي.»

وتفرقوا بعد حين وقال السيد «دوشار لوس» حينذاك لـ «موريل»: «استخلص من مجمل هذه القصة، وقد جاءت خاتمتها أفضل مما كنت تستحق، أنك لا تحسن التصرف وأني سأعيدك أنا في ختام خدمتك العسكرية إلى والدك كما فعل رئيس الملائكة «رفائيل» الذي أرسله الله إلى «طوبيا» الشاب.» وطفق البارون يتسم بمظهر من العظمة وفرح لم يبد أن «موريل» كان يشاطره إيّاه إذ لم تكن فكرة إعادته على هذا النحو لتروق له. ولم يعد السيد «دوشار لوس» يفكر، وقد انتشى بتشبيه ذاته برئيس الملائكة و«موريل» بابن «طوبيا»، يهدف جملته الرامية إلى استطلاع المكان ليعلم إن كان «موريل» سيقبل بالخيء وإيّاها إلى باريس كما كان يبدي من رغبة. ولم يصبر البارون أو هو تظاهر بأنه لا يصبر، وقد أسكره حبه أو اعتزازه بنفسه، العبوس الذي ظهر على وجه عازف الكمان، فقد قال لي بعدما ترك هذا الأخير وحده في المقهى، قال بابتسامة مستكبرة: «هل لاحظت كيف كان يطير فرحاً حينما شبهته بابن «طوبيا». ذلك لأنه أدرك فوراً، إذ هو شديد الذكاء، أن «الأب» الذي سوف يعيش إلى جانبه من الآن فصاعداً ليس أباه بالجسد، وهو لا بدّ خادم خاصّ قبيح بشاربين، بل أبوه بالروح، أي أنا. فأني فخر بالنسبة إليه، وكم كان يرفع الرأس باعتزاز! وأي فرح يحسّ به لا أدراكه ذلك، وإني متيقن من أنه سيقول كل يوم: «اللهم يامن جعلت من رئيس الملائكة «رفائيل» الطوباي دليلاً لخادمك «طوبيا» في رحلته الطويلة، هبنا نحن خدامك أن يحامي عنا ويزودنا بمعونته على الدوام.» وأضاف البارون قوله وهو على قناعة تامة أنه سوف يجلس يوماً أمام عرش الله: «ولم تكن حتى بي حاجة أن أقول له إني رسول السماء إليه، فقد أدرك الأمر من تلقاء ذاته وأرجّ عليه من السعادة!» وصاح السيد «دوشار لوس» (وما كانت السعادة على العكس تفقده الكلام). وهو قليل الاهتمام ببعض المارة الذين استداروا وفي ظنهم أن الأمر أمر مجنون، صاح وحده وبكل قوته وهو يرفع يديه: «هلولويا!»

ولم تضع هذه المصالحة حداً لهموم السيد «دوشار لوس» إلا إلى حين. فكثيراً ما كان «موريل» يمضي في مناورات أبعد من أن يتيسر للسيد «دوشار لوس» أن يلتقيه ويرسلني للتحديث إليه، فكان يخطّ للبارون رسائل يائسة رقيقة يؤكد له فيها أنه يبني له أن يضع حداً لهذه الحياة لأنه بحاجة من أجل أمر مريع لخمسة وعشرين ألف فرنك. وما كان يقول أي شيء كان ذلك الأمر المريع، ولو أنه قاله لكان دون شك ابتداءً. ولعلّ السيد «دوشار لوس»، فيما يخص المال نفسه، لعله كان بعث به راضياً لو لم يحسّ أن ذلك يوقر لـ «شارلي» وسيلة الاستغناء بغيره عنه وأن ينال حظوة لدى آخر غيره. ولذلك كان يرفض وكانت برقيات له باللهجة الجافة القاطعة التي لصوته. وكان، حين هو أكيد من أثرها، يتمنى أن يكون أبداً الدهر على خلاف معه، فهو إذ يوقن أن ماسيجري هو العكس كان يتبين المضايقات التي ستنتج ثانياً عن هذه العلاقة المحتمومة. فإن لم يرد أي

جواب من «موريل» عاد لا ينام ولم يظل له لحظة هدوء لضخامة عدد الأشياء التي نعيشها دون أن نعرفها والحقائق الباطنية العميقة التي تلبث خفية علينا. حينذاك كان يصوغ كل الافتراضات حول هذه الهفوة الفاحشة التي تجمل «موريل» بحاجة إلى خمسة وعشرين ألف فرنك فيوليها كل الأشكال ويربط بها بالتناوب الكثير من أسماء العلم. وأعتقد أن السيد «دوشار لوس» كان لابد يتذكر في تلك اللحظات (مع أن سنويته في تلك الفترة، وهي في تراجع، لحق بها على الأقل إن لم يكن جاوزها فضول البارون المتعاطف لآراء الشعب) بشيء من الحنين الزوابع اللونية الرشيقة المتعددة التي تولفها اللقاءات الاجتماعية والتي ما كان أكثر النساء والرجال فتنة يسعون فيها إليه إلا للمتعة المجردة التي كان يوليهم إيّاها والتي ما كان ليفكر أحد بأن يخدمه ويتدع «أمراً مريعاً» يدي جراه استعداده لأن يقتل نفسه إن لم يرد في الحال خمسة وعشرون ألف فرنك. وأعتقد أنه كان لابد حينئذ، ربّما لأنه لبث مع ذلك من «كومبريه» أكثر منّي وطعم الاعتزاز الاقطاعي بالاستكبار الألماني، أن يجد أن المرء لا يمكن أن يكون عاشق خادم دونما عقاب، وأن الشعب ليس تماماً العالم الراقي وما كان يولي الشعب ثقته كما فعلت أنا على الدوام.

تذكرني محطة القطار الصغير التالية، وأقصد «مينفيل» تذكرني بالضبط بحادث له علاقة بـ «موريل» والسيد «دوشار لوس». وقبلما أحكي عن ذلك لابد لي أن أقول إن التوقف في «مينفيل» (حين كانوا يصطحبون إلى «البليك» واداً أثيقاً كان يفضل، بغية أن لا يزجج، أن لا يقطن «لاراسيلير» كان مناسبة لمشاهد تشق عليك أقل من هذا الذي سأروي عنه بعد لحظة. كان الؤاد، وهو يحمل أغراضه السيرة في القطار، يجد الفندق الكبير بعامة على شيء من البعد، بيد أنه، إذ لم يكن ثمة قبل بلوغ «البليك» سوى شواطئ صغيرة بدارات غير مريحة، كان يسلم طائعاً، من جرّاء ميل إلى البذخ والرفاهية، بالرحلة الطويلة حينما كان يصير فجأة في فترة وقوف القطار في «مينفيل» فندق «الهالاس» يشمخ أمامه وما كان يمكن أن يرتاب بأنه بيت بغاء. فكان يقول حكماً للسيدة «كوتار»، وهي امرأة معروفة بتفكيرها العملي وحسن المشورة: «هيا»، لاندھبن أبرد من ذلك، فهذا كل ما ينبغي لي. فما فائد المضي حتى «البليك» حيث لن تكون الأمور أفضل بالتأكيد؟ أني أحكم، لجرد المظهر، أني واجد كل الراحة ويمكنني تماماً استقدام السيدة «فيردوران» لأنني أنوي في مقابل مجاملاتها إقامة بعض اللقاءات الصغيرة على شرفها، ولن يقع عليها السير بقدر مالو كنت أسكن في «البليك». يبدو لي أن ذلك يناسبها تماماً، ويناسب زوجتك بأستاذي العزيز. لابد أن ثمة صالات نستقدم إليها هاتيك السيدات. لست أفهم، وأقولها فيما بيننا، لماذا لم تجي السيدة «فيردوران» للسكنى هنا بدلاً من استئجار «لاراسيلير» فالمكان صحي أكثر من بيوت قديمة على شاكله «لاراسيلير» وهي حتماً رطبة دون أن تكون نظيفة على أية حال، ولا يتوافر فيها الماء الساخن فلا تستطيع الاغتسال كما تشاء. تبدو لي «مينفيل» أوفر متعة وكانت السيدة «فيردوران» نهضت فيها بدور المعلمة على أكمل وجه. لكل في جميع الأحوال ذوقه، أما أنا فسأقيم هنا. ألا تريدان النزول وإيّاي ياسيدة «كوتار»؟ على أن نتوخى السرعة فلن يلبث القطار أن ينطلق من جديد. وربّما أرشدتني في هذا المنزل الذي سيكون منزلك أيضاً ولابد أنك ترددت عليه كثيراً. إنه بالتمام الإطار الذي يناسبك، لقد صادفوا كل صنوف المشقة لحمل الؤاد المنكود الحظ على السكوت، ولأسيما لمنعه من النزول، وكان بالعناد الذي ينجم في الغالب عن كبير الهفوات يلح ويحمل حقائبه ويرفض سماع أي

شيء إلى أن يكونوا أكدوا له أن لن يجيء للقاءه هنا لا السيد «فيردوران» ولا السيدة «كوتار» «سأحدّد هنا مكان أقامتي في جميع الأحوال، وما على السيد «فيردوران» إلا أن تكتب إليّ هذا المكان».

أما الذكرى المتعلقة بـ «موريل» فتعود لحادثة من نمط أكثر خصوصية. لقد وقعت حادثات أخرى، ولكنما أكتفي هنا، كلما توقّف القطار الصغير وصاح المستخدم يقول «دونسيير»، «غرا تفاست»، «مينفيل»، الخ، بتسجيل ما يدكرني به الشاطئ الصغير أو الثكنة. لقد سبق أن تحدّثت عن «مينفيل» (Media Villa) المدينة المتوسطة) وعن الأهمية التي كانت تكتسبها بسبب دار البغاء الفخمة التي بنيت فيها مؤخراً، ولم يتمّ ذلك دون إثارة احتجاجات المهمّات الأسر لاطائل تحتها. ولكن لا بدّ لي، قبل أن أقول مانوع الصلة في ذاكرتي بين «مينفيل» و«موريل» والسيد «دوشار لوس»، من ملاحظة التفاوت (الذي يقع عليّ التعمّق فيه فيما بعد) بين الأهمية التي يعلّقها «موريل» على الاحتفاظ ببعض الساعات خالية من أي ارتباط وتفاهة المشاغل التي يزعم أنّه يخصّصها لها، أذ تلقى هذا التفاوت نفسه داخل الايضاحات التي من نوع آخر والتي كان يقدمها للسيد «دوشار لوس». فهو الذي كان يمثل دور المتجرّد مع البارون (ويمكنه أن يفعل دون مخاطر نظراً لكرم حاميه) حينما كان يرغب في قضاء الأمسية بمفرده ليعطي درساً، الخ، لم يكن يفوته أن يضيف إلى حجّته هذه الكلمات التي يقولها بابتسامة ملؤها الجشع: «ثمّ إن ذلك يمكن أن يكسبني أربعين فرنكاً وليس ذلك بالقليل، فاسمح لي بالذهاب هناك فتلك مصلحتي كما ترى. وأنا بالطبع لادخول لي مثلك، وعليّ أن ابني نفسي، وقد آن أن أكسب المال». ولم يكن «موريل» غير صادق تماماً في رغبته بإعطاء درسه. فأن لا يكون للمال لون غير صحيح من جهة، فإن طريقة جديدة في كسبه تولي القطع التي أفقدها الاستعمال لمعانها جدّة. فلو أنّه خرج حقيقة من أجل درس يعطيه فيمكن أن تكون ليرتان ذهبيتان نقدتهما بداية إحدى التلميذات خلقتا في نفسه أثراً مخالفاً لليرتين تأتياه من يد السيد «دوشار لوس». ثمّ إن أغنى رجل ربّما قطع في سبيل ليرتين كيلو مترات تصبح فراسخ إن كنت ابن خادم خاص. على أن السيد «دوشار لوس» كان يتباه في الغالب شكوك حول درس الكهان تتعاطم بقدر ما كان الموسيقي يتذرّع في الغالب بحجج من نوع آخر ومن طراز متجرّد تماماً على الصعيد المادي وهي مخالفة للمنطق على أيّ حال. من ذلك أن «موريل» ما كان يستطيع حجب النفس عن أن تقدّم صورة عن حياته ولكنّها عن قصد أو غير ما قصد أيضاً شديدة العتمة إلى حدّ أن بعض الأجزاء فقط كانت تتضح معالمها. وقد وضع نفسه على مدى شهر يتصرّف السيد «دوشار لوس» بشرط أن يحتفظ بأمسياته حرّة لأنه كان يرغب في المشاورة على دروس الجبر. فأما المجيء للسؤال عن السيد «دوشار لوس»؟ أه ذلك مستحيل، فالدروس كانت تستمرّ أحياناً حتى ساعة متأخرة. ويتساءل البارون قائلاً: «حتى إلى ما بعد الثانية صباحاً؟» - «أحياناً» - «ولكنّ الجبر يمكن تعلمه بالسهولة نفسها في كتاب» - «بل بسهولة أكبر لأنّي لا أفهم الكثير في الدروس» - «إذا؟ والجبر لا يمكن في جميع الأحوال أن يفيدك في شيء» - «هذا شيء أحبّه كثيراً، فأنّه يزيل وهن أعصابي». وكان السيد «دوشار لوس» يقول في نفسه: «لا يمكن أن يكون الجبر ما يدفعه إلى طلب مأذونيات ليلية. أترأه ملحق بالشرطة؟» وفي جميع الأحوال، وآيا كان الاعتراض، فإن «موريل» كان يحتفظ ببعض الساعات المتأخرة، سواء أكان ذلك بسبب الجبر أو الكمان. وذات مرّة لم يكن السبب لاهذا ولا ذاك، بل الأمير «دو غير مانت» الذي جاء لقضاء بضعة أيّام على هذا

الشاطئ لزيارة الدوقة «دو لوكسمبور» فالتقى الموسيقيّ دون أن يعرف من عساه كان ودون أن يكون معروفاً لديه علاوة على ذلك وعرض عليه خمسين فرنكاً لقضاء الليلة بصحبته في دار النساء في «مينثيل» ، والمتعة مزدوجة بالنسبة إلى «موريل» ، متعة المكسب الذي جاءه من جانب السيّد «دو غير مانت» واللذة لما تحيط به نساء نهودهن السمراء تبرز مكشوفة. لست أدري كيف بلغت السيّد «دوشار لوس» فكرة ماجرى والمكان، ولكن من دون الغاوي. وجرّ من الغيرة وبادر بغية معرفته فأبرق لـ «جويان» الذي وصل بعد يومين، وعندما أعلن «موريل» في أول الأسبوع التالي أنه يزعم أيضاً أن يغيب سأل البارون «جويان» إن كان سيأخذ على نفسه شراء مديرة المؤسسة وأن يحصل منها على إخفائها هو و«جويان» لحضور المشهد. وأجاب «جويان» يقول للبارون: «مفهوم، سوف أهتم بالأمر يا صغيري العزيز». لانستطيع أن نفهم إلى أي حدّ كان هذا القلق يهيج عقل السيّد «دوشار لوس» وبذلك أثراه مؤقتاً. فالحب يسبّب هكذا اندفاعات جيولوجيّة حقيقية في الفكر. وفي فكر السيّد «دوشار لوس» ، الذي كان يشبه لأيام خلت سهلاً متساوي الصفحة إلى حدّ أنه ما كان استطاع أن يبصر في المجال الأبعد فكرة على وجه الأرض، انتصبت فجأة كتل من الجبال قاسية كالحجر، ولكنها جبال نحتت كما لو أن مثلاً نقش الرخام في مكانه بدلاً من أن يحمله معه فتتلوى فيه بمجموعات عملاقة جبارة الحقن والغيرة والفضول والحسد والحقد والألم والكبرياء والهلع والحب.

وفي هذه الأثناء حلّ المساء الذي ينبغي أن يتغيّب فيه «موريل». لقد نجحت مهمّة «جويان». كان على البارون وعليه الجيء في حوالي الحادية عشرة مساءً وسوف يخبثونهما. كان السيّد «دوشار لوس» يمشي على أطراف قدميه قبل ثلاثة شوارع من بلوغه بيت البغاء الرائع ذاك (الذي كانوا يقدون إليه من جميع الضواحي الأنثيّة) ويكتم صوته ويتوسّل إلى «جويان» أن يتكلّم بصوت أخفض مخافة أن يسمعهما «موريل» من الداخل. ولكن ما إن دخل السيّد «دوشار لوس» يسترق الخطو إلى البهو، وقليلًا ماتعود هذا الصنف من الأماكن، حتّى ألقى نفسه، يلقه الخوف والذهول، في مكان أكثر ضجيجاً من البورصة أو فندق المبيعات. فعيناً كان يوصي خادما حلوات تجمعن من حوله بخفض أصواتهنّ. وكان يغطّي أصواتهنّ على آية حال ضجيج الدلالة والمناقصات الصادر عن «ناتبة رئيسة» عجوز ذات شعر مستعار فاحم السواد ووجه يتشقق وقار الكاتب العدل أو الكاهن الاسباني فيه، وكانت تصرخ في كل دقيقة كهزيم الرعد إذ تأذن بالتناوب بفتح الأبواب وإعادة إغلاقها، مثلما يجري تنظيم سير العربات: «ضع السيّد في الرقم ٢٨ في الغرفة الاسبانية». «لادخول بعد الآن» «أعد فتح الباب، فهذان السيّدان يطلبان الآنسة «نعومي» ، وهي تنتظرهما في الصالة الفارسيّة. «كان السيّد «دوشار لوس» فزعاً مثل ريفيّ يقع عليه أن يجتاز الجاذات الكبرى. وكما نأخذ تشبيهاً أقلّ انتهاكاً للقدسيّات بما لا يقاس من الموضوع المصوّر في تيجان بوابة الكنيسة القديمة في «كوليفيل» ، كانت أصوات الخادما الشابّات تردّد طبقة أخفض ودونما كلل أمر ناتبة الرئيّة كتلك التعاليم الدينيّة التي نسمع الثلاثيّد يرتلونّها في جوّ كنيسة ريفيّة رخيّم. والسيّد «دوشار لوس» الذي كان يرتعد في الشارع أن يسمعه أحدهم وهو موثق أنّ «موريل» كان يقف إلى النافذة، ربّما لم ينتبه، مهما أصابه من خوف، الفزع نفسه في زمجرة هذه اللالام الفسيحة التي يدرك فيها المرء أنّ ليس ما يمكن أن يشاهد من الغرف. وأخيراً وجد في ختام محتته الآتسة «نعومي» التي كان ينبغي أن تحبّه مع «جويان» ، ولكنها بدأت فحبسته في صالة فارسيّة فخمة جداً ما كان

يبصر منها شيئاً. وقالت له إن «موريل» سبق أن طلب تناول عصير يرتقال وأنهم سيصطحبون المسافرين ما إن تقدّم له، إلى صالة شفافة. وبانتظار ذلك، ولما كانوا يرسلون في طلبها، وعدتهما، كما في الحكايات، أن ترسل لهما بغية تمضية الوقت «سيّدة حلوة ذكيّة» فإنّها هي كانوا ينادون عليها. والسيّدة الحلوة الصغيرة كانت ترتدي معزراً فارسياً نهم أن تخلعه. فطلب إليها السيّد «دوشار لوس» أن لا تفعل، فأوصت أن يأتيها بالشمابانيا إلى فوق وكانت تكلف أربعين فرنكاً للزجاجة الواحدة. أمّا «موريل» فقد كان بالحققيقة في تلك الأثناء بصحبة الأمير «دو غير مانت». وتظاهر شكلاً بأنّه ضلّ الطريق إلى غرفته ودخل إلى غرفة كان فيها امرأتان سارعتا إلى ترك السيدين وحدهما. كان السيّد «دوشار لوس» يجهل كلّ ذلك، ولكنّه يزيد غضباً ويريد فتح الأبواب، وأرسل ثانية في طلب «نعومي» التي لما تناهى إلى مسامعها أن السيّدة الحلوة الذكيّة تزود السيّد «دوشار لوس» بتفاصيل حول «موريل» غير مطابقة لتلك التي أقدمت هي على تزويد «جويان» بها أمرت بطردها وأرسلت بعد قليل للحلول محلّ السيّدة الحلوة الذكيّة «سيّدة حلوة لطيفة» لم ترهما أكثر من تلك ولكنّها قالت لهما كم الدار جديّة وطلبت شمبانيا بدورها. وطلب البارون وهو يرغي ويزيد عودة «نعومي» التي قالت لهما: «أجل، الأمر طويل بعض الشيء فهاتيك السيّدات يتصنّعن الوقفات وليس يبو أنّه راغب أن يفعل شيئاً. وأخيراً، وإزاء وعود البارون وتهديداته مضت الأنسة «نعومي» ضيقّة النفس وهي تؤكّد لهما أنّهما لن ينتظرا أكثر من خمس دقائق. والدقائق الخمس تلك دامت ساعة اصطحبت بعدها «نعومي» دونما ضجّة السيّد «دوشار لوس» الذي كان يتميز غيظاً و«جويان» الشديد الأسف باتجاه باب مشقوق وهي تقول: «سوف تبصران تماماً. وليست الأمور مثيرة على أيّ حال في هذه الفترة، فهو برفقة ثلاث سيّدات ويحكي لهنّ عن الحياة في الكتّبة». وأخيراً استطاع البارون أن يشاهد من فتحة الباب وكذلك في المرايا، ولكنّها اضطرتّ رعب قاتل أن يستند إلى الجدار. إنّهُ بالتمام «موريل» من يشاهده أمامه بيد أنّه كان بالأحرى، وكأنّما الأسرار الوثنيّة وصنوف السحر لاتزال موجودة، ظلّ «موريل»، «موريل» محنّطاً، لم يكن حتّى «موريل» الذي أقيم من بين الأموات كلعازر، بل تراءى له «موريل»، شبح له «موريل»، «موريل» عائداً أو مذكّراً في هذه الغرفة (حيث الجدران والدواوين تردّد في كل مكان رموز السحر) وكان يقف جانبياً على أمتار منه، كان «موريل» قد فقد كلّ لون كما هي الحال بعد الموت، وظلّ ساكناً بين تلك النساء اللائي بدا وكأنّما كان انبغى أن يسرح ويمرح بينهنّ، مكفّه اللون في جمود مصطنع. وكما يشرب كوب الشمبانيا الذي أمامه كانت ذراعه الواهنة تحاول أن تمتدّ ببطء وتعود فتعوي. كان يوافيك انطباع بهذا الالتباس الذي يفضي إلى أن يتكلّم دين ما عن الخلود ولكنّه يعني به شيئاً لا يستبعد العدم. كانت النساء يضيّقن عليه بالأسئلة: «تري، إنهنّ يكلمنه عن حياته في الكتّبة، تقول الأنسة «نعومي» للبارون بصوت خفيض، أليس أنّ هذا مسلّم؟ - وتضحك - هل أنت مسرور؟ إنّهُ هادئ، أفليس كذلك؟» تضيف قولها كما لعلّها قالت عن مشرف على الموت. كانت أسئلة النساء تلحّ على «موريل» ولكنّه لاتتوافر له القوّة على الإجابة وهو لاحرك به. حتّى معجزة كلمة واحدة مهموسة لم تحدث ولم يتردّد السيّد «دوشار لوس» سوى لحظة وأدرك الحقيقة وأنهم، إمّا لقلة براعة لدى «جويان» حينما مضى للاتفاق معهم، وإمّا لقوّة الانتشار في مايستودع من أسرار والتي تفضي إلى أن لاتحفظ في يوم، وإمّا لطبع في تلك النساء غير حافظ للسرّ، وإمّا للخوف من الشرطة، كانوا قد أخطروا «موريل» أن رجلين دفعا



نمنا كبيرا لرؤيته وأخرجوا الأمير «دو غير مانت» بعدما انقلب ثلاث نساء ووضعوا «موريل المسكين» مرتجفاً تشله الدهشة بحيث أنه، إن كان السيد «دوشار لوس» لا يراه بوضوح، فقد كان هو، وقد أخذ منه الهلع وانعقد لسانه وهو لا يجرؤ على الامساك بكأسه مخافة أن يسقطه أرضاً، يبصر البارون كلياً.

ولم تكن الحكاية على كل حال أفضل خاتمة بالنسبة إلى الأمير «دو غير مانت». فحينما أخرجه كي لا يشاهده السيد «دوشار لوس» تملكه الحنق لخبية أمله دون أن يشتبه بمن كان صانعها فتوسل إلى «موريل»، وهو على الدوام عازم أن لا يعرفه من تراه كان، أن يضرب له موعداً في الليلة التالية في الدارة الصغيرة جداً التي سبق أن استأجرها والتي بادر، على الرغم من الوقت اليسير الذي سيمضيه فيها وطبقاً للعادة المجنونة التي لاحظناها فيما مضى لدى السيدة «دو فيليا ريزيس»، إلى تزيينها بطائفة من التذكارات الأسرية كي يشعر شعوراً إضافياً بأنه في بيته. وفي الغد إذن انتهى الأمر بـ «موريل»، وهو يدير الرأس في كل دقيقة ويرجف أن يكون لحقه وترصده السيد «دوشار لوس»، وإذا لم يلحظ أحداً من المارة يشتبه به، بالدخول إلى الدارة. وأدخله خادم إلى الصالة وهو يقول له إنه سيأدر إلى إخطار السيد (فقد كان أوصاه مولاه أن لا يتلفظ بلفظة أمير مخافة إثارة الشكوك). ولكن حينما بقي «موريل» بمفرده، وشاء أن يرى في المرأة أن كانت خصلة شعره لم تفقد ترتيبها، أصيب بما يشبه الهلوسة. فقد جمذته بادئ الأمر هلعاً الصور الشمسية الكائنة فوق الموقد، وهي سهلة التعرف لدى عازف الكمان إذ سبق أن رآها في منزل السيد «دوشار لوس» والعائدة إلى الأميرة «دو غير مانت» والدوقة «دو لوكسمبور» والسيدة «دو فيليا ريزيس». ولح في الآن نفسه صورة السيد «دو شار لوس» التي كانت إلى الخلف قليلاً. ويذا البارون كأنه يسحر على «موريل» نظرة غريبة. فجئ «موريل» من الرعب، وإذا أفاق من ذهوله الأول ولم يشك أن ذلك فتح أوقعه فيه السيد «دوشار لوس» ليمنحه في إخلاصه له كبر يضع درجات الدارة أربعاً فأربعاً وطفق يعدو وقد أطلق ساقيه للريح فوق الطريق، وحينما دخل الأمير «دو غير مانت» إلى صالته (بعدما ظن أنه أخضع أحد معارفه من عابري السبيل للتدريب المطلوب، ولم يفعل دون أن يكون تسأل إن كان ذلك من حسن التبصر وإن لم يكن الشخص خطيراً) لم يلقَ فيها أحداً. وعثاً استكشف وخادمه، وهو شاهر مسدسه مخافة عملية سطو، كامل المنزل، ولم يكن كبيراً ونجياً الزوايا في الحديقة الصغيرة والقبو فقد اختفى الرفيق الذي ظن حضوره مؤكداً. وقد صادفه عدّة مرّات في بحر الأسبوع التالي، وفي كل مرّة كان «موريل» ذاك الشخص الخطير، هو الذي ينجو بنفسه وكأنما كان الأمير أشدّ خطراً منه. ولبث «موريل» متشبهاً بشكوكه فلم يبددها البتّة وكانت رؤية الأمير «دو غير مانت» حتى في باريس كافية لحمله على الفرار، وذلك ماحمى السيد «دوشار لوس» من خيانة كانت تبعث اليأس في نفسه وثار له دون أن يتخيّل ذاك في يوم ودون أن يتصور على وجه الخصوص كيفية ذلك.

ولكنما حلّ من ذلك محلّ الذكريات التي رويت لي حول هذا الموضوع أخرى غيرها لأن «قطار جنوب النورماندي»، وقد عاود مسيرته المخلعة، لا يزال يجلب أو يأخذ المسافرين إلى المحطات التالية.

فقد كان السيد «بيير دوغير جوس»، وهو الكونت «دو كريسي»، يستقله أحياناً في «غراتفاست» حيث تسكن شقيقته التي جاء يقضي العصر معها (وكانوا يدعونه الكونت «دو كريسي» فحسب)، وهو نبيل فقير

ولكنّه ذو أنافة فائقة، وكنت عرفته عن طريق آل «كامبرمير» ولم يكن على أي حال وثيق الصلة بهم. وإذا أوصلته الأيام إلى حال من ضنك العيش، بل مايقارب البؤس، فقد كنت أحسّ أن سيجاراً وأن «مشروباً» هما من الأشياء التي تبهجه كثيراً إلى حدّ أنني تعودت دعوته إلى «بالبيك» في الأيام التي لايتسنّى لي فيها لقاء «ألبيرتين». كان مرهفاً جداً، طليق العبارة إلى أبعد حدّ، كلّ يياض إلى عشرين زرقاوين ساحرتين وكان يتحدث على وجه الخصوص، من أطراف شفّتيه وبنعومة فائقة، عن صنوف رفاه حياة الأسياد التي سبق أن عرفها بالتأكيّد وكذلك عن الأنساب. وإذا سألته عمّا كان منقوشاً على خاتمه قال لي بابتسامة متواضعة: «إنّه غصن لحصرمه الكرمة». وأضاف يقول بمتعة الذؤاقة: «شعارنا غصن لحصرم الكرمة- شيء رمزيّ بما أتني أدعى «فيرجوس» (١) - بسويقات وأوراق خضر». ولكنّي أظنّ أنّه كان خاب أمّله خيبة شديدة لو لم أقدم له في «بالبيك» سوى عصير الحصرم شرباً فقد كان يحبّ أكثر الخمر ثمناً من جرّاء الحرمان دونما شك، وعن معرفة عميقة لما كان محروماً منه، وعن ذوق، وربّما كذلك عن ميل مفرط. وكان لذلك، حينما أدعوه إلى الطعام ويشرب على وجه الخصوص، إذ يأمر بتدفئة الخمر التي تتطلّب ذلك وتريد تلك التي تقتضي أن تكون في الثلج. كما كان قبل العشاء ويعدّه يحدّد التاريخ أو الرقم الذي يريد بالنسبة إلى مشروب «الهورتو» أو ماء الحياة الفاخر كما لعلّه كان فعل فيما يخصّ تشييد مقرّ إحدى المركيزيّات، وهو مجهول بعامة ولكنّه كان يعرفه كذلك تمام المعرفة.

ولما كنت في نظر «إيميه» زبوناً مفضّلاً فقد كان يغبطه أن أقيم مثل هذه المآدب ويصبح بالنّدل: «بسرعة جهّزوا الطاولة ٢٥»، ولم يكن يقول «جهّزوا» بل «جهّزوا لي» كما لو كان ذلك من أجله. وإذا ليست لغة رؤساء النّدل بالتمام لغة رؤساء القشّات ونوابهم والمستخدمين، النّخ، فقد كان يقول حينما كنت أطلب المجموع، يقول للنّادل الذي قام على خدمتنا بحركة مكرورة مطمئنّة من قفا يده كما لو يؤدّ تهذّبة حصان على وشك أن يجمح: «لاتبالغ (في المجموع)، على رسلك، وخفّف ماوسعك التخفيف». وإذا كان النّادل يمضي وقد تزود بتلك المذكرة وخشي «إيميه» أن لا تتبع تعليماته بالتمام فقد كان يستدعيه ثانية: «انتظر، سأقيد بنفسي». ولما كنت أقول له أنّ ليس يهّم ذلك: «إنّما المبدأ عندي، كما تقول العامّة، أن لا نضحك على ذقن الزبون». أمّا المدير فقد كان يكتفي، إذ يرى الأنواب البسيطة، وهي واحدة لا تتغيّر، والرّثة إلى حدّ ما التي يرتديها مدعوي (ولعلّه ما كان أحد أجداد مثله ممارسة فنّ اللباس على نحو باذخ، وكمثل مثاقّق لدى «بلزاك»، لو توافرت له الوسائل)، كان يكتفى من أجليّ أنا أن يتحرّى عن بعد إن كان كلّ شيء على مايرام وله نظرة من يأمر بوضع دعمة تحت قائمة طاولة غير متوازنة. وليس يعني ذلك أنّه ما كان ليعلم كيف يباشر أموره بنفسه كغيره، على الرغم من إخفاؤه بداياته غطّاساً. كان لا بدّ مع ذلك من مناسبة استثنائية كي يقطع ذات يوم بيده الأدياك الروميّة. وكنت قد خرجت ولكنّي علمت أنّه فعل ذلك بجلال كهنوتي يحيط به، على مسافة من خزّانة المائدة يفرضها الاحترام، طوق من النّدل يحاولون بذلك إبراز انفسهم أكثر منهم أن يتعلّموا ويظهرون بمظهر المُعجّب الراضى. أمّا أن يكون رآهم المدير (وهو يغوص بحركة بطيئة في أحشاء الضحايا ولايحول عنها

(١) فيرجوس تعني الحصرم.

عينيه المشبعتين بوظيفته السامية أكثر مما لو انبغى له أن يقرأ فيها نبوة ما) فلم يكن شيء من ذلك البتة. ولم يتبته مقدّم الذبائح حتى لغياي، وحين علم به اغتم لذلك. «عجبا، ألم ترني أقطع بنفسي الفراخ الرومية؟ فأجبتني أنني، إذ لم يتيسر لي حتى الآن زيارة «رومه» والبندقية «وسيننا» و«البرادو» ومتحف «دريسدن» وبلاد الهند و«ساره» في مسرحية «فيدر»، كنت على إلمام بالتسليم بالأمور وأني سأضيف إلى لائحتي تقطيعه للأدياك الرومية. وكانت المقارنة بالفن المسرحي («ساره» في مسرحية «فيندر») الأمر الوحيد الذي بدا أنه يفهمه لأنه كان يعلم نقلاً عني أن «كوكلان» الابن الأكبر سبق أن قبل في أيام العروض الكبرى أدوار مبتدئين، وحتى دور شخصيته لا تنطق بغير كلمة واحدة بل لا تقول شيئاً. «سيان عندي، وإنني أشعر بالأسى فيما يخصك. متى أقوم بعملية تقطيع جديدة؟ لا بد من حدث تاريخي، لا بد من حرب». (وانبغى لذلك بالفعل هدنة). ومنذ ذلك اليوم تغير التقويم وأخذوا يحسبون هكذا: «كان ذلك في غد اليوم الذي قطعت فيه بنفسي الأدياك الرومية». كان ذلك بالضبط بعد ثمانية أيام أعقبت تقطيع المدير بنفسه للأدياك الرومية. وهكذا كانت عملية التقطيع تلك، مثلها مثل مولد المسيح والهجرة، نقطة انطلاق لتقويم مختلف عن سواء ولكنما لم يبلغ ما بلغا من اتساع ولاساواهما مدة.

كان مردّ الكتابة التي تغمر حياة السيّد «دو كريسي» أن لم يبقَ لديه جياذ ومائدة شهية وأن لا يجازر في الآن نفسه سوى قوم يمكن أن يعتقدوا أن «كامبرمير» و«غير مانت» أنما هم شيء واحد. وحينما تبين أنني أعلم أن «لوغراندان» الذي كان يسمي نفسه الآن «لوگران دو ميزيكليز» لم يكن له أي حق في ذلك أحس، وقد احتاج من جانب آخر من الخمرة التي كان يشربها، بنوع من فورة الفرح. وكانت شقيقته تقول لي بهيئة المتخايب: «لايسعد شقيقي إلى هذا الحد في يوم إلا حينما يستطيع التحدث إليك». فقد أخذ يحسّ بالفعل أنه موجود منذ اكتشف واحدا يعرف ضحالة آل «كامبرمير» وعظمة آل «غير مانت»، واحداً يرى أن العالم الاجتماعي موجود. مثله مثل عالم في اللاتينية عجوز يعود، بعد حريق مكتبات الكرة الأرضية قاطبة وصعود عرق بشري جهله مطبق، فضع قدماً في الحياة يقرنها بالثقة يوم يسمع من يستشهد أمامه ببيت من شعر «هوراسيوس». ولئن لم يكن يغادر العربة البتة دون أن يقول لي: «إلى متى اجتماعنا المحبّب؟ فلنهمّ المتبحر في العلم بقدر ما لجشع الطفيلي ولأنه كان يعدّ مادب «بالبيك» فرصة للتحدث في الوقت ذاته عن الموضوعات العزيزة على قلبه والتي لا يستطيع التكلم فيها مع أحد، وهي تشبه في ذلك حفلات العشاء التي تجتمع فيها في أوقات محدّدة، إلى مائدة نادي الاتحاد الشهية، جمعية «هواة الكتب». ولما كان فائق التواضع فيما يتعلق بأسرته ذاتها فأنني لم أعلم من جانب السيّد «دو كريسي» أنها كانت كبيرة جداً وفرعاً حقيقياً بقي في فرنسه من أسرة أنكليزية تحمل لقب دو كريسي. وحين علمت أنه «كريسي» أصيل رويت له أن ابنة أحد أشقاء السيّد «دو غير مانت» كانت تزوّجت اميركياً باسم «شارل كريسي» وقلت له إنني أظن أن لاصلة له البتة به. فقال: «لاصلة البتة، كما أنه لاصلة لكثير من الاميركيين الذين يدعون «مونتنغري» أو «بيري» أو «شاندوس» أو «كايل» أو «بامبروك» أو «بكنغهام» أو «إيكس» أو بالدوق «دو بيري». وخطر لي مرّات عدّة أن أقول له على سبيل التسلية إنني كنت أعرف السيّد «سوان» التي كانت تعرف كغانية فيما مضى باسم «أوديت دو كريسي». ولكنما لم يخالجنني شعور، مع أن دوق «دالنصون» ما كان ليتكدر بمن يحدثه عن

«اميلين دالنسون» (١)، بأني ارتبط بصداقة كافية بالسيد «دو كريسي» كي أبلغ بممارحته ذلك الحد. وقال لي السيد «دومونسورفان» ذات يوم: «إنه من إبرة كبيرة جداً، واسم عائلته «سيلور». وأضاف أن شعار الأسرة القديم لا يزال ظاهراً للعيان على قصره القديم الكائن فوق «انكرفيل» وقد أضحى على أي حال غير قابل للسكنى تقريباً وإنه، على الرغم من مولده الفائق الثراء، أكثر فقراً اليوم من أن يرممه. وألفت الشعار جميلاً جداً سواء طبّقته على غليان جنس من الجوارح عشش في ذاك الوكر الذي كان يقلع منه بالأمس، أو اليوم على تأمل غروب الحياة وانتظار الموت القريب في هذه الخلوة المشرفة الموحشة. فبازدواجية المعنى هذه كان يتلاعب باسم «سيلور» ذاك الشعار القائل: «Ne sçais l'heure» (٢) لا أعرف الساعة).

كان يستقلّ القطار في «هيرمونفيل» أحياناً السيد «دو شيفرنبي» الذي يعني اسمه كاسم السيد «دو كابريير»، يقول «بريشو»، المكان الذي تجتمع فيه الماعز». وكان قريباً لآل «كامبرير» فكانوا لذلك السبب وتقدير خاطئ للأناقة يدعونه في الغالب إلى «فيتيرن» ولكن حين لا يتيسر لهم مدعوون يغنون إبهارهم فحسب. ولما كان السيد «دوشيفرنبي» يمضي السنة بطولها في «بوسولي» فقد ظلّ يطبعه الطابع الرفي «أكثر منهم. ولم يكن لذلك، حين كان يمضي لقضاء بضعة أسابيع في باريس، يوم واحد ضائع بالنسبة إلى كل ما كان «ينبغي إن يراه»، إلى حد أنه كان يتفق له أحياناً، حينما يسألونه إن كان شاهد إحدى المسرحيات، أن لا يكون متأكداً تماماً وقد دوّخه قليلاً عدد العروض التي ازدردها بسرعة مفرطة. ولكن ذاك الغموض كان نادراً، فقد كان يعرف أشياء باريس بذلك التفصيل الذي يميّز الناس الذين قليلاً ما يتون إليها. وكان ينصحي «بالجديد» الذي لا بد من مشاهدته («ذلك جدير بالمشاهدة»)، ولا ينظر إليه على أية حال إلا من وجهة نظر الأسمية الطيبة التي يسمح بقضائها، وهو يجهل وجهة النظر الجمالية حتى لا يشك بأنه يمكن أن يشكل أحياناً «جديداً» في تاريخ الفن. من ذلك أنه كان يتحدث عن كل شيء على المستوى نفسه فيقول لنا: «ذهبنا مرة إلى «الأوبرا الهائلة» ولكن العرض ليس عظيماً أنه يدعى «بيلياس وميليزاند» وهو غير ذي بال. إن «بيريه» يجيد دوماً في تمثيله ولكننا الأفضّل أن تشاهده في عرض آخر. وفي المقابل يجري في صالة الجعجاء عرض «صاحبة القصر». لقد عدنا مرتين لمشاهدته؛ لايفوتك الذهاب إلى هناك فهو جدير بالمشاهدة، ثم إنّه مثل أروع تمثيل، فلديك «فريغال» و«ماري مانييه» و«بارون الابن»، وكان حتى يذكر لي أسماء ممثلين لم أسمع قط من ينطق اسمهم ودون أن يقرنهم بلقب سيد أو سيّدة أو أنسة كما لعلّ الدوق «دو غير مانت» كان فعل، وكان يتحدث بذات اللهجة المتكلفة التي يلونها الأزدراء عن «أغنيات الأنسة «إيثيت غيلبير» و«تجارب السيد «شاركو». وما إن السيد «دو شيفرنبي» يسلك السلوك نفسه، فكان يقول «كورناليا» و«دوهيلي» كما لعله قال «فولتير» و«مونتسكيو» ذلك لأن الرغبة لديه، إزاء الممثلين وكل ما كان باريسياً على حد سواء، في الظهور مظهر المزدري الذي يلزم الاستقرائي إنما هزمتها الرغبة في الظهور مظهر الألو الذي يلزم الرفي.

عقب العشاء الأول مباشرة والذي تناولته في «لاراسيلير» برفقة من كانا بعد يدعيان في «فيتيرن» بـ

(١) من غانيات باريس الشهيرات في أواخر التاسع عشر وبدايات العشرين.

(٢) يذكر الشعار بمن يسهرون الليل والنهار لصون الديار وبما جاء في الكتب المقدسة حول الموت الذي لا يعرف أحد يومه ولا ساعته.

«الزوجين الشابين»، مع أن السيد والسيدة «كامبرمير» ليسا من بعد في أول الشباب، وما أبعد أن يكونا، سطرّ لي المركيزة العجوز واحدة من تلك الرسائل التي لعلك كنت تعرّفت كتابتها بين ألف من أمثالها. كانت تقول لي: «إئت بابنة عمك الرائعة - الفاتنة - الممتعة، وسوف يكون ذلك فتنة وممتعة، مفوّتة على الدوام على نحو لا يخيب بتاتاً التدرّج المنتظر من جانب ذاك الذي كان يتسلّم رسالتها إلى حدّ أنّي غيّرت في نهاية المطاف رأيي حول طبيعة تلك «المتناقضات» واعتقدتها مقصودة ووجدت فيها انفساد الذوق نفسه - منقولاً إلى المقام الدنيوي - الذي كان يدفع «سانت بوف» إلى تحطيم التكاليف الكلامية كافة وتبديل أية عبارة مألوقة إلى حدّ. كان ثمة طريقتان جاءتا دونما شك على يد أساتذة مختلفين تتناقضان في أسلوب الرسائل هذا، إذ تغتفر الثانية للسيدة «دو كامبرمير» تفاهة الصفات المتعدّدة في استخدامها في سلّم متنازل وفي تجنّب الوصول إلى التساوق التام. وكنت أميل في المقابل إلى أن أبصر في هذه التدرّجات المعكوسة لا الرفاهة كما هو أمرها حين تولّفها المركيزة الورثية، بل انعدام المهارة حين يستخدمها المركز ابنها أو بنات عمّها. ذلك لأنّ قاعدة الصفات الثلاث في الأسرة قاطبة وحتى درجة بعيدة بعض الشيء كانت، جرّاء محاكاة قائمة على الإعجاب بالعمة «زيليا»، كانت توضع في المقام الأول إلى جانب طريقة معينة حماسية في استعادة أنفاسه أثناء الحديث. والمحاكاة أصبحت في دمهم على أية حال. وحينما كانت بنّة منذ الطفولة تتوقّف في حديثها لتبلع ريقها كانوا يقولون: «إنّها تشبه العمة «زيليا»، ويحسّون أن شغيتها سرعان ماستجّهان إلى الاكتساء بشارب خفيف، ويعقدون النية على تنمية ما سيتوافر لها من استعدادات للموسيقى. ومالبثت علاقات عائلة «كامبرمير» أن أضحت أقلّ جودة مع السيدة «فيردوران» منها معي لأسباب مختلفة. فقد كانا يغيان دعوتها، وتقول لي المركيزة «الشابة» بلهجة مستكبرة: «لست أرى لماذا لاندعوها، تلك المرأة، فإننا في الريف نلتقي أياً كان، ولا يفضي ذلك إلى نتيجة». ولكنهما كانا لا يكفّان، وهما على شيء من الانفعال في الأساس، عن استشارتي حول الطريقة التي ينبغي بها تحقيق رغبتهما في لفظة المجاملة تلك. ولما كانا دعيانا إلى العشاء أنا و«أليزيتين» برفقة أصدقاء لـ «سان لو» وهم قوم أنيقون يملكون قصر «غورفيل» ويمثلون أكثر قليلاً من الزبدة النورماندية، التي كانت السيدة «فيردوران» شغوفة بها دون أن تبدي أنّها تمدّ إليها يداً، فقد أشرت على عائلة «كامبرمير» بدعوة «المعلمة» إلى جانبهم. ولكن صاحبي قصر «فيتيرن» خوفاً منهما (لشدّة خجلهما) أن يغضبا اصدقاءهما النبلاء، أو (لشدّة سداجهما) أن يتضجّر السيد والسيدة «فيردوران» بصحبة أناس لم يكونوا مثقفين، أو كذلك (بما أنّهما كان تشرباً روح الروتين الذي لم تخصبه التجربة) أن يخلطاً بين الأنواع ويرتكبا خطأ فاحشاً، صرحاً أن لن يكون توافق بينهم ولن «تمشي» الأمور وأنه يفضلّ الاحتفاظ بالسيدة «فيردوران» (التي سيدعوانها وكامل مجموعتها الصغيرة) لعشاء آخر. أمّا بالنسبة إلى القادم - الأنيق، ويضمّ أصدقاء «سان لو» - فلم يدعوا إليه من النواة الصغيرة سوى «موريل» كي يطلع السيد «دوشار لوس» على نحو غير مباشر بالناس المرموقين الذين يستقبلانهم، وكما يكون الموسيقي إلى ذلك عنصر تسليّة للمدعوين إذ سوف يسألونه العجاء بكمانه. وضمّموا إليه «كوتار» إذ صرّح السيد «دو كامبرمير» أنّه يمتاز بالحيوية و«يحسن» في حفل عشاء. ثمّ إنّه من المناسب أن تكون على علاقة طيبة بطبيب إن اتّفق أن يكون أحدهم مريضاً. ولكنّه دعي بمفرده «كي لا يباشروا شيئاً مع المرأة». وحنقت السيدة «فيردوران» أشدّ الحنق حينما علمت أن عضوين من

المجموعة الصغيرة دُعيا من دونها إلى العشاء في «فيتيرن» «ضمن لجنة صغيرة». وأملت على الدكتور الذي جاءت حركته الأولى تحمل القبول جواباً بنضح اعتزازاً ويقول فيه: «إننا نتناول عشاءنا هذا المساء في منزل السيِّدة «فيردوران»، وصيغة الجمع ينبغي أن تكون درساً لأسرة «كامبرير» وتبرهن لهم أنه لا يمكن فصله عن السيِّدة «كوتار». أما بشأن «موريل»، فلم تكن السيِّدة «فيردوران» بحاجة لأن ترسم له سلوكاً غير مهذب التزم به تلقائياً، وإليك السبب. فلن كان يدي إزاء السيِّدة «دوشار لوس» وفيما يخص متعه الخاصة استقلاليتها تغم البارون، فقد رأينا أن تأثير هذا الأخير كان أكثر بروزاً في حقول أخرى وأنه وسع على سبيل المثال معلوماته الموسيقية وجعل أسلوب الموسيقى أكثر صفاء. ولكنه لم يكن بعد، في هذه الفترة من قصتنا على الأقل، سوى تأثير. وفي المقابل كان ثمة حقل يصدق وينفذ «موريل» دونما تبصر كل ما كان يقوله السيِّدة «دوشار لوس» حوله. دونما تبصر ويجنون، ذلك لأن تعاليم السيِّدة «دوشار لوس» لم تكن مغلوطة فحسب، بل هي تضحى، وإن كانت مقبولة بالنسبة إلى سيد كبير، مضحكة إما طبقت حرفياً من جانب «موريل». أما الحقل الذي كان «موريل» يضحى فيه ساذجاً ومطيعاً إلى هذا الحد لسيِّده فحقل المجتمع الراقي. وكان عازف الكمان، الذي ما كان يملك قبل تعرفه إلى السيِّدة «دوشار لوس» آية فكرة عن دنيا المجتمع الراقي، قد أخذ حرفياً بالخطيئة المستكبرة المختصرة التي خطتها له البارون. كان السيِّدة «دوشار لوس» قد قال له: «ثمة عدد من الأسر المتقدمة على سواها، وعلى رأسها آل «غير مانت» الذين بلغوا أربع عشرة مضاهرة مع «بيت فرنسه»، والأمر موضع زهو لـ «بيت فرنسه» على وجه الخصوص لأن عرش فرنسه كان ينبغي أن يعود إلى «ألدونس دو غير مانت» لا إلى «لويس السمين» شقيقه لأبيه ولكنه الأصغر سنّاً. وفي عهد لويس الرابع عشر لبسنا السواد عند موت «السيِّدة» (١) بما أننا نملك ذات جدّة الملك. ويمكن أن نذكر، وإنما على درجة أدنى كثيراً من آل «غير مانت»، آل «لاتريمواي» المتحدرين من ملوك نابولي وكونتات «بواتيه»، وآل «دويزيس» وهم قليلو العراقة على صعيد الأسرة ولكنهم أكثر أُنْداد فرنسه عراقة، وآل «لوين» وهم حديثون جداً ولكنهم يزدهون بألق المصاهرات العظيمة وآل «شوازلو» وآل «هاركور» وآل «لاروشفوكو» أضف أيضاً آل «نواي» على الرغم من الكونت «دو تولوز»، وآل «مونتسكيو» وآل «كاستيلان» وهذا كل شيء، إن لم يكن فائتي شيء. فأما سائر السادة الصغار الذين يدعون المركز «دو كامبرير» أو «دوفاتيرفيش» فلا فارق البتة بينهم وبين أصغر جندي في كتيبتك. وسيان إن بادرت للتبؤل لدى الكونتيسة خ... أو التغوط لدى البارونة ش.. فسوف تكون لوئت سمعتك واتخذت ممسحة تغوط بمشابة ورق صحي. وذلك شيء قذر. وقد تلقى «موريل» درس التاريخ هذا، وربما كان على شيء من الاقتضاب، بكل التقى. وكان يحكم على الأشياء كما لو كان هو نفسه واحداً من بني «غير مانت» ويتمنى مناسبة يجتمع فيها بال «لاتور دوفيريني» المزيّنين كي يشعرهم بمصافحة ملؤها الازدراء أنه لا يأخذهم على محمل الجد. أما بالنسبة إلى آل «كامبرير»، فما إنّه يستطيع بالضبط أن يعبر لهم أنهم لا يساوون «أكثر من آخر جندي في كتيبته» فإنّه لم يستجب لدعوتهم واعتذر في مساء حفل العشاء بريقة أرسلت في آخر ساعة، وهو جذلان كما لو تصرف تصرف أمير من الأسرة المالكة. وينبغي أن نضيف على آية حال أنه لا يمكن أن نتصور كم كان السيِّدة «دوشار لوس»، بصورة عامّة أكثر، لا يطاق، مدنقاً بل غيباً، هو المرهف

(١) لقب الشيخ لويس الرابع عشر أعظم ملوك فرنسه في النصف الثاني من السابع عشر وبداية الثامن عشر.

الحسّ إلى أبعد حدّ، في كلّ المناسبات التي تكون فيها عيوب طبعه طرفاً، إذ يمكن القول بالفعل إن هذه العيوب تشبه مرضاً متقطعاً ينتاب العقل. فمن ذا لم يلاحظ الأمر لدى نساء وحتى رجال أوتوا ذكاء ملفتاً ولكنهم يعانون من حالة عصبية؟ فإنهم يوم يكونون سعداء هادئين راضين بمحيطهم يسيرون الاعجاب بمواهبهم الثمينة، وإثما الحقيقة هي التي تنطق حرفياً بأفواههم. ويكفي صداد واستثارة يسيرة لكبريائهم لقلب كلّ شيء. فالعقل النير لا يعكس من بعد، وقد أضحي نزقاً متشنجاً متضيقاً، سوى أنا مغضبة مترية مغناجة تفعل كلّ ما ينبغي فعله لتسوء في العين. وكان غضب آل «كامبر مير» عنيفاً. وجلبت حوادث أخرى في هذه الأثناء شيئاً من التوتر في علاقاتهم بالعشيرة الصغيرة. وفيما كنّا نعود أنا وأسرة «كوتار» و«شارلوس»، و«بريشو» و«موريل» من عشاء في «لاراسيلير»، وكان الزوجان «كامبر مير» اللذان تناولا غداءهما لدى أصدقاء في «أرامبو فيل» قد قطعاً في الذهاب قسماً من الطريق وإثناً، قلت للسيد «دوشار لوس»: «أنت يا من يحب «بلزك» أعظم الحب ويعلم كيف يتعرّفه في المجتمع المعاصر لابدّ أن ترى أن عائلة «كامبر مير» هذه أفلتت من مجموعة «مشاهد من حياة الريف» (١). لكن السيد «دوشار لوس» قاطعني فجأة تماماً كما لو كان صديقاً لها وكما لو أغضبته ملاحظتي وقال لي بلهجة جافية: «تقول ذلك لأنّ المرأة تفوق زوجها» - «أه! ما كان بودّي أن أقول إنّها ربة شعر المقاطعة (٢) ولا السيدة «بارجتون» (٣)، مع أنّ..» وقاطعني السيد «دوشار لوس» مرة أخرى: «قل بالأحرى السيدة «دو مورسوف» (٤). وتوقّف القطار وغادره «بريشو». - «عشاً كنّا نشير إليك بأيدينا، إنّك غريب». - «كيف ذلك؟» - «عجاً، أفلم تلاحظ أنّ «بريشو» عاشق حتى الجنون للسيدة «دو كامبر مير»؟ وهذا لي من موقف الزوجين «كوتار» و«شارلي» أنّ لم يكن داخل النواة الصغيرة أيّ مجال للشكّ في الأمر، واعتقدت أنّ ثمة سوء نية من جانبهم. وعاد السيد «دوشار لوس» يقول: «عجاً، أنت لم تلاحظ درجة اضطرابه حين تكلمت عنها»، وكان يحلوه أنّ يبرز أنّه خبير بالنساء ويتحدّث عن الشعور الذي يوحين به بصورة طبيعية وكما لو كان ذاك الشعور هو الذي يحسّه عادة. بيد أنّ بعض لهجة أبوية مشبوهة مع الفتيان كافة - على الرغم من حبّه الحصري لـ «موريل» - كذبت باللهجة آراء زير النساء التي كان يجهر بها، فقال بصوت حادّ متكلّف في لطفه موزون: «أه! هؤلاء الأطفال، لابدّ أن تعلمهم كلّ شيء، فإنهم بريئون كالطفل الذي ولد توّاً ولا يستطيعون أن يعرفوا متى يكون الرجل عاشقاً لامرأة. لقد كنت في مثل سنّكم «منشطاً» أكثر ممّا تبدو»، يضيف قوله لأنّه كان يحبّ استخدام عبارات دنيا المشردّين، ربّما عن ميل، وربّما كي لا يبدو، وهو يتجنّبها، وكأنّه يقرّ بأنّه يخالط أولئك الذين تؤلّف لغتهم الدارجة. وقد اضطرت بعد بضعة أيّام أن أقرّ بالواقع واعترف أنّ «بريشو» كان مغرماً بالمركية. إلّا أنّه قبل لسوء الحظّ بعدة حفلات غداء في منزلها. وحكمت السيدة «فيردوران» أنّ الوقت حان لوضع حدّ لذلك. فانّتها إلى جانب الفائدة التي تراها في التداخل لصالح سياسة النواة الصغيرة أخذت تصادف ميلاً متزايد الشدّة إلى هذا النوع من المشادّات

(١) مجموعة روائية لـ «بلزك».

(٢) إشارة إلى رواية لـ «بلزك» من مجموعة «مشاهد من حياة الريف» لـ «بلزك».

(٣) واحدة من شخص «الأوهام الضائعة» لـ «بلزك».

(٤) بطل رواية «زنبقة الوادي» من مجموعة «مشاهد من حياة الريف».

والمآسي التي تنجم عنها، والميل تولده البطالة في صفوف البورجوازية ودنيا الارستقراطيين على حد سواء. وكان اليوم يوم اضطراب كبير في «لاراسيلير» حينما شاهدوا السيدة «فيردوران» تنواري عن الأنظار على مدى ساعة مع «بريشو» الذي بلغهم أنها قالت له إن السيدة «دو كامبرمير» كانت تسخر منه وأنه أضحوكة منتداه وسوف يُلطِّخ شرف شيخوخته ويعرِّض للخطر مكانته في التعليم. وبلغ بها أن تكلمه بعبارات مؤثرة عن الغشالة التي كان يعيش وليَّاهَا في باريس وعن ابنتهما الصغيرة. وكان أن فازت وكفَّ «بريشو» عن الذهاب إلى «فيتيرن»، ولكنَّ غمَّه بلغ حدًّا ظنَّوا معه على مدى يومين أنَّه مقبل على ضياع بصره بالكامل، وقد قفز مرضه في جميع الأحوال قفزة إلى الأمام لبثت على حالها بيد أنَّ آل «كامبرمير» الذين كان حقنهم على «موريل» عظيمًا دعوا ذات مرَّة عن قصد السيّد «دوشار لوس»، ولكن بدونه. وإذ لم يصلهم جواب من البارون خافوا أن يكونوا ارتكبوا هفوة وراؤا أنَّ الضغينة تسدي أسوأ النصيح فقد كتبوا إلى «موريل» متأخرين قليلاً، وهي دناءة حملت الابتسامة إلى شفتي السيّد «دوشار لوس» إذ كشفت له عن سلطانه. وقال البارون لـ «موريل»: «تجيب عن كلينا بأنِّي قابل». وإذ حلَّ يوم العشاء كانوا ينتظرون في صالة «فيتيرن» الكبيرة. كانت عائلة «دو كامبرمير» قد أقامت حفل العشاء في الواقع من أجل صفوة الأناقة التي يمثِّلها السيّد والسيدة «فيريه». لكنَّهم كانوا يخشون من تكدير السيّد «دوشار لوس» إلى حدِّ أن السيّد «دو كامبرمير»، على الرغم من معرفتها عائلة «فيريه» عن طريق السيّد «دو شيفرنبي»، أحسَّت بالحمى تغلي في عروقها حينما رأت هذا الأخير يوم العشاء يقبل لزيارتهم في «فيتيرن». وابتدعت كلَّ الحجج لاعادته باقضى سرعة إلى «بوسولبي»، والسرعة لم تكن مع ذلك كافية كي تحوّل دون ثقائه عائلة «فيريه» في الباحة وقد صدمهما أن يبصره مطروداً بقدر ما كان خجلاً بذلك. ولكن الزوجين «كامبرمير» كانا يريدان تجنُّب السيّد «دوشار لوس» رؤية السيّد «دو شيفرنبي» أيَّا كان الثمن، إذ يريان هذا الأخير ريفياً بسبب دقائق يهملها المرء داخل الأسرة ولكنَّما لا تؤخذ في الحسبان إلاَّ تجاه الغرباء، وهم الوحيدون بالضبط الذين قد لا يتبهبهون لها. ولكنَّنا لانحبُّ أن نريهم الأقرباء الذين لبشوا ماجهنا نحن في أن نكفَّ عن كونه. أمَّا بالنسبة إلى السيّد والسيدة «فيريه» فقد كانا في أعلى مرتبة ثمن يدعونهم «أفضل الناس». وليس من شك أنَّ آل «غير مانت» وآل «روهان» وكثيرون غيرهم كانوا، في نظر من يصفونهم بذلك، من «أفضل الناس» ولكنَّما اسمهم كان يعفي عن قوله. ولما لم يكن الكلُّ يعلم كرم محتد والدة السيّد «فيريه» والدة السيدة «فيريه» والمحيط المخلق إلى حدِّ عجيب الذي كانا يرتادانه هي وزوجها فقد كانوا يضيفون على الدوام، بعدما يقدمون على ذكرهما، وذلك بقصد التوضيح، أنَّهما «من أفضل الأفضلين». فهل كان يملئ عليهما اسمهما المغمور نوعاً من التحفُّظ المتعالي؟ ومهما يكن من أمر فإنَّ آل «فيريه» ماكانوا يلتقون أناساً خالطهم آل «لاتريمواي». وكان لابدَّ من مركز ملكة شاطئ البحر الذي تحتله المركيزة العجوز «دو كامبرمير» في منطقة «المانش» كي يجيء آل «فيريه» إلى واحدة من عصريَّاتها في كلِّ عام. وقد وُجِّهت إليهم الدعوة إلى حفل العشاء وكانوا يعتمدون كثيراً على الأثر الذي سيخلِّقه السيّد «دوشار لوس» في نفوسهم. وأعلن بصورة غير مفضوحة أنَّه في عداد المدعوين. وقد صادف أن السيدة «فيريه» ماكانت تعرفه. وأحسَّت السيدة «دو كامبرمير» لذلك بسرور عظيم وهامت على وجهها ابتسامة الكيمائي الذي سيقم الصلة للمرَّة الأولى بين عنصرين لها أهميَّة خاصَّة. وانفتح الباب وأوشكت السيدة «دو كامبرمير» أن يغمى



عليها وهي ترى «موريل» يدخل بمفرده. وكمثل كاتب الأوامر المكلف بالاعتذار عن وزيره، وكزوجة في زواج غير متكافئ تعرب عن أسف الأمير لتوَعَكَ صَحَّتَه (هكذا كانت تفعل السيِّدة «دو كلانشان» حيال الدوق «دومال»)، قال «موريل» باللهجة الأكثر خَفَّةً وطيشاً: «لن يتمكن البارون من المجيء فهو منحرف الصحة قليلاً، وهو اعتقادي على الأقل بأن ذلك هو السبب، فإني لم ألتق به هذا الأسبوع» يضيف قوله وهو يخيب حتى بهذه الأقوال الأخيرة أمل السيِّدة «دو كامبرمير» التي سبق أن قالت للسيِّدة والسيِّدة «فيريه» أن «موريل» يلتقي السيِّد «دوشار لوس» على مدى ساعات النهار. وتظاهر الزوجان «كامبرمير» بأن غياب البارون كان متعة تضاف إلى الاجتماع، وكانا يقولان لمدعويهما دون أن يدعيا لـ «موريل» أن يسمعهما: «سوف نكون في غنى عنه، أليس كذلك؟ وسوف يزداد الأمر بالتأكيد متعة». ولكنَّهما كانا ساخطين وشكاً بدسياسة حاكمتها السيِّدة «فيردوران»، وحينما دعتهما هذه الأخيرة ثانية إلى «لاراسيلير» لم يستطع السيِّد «دو كامبرمير»، فواحدة بواحدة، أن يقاوم متعة العودة لمشاهدة بيته والتقاء المجموعة الصغيرة مرَّةً أخرى، فجاء ولكنَّما بمفرده قائلاً إن المركيزة مغتمة لذلك ولكنَّ طبيبها أمرها بملازمة غرفة نومها. وظنَّ الزوجان «كامبرمير» أنَّهما بنصف الحضور هذا إنما يلقنان السيِّد «دوشار لوس» درساً ويظهران لآل «فيردوران» في الآن نفسه أنَّهما ملتزمان تجاههما بمعاملة محدودة فحسب، كما كانت أميرات الأسرة المالكة يشيعن الدوقات الزائرات فيما مضى ولكن حتى منتصف الغرفة الثانية فحسب. وبعد بضعة أسابيع كانوا قد اختصموا تقريباً. وقد قدَّم لي السيِّد «دو كامبرمير» هذه الإيضاحات بذلك الخصوص: «سأقول لك إن الأمر كان صعباً مع السيِّد «دوشار لوس». فإنه من أشدَّ أنصار «دريفوس»... «لا، ويحك!» - بلى...، وفي جميع الأحوال فإن ابن عمِّه الأمير «دو غير مانت» من هذا القبيل، وكثيراً ما يقرعونهم على ذلك. إن لديَّ أقرباء شديداً السهر على الأمر. لست أطيق مخالطة هؤلاء الناس فرُبَّما اختلفت وأسرَّتي كلها. وقالت السيِّدة «دو كامبرمير»: «بما أن الأمير «دو غير مانت» من مناصري «دريفوس» فإن الأمر سيستقيم بمقدار مايقال إن «سان لو» الذي سيتزوَّج ابنة أخيه من المناصرين بدوره، بل ربَّما كان ذلك سبب الزواج». فقال السيِّد «دو كامبرمير»: «هيا يا عزيزتي، لا تقولي أن «سان لو» الذي نحبه كثيراً من أنصار «دريفوس». يجدر بنا أن لانشر هذه المزاعم بدون تروء. فما أكثر ماستحسن النظرة إليه في الجيش» وقلت للسيِّد «دو كامبرمير»: «كان ذلك شأنه، ولكنَّه لم يعد كذلك. أما بخصوص زواجه من الآنسة «دو غير مانت» - برأسك» فهل الأمر صحيح؟ - لا يتحدثون إلا عن ذلك، ولكنك في موقع ممتاز لتكون على بينة منه». وقالت السيِّدة «دو كامبرمير»: «ولكنني أكرِّر أنه قال لي شخصياً إنَّه من أنصار «دريفوس». وهو على أيِّ حال معذور تماماً، قال «غير مانت» نصفهم من دم ألماني». وقال «كانكان»: «بالنسبة إلى «غير مانتني» شارع «فارين» يوسعلك أن تقولي بالكامل. أمَّا «سان لو» فأمر مختلف تماماً فعبثاً نرى له هذا الحجم الكبير من الأقرباء الألمان، لقد كان والده يطالب قبل أيِّ شيء آخر بلقبه بوصفه من كبار الأسياد الفرنسيين، فقد عاد إلى الخدمة عام ١٨٧١ ولقي في أثناء الحرب أشرف ميتة. ومهما يكن التزامي المبادئ بهذا الشأن فينبغي أن لا نغلو في هذه الاتجاه أو ذاك. In medio.... virtus. (١).

(١) In medio stat virtus (الفضيلة في الوسط، أي بين الطرفين أو التطرفين) وهو ما عبَّرَ العرب عنه خير تعبير يقولهم: شرُّ التناهي الشطط وخير الأمور الوسط. أمَّا التذكير بمعجم «الاروس» فلأن هذا المعجم دأب على تضمين صفحاته قسماً خاصاً بالأمثال والأقوال السائرة وكثير منها باللاتينية.

ليست تسعفني الذاكرة. ذلك شيء يقوله الدكتور «كوتار»، وهذا رجل حاضر الكلمة دوماً. يجدر بكم هنا اقتناء معجم «الاروس الصغير». وارتدت السيدة «دو كامبرمير»، بغية تجنّب البتّ بالقول اللاتيني وترك موضوع «سان لو» جانباً حيث بدا لزوجها أنها تفتقر للياقة، ارتدت إلى «المعلمة» التي بدا أن اختصاصها وليناهم أكثر حاجة بعد للتفسير. وقالت المركيزة: «لقد أجرنا «لاراسيلير» بكامل الرضى للسيدة «فيردوران» ولكننا بدا أنها تظنّ لها الحق، إلى جانب البيت وكلّ ما وجدت السبيل إلى ادّعاءه لنفسها، كاستخدام المرج والسجف القديمة، وكلها لا وجود لها في عقد الايجار، في صداقتنا. وتلك أمور مختلفة تمام الاختلاف. ذنبنا أننا لم نُجرّ الأمور على يد مدير أو وكالة فحسب. لا أهمية للأمر في «فريتيرن»، ولكنني أرى من هنا استغراب عمّتي في «شنوفيل» لو رأيت الخالة «فيردوران» تقبل في يوم استقبالي بشعرها المنفوش. أمّا فيما يخصّ السيّد «دوشار لوس»، فهو يعرف بالطبع أناساً من أفضلهم، كما يعرف من «أسول هم أيضاً». وسألت من يكون هؤلاء. وقالت السيدة «دو كامبرمير» في نهاية المطاف وقد ضيقوا بالسؤال عليها: «يزعمون أن هو من كان يوقّر سبل العيش للسيّد «مورو»، «موريي»، «موريه»، لم أعد أدري. ليس بالطبع من صلة البنت بـ «موريل» عازف الكمان، تضيف قولها وقد اكتسى وجهها حمرة. «وحيثما أحسست أن السيدة «فيردوران» ستخيّل من حقّها القيام بزيارتي في باريس لأنّها من مؤجّرنا في منطقة «المانش» أدركت أنّه لا بدّ من قطع دابر هذا الأمر».

لم يكن آل «كامبرمير» على الرغم من هذا الخلاف مع المعلمة، على علاقة سيّئة بالخُلص وكان يسرهم أن يصعدوا إلى عربتنا حينما يكونون على خطّ سيرنا. وكانت «ألبيرتين»، حين نوشك الوصول إلى «دوفيل»، تخرج مرآتها للمرّة الأخيرة فترى من المفيد أحياناً أن تغيّر قفازيها أو تنزع قبعتها لحظة بالمشط المصدّف الذي كنت أعطيها إيّاه والذي تضعه في شعرها كانت تملّس دوائره وترفع المنفّخ منه وتعلّي عقصته إن اقتضى الأمر فوق التموجات التي تهبط كالوديان المنتظمة حتّى قدّالها. وما إن تجلس في العربات التي كانت بانتظارنا حتّى لا نعلم أين نحن من بعد، فالطرق لم تكن مضاءة؛ وكنا نعرف من ضجيج العجلات المتعاطم أننا نجتاز إحدى القرى ونظنّ أننا وصلنا فنجد أنفسنا في قلب الحقول ونسمع أجراساً في البعيد وننسى أننا نرتدي «السموكن» وكنا أغفيناً تقريباً حينما كانت الأضواء الساطعة، في آخر هذا الشريط الطويل من الظلمة التي بدا أنها، من جرّاء المسافة المقطوعة والحوادث التي تميّز بها أية رحلة في السكّة الحديدية، حملتنا حتّى ساعة متقدّمة من الليل وإلى نصف الطريق تقريباً من رحلة العودة إلى باريس، كانت تلك الأضواء الساطعة، بعدما كشف لنا انزلاق العربة فوق رمال أكثر نعومة أننا دخلنا توّاً في الروضة، تتفجّر فجأة فتعيدنا إلى حياة المجتمعات، أضواء الصالة ثم قاعة الطعام حيث كنا نحسّ حركة تراجع قوية ونحن نسمع دقات الثامنة التي كنا نظنّها انقضت منذ زمن طويل فيما ستتوالى أطباق المأكّل الكثيرة والخمور الفاخرة حول رجال باللباس الرسميّ ونساء نصف كاشفات عن الصدور في عشاء يتألّف ضياء مثل عشاء حقيقي في المدينة كان يحيط به فقط، فيبدّل بذلك طابعه، الرشح المزدوج العاتم الفريد الذي نسجته الساعات الليلية والريفية والبحرية في الذهاب والإياب وقد حوّلت جرّاء هذا الاستعمال المجتمعيّ عن طابعها الاحتفاليّ الأصليّ. والرجوع ذلك كان يضطرّنا فعلاً إلى هجر روعة الصالة المضيئة المشرقة، وسرعان ما تنتسى، إلى العربات حيث كنت أتدبّر أمري

لأكون برفقة «ألبيرتين» كي لا يمكن صديقتي أن تكون مع آخرين بدوني، وفي الغالب أيضاً لسبب آخر قوامه أننا كنا نستطيع كلانا أن نقوم بأشياء كثيرة في عربة مظلمة كانت رجّات الطريق النازلة تجدد لنا العذر من جانب آخر، إما انسابت ومضة ضوء مفاجئة، لتشبّثنا الواحد بالآخر. وكان السيّد «دو كامبرير» يسألني حين لم يكن بعد على خلاف مع آل «فيردوران»: «ألا تظنّ أنّك ستصاب باختناقك مع هذا الضباب؟ لقد أصيبت شقيقتي باختناقات مريعة هذا الصباح. آه! لقد أصبت ببعض منها بدورك، يقول بادي الرضى؛ سأقل لها الأمر المساء. وأعلم أنّها سوف تستعلم لدى عودتها في الحال إن كان مضى زمن طويل لم تصب بها في أثناءه.» وما كان على أيّ حال يحدثني عن اختناقاتي ألا ليصل إلى اختناقات شقيقته ولا يحملني على وصف خصائص الأولى إلا ليشير بصورة أفضل إلى الفروق الكائنة بين الاثنين. ولكنّ على الرغم من هذه الفروق، ولما كان يبدو له أن اختناقات شقيقته لا بدّ أن تكون الحجّة، ما كان يستطيع الاعتقاد بأن ما «يصيب» في اختناقاتها ليس مناسباً في اختناقاتي وكان يغضبه أن لا أجربه، فإنّ ثمة ما كان أصعب من التزام الحمية وهو أن لا تفرضها على الآخرين. «وماعساي أقول على أيّ حال أنا الغريب عن الموضوع حينما أنت هنا أمام مجمع العلماء، أمام النبع. فماذا يرى الأستاذ «كوتار»؟»

وعدت من ناحية أخرى فالتقيت زوجته مرّة ثانية لأنها كانت قالت إن «لابنة عمّي» تصرّفاً غريباً وأردت أن أعلم ما الذي ترمي إليه من وراء ذلك. وأنكرت أن تكون قالت، ولكنّها أقرّت في النهاية أنّها تحدّثت عن امرأة اعتقدت أنّها التقتها مع ابنة عمّي. لم تكن تعرف اسمها وقالت في نهاية المطاف إنّها، إن لم تخطئ القول، زوجة رجل مصارف تدعى «لينا»، «لينيت»، «ليزيت»، «ليا»، أو ما كان من هذا القبيل. وفكرت أن «زوجة رجل المصارف» لم تردّ إلاّ لتزيد من ابعاد الشبهة. وأردت سؤال «ألبيرتين» أن كان ذلك صحيحاً. ولكنّي كنت أفضل الظهور بمظهر من يعلم أكثر منّي بمظهر من يسأل. ولعلّ «ألبيرتين» ما كانت في كلّ الأحوال أجابت بشيء، أو بـ«لا» تجيء «لامها» متردّدة «ألفها» داوية. فما كانت «ألبيرتين» تروي في يوم عن أمور يمكن أن تسمي إليها، بل عن أخرى لا يمكن أن تُفسّر إلاّ بالأولى، إذ الحقيقة بالأحرى تيار ينطلق ممّا يقال لنا ويلتقط مهما يكن خفياً، أكثر منه الشيء نفسه الذي قيل لنا، من ذلك أنّي حينما أكدت لها أن امرأة عرفتّها في «فيشي» كانت ذات سلوك سيء أقسمت لي أن تلك المرأة لم تكن مطلقاً ما كانت أظنّ ولم تحاول في يوم أن تسمي إليها. ولكن أضافت في يوم آخر كنت أتحدّث فيه عن فضولي إزاء هذا النمط من النساء أنّ لسيّدة «فيشي» تلك صديقة من ذاك النوع ما كانت «ألبيرتين» تعرفها ولكن السيّدة «وعدتّها أن تعرفها بها». وكما تكون وعدتها بذلك لا بدّ أن «ألبيرتين» كانت راغبة فيه أو أنّ السيّدة عرفت، إذ وفّرت لها الأمر، أنّها تدخل السرور إلى قلبها. لكنّي أوقفتها في الحال وماعرفت شيئاً من بعد وكففت عن بثّ الخوف من حولي. وكنا على أيّة حال في «البليك» وسيّدة «فيشي» وصديقتها تقطنان «مانتون»، وسرعان ما قضى البعد واستحالة الخطر على شيهاتي.

حينما كان السيّد «دو كامبرير» ينادي عليّ من المحطة كثيراً ما كنت أفدّت توّاً «ألبيرتين» من العتمة وبمشقة تعاطمت بقدر ما تلجلجت هذه قليلاً في خوفها أن لا تكون كاملة الإظلام. «تعلم أنّي متيقّنة من أن «كوتار» قد رآنا؛ وهو على أيّة حال سمع بالتأكيد صوتك المخبوق، حتّى دون أن يبصر، وذلك بالضبط لحظة

كنا نتحدث عن اختناقاتك التي من نوع آخر، تقول «ألبيرتين» لدى وصولنا إلى محطة «دوفيل» حيث كنا نستقلّ ثانية القطار الصغير للعودة. ولئن كان ذلك الإياب، مثله مثل الذهاب يوقظ في صدري، إذ يوليني بعض إحساس بالشعر، الرغبة في القيام بأسفار وأن أعيش حياة جديدة، ويجعلني بذلك أتمنى أن أدع جانباً أي مشروع زواج من «ألبيرتين»، بل أن أقطع علاقاتنا قطيعة نهائية، فقد كان كذلك، بسبب طبيعة تلك العلاقات المتناقضة، يجعل هذه القطيعة أكثر سهولة. ففي الإياب كما في الذهاب، كان يصعد في كل محطة إلى جانبنا أو يسلم علينا من الرصيف أناس من معارفنا. وعلى صفحة متع الخيال المختلطة كانت تطفو متع مستمرة، متع حسن المخالطة وهي ما أكثر ماتهدي وتخدّر! فإن أسماء المحطات (التي ما أكثر ما أيقظت في صدري من أحلام منذ اليوم الذي ترددت في مسامعي في أول مساء سافرت فيه بصحبة جدتي)، حتى قبل المحطات نفسها، قد اتخذت سمة انسانية وقعدت غرايتها منذ المساء الذي فسر لنا «بريشو» فيه، نزولاً عند رغبة «ألبيرتين»، أصولها تفسيراً كاملاً وافياً. وكنت ألفت سحراً في الزهرة (Fleur) التي تزين أواخر بعض الأسماء من مثل «فيكفلور» (Fiquefleur) و «هونفلور» و «فليور» و «بارفلور» و «هارفلور»، وفكاهة في الشور الذي يختم «بريكبوف» (Bricqueboeuf). ولكننا اختفت الزهرة والثور اختفى حين أعلمنا «بريشو» (وكان قال لي ذلك أول يوم في القطار) أن «فلور» (fleur) أنما تعني «مرفأ» (كما هي «فيور» (Fiord)) وأن ثور (boeuf) وهي (budh) في النورماندية أنما تعني «كوخ». ولما كان يذكر عدّة أمثلة فإن ماسبق أن بدا لي خاصاً أخذ يتسم بالعمومية: وراحت «بريكبوف» تنضم إلى «ايلبوف»، بل إنني داخلني الأسى أن أعود فألقى في اسم هو لأوّل وهلة بمثل تفرد المكان الذي يعنيه، كاسم «بيندوبي» (Pennedepie) حيث كانت تبدو لي أكثر الغرابيات استحالة على الكشف من جانب العقل وقد تجمعت منذ زمن سحيق في لفظة قبيحة لذيدة تقسّت كبعض الجبن النورماندي، أن أعود فألقى لفظة «بين» (Pen) الغالية التي تعني «جبل» وهي حاضرة كذلك في «بينمارش» وجبال الـ «آينان» على حدّ سواء. وكنت أقول لـ «ألبيرتين» إذ أحس أن أيدي صديقة سوف يقع علينا أن نشدّ عليها في كل موقف، إن لم تكن زيارات تجيئنا فيه: «هيا اسرعي في سؤال «بريشو» عن الأسماء التي تؤدّن معرفتها. فقد كلمتني عن «ماركوفيل المستكبرة». فقالت «ألبيرتين»: «أجل، أحبّ كثيراً هذا الاستكبار، إنها قرية أبيّة». فردّ «بريشو» قائلاً: «ربّما وجدتها بعد أكثر إباء لو أخذت، بدلاً لصيغتها الفرنسية أو حتى اللاتينية المتأخرة على نحو ما نجدّها في سجلّ مطران «بايو» الكنسي «ماركوفيل» سويسرياً» (Marcovilla superba)، الصيغة الأقدم والأقرب إلى النورماندية: «ماركولفي فيلاً سويسرياً» - (Marculphi Villa Superba) أي قرية، أملاك ماركولف. يمكنك أن تبصر في كلّ هذه الأسماء تقريباً المنتهية بلفظة «فيل» طيف الغزاة النورمانديين الأشداء منتصباً بعد على هذا الشاطئ. في «هيرمونفيل» لم يتفق لكم سوى دكتورنا العظيم يقف على باب عربة القطار وليس فيه بالطبع ما يذكر بقائد نروجي. ولكنكم تستطيعون إما أغمضتم عيونكم أن تبصروا «هيريموند» الشهير (Herimundivilla) ومع أن الناس يمضون، ولا أدري لماذا، على هذه الطرقات الواقعة بين «لوانبي» و«بالبيك الشاطي» أكثر منهم على تلك الرائعة التي تقودك من «لوانبي» إلى «بالبيك» القديمة فإن السيّد «فيردوران» ربّما ذهب بك في عربتها من هذا الجانب. وقد شاهدتم إذاً «أنكرفيل» أو قرية «ويسكار»، و«تورفيل» هذه قبل أن تصلوا إلى منزل السيّد «فيردوران»، هي قرية

«تورولد». ومن جانب آخر لم يكن ثمة نورمانديون فحسب، ويدعو أن الألمان وصلوا إلى هنا ( «أو منا نكور» أي «Alemanicurtis» )، ولا نبوحن بذلك لهذا الضابط الشاب الذي أخه فقد لا يروق له الذهاب من بعد لدى أبناء عمومته. كان ثمة ساكسونيون أيضاً كما يدل على ذلك نبع «سيسون» (وهو أحد أهداف النزهة المفضلة لدى السيدة «فيردوران» ويحقّ كان)، كما هو في انكلتره أمر «ميدلسيكس» و«ويسيكس». ويبدو، والأمر لا تفسير له، أن قوطيين، أن متشردين كما كان يقال (١) جاؤوا حتى هنا، وحتى المغاربة لأن «مورتاني» مشتقة من مورتانيا. وقد بقي أثر لهم في «غورفيل» (Gothorumvilla = أي قرية القوط). ولا يزال ثمة أثر للآتينيين أيضاً في «لاتي» (Latimiacum = اللاتينية). وقال السيد «دوشار لوس»: «إني أطلب أنا شرحاً لـ «تورب أوم» (٢). إني أفهم «أوم»، يضيف قوله بينما يتبادل النحات و «كوتار» نظرة تواطؤ، «أما «تورب»؟ وأجاب «بريشو» هو ينظر نظرة مأكرة إلى «كوتار» والنحات: «أوم» لاتعني مطلقاً ماتمبل ميلاً طبيعياً إلى اعتقاده أيها البارون. فـ «أوم» لعلاقة لها هنا بالجنس الذي لا أدين له بأني. «أوم» هي «هولم» (holm) وتعني جزيرة صغيرة، النخ. أما «تورب» (Thorp) «أو قرية» فأننا نلقاها في مئة من الكلمات التي بعثت بها الملل في صدر صديقي الشاب. وهكذا ليس في «تورب أوم» اسم لقائد نورماندي بل كلمات من اللغة النورماندية. ترون إلى أي حد أضفي الطابع الألماني على هذه المنطقة. وقال السيد «دوشار لوس»: «في اعتقادي أنه يبالغ. فقد ذهبت الباحة إلى «أورجفيل».. - «هذه المرة أرد لك الرجل الذي سبق أن نزعته منك في «تورب أوم» أيها البارون إن أحد صكوك «روبير» الأول، وأقولها دون حذقة، يعطينا في مقابل «أورجفيل» «أو تجير يفيلا» (Otgerivilla)، أي أملاك «أو تجير». إن هذه الأسماء جميعها لأسياذ قدامى. فإن «أوكتفيل لاففيل» هي لـ «أففيل». وآل «أففيل» كانوا أسرة مشهورة في العصر الوسيط. و«بورغول» التي أخذتنا السيدة «فيردوران» إليها في ذلك اليوم كانوا يكتبونها «بورغ دومول» لأن هذه القرية كانت في القرن الحادي عشر ملكاً لـ «بودوان دو مول»، وكذلك «لاشيز بودوان». ولكن ها قد وصلنا إلى «دونسيير»، وقال السيد «دوشار لوس»: «يا إلهي! كم ملازم سيحاول الصعود! قال متظاهر بالفزع، «إني أقول ذلك من أجلكم، فإني أنا لايزعجني ذلك بما أني مغادر». وقال «بريشو»: «سمعت يادكتور؟ يخشى البارون أن يمرّ ضباط على جسده. وهم مع ذلك يضطلعون بدورهم إذ يتجمعون هنا لأن «دونسيير» هي بالضبط «سان سير»، «دومينوس سير ياكوس» (Dominus Cyriacus) هناك الكثير من أسماء المدن يحلّ فيها (Dominus) «سيد» و «Domina» «سيدة» محل «Sanctus» «قدّيس» و «Sancta» «قدّيسة». وهذه المدينة الهادئة العسكرية ترتدي أحياناً مظاهر كاذبة لـ «سان سير» و«فير ساي» وحتى لـ «فوتينيلو».

وفي رحلات العودة تلك (كما في الذهاب) كنت أقول لـ «ألبيرتين» أن ترتدي ثيابها إذ أعلم تماماً أن زوّاراً سيفقدون إلينا في «أمانكور» و«دونسيير» و«ايرفيل» و«سان فاست» في زيارات قصيرة. وما كانت بآية حال تزعجني، سواء في ذلك، في «هيرمونفيل» (قرية «هيريموند»)، زيارة السيد «دو شيفرنبي» الذي يستغلّ مجيئه لاصطحاب مدعوين له كيما يسألني المحيء في الغد لتناول الغداء في «مونسورفان»، أو في «دونسيير»

(١) لأن لفظة قوطي (goth)، قرية من لفظة (gueux) التي تعني المتشرّد المتسول.

(٢) Thorpehomme

الدخول المفاجئ لأحد أصدقاء «سان لو» الظرفاء وقد أرسله، (إن كان لديه التزام) لينقل إليّ دعوة من النقيب «بورودينو»، من نادي الضباط إلى مطعم «الديك الجسور»، أو من نادي صف الضباط إلى مطعم «التدرج الذهبي». وكثيراً ما كان «سان لو» يجيء بنفسه، فكنت في كل الوقت الذي كان حاضراً فيه، ودون أن يتمكنوا من ملاحظة ذلك، احتفظ بـ«ألبيرتين» سجيّة أرقبها بعين لا تجدي بقلتها بآية حال. وقد قطعت مع ذلك حراستي ذات مرة. فإن «بلوك»، إذ كان ثمة وقفة طويلة، انطلق في الحال، بعدما سلّم علينا، للحاق بوالده الذي ورث منذ فترة قصيرة عمّه وكان يرى، بعد أن استأجر قصراً يدعى «الأمريّة»، من قبيل تصرف السيد الكبير أن لا يتنقل إلا بعربة يقودها حوذيون بلباس موحد. ورجاني «بلوك» أن أرافقه حتّى العربة. ولكن أسرع فإن ذوات الأربعة تلك نفد صبرها. تعال أيها الرجل العزيز على قلوب الآلهة فسوف تسعد بذلك والدي. ولكنتي كنت أعاني بشكل مفرط من ترك «ألبيرتين» في القطار برفقة «سان لو» فربما استطاعا التحدث فيما أدير ظهري، والذهاب إلى عربة أخرى والتلامس. ولما كانت عيني لاصقة بـ«ألبيرتين» فما كان بوسعها الانفصال عنها مادام «سان لو» حاضراً على أنني لاحظت تماماً أن «بلوك» الذي سألتني الذهاب لتحيّة والده بمشابة خدمة أوديعها له، وجد بادئ الأمر قلة لطافة في امتناعي عنها حين لاشيء يحول دون ذلك إذ كان المستخدمون قد أعلمونا بأن القطار سوف يمكث في المحطة ربع ساعة على الأقل، وأن المسافرين جميعهم تقريباً كانوا قد غادروا القطار الذي لن يعاود سيره بدونهم؛ ثمّ إنّه لم يشك أن مردّ الأمر بالتأكيد أنني كنت سنوياً- وكان تصرفي بهذه المناسبة جواباً قاطعاً له-. ذلك لأنّه ما كان يجهل اسم الأشخاص الذين كنت برفقتهم. فقد كان السيد «دوشار لوس» قال لي بعض الوقت قبل ذلك، ودون أن يتذكّر أو يهتمّ بأن ذلك ربّما تمّ فيما مضى، بغية التقرب منه: «ولكن هيّا قدّمني إلى صديقك، فإن ماتفعله يعني قلة احترام لي»، ثمّ تحدّث إلى «بلوك» الذي بدا أنّه يروقه إلى أبعد حدّ حتّى إنّه أنعم عليه بعبارة «أمل لقاءك ثانية». وقال لي «بلوك»: «لارجعة في الأمر إذن، ولا تريد أن تقطع هذه الأمتار المثة لتحبيّ والدي الذي سيُسّر الأمر أيّما سرور». كنت تعيساً أن يبدو أنني أقصر في واجب الرفقة الطيبة، وأكثر من ذلك للسبب الذي من أجله كان يظنّ «بلوك» أنني مقصر فيه وأن أحسنّ أنّه يتصوّر أنني لم أكن الرجل نفسه مع أصدقائي البورجوازيين حين يكون ثمة أناس «كريمو المحتد». منذ هذا اليوم كفّ عن الاعراب لي عن الصداقة نفسها ولم يعد يدي إزاء طبعي التقدير نفسه، وهو ماشقّ عليّ أكثر. ولعلّه كان انبغى أن أقول له، كي أرده عن ضلاله حول السبب الذي اضطرّني للمكوث في عربة القطار، أمراً- مؤذاه أنني كنت غيوراً على «ألبيرتين»- ربّما كان بعد أكثر إيلاًماً من أن ادّعه يعتقد أنني كنت بغباء إلى جانب المجتمع الراقي. وهكذا نجد نظرياً أنّه إنّما يجدر بنا على الدوام أن نفاهم بصراحة ونتجنّب صنوف سوء التفاهم. ولكن الحياة كثيراً ما تمازج بينها إلى حدّ ينبغي معه، بغية تبديدها، في الظروف النادرة التي يبدو فيها ذلك ممكناً، أن تكشف إمّا عن أمر ربّما كان بعد أكثر تكديراً لصديقنا من الخطأ الوهمي الذي يعزوه إلينا- وليس ذلك واقع الحال هنا-، أو سرّاً يبدو لنا الكشف عنه- وهو ما وقع لي منذ قليل- أسوأ بعد من سوء التفاهم. وحتّى لو لم أوضح لـ «بلوك» من جانب آخر، بما أنني لا أستطيع ذلك، السبب الذي لم أرافقه من أجله، فلو أنني رجوت أن لا يتكرّر لذلك لما كنت إلا ضاعفت ذلك الاغتمام إذ أبدي أنني كنت على بينة منه. ولم يبق ثمة ما أفعله سوى أن أمتثل لهذا القدر الذي شاء أن

يحول وجود «ألبيرتين» دون أن أصبح مودعاً، وأن يمكنه الاعتقاد على العكس بأن وجود قوم لامعين هو الذي فعل، وربما ماكان لذلك الوجود من أثر، ولو كانوا مئة مرة فوق ذلك، سوى أن يصرفني إلى الاهتمام حصراً بـ«بلوك» وأن احتفظ له بكل ما أملك من أدب. وهكذا يكفي أن تتدخل حادثة (هي هنا تقابل «ألبيرتين» و«سان لو») على نحو عارض وعيبي بين مصيرين كانت خطوطهما تتجه بعضها صوب بعض كيما ينحرف الواحد عن الآخر ويتباعد أكثر فأكثر فلا يتقاربان في يوم. وهناك صداقات أجمل من الصداقة التي كان يكتنحها لي «بلوك» داهمها الخراب دون أن يكون المسبب غير المتعمد للخصام استطاع في يوم أن يوضح للمتخاصم معه ما لعله كان شفى دونما شك اعتزازه بنفسه وأعاد وداده الهارب.

وليس قولنا بصداقات أجمل من صداقة «بلوك» مغالاة في القول بأية حال. فقد كان يملك سائر العيوب التي كانت تسوئي أكثر ماتسوء. وقد اتفق عرضاً أن جعلتها رقتي تجاه «ألبيرتين» لاحتتمل البتة. من ذلك أن «بلوك» قال لي، في هذه اللحظة البسيطة التي كلمته فيها وأنا أقرب «روبير» بالعين، إنه قد تناول طعام الغداء في منزل السيدة «بونتان» وإن كل واحد منهم تكلم عني بأعظم المديح حتى «مغيب ذكاء». وفكرت قائلاً: «حسن، بما أن السيدة «بونتان» تظن «بلوك» عبقرياً فإن التأيد الحماسي الذي لابد منحنى إياه سوف يفعل أكثر من كل ما يمكن أن يقوله الآخرون، وسيعود ذلك إلى «ألبيرتين». ولن يفوتها بين يوم وآخر أن تعلم، ويدهشني أن لم تعد عمتها بعد على مسامعها، أنني رجل «متفوق». وأضاف «بلوك» قائلاً: «أجل، الكل أثنى عليك. وحدي أنا التزمت صمتاً في مثل عمقه لو اني ابتلعت بدلاً من الوجبة الهيئة على كل حال التي كانت تقدم لنا نبات الخشخاش العزيز على قلب الشقيق المغبوط لـ «ثانتوس» (الموت) و«ليثيه» (النسيان)، «هينوس» (الوهم) الذي يلف باربطة ناعمة الجسم واللسان. وليس يعني ذلك أنني أقل إعجاباً بك من زمرة الكلاب النهمة التي دعيت وإياها. ولكني أنا معجب بك لأني أفهمك، وهم معجبون دون أن يفهموك. وأني، لأحسن القول، أكثر إعجاباً بك من أن أتحدث هكذا عنك على الملأ، فلعل امتداحي جهاراً ما أحمل في أعماق أعماق فؤادي كان بدا لي من قبيل التدنيس. وعيناً ساءلوني بشأنك فإن نوعاً من الخفر المقدس ابن «كرونيون» (Kronion) (١) حبس الكلام في فمي». ولم تكن بي قلة ذوق لأبدي استياء، ولكن ذاك الخفر بدا لي يشبه - أكثر منه الـ «كرونيون» - الخفر الذي يمنع ناقداً معجباً بك أن يتحدث عنك لأن المعبود الخفي الذي تترع فيه سوف يجتاحه لمة من القراء الجهال والصحفيين؛ خفر رجل الدولة الذي لا يمنحك وساماً كي لا تختلط ضمن جماعة من الناس لا تساويك؛ خفر عضو المجمع الذي لا يصوت إلى جانبك كي يجنبك الخجل من أن تكون زميل س الذي لا يتمتع بأية موهبة؛ الخفر أخيراً الذي يكون أكثر مدعاة للاحترام وأكثر إجراماً مع ذلك، خفر الأبناء الذين يرجونك أن لا تكتب عن والدهم المتوفى الذي كان كثير المزاي وذل ذلك لضمان الصمت والراحة والحوال دون الحفاظ على حياة الميت المسكين وخلق هالة من المجد حوله وهو الذي ربما فضل أن تتلفظ باسمه أفواه رجال الأكاليل التي تحمل بورع كبير على أي حال إلى قبره.

لكن كان «بلوك»، فيما يبعث في نفسي الأسى إذ لا يستطيع أن يدرك السبب الذي يحول دون ذهابي

(١) هي «إينوس» ابنة «جوبيتر» كبير آلهة الرومان بالآخرى.

بتحية والده، لكن كان أثار حنقي وهو يقر لي أنه قلل من اعتباري لدى السيدة «بوتان» (كنت أدرك الآن لماذا لم تلمح «البيرتين» إلى ذاك الغداء في يوم وتظل ساكنة حينما أحدثها عن المودة التي يكنّها لي «بلوك»)، فقد خلف اليهودي الشاب في نفس السيد «دوشار لوس» انطباعاتاً يختلف عن الضيق كل الاختلاف. أجل، كان «بلوك» يظن الآن أنني لا أستطيع البقاء ثانية واحدة بعيداً عن الناس الأنيقين، وليس ذلك فحسب بل كنت أحاول، وقد تملكنتني الغيرة من محاولات التقرب التي أمكن أن يبدوها له «كالسيد» «دوشار لوس» مثلاً، أن أضع العصي في العجلات وأمنعه من مصادقتهم. ولكن البارون كان يأسف من جهته أن لم يلق رفيقي أكثر مما فعل. وحرص كمادته على أن لا يدي شيئاً من ذلك. وبدأ يطرح عليّ، دون أن يدي أنه يفعل، بعض الأسئلة حول «بلوك»، ولكننا بلهجة متراخية واهتمام يبدو شديد التصنع إلى حد لا نطق معه أنه يسمع الأجوبة، وبمظهر من اللامبالاة ولحن رتيب كان يعرب عما كان أكثر من اللامبالاة والشرود وكأنما لمحض نذب يديده لي: «يبدو ذكياً، وقال إنه يكتب، فهل هو على موهبة؟» وقلت للسيد «دوشار لوس» أنه كان غاية في اللطف بقوله إنه يأمل لقاء ثانية. ولم تكشف أية حركة لدى البارون أن يكون سمع جملتي ولما كررتها أربع مرات دون أن يصلني جواب فقد بلغ بي في النهاية أن أرتاب بأن أكون وقعت ضحية سراب سمعي حينما ظننتني اسمع ما قاله السيد «دوشار لوس». «هل يقطن في «بالبيك»؟» يقول البارون مدندناً بلحن قليل المسألة إلى حد أنه من المغيظ أن لا تتسع اللغة الفرنسية لعلامة غير نقطة الاستفهام لختام هذه الجمل التي يقل طابع الاستفهام في ظاهرها إلى الحد. وصحيح أن هذه العلامة تكاد لا تخدم سوى السيد «دوشار لوس» - «لا، فقد استأجروا الأميرة على مقربة من هنا» وتظاهر السيد «دوشار لوس»، بعدما عرف ما كان يتغنى، باحتقار «بلوك»، وصاح وهو يرد إلى صوته كامل زخمه ودويّه: «يا لها فظاعة! إن سائر الأماكن أو الممتلكات المدعوة بـ «الأميرة» قد بنيت أو هي مملوكة من جانب فرسان جمعية مالطا (التي انتمى إليها)، مثلما الأمكنة المسماة «المعبد» أو «الفرسان» من جانب الداوية. إن أقطن أنا الأميرة فليس ما كان طبعياً أكثر. أمّا أن يفعل يهودي! وليس يدهشني ذلك على أية حال، ومرّد ذلك ميل غريب إلى تدنيس المقدسات خاص بهذا الجنس. فما أن يجتمع ليهودي ما يكفي من المال لشراء قصر حتى يختار دوماً قصراً يدعى «كنيسة الدير» أو «الدير» أو «الرهبانية» أو «بيت الله»، لقد كنت على صلعم أحد اليهود، فاحزوا أين كان يقيم؟ في منطقة «جسر المطران» (١) ولما فقد الخطوة عمل على أن يرسلوه إلى «بريتانية»، إلى منطقة «جسر رئيس الكهنة». وحينما يمثلون في أسبوع الآلام تلك المشاهد غير المحتشمة التي يدعوها «الآلام» فإن نصف القاعة يملؤها اليهود الذين يتهللون فرحاً لدى التفكير بأنهم سيضعون المسيح مرة ثانية على الصليب، بالصورة على الأقل. وفي حفلة «لامورو» الموسيقية كان أحد المصنفين اليهود جازاً لي. وعزفوا «طفولة المسيح» لـ «بيرليوز» فأذهله الأمر وعمّه، وكلته عاد قلقي بعد قليل تعابير الغبطة المعتادة لديه حين سمع مقطوعة «روعة الجمعة الحزينة» (٢). إن صديقك يسكن في «الأميرة»، فياله من شقي! وآية سادية تلك! استدلي على الطريق، يضيف قوله وقد استعاد هيئته اللامبالية، لأمضي ذات يوم وأرى كيف تطبق ممتلكاتنا القديمة مثل هذا

(١) ترجمنا الاسم العلم لابرار المقصد.

(٢) ذكرى صلب السيد المسيح.



الأنتهاك. ذلك مؤسف، لأنه مهذب ويبدو رقيقاً. وقد لا ينقصه سوى أن يقطن في باريس، في شارع «المعبد» ! كان السيد فحسب يدعّم به نظريته. ولكنه كان في الواقع يطرح عليّ سؤالاً لغابيتين ترمي الرئسيّة منهما إلى معرفة عنوان «بلوك». ولفت «بريشو» إلى الملاحظة التالية : «كان شارع «المعبد» بالفعل يدعى شارع «فرسان المعبد». وقال الجامعي : «واذ نحن بهذا الصدد، هل تسمح لي بملاحظة أيّها البارون؟» وقال السيد «دوشار لوس» بلهجة جافّة : «ماذا؟ هات ماوراءك»، لأن تلك الملاحظة كانت تحوّل دون حصوله على معلوماته. فأجاب «بريشو» متهيّباً : «لا، لا شيء». كان ذلك بشأن اشتقاق سبق أن طلب منّي لكلمة «بالبيك». فشارع «المعبد» كان يدعى فيما مضى شارع «مركز قضاء بيك» لأن دير «بيك» في النوماندي كان يقيم هنا في باريس مركز قضائه. ولم يحر السيد «دوشار لوس» جواباً وتظاهر بأنّه لم يسمع، وكان ذلك عنده أحد أشكال الوقاحة. «أين يسكن صديقك في باريس؟ وما أن ثلاثة أرباع الشوارع تستمدّ اسمها من كنيسة أو دير ثمّة احتمال أن يستمرّ تدنيس المقدّسات. ولست تستطيع منع يهود من السكنى في شارع «المادلين» (1) أو حيّ «القديس هونوريه» أو ساحة «القديس اغسطينوس». وماداموا لا يبالغون في المكر باختيار مقرّ سكنهم في ساحة «نوتردام» أو ضفّة «المطرائيّة» أو شارع «رئيسة الدير» أو شارع «السلام عليك يا مريم» فلا بدّ أن تأخذ مصاعبهم في الحسينان». ولم تتمكّن من تزويد السيد «دوشار لوس» بالمعلومات إذ كان عنوان «بلوك» الحالي مجهولاً لدينا. ولكنّي كنت أعلم أن مكاتب والده تقع في شارع «المعاطف البيضاء». وصاح السيد «دوشار لوس» قائلاً : «آه! يا فساداً ما بعده فساد!» وهو يبدو كأنما يجد في ذات صيحة ثورته الساخرة ارتياحاً عميقاً. وأضاف قوله وهو يشدّد على كل مقطع ويضحك شارع المعاطف البيضاء، ياله امتهان للقديسيات! تصوّر أن هذه «المعاطف البيضاء» التي يلوّنها السيد «بلوك» كانت معاطف الأخوة الشحاّذين المدعوّين خدام القديسة العذراء والذين أقامهم القديس لويس هناك. ولقد كان الشارع على الدوام لجمعيات دينيّة. والتدنيس يزداد شيطانيّة بقدر ما يقوم ثمّة على خطوتين من شارع المعاطف البيضاء شارع يغيب عني اسمه وهو مخصّص بالكامل لليهود. ثمّة حروف عبرانية فوق الدكاكين ومصانع للخبز الفطير وملاحم يهوديّة؛ إنّه بالتمام الـ Judengasse (جادة اليهود) الباريسيّة. إن السيد «دورو شغود» يسمّي هذا الشارع «الغيثو الباريسي». وكان خليقاً بالسيد «بلوك» أن يسكن هنا. وعاد يقول «بالطبع»، بلهجة يلوّنها شيء من التفخيم والاعتزاز وهو يولي وجهه المرتدّ إلى خلف، في سبيل الإدلاء بأقوال جماليّة، وجرّاء جواب توجّهه إليه على الرغم منه خصائصه الوريثيّة، هيئة فارس ملكيّ من عهد لويس الثالث عشر، «لست أهتمّ بكلّ ذلك إلّا من منطلق الفنّ. فالسياسة ليست من اختصاصي ولا يسمعي أن أحكم دون تمييز، والأمر أمر «بلوك»، على أمة تجدّ في عداد مشاهير أبنائها «سبينوزا». وإن إعجابي بـ «رامبرانت» أكبر من أن لا أعرف ما يمكن أن استمدّه من جمال من التردّد على الكنيس (٢). ومهما يكن من أمر فان «الغيثو» أنما يزداد جمالاً بقدر ما يزداد تجانساً وتكاملاً. وكن في جميع الأحوال على يقين من أن قرب الشارع العبريّ الذي اكلمك عنه والسهولة التي يوفرّها وجود الملاحم اليهوديّة في متناول اليد قد حكما اختيار صديقك لشارع المعاطف البيضاء لشدة ما يختلط لدى هذا الشعب غريزة

(١) كنيسة مشهورة في باريس.

(٢) عاش «رامبرانت» والذي لم يكن يهوديّاً في الحيّ اليهودي في امستردام (هولندا) وكثيراً ما اقتبس شخوصه من الوسط الذي عاش فيه إلى جانب الكنس التي رسمها.

النفعية والجشع بالسادية. ما أغرب ذلك! وفي هذه النواحي على أي حال كان يسكن يهودي عجيب قام بسلق القربان المقدس وأعتقد أنه سلق بدوره بعد ذلك، والأمر أعجب بعد اذ يبدو وكأنه يعني أن جسد يهودي يمكن أن يساوي مايساويه جسد الله سبحانه (١) وربما أمكننا أن ندبر أمراً مامع صديقك كي يصبحنا لزيارة كنيسة المعاطف البيضاء. تصور أن جثمان «لويس آل أورليان» أودع هناك بعد مقتله على يد «جان صان بور» الذي لم ينقلنا لسوء الحظ من آل «أورليان». بيد أنني من جانب آخر على علاقة ممتازة بابن عمي الدوق «دو شارتر»، ولكنهم في النهاية من جنس مقتصبين عملوا على قتل «لويس السادس عشر» وتجريد «شارل العاشر» و «هنري الخامس». لديهم على أي حال من يشبهونهم إذ يعدون بين أجدادهم «السيد» الذي كان يدعى على هذا النحو لأنه كان دونما شك أغرب السيدات المستات، والوصي على العرش والبقية الباقية. يالها أسرة! وقد قوطع هذا الخطاب المناهض لليهود أو المناصر لهم - حسبما نتمسك بظاهر الجمل أو بالمقاصد التي تنطوي عليها-، قوطع بطريقة مضحكة فيما يخصني جرأ جملة همس لي بها «موريل» ولعلها كانت أدخلت اليأس إلى صدر السيد «دوشارلوس» فقد كان «موريل» الذي لم تفته ملاحظة الانطباع الذي خلفه «بلوك» يشكرني همساً لأنني «صرفته» و«بضيف بصفاقة»: «كان بؤده أن يبقى، وكل ذلك من الغيرة، فإنه يؤذ أن يأخذ مني مكاني. ذلك تماماً من صنيع اليهود!» وسألني السيد «دوشارلوس» وبه القلق الذي يولده الشك: «كان يمكن الإفادة من هذا التوقف الذي يتطلب لسؤال صديقك بعض الايضاحات الشعائرية. أفلمست تستطيع اللحاق به؟» - «لا، ذلك مستحيل، فقد مضى في عربة وهو غاضب مني على أي حال». وهمس «موريل» في أذني قائلاً: «شكراً، شكراً». «السبب غير معقول، ويمكن دوماً للحاق بعربة فليس مايحول دون أن تستقل سيارة»، يجيب السيد «دوشارلوس» جواب رجل تعود أن ينحني كل شيء أمامه. ولكنه لاحظ صمتي فقال لي بوقاحة ولهجة الأمل الأخير: «وما عسى تكون هذه العربة الوهمية إلى حد؟» - «إنها عربة مكشوفة ولا بد أن تكون وصلت إلى الأمرية». وسلم السيد «دوشارلوس» على مضض في النفس بالمستحيل وتكلف المزاح «أفهم أنهم تراجعوا لإزاء العربة غير الضرورية، إذ كان زاد ذلك في اللاضروية» وأخيراً أنبئنا بأن القطار يرمع الرحيل ففارقنا «سان لو». ولكن ذلك اليوم كان الوحيد الذي عذبني فيه على غير علم منه وهو يصعد إلى عربتنا جرأ ماخطر لي لحظة واحدة بأن أدعه مع «ألميرتين» بمرافقة «بلوك» ولم يعذبني وجوده في المرات الأخر ذلك لأن «ألميرتين» كانت، بغية تجنبي أي قلق، تتخذ مكانها تلقائياً، لحجة آية حجة، على نحو لعلها ما لامست به «روبير»، وإن غير قاصدة، وأبعد تقريباً من أن تمد حتى يدها إليه، وكانت تأخذ، ما أن يحضر، في الحديث بصورة معلنة وبما يقارب التصنع مع أي من المسافرين الآخرين وهي تشيح بعينيها عنه وتوالي هذه اللعبة إلى أن يكون «سان لو» قد ارتحل. وهكذا لم تكن الزيارات التي يقوم بها لنا في «دونسيير» لم تكن إذ لا تسبب لي أي عذاب بل أي ازعاج، لتشكّل استثناء بين الأخريات التي كانت كلها بمنمعة إذ تحمل إلي نوعاً ما إجلال هذه الأرض ودعوتها. وكنت منذ أواخر الصيف حين أبصر من البعيد أثناء رحلتنا من «بالبيك» إلى «دوفيل» محطة «سان بيير ديزيف» حيث تتألاً برهة في المساء رؤوس الجروف موزدة كلها مثلما تلج الجبل في الشمس الغاربة، فإنها ماكانت تذكرني (لا أقول حتى بالحرز الذي بعثه في نفسي أول مساء ارتفاعها

(١) إشارة إلى المعتقد المسيحي الذي يمثل فيه القربان المقدس جسد المسيح.

الغريب المفاجئ فداخلتني رغبة عظيمة في العودة بالقطار إلى باريس بدلاً من متابعة الطريق إلى «البليك» بالمنظر الذي كنت تستطيع مشاهدته من هنا في الصباح، كما سبق أن قال لي «إيلستير»، في الساعة التي تسبق شروق الشمس حيث تتكسر ألوان قوس قزح جميعها فوق الصخور والتي أيقظ فيها مرّات كثيرة الصبي الصغير الذي اتخذته ذات سنة بمثابة جليس ليرسمه عارياً فوق الرمال. كان اسم «سان بيير ديزيف» ينبئني فحسب بأن سوف يطلع عليّ خمسيني غريب فكه متبرّج يمكنني التحدّث وإيائه عن «شاتوبريان» و«بلزاك». أما ماكنت أراه الآن في ضباب المساء. خلف جرف «انكرفيل» هذا الذي ما أكثر ما أيقظ أحلامي فيما مضى، وكأنما أصبحت أحجارها الرملية العتيقة شفّافة، فالبيت الجميل الذي لأحد أعمام السيّد «دو كامبرمير» والذي أعلم أنّهم سيسعدون دوماً باستقبالي فيه إن لم أشأ تناول العشاء في «لاراسبيليير» أو العودة إلى «البليك». وهكذا لم تكن أسماء نواحي هذه المنطقة هي التي فقدت وحدها سرّها الأولي، بل تلك النواحي نفسها. فالأسماء التي فرغت إلى النصف من سرّها الذي أحلّ الاشتقاق الحاكمة العقلية محلّه قد هبطت درجة إضافيّة، وكنا نبصر في أثناء رجعاتنا إلى «هيرمونفيل» و«سان فاست» و«أرامبوفيل» لحظة توقّف القطار أشباحاً ما كنا نتعرّفها في البداية وربّما أمكن أن يأخذها «بريشو» في الليل، وهو لا يصير شيئاً البتّة، مأخذ أطياف «هيريموند» و«فيسكار» و«هيريمالد». ولكنّها كانت تقترب من العربة، فإذا هي مجرد السيّد «دو كامبرمير» الذي كان على اختصاص تامّ مع ال «فيردوران» وكان يصحب مدعوّين له وجاء من جانب والدته وزوجته يسألني إن كنت لا أودّ أن «يختطفني» ليحفظ بي بضعة أيّام في «فيتيرن» حيث ستعاقب موسيقىّة ممتازة قد تسمعي إنشاداً كلّ «غلوك» ولأعب شطرنج مشهور أقوم معه بلبعات رائعة لن تضرب بطلمعات الصيد ورياضة اليخوت في الخليج، ولاحتي بحفلات عشاء ال «فيردوران» التي كان المركز يتعهّد مقسماً بشرفه أنّه «يعيرني» إليها ويأمر باصطحابي وإعادتي سعيّاً إلى مزيد من السهولة، والضمان أيضاً. لكنّنا لا يسعني الاعتقاد أنّه من المفيد لك الذهاب إلى مكان يمثل هذا الارتفاع. فإني أعلم أن شقيقتي لا تقوى ربّما على تحمّله، وبأية حالة مزريّة قد تعود! وهي ليست من جانب آخر على مايرام في هذه الفترة.. لقد أصبت حقّاً بنوبة قويّة إلى هذا الحد! ولن تقوى في الغد على الوقوف! وكان يتلوّى ضحكاً، لا عن خبث بل للسبب نفسه الذي ما كان من أجله يستطيع رؤية أعرج يسقط في الشارع أرضاً دون أن يضحك، أو التحدّث إلى أصمّ. «وقبل ذلك؟ كيف، لم تصب بواحدة منذ خمسة عشر يوماً؟ تدري أن ذلك عظيم جداً! حقّاً يجدر بك أن تأتي للإقامة في «فيتيرن» فيمكن أن تحدّث شقيقتي عن اختناقاتك.» أمّا في «أنكرفيل» فقد كان المركز «دومونبير» و«هو الذي، إذ لم يستطع الذهاب إلى «فيتيرن» لغيابه بقصد الصيد، جاء إلى القطار بجزمته وقبعة تزينها ريشة تدرج لمصافحة أقرباء له ومصافحتي في الوقت نفسه وهو يعلن لي عن زيارة لابنه يقوم بها في يوم من الأسبوع لايزعجني وأنّه يشكرني لاستقبالي له ويسعده أشدّ السعادة أن أحمله قليلاً على القراءة. أو هو السيّد «دو كريسبي» جاء، يقول، لانهجاز عمليّة هضمه، ويدنّخ غليونه ويقبل سيجاراً أو حتّى عدّة منها، وكان يقول لي: «ويحك! لست تقول لي عن يوم للقاتنا المقبل على طريقة «لوكولوس»؟ ليس عندنا مانقول؟ فاسمح لي أن أذكرك بأننا خلّفنا على السكة مسألة عائلتني «مونثومري». ولا بدّ من إنهاء ذلك. اعتمد عليك. وآخرون جاؤوا يبتاعون صحفهم فحسب. كذلك كان كثيرون يسترسلون في الحديث وإيائنا، من الذين شككت دوماً

أنه لا يتفق أن تجدهم فوق الرصيف في أقرب محطة إلى قصرهم الصغير إلا لأنه لم يكن لديهم ما يفعلونه سوى أن يلتقوا فترة من الزمن جماعة من معارفهم. وقصارى القول إن مواقف القطار الصغير هذه إن هي إلا إطار لحياة مجتمعية كأى إطار آخر. وهو نفسه كان يبدو وكأنه يعي ذلك الدور الذي أفرد له واكتسب شيئاً من لطف إنساني؛ فقد كان صبوراً لين السريكة ينتظر المتخلفين ماشاءوا له أن ينتظر، بل كان يتوقف بعدما انطلق ليلملم من يشورون له، فكانوا يجرون إذ ذاك على إثره يلهثون فيشبهونه في هذا ولكنهم يختلفون عنه في أنهم كانوا يلحقون به بأقصى السرعة فيما لا يلجأ هو إلا إلى بطء متعقل. وهكذا لم تعد «هيرمونفيل» و«أرامبوفيل» و«انكرفيل»، لم تعد حتى تذكرنى بأيجاد الغزو النوماندي وقسوته، وهي غير قاتعة بأن تكون نزع عنها تماماً الحزن الذي لانفسير له والذي رأيتها بالأمس غارقة فيه في برودة المساء. و«دونسيير»! كم بقى طويلاً في هذا الأسم، بالنسبة إليّ، حتى بعدما عرفتته وأفقت من حلمي، كم بقي فيه شوارع متعة في برودتها وواجهات مضاءة وطيور لذيذة! «دونسيير» لم تعد الآن سوى المحطة التي يصعد فيها «موريل»؛ و«اينغفيل» تلك التي كانت تنتظرنا فيها عموماً الأميرة «شيرياتوف»؛ و«مينفيل» المحطة التي كانت تنزل فيها «ألبيرتين» في عشيائ الصحو حينما تدفعها الرغبة، وليس بها فرط تعب، إلى أن تطيل فترة بعد رفقتنا إذ كاد لا يلقى، بفضل طريق مختصره، مسيرة أطول تقطعها مما لو كانت نزلت في «بارفيل». وكنت لأشعر من بعد بالخوف والقلق من العزلة اللذين اعترياني في المساء الأول، وليس ذلك فحسب بل ماعد أخشى أن يستفيقا ولا أن أحسّ بالغربة أو أجد نفسي وحيداً على هذه الأرض التي لانتج أشجار الكستناء والطرفاء فحسب، بل صدقات تشكّل على طول المسيرة سلسلة طويلة متقطعة كسلسلة التلال الضاربة إلى الزرقة، تختفي أحياناً داخل تجاويف الصخر أو خلف زيزفون الشوارع ولكنها توفد في كل موقف أحد النبلاء اللطاف الذي كان يقبل بمصافحة ودية ليقطع طريقى ويحول دون إحساسي بطوله ويعرض عليّ متابعته وإياي إن دعت الحاجة. وسيكون آخر في المحطة التالية إلى حدّ أن صافرة القطار الصغير ما كانت تدعونا لفراق صديق إلا لتفسح لنا في لقاء آخرين. فبين القصور الأقلّ قرباً والسكّة الحديدية التي تسير بمحاذاتها بما يقارب خطو شخص يسير مسرعاً كانت المسافة قليلة إلى حدّ كنّا استطعنا معه تقريباً، لحظة كان أصحابها ينادون علينا من فوق الرصيف أمام غرفة الانتظار، أن نظنّ أنهم يفعلون من عتبة بابهم ومن نافذة غرفة نومهم وكأنما سكّة المحافظة لاتعدو كونها شارعاً في مقاطعة ريفية وقصر النبيل الريفي المنعزل سوى فندق في المدينة. حتى في المحطات القليلة التي ما كنت اسمع فيها نحيّة المساء من أحد كان للصمت اكتمال مغدّ ومهدئ لأنني أعلم أنه يتشكّل من رقاد أصدقاء بكرّوا في النوم في القصر الريفيّ القريب الذي لعلّ مجيئى كان صادف فيه ترحيباً وسروراً لو اضطرت أن أوقفهم لأسألهم بعض خدمات الضيافة. فعلاوة على أن العادة تملأ وقتنا إلى حدّ لا يبقى لنا معه في ختام بضعة شهور لحظة واحدة خالية من المشاغل في مدينة كان النهار يوفّر لنا لدى الوصول إليها جاهزية ساعته الاثنتي عشرة، ما كان ليخطر لي من بعد، إن شغرت واحدة منها مصادفة، أن استخدمها لزيارة كنيسة سبق أن جئت فيما مضى من أجلها إلى «باليك»، ولاحتي أن أقابل موقعاً رسمه «ايلستير» بالخطيطة التي شاهدتها له في منزله، بل للمبادرة إلى القيام بلعبة شطرنج إضافية في منزل السيّد «فيريه». فقد كان للتأثير الهدام، كما للسحر كذلك، الذي اكتسبته منطقة «باليك» أن تصبح في نظرى منطقة معارف حقيقية. ولكن كان توزّعها الجغرافي وزراعتها

التوسّعية على طول الساحل زروعاً متنوّعة يكسبان الزيارات التي أقوم بها لهؤلاء الأصدقاء المختلفين شكل الرحلة المحتوم فقد كانا إلى ذلك يقصران الرحلة على أن لا تتضمّن سوى المتعة الاجتماعية التي يوليها تعاقب الزيارات. وإنّ أسماء الأماكن ذاتها، وهي فيما مضى مثيرة بالنسبة إليّ إلى حدّ أن مجرد «دليل القصور»، إمّا قلبت صفحاته في الباب المخصّص لمقاطعة المانش، كان يبعث في نفسي مقدار ما يبعث دليل السكك الحديدية من انفعال أضحت مألوفة لديّ إلى حدّ أني كنت استطعت أن أتصفّح ذلك الدليل نفسه في الصحيفة المخصّصة لـ «البليك» - «دوفيل» عن طريق «دونسيير» بذات السعادة المطمئنة التي أتصفّح بها قاموساً للعناوين. وفي هذا الوادي الذي يطفح حسّاً اجتماعيّاً والذي أحسّ أنّ تعلقاً في جنباته طائفة من أصدقاء كثير بارزة للعيان أو خفيّة لم تعد صرخة المساء الشعرية هي صرخة البومة أو الضفدعة، بل «كيف حالك؟» يطلقها السيّد «دو كريكتو» أو «خيريه» (١) يقولها «بريشو». ولم يعد الجوّ فيه يوقظ صنوف القلق وكان، وقد حملّ انبعاثات بشرية محضة، سهل المتنفّس مهدّئاً بما يجاوز الحدّ. والمكسب الذي جنّيته منه أنني ماعدت أرى الأشياء على الأقلّ إلا من وجهة نظر عملية. وأخذ الزواج من «البيرتين» يبدو لي ضرباً من الجنون.

(١) «السلام عليك» في اليونانية كما يتصنّعها الجامعي «بريشو».

## الفصل الرابع

[تحوّل مفاجئ بانجاء «ألبيرتين» - أسي في الشروق - انطلاقي في الحال إلى باريس بصحبة «ألبيرتين».]

كنت أنتظر محض مناسبة للقطيعة النهائية، وذات مساء، وإذا كانت والدتي ترمع الذهاب في الغد إلى «كومبريه» حيث تمضي إلى إحدى شقيقات أمها تعضدها في مرضها الأخير وتركني كيما أفيد، مثلما لعلّ جدتي كانت تريد، من هواء البحر، أخبرتها أنني صممت تصميماً لارجعة فيه أن لا أتزوج «ألبيرتين» وسأكفّ قريباً عن زيارتها. وقد سرتني أن وسعني بتلك الكلمات إشاعة السرور في صدر والدتي عشية ذهابها. وهي لم تخفني أن الأمر سرّها بالفعل سروراً بالغاً. كان لا بدّ لي أيضاً من الإفصاح عن ذلك لـ «ألبيرتين». وإذا كنت عائداً وآياها من قصر «لاراسيلير» بعدما نزل الخلع، هؤلاء في «سان مارس لوفيتو»، وأولئك في «سان بيير ديزيف» وآخرون في «دونسير»، وأحسستني سعيداً بصورة خاصة ومتجرّداً عنها عقدت العزم، ولم يبق في عربة القطار الآن سوانا نحن الاثنين، على مباشرة هذا الحديث أخيراً فيما بيننا. والحقيقة على أية حال أن تلك التي كنت أحبّها من بين فتيات «بالبيك»، وإن تكن غائبة في هذه الفترة هي وصديقاتها، ولكنها ترمع العودة (كنت آس بجميعهنّ لأن كلّ واحدة منهنّ كانت تحمل بالنسبة إليّ، شأن في اليوم الأول، شيئاً من جوهر الأخرى وكانت كأنما من جنس فريد من نوعه)، إنما كانت «أندريه»، وبما أنها ترمع المحيئة ثانية إلى «بالبيك» بعد بضعة أيام فالأكيد أنها ستأتي في الحال للقائي، وحيث بغية أن أظلّ حراً وأن لا أتزوجها إن كنت لا أبغي ذلك ليمكنني الذهاب إلى البندقية، ولاستبقائها لي كلياً حتى ذاك فإن الوسيلة التي سألجأ إليها هي أن لا يبدو عليّ كثيراً أنني أتى إليها، وسأقول لها فور وصولها حينما يجري بيننا الحديث: «من أسف أن لا أكون التقيت قبلاً هذا ببضعة أسابيع! فإني كنت أحببتك. أما الآن فقلبي مشغول. ولكن لا أهمية للأمر، سوف نلتقي كثيراً، فإني حزين من جرّاء حبّي الآخر وسوف تساعدني على توفير العزاء لي». كنت ابتسم في نفسي وأنا أفكر بهذا الحديث، فربما أوهمت «أندريه» بهذه الطريقة أنني لا أحبّها حقاً، وهكذا فأنها لن تملني وأفيد من حنانها بغبطة وهدوء. ولكن كلّ هذا ما كان يفضي في النهاية إلا إلى زيادة ضرورة التحدّث إلى «ألبيرتين» حديثاً جدياً كي لا أتصرف تصرفاً غير لبق؛ وبما أنني كنت مصمماً على الانصراف إلى صديقتها فقد كان لا بدّ أن تعلم تمام العلم، هي «ألبيرتين»، أنني لا أحبّها. وكان لا بدّ أن أقوله لها في الحال إذ يمكن أن تحضر «أندريه» بين يوم وآخر. ولكنني شعرت، إذ كنّا نقترّب من «پارفييل» أنه لن يتسع لنا الوقت في ذاك المساء وأنّ الأفضل أن نؤجل إلى الغد ما كان الآن مقرراً تقريراً لارجعة فيه. فاكتمت والحالة هذه بالتحدّث إليها عن العشاء الذي تناولناه في منزل آل «فيردوران». وقالت لي لحظة كانت تعود إلى ارتداء معطفها وقد غادر القطار «أنكرفيل» منذ قليل، وهي آخر محطة قبل «پارفييل»: «إذاً في الغد آل «فيردوران» مرّة أخرى، ولا يغب عنك أن من سيأتي لاصطحابي هو أنت». ولم أملك نفسي عن الإجابة ببعض الجفاء: «أجل، إلا إذ «أخلفت»، فإني أخذت أجد هذه الحياة سخيفة حقاً. وفي كلّ الأحوال لا بدّ لي، إن ذهبت إلى هناك، وبغية أن لا يكون الوقت الذي أقضيه في «لاراسيلير» وقتاً ضائعاً تماماً، من التذكير بسؤال السيّد «فيردوران» أمراً يمكن أن يثير اهتمامي إلى حدّ كبير ويكون موضع دراسة لي ويمتعي فقد اتفق لي بالحقيقة

القليل جداً من المتعة في «البليك» هذا العام.» - «ليس ذلك بلطف تجاهي، ولكنني غير حاقدة عليك أذ أحسك مضطرب الأعصاب. فما هي هذه المتعة؟» - «أن تأمر السيّد «فيردوران» من يعزف لي أشياء لموسيقى تعرف مؤلفاته تمام المعرفة. وأنا أيضاً أعرف إحداها، ولكنما يبدو أن ثمة غيرها وإنني بحاجة أن أعلم إن كانت منشورة وإن كانت تختلف عن الأعمال الأولى.» - «أي موسيقى؟» - «ياصغيرتي العزيزة، بعدما أكون قلت لك أنه يدعى «فانتوي»، هل تكونين كسبت الكثير؟» يمكن أن نكون قلبنا كلّ الأفكار الممكنة ولا تكون الحقيقة داخلتها في يوم، فإذا هي توجّه من الخارج لسعتها الشنيعة وتجرحنا إلى الأبد. وأجابتني «ألبيرتين» وهي تنهض واقفة لأن القطار يوشك أن يتوقّف: «لست تدري كم تضحكني، فليس يهمني ذلك أكثر ممّا نظنّ فحسب، بل يمكنني حتّى بدون السيّد «فيردوران» أن أحصل لك على كلّ ماتشاء من معلومات. تتذكّر أنني كلمتك عن صديقة أكبر منّي سنّاً كانت لي أمّاً وأختاً وقد قضيت معها في «تريسته» أجمل سني حياتي وسوف ألتقيها على آية حال بعد بضعة أسابيع في «شيربور» ومنها نساfer سويرة (والأمر ينطوي على غرابة، ولكنك تعلم كم أحبّ البحر)، حسن، هذه الصديقة (أه ! ليست على الإطلاق من صنف النساء الذي يمكن أن يخطر لك!)، فانظر كم الأمر غريب، هي بالضبط أفضل صديقة لابنة «فانتوي» هذا، وإنني أعرف بالمقدار نفسه ابنة «فانتوي». وأني مادعوتها في يوم إلا شقيقتي الكبيرين. ليس يسووني أن أريك أنّ صغيرتك «ألبيرتين» يمكن أن تفيدك في أمور الموسيقى هذه التي تقول من جانب آخر، وبحقّ، إنني لا أفقه فيها شيئاً. ولدى سماعي هذه الكلمات التي قيلت فيما كنّا ندخل محطة «بارفيل»، بعيداً جداً عن «كومبريه»، و«موجوفان»، وبعد موت «فانتوي» بفترة طويلة، كان ثمة صورة تضطرب في فؤادي، صورة ظلّت محفوظة لسنوات طويلة احتياطاً، لعلني حتّى لو أمكنتني أن أحزر فيما كنت اختزنها بالأمس أنّها تتمتع بتأثير سيّء، ولعلني ظننت أنّها فقدته كلياً على مرّ الزمن، وهي ظلّت حيّة في أعماقي - على غرار «أوريست» الذي حالت الآلهة دون موته كيما يعود في اليوم المحدّد إلى بلده ليشار لمقتل «أغاممنون» - في سبيل تعذيب وعقابي ربّما (من ذا يدري ؟) أن تركت جدّتي تموت؛ وطلعت فجأة من أعماق الليل، الذي بدا أنّها دفنت فيه إلى الأبد، تضرب على غرار منتقم كي تدشنّ لي حياة رهيبة مستحقّة جديدة، ربّما كذلك. كي تبرز في عينيّ النتائج المشؤومة التي تولدها الأفعال السيئة إلى المآل النهائية، لا بالنسبة لمن اقترفوها فحسب، بل لمن لم يفعلوا - أو ظلّوا أن لم يفعلوا - سوى متابعة مشهد غريب ومسل، كحالي أنا للأسف في ختام ذلك النهار البعيد في «موجوفان»، وقد اختبأت خلف دغل حيث فسحت في المجال خطيراً لتتسع في داخلي الطريق المشؤومة المعدة لصنوف العذاب، طريق «المعرفة» (مثلما سبق أن أصغيت مجاملاً إلى قصّة غراميات «سوان»). وفي هذا الوقت نفسه داخلني من أعظم ألم يصيبني شعور يكاد يكون مستكبراً، يكاد يكون متهللاً، شعور إنسان لعلّ الصدمة التي حلّت به دفعته دفعاً بلغ بها جداً ما كان لأيّ جهد أن يرفعه إليه. فإنّما «ألبيرتين» في صداقتها للآنسة «فانتوي» ولصديقتها، «ألبيرتين» ممارسة ممتحنة للسحاق، أنما كانت، إزاء ماسبق أن تصوّرت عبر أعظم شكوكي، ماكان يساوي المسامح الصغير في معرض عام ١٨٨٩، والذي كادوا لا يأملون منه أن يصل بين ركن بيت وبيت آخر في مواجهة الهاتف الذي يرفّ فوق الشوارع والمدن والحقول والبحار يصل بين البلدان. كانت أرضاً مجهولة ومخيفة تلك التي حططت فيها منذ قليل ومرحلة جديدة تنفتح أمامي لعذابات لا

أوقعها. ولئن كان طوفان الواقع هذا الذي يغمرنا، لئن كان هائلاً في مقابل افتراضاتنا المخجلة الزهيدة فقد كان مستشعراً فيها. إنه دون شك من قبيل ما اطلعت عليه منذ قليل، كان من قبيل صداقة «ألبيرتين» والأنسة «فانتوي» وشيئاً ما كان وسع فكري أن يبتدعه ولكني كنت أوجس منه خيفة على نحو غامض حينما كنت أضطرب اضطراباً مألوشاً وأنا أرى «ألبيرتين» بالقرب من «أندريه». فكثيراً ما لاندب في العذاب مسافة كافية لقصور في فكرنا المبدع فحسب. وإن الواقع الأكثر رهبة إنما يولينا إلى جانب العذاب بهجة اكتشاف هام لأنه يقتصر على إعطاء شكل جديد واضح لما كنا نحتره منذ فترة طويلة دون أن نرتاب به. كان القطار قد توقف في «بارفيل» ولما كنا المسافرين الوحيديين فيه فقد صرخ العامل بصوت أواه شعوره بلا جدوى المهمة وذات العادة التي تدفعه مع ذلك إلى القيام بها وتوحي إليه بالدقة والتراخي في آن معاً، بل وأكثر من ذلك رغبته في النوم، صرخ يقول: «بارفيل». وقامت «ألبيرتين»، وهي تجلس قبالي وإذ رأت أنها وصلت إلى مكان إقامتها، يبضع خطوات من ركن العرببة التي كنا فيها وفتحت الباب. لكن تلك الحركة التي كانت تنجزها على هذا النحو بغية النزول كانت تمزق فؤادي على نحو لا يحتمل كما لو أنه، خلافاً للموقع المستقل عن جسمي الذي كان يبدو أن جسم «ألبيرتين» يشغله على بعد خطوتين منه، كما لو لم يكن ذاك الفاصل المكاني الذي ربما اضطرب رسام يعني مطابقة الواقع أن يخطئ بيننا سوى مظهر ليس إلا وكما لو انبغى لمن يشاء أن يعيد رسم الأشياء وفق الواقع الحقيقي أن يقيم «ألبيرتين» الآن على مسافة مني بل في داخلي. لقد بلغ من إيلامها لي في ابتعادها عني أن جذبتها من ذراعها إذ لحقت بها جذبة يائس. وسألتها قائلاً: «هل يستحيل مادياً أن تأتي هذا المساء للنوم في «بالبيك»؟ - «مادياً لا، ولكن النعاس يشغل عليّ». - «ربما أدت لي خدمة لانتقدّر بشمن..» - «وليكن إذاً، مع أنني لأفهم؛ لم لم تفصح عن ذلك من قبل؟ ولكني باقية». كانت أمي نائمة حينما عدت إلى غرفتي بعدما أوصيت أن تعطى «ألبيرتين» غرفة في دور آخر. وجلست قرب النافذة وأنا أغالب زفرائي كي لا تسمعني والدتي التي لا يفصلها عني سوى حاجز رقيق. لم يخطر لي حتى أن أغلق المصارع، إذ رأيت في لحظة معينة وأنا أرفع عيني، رأيت قبالي في السماء ذات الضوء المبهم الزهيد الذي من حمرة خامدة والذي كنا نشاهده في مطعم «ريفييل» في دراسة كان «ايلستير» وضعها عن غيب شمس. وتذكرت الحماسة التي أولتني إياها تلك الصورة نفسها حينما رأيتها من القطار في أول يوم من وصولي إلى «بالبيك» صورة مساء ما كان يسبق الليل بل نهراً جديداً. أما الآن فلن يكون أي نهار من بعد جديداً بالنسبة إليّ ولن يوقظ لدي من بعد الرغبة في سعادة مجهولة وسيطيل فحسب صنوف عذابي إلى أن لا أقوى من بعد على احتمالها. إن حقيقة ماسبق أن قاله لي «كوتار» في كازينو «بارفيل» لم يعد موضع شك في نظري. وإن ما سبق أن خشيته وراودني منه شك غامض عن «ألبيرتين» منذ فترة طويلة وما كنت استخلصه بالفطرة من كامل كيائها ومادفعتني محاکماتي العقلية التي يوجهها شوقي شيئاً فشيئاً إلى إنكاره إنما كان حقيقة! فما عدت أبصر خلف «ألبيرتين» جبال البحر الزرقاء، بل حجرة «مونيوفان» التي كانت ترتع في ذراعها بين ذراعي الأنسة «فانتوي» بتلك الضحكة التي تسمعك فيها كأنما النبرة المجهولة لاستمتاعها. إذ كيف كان للأنسة «فانتوي»، و«ألبيرتين» بمثل جمالها، أن لا تطلب إليها، وبها ما بها من ميول، إشباعها؟ والبرهان على أن «ألبيرتين» لم يصدمها الأمر ووافقت أنهما لم تختصما وأن الألفة بينهما لم تن تعاطم. وحركة «ألبيرتين» اللطيفة وهي



تضع ذقتها على كتف «روزموند» وتنتظر إليها مبتسمة وتطبع قبلة على عنقها، تلك الحركة التي ذكرتني بالآنسة «فانتوي» والتي ترددت مع ذلك في معرض تفسيرها في أن أسلم بأن ذات الخط الذي ترسمه إشارة معينة ينتج حتماً عن الميل نفسه، من ذا يعلم إن لم تكن «ألبيرتين» تعلمتها بكل بساطة من الآنسة «فانتوي» : وشيئاً فشيئاً أخذت السماء الخادمة تشتعل. وأنا الذي لم يستيقظ في يوم إلى الآن دون أن يتسم لأكثر الأشياء أتضاعاً، لكوب القهوة بالحليب وصوت المطر وهزيم الرياح، أحسست أن النهار الذي سيطلع في لحظات وجميع الأيام التي ستعقبه لن تحمل إليّ من بعد أملاً بسعادة مجهولة بل تطاولاً لعذابي. كنت لأزال أتشبث بالحياة، وأعلم أن ليس ما انتظره منها سوى القسوة عليّ. وجريت إلى المصعد على الرغم من الساعة غير المناسبة لاستدعاء عامل المصعد الذي كان يقوم بوظيفة حارس ليليّ وسألته الذهاب إلى غرفة «ألبيرتين» ليقول لها إن ثمة أمراً هاماً أودّ نقله إليها وإن كان بوسعها استقبالي. وعاد يقول لي: «تفضل الآنسة المحيية بنفسها وستكون هنا بعد قليل». ودخلت «ألبيرتين» بالفعل بعد قليل ترتدي مبدلاً. فقلت لها بصوت خافت جداً وأنا أوصيها بأن تتحاشى رفع صوتها كي لا توقظ والدتي التي ما كان يفصلنا عنها سوى هذا القاطع الذي كانت رفته تشبه فيما مضى، حين كانت ترسم فيها على أحسن وجه مقاصد جدتي، نوعاً من الشفافية الموسيقية، وهي اليوم مزعجة وتضطربنا للتهامس: «ألبيرتين» إني خجل لمضايقتي لك، هيا، لا بد لي، بغية أن تفهمي، من أن أقول لك شيئاً لاتعرفينه. حينما جئت إلى هنا هجرت امرأة اضطرت أن أتزوجها وكانت مستعدة أن تتخلّى عن كل شيء من أجلي. كان مقرراً أن تسافر في هذا الصباح، وإني منذ أسبوع أتساءل في كلّ يوم إن كانت ستوافر لي الشجاعة بأن لا أبرق لها أنني عائد. وقد توافرت لي تلك الشجاعة، ولكنما رأييني تعيساً حتى ظننت أنني سأقتل نفسي. ولذلك سألتك مساء البارحة إن كان يمكن المحيية للنوم في «البليك». فاني وددت، لو أنبغى أن أموت، أن أودعك. وأطلقت العنان لدموعي التي جعلتها قصتي الخيالية تبدو طبيعية. وصاحت «ألبيرتين» قائلة: «يا صغيري العزيز، لو اني علمت لكنت قضيت الليل إلى جانبك»، حتى دون أن يخطر ببالها أنني ربما تزوجت تلك المرأة وأن فرصتها في «زواج ثري» تتلاشى لشدة وصدق تأثرها بغمّ أستطيع أن أخفي عنها سببه. لاحقيقته وقوته. قالت لي: «لقد شعرت البارحة على أية حال شعوراً واضحاً على مدى الطريق من قصر «لاراسيلير» أنك كنت تأثر الأعصاب حزناً، وكنت أخشى أمراً ما». والحقيقة أنّ حزني لم يبدأ إلا في «پارفيل» وثورة الأعصاب المختلفة كلياً والتي كانت «ألبيرتين» لحسن الحظ تخلط بينه وبينها كانت ناجمة عن الضيق الذي بي من العيش وإياها بضعة أيام بعد. وأضافت قولها: «لا أفارقك من بعد وسأمكث طوال الوقت هنا». كانت تقدّم لي - ووحدها تستطيع أن تفعل - الدواء الوحيد المضادّ للسمّ الذي يخرقني، والمجانس له من جانب آخر، فهذا رفيق بي والآخر قاس عليّ، وكلاهما مُستمدّان من «ألبيرتين». وفي هذه اللحظة كانت «ألبيرتين» - الداء الذي بي -، وقد تراخت في التسبّب بعذابي، تدعني - هي «ألبيرتين» الدواء - رفيق الحاشية كما هو شأن الناقه. ولكنني كنت أفكر بأنّها تزعج الرجل عما قليل من «البليك» إلى «شيربور» ومن هناك إلى «تريسته». وسوف تعود عاداتها بالأمس إلى الظهور. وما كنت أبغيه قبل كلّ شيء إنما الحؤول دون أن تستقلّ «ألبيرتين» المركب ومحاولة اصطحابها إلى باريس. صحيح أنّها ربما استطاعت أكبر ممّا تفعل من «البليك»، ولكننا قد ننظر في الأمر في باريس، فربما أمكنني أن أسأل السيّدة «دو غير مانت» التأثير بصورة غير

مباشرة على صديقة الأنسة «فانتوي» كي لاتمكث في «تريسته» وكي تحملها على القبول بمرکز في مكان آخر، ربّما لدى الأمير «دو...» الذي كنت التقيته في منزل السيّدة «دو فيلپا ريزيس» ولدى السيّدة «دو غير مانت» نفسها. وربّما استطاع هذا الأخير، حتّى لو أرادت «ألبيرتين» الذهاب إلى منزله لالتقاء صديقتها، ربّما استطاع، وقد أخطرت السيّدة «دو غير مانت»، أن يحول دون لقائهما. أجل، كان بوسعي أن أقول في نفسي إن «ألبيرتين» واجدة في باريس، إن كانت بها تلك الميول، أشخاصاً كثيرين تشبهها وإياهم. ولكن لكلّ بادرة غير خصوصيّة وهي تحمل سمة الشخص الذي أثارها- والشخص هذه المرّة صديقة الأنسة «فانتوي». - لقد كانت صديقة الأنسة «فانتوي» هي التي ظلت شغلي الشاغل الأكبر. إن الهوى الغامض الذي سبق أن فكّرت عبره بالنمسا لأنها البلد الذي جاءت منه «ألبيرتين» (إذ سبق أن كان عمّها مستشاراً للسفارة فيها) ولأنّ تفردّها الجغرافي والعرق الذي يسكنها وأوايدها ومناظرها كان بوسعي أن أتأملها، وكأنّما في أطلس جغرافي كأنّما في مجموعة مناظر، في ابتسامة «ألبيرتين» وسلوكها، هذا الهوى الغامض كنت أحسّ به أيضاً، ولكن عبر انقلاب في العلامات، في نطاق القطعة. أجل، من هنا جاءت «ألبيرتين». وهنا كانت على يقين من أنّها واجدة في كلّ بيت إمّا صديقة الأنسة «فانتوي» أو أخريات غيرها. وعادات الطفولة تزعج العودة من جديد، وسيجرى الاجتماع بعد ثلاثة شهور بداعي الميلاد ثم رأس السنة، والتاريخان حزينان بحدّ ذاتهما في نظري جرّاء الذكرى اللاواعية للنعم الذي بعثه في نفسي حينما يفصلاني بالأمس عن «جلبيرت» على مدى عطلة رأس السنة. فسوف يتّفق لـ «ألبيرتين» مع صديقاتها هناك، في أعقاب حفلات العشاء الطويلة ومآدب سهرات الميلاد حينما يكون الكلّ جذّالين يزخرون نشاطاً، تلك الوقفات نفسها التي رأيتهما تتخذها مع «أندريه»، في حين كان وداد «ألبيرتين» تجاهها برّياً، بل، من ذا يدري؟ ربّما تلك التي قرّبت أمامي الأنسة «فانتوي» تلاحقها صديقتها في «موجخوفان». وكنت الآن أعطي الأنسة «فانتوي»، فيما تدغدغها صديقتها قبل أن تهوي عليها، وجه «ألبيرتين» الملتهب، «ألبيرتين» التي سمعتها تطلق في هروبها ثم استسلامها ضحكاتها الغريبة العميقة. فما عساها كانت، إمّا قورنت بالعذاب الذي أكابده، الغيرة التي أمكن أن أحسّ بها يوم التقى «سان لو» «ألبيرتين» بصحّتي في «دونسير» وقامت هي بمضايقات وجهتها إليه؟ وتلك التي انتابته إذ عدت أفكّر بالمدرّب الأوّل المجهول الذي أمكن أن أدين له بالقبيلات الأولى التي منحتني إياها في باريس يوم كنت أنتظر رسالة الأنسة «دوستير ماريا»؟ تلك الغيرة التي سبّتها «سان لو»، أو شاب آخر، أيّ شاب ما كانت شيئاً يذكر. فلعلّه كان أمكن أن أخشى في هذه الحالة خصماً كنت حاولت التغلّب عليه. ولكنّ الخصم هنا لم يكن شبيهاً بي، وكان سلاحه مختلفاً ولا أستطيع قتاله على ذات الأرض وإعطاء «ألبيرتين» اللذات نفسها ولاحتي تصوّرها تصوّراً دقيقاً. ولعلنا في كثير من فترات حياتنا نبادل كامل المستقبل بسلطان عديم الشأن في حدّ ذاته. لقد كنت تخليّتها فيما مضى عن مكاسب الحياة جميعاً للتعرف على السيّدة «بلاتان» لأنّها كانت من صديقات السيّدة «سوان». وكنت اليوم تحمّلت كلّ صنوف العذاب في سبيل أن لا تذهب «ألبيرتين» إلى «تريسته»، وسمّتها، إن بدا ذلك غير كاف، أخرى غيرها وعزلتها وسجنّتها وأخذت منها القليل ممّا تملك من مال كي يحول العوز مادياً دون إتمامها الرحلة. وإنّ ما كان كحالي بالأمس حين أبغى الذهاب إلى «باليك»، يدفعني إلى الرحيل إنّما هي الرغبة في كنيسة فارسيّة وعاصفة في الفجر، كذلك ما كان يمزق فؤادي وأنا أفكّر

بأن «ألبيرتين» ربما ذهبت إلى «تريسته» فأنها ربما قضت فيها ليلة الميلاد برفقة صديقة الآنسة «فانتوي» : ذلك أن الخيال حينما يدل طبيعته وينقلب حساسية لا يتوافر له من جرّاء ذلك عدد أكبر من الصور المتوافقة. فلو قيل لي إنها غير موجودة في هذه الفترة في «شيربور» أو «تريسته» وأنها لن تتمكن من لقاء «ألبيرتين» ، كم كنت بكيت عذوبة وسروراً! وكم كانت حياتي ومستقبلها تبدلاً مع أنني كنت أعلم تمام العلم أن تحديد موضع غيرتي كان جزافياً وإنّ بإمكان «ألبيرتين» إن كانت بها تلك الميول أن تشبعها مع آخريات. ولعلّ هاتيك الفتيات على أي حال، لو استطعن لقاءها في مكان آخر، لعلهن ماعذبن فؤادي إلى هذا الحد فإنه من «تريسته» من هذا العالم المجهول الذي كنت أحسّ أن الحياة فيه تروق «ألبيرتين» وفيه ذكرياتها وصداقاتها وعشق طفولتها كان ينبعث ذلك الجوّ العدائي الغامض كالجوّ الذي كان يتصاعد حتى غرقتي في «كومبريه» من قاعة الطعام حيث اسمع أمي تتحدث وتضحك مع الغرباء في ضجيج شوكلات الطعام، أمي التي لن تأتي لتتمنّي لي ليلة سعيدة؛ وكالجوّ الذي سبق أن ملأ في نظر «سوان» البيوت التي كانت تروح «أوديت» تبحث فيها ليلاً عن ملذات يصعب تصوّرها. ولم أعد أفكر الآن في «تريسته» وكأنما التفكير يولد رائح حيث الجنس البشري غارق في فكره وساعات الغروب مذهبة وأجراس الكنائس حزينة، بل كأنما التفكير بمدينة ملعونة وددت لو أحرقتها في الحال وأمحوها من عالم الواقع. كانت تلك المدينة مغروسة في قلبي كأسلة دائمة. لقد كان يروغني أن أدع «ألبيرتين» ترحل عمّا قليل إلى «شيربور» و«تريسته» ، بل حتى أن تلبث في «بالبيك» . فقد كان يبدو لي الآن وقد أولاني الكشف عن علاقة صديقتي الحميمية بالآنسة «فانتوي» ما يشبه اليقين أن «ألبيرتين» كانت في سائر الأوقات التي لا تكون فيها بصحتي (وكان ثمة أيام بطولها لا أستطيع فيها لقاءها بسبب عمّتها) واقعة بين يدي بنات عمّ «بلوك» وربما غير هن. كانت فكرة إمكان لقاءها بنات عمّ «بلوك» في هذا المساء عينه تثير جنوني. لذلك أجبتها بعدما قالت لي إنها لن تفارقني على مدى بضعة أيام: «ولكنما وددت الذهاب إلى باريس. أفلا تذهبين معي ؟ أفلمست تودين المجيء للسكنى قليلاً ولأنا في باريس ؟» كان لا بد أن أحول دون بقائها وحدها مهما كلف الثمن، بضعة أيام على الأقل، وأن أحتفظ بها بالقرب مني لأتيقن من أنها لن تستطيع لقاء صديقة الآنسة «فانتوي» . وربما عنى ذلك في الحقيقة سكنها بمفردها إلى جانبي لأنّ والدتي استغلت جولة تفتيشية يعتزم والدي القيام بها فاخترت لنفسها بمثابة واجب عليها أن تنصاع لمشيئة جدتي التي كانت ترغب إليها أن تمضي عدّة أيام إلى «كومبريه» لقضاءها بالقرب من إحدى شقيقاتها. وما كانت والدتي تحبّ خالتها لأنها لم تكن بالنسبة إلى جدتي، وما أرقتها تجاهها، الشقيقة التي كان ينبغي أن تكون. وهكذا يتذكّر الأولاد، وقد أصبحوا كباراً، يتذكرون بحقد من كانوا سيئين إزاءهم. لكنّ والدتي إذ أصبحت مثل جدتي، هذه التي لا تقوي على الحقد، فإن حياة والدتها كانت بالنسبة إليها بمثابة طفولة طاهرة بريئة تمضي لتستقي منها تلك الذكريات التي كانت عذوبتها أو مرارتها تضبط أفعالها مع هؤلاء وأولئك. ولعلّ خالتي كانت تستطيع تزويد أمي ببعض تفاصيل لا تقدّر بثمن، ولكنّها ربما حصلت عليها الآن بصعوبة إذ إن خالتها مرضت مرضاً شديداً (مرض السرطان يقولون) ، وكانت تلوم نفسها أن لم تذهب قبل ذلك لتؤانس والدي في سفره ولا تجد في ذلك سوى حجة إضافية لتفعل ما كانت فعلت والدتها؛ ولما كانت تذهب في ذكرى وفاة والد جدتي، والذي كان والدًا في غاية السوء، تحمل إلى قبره أزهراً تعودت جدتي أن

تحملها إليه، هكذا كانت والدتي تودّ بالقرب من القبر الذي يوشك أن ينفتح أن تحمل المحادثات الرقيقة التي لم تبادر خالتي إلى تقديمها لجذتي. وفي أثناء إقامتها في «كومبريه» سوف تهتمّ والدتي ببعض الأعمال التي رغبت جذتي على الدوام فيها، ولكن إن نفّذت بإشراف ابنتها فقط. لذلك لم تكن بعد قد بوشر بها إذ لا تودّ أمي بمغادرتها باريس قبل والذي إن تشعره أكثر من اللازم بعبء حداد كان يشارك فيه ولكننا لا يمكن أن يغمّه بقدر ما يغمها. وأجابتي «ألبيرتين» قائلة: «آه! ذلك غير ممكن في هذا الوقت. وعلى أي حال ما حاجتك إلى العودة إلى باريس بهذه السرعة بما أن هذه السيّدة قد رحلت؟» - «لأنني سأكون أكثر هدوءاً في مكان عرفت فيها مني في «بالبيك» التي لم ترها في يوم والتي أخذت أمقتها». أترى «ألبيرتين» أدركت فيما بعد أن هذه المرأة الأخرى لم تكن موجودة وأني لو وددت حقاً أن أموت في تلك الليلة فلأنها كشفت لي على نحو طائش أنها كانت على علاقة بصديقة الأنسة «فانتوي»؟ ذلك محتمل، وثمة فترات يبدو لي الأمر فيها مرجحاً. على أي في جميع الأحوال اعتقدت في ذلك الصباح بوجود تلك المرأة. فقالت لي: «ولكننا يجدر بك أن تتزوج هذه السيّدة بالصغرى، فسوف تسعد بذلك، وهي بدورها ستسعد بالتأكيد». فأجبتها بأن فكرة إمكان إسعاد تلك المرأة أوشكت بالفعل أن تقنعني. وفي الفترة الأخيرة عندما ورثت ميراثاً كبيراً يسمح لي بتوفير الكثير من الترف والمتع لزوجتي أوشكت أن أقبل بالتضحية بمن كنت أحبّ. وقلت، وقد أسكرني الامتنان الذي يبعثه في نفسي لطف «ألبيرتين» على هذا القرب الشديد من الألم الفظيع الذي سبق أن كانت سبباً فيه، ومثلما ربّما وعدت تلقائياً نادلاً المقهى الذي يسكب لك كأساً سادساً من مشروب ماء الحياة بمال وفير قلت لها إن زوجتي سوف تحوز سيّارة ويختاً، وإنه لمن المؤسف من وجهة النظر هذه، وبما أن «ألبيرتين» تحبّ إلى هذا الحد ركوب السيّارات واليخوت، أن لا تكون هي من أحبّ، وإني ربّما كنت الزوج المثالي لها، ولكن سوف نرى وربّما أمكن أن نلتقي لقاءات ممتعة. ولكني على الرغم من كلّ شيء، ومثلما يمسك المرء حتى حالة السكر عن أن يصيح بالمآرة مخافة الضربات أمسكت عما لعلني كنت اقترفت من حماقة في زمن «جيلبيرت» بأن أقول لها إنها هي، «ألبيرتين»، من أحبّ. «ترين، لقد أوشكت أن أتزوجها. ولكني مع ذلك لم تخالفني الجراحة في أن أفعل فما وددت أن أحمل امرأة على العيش إلى جانب شخص مريض إلى هذا الحدّ ومصدر ازعاج إلى هذا الحدّ». «ولكنك مجنون أنت، فالكلّ يودّ العيش بالقرب منك، وهبّا انظر كيف يسمى الجميع إليك. إنهم لا يتحدثون إلا عنك في منزل السيّدة «فيردوران» وفي أرفع طبقات المجتمع، ذلك مانقلوه إليّ. فهي إذا لم تكن لطيفة معك، تلك السيّدة، كيما توليك هذا الانطباع بالتشكيك في نفسك؟ ها أنا أرى ماهي، إنها شريرة، وإنني أمقتها. آه! لو كنت مكانها...» - «لا، لا، إنها لطيفة جداً، بل أكثر من لطيفة، أمّا بخصوص آل «فيردوران» والبقية الباقية فلست أبالي بهم. وأني باستثناء التي أحبّها، والتي تخلّيت عنها على آية حال، لا أحرص إلا على صغيرتي «ألبيرتين»، وليس سواها، على أن تلتقني كثيراً - على الأقلّ في الأيام الأولى»، أضفت قولي كي لا أخيفها ويمكنني أن أطلبها بالكثير في هذه الأيام -، «يستطيع أن يوفّر لي شيئاً من العزاء». ولم أشر إلا إشارة غامضة إلى امكان الزواج فيما أقول إن الأمر لا يمكن تحقيقه لأنّ طباعنا قد لا تتوافق. وعلى الرغم منّي كنت أميل بافراط، وأنا تلاحقني دوماً في غيرتي ذكرى علاقات «سان لو» - «راحيل حينما الربّ» و«سوان» بـ «أوديت»، إلى الاعتقاد بأنّي لما كنت أحبّ فما كان يمكن أن أحبّ وأن

المصلحة وحدها كان يمكن أن تشد امرأة إليّ. كان من الجنون دونما شك أن أحكم على «ألبيرتين» تأسيساً على «أوديت» و«راجيل» على أنها لم تكن هي، بل أنا، فإنّ ما كان يمكن أن أوحى به من عواطف هو ما كانت غيرتي تحمّلني على التقليل من شأنه. ومن هذا الحكم المغلوط ربّما نجمت دون شك مصائب كثيرة سوف تنزل بنا. «إذا ترفضين دعوتي إلى باريس؟» - «قد لا تؤدّ عمّتي أن أذهب في هذه الفترة. ومن جانب آخر حتّى لو أمكنتني فيما بعد أفلن يبدو الأمر مستغرباً أن أحلّ هكذا في بيتكم؟ فسوف يعلمون تماماً في باريس أنّي لست ابنة عمك.» - «حسن، نقول إنّنا مخطوبان بعض الشيء، فأني همّ لذلك مادمت تعلمين أن الأمر غير صحيح؟» كان جيد «ألبيرتين» الخارج بأكمله من قميصها قوياً مذهباً واضح المسام. وقبلتها قبلة بمثل طهارتها لو أنّني قبلت أمّي لأهدئ من غم طفولي كنت أظنّ حينذاك أنّي لن يسعني اقتلاعه من فؤادي في يوم. وتركتني «ألبيرتين» لترتدي ثيابها. وكان تغانيها على أيّ حال قد أخذ من ذاك يضعف، فمعد قليل قالت إنّها لن تفارقني مقدار ثانية. (وكنّت أحسّ تماماً أنّ تصميمها لن يدوم بما أنّي كنت أخشى، إن نحن مكثنا في «بالبيك»، أن تلتقي في هذا المساء نفسه، بنات عمّ «بلوك» بدوني.) ولكنّها الآن قالت لي منذ قليل: إنّها تبغي أن تقصد «مينفيل» وإنّها ستعود للقاء في العصر. فإنّها لم تنثن عائدة مساء البارحة ويمكن أن تكون ثمة رسائل لها؛ ثم إن عمّتها يمكن أن تقلق. وأجبت قائلاً: «إن لم يكن الأمر إلّا لذلك فيمكننا أن نرسل خادماً المصعد ليقول لعمّتك إنّك هنا وبجيتك برسائلك.» وإذ كانت راغبة في أن تبدو لطيفة. ومغيزة لإلزامها رغماً عنها، فقد تغضن جبينها ثم قالت في الحال بلطف شديد: «وليكن»، وأرسلت عامل المصعد. وما كانت «ألبيرتين» فارقنتني إلّا لحظتي حتّى جاء عامل المصعد يقرع قرعاً خفيفاً. ولم أكن أتوقّع أن يكون اتّسع له الوقت، أثناء ما كنت أتحدّث و«ألبيرتين»، للذهاب إلى «مينفيل» والعودة منها. لقد جاء يقول لي إن «ألبيرتين» سطرت كلمة لعمّتها وإنّها تستطيع المجيء إلى باريس في اليوم نفسه إن أردت. وقد أخطأت على آية حال بتكليفه المهمة جهاراً إذ كان المدير من ذاك، على الرغم من الساعة المبكّرة، على بينة من الأمر وأقبل يسألني مدعوراً إن كنت مستاء من أيّ شيء وإن كنت أرحل حقّاً وإن لم يكن بوسعي الانتظار بضعة أيام على الأقلّ، فإنّ الريح «خوافة» اليوم بعض الشيء (يقصد مخيفة). وما كان بوذي أن أوضح له أنّي أريد أيضاً كان الثمن أن لا تكون «ألبيرتين» بعد في «بالبيك» ساعة تقوم بنات عمومة «بلوك» بنزهتهنّ ولاسيّما في غياب «أندريه» التي كانت وحدها استطاعت أن تحميها وأن «بالبيك» كانت كتلك الأماكن التي يصمّم مريض لا يتنفّس من بعد فيها أن لا يقضي الليلة التالية في ربوعها ولو تجرّع الموت على الطريق. وكان عليّ من ناحية أخرى أن أقاوم توسّلات من ذات القبيل في الفندق أولاً حيث أصبحت عينا «ماري جينيست» و«سيلست ألباريه» بلون الدم. (كانت ماري تسمعك الزفرة المعجلة التي للسيل، فيما توصيها «سيلست»، وهي أبطأ حركة، بالهدوء. ولكن بعد ما همست «ماري» بالآيات الوحيدة التي كانت تعرفها: «في هذه الحياة الدنيا كلّ أزهار الليلك تموت» (١) لم تستطع «سيلست» أن تملك نفسها فسفحت دموعاً سخية على وجهها الذي بلون الليلك. على أنّي أظنّ أنّهما نسيّتا في فور حلول المساء نفسه.) ثمّ إنّني في القطار الصغير المحلي، وعلى الرغم من كلّ ما اتخذت من احتياطات كي لا يروني، صادفت السيّد «دو كامبرمير» الذي شحب

(١) من قصيدة للشاعر «سولي برودوم» (Sully Prudhomme) من القرن التاسع عشر.

لونه لدى رؤيته حقايبى إذ كان يعتمد عليّ لما بعد الغد. وأثار حنقي إذ أراد أن يقتعني بأن نوبات الاختناق التي تصيبني ناجمة عن تغير الطقس وأن تشرين الأول (أكتوبر) سوف يكون ممتازاً بالنسبة إليها وسألني إن كنت لا أستطيع في جميع الأحوال تأجيل سفري ثمانية أيام، والعبارة ربّما لم يثر غباؤها حنقي إلا لأن مايقترحه عليّ كان يؤلني.. وفيما كان يكلمني في عربة القطار، كنت أخشى في كلّ محطة أن يبرز أمامي، أشدّ هولاً من «هيريمبالد» أو «غيسكار»، السيد «دو كريسي» وهو يتوسّل أن توجّه إليه الدعوة، أو السيّد «فيردوران»، وهي بعد أبعت للعرب، في حرصها على دعوتي. ولكنّ الأمر لن يحدث إلا بعد بضع ساعات. ولم أكن بعد بلغت هذا الحدّ. كان عليّ أن أواجه فحسب شكايى المدير اليائسة. وصرفته إذ كنت أخشى أن ينتهي به الأمر إلى إيقاظ أمّي وإن كان يتكلّم همساً. وبقيت وحدي في الغرفة، هذه الغرفة ذاتها المفرطة في ارتفاع سقفها والتي سبق أن كنت شديد التعاسة فيها حينما وصلت أوّل مرّة، حيث فكرت بحنان شديد بالأسّة «دوستيرماريا»، وترقّبت مرور «ألبيرتين» وصديقاتها وكأنما لطيور مهاجرة توقّفت على الشاطئ، حيث امتلكتها بذاك القدر من اللامبالاة حينما بعثت عامل المصعد ليجيئني بها، حيث عرفت طيبة جدتي ثم علمت أنّها ماتت. وهذه المصارع التي كان ضوء الصباح يتساقط على حضبيضا قد فتحتها أوّل مرّة لأشاهد سفوح مرتفعات البحر الأولى (هذه المصارع التي كانت «ألبيرتين» تدعوني إلى إغلاقها كي لا يصبرونا في عناق). لقد كنت أعني وعياً أفضل تحولاتي الذاتية وذلك بمواجهتها بتمائل الأشياء. على أنّنا نتموّدتها كما نتموّد الأشخاص، وحينما نتذكّر فجأة الدلالة المختلفة التي كانت لها ثم، بعدما فقدت آية دلالة، الأحداث المختلفة تمام الاختلاف عن أحداث اليوم التي كانت إطاراً لها، وتنوّع الأفعال التي جرت تحت ذات السقف ومابين ذات المكتبات المرجّجة فإن التغير داخل القلب والحياة الذي يقتضيه ذلك التنوّع إنّما يبدو وكأنّه بعد يتزايد جرّاء استمرار الاطار الذي لا يتغير فيما تعزّزه وحدة المكان. وقد خطر لي مرّتين أو ثلاثاً على مدى لحظة أن العالم الذي كانت فيه تلك الغرفة وتلك المكتبات والذي كانت فيه «ألبيرتين» شيئاً زهيداً جداً ربّما كان عالماً فكرياً هو الواقع الوحيد، وأنّ غمّي شيء من قبيل الذي توليه قراءة رواية والذي يستطيع مجنون فقط أن يجعل منه غمّاً مستمراً دائماً يمدّ جذوراً له في حياته، وأنّه ربّما كفّت حركة بسيطة تقوم بها إرادتي لبلوغ هذا العالم الحقيقي والدخول إليه يتجاوز عذابي كدولاب ورق تثقبه والاقلاع عن الاهتمام بما سبق أن فعلته «ألبيرتين» أكثر ممّا نهتمّ بالأعمال التي قامت بها البطلة الخيالية لإحدى الروايات بعدما نكون أنهيّا قراءتها. وإنّ العشيقات اللواتي أحببتهنّ أكثر ما أحببت لم يطابقن في يوم على أيّ حال حيي لهنّ. وكان ذاك الحبّ حقيقياً بما أنّي كنت أنيط كلّ شيء بلقائهنّ والاحتفاظ بهنّ لي وحدي، وبما أنّي كنت أجهد في البكاء إن كنت انتظرتهنّ ذات مساء. ولكنهنّ كن يمتلكن خاصيّة إيقاظ ذاك الحبّ والمضيّ به إلى الذرّة أكثر ممّا كنّ صورته. فحينما كنت أبصرهن، حينما كنت أسمعهنّ لم أكن أجدّ فيهنّ شيئاً يشبه حيي ويمكن أن يفسّره. ومع ذلك كانت مسرّتي الوحيدة في لقائهنّ وقلقي الوحيد في انتظارهنّ. لكأنّما أضافت الطبيعة إليهنّ منزة ثانوية لاصلة لها بهنّ إطلاقاً وأن لهذه الميزة، لهذه القدرة شبه الكهربائية تأثيراً عليّ في إثارة حيي، يعني في توجيه أعمالها جميعها وفي التسبّب بالأمي كلّها. ولكنّ جمال هاتيك النساء أو ذكاءهن أو طيبتهنّ كانت كلّها مختلفة تمام الاختلاف عن ذلك. لقد هزّنتني صنوف عشقي كأنّما جرّاء تيار كهربائي يحركك، وقد عشتها

وأحسست بها: ولم أستطع قط أن أفلح في رؤيتها أو تصوّرها في فكري. بل تراني أميل إلى الاعتقاد بأننا في صنوف العشق هذه، (وَأَدْعُ جَانِباً اللذة الجسدية التي ترافقها عادة من جانب آخر ولكنها لا تكفي لتشكيلها)، أنما نتجّه خلف مظهر المرأة إلى تلك القوى اللامرئية التي تنضاف إليها وترافقها وكأنما إلى آلهة خفية. فهي التي يبدو عطفها ضرورياً لنا، وأنما نبحت عن الاتصال بها دون أن نجد فيه متعة إيجابية. فالمرأة إنما تصلنا في أثناء الموعد المضروب بتلك الآلهات وتكاد لا تفعل أكثر من ذلك. لقد وعدنا، وكأنما تلك تقادّم، بمجوهرات ورحلات، وتلفظنا بعبارات تعني أننا نعشق حتى العبادة، وعبارات تناقضها وتعني أننا لانبالي. لقد استخدمنا كامل سلطاننا للحصول على موعد جديد على أن يمنح دونما ضيق. أفلعلنا نتحمّل هذا القدر من المشقة من أجل المرأة ذاتها لو لم تكن مستكملة بتلك القوى الخفية، في حين لا يسعنا أن نقول بعدما تكون ذهبت آية نياح كانت ترتدي وتنبئ أننا لم ننظر حتى إليها؟

لكم الرؤية حاسة مضللة! فإن جسداً إنسانياً، وإن يك معشوقاً شأن جسد «ألبيرتين»، إنما يبدو لنا، على بضعة أمتار، على بضعة ساتيمترات، بعيداً عنا. وكذلك حال النفس التي له. ولكن إن يتفق أن يغيّر أمر ما على نحو عفيف موقع هذه النفس بالنسبة إلينا وييدي لنا أنها تحب أشخاصاً آخرين غيرنا، فإننا نشعر آنذاك من خفقات فؤادنا المخلع أن المخلوق الحبيب كان لا على بضع خطوات منا بل في داخلنا. في داخلنا، في مناطق سطحية بعض الشيء. ولكن هذه الكلمات: «تلك الصديقة إنما هي الآنسة «فانتوي» كانت عبارة «افتح ياسمسم» التي لعلني كنت عاجزاً عن أن أجدها بنفسي والتي أدخلت «ألبيرتين» في أعماق فؤادي الممزق. أما الباب الذي أغلق دونها فلعلني كنت بحث مئة عام دون أن أعرف كيف يمكن فتحه.

وكنّت كففت عن سماع تلك الكلمات حيناً في أثناء ماكانت «ألبيرتين» بالقرب منّي منذ قليل. كدت اعتقد، وأنا أقبلها مثلما كنت أقبل أمي في «كومبريه» لتهدئة قلق نفسي، ببراءة «ألبيرتين» أو أنني ماكنّت أفكر تفكيراً متصلاً بالاكتشاف الذي سبق أن قمت به لفجورها. أما الآن وقد أصبحت وحدي فقد كانت الكلمات تدوي مجدداً كمثّل تلك الأصوات الداخلية في الأذن التي تسمعها ما إن يكف أحدهم عن التحدّث إليك. ولم يكن فجورها الآن موضع شكّ بالنسبة إليّ. وجعلني نور الشمس الذي قارب أن يطلع، جعلني أعني مجدداً، بتغيير الأشياء من حولي، وكأنما يغيّر مقدار لحظة مكاني بالنسبة إليها، وعياً أكثر قسوة بعد لعذابي، ولم أكن رأيت في يوم بداية صباح بهذا الجمال ولا بهذا القدر من العذاب. ولم أستطع، وأنا أفكر بسائر المناظر التي لاثّير الاهتمام والتي يوشك أن يغمرها الضياء، ولعلها ماكانت ملأنتني الباردة بعد إلا رغبة في زيارتها، لم أستطع أن أحبس زفرة حينما أقبلت بيضة الشمس الذهبية، في حركة مقدمة أُنجزت آلياً وبدت لي كأنها ترمز إلى الذبيحة الدامية التي أزمع أن أضحيّ فيها بكل مسرة، وذلك كلّ صباح وحتى آخر أيامي، في احتفال متجدّد يقام في كلّ فجر لحزني اليومي وجرحي النازف، وكأنما قذفها تحطّم التوازن الذي قد يسببه أن التخرّس يدلّ في الكثافة، تحوطها أسلاك شائكة من اللهب على نحو ما في اللوحات، فشقت بوثبة واحدة الستارة التي كنت تحسّها منذ حين خلفها راعشة متأهبة لو لوج المسرح والانطلاق، وطمست تحت أفياض من النور أرجوانها الغامض المتحرّج. وسمعتني أبكي. إلا أن الباب انفتح في تلك اللحظة خلافاً لأي توقّع وبد لي، والقلب منّي خافق، أنني أبصر جدتي أما مي وكأنما في واحد من تلك الظهورات التي سبق أن

وقعت لي، إنما في أثناء النوم فقط، أفما كان كل ذلك إذا إلا محض حلم؟ لكني، وأسفي، مستيقظ تماماً. وقالت أمي - فإنها كانت هي - : «تري أنني أشبه جدتك المسكينة»، قالت بلهجة وادعة كما لو تهدي من روعي، وهي تقرّ بذلك الشبه على أية حال بابتسامة جميلة تتمّ عن اعتزاز متواضع لم يعرف الغنج طريقاً إليه البتة. وإن شعرها المشعث الذي لم تخفي فيه الخصل المتشعبة تنساب حول عينيها القلقتين ووجنتيها اللزائتين، ومبذل جدتي نفسه الذي كانت ترتديه، إن ذلك كله حال على مدى ثانية دون أن أتعرفها وجعلني أحرار إن كنت نائماً أو كانت جدتي قد بعثت حياة. كانت والدتي منذ فترة طويلة أكثر شبهاً بجدتي منها بالأمر الفتية الضحوك التي أنست طفولتي. ولكني مافكرت من بعد بالأمر. وإنها لحالنا حينما ظللنا نقرأ فترة طويلة وما تبيّنا في سهونا أن الوقت يمضي، وفجأة نرى الشمس من حولنا، وهي مدفوعة حتماً إلى المرور بالأطوار نفسها، تذكر حتى ليختلط عليك الأمر، بالشمس التي كانت البارحة في الساعة نفسها وتوقف من حولها التناغمات نفسها وذات التوافقات التي تُعدّ للغيب. وقد بينت لي والدتي توهمي وهي تبسم إذ كان يلذ لها أن تكون على مثل هذا الشبه بأمها. وقالت لي والدتي: «لقد جئت لأنه خيل لي في نومي أنني أسمع أحدهم يبكي» وقد أيقظني ذلك. ولكن كيف يتفق أنك لم تنم؟ وعيناك تملؤهما الدموع، فما الخبر؟ وأخذت رأسها بين ذراعي: «دونك يأمي، أخشى أن تظني أنني شديد التقلب. فاني بادئ الأمر لم يكن حديثي البارحة إليك عن «ألبيرتين» لطيفاً جداً، فما قلته لك كان ظالماً». وقالت لي أمي: «ولكن أية أهمية لذلك؟» وإذ رأت الشمس طالعة ابتسمت ابتسامة حزينة وهي تفكر بأمها، وكى لاتفوتني لبرة مشهد كانت جدتي تأسف أن لا تأمله قطّ دلّني على النافذة. ولكني كنت أبصر خلف شاطئ «بالبيك» والبحر وطلوع الشمس التي تدلّني عليها أمي، وبحركات بائسة ما كانت تفوتها، غرفة «موجوفان» حيث اتخذت «ألبيرتين»، مودة متكوّرة كقطعة سميكة نائرة الأنف، مكان صديقة الأنسة «فانتوي» وهي تقول بشفهات ضحكاتها الشهوانية: «ويحك! إن رأونا فسوف يطيب الأمر أكثر. لا تخالفني الجراءة، أنا في أبصق على هذا القرد العجوز؟» ذلك هو المشهد الذي كنت أراه خلف ذلك الذي يمتدّ في النافذة وما كان سوى حجاب حزين فوق الآخر يعلوه كأنما انعكاس له. فقد كان يبدو هو الآخر بالفعل غير حقيقي تقريباً وكأنما منظر مرسوم. لقد كان الحرج الصغير قبلتنا في تنوء جرف «بارفيل» وكنا لعبنا فيه لعبة «التمرير» (١)، كان يحني في خطّ مائل حتى البحر تحت بريق الماء الذي كله مذهب بعد لوحة خضرة أغصانه كما في الساعة التي كثيراً ما نهضنا فيها في آخر النهار، بعدما أكون مضيت إلى هناك لقليلولة مع «ألبيرتين»، ونحن نشهد الشمس تميل على الأفق. وفي فوضى ضباب الليل الذي لا يزال يتسحب مرقاً وردية وزرقاء على المياه التي تزدحم فيها بقايا من الفجر اللؤلؤي كانت تمرّ مراكب تبتسم للنور المائل الذي يذهب شراها وطرف الصاري الأمامي كحالتها حينما تعود في المساء: والمشهد خيالي راجف مقفر ومحض استذكار للغروب لا يرتكز، شأنه في المساء، على تعاقب ساعات النهار التي تعودت أن أراها تسبقه، وهو سائب مدسوس وأقلّ تماسكاً من صورة «موجوفان» المربعة التي ما كان يقوى على إلغائها أو تغطيتها أو اخفائها - والصورة الشاعرية العقيمة للذكرى والحلم. وقالت لي أمي: «ولكنك لم تتناولها،

(١) لعبة يجلس فيها اللاعبون في دائرة يمرّون حاجة من يد إلى يد وعلى من يجلس في وسط الدائرة أن يحرر إلى من صارت.



ويحك، بسوء، فقد قلت لي إنها تبعث لديك بعض الضيق وأنتك مسرور لتخليك عن فكرة تزوجها. وما ذلك سبب للبقاء على نحو مات فعل. فكّر أن أمك ذاهبة اليوم وسوف يغمها أن تفارق «ذبيها» الكبير وحاله هذه، ولا سيما أنه لا يتسع لي الوقت، يا صغيري المسكين، لأواسيك. صحيح أن حاجاتي جهزت كلها لكننا لا يكتر عليك الوقت في يوم سفر. - ليس الأمر هذا. حيث قلت لأمي، وأنا أفكر ملياً في المستقبل وأزن تماماً مرّامي وأدرك أنه ما كان لمثل وداد «ألبيرتين» هذا لصديقة الأنسة «فانتوي» وعلى مدى كلّ هذه الفترة أن يكون بريئاً وأن «ألبيرتين» سبق أن دربت وأنها بمقدار ماتكشف عنه حركاتها جميعاً قد ولدت وبها استعداد للشذوذ الذي ما أكثر ما استشعرته عبر صنوف قلقي، ولا بدّ أنها لم تكفّ عن الانصراف إليه في يوم (بل ربّما كانت تنصرف إليه في هذا الوقت مستغلة فترة قصيرة ما كنت معها في أثنائها)، قلت لها وأنا أعلم الغمّ الذي أنحلفه في نفسها والذي لم تكشف لي عنه ولكننا يفضحه لديها مظهر الاهتمام الجدي الذي تبديه حينما تقارن خطورة أن تغمّي أو تلحق بي الأذى، ذاك المظهر الذي اتخذته أوّل مرّة في «كومبريه» حينما سلّمت بقضاء الليلة بالقرب منّي، المظهر الذي كان يشبه في هذه اللحظة إلى حدّ مذهب مظهر جدّتي إذ تسمح لي بتناول الكونياك، قلت لأمي: «أعلم ما سأسببه لك من غمّ. بادئ الأمر، وبدلاً من البقاء هنا كما كنت تبغين، سوف أرحل في ذات الوقت الذي ترحلين فيه. ولكن ليس في الأمر شيء بعد. ليست أحوالي على مايرام هنا وأفضل العودة. ولكن هيّا أصغي إليّ ولا تفتني كثيراً. هاك: لقد خدعت وخذعتك البارحة عن حسن نية، لقد فكّرت طوال الليل. لا بدّ لي حتماً، ولنقرّر ذلك في الحال، لأنني أتبين الأمر تماماً الآن ولأنني لن أبذل من بعد ولن أطيق العيش دون ذلك، لا بدّ لي حتماً في أن أتزوج «ألبيرتين». »

---

## المحتويات

٧	.....	الجزء الأول
٢٧	.....	الفصل الأول
١٢٣	.....	الفصل الثاني
٢٥١	.....	الفصل الثالث
٣٣٧	.....	الفصل الرابع









## عيون الأدب الأجنبي

صدر منها

### ♦ عبدة الصفر

الان نادو

ترجمة : البستاني والبطراوي

### ♦ مدام بوقاري

جوستاف فلووير

ترجمة : محمد مندور

### ♦ الكلمات

جان بول سارتر

ترجمة : خليل صابات

### ♦ الأحمر والأسود

ستاندال

ترجمة : عبد الحميد الدواخي

### ♦ المكان

أني إرنو

ترجمة : أمينة رشيد

وسيد البحراوي

### ♦ الآثار الشعرية الكاملة

إديت سودرجران

ترجمة : محمد عفيفي مطر

ومحمد عيد إبراهيم

### ♦ جاز

توني موريسون

ترجمة : محمد عيد إبراهيم



دار شرقيات للنشر والتوزيع



